ABDUL-HAMID AL-MAHADIN

كتاب البحرين الثقافية

سيرة

AUTOBIOGRAPHY

26

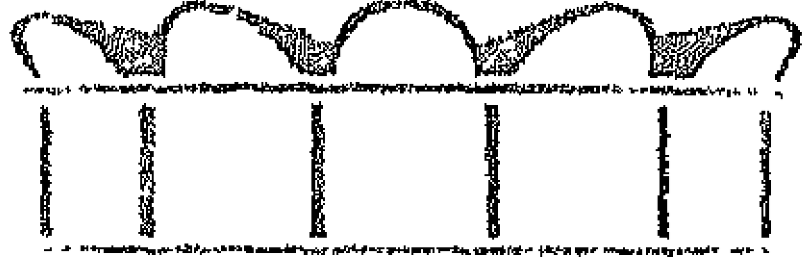
الدكتور عبد الحميد المحادين

من الكرك إلى المحرّق

مؤاب - ديلمون







من الكرك إلى المحترف

مؤاب - ديلمون

من الكرك إلى المحرّق (مؤاب - دلمون) / سيرة
د. عبد الحميد المحادين / مؤلّف من البحرين
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب :11-5460 ، هاتفاكس : 751438 / 752308 1 00961



التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامّة : د. ع. 7953 / 2009
رقم الناشر الدولي ISBN:978-99958-0-084-5

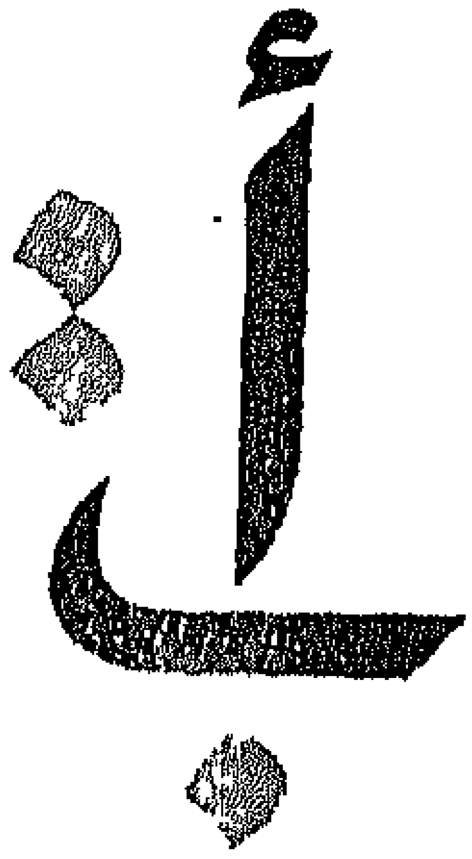
البحرين
كتاب البحرين الثقافية

26

الدكتور عبد الحميد المحادين

من الكرك إلى المحرّق

مؤاب - ديلمون



كلنا نقرأ
WE ALL READ



مملكة البحرين
وزارة الثقافة والإعلام
الثقافة والتراث الوطني



الإهداء

إلى أبنائي
إنهم إتخذوا من منفى أبيهم . . . وطناً لهم

المقدمة

لا شيء أحب إلى الإنسان ، بعد أن يقطع الشوط كله أو جله ، من أن يتلفت إلى هذا الشوط وينظر فيه إلى ما كان وما لم يكن ، وهي رحلة لا أزعم أنها مخملية ، بل إن يقيني يذهب إلى أنها رحلة ملأى بالآلام والأوجاع والعظ على الحصى بالأسنان ، والسير على دروب الشوك ، رحلة مليئة بالخيبات ، ومليئة بالآمال التي كانت دائماً قيد التأجيل ، مع المكر بالزمن ، والمكر بالحياة .

وأخيراً جاءت لحظة الحقيقة الآن ، وهذا الشوط إن لم يكن قد اكتمل ، فهو على وشك . تساءلت مع نفسي ، هل أترك هذه الرحلة حيث هي؟ تبقى أو تزول ، تحضر أو تغيب ، تتأكد أو تختفي ، وينقضي كل شيء بإنقضاء المشوار . هل هناك ما يجب أن أسجله؟ وهل هناك من سيهتم بما أكتب وأسجل؟ وأذكر أو أنسى ، لا أدري . لعل ما أكتبه لا يعني أحداً سواي ، وإنني إذ أتذكر ما أتذكر فإنما أعاود إنتاج لحظات مرت في حياتي متقطعة ، فأظهرها متتابعة ، لكنها تركت بثوراً وندوباً وجراحاً ، وأسالت ربما دماءً من هذه الرحلة ، حتى كانت الشوكة تنغرز في الشوكة .

لقد مر ما مر ، وها أنا قد وصلت إلى هنا والآن ، أقف وأقول : «وعند الصباح يحمد القوم السرى» ، وها هو الصباح أو المساء لا أدري ، وسأحمد العتمة والغبشية والضياء وما اكتنف هذه الرحلة الشاقة .

لم أكن أنوي ان أكتب هذا الذي كتبت ، ولكنني وجدت أن كثيرين ممن تقاطعت معهم قد أحسنوا الظن بي وكانوا يرون ويتمنون لو أكتب هذه الرحلة ،

إعتقاداً منهم أن تجربتي تنطوي على ما يفيد أو يصلح الاستشهاد به أو الإتكاء عليه . ولقد كان صديقي محمد البنكي أكثر هؤلاء إلحاحاً علي أن أسجل هذه الرحلة التي يراها هو جديرة بذلك ، وكنت أحاوره وأحاول أن أثبت له بكل الحب ، أن لا فائدة ترجى من هذا التدوين ، سيما وأنني ما عدت مولعاً ونشطاً للكتابة كما كنت في أيام مضت ، فقال لي لا تكتب أنت ، أنا أدبر لك الأمر ، وكان محمد إذ ذاك رئيس تحرير جريدة الوطن ، فاقترح أن يكون هناك لقاءات معي يقوم بها محررون من هذه الجريدة ، وبدأ محمد البنكي هذه الحوارات بنفسه ، وشاركته الصحفية رندة فاروق ، وبدأت رحلة الذكريات ، وتفتحت على الطريق أمور كثيرة ، وتداعت أشياء كنت أظنني نسيتها ، ووجدتني أتذكر وأتذكر ، بل حاصرتني التذكرات حتى صرت أنتقي منها لأثبت ما أثبت وأستبعد ما أستبعد ، وقد كنت أعمد إلى الحذف والإضافة حتى تكون هذه الذكريات مرتبطة في سياق زماني متتابع ، ويتخللها بنية واحدة تيسر الإفضاء من موقع إلى موقع . وبدأت جلسات الحوار تتتابع أسبوعياً ، واستمرت عاماً كاملاً ، حتى صار عددها خمسين لقاء ، وهي ما نشرته جريدة الوطن في كل يوم أربعاء طيلة هذه المدة .

كانت هذه الذكريات على هيئة حوارات تديرها الصحفية رندة فاروق ، وتتداخل فيها ، وتروي عني ، وتصغي إلي ، وتعيد رواية ما تسمع أحياناً ، فكانت تتطابق مع تقنية الراوي العليم بكل شيء ، وصارت هذه السردية تنمو حتى اكتملت ، ولقد شعرت أن نشرها في الصحافة بشكل أسبوعي أفقدها شيئاً من وحدتها ، وأن تقنية الراوي العليم بكل شيء غيبتني في مواقع كثيرة ، وحال الراوي العليم بيني وبين ملامسة القراء مباشرة ، وهذا يتطلبه كون السردية في صحافة يومية ، أما وها أنا أعيد إنتاجها في كتاب فلا بد من تغيير بنية السرد ، وأخرجتها من ذاكرة الراوي العليم بكل شيء ، إلى تقنية الراوي بتاء المتكلم . وكيفت الحلقات بحيث تستجيب إلى هذه التقنية في موقع

الراوي . وإنني لابد أن أشيد بدور محمد البنكي ورندة فاروق ، وهما اللذان حفزاني على الكتابة ، وبثا في النشاط والهمة كي أواصل هذه الرحلة الطويلة ، فقد أدخلت سبعين عاماً في كتاب يكون فيه كل عام أو حواليه في فصل من الفصول .

وهنا أكرر الشكر للأخت رندة فاروق ، على جهدها المتواصل وأقدر لها دأبها ومواصلتها وأعترف أنني لولا تلك الحيوية التي لمستها منها في نشر هذه الحلقات ، فربما اكون قد تخاذلت وفترت .

أنا الآن إستحضرت من الذاكرة غالباً هذه التفاصيل الصغيرة في هذه الرحلة الطويلة ، ولعلي أكون قد قلت ما يستحق أن يقرأ ، وإلا فحسبي أنني تذكرت شيئاً من حياتي هو بالتأكيد مرتبط بحياة آخرين كثيرين ، عرجت في طريقي على بعضهم ، ونسيت بعضهم ، وإنني أتطلع إلى أن يعذرني من لم أستحضره في هذه السردية الذاتية ، وأما الذين إستحضرتهم فإنني كتبتهم كما أتذكرهم ، ولا أدري إن كنت عادلاً دائماً فيما كتبت ، ولكن عذري هو أنني حسن النية فيما ذكرت وحسن النية فيما نسيت .

والآن هذه رحلة طولها سبعون عاماً كاملة ، الرابط الوحيد بين كل احداثها هو أنا ، وقيمة كل أحداثها هو ما تركته من آثار في حياتي ، فالجراح والأشواك والزهور ولحظات النجاح ولحظات الإخفاق هي أنا في نهاية المطاف .

عبد الحميد المحادين

(١)

من «مؤاب» إلى «البحرين»..
من «الكرك» إلى «المحرق»

❖ والدي يذكرني بأوديب - الراعي اليوناني الأسطورة
❖ كنت الثاني في الأبناء.. وصرت فجأة الأول!
❖ تعلمت في وقت مبكر.. أن الموت «بارد»
❖ ما علاقة موسى عليه السلام بمجيء كلينتون إلى وادي عربه؟!
❖ تقع قريتنا على كتف «الوادي المقدس طُوى»
❖ «عزرا» اسم يفتح شهية التاريخ «موسى».. «شعيب».. «مدْين»

شاب حديث التجربة . . أتى من «مؤاب» عبر رحلة شاقة من البؤس والشقاء والمعاناة ، تخللتها لحظات من السعادة واللهو الطفولي اللذيذ . . ليحط رحاله في المحرق (أرض الخلود) . . فامتزج في مجتمعها ، وتأثر بجدران بيوتها القديمة ، وتغلغل في أعماق أعماق ذاكرتها ليصبح «محرقيا» حتى النخاع . . قد نشأ وعاش ، بل وولد في المحرق بوجدانه وروحه ، في حين كان الجسد يتشكل وينمو ويتقولب في مؤاب . . الكرك . . عزرا . . وكأن المكان في حياته ذا مفهوم مختلف تتوارى خلفه حقائق ومسلمات خرجت عن إطار المنطق والمعقول . . وما بين مؤاب والمحرق الكثير من أوجه التشابه مثلما بينهما الأكثر من وجوه الاختلاف . . لكن الشاب كان من القلائل الذين كسروا القواعد وحطموا

المقاييس بمفاهيم فلسفية لا يمكن أن توصف إلا بالروعة والتفرد . .

سيرة ذاتية ملأى بالقصص والحكايا والذكريات ، تخرج منها ومعها بالمتعة والتأريخ وأيضا التسجيل لشخصيات أثرت في حياة البحرين ، تقاطع الشاب معها عبر تاريخه الطويل الذي يتجاوز من السنوات الخمسين ، عاشها وكله عشق للمكان الذي وضع فيه رحاله ، وكله تصميم على أن يذوب في المجتمع ويمتزج بالناس بل ويصبح متبلا بترابهم وعرقهم وتراثهم فيصبح منهم وفيهم . . أحبهم فاحبوه . . صادقهم فصادقوه . . علمهم وتعلم منهم . . بحث في تاريخهم فزاد اقترابا وازدادوا منه قربا .

قال عنه احدهم « الدكتور عبد الحميد المحادين شخصية عميقة في ثراء خبرتها المعرفية ، تجعل مهمة من يشرع في القيام بمهمة متابعة مذكراته وسبر أغوار ذكرياته من أصعب المهام التي يقوم بها ، فهو أستاذ اللغة العربية الذي تتلمذ على يديه عدد هائل من شباب البحرين في مدرسة الهداية الخليفية ، وهو من علم أناساً وصلوا الآن إلى مناصب عليا في الدولة . . هو الصحافي الذي أعد الصفحات في الصحف والمجلات المختلفة . . المحاور الذي أجرى العديد من المقابلات الصحافية والحوارات التسجيلية مع شخصيات لها ثقلها في المجتمع البحريني . . هو من أرخ لتاريخ التعليم في البحرين . . هو من ألف (الخروج من العتمة) و(من ذاكرة البحرين) . . هو الأستاذ الجامعي الذي ظل مثابراً ساعياً وراء هدفه في أن يلحق برفاقه ويصبح في نفس مستواهم من الأستاذية بالجامعة ، وانتقل من خانة التدريس الثانوي إلى خانة التدريس الجامعي . . هو من حرم الحب على نفسه حتى يحقق هدفه في الحياة وفي أن تتوسع مساحاته المعرفية التي كلما اجتاز في طريقه إليها ذراعا ظل غير قانع إلى أن بلغ مبتغاه فخرج من عتمته الخاصة وإن طال به الأمد والزمان . .»

«ومن أعجب الأعمق في حياتي هو ما أسترجعه من أيام الطفولة» . .

الأشياء أن الإنسان يراكم الذكريات ، دون أن يبحث لها عن تفسير حال وقوعها ، لكن حينما يمتد به العمر ، ويعاود النظر إلى الخلف متذكرا تلك المفردات الصغيرة ، يجد أن لا شيء منها كان صدفة ، بل إن كلاً منها كان في موضعه الطبيعي من سيرورة الإنسان الحياتية ، حينها يبدأ التفسير والربط ، فتصبح تلك اللحظات القليلة نسبيا ، عمرا ممتدا وأحداثا طويلة يقف الإنسان أمامها حائرا ليلملم أطرافها .

الزمان ١٩٣٩

المكان قرية (عزرا) من محافظة الكَرَك ، عاصمة إقليم مؤاب في جنوب الأردن . .

مدينة الكرك المحفورة تفاصيلها في أعماق الذاكرة : «مدينة مسورة بقلاع توحي بتاريخها ، بها قلعة تعود إلى القرن العاشر الميلادي ، وفيها سلسلة من الأبراج توحي مسمياتها بمن كانوا فيها . . برج الظاهر بيبرس . . وبقايا من صلاح الدين الأيوبي حين حاصرها بعدما حبس حاكمها اخت صلاح الدين مع الحجاج . . بها أيضا آثار تعود إلى ما قبل التاريخ» .

«الكرك ، التي ظهرت في التاريخ القديم جداً ، واسمها مشتق من الكلمة الآرامية «كاركو» وتعنى القلعة ، وقد بناها الملك المؤابي «ميشع» ما بين ٨٦٠ - ٨٥٠ ق .م ، وتقع على تل مرتفع حصين ، وهي في جنوب الأردن ، وقد تسابق على السيطرة على هذه المنطقة شعوب العالم القديم ، فكانت بوتقة لحضارات محلية وأجنبية ، مصرية ، وآشورية ، وبابلية وفارسية وإغريقية ورومانية وعربية وإسلامية ، والآثار تدل على ذلك ، وهي البلاد الوحيدة خارج جزيرة العرب التي وطئتها أقدام النبي محمد ﷺ في طريقه إلى بصرى ، عندما صحبه عمه ابوطالب مشتغلاً لحساب السيدة خديجة . . وقد احتل الرومان هذه المنطقة لأهميتها الإستراتيجية ، وخاض الفرس صراعاً مع الروم للسيطرة عليها ، وهي منطقة من أخطر مناطق الشرق الأدنى .

تحيط الأودية بقلعة الكرك ، من ثلاث جهات ويحيط بالمدينة سور منيع ، ومن شرفات أبراجها الشاهقة يمكن رؤية البحر الميت وجبال القدس .

لعبت الكرك دوراً هاماً في أخريات العصر الفاطمي ، وكذلك إبان الحروب الصليبية والدولة الأيوبية .

ولما ولي أمر الكرك «ارناط» الصليبي سعى صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وحاصرها المسلمون بعد معركة حطين ، وتم ذلك س ١١٨٨م . وكانت الكرك موضع صراع أمراء الأيوبيين فيما بعد . ثم استولى بيبرس على الكرك عام ١٢٦٣ ميلادي .

اشتهرت الكرك أيام المماليك بنهضتها العلمية .

قال القاضي الفاضل في بعض ما كتبه عن الكرك :

«وأما الكرك فكانت المنجنيقات عليها متضافره ، وحجارتها على من فيها حاجرة ، وكل جوانبها وعرة المرتقى ، صعبة المحتظى» .

هذه المنطقة التي ولدت فيها تقع في غرب الصحراء الأردنية ، تطل على البحر الميت من الشرق . . سلسلة جبال ترتفع ١٠٠٠ متر عن سطح البحر ، والبحر الميت ينخفض ٤٠٠ متر عن سطح البحر ، تشرف عليها من الشرق بيوتنا ، التي بنيت على آثار مدن شديدة العراقة . . لا نعرف تاريخيا متى بنيت ، جدرانها ضخمة ، نسميها الجدران الرومانية ، وبالتالي فأقل هذا التاريخ شأنا هو الشأن الذي نحن فيه .

موسى عليه السلام خرج من مصر عن طريق سيناء ودخل جنوب الأردن ، ثم إلى الشمال مارا بالمنطقة التي أتحدث عنها ، منطقة الكرك ، وبها أماكن ذكرت في القرآن (الوادي المقدس طوى) ، وعندها بئر مدين الذي جاء موسى وسقى لبنات شعيب منه . . كما مر ذكر البحر الميت في العهد القديم . . هذه بعض معالم الكرك ولأمر ما أصر زعماء إسرائيل على توقيع معاهدة الصلح مع الأردن في موقع محدد من وادي عربة ، واضطروا كلينتون رئيس الولايات

المتحدة إلى الذهاب هناك رغم أن الرمل قد غطى وجهه مع وجوه الحاضرين .

يمكننا أن نقول أن الكرك بها حضارة عريقة وعدد سكانها كان ٥ ملايين وبها من العلماء العشرات ، بل المئات ، وبها مدارس تكاد تكون جامعات ذاك الزمان ، كل ذلك ذهب واندثر ، ولم يبق منه إلا هذه الأرض التي تعيش حياة شبه بدائية .

في مؤاب ، الكرك ، عزرا . . بدأت حياتي ، وهي كحياة أي طفل ابن أناس بسطاء ، فتحت عيني على أسرة تتكون من رجل وامرأة وطفل أكبر مني ، وصار هناك من هم أصغر مني لاحقا . . فتحت عيني على الحياة وأبي عمره أقل من ٢٥ سنة وأمي في أول العشرينات . . أتذكرها في ذاك الزمان امرأة ذات جمال بدوي . . بيضاء البشرة لها جدائل سوداء . . جمالها ليس خافيا . . وأبي رجل قوي البناء ، وعلمت عنه فيما بعد عندما كبرت وأصبحت أفهم الأشياء وأقرأ ، صار شكله يوحي لي بأوديب ، ذلك الراعي القوي في أساطير اليونان . . كان يجيد السباحة ، ويكاد يكون من القلائل الذين استطاعوا السباحة في البحر الميت بضعة كيلومترات . . كان أقصر مني الآن لكنه كان عريض المنكبين . .

في بيوت من الطين عشنا أنا وأبي وأمي وأخي الأكبر وأخ أصغر في غرفة واحدة ، وكان ترتيبي الثاني في الأسرة لكن سرعان ما أصبح الأول . . وهذا من الأشياء القليلة التي عايشتها وتركت أثرا في حياتي ، حيث كان أخي الأكبر في العاشرة وكنت في السادسة ، وانتشر مرض التهاب السحايا في البلد ، وكان الطب متخلفا وقتها ، إذ لم يكن هناك سوى مستشفى وحيد بناه الطليان في العام ١٩٢٤ والممرضات متطوعات إيطاليات ، وأطباء يقدمون خدمات بسيطة بأسعار رمزية . . راقبت معاناة والدي حزنا على أخي ، الذي رأيته ذات يوم محمولا على الأيدي ، وعرفت أنه مات ، حين لم أكن أعرف ما هو الموت . . عرفت أنه اختفى . . لكن ما أتذكره أن حدث الموت جمع الأقارب . . رأيتهم كثيرين وهم على وشك أن يأخذوه إلى المقبرة ، فتحت وجهه لأقبله ففوجئت

بأنه كلوح ثلج ، فاكتشفت عندها أن الموت بارد . . شعرت وقتها بالفقد ، وشعرت وقتها أنني قادر على كتابة الشعر . . حيث عبرت عن حزني الطفولي بشيء يشبه الشعر ، وصرت أنا الأكبر!

في حادثة ثانية . . أذكر أننا كفلاحين كنا نصفّي الحبوب في البيدر ، وطلب مني أبي أن أذهب إلى البئر لأجلب المياه التي تتجمع من مياه المطر ، وذهبت أختي الصغرى ذات العامين ومشت معنا ، وأنزلت الدلو في البئر وحين كنت أسحبه أطلت أختي الصغرى «عزيزة» في البئر وسقطت ، فوجدت نفسي بلا حيلة سوى الصراخ وأنا أجهل السباحة ، فإذا بأبي يأتي ركضا من بعد ٢٠٠ متر تقريبا وقفز في البئر وأنقذها من غرق محقق . . وجدت فيه الجسارة والقوة والحنان الأبوي في هذه الحادثة ، هذه الأخت (عزيزة) كبرت وتزوجت وأنجبت ثلاث بنات وولدين .

نتقافز كنا . . ونركض ونمرح . . في هذه الأرض الجرداء . . إلا من أكوام القش . . وكان الوقت صيفاً . . والبيادر . . محملة بالغلال . .و كان الكبار يشتغلون بجد . . والعرق يتقطر من وجوههم . . ونحن الأطفال . . نعبث ونركض . . ونصرخ . .

اذهب وهات لنا ماء . . قال أبي . . الفلاح وهو يقف إلى جانب كومة القش . . يقلبها حتى يتم استخلاص القمح منها . .

اعرف ان الماء في البئر المجاورة . . التي تبتعد عنا حوالي مائتي متر . . حملت الأدوات . . الضرورية لإخراج الماء من البئر في الدلو . . ثم صبه في ابريق . . وكنت آنذاك لم أبلغ العاشرة . . وتوجهت إلى البئر . . يحيط بي اخوتي الصغار . . وعند فم البئر وقفت . . وبدأت أنتشل الماء والصغار يطلون كالقطط من فوهة البئر . . وتلفت اتفقدهم . . ولارتباكي . . لم أدرك للوهلة الأولى من منهم الذي سقط في البئر . . ومن صراخ الصغار . . سرعان ماعرفت انها هي . . ليست غيرها . . البنت الوحيدة بيننا . . اصغرنا . . لم تبلغ السنوات

الثلاث . . بل لعلها لم تتجاوز السنتين جاءت معنا . . وبحب الإستطلاع . . نظرت إلى البئر وهوت . .

لم نفعل شيئاً سوى الصراخ . . ولم يكن غريباً أن نصرخ فقد كنا – نحن الأطفال – في شجار دائم . . لكن صراخنا علا . . وزاد ، مما دفع كل من حولنا إلى استطلاع الأمر . . ومن بينهم بطبيعة الحال كان والدي . . لست أدري كيف أدرك بحس الأب . . أن شيئاً غير عادي حدث واننا بحاجة إليه كما لم نكن في أي وقت آخر . . أقبل علينا . . راكضاً متلهفاً وبثوان كان وصل إلينا . . وأدرك بعين الأب . . من منا كان غائباً . . وأن كان لم يكن مهما عنده من هو الذي سقط في البئر . فالكل يعنيه بنفس الكيفية .

تطاير الماء من فم البئر . . مسافة ليست قليلة . . وغطى وجوهنا . . ويمسح الماء من عيوننا . . وكان الرجل ببنيته القوية قد اختفى في البئر . . حيث أخذ الماء يتلاطم أثر سقوطه فيه . . وما هي إلا لحظة حتى كان ممسكاً بالطفلة . . يضمها إلى صدرة . . أي والله . . إلى صدره عائماً فوق سطح الماء الغزير . . في بئر مظلم . . لا يصل إليه من الضياء إلا مايتسرب من فوهته . . وتسعل الطفلة – لتدفع ماعلق بأنفها من الماء . . فتأكد انها ماتزال متشبثة بالحياة .

مرت الدقائق . . وتراكض المتراكضون يحضرون الحبال . . وأدوات أخرى . . للمساعدة على إخراج الطفلة من هذا الجب العميق . . وحين تكاملت الأدوات . . وضعت الطفلة في خريطة وهي في شبه غيبوبة . . ترتجف خوفاً وبرداً . . وتم إنتشالها خارج البئر . . ليتسلق الرجل . . خارجاً بساقه النازفة دماً . . حيث اندست في صفيحة قديمة صدئة في قعر البئر . . حين غاص أول ما قفز في الماء . . لثقله . . إلى أبعد مسافة . . ثم عاد ليطفو . . متلفتاً إلى يمينه ويساره . . حيث عثر على الطفلة طافية في إحدى الجهات المظلمة من هذا البئر السحيق . . أصبحنا حشداً من الرجال والنساء والأطفال . . وعدنا بطريقنا وبهدوء مغادرين البئر اللعينة وبين يدي أحد الرجال الطفلة المبتلة بالماء – التي

بدأت تستعيد وعيها قليلاً قليلا . .

وفي منتصف الطريق بين البيدر والبئر . . كانت امرأة تحاول أن تسير في اتجاه البئر . . وبدأت رحلتها حين سمعت الصراخ . . لكن رجليها لم يسعفاها . . حيث انهارت . . من هول المفاجأة . . أحد أطفالها . . وزوجها كانا في البئر في وقت واحد . . وحين أبصرت الطفلة انتشلتها هي الأخرى يد خفية . . فنهضت واقفة . . وبنظرة مذهولة . . ألقت بنفسها على الطفلة وتناولتها وضمتها إلى صدرها . . بصمت . . ودموع .

عزرا قرية بسيطة ، بسيطة جداً ، كأنها أسقطت من منقار طائر على ظهر جبل يمتد بانحناء مقوس مقعر ، كأنه سرج حصان ، كل ما فيها بسيط ، البناء بالحجارة المطعمة بالطين ، كل بيت منغلق على ما فيه ومن فيه ، يجتمع خلف سوره الحجري العالي الناس والحيوانات . . على صعيد واحد . . الطقس شتوي بارد والثلوج لها مواسم لا تكاد تخطئها ، وللشتاء زمهرير ، يحاول الناس التدفئة بالأخشاب اليابسة التي يقطعونها في الصيف من غابات كثيفة ، في ذلك الوادي السحيق . . المنخفض ، كالهاوية . وفي الشتاء يمارس الناس الزراعة في أكثر أدواتها بدائية ، إنها استعمال الدواب في الحرث وتنقية الأرض وقلبها ، ثم البذر من الحبوب باليد . . ثم تقلب ثانية . . وتحت المطر ، والثلج . . إلى أن يحين الربيع وتتفتح كل النباتات التي كانت كامنة . . وتظهر الزروع . . وتصبح الأرض خضراء . . هذا إذا واتاها مطر غزير ، لكن إذا شحت الأمطار ، وكثيراً ما كانت تشح بدون سبب معروف فإن الصفرة تصبح في الربيع علامة اليباس . . والقحط . . والبؤس الشديد . .

قرية بسيطة . . تقع في قلب آثار قديمة . . ربما كانت من قبل الميلاد . . وربما كانت في سالف الزمان مدينة حية مليئة بالسكان والحياة . . ربما . . لأن الآن ليس هناك سوى الجدران الرومانية -هكذا نسميها- والآثار والكهوف والحفر المدورة ، والقاعات القديمة . . والآبار . . وكل مفردات المدينة العريقة . . هي في

هذه القرية . . التي بنيت على أنقاضها . . وتحمل أسماً يوحي بأنها ذات يوم كانت للآراميين أو للعبرانيين . .

هي قرية «عزرا» وللتسمية دلالة تاريخية أكيدة . . على ظهر جبل مرتفع تقع عزرا . . وتحت بيوتها الطينية تكمن آثار بعيدة بعيدة . . توحي بتاريخ بعيد جداً . . إننا في مؤاب ، ومؤاب . لها سمات خاصة .

إن الحياة تلك تعلم أن السمات الفردية هي الأساسية في مواجهه الحياة . . وليست التكتلات الجماعية . .

الليالي الشتوية ونحن أطفال . . ورجال القرية يجتمعون حول النار . .

يشربون الشاي . . ويروى أحدهم القصص البدوية والقصائد ، والحكايات الممتلئة بالكرم والشجاعة والتضحية والمواجهات ، والصراعات . . من هنا يستمد الناس قوتهم في مواجهة الحر ، ومواجهة البرد والثلج والفقر ، والحياة الشظفة . .

لا يزال صوت ذلك الشيخ المهيب وهو يروي الحكايات .

إن ساءلك عني من الحي حساد

قل له شديد الحيل عالمعنقية

وإن ساءلك عني من الحي وداد

قل له كفاك الشر حاله ردية

إنه حسن الكركي – ولم أكن أدري حينها أن حفيدته ستكون زوجتي وأم أولادي .

تعلمت من المكان . . معنى الأبوة وسيطرة الرجل على الحياة ، وحماية الأسرة . . تعلمت من المكان لغة الظلام . . وأنا حتى الآن من أكثر الناس صداقة للظلام . . وحتى الآن!

حين فتحت عيني على الحياة ، وبدأت أدرك شيئاً من التفاصيل التي تدور حولي ، ومن هم الذين أراهم دائماً . . إنها أسرتي . . ولم أكن أعي مفهوم الأسرة آنذاك ، لكن كنت أعيش مع رجل وامرأة وطفلين أحدهما يكبرني ،

والآخر يصغرني . . كان محمود أخي الذي ولد قبلي بثلاث سنوات ، كثير الحركة ، محبوباً ، تبدو عليه خيلاء الذكاء فيما كانوا يرددون ويقولون . . وكنت أنا وهو دائمي العراك ، رغم أنه أكبر مني . . وكان الوالد يهب دائماً للفصل بيننا ، وتوبيخنا . . وفتحت عيني على هذا الوالد أول ما فتحتها . . كان رجلاً شاباً لا يخلو من وسامة قوي البنية ، إلى الحد الذي كان يضرب بقوته البدنية المثل في القرية . . بل ويتجنبه الآخرون ، ولا يميلون لاختلاق مشكلات معه تجنباً للعراك . . كانوا يعرفونه تماماً . . كان يجيد السباحة بشكل استثنائي . . وأين تعلم هذه السباحة ، علمت فيما بعد أنه كان في قرية أخرى غير قريتنا يقال لها الإفرنج . . وصار اسمها الآن «الشهابية» ، وتقع في وادي هابط غرب مدينة الكرك ، وكانت قرب عين ماء دائم الجريان صيفاً وشتاء . . وتصب في بركة كبيرة ، هذه البركة كان الأولاد يتعلمون فيها السباحة . . هكذا بالفطرة . . ولما كان الوالد سباحاً فقد كان يستغل فرصة ذهابه الموسمية إلى البحر الميت حين يجلبون من هناك الملح . . وفي الشتاء ، حيث يقطعون الخشب من غابات مجاورة للبحر الميت ، ويستخدمونه في الوقود والتدفئة في مواسم الشتاء القارسة . . أليست الكرك تعلو البحر بحوالي ١٠٠٠م . . والبحر الميت يقع على مسافة ٤٠٠م تحت سطح البحر المألوف .

كنت طفلاً أرقب أبي سالم بشيء من الاستغراب . . كان سالم «الأب» . . يذهب إلى البحر الميت ويدخل مع الشباب من هم في سنه في مسابقات سباحة . . وكان يسبح من شاطئ البحر الميت حتى يصل إلى لسان البحر الميت . . وهي مسافة لا يقطعها إلا السباحون الماهرون ممن يتمتعون بالبنية القوية . . وهكذا كان سالم . . ويشاء القدر أن أكون أنا الطفل ابناً لهذا الرجل القوي البنية . «ولما كبر الطفل قليلا كان يدرك بعض الأمور . . وجد اسم أبيه هو سالم . . وأن جده هو سالم كذلك . . ولم يكن يفهم كثيراً ما معنى الجد . . وأين هو الجد . . وبقيت هذه المسألة تحيره كثيراً . . كيف أن أباه هو سالم بن

سالم . . وبقي هذا السؤال يلح على هذا الطفل يوماً بعد يوم . .! ولم يدر تفسيراً لتلك المسألة . . فتح الطفل عينه على أخيه الذي يكبره ، محمود . . والذي يصغره فلاح . . وهو بينهما . . كان محمود حيوياً . . كان الصبي يشاكس أخويه ، ولكن الأصغر لم يدخل معه في عراك ، وإنما الصبي هو الذي كان يعارك محموداً . . وفي ذات يوم كان الصبي يقف على حائط حوش الدار الذي بناه الأب بالحجارة والطين ، فتناول محمود حجراً وحذفه على الصبي أخيه الذي يصغره فأصابه في وجهه . . وأخذ الدم يسيل من رأس الصبي ، وقد أدرك الأب ما حصل فأسرع إلى الابن الثاني يضمد جرحه . . ويضغط بكفه على الجرح حتى توقف الدم عن النزيف . . ثم التفت إلى محمود الذي كان يتحفز للهرب لكن سالم فاجأه وألقى القبض عليه ، وأتى به كالعصفور في يده . . وأوقفه أمام أخيه الذي بالكاد توقف دمه عن السيلان . وقد توقع أن سالم سيوسع محمود ضرباً . . لكنه ، وهو يمسكه كالعصفور . . التفت إلى أخيه وقال له . . تسامحه وإلا أعاقبه . . وبسرعة قال أخوه . . لا ، سامحه . . أنا مسامحه . . وترك الأب محمود الذي لم يصدق أنه نجا من عقوبة ، يعلم أكثر من غيره مدى قسوتها وضراوتها» هكذا أتذكر .

أما بقية الأسرة فهي تكتمل بالأم «لجمة» . . وكانت تشارك سالم الحياة الشظفة . . والحياة الشظفة كانت بالكاد تفي بالحد الأدنى من الدخل الذي يضمن شيئاً من الطعام . . لكي تبقى الأسرة من الأحياء . . ولم يكن أهل القرية أحسن حالاً . . فهم جميعاً من الفلاحين ، وهم يعانون الضنك وضيق الحياة . . وكما كان سالم كانوا . . وكانت لجمة صبية لها مفرق في وسط شعرها متدلٍ قليلا فوق جبينها ، وكانت تفرق شعرها الأسود الفاحم الطويل الذي ينسابُ على كتفيها على شكل ضفيرتين واحدة في اليمين وأخرى في الجهة الأخرى . . ثم يتدليان من فوق كتفيها إلى ترائبها من الأمام ، وتلبس ثوبا تقليديا من الثياب الشائعة في قريتنا ، وتضع على رأسها (شطفة) تخفي معظم

شعرها وجزءا كبيرا من وجهها .

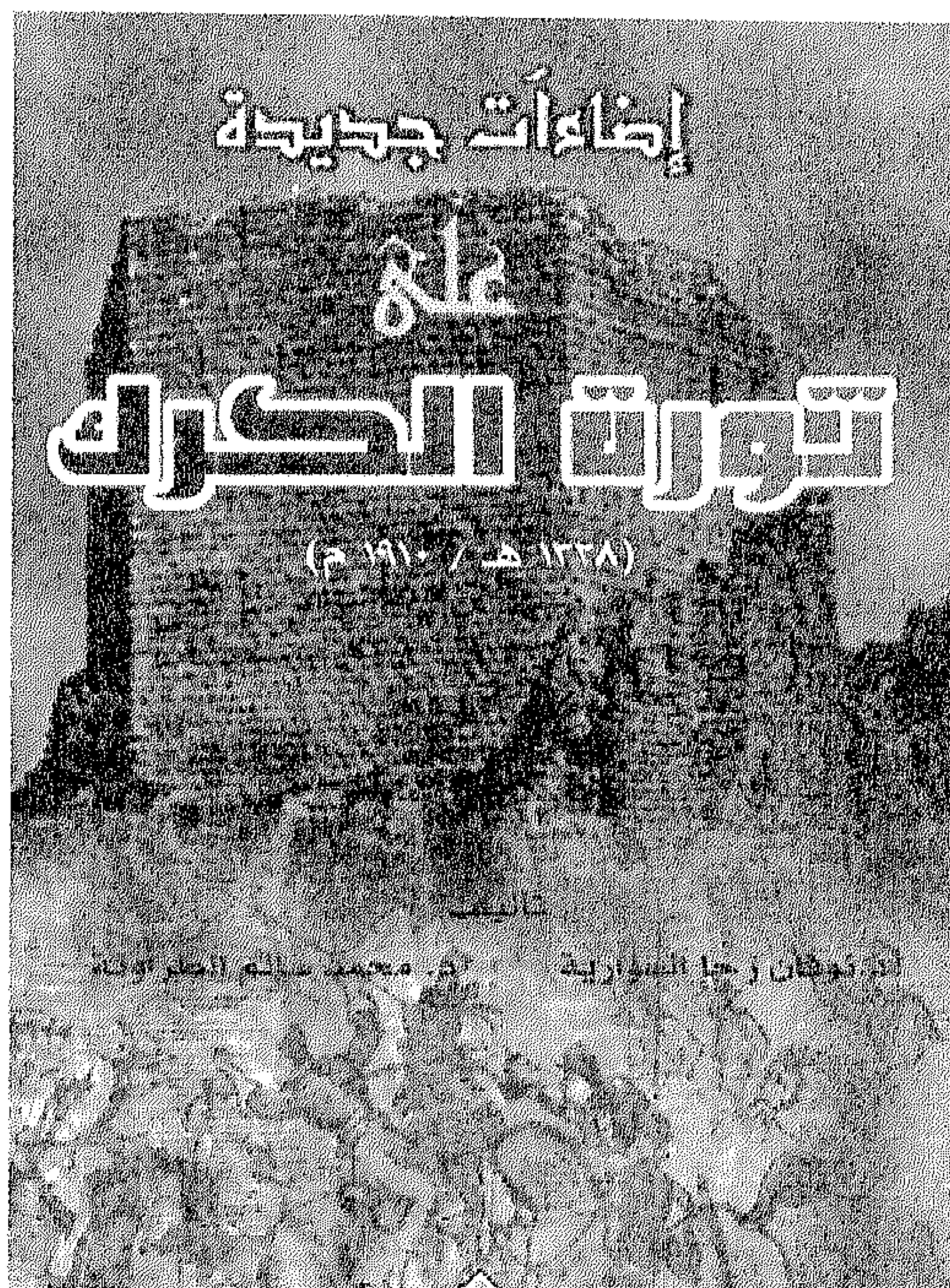
كانت نجمة مع سالم كظله . . يعملان معاً . . يداً بيد . . إلى أن أنجبا . . وكانت ابنتهما البكر التي أسمياها عائشة . . ولعلها لم يكن لها من اسمها نصيب فماتت في طفولتها المبكرة بعد عدة شهور . . ثم كان الإنجاب الثاني محموداً ، ثم الصبي ثم فلاح . . كانت نجمة نموذجا للمرأة الصارمة الشديدة الإرادة القاسية أحياناً عكس سالم الذي كان حنوناً ، وحنوناً جداً رغم قوة بنيته وعرض أكتافه . . له شعر غزير في الوجه ، كان يحلقه ، ويترك خيطين منه هما اللحية ، وفوقهما شارب غير كثيف ، وكان قليل شعر اليدين والرجلين ، ومكتنز العضلات بحكم التربية والنشأة . . كان سالم ونجمة ثنائياً ، متكاملاً . . وكثيراً ما كان الأولاد يفرون من نجمة إلى سالم الذي كان يتوسط بينها وبينهم ، وإذا كانت الدنيا ليلاً يقول : «الصباح رباح» وهذه الجملة تعني أن العقوبة أجلت ثم ألغيت» . .



والدتي . . نجمة خلف المحادين



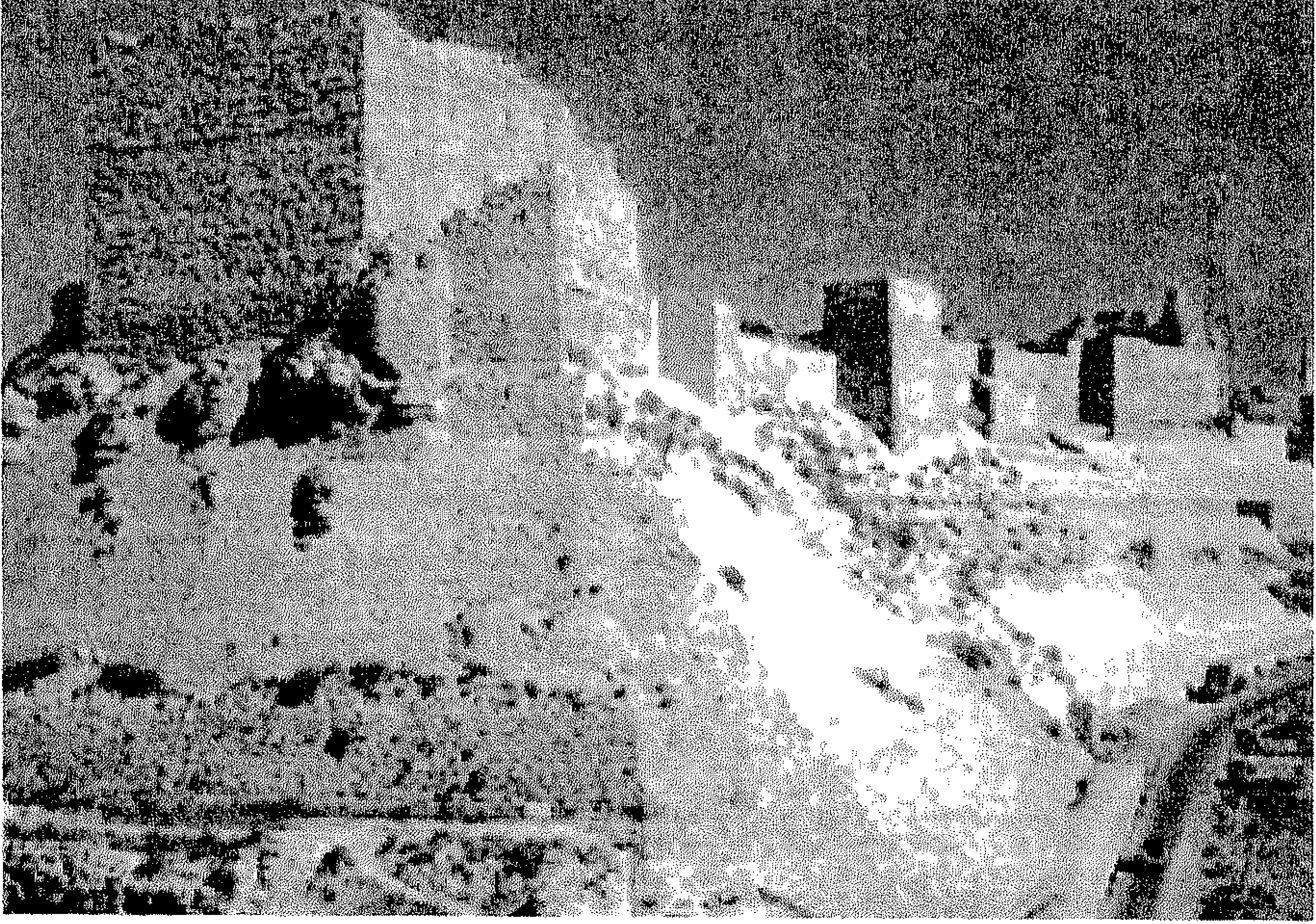
الوالد سالم بن سالم المحادين
مع الوالدة نجمة ، في مكة المكرمة



كتاب يؤرخ لثورة الكرك على الاتراك
العثمانيين عام ١٩١٠



أحد المراجع التي تؤرخ لإمارة الكرك



قلعة الكرك التي بنيت في القرن العاشر للميلاد وما تزال صامدة وقائمة

(٢)

- **«يا سامي باشا ما نطيع ولا نعد رجالنا».. شعار ثورة الكرَك عام ١٩١٠**
- **أجدادنا قدموا الامتحان النهائي أمام قومندان تركي مصيرهم في يده!!**
- **أهالي الكرك في الأمسيات يجتمعون في «التعليلة» ويلعبون «الفنيجيله»**
- **والدي مثال مزج القوة والحنان في شخصيته.. اهتم بتعليمنا رغم قساوة الحال انتقاما من أميته**
- **أنشدنا «بلاد العرب أوطاني» في مدرسة الكرك**
- **في ليالي الصيف.. عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى.. وصيد الأقمار الصناعية كانت لهونا**

أنا القادم من المملكة الأردنية ذات التقاليد القريبة بدرجة كبيرة من تقاليد منطقة الخليج العربي عزرا من قرى «الكرك» مسقط رأسي ، تلك المدينة القابعة على أعتاب التاريخ . . والحضارات البائدة . . فلم يبق منها إلا النزر اليسير . . ودائماً إلى القرن التاسع عشر . . ذلك الزمان الذي شهد بناء أقدم مدرسة بالأردن . . مدرسة الكرك الثانوية . . في جنوب الأردن لتخرّج الكتبة آنذاك . . وقد بنيت هذه المدرسة في العام ١٨٩٢ أيام السلطان عبدالحميد العثماني ، وهي مبنية من الحجارة الضخمة ، ومهندسة بشكل ممتاز ، حيث تقوم هندستها

على التماثل . . وظلت هذه المنطقة تابعة للحكم العثماني حتى العام ١٩١٦ .

وما تزال صورة القومندان التركي ببزته ونياشينه وحاشيته حاضرة في أذهان أبناء الكرك الذين ولدوا في مطلع القرن الفائت ، حيث كانت الامتحانات شفوية ، فيمثل الطالب أمام هذا الضابط بصوته الجهير ليجيب على الأسئلة . . ويُنجّح أو يُفشّل . .

في العام ١٩٠٠ كان الأتراك يأتون إلى المناطق التابعة لهم ويأخذون شبابها إلى الحروب وأشهرها (سفر برلك) وتشغيلهم في السخرة ، وحين لا تكون لديهم حاجة في هؤلاء الشباب كان الوالي يأخذ المختار ويعّد الرجال ، كي يتقاضى ضريبة مالية على كل رأس مما كان يرهق المواطنين . . إلا أن الكرك أعلنت تمردها في العام ١٩١٠ وقام رجالها بثورة كان شعارها (يا سامي باشا ما نطيع ولا نعد رجالنا) واحتموا بالقلعة التي كانت تشبه عش النسر ، وما كان العثمانيون قادرين على ضربها بالمنجنيق إلا من التلة المقابلة ، وفي هذه الموقعة كان سالم بن إبراهيم جدي من القتلى آنذاك ، وكان شابا حديث الزواج . . :

«لم يكن والدي قد ولد بعد ، فجاءت جدتي إلى مجلس العزاء وأعلنت أنها حامل ، وتمت الولادة بعد ذلك بشهور وولد ابنها الذي سمي على اسم والده في العام ١٩١٠ فصار اسمه سالم بن سالم . .

لم أشعر بحنان الأجداد وإني أظن أن حنان الأجداد مختلف!

«فوجئت أن أبي وأمي يتيمان من الأب ، فوجئت أن أبي وجدي يحملان نفس الاسم (سالم) ، ولم أفهم السبب وقتها . . عرفت جدتي ذات الاسم الرقيق ولم أدرك رقته إلا بعد زمن (ريّا) . . هي امرأة طويلة ذات بنية عريضة أورَثت صفات بنيتها إلى والدي ثم إخواني وأبنائي . . أما والدتي فقد نشأت أيضاً يتيمة ، لذلك كان الحزن يجمع بين والديَّ منذ الصبا ، كنت أشعر بهذا الحزن ، لكن المفارقة الوحيدة أن أمي كانت أقوى شكيمة من أبي الذي كان أكثر حناناً ، لذلك كنا نهرب إليه حين نخطئ كي يخفف من قسوتها علينا

لدرجة أنني لم أرها تضحك في حياتي إلا بضع مرات ، فقد كانت دائمة التجهم رغم وسامتها ، وظلت على حالها طوال حياتها التي امتدت إلى ٨٥ سنة . . وأذكر أنني أخطأت في إحدى المرات فما كان نصيبي منها إلا أن رمتني بمنجل حصاد حديدي طال وجهي وترك أثراً مازال ظاهراً إلى الآن» .

تزوّجَت جدتي لأبي بعد وفاة جدي وكان أبي يذهب إليها في القرية الأخرى «كمنه» ويزورها بين فترة وأخرى ، وأيضا جدتي لأمي تزوجت بعد وفاة جدي وعاشت في قرية بعيدة لم أكن أراها إلا حينما كانت تأتي لزيارة أمي ، لذا لم نعرف طبيعة حنان الأجداد .

(التعليلة) وما أدراك ما (التعليلة)!

في حياة شظفة قاسية . . كيف كان أهل القرية يقضون أوقاتهم . . «التعليلة» . . «العلاقات الاجتماعية كانت تبرز في الأفراح والأتراح . . لكن أيضا كانت هناك جَمعة يومية يعلن عنها وقت المغرب ، ستكون في بيت مَن؟ كانوا يطلقون على الجلسة (التعليلة) بمعنى أنهم كانوا يعللون أنفسهم بالحديث وشرب الشاي ، وتناقُل الأخبار التي يأتي بها من يذهب منهم إلى المدينة (الكرَك) . . فكان السؤال المتعارف عليه (ويش فيه اليوم علوم؟) فإن لم تكن هناك أخبار يكون الرد (ستر الله على الناس يدوم) . . وكان ذلك في الفترة ما بين ١٩٣٩-١٩٤٦ أي فترة الحرب العالمية الثانية ، التي تزامن معها ارتفاع الأسعاربجنون ، فالماعز التي كان سعرها قروش أصبحت بدنانير . . وفي العامين ١٩٤٦- ١٩٤٧ أصاب الناس قحط شديد ولم تمطر السماء ولا قطرة ماء واحدة ، فصار الناس يأكلون خبز الشعير ، ثم خبز الحمص المطحون ، ومع شح الخبز بدأ الناس يأكلون التمر . : وكنا بدأنا نسمع اسم هتلر يتداول بين الناس من الأخبار التي تجيء إلينا من الكرك ومن الموسرين الذين يمتلكون الراديو ويشغلونه على بطاريات تشبه بطاريات السيارات ، أما الصحافة فكانت جريدة واحدة يشتريها الموسرون بقرش واحد ، لكن لم يكن هناك من يهتم بما يجري في العالم على

اعتبار أن العالم ينتهي عند حدود الأفق! ، كان الأقارب يقضون الوقت في الأمسيات بلعبة اسمها لعبة (الفنيجيله) ، واسمها مأخوذ من الفناجين التي يضعونها مقلوبة في غربال ويضعون تحت واحد منها خاتماً ، ويجري الحضور بالفراسة استخراج الفنجان الذي تحته الخاتم ، وكثيرا ما ينشب الجدل والنقاش الحاد حول هذه اللعبة . وأحيانا يصغون إلى أحدهم يحدثهم عن الحكايات التراثية ويروي الشعر النبطي .

في العام ١٩٤٥ دخلت المدرسة الابتدائية ، وتلك قصة مدرسة الكرك الثانوية «كان ذلك صيف ١٩٤٥ ، طفلاً كنت ، بملابس رثة أو كالرثة ، سروال قصير ، وقميص خاطته الوالدة من قماش مخطط ، ماركة نبيل ، وكيس من القماش ذاته أيضاً من خياطة الوالدة . إن انسجام الألوان لم يكن الهدف من هذا التناسق بالمصادفة . . كيس الكتب والقميص والسروال والخياطة النافرة ، مع كل ضربة إبرة ، وبشعر حلق على طريقة المارينز ، لكن بصورة بدائية ، بالموسى . . لقد نفذها الوالد . . وكانت هذه القَصّة تسمى (حوافه) . . وباختصار كنت على بعضي صناعة محلية . . صحبني الوالد إلى المدرسة . . وسرت وراءه . . وأنا أتوجس . . وأهجس ترى ما المدرسة؟ ماذا فيها؟ . . وحين وجدت نفسي فجأة في وسط مئات الأطفال ، بأعمار مختلفة وبعضهم كانوا صبياناً ، والبعض كانوا شباباً . . إذن هذه هي المدرسة!!! لا أدري لماذا كنت أتلفت حواليّ ، وأتفرس الوجوه ، باستغراب . . وأنا أسير خلف الوالد . . إلى أن دخلت أحد المكاتب . . وعلمت فيما بعد أنني صرت تلميذاً في مدرسة الكرك . . مدرسة السلطان عبدالحميد الذي انحسر ظل دولته بعد الحرب العالمية الأولى» .

من الضياع الطفولي جئت . . واندفعت في هذا الخضم ، رقماً بين الأرقام . . شيئاً ما . . آت من المجهول . . مسكوناً بالخوف والتوجس والرهبة . . كثير التلفت ، بالغ الحذر . . والريبة . . مذهولاً أقف في «طابور الصباح» وأردد

مع الخناجر الكثيرة «بلاد العرب أوطاني»!!! أسير في الصف إلى حجرة الدراسة . . أجلس بين زملائي نتعلم . . نتندر على بعض مدرسينا . . نتعرض للعقاب . . للجلد . . للفلقة أحياناً . . كنا نكبر . . عاما بعد عام . . نكره . . نحب . . نحلم . . نحلم كثيراً . كنت مولعاً بالأحلام أبني المدن وأزرع الغابات . . وأقطع الفيافي . . وأجتاز القارات . . وأصحو على حذائي المتواضع وملابسي . . المخططة . . الزرقاء ، متواضعة . . لكنها نظيفة . أجيئ إلى المدرسة بشغف . . رغم أنني أكون كإسفنجه مشبعة بالماء . . المطر . . إنه الشيئ الذي يرافقني إلى حجرة المدرسة . . ماء يسيل . . وأنا أرتجف داخل ثيابي المبللة . . ومع ذلك أصغي للمدرس وأحلم . . أحلم كثيراً» . .

«رغم شظف الحياة وصعوبة الانتقال من القرية إلى المدينة ، فقد انفردت لنا مواصلات من وإلى المدرسة ، لم يكن يمارسها إلا والدي . . كان عندنا بغل فاره ينتظرنا عند طريق المدينة ، كان والدي يضعنا على البغل في أجواء المطر والبرد والثلج ، ويغطينا بعباءته ، ويقودنا ماشيا على رجليه . . كان الوالد يعي الحياة ويتحمل الصعوبات من أجل تعليمنا ، لم نكن ندري سبب إصراره ، إلى أن اكتشفنا أن التعليم فاته وكان يريد الثأر لنفسه بأن يعلمنا ، وحتى البنات حيث كان وقتها تعليم البنات ترفاً ، فكانت البنتان اللتان تتعلمان من أبناء القرية جميعاً هما أختاي . . كل ذلك رغم ضيق ذات اليد والحاجة لمن يساعده في العمل ، لكن كان التعليم بالنسبة له أولوية وكان مستعدا لبذل كل ما في استطاعته لتحقيق الهدف الذي ينشده» .

واذكر موقفاً طريفاً حين كان الوقت ليس شتاءً ، حيث كان الوالد يهتم بأن يلتزم الأبناء بمواعيد العودة ، فكان يعتمد على درجة ميلان الظل على الجدار كي يحدد توقيت عودتنا من المدرسة التي كان يجب ألا تزيد عن الرابعة عصراً ، فكان يحدد وقت العودة بخط يرسمه على الجدار يحدده بدرجة ميلان أشعة الشمس وانعكاسها على الجدار ، وفي إحدى المرات تأخر الأبناء وكان

الوقت ربيعاً حيث جذبتهم أعشاش الطيور والبيض الذي كان بها ، فكان مصيرهم العقاب بعلقة ساخنة مع أبناء القرية . .

لم يكن اهتمام الوالد بتعليم الأبناء مقتصرا على التوصيل فقط ومتابعة مواعيد العودة فحسب ، بل امتد هذا الاهتمام ليصل إلى توفير الجو الملائم للدراسة ، فحين كان يعم ظلام الليل كان يوفر لنا الإضاءة بشعلة الكاز ، حيث كان يقص الفتيل بطريقة معينة كي ينفرج الضوء . . «كان يجلس معنا على (طبلية) وهي طاولة قصيرة الأرجل نجلس أمامها قعودًا على الأرض ، ويبقى إلى آخر الليل ، نحل الوظائف ، ونكتب الواجبات المدرسية ، وقد كان معي ثلاثة من إخوتي ، وكانت المراجعة أمراً لا نفرط فيه ، وكان الوالد رغم أنه لم يذهب إلى مدرسة ، إلا أنه كان على حافة المعرفة معتمداً على ذكاء فطري بدوي ، وشغف بالعلم . . وكنت أسمع والدتي تقول : «ليتني كنت بعين واحدة وكنت متعلمة» . . فكنت أمازحها وأقول لها : «بعين واحدة تكونين متعلمة لكن بلا زواج» . .وكان يقدم لنا – من الرفاهية – الشاي حين نبذل جهداً في الدراسة كنوع من المكافأة ، فقد كان للشاي عندنا مستويان . . شاي مع الخبز كوجبة صباحية ، وشاي في المساء كشكل من أشكال الرفاهية!!

أصدق الناس هم من يتحدثون عن حياتهم السابقة دون تجميل ، وهؤلاء هم الذين حققوا النجاح ، وبالتالي فالنجاح يغفر لهم المشاهد البشعة التي عاشوها في حياتهم . . أما من لم ينجح لا يجرؤ أن يقول أن مكافأته كانت إبريق شاي ، ولو أنني ما اعترفت بتفاصيل هذه المرحلة لما كنت استطعت تجاوزها . . وأزيد على كل ما قلت بأن أحكي عن طعامنا ، فتصوروا ماذا كانت تطبخ لنا الوالدة . . كانت تطبخ كل مشتقات القمح ، وأذكر حين كنا أطفال ، وفي العيد كنا نأكل وجبة من الأرز فقط ، وهي وجبة فاخرة في المناسبات السعيدة . . أما اللحم فكان لمناسبات أكثر سعادة ولم يكن إلا حين تسقط عنزة عن صخرة أو ينطحها تيس ، فيذبحونها ويبيعون لحمها بسعر رمزي على أهل القرية . . طبعا

كان كل ذلك في الأربعينات ، لكن تغيرت الأحوال بعدها ، لكنني لا أنكر هذه الأكلات وأطلبها من زوجتي في بعض الأحيان . .

المكان هو الخامة التي يشتق منها الإنسان

للمكان أثر كبير في حياتي ، كلاهما تأثر بالآخر ، والسؤال من منا أثر على الآخر . . «المكان سطوة في حياة الإنسان ترافقه طيلة حياته لأنه يعتبر جزءاً من تشكيلة الجسم ، ولا سيما الأمكنة الأولى في طفولة الإنسان ، حيث تلك الأمكنة تدخل في النسيج التكويني لنفسيته وذهنيته ، وتفكيره ، ورؤيته للحياة ولنفسه ، وللكون . . وأن الفوارق التي تميز بين الناس وتجعلهم مختلفين هي بفعل المكان الأولي في حياة كل منهم . . والمكان بطبيعة الحال وعاء ينطوي على الجغرافيا والثقافة والمعيشة والحياة والعادات والتقاليد والأنثربولوجيا كلها مطبوخة معاً ، يتشكل منها وعي الإنسان بالأشياء . . كل الأشياء .

تعاودني عزرا دائماً ، ولا تغيب عن بالي ، وهي الفضاء لأحلامي حتى الآن! قرية بسيطة موغلة في البساطة . . كأنها عش نسر على قمة جبل يمتد كأنه سرج حصان . . قرية . . بسيطة في بنائها . . وبسيطة في عدد سكانها ، وبسيطة في كل ما يتعلق بها . . تستضيئ بالشمس نهاراً وبالقمر إذا كان ساطعاً ليلاً ، وإلا ستبقى يلفها الظلام إلا بعض ثقوب ضوئية تنساب هنا وهناك من أسرجة . . في كل منها فتيل تهتز ذبالته مغموس في كيروسين . . ولا يكاد يضيئ إلا المساحة البسيطة حوله .

البيوت حُجَر من الحجر والطين متجاورة . . تتراص الأسرة في واحدة منها . . وفي الأخريات تتراص الحيوانات التي تشكل الوسيلة الأولى للزراعة . . حرثاً وحصاداً ودراسة . . ونقل حبوب وتبن . . إدخاراً في الحجر الأخرى للشتاء القاسي . . والبرد والثلج . .

في قمة جبل . . إن وقفت فوقه ونظرت إلى الأفق تصل عيناك إلى

الصحراء الأردنية الممتدة شرقاً ، وإذا نظرت إلى الغرب . . تقع عيناك على أضواء فلسطين ، القدس والخليل والجنوب . . بينهما البحر الميت أخفض نقطة في العالم . . وسلاسل جبال . . ممتدة في الشمال تكاد تطل منها على «شيحان» ذلك الجبل المرتفع . . فوق نهر الموجب . . الذي يجف معظم أيام السنة . . وكان موئلاً للمجرمين وقطاع الطرق . . قبل أن تبسط الدولة سيادتها عليه . .

إذا حل الظلام . . فإن المسافة تكون مفتوحة بينك وبين السماء . حيث النجوم تطرز السماء بكافة الأشكال . . ويبدو أمام الناظر درب التبانة . . التي هي المجرة . . وتظهر للرائي الثريا وبنات نعش ، والدب القطبي ، والميزان ، وبرج العقرب والحوت . . والجدي وغير ذلك من الكواكب والنجوم ولكن في أيام الصيف الأولى ونحن نتمدد على القش في بيادر القرية نرقب النجوم . . نصطاد قمراً صناعياً متحركا . . نتابعه بالنظر من الأفق إلى الأفق . . ونرى الهلال والبدر في كافة مراحله .

إذا سجا الليل تأتي أصوات عواء الذئاب من أماكن بعيدة بعيدة ، لكنها تصل إلى الآذان وتملأ الفضاء بالحركة والحيوية . . ومن بعيد بعيد تسمع عواء الذئاب مع نباح الكلاب . . وصوت الثعالب . . كلها تشكل مع الجنادب . . والصراصير . . التي تملأ الليل بأصواتها المختلفة ، تشكل سيمفونية تثير الخيال والمخيلة . .

قريتنا بلا بحر ، ولا نهر ولا جدول ، بل المياه هي التي تتجمع من الأمطار . . ولذا تجد أسنان أهل القرية صفراء مما ترسب فيها من كلس ماء الآبار المجمعة .

في الشتاء . . تنزل الأمطار الغزيرة ، بل والثلوج الكثيفة وتحاصر السكان في منازلهم . . ويتولى الأب . . وهو رمز القوة في البيت ، ورمز التضحية العميقة والدفاع عن الأسرة . . وحمايتها . . تجريف الثلج عن الأبواب وتهيئة الطريق . . لا يزال دور الأب عالقاً في ذهني ، وإني لا أنفعل بعلاقة ما كعلاقة الأب

بالأبناء . فإن هذا المشهد يثير في الأشجان ويضعني في غاية الانفعال . . إلى هذه الساعة حين أرى في الدراما التلفزيونية علاقات وحوارات بين الأب والأبناء ، تكون بحسب استحقاقاتها ، ينظر إلي أبنائي ويرقبون رقرقة الدمع في عيني تأثراً من هذه المشاهد . .

الأسرة تواجه الحياة منفردة كأسرة . . الأب والأم يواجهان الحياة بصعابها يداً بيد وكتفاً إلى كتف وهي حياة شاقة وصعبة ، والإمكانات المادية فيها محدودة ، والناس يستعينون على جمرها بالصبر والرضا .

علمتني هذه الحياة هذا الصبر الجميل ، واحتمال الجمر ، الإحساس بالرضا في كل الأحوال .

ألم أقل أن الأسرة وحدة واحدة وهي تواجه الحياة كصف واحد وتحتمل من الحياة الألم والصبر والرضا في النهاية .

في الحياة . . في مكان ناء وبعيد ومنعزل . . ولا تبلغ من الحضارة ما تدل على علاقة بها . . يتوالد الناس . . ويكون حظهم بقدر وعيهم إلى حد بعيد ، الطقس بارد ، والمسافة شاسعة بين القرية والمدينة حيث المدرسة الوحيدة ، هناك يذهب إليها الصغار من الأول ابتدائي ، في السادسة من أعمارهم مشياً على الأقدام في زمهرير مؤاب . . وثلج مؤاب . . ويكادون يتجمدون من البرد . . تصور البنات في الأول الابتدائي . . يذهبن مشياً على الأقدام من الريف إلى المدينة ، كنا كزغب القطا صغاراً . ونذهب إلى المدرسة نحمل حقائب من القماش الذي تخيطه الوالدة . . ولا يكاد يدفئنا إلا ما تيسر من اللباس . . ونمشي ونقطع المسافات . . وهذا منحنا بنية قوية ومناعة هائلة ولياقة رفيعة من المشي والسير في هذه المسافات ، وبقيت صفة ملاصقة لكل منا . . مدى عمره .







صوري في مراحل مختلفة.



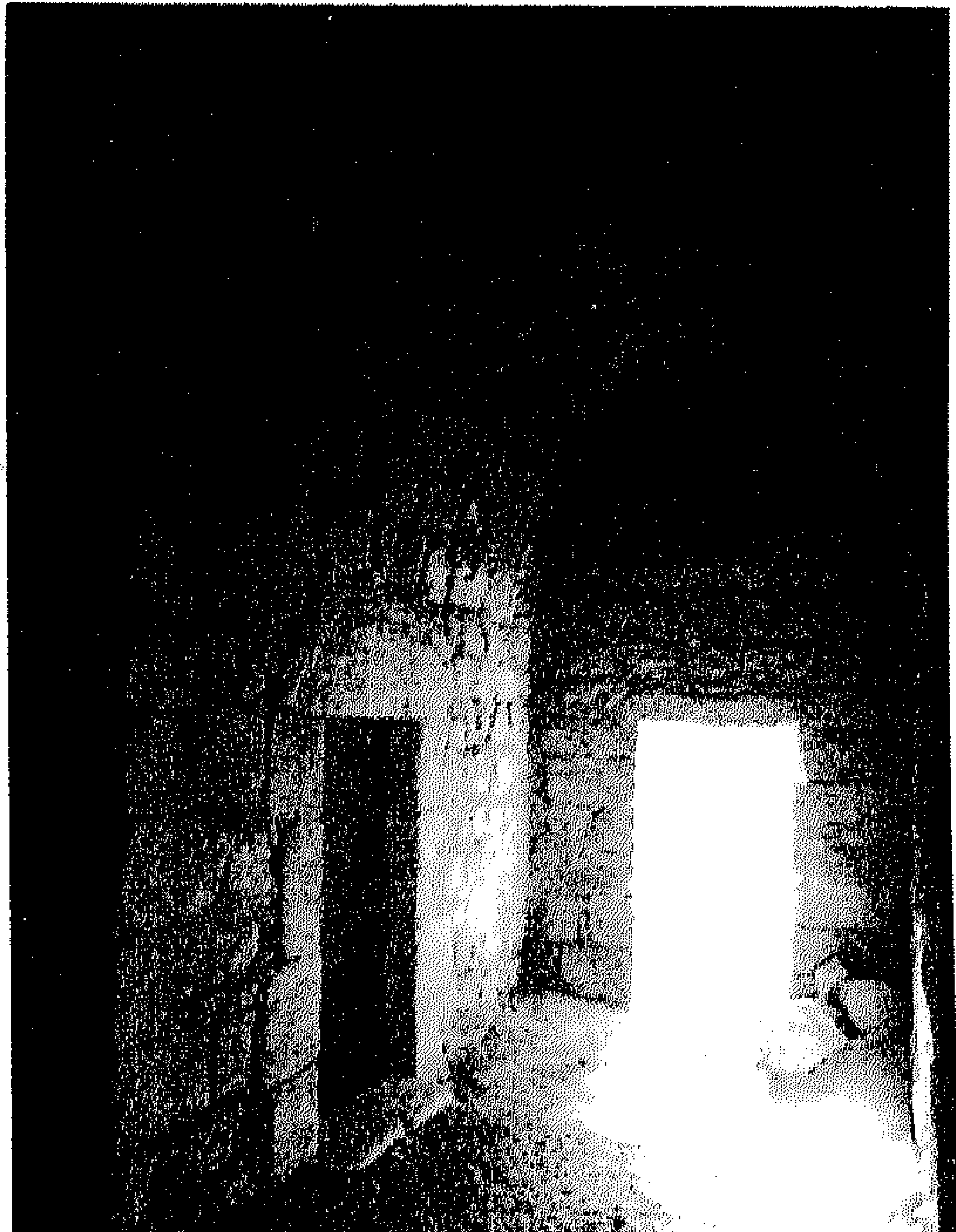
في وادي الكرك - عين سارة



مدرسة الكرك الثانوية

صورة سنة ١٩٥١





مدخل قلعة الكرك

(٣)

❖ عوقبت بالفلقة لأول وآخر مرة إكراماً لابن قائد المنطقة

❖ سافرت وأبي في شاحنة البطيخ لنحضر تتويج الأمير عبدالله في عمان

❖ كنا ننشد في طابور الصباح «يا ظلام السجن خيّم.. إننا نهوى الظلاما»

❖ تفاصيل الرحلة الصيفية إلى كرم العنب.. وكيف كانت الوالدة تصنع خزين الشتاء من الزبيب والدبس؟

❖ كيف أكلت الكعك بلحم الحرذون؟!

❖ «هدية من الشعب الأمريكي» عبارة ظهرت على أقفية بعض الناس آنذاك تحت يدين متصافحتين!

❖ كنت استمتع في طفولتي بحكايات رجل لم أكن أعلم أني سأتزوج حفيدته بعد ثلاثين عاماً!

تظل ذكريات الطفولة راسخة في الذهن مهما مرت الأيام وتعاقبت السنون . . ذكريات جميلة بحلوها ومرها . . هكذا استشعر وأنا بصدد استرجاع ذكريات السنين الأولى من حياتنا ، شقاوة طفولية . . عبث بريء . . ألم ضيق ذات اليد . . سعادة طارئة منبعها البساطة . . تناقضات تشكل حقبة لا يمكن أن تُنسى ولا يمكن أن تُسقط من الذاكرة . .

أتذكر الوالدة بحسن تدبيرها ، وقدرتها على تلبية متطلبات الأسرة بأقل القليل ، «كانت الوالدة سيدة أستطيع أن أقول عليها (حرة) أي لديها حرارة الحركة ، كانت تحيك ملابسنا وملابس والدي ماعدا (القمباز) . . كانت تطبخ من القمح خمس طبخات أو أكثر بالإضافة إلى الخبز . . كانت تطبخ في مكان تصنيع الخبز ، وهو عبارة عن غرفة اسمها (الطابون) بها نصف كرة مصنوعة من الطين وفي وسطها فتحة ، أما بداخلها فهناك عدد من الحجارة الملساء تسمى (الرظاف) ، وحولها التبن أو القش أو روث الحيوانات الذي يتم حرقه إلى أن تتوهج الحرارة بالداخل ومن ثم يتم الطبخ وخبز أرغفة الخبز الذي كان يخبز أحيانا على الصاج أيضا وهو «التاوه» .

حينما تكون الأمور شبه ميسورة كانوا يأتون بالخبز السميك يفتتونه ، ويضعون عليه الحليب والسمن البلدي ، وهو أكلة شعبية غير مكلفة . . أما عن أسرتنا ، فقد كنا نملك بقرة وعنزاً ، نصنع من حليبها اللبن والجميد والزبد ، والفائض عن حاجتنا من الحليب كنت آخذه معي إلى المدينة وأنا في طريقي إلى المدرسة لأبيعه على من يصنعون اللبن الرائب ، لأتقاضى مبلغاً نصرفه على حاجاتنا اليومية كالسكر والشاي والأرز . . كذلك كنا نربي الدجاج ، وكنا نسرق البيض ونشويه في النار الهادئة في (الطابون) ، أما الدجاج فكنا نذبحه ونأكل واحدة أو اثنتين ، واللحوم كنا نأكلها أحياناً .

كان الوالد يحاول أن ينوع في غذائنا ، فحين نعود من المدرسة كان يشتري من القصابين الشحم ويذهب به إلى الفران ليضعه في العجين ويخبزه ، فكانت له رائحة رائعة ، تجعلنا في غاية السعادة . . هكذا كنا نعيش ، ورغم شظف العيش لكننا كنا من أنظف التلاميذ بالمدرسة ، مثلما كان بيتنا .

كان الوالد يزرع العنب ، وكان عندنا كرم دوالي ، يبتعد عن قريتنا حوالي عشر كيلومترات في قرية أخرى ، هي «النطاف» وفي موسم العنب الذي يتزامن مع الإجازة المدرسية الصيفية ، كنا ننتقل إلى هناك ، لنعيش بجانب كرم العنب

في منطقة (النطّاف) ، وظللنا نحرص على هذه الرحلة السنوية إلى أن مات أخي ، بعدها ما عاد والدي يستمتع أو يتلذذ بأي شيء . . كانت الوالدة تستغل الصيف ووجودها في الكرم لتصنع الزبيب من العنب ، فكانت تأتي بمادة قلوية تباع خصيصاً لهذا الهدف وتذوبها في الماء ، تضع بها العنب ثم تنظفه وتجففه على أسطح بيوت الشعر ، ثم تجمعه وتخزنه لنا لنستفيد منه في وقت الشتاء عند توجهنا إلى المدرسة . . كذلك كانت تجمع التين من الشجرة التي كانت في أرضنا وتنشره في الشمس لتصنع منه التين المجفف (الذبالي) . . أما الخرب من العنب فكانت تعصره وتغليه وتصنع منه الدبس الذي تجمعه في صفائح معدنية ، فكان يحل لنا مشكلة التغذية والفطور الصباحي في أيام الشتاء ، وكمشة الزبيب التي نضعها في جيوبنا كانت تسهم في تدفئتنا ، أما للتسلية فكانوا يحمصون الحمص الذي نزرعه ، ومع قليل من الملح نأكله هو «القضامة» ، فكان اكتفاء ذاتياً بحتاً ضمن حياة بدوية خالصة .

كان لدينا كلب ويفترض به أن يتبعنا أينما نذهب إلا أنه كان يرفض الذهاب معنا إلى الكرم صيفاً ، وفي إحدى المرات ربطه أبي في البغل وأخذه غصباً ، وحين وصلنا فك وثاقه ، وجدناه يركض عائداً إلى القرية . . ولم أكن أعلم ما هي بواعثه ، ولماذا كان يكره هذه الرحلة؟!

«حين كان عمري ٦ سنوات ، تقريباً في العام ١٩٤٥ ، توجهت إلى كرم أعمامنا الذي كان بجانبنا ، وكانت زوجة عم والدي تصنع الدبس فكانت تغلي عصير العنب فيغلظ قوامه ، وكانت تغليه في إناء كبير مسنود بثلاثة أحجار ، ورأيت أن على أحد الأحجار واقف (حرذون) أو (ضب صغير) لكن حرارة الحجر جعلته يسقط في إناء الدبس بدلا من أن يهرب ، وما هي إلا دقيقة وقد انتفخ الحرذون وتفتت لحمه الأبيض ، وشاهدت زوجة العم المشهد وأدركت أن ما صنعته قد فسد ، ولأنها أجهدت في تصنيعه فقررت الإبقاء عليه! لكن حتى تأمن جانبي لأنني شاهدت معها ما حدث ، حاولت أن ترشوني ببعض الكعك

المغموس في الدبس في مقابل ألا أخبر العيال أبناءها بما حدث ، ووافقت» . .

«المفارقة أن الكعك عجينة تنضج في هذا الدبس ذاته ، لكنني تقبلت الوضع ولم أستنكر ما حدث ، ولم يثر اشمئزازي»!

في تلك السنة لم أكن أعرف ما المدرسة سوى أن أخي كان يذهب إلى المدرسة اللاتينية قبل أن يتوفى . . دخلنا أنا ووالدي على المدير . . سألنا عدة أسئلة . . سجل اسمي . . وأرشدنا إلى الصف . . دخلت الصف وحدي ، واكتشفت أن لي أقرباء في المدرسة . . اكتشفت أننا متفاوتون في السن ، ولعلي كنت الوحيد الذي دخلت في الزمن المناسب . . اكتشفت ان والدي كان قليل الاختلاط بالناس في محاولة منه للمحافظة علينا وتحصيننا من الناس . . فتجربته مع الحياة جعلته يتوجس من الآخرين»!

لقد أخذت منه الكثير . . فأنا أحذر وأختبر ، لذلك كل أصدقائي ومعارفي انتقاء . . ولا ألقي نفسي كيفما اتفق . . لدرجة أنني في فترة من الزمان حرمت الحب على نفسي ، ورفضت أن أجعل قلبي مسكوناً بشخص واحد يشغلني!

كان والدي ينتظرني خارج المدرسة كي يصطحبني في رحلة العودة . . وفي اليوم الثاني اصطففنا في الطابور الصباحي ، ومعي طلاب في الصف بيني وبينهم عشر سنوات . . من عزرا كان معي اثنان ، ومن عائلتي حوالي ١٥ طالباً ، والبقية كانوا مقيمين في الكرك . . كنا نمارس الألعاب السويدية كتمارين الصباح ، وكنا ننشد (بلاد العرب أوطاني) . . (يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما) . . (عاش المليك) . . أناشيد وطنية من أروع ما يمكن ، كانت مقررا صباحياً ننشد واحداً منها في الصباح . . ثم بدأنا نتعلم . . في الصفوف الأول والثاني والثالث الابتدائي جاءنا مدير للتعليم اسمه فضل الدقموني الذي قرر أن يلحق بالمدرسة كل من يريد الالتحاق ، وفي الأربعينات كان هناك الكثير من العرب من فلسطين ولبنان والشام والعراق ، وكان الأمير عبدالله يحتضنهم ويستفيد من خبراتهم ، فقد كان لدينا أكثر من رئيس وزارة من سوريا ولبنان ،

أذكر منهم توفيق أبو الهدى ، بالإضافة إلى سوريين يعملون في التجارة ، حيث كانوا يهربون من الأتراك أيام الحكم العثماني ، كذلك ازداد عدد الفلسطينيين عندنا بعد عام ١٩٤٨ ، ومن الحجاز أساتذة أذكر منهم سالم العطار وهو حجازي .

في ١٩٥٠ كنت في الصف الثالث ، كنت جالساً في الصف وكان يدرسنا الرياضيات أستاذ اسمه يوسف البقاعين ، وكان يجلس بجانبي طالب هو ابن قائد المنطقة الذي كان من أصل شامي ويحمل رتبة عسكرية ، وكان يبدو على زميلي أثر النعمة ويتفجر وجهه حيوية وعافية ، كما كان في نفس عمري . . كنا نحل مسألة رياضيات ، فأنجزتها وعرضتها على الأستاذ الذي أفادني بأنها صحيحة ، فسألني زميلي عن طريقة الحل . . لكن لحقد طبقي في نفسي رفضت أن أساعده ، وهو لم يعتد هذا السلوك من أحد ، فشتمني شتيمة قوية تمس الأم ، فلم أرد عليه احتراماً للأستاذ ، لكني قطعت ورقة وكتبت عليها شتيمة مماثلة رداً عليه ، فما كان منه إلا أن أعطاها للأستاذ ، فتعامل مع الأمر وكأنني شتمت شيئاً مقدساً ، فطلب مني أن أخرج من الصف وأنبني تأنيباً شديداً ، ونادى الأستاذ سالم العطار ، ولم يكتفوا بالضرب على يدي بل ضربت بالفلقة على قدميّ لأول وآخر مرة في حياتي ، لكن على مشهد من الصف ، ولم يجد نفعاً محاولاتي الدفاع عن نفسي وأن من أخطأت في حقه كان هو البادئ . . تورمت قدماي ، وعدت إلى قريتي مشياً ، وأخبرت والدي بما حدث ، وصمم أن ينتقم لكنه تراجع . . وتمضي الأيام وأقابل الطالب بعدما كبرنا وذكرته بالحادثة ، وقد أصبح محامياً قد كان في مجلس التنمية السياسية في البحرين» . سابقاً . وقد أوحت لي هذه الحادثة بقصة قصيرة كتبتها فيما بعد بعنوان (صفحة من مذكرات تلميذ) وهي كالتالي :

لم أنم الليلة الماضية . . ولا يزال صوت أمي يرن في أذني وهي تقول بحنان . . إن نجمة الصبح قد طلعت . . نم ولو قليلاً . . كنت أجلس بجانب رماد

في موقده ، كان في أول الليل ناراً متوهجة ، خبت قليلاً قليلا حتى لم يبق منها إلا ذاك الرماد القاتم البارد ، لففت قدمي بخرقة بالية أقيهما من شدة البرودة التي عششت فيهما ، أمامي كيس من القماش البالي خاطته أمي ليكون محفظة أدس في جوفها كتبي ، نثرت ما في جوفها أمامي ، أذاكر دروسي ، البرد يشتد والضوء أمامي لا يكاد يبدد من الظلام إلا بقدر ما يدل على أنه ضوء ، مع زيد مبلغ عشرة الآلاف دينار ، يا للمبلغ الضخم وماذا تراه يفعل بها! كيف يعيش! هل يجلس كما اجلس بجانب موقدة ليس فيها إلا الرماد ، يدس قدميه بخرقة بالية ، وضعها في بنك التسليف بربح سنوي قدره أربعة في المائة ، فكم يصبح المبلغ بعد عشر سنين!! آه يحب أن أعرف كم سيصبح بعد عشر سنين ، لم لا يكون المبلغ تسعة آلاف وتسعمائة وتسعين ، والعشرة الباقية ماذا سأصنع بها ، وماذا ستفيدني ، سأشتري لي حذاء وجورباً ، وأدفع منها أجراً للباص الذي يمر بالقرب من القرية ، عندما أعجز عن المشي في البرد الشديد ، اهتزت الأبواب من قصف الريح ، الشجرة الضخمة التي تنتصب قرب النافذة تكاد تبلغ الأرض وهي تتمايل مع هبوب الرياح ، ساقها الضخم ، رقمها الأول أسهل للحل ، كم ستصبح بعد عشر سنين؟ ليس لدي ما أفطر به غداً! اهتز السقف من شدة نقرات المطر الكثيف ، ليست قطرات ماء ، إنها قطع من الحصى ، بل برد يكاد يثقب السقف الطيني ، سيصبح المبلغ بعد . . إن بنطلوني قد شقت ركبته عندما انزلقت عائد إلى البيت فوق حجر كانت مثبتة في الأرض ، الجرح في ركبتي يؤلمني بشدة ، لا يهم ، الجرح في ركبتي سيشفى في غضون أيام ، ولكن هل سيشفى جرح البنطلون! لو جرحت ركبتي الأخرى وبقى البنطلون الوحيد بصحة جيدة! ، إن المبلغ سيصبح . . لماذا لم تنم؟ إن نجمة الصبح قد طلعت . . ألا تسمع صياح الديك! سيصبح المبلغ؟؟ آه! اشتد البرد . . تجمد الدم في عروقي . . أعرب ما تحته خط . . الطقس جميل . . ما إعرابها . . الطقس فعل ماض . . جميل فعل مستقبل ، لكن هل هذا إعرابها . . لا يهم أنا واثق . .

صحيح لماذا لم أنم . . أليست نجمة الصبح قد طلعت . . ألم يعلن الديك قرب الفجر . . وقد كان عمر بن عبد العزيز عادلاً ورعاً . . ساد الرخاء . . لمعان البرق يكاد يخطف بصري . . الرعد يكاد يزلزل الأرض . . الرخاء في زمنه . . صوت الميازيب يبث الرعب . . صوت الديك يعلن طلوع الفجر . . لماذا لم أنم قليلاً كي أصحو في الصباح . . وهل هناك صباح . . ربما . . وقد اسقط التتر الدولة العباسية . . أغرقوا جميع الكتب في نهر دجلة . . قطرات الماء بدأت تتسرب من السقف . . بعضها سقط فوق صفحات الدفاتر ، والتقى السلطان سليم العثماني مع الشاه إسماعيل الصفوي . . في معركة . . تبلل الفراش المعد لي من رذاذ المطر . . الذي تسرب مع الرياح . . من النافذة الصغيرة . . التي لا يغطيها شيء . . وانتصر السلطان سليم على الشاه إسماعيل الصفوي ، لا نوم هذه الليلة كيف أنام والنهار على وشك الطلوع . . والديك أوى إلى رقاد عميق . . وكانت معركة فاصلة غيرت خريطة ، ما تزال تدرس . وكيف ستذهب إلى المدرسة من غير نوم . . لا يهم . . إن انتصار العثمانيين على المماليك . . يكاد الضوء ينطفئ . . ولم تبق فيه إلا فترة من المقاومة ليست طويلة . . ولكن لا يهم . . النهار قريب . . بيتي جميل يقع في طرف المدينة تحيطه حديقة من جميع جهاته . . به حجرة للنوم وأخرى للجلوس . . وثالثة للطعام . . للطعام . .حجرة للنوم . . حجرة للطعام . . تحطم الباب من شدة الرياح ولا سبيل إلى إصلاحه الآن . . رقد الديك بجانب الحجرة وحوله الدجاجات في سبات عميق . . مكان لتربية الدواجن . . وبيت صغير للخدم . . في بيتنا تدفئة مركزية . . انتفض الديك . .غادر الحجرة من الباب المفتوح . . وخرجت الدجاجات من الفتحات التي لا سبيل إلى إغلاقها . . وفيه ستائر جميلة تغطي نوافذه الزجاجية . . ولكن الدجاج عاد إلى الحجرة لم يطق المطر ولا البرد . . حتى عصفور يقبع في جحر في الزاوية لم يبد رغبة في مغادرته . . وبجانب بيتنا حجرة واسعة ذات باب كبير للسيارة . . ألم تنم بعد!! ها هو النهار قد طلع . . ما الذي تدرسه . .

وما السيارة؟ وركزت أمي نظرها إلى ركن الحجرة . . ألا ترى تلك الدجاجة السمراء . . إنها ميتة ، قتلها البرد . . لم يبق في رجلي أي إحساس بالحياة . . قطعتان من الثلج ملصقتان بجسمي . . لقد كانت جالديران فاصلة انتصر فيها سليم العثماني . . دسست قدمي في حذاء لا يحتاج إلى رباط . . أصابعي تطل من مقدمته . . كانت المسألة صعبة لم استطع أن أعرف كيف سيصبح المبلغ في عشر سنوات . . كان عمر مثالاً للعدل ، الطقس جميل . . بيتنا في ضاحية من ضواحي المدينة . . وقد توفيت الدجاجة متأثرة بالبرد . . هذه ثلاث بيضات تبيعها بثلاثين فلساً بعشرين منها فطور وغداء . . وقد أغرق هولاكو جميع الكتب في نهر دجلة . . وعشرة فلوس ثمن كبريتة تشعل بها الحطب لا تتبلل كتبك ويسيح الحبر على الدفاتر . . وقد أصبح ماء دجلة أزرق من الحبر . . كل الحجارة غير مثبتة . . لماذا تزحلقت . . جرح جديد في أصبع قدمي اليمنى . . شي لزج في جيوبي . . كسرت البيضات الثلاث . ثلاثون فلساً .

كبريته . . القميص ملتصق بجلدي . . تبلل المقعد . . غادر الدرج زميلي الثاني . .

- قف تكلم يا غبي . . هل حللت الحساب؟!!

- نعم يا أستاذ؟

- كم ربح المبلغ في عشر سنين؟

- أي مبلغ يا أستاذ؟

- الذي وضعه زيد في البنك .

- نعم . نعم ربح ثلاثين فلساً ولكنها ضاعت .

- ثلاثين فلساً . . هل أنت مجنون . . حقاً إنك غبي . . ما بال يداي أصبحت كل منهما في حجم أكبر . . مع إني لم أحس بألم الضرب . . تورمتا . . إن دماً ينزف من كفي . . أليس الربح ثلاثين فلساً . . إنني لا أدري .

- لماذا لم تستطع أن تعرف كم ربح المبلغ بالضبط في عشر سنوات .

- قلت إنها ثلاثون فلساً ولم يقبل .
- إن أبي حل لي السؤال وقال أن المبلغ أكبر .
- وكم قال أبوك؟
- قال مئات الدنانير بل ربما آلاف .
- ربما أخطأ .
- هل يخطئ أبي . . أبي قائد المنطقة . . إنه لا يخطئ لكنك غبي كما قال الأستاذ . . ثلاثون فلساً . . عشرون . . عشرة . . قشر البيض في جيوبي .
- قل لي كم عدد ضحايا هولاكو في بغداد .
- دجاجة واحدة يا أستاذ .
- ما الذي أغرقه في نهر دجلة . . .؟
- دفاتري يا أستاذ .
- حقاً غبي . .
- ولما لا يكون هو الغبي حيث أنه يهزأ مني وأبوه هو الذي يحل له المسائل . .

دفاتري . . دجاجة واحدة . . ثلاثون فلساً . . جرح في رجلي . . أصابعي المطلة من الحذاء . . طلعت نجمة الصبح . . المدرس الذي ينظر إلى شزراً . . .

- تعال يا حقير . . كيف تقول أنه غبي . .؟
- لأنه قال لي أولاً .
- ولو!!
- ولماذا لا؟
- كيف تجرؤ حتى ولو قال لك . . هل أنت مثله . . ألم تر شكلك؟ شكلك . . . شكل من . . متورمتان . . الدم ينزف منهما . . لماذا لا أتألم؟!
- اجلس على هذا الكرسي . . اخلع حذاءك . . ثبت قدمك على حافة الدرج إياك أن تحركهما . . ثلاثون فلساً . . دجاجة واحدة ألم تسمع الديك . . آه

خيزرانه طويلة تلتوي على قدمي . . أتسخر منه عندما قال لك يا غبي . . لماذا ترد عليه؟ من حقه أن يشتمك ومن واجبك أن تسكت . . قدمان أكبر من الحذاء متورمتان دون إحساس . . دم ينزف منهما ، تعلم أن تحترم من هم أحسن منك . . لا فائدة من الحذاء . . لم لا أسير حافياً . أليس الله خلقني حافياً! لا يؤثر بك الضرب لأنك لم تتأوه ولم تبك . . لابد لك من عقوبة أخرى . . أكتب الجملة التالية مائة مرة حتى تشتم من هم أحسن منك ، أكتبها مائة مرة . . هل تسمع . . الناس سواسية كأسنان المشط . . أين الكبريته . . أين الحذاء . . لا حاجة لي به رجلاي لا تحسان وهما أكبر منه . . الطعام لا حاجة لي به . . لا يهم .

– أين الكبريتة؟!!

– لا أدري . .

– لن نستطيع أن نوقد ناراً ، ولا أن نصنع رغيفاً من الخبز أطفأ المطر كل شيء . . ومع غروب الشمس أويت إلى فراشي . . هولاكو . . كبريت . . قائد المنطقة . . الناس سواسية كأسنان المشط . . . .

١٩٤٦ ، حين أعلن تتويج الأمير عبدالله ملكاً ، ولهذا التاريخ حكاية ، «التتويج عندنا يقام بمناسبته عرض عسكري واحتفال في منطقة تسمى (خوّ) ، وقيل أن الاحتفال سيكون مهيباً ، وحين سمع والدي بالأمر قرر أن يذهب لحضور الحفل وسط من سيحضر من الشعب ، وحينها ذهبت معه ، وكانت المرة الأولى التي أذهب فيها إلى عمان ، لكن كيف ذهبنا؟ تلك هي المسألة . . فلم تكن هناك مواصلات منتظمة من عزرا إلى عمان ، فانتظرنا عند قريب لنا مرتبط بعلاقات تجارية مع عمان ، وعثرنا على سيارة تحمل بطيخاً ، لتحملنا معها إلى عمان مقابل مبلغ زهيد . . وركبنا فوق البطيخ ليلاً ، وحين وصلنا نزلنا في فندق بسيط كان والدي يعرفه من خلال الزيارتين السابقتين للعاصمة ، الليلة فيه بخمسة قروش . . وفي الصباح التالي ذهبنا إلى مكان الاستعراض العسكري ،

وانبهرت بعمان ، فلأول مرة أرى الدكاكين وعليها يافطات بأسمائها المضاءة بأضواء ملونة ، وقررت أن أقرأ كل الأسماء خلال سيري في الشارع .

قبل المدرسة كنت قد دخلت الكتاب عند واحد من أبناء عمومة أبي ، وكان شيخ دين ، في قرية تبعد عن قريتنا ثمان كيلومترات ، وحفظت القرآن مع ثلاثة من قريتي وأخي ، كما كنت أقرأ عند الحاج حسن والشيخ فرحان رحمهما الله . . لذلك كنت قادراً على قراءة اليافطات .

رأينا الملك وهو يستعرض الجيوش المتواضعة والدبابات والأعلام ، وكانت وقتها بدايات قضية فلسطين ، وكانت قد بدأت تتشكل لدينا مبادئ الوعي السياسي بما نسمعه من الأساتذة خلال حديثهم في السياسة . . لقد كان موقفاً مهيباً وفريداً بالنسبة لي أن أرى الملك في هذه المناسبة .

كانت طريقة انتشار الأخبار حين اقتنى أحد أقاربي راديو ، وكان الأهالي يتجمعون عند الراديو لسماع الأخبار ، وأذكر صوت يونس البحري الذي كان يذيع من إذاعة الشرق الأدنى ، وكان ذلك أول تفتحنا على العالم من حولنا .

أذكر أن سنة ١٩٤٧ كانت سنة عجفاء بلغ فيها الفقر مداه ، حتى أن الناس صاروا يأكلون الشعير والحمص ، وأذكر أن الأمريكان يتقربون إلى الشعوب ببرنامج النقطة الرابعة حيث كانوا يوزعون على المدارس الحليب ، يغلونها في قدور ويدعون الطلاب الذين يتوسمون فيهم الفقر ، فكنا نشرب الحليب ، وفي إحدى المرات أتوا إلينا يوزعون أكياس قماش بها قمح ، والأكياس مرسوم عليها يدان تتصفاحان ، فكان كثير من الناس يستفيدون من الأكياس في تفصيلها كملابس يرتدونها ، وقد ارتسمت على أقفية بعض الناس اليدان المتصافحتان ، وقد كتب تحتها (هدية من الشعب الأمريكي) . . وذات يوم جاءوا ببالة من الأحذية كهبة للفقراء من الطلاب ، وكان معي كثيرون من الطلاب عنوانهم الفقر المدقع . . كانت المعاملة مهينة من قبل المدرسين حيث دعونا لأخذ أي زوج من الأحذية وبسرعة ، فلما أدركني الوقت أخذت أي حذاء أمامي لم تكد

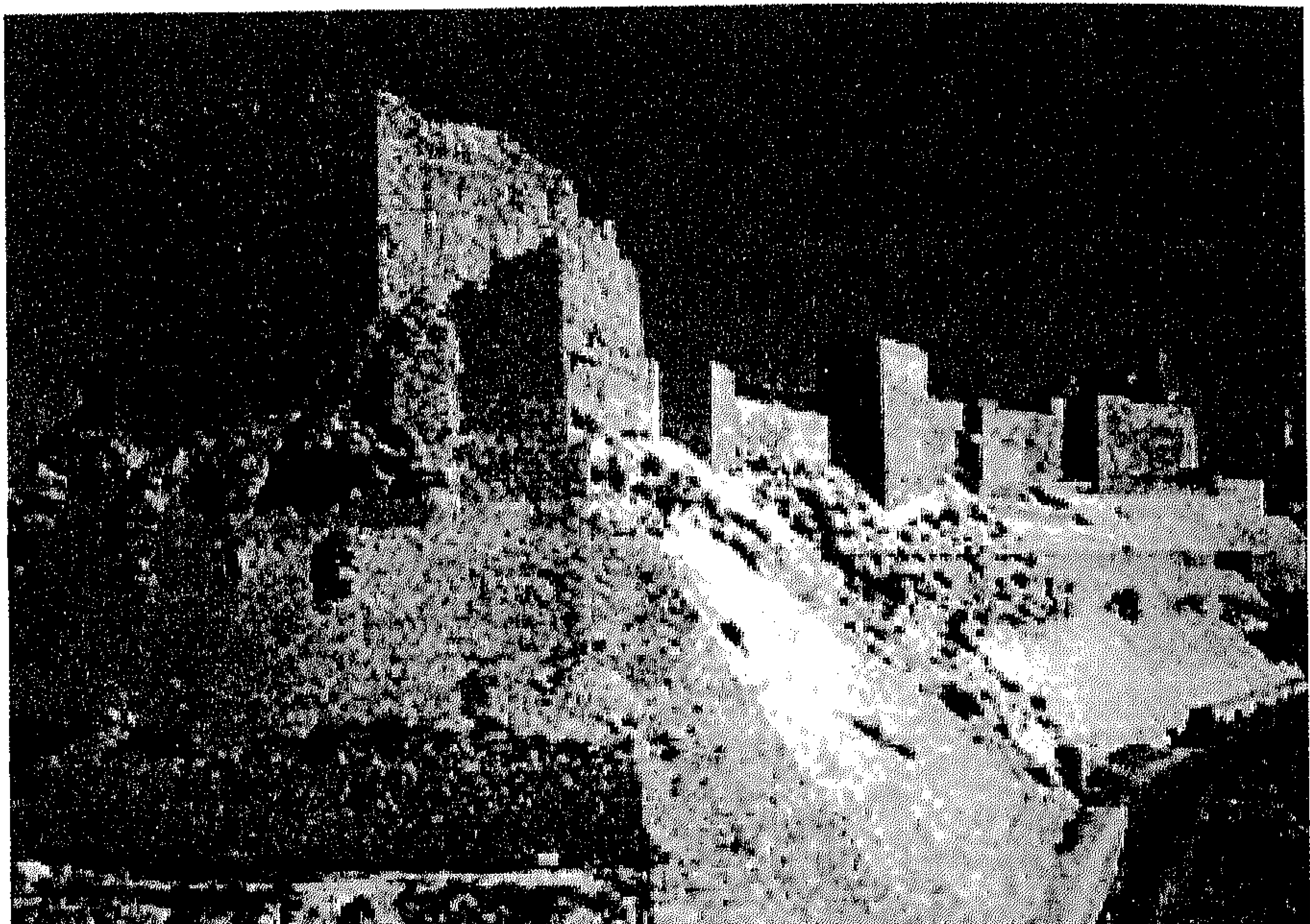
قدمي تدخل فيه إلا إلى ثلثيها ، فكورتها داخله وكادت روحي تخرج من جسدي ، لكنني أخذت الحذاء كي أعطيه لمن يناسبه من إخواني ، ولما ابتعدت عنهم غيرته وارتديت حذائي القديم .

الصورة كانت مؤلمة ، أذكر أننا كنا نساق إلى الحليب كما تساق الغنم ، وكانوا يصبون الحليب في كوب ، ومن يشرب يأخذون منه الكوب ليصبوا فيه الحليب لمن يأتي خلفه ، حتى من كانوا من أبناء وطننا كانوا يحتقروننا ، وأذكر مرة سألني أستاذ سؤال ما ولم أجبه إجابة صحيحة فقال لي : «ما أفادت فيك التغذية»! وشعرت ساعتها بالمهانة والألم .

كل الذكريات مؤلمة وقاسية والضرب كان أبسط مشاهد الإرهاب . «إذا جئنا متأخرين بسبب المطر ، ورغم معرفة الأساتذة لظروفنا وأننا قادمون من القرية ، كانوا يجعلوننا نصطف ويضربوننا بالعصا على أيدينا ، وكنا نجلس في الصف وملابسنا مبتلة يسيل الماء منها على أرض الصف حتى نهاية الدوام . . أتكلم عن المئات بل الآلاف من جيلي ، كثيرون غيري توقفوا عن مواصلة الدراسة لهذه الأسباب ، لكنني تحملت شظف الحياة وقسوة المدرسين ، لذا فإن الخريجين آنذاك كانوا قلة .

رغم قسوة الحياة والأساتذة ، كنا نجد متعة في سويعات ليلية قليلة نقضيها في (التعليلة) ولعب (الفنيجيله) ، والاستماع إلى هذا الرجل المسن ، «كان حافظاً للأدب الشعبي ، ويحكي قصصاً من أيام العرب ، ويتحدث عن حكايا البدو ، وفي كل حكاية ختام بقصيدة بدوية ، ومنذ ذلك الزمان تفتح ذهني على الشعر النبطي ، فكلما يكون موجوداً كنت أذهب لأستمع إليه .

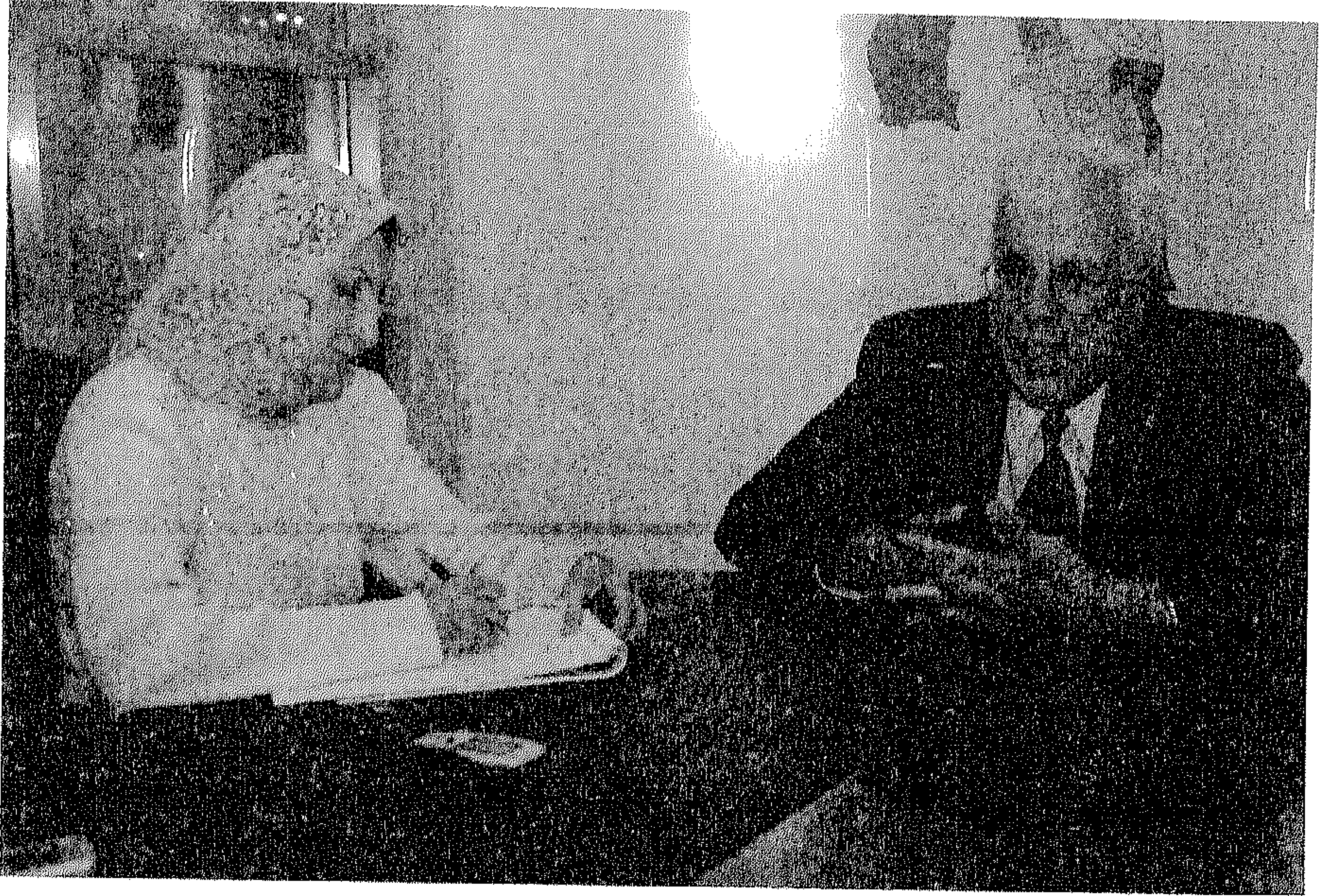
وتمضي الأيام ، ويرسم لي القدر أن أتزوج حفيدة هذا الرجل لإبنه ، وكان ذلك قبل ولادتها بعشر سنوات ، فكنت آنس لحديثه دون أن أعرف أن قدري سيكون مع حفيدته»!



قلعة الكرك



أصدقاء المدرسة يحيى الشمايلة ، حسان الفرحان ، عبدالحميد المحادين ، إحسان الفرحان



مع الصحفية رندة فاروق – جريدة الوطن

(٤)

* **ذكريات الطفولة البريئة في حياة قمة في البدائية والقسوة والشظف**
* **كاد والدي يقتلني رعباً في «سخلة»**
* **علمني والدي درساً في الشجاعة بطريقة مختلفة.. وأظنني لم أتعلم!!**
* **حزناً على أخي.. كانت الوالدة تدخل في الإغماء.. ويقطع الوالد الطريق من الكرك إلى عزرا باكياً**
* **«بريموس» كان أول مظاهر التكنولوجيا في بيتنا!!**
* **أتساءل حين نضجت.. متى كان يتاح للوالدين اللقاء الحميم ونحن نعيش في غرفة واحدة!!**
* **مظاهر اللهو والشقاوة في حياة أطفال القرية وسط الثلوج والأمطار وانتهار الوالد**
* **قصة أول كرة اسفنجية اشتراها لي الوالد؟!**

وتبقى الذاكرة متشبثة بالأيام الأولى من حياتنا وطفولتنا ، غير قادر على الخروج منها بسهولة ، حتى أن العديد من تلك الذكريات كانت تثير تعجبي واستغرابي ، فكيف عشت هذه الطفولة في حياة قاسية يحفها الشظف والقسوة؟! فلا ماء ولا كهرباء ولا تليفون أو مدرسة أو مركز صحي! بيوت بنيت

من الحجارة والطين ، ولا تجد فيها بيتاً مبنياً من الاسمنت ، والغريب أنها لم تكن تذوب مع المطر! بيوت خالية من أي لمسات جمالية أو هندسية! بيوت لم تكن مقسمة على أساس غرف ، وكأن الإمكانيات المادية لم تكن تسمح بهذا التقسيم ، أم أنه الفقر هو الفيصل في الأمر ، فالأسرة كانت كلها تنام في غرفة واحدة!!

من الطرائف أنني عندما كبرت واستحضرت هذا الأمر في الذاكرة كنت أتساءل (متى كان يتاح للوالدين اللقاء الحميم) فقد كانا من الذكاء حين يقتنصان اللحظات ودون أن نتتبع أي علاقات سوى أنهما زملاء ، لكن كنا نفاجأ أن الأسرة تزداد فرداً كل سنتين أو ثلاثة أو أربعة ، ولم نكن نشعر بتكاليف إضافية ، فما كان يكفي أربعة أفراد يكفي الخمسة ، ومن عجب أن الذين ماتوا من الأبناء هم أول بنت أنجبوها وآخر بنت ، وولد هو الثاني في الترتيب الرأسي من الأعلى .

حزنت أمي على فقدان الابن الأكبر الذي توفى حين كان عمره حوالي العشر سنوات : كانت تخفي من الحزن أكثر مما تبدي ، وكانت تبكي بطريقة مفجعة ، ورغم مرور الأيام إلا أن الزمان عجز عن أن يخفف من حدة الحزن ، حتى أنها كانت كثيرا ما تغيب عن الوعي وتدخل في غيبوبة ، وأذكر إحدى هذه النوبات كانت بجانب شعلة (البريموس) وهو موقد بدائي يعمل بالكيروسين نادرا ما كان يوجد في قريتنا مثله وحصل عليه والدي من عرب شرق الأردن الذين كانوا يجتازون البحر الميت ويهربون هذه الأشياء من الضفة الغربية ، فكنا نعتقد أن أمي محسودة بسبب هذا التميز الذي كنا نمتلكه في بيتنا . . لكن بعد فترة وجدناها انجبت أخاً لنا نسخة طبق الأصل من أخينا الذي توفى ، وكأن الحزن أثر فيها لتعوض من فقدته ، وقرر والدي أن يسمياه على اسم أخي المتوفي (محمود) ، وإن كنا لا نجرؤ على أن نناديه باسمه ، أما والدي فكنت الوحيد الذي أرى حزنه ، حين كنا نعود من الكرك راكبين على البغل وكان ينشج

بالبكاء طوال الطريق حتى نصل إلى القرية فيكفكف دموعه ، ولم يبق من هذا الولد إلا قصيدة بدوية بخطه يحتفظ بها الوالد ويردد مطلعها (يا كليب شِب النار يا كليب شِبَّه) بخط هذا الابن ولم يبق منه سواها حتى الصورة فلا صورة له لدى العائلة ، وحفظ الوالد القصيدة ضمن أرشيفه الخاص الذي يضم كل شهاداتنا رغم أنه لم يكن يقرأ!

رغم احتفاظ والدي بكل الأوراق المهمة ، إلا أنه فقد عقد زواجه بوالدتي الذي كان عام ١٩٣٠ ، وحين قررا التوجه إلى الحج في الستينات كان لابد لهما من جواز سفر يتطلب أوراقاً ثبوتية للزواج ، فلم يجدا إلا أن يعقدا زواجهما من جديد ، لكني قمت بمحاولة أخيرة قبلها وذهبت إلى سراي الحكومة الذي شيد منذ عصر العثمانيين وبه محاكم الكرك ، ودخلت مخزناً للأوراق بعد أن استأذنت ، وكانت المفاجأة غير المتوقعة أن عثرت على عقد زواجهما الأصلي بين الأوراق المتكومة .

هذه الحياة البدائية جعلتني أهوى حياة البداوة واحن إليها بين آن وآخر ، احب البر والريف ، ولا أخشى العتمة ، تآلفي مع الحياة الوحشية الخشنة ، واكره المدينة ، لذلك حين كنت اذهب إلى الكرك كنت استمتع فيها بدرجة تجعلني اكره الظروف التي تضطرني بين آن وآخر أن أذهب إلى عمان العاصمة .

حبي لهذه الحياة البدائية ربما كان والدي وراءها دون أن يشعر ، أتذكر موقفاً اعتبره الآن من الطرائف وأستحضره بروح فكاهية رغم صعوبته وهوله لحظتها . كان والدي جسوراً ، وكان يريدني أن أكون مثله ، وفي إحدى المرات سقطت (سخلة) وهي صغير الغنم في بئر الدار . والدار عبارة عن غرفة من غرف المنزل مبنية على القناطر وداخلها بئر مظلم لم أكن آلفه ، فطلب مني النزول لجلب السخلة فرفضت متعللا بالخوف ، فاستغرب خوفي وخشي علي أن أصبح جباناً ، فما كان منه إلا أن ربطني بحبل وأنزلني إلى البئر المظلم ومعي ضوء صغير لا يكاد يضيئ شيئاً ، ثم وضع حجرا على باب البئر كمبالغة في تعليمي

درساً في الشجاعة! تركني فترة كدت فيها أن أموت هلعاً ، لكني بعد فترة استعدت جأشي ، كانت حينها والدتي تتوسط لدى والدي كي يخرجني ، فعاد إلي وسحبني بعد فترة ، والغريب في الأمر أن أحكام آبائنا لم تكن منطقية أحياناً! وان هذا الدرس لم يعلمني الشجاعة . . إطلاقاً .

من أصعب الفترات وهي مرحلة الحرب العالمية الثانية واسم هتلر الذي كان يتردد بكثرة في أرجاء المنطقة ، لا أدري . . إن كنت سمعت اسم هتلر ، مرة أو مرتين حين كان الرجال من تلك القرية ، البسيطة ، الوادعه ، التي لم تمر بها الحضارة ، ولم تعرف من الأضواء سوى الشمس نهاراً والقمر ليلاً ، بعض أيام الشهر ، وقناديل بالكاز تكاد تختنق من كثافة الظلام حولها . . وان الرجال يذهبون في النهار إلى المدينة المجاورة «الكرك» لتوفير بعض الحاجات الضرورية ، ويركبون الدواب . يتحدثون في الذهاب . . ويتحدثون في الإياب . . أحاديث لا تتجاوز همومهم اليومية ، وما أكثر همومهم اليومية ، وكان كثيرون منهم يردفون خلفهم أبناءهم ، في هذه الرحلة التي تكاد تكون يومية ، لا سيما في فصل الصيف . ولقد سمعتهم مرة يتحدثون عن هتلر ، وعن الحرب والغلاء . . وارتفاع الأسعار ، ونقص المواد . . ويتحدثون . . أحاديث شتى . . غير مترابطة وغير منظمة . . ليس لهم من عمل إلا زراعة الأرض ، وانتظار المطر ، هذا المطر . . الذي إن نزل . . وفي موعده ربما ينبت الزرع في الحقول . . القمح والشعير والعدس والذرة ، . . وربما تمتلئ الآبار بالماء ليشرب منها الناس والدواب فترات الصيف . فكان المطر . . وكانت الشمس والقمر . . وكان الناس ببساطتهم حتى لا تكاد تميز بينهم وبين دوابهم ، وكأن العلاقة بينهم في مواجهة شظف الحياة . . وحدتهم وجعلتهم في صعيد واحد متشابهين . . يجولون معاً . . ويأكلون معاً . . ويعطشون معاً . . ويشربون معاً . . ولا أذهب بعيداً إذا قلت أنهم يسكنون معاً . . في حجرة واحدة . . !! .

كانت المساكن . . مهيأة لاستقبال هؤلاء جميعاً . . دون تفريق .

وتتوزع الكائنات المتحركة من أوادم وحيوانات ودجاج .

لم تكن القرية مزدحمة بالناس ، وكان ساكنوها في معظمهم من قبيلة واحدة ينتمون لأب واحد . . لم يبتعدوا عنه كثيراً . . ولذا فهم أخوة وأبناء عمومة . . وقليل منهم أفرع تمتد إلى الجيل الثالث . .

الناس في تلك القرية ، رمز للحياة الشظفة ، وجوه قاسية ، وصادقة وحزينة ، ويبدو عليها غبار المعاناة والحياة البائسة ، في حدودها الدنيا . . يتفرقون نهاراً ، في حقولهم حين يحرثون الأرض . . ويدفنون الحبوب . . وينتظرون . . الشهور . . لجني الحصاد . . وقلما يُجنىَ حصاد ذو قيمة وهذه هي صيغة تلك الحياة ، وتمر الأيام دون أن تعد بشيء . .

في المساء كان الرجال يلتقون وبشكل دوري في إحدى الدور ويتناوبون توجيه الدعوة إلى هذا اللقاء الليلي

أقصى ماتصل إليه ذاكرتي . . كنا في أسرة مكونة من أب . . وأم وأخوان ، أحدهما أكبر مني والثاني أصغر . . كنت الأوسط . . بين ثلاثة إخوة من الذكور . . لا أذكر كيف كنا نقضي أوقاتنا . . لكنني اذكر أن طفولتنا لم تكن . . تختلف كثيراً . . عن الحياة العامة التي يحياها الكبار . . نلهو في الحوش الكبير . . . نركض خلف بعضنا . . نتراشق بالحجارة . . أو نعبث بالجنادب . . التي كثيراً ما كانت تظهر في فصل الربيع والصيف . . أو نطارد السحالي ، ونقبضها ، ونقتلها . . أو ننصب كمائن للقطط ، وللعصافير . . أو نلعب الاستغماية مع أبناء الجيران الذين هم في نفس سننا وطفولتنا . .

وأذكر حياة الشظف التي رافقت حقبة الحرب العالمية الثانية ، في السنة الخامسة زادت الأسرة واحداً . . حيث شهدت ولادة أحد أخوتي . . لم أكن أذكر ولادة الذي يليني . . ولكن أذكر الذين يليه . . ولقد كانت النساء يلدن محلياً ، دون تدخل طبيب أو مستشفى ، لأنه لم يكن هناك طبيب ولا مستشفى . . ولا حتى أي شكل من أشكال الإسعافات في القرية . . والطبيب

كان في المدينة المجاورة والمستشفى الوحيد فيها هو مستشفى الإرسالية الإيطالية ، والذي أسس في عشرينات القرن الماضي . .!! . وكانت النسوة يلدن كما تلد بقية إناث القرية من الحيوانات . . وتخف للمرأة جاراتها ، يساعدنها على الولادة ، دون خبرة ودون دراية بطبيعة الحال . طب بالفطرة .

وكانت الحياة تمر هكذا . .

فوق هضبة تمتد شرقاً على امتداد النظر . . حتى تختلط بالصحراء ، وتنحدر غرباً إلى أودية عميقة ، ومخيفة . . في طفولتي ، اشترى لي أبي كرة صغيرة من الاسفنج المضغوط . . وأخذت ألعب بها بجوار القرية في الجهة الغربية حيث الأرض تنحدر إلى وادٍ رهيب «وادي الشنار» . . وما كدت أحذف الكرة إلى أحد الأطفال اتجهت إلى المنحدر . . وأخذت تقفز ، وكل قفزة ترتفع أكثر من سابقها . . وتبتعد . . وإنني ركضت خلفها قليلاً . . ولكن بعد فترة ليست بعيدة رأيتها وقد دخلت في الفضاء وصارت كذبابة وهي هاوية في سفوح ذلك الوادي البعيدة . . وعدت أجرجر أرجل الحسرة . . وربما كنت قد بكيت حينها . .

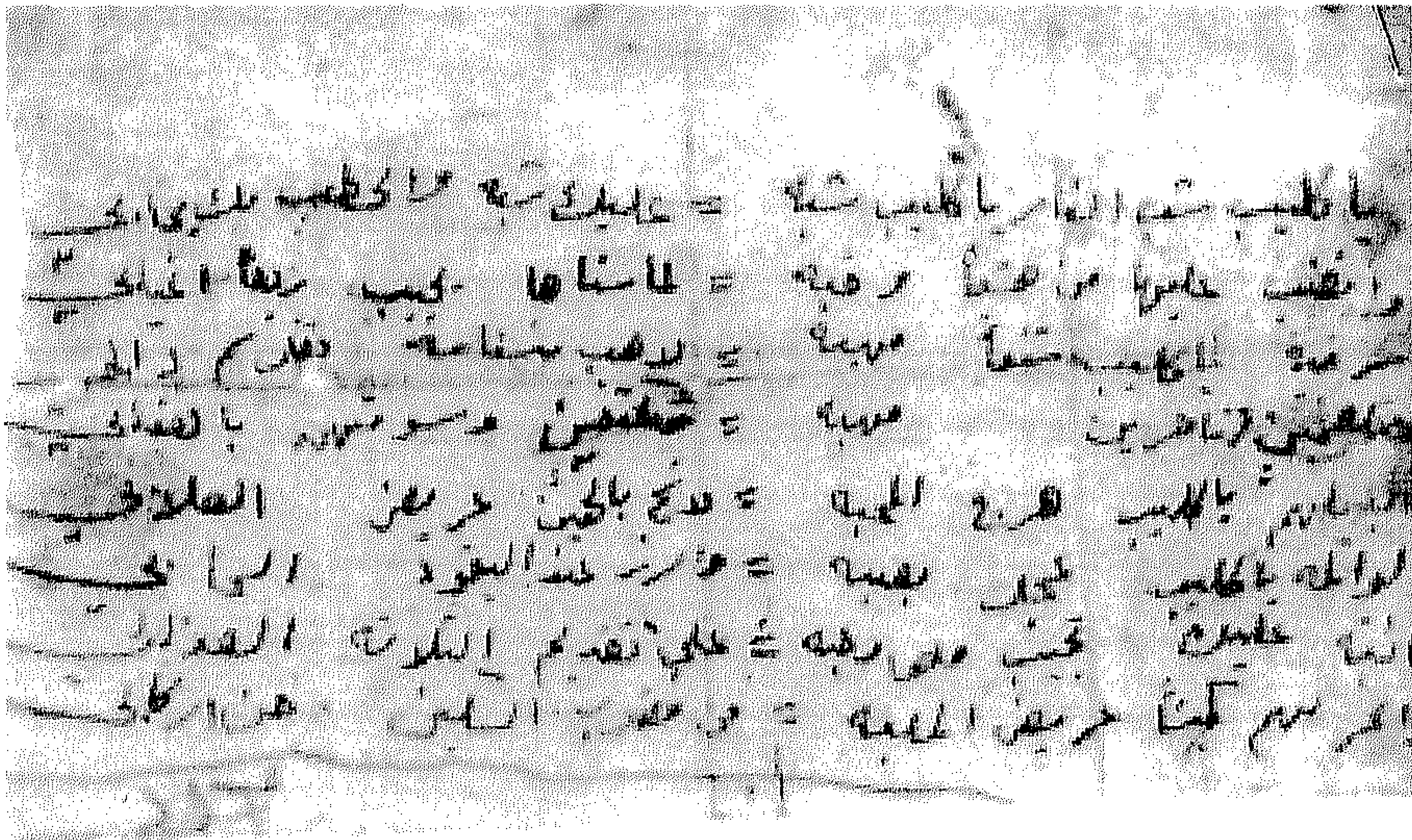
بدأت أسرتنا تكبر قليلاً وأصبحت مكونة من الأبوين وأربعة أبناء . . وبضع دجاجات . . بغل وحمار . . ولكنا نأوي إلى مكانين متجاورين . . ولأن المنطقة تقع على مرتفع فقد كان البرد شديداً ، والثلوج تنزل أحياناً وتغطي الأرض وتصبح كلها بيضاء . . سرعان ما نتراكض فوقها حفاة . . وشبه عراة . . ونلقي بكرات الثلج ونضرب بعضنا بعضاً . . ونتصايح ونتقافز كالسناجب فوق الثلج ، وإذا ما انتهرنا الوالد . . نتراكض خلف بعضنا . . وبسرعة وندخل إلى الحجرة المشتركة التي كنا جميعا نعيش فيها . .

لم نكن نحس بالفصول الأربعة رغم تمايزها الشديد . . الشتاء . . برد قارس . . وثلج . . وجليد . . وأمطار غزيرة .

والرجال يشقون القنوات ويصلحونها ليسيل ماء المطر إلى الآبار ، والدجاج يختبئ في الأماكن البعيدة المظلمة ، والدواب تجتر وتأكل ما أمامها من تبن

وحشيش أحياناً ، وكنا نجتمع مرتين على الأقل يومياً حول طعام الأسرة . . وكانت الوالدة تصنع الخبز محلياً . . حيث . . في حجرة صغيرة . . حفرة فيها نصف كرة من الطين . . مفتوحة من الوسط ، لها غطاء ، توضع . . وتغطى بالتبن وأعواد الحطب . . وتشعل بها النار . . وحين تختزن الحرارة في الحصى الأملس المنثور داخل هذه القبة الصغيرة . . تأتي الوالدة . . وتفتح هذه الحفرة . . وتضع فيها العجين لتحولها إلى أرغفة . . ومن ثم تغلق الحفرة . . وتغيب وتعود بخبز قد نضج وصار شهياً .

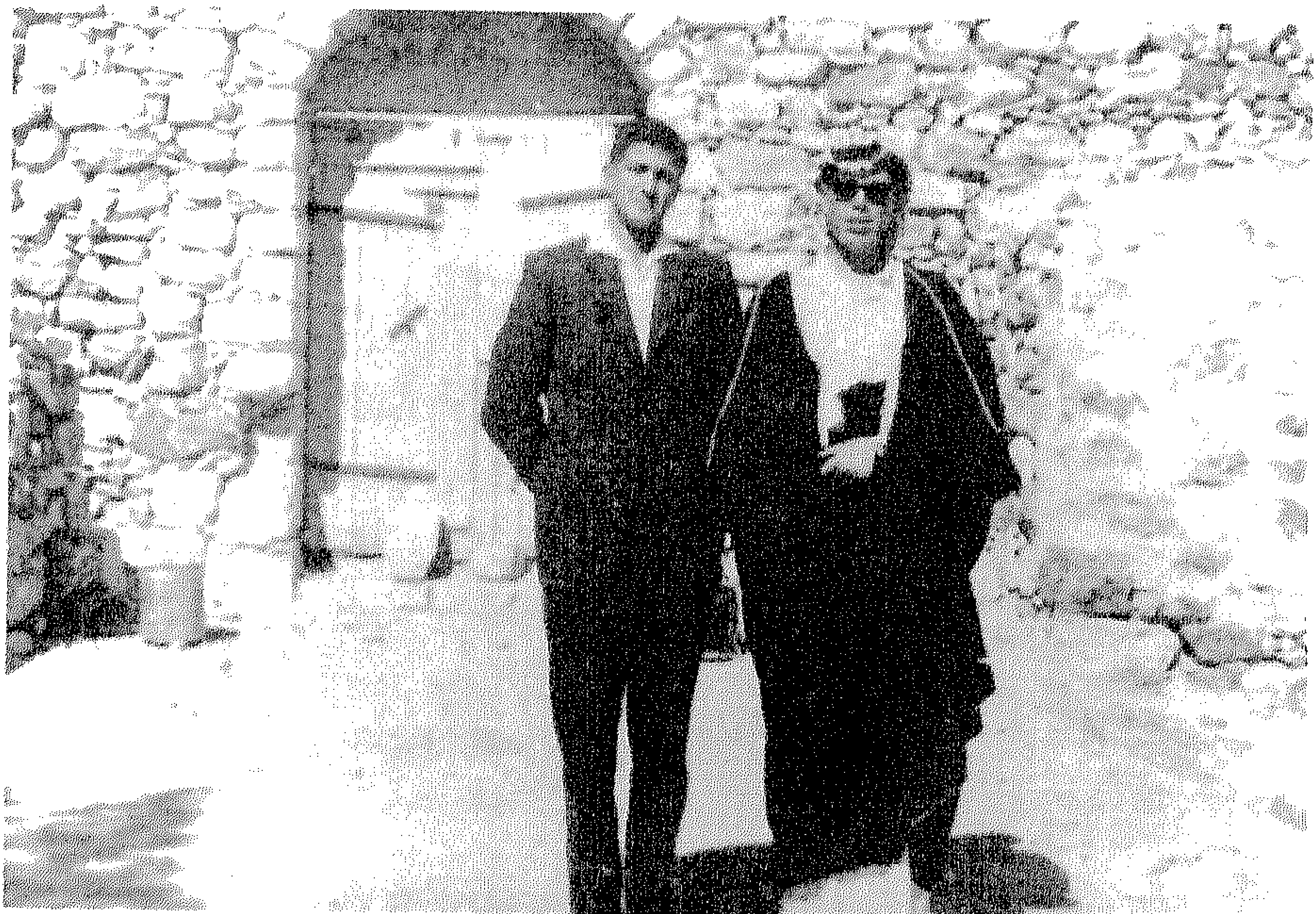
كنا ونحن أطفال نتسلل إلى مأوى الدجاج ويسمى «الزرب» حيث نسرق البيض . . ونذهب ونشويه في ذلك الفرن البدائي المعد محلياً . . وحين ينضج البيض . . نتسلل إليها ونخرجها ونقشرها . . ونقضمها . . .



هذا كل ما بقي من أخي الأكبر ، المتوفي منذ ٦٥ سنة



والدتي مع ابنائي : ساسان ، سيروز ، سيمين



أنا وشقيقي صالح أمام بوابة بيتنا في عزرا حيث ولدنا ونشأنا

(٥)

❖ بين التاريخ وتعاقب الحضارات تبقى الكرك قابعة عبر الأزمان

❖ لست أنسى أنني صبي غساني من أسرة لها جذور في التاريخ ولأسلافها مواقف في موقعة مؤتة؟!

❖ مازال على جباهنا شيء من غبار مؤتة!

❖ في الكرك.. قلب متحف التاريخ سمعت لأول مرة عن البحرين عام ١٩٥١

❖ كيف نطق أستاذ الجغرافيا كلمات (المحرق) و(البديع) و(ابراهيم العريض) حين حدثنا عن البحرين؟ وماذا اكتشفت بعدها؟

❖ أرضنا مذكورة في الآية «غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين»

❖ من مؤتة ولد خالد بن الوليد عسكريا وأصبح سيف الله المسلول

لابد من الربط التاريخي بين تاريخ عريق موغل في القدم وبين قرية (عزرا) المندرجة تحت مظلة (الكرك) ، تلك المدينة التي تعاقبت عليها حضارات زخرت بها كتب التاريخ ، فهي كأنها متحف تاريخي . . عزرا والكرك تواجدتا في ثنايا التاريخ وبين أروقة الغزوات والمواقع والحروب وعبر الحضارات والأمم .

كنا نعيش في منطقة أشبه ما تكون بالمتحف التاريخي ، نعيش في بيوت بسيطة مبنية فوق الجبل ، بجوار جدران من الحجارة الكبيرة وحينما نحفر في

الأرض نجد هناك القاعات ، والشبابيك ، إنها سائدة في هذه المنطقة وآثارها ماتزال ماثلة في أماكن كعمان وجرش ، ومطمورة تحت التراب كما في قريتنا وما جاورها .

وبعد الحضارة الرومانية كانت هذه المنطقة هي الموطن الذي رحل إليه الغساسنة من اليمن واعتنقوا المسيحية في بلاد الشام وقبل الرومان تقف التسميات شاهدة على أنها كانت موطناً وممراً للعبرانيين ، ولموسى عليه السلام . . وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم .

فحين تقف على تخوم قريتنا البسيطة . . تتراءى لك سير الأنبياء . . موسى ، وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم ، ها هي آثار موسى ، وها هي آثار عيسى ، وها هو الإسلام حاضراً بكل ثقافته وحضارته .

ها هي العمارات الرومانية ، وها هي القلاع التي بناها الصليبيون المسيحيون ، وثم بنى مثلها المماليك . ها هي ذكرى صلاح الدين ، والظاهر بيبرس . . إنهم في الكرك ، نعم في الكرك . . ها هي جيوش الرومان الجرارة ، وهي ذاهبة إلى القدس للشكر لانتصارها على الفرس ، الذين كانوا غلبوهم ، ولكنهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . وهذا ما وقع في التاريخ .

يا الله كم يمكن للإنسان أن يتخيل وأن يستحضر وأن تمتلئ روحه بهذه المشاهد . .

كم في الذاكرة التي كونتها عبر السنين من خلال اطلاعي وشغفي بالمعرفة حول كل ما يتعلق بقريتي ومدينتي عبر التاريخ والأزمنة المتعاقبة ،

عزرا ، عيزار ، الكرك ، مؤاب ، ميشع ، موسى عليه السلام ، العبرانيون . . القدس ، الخليل ، البحر الميت ، ولوط عليه السلام . . أليس اسم هذا البحر «بحيرة لوط» والمخطوطات التي تنكشف عاماً بعد عام . . وهذه الآثار التي في هذه البقعة . . وكثيرون من المهتمين بها يبحثون عنها ، سراً وعلناً ، ولا تستغرب أن تسمع بل ترى فرقاً تتسلل ليلاً ، للبحث عن الآثار لبيعها إلى المهتمين بها

وتصديرها ، وتجد حفراً في الأرض هنا وهناك ، وقصصاً وحكايا عن عثور على ذهب ، في مغاور . . هكذا تنتشر في الحكايا الشعبية ، يتحدثون عن الكنوز ، وكل كنز له راصد ثعبان لا يرحم . . هكذا يقولون . . وكثيراً ما يُرى رجال من المغرب يستخدمون في قراءة العزائم ، واستخدام الجن ، والكشف عن الكنوز ، هكذا . . يتبادل الناس الحكايات .

«أنت في مؤاب ، في الكرك . . محاط بالتاريخ ، وبالدلالات وبالأسماء وبالحضارات . . ها هي اليهودية وها هي المسيحية ، وها هو الإسلام . أنت في مكان روحاني ، على بعد كيلومترات قليلة هناك المشهد حيث المعركة التي قامت بين البعثة الإسلامية وبين الغساسنة والروم . . الجيش الذي جاء للشكر ، وتصادف وجود بعثة محمد عليه السلام ، ونشبت معركة مؤتة . . مؤتة التي ماتزال حتى هذه اللحظة يقترن باسمها عبدالله بن رواحه وجعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة . . مؤتة التي بدأ تاريخ خالد بن الوليد منها حيث استشهد القادة الثلاثة ، فأفرزته البعثة قائداً واستطاع أن يخلص من هذه الحرب غير المتكافئة ، ويعود إلى المدينة مدينة الرسول ويقول له الرسول صلى الله عليه وسلم «أنت سيف الله المسلول» .

مؤتة التي نحمل نحن أبناء هذه المنطقة ، غبارها على وجوهنا دائماً ومانزال نعيش مع أهلها وهم يروون أنه في صبيحة كل جمعة ومع إشراقة الشمس يرون الجيوش في الأفق ، والسيوف تلمع والخيل تتدافع ، بمجرد أن تقف في مؤتة وتنظر شرقاً إلى المشهد . .

يا للهول . . الآن في هذا المشهد الذي اشتق اسمه من تلك الواقعة . . تقوم فيه الآن جامعة مؤتة ، بمبانيها ومساحاتها . . وتحت كل مبنى جماجم من أهل تلك البعثة المشهورة .

ووادي مؤتة الذي تواتر لدى الناس أن المشاة ، أو راكبي الدواب لا يقطعون هذا الوادي إلا مسرعين ، تنتابهم السرعة تلقائياً وبلا تفسير . . وادي مؤتة

مانزال إلى اليوم نمر به . . عبق التاريخ يتفجر من أنحائه . . وبقرب مؤتة هناك المزار . . حيث قبور الصحابة الثلاثة . قبر زيد بن حارثة وقبر جعفر الطيار . . وقبر عبدالله بن رواحه . . ولعل ذراعي الطيار قد سقطا في المشهد وامتزجا بترابها . . أي تاريخ مهيب هذا» .

إلى هذا الإرث يعود تاريخ عشيرة (المحادين)؟

«هنا كان الغساسنة العرب القحطانيون ، الذين هاجروا بعد إنهيار سد مأرب فأسسوا الممالك حيثما حلوا . . في بُصرى الشام حل الغساسنة وفي الحيرة كان المناذرة ، وفي وسط الجزيرة حيث مملكة كنده .

تكاد تذكر وأنت في هذه البقعة النائية حيث الغساسنة ، والنابغة الذبياني ، الشاعر الذي عاش في بلاط المناذرة ثم بلاط الغساسنة الذين قال عنهم :

ملوك وأخوان إذا ما أتيتهم
أحكم في أموالهم وأقرّبُ

وهو يتنقل بين الحيرة وبُصرى .

إنني من أسرة انقسمت على نفسها في التاريخ ، فكانت مسيحية أيام الغساسنة وبعد الغساسنة ، وانشق منها جزء وأعلنوا إسلامهم . . يا للتاريخ . . إنني أكاد أستحضر جدودي وقد علقوا على أبواب منازلهم إبان وصول بعثة المسلمين إليهم ، علق كل منهم على باب منزله صليبين ، علامة فارقة بأن الذين في داخل هذه المنازل هم حلفاء لأقاربهم القادمين من الحجاز . . وهم حلفاء لهم ويعدونهم بأنهم سيكونون مسلمين حيث يكون الإعلان مأموناً وهكذا كان . . والعائلة منقسمة الآن إلى مسلمين ومسيحيين . . والمسيحيون من العائلة الذين ذهبوا ليقيموا في ماديا بعد أن قطعوا وادي الموجب إلى ذيبان . . ثم إلى ماديا

يا للتاريخ . . إذا حفرت في عزرا . . حيث أقام والدي ووالدتي وأقاربنا فأنت

تواجه الآثار المختلفة وقد تعثر على لوحات من الموزاييك جميلة . . وربما كان هناك كنائس وربما كانت هناك أديرة ، وربما كان هناك مساجد . . وهناك الآن آبار هائلة لجمع المياه . . وهناك إشارات لطرق كان الحجاج يسلكونها في طريقهم إلى مكة في التاريخ الوسيط ، وهناك آثار علماء وفقهاء وحضارات كلها في الكرك . . وعزرا قرية من قرى الكرك ،وهي واحدة من منظومة تشترك معها في هذا التاريخ العميق» .

«فوق هذه الآثار وفوق هذا التاريخ الممتد العريق ، وفوق تلاقٍ من الديانات السماوية الثلاث ، وفوق تلاقي التاريخ هنا ، العبرانيون واليونانُ والرومان ثم المسلمون والمماليك والصليبيون وهذه القلاع ، وهذه الآبار ، وهذه الأودية وهذه الآثار . . وبقربنا البتراء من عجائب الدنيا السبع التي نحتتها أبناء عمومتنا الأنباط .

والآن أتساءل مندهشاً حول وجودنا على أرض ثرية بتاريخ عريق ، فتصبح الحياة عليها قمة في القسوة وشظف العيش : إنني ذلك الصبي الذي هناك ولد وعاش

كان الصبي وهو يتفتح على الحياة ويتأمل فيما يسمع وفيما يرى ، يسأل بينه وبين نفسه سؤالاً لا يعثر له على إجابة . . هذا التاريخ وهذه الديانات السماوية الثلاث ، وهؤلاء الأنبياء عليهم صلوات الله الذين تمثل آثارهم ، ولعلها آثار أقدامهم في هذه المنطقة . . وهذه الملايين من الناس العلماء والأدباء ومنهم في الكرك عاصمة الأيوبيين التي كان منها منطلق التحرير ومنها منطلق تجييش الجيوش وصراع الصليبين والانتصار عليهم في نهاية المطاف . . هذه الكرك التي قلاعها تشي بتاريخها ، والتي حاصرها فيالق العثمانيين عام ١٩١٠ ، وألقوا بثوارها من على قلعتها السامقة . . وساقوا زعماءها إلى دمشق ، وقد أعدم خمسة من زعماء الثورة في ساحة الاتحاد بدمشق ، وأعدمت مجموعة أمام الجامع الحميدي في الكرك نفسها ، وفي الآستانة حيث علقوا على خشبات

المشانق ، وكان البسطاء يغنون :

يـانـيـــــــــالـك يـاهـالـقـط
يـلـلـي عـــالحـــيطـان تـنـط
عـــسكـرية مـــا بتـــروح
ومـــال دولـة مـــا بتـــحـط

هذه الكرك التي هبت مع الحرب الأولى ، وخرجت مرحبة بالحسين بن علي قائد الثورة العربية ، ومن ثم رحبوا بالأمير عبدالله لتؤسس هذه المملكة الهاشمية فيما بعد وكان أهل الكرك يهزجون :

يـا مـــيـــرنـا يـا بـوطـلال
عـلـى الحـــــرايـب دزنـا
عـــز النشـــامى ركـــوب الخـــيل
والـلـي يموت عـــمـــره دنـا

هذا تاريخها . . وهذه مدرسة الأتراك صامدة على الركن الشرقي الشمالي من التلة . . ومازالت هناك إلى هذه اللحظة . . وهناك في أعلاها ، قرب القلعة «السرايا» التي بنيت أيام العثمانيين . . لكنها هدمت فيما بعد ، وهي الكرك الآن التي يحاول إداريوها أن يجعلوا منها معلماً أثرياً يجتذب السياح . الذين كانوا ومايزالون يجيئون من أوروبا ومن العالم الجديد ليقفوا قرب القلعة وينظروا غرباً يرقبون غياب الشمس خلف جبال مؤاب وغياب الشمس في البحر الأبيض المتوسط حيث تنزلق خلف جبال القدس والخليل ، ويحسب الإنسان بخياله البسيط أنها تنزلق لتسقط فوق أوروبا في الجوار» .

ألا يحق لهذا الصبي أن يتساءل ويتعجب من واقع لا يتناسب مع هذا التاريخ :

هذا كله . . والمشهد الآن إقليم بسيط متواضع . . يعيش على الزراعة والرعي ، وتنتشر فيه القرى التي بنيت من الحجارة والطين . ولا تكاد الآن تلحق

بمدن في الأردن ، وفلسطين ، والشمال . صارت أكثر حضارة وأكثر حداثة . . ولعل الكرك الآن كالفارس الأسطوري ما تزال شخصيته هي كما عهدها الخيال والواقع ، ولكن الحضارة والتقدم بدأت تلامس مناطقها . لكن المسافة بين واقعها والتاريخ المهيب الذي تجرجره وراءها . مسافة شديدة التناقض والبعد .

من هذه المنطقة تكون خيال هذا الصبي الغسّاني . . القحطاني . . الذي أينما تلفت في الجهات الأربع يجد له جذراً ، ويجد له امتداداً . . إنه يقف فوق متحف تاريخي . . بكل معنى الكلمة . . حفيداً لشهيد من شهداء ثورة الكرك ١٩١٠ .

والعالم يراه هذا الصبي ممتداً أفقياً ، وممتداً عمودياً ومن هنا لم يكن الأفق في نظره نهاية العالم . . كان الأفق يفتح على آفاق . . وكان يكمل الصورة من خياله البسيط . . حتى تمركزت خيالاته في موقع آخر اسمه «البحرين»!

البحرين في القلب قبل العين!

رغم هذه الصعوبات ، إلا أنه كان مطالباً بأن ينافس أبناء مدينة الكرك في الدراسة وأن يكون من الأوائل على الصف! فكيف ينافس زملاءه الذين كانوا يسمعون جرس المدرسة وهم في فراشهم ، في حين أنه كان يعاني كي يصل إلى المدرسة ، ناهيك عن التعليم التقليدي في أسلوبه وعدد التلاميذ المهول في الصف الواحد الذي كان يتجاوز الأربعين تلميذا ، وجهل الأساتذة أيضاً! ، وعن هذا الجهل . يتذكر الصبي «في العام ١٩٥١ كنت في الصف الخامس الابتدائي وجاء معلمنا يدرسنا الجغرافيا ، وكنا كطلاب فقراء نستعير الكتب من الطلاب الميسورين ، أو توزع المدرسة علينا الكتب المستعملة ،فقد يقرأ في الكتاب خمسة أجيال متعاقبة بشرط أن نحافظ عليه ، وكان المغفور له الأستاذ عايد البقاعين اسمه مرتبط بكتب الإعارة ، فدخل علينا المدرس ليعلمنا درساً عن منطقة الخليج (الفارسي) وهي التسمية التي كانت شائعة آنذاك حتى أن عبدالناصر

في إحدى خطبه أشار إلى امتداد الأمة العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ، وتكلم المدرس عن البحرين ، وعرفها على أنها مجموعة جزر تقع على الخليج الفارسي . وأن أشهر جزرها (المَحرَق) و(أوال) و(البَدِيع) . وأراد الأستاذ أن يغمرنا بفيض علمه وأن يضيف إلى الكتاب معلومة فقال أن البحرين فيها شيئان (اللؤلؤ) وأديب وشاعر اسمه (إبراهيم العَرِيض) . . ويومها ما كنت أدري أنني سأكون شيئاً ما في البحرين» .

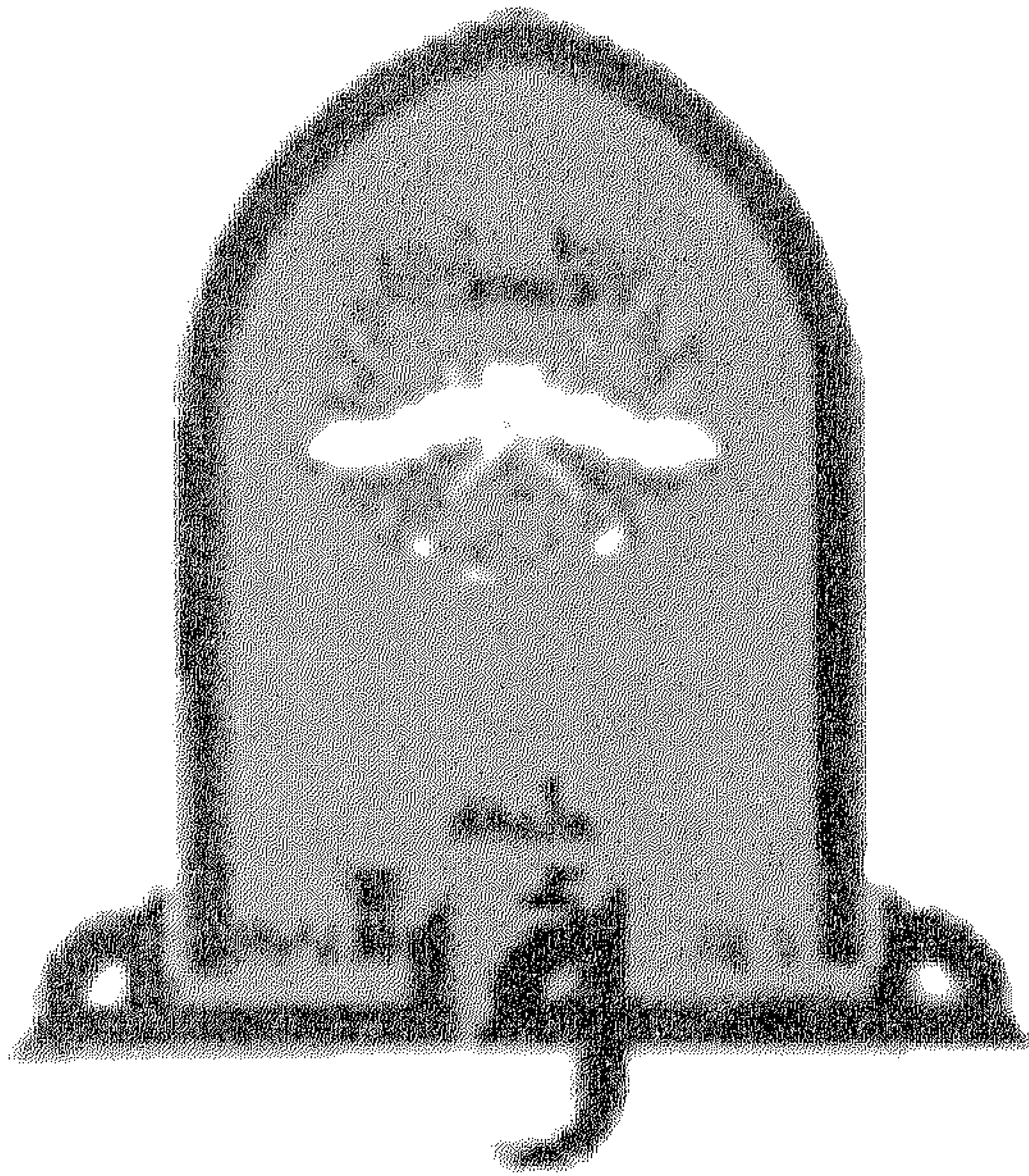
«لست أعرف ماذا كنت أحس! ، أستطيع أن أزعم أنني نجحت في بعض الأمور ، ما كنت أدري أنني سأنجح فيها ، ولو كنت أدري لاحتفظت بالكثير من الأخيلة . . أقول كلاماً ربما لا يصدقه البعض ، لكنني أصدقه وهذا يكفي . . عندما جاء المدرس على ذكر البحرين شعرت حينها بشئ غريب ، لأصحو بعد هنيهة ممعناً في الاسم ، فوجدت أن الاسم له وقع ، وكون البحرين مجموعة جزر فهو أمر غريب علينا في البادية فليس أمامنا ماء أو نهر أو بحر ، وحتى الآن لا آكل السمك ، والبحر بالنسبة لنا صورة رومانسية لعالم آخر ، والجزيرة صورة رومانسية للبحر ، واللؤلؤ صورة رومانسية للجواهر خاصة وأنه ذكر في القرآن (فيها اللؤلؤ والمرجان) . . شعرت وقتها وكأني إنسان قابع في الظلام وبزغ عليه الضوء فجأة ، شعرت وقتها أن البحرين اسم غير عادي ، تساءلت بعدها ، هل يمكن أن يحب الإنسان شيئاً لا يعرفه؟ ، ألسنا نقول أن هناك حباً من أول نظرة ، أنا لم أر ، بل سمعت ، وهي لفظة ، أنا أؤمن بهذه المقولة ، فوسط عشرات لا يلفت نظري سوى واحدة فقط ، والتحليل أن في خاطري وفي اللاشعور صورة تتشكل وتصبح مرجعاً لما سيأتي» .

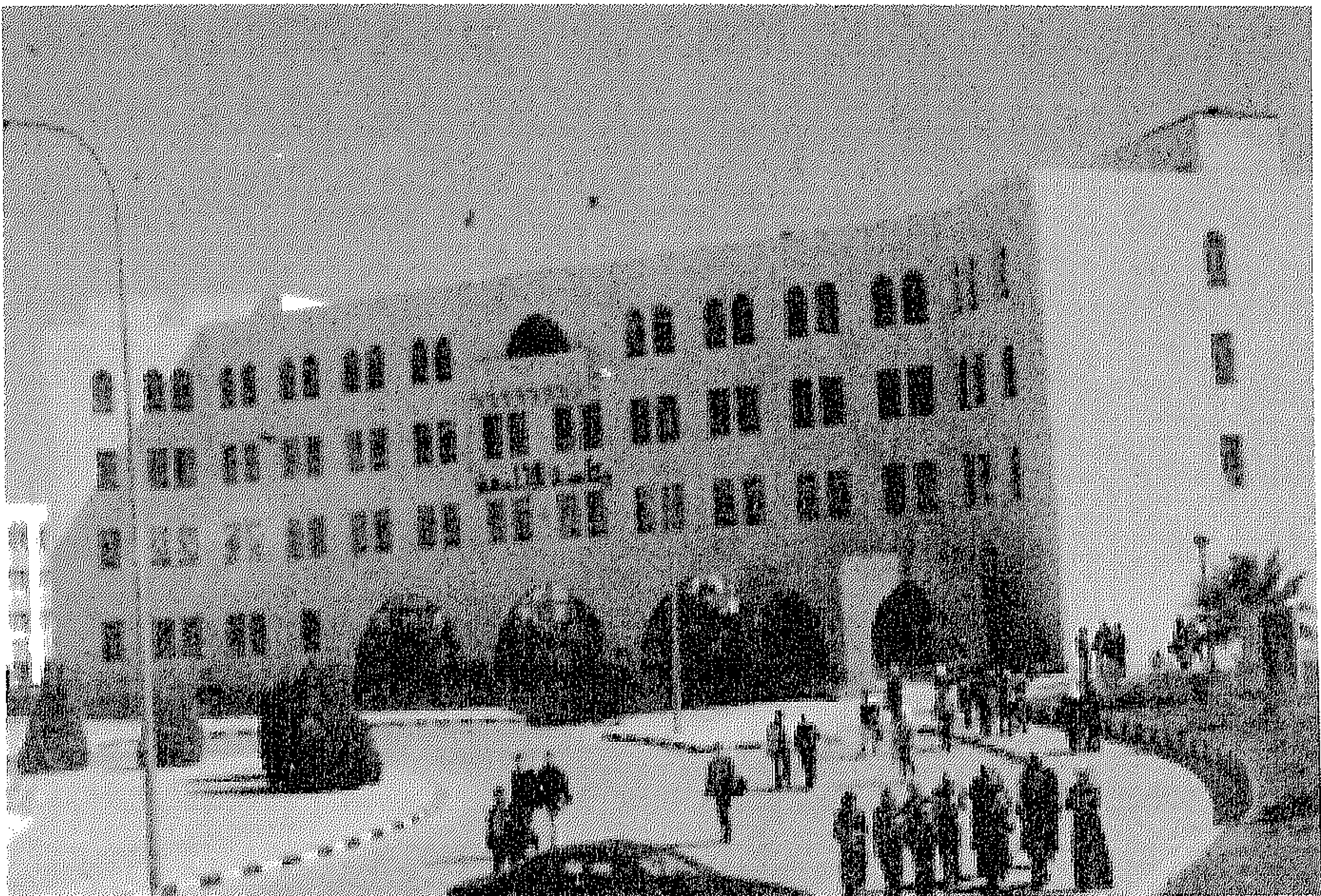
هي نظرة فلسفية حاولت منها أن أحلل طبيعة مشاعري واختلاطات ماكان يموج في نفسي حينذاك والرابط الذي جعل حياتي كلها وقد تعلقت بالبحرين ، ففي قرارة نفسي أجد الأمر عصياً على التفسير ولا أجد من تحليله إلا أنها تصاريف القدر وإرادة الله سبحانه وتعالى ،كدت أصل إلى نظرية هي أن

الإنسان منذ مولده إلى موته ملف واحد مطوي على كل تفاصيل حياته ، ولا يتكشف منه إلا الجزء المحاذي للزمن الذي هو فيه ،لكن أحيانا قد يتسرب من الملف معلومة لم يجيء موعدها فيحس بها الإنسان كشيء غائم لا يتبينه . هكذا أحسب أن البحرين جاءت من الملف قبل أن أصل إلى ما يحاذيه من الزمن!! «وكبرت معي الكلمة ، وبقيت شهوراً أتذكرها ثم ضاعت مني في زحمة الحياة ، ولم أتذكرها إلا بعدها بثمان سنوات في العام ١٩٦٠ عندما رأيت إعلاناً في صحيفة جاء فيه أن البحرين بحاجة إلى معلمين والشروط المرفقة وجدتها منطبقة عليّ ، وكم كانت المأساة ستكون مفجعة بالنسبة لي لو لم أجئ إلى البحرين ، ففي داخلي قناعة ما أخشى أن أقع معها في شبهة الهرطقة . . وللتعاقد مع البحرين قصة أخرى . . . سيجيئ وقتها»!

إن زملاء الدراسة الأول كانوا من المسيحيين والمسلمين ، وفي الكرك لم يكن هناك فرق بين مسيحي ومسلم ، وهي ظاهرة حضارية ورثناها ببراءة في الحياة ، وزملاؤنا كانوا نجباء ، وكنت أشعر أنني لا أقل نجابة عنهم ، لاكتشف بعدها أن المسألة ليست في النباهة ولكن في ظروف الحياة ويسرها بالنسبة لهم .

شعار جامعة مؤتة

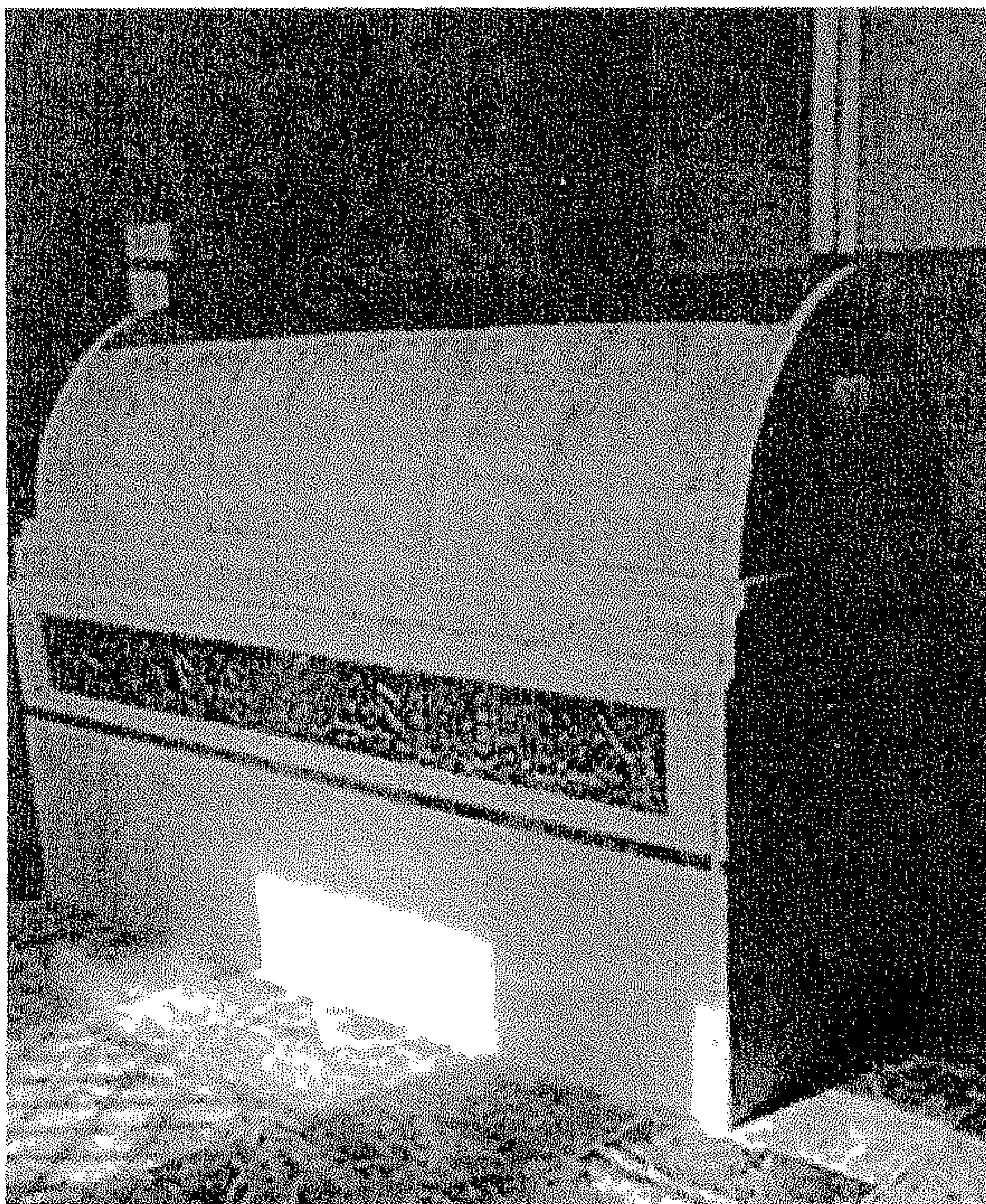


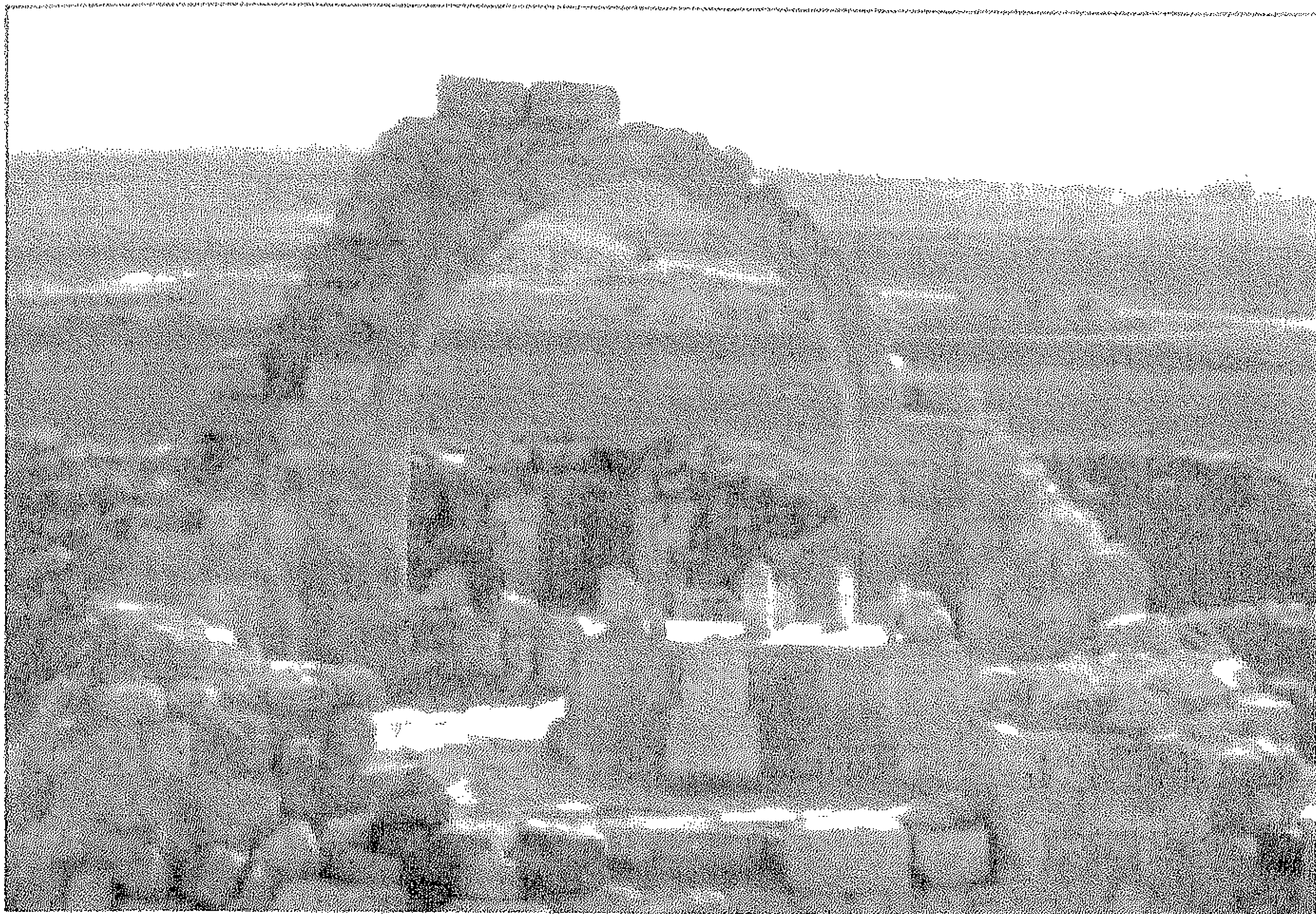


جامعة مؤتة

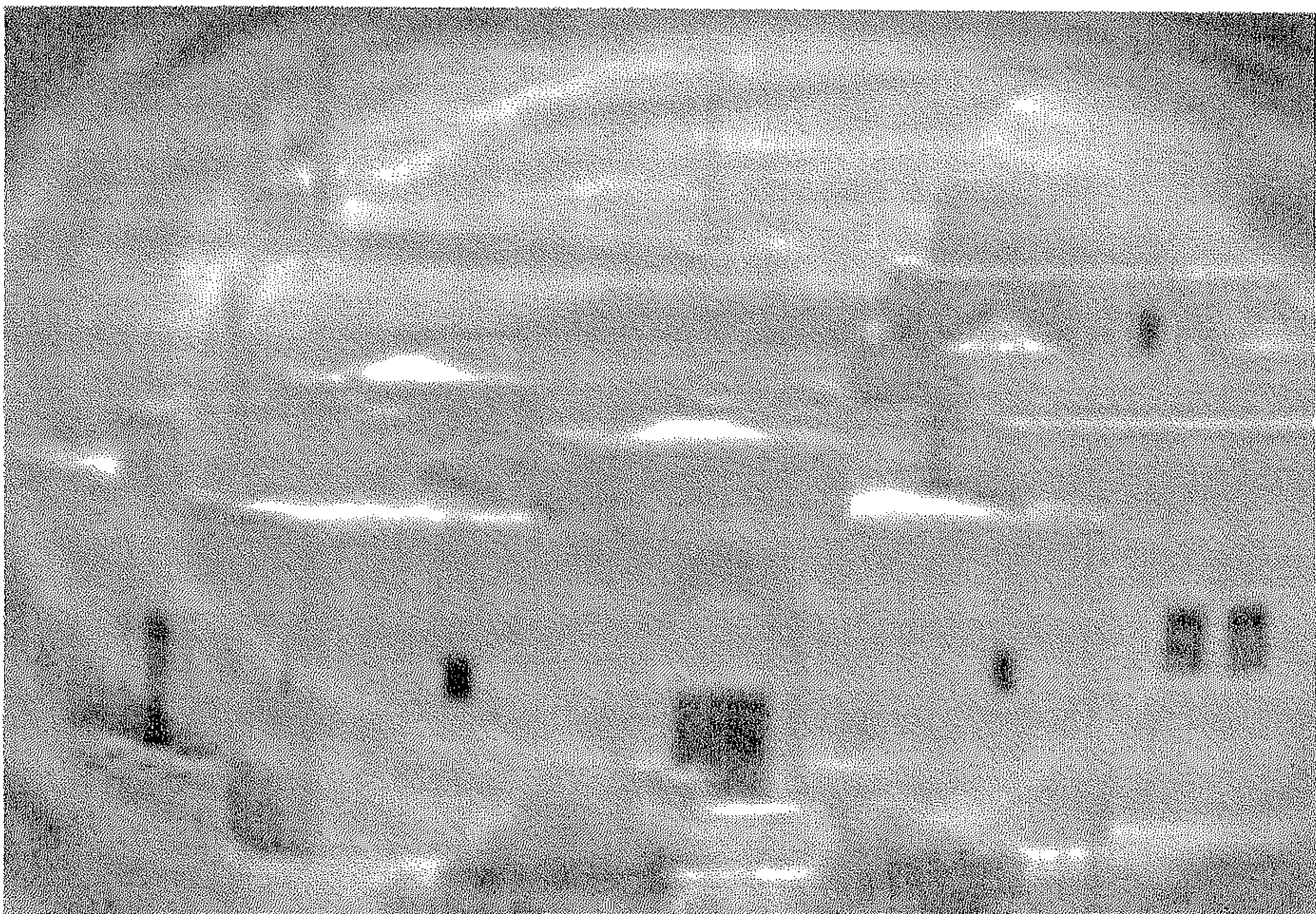


جامعة مؤتة





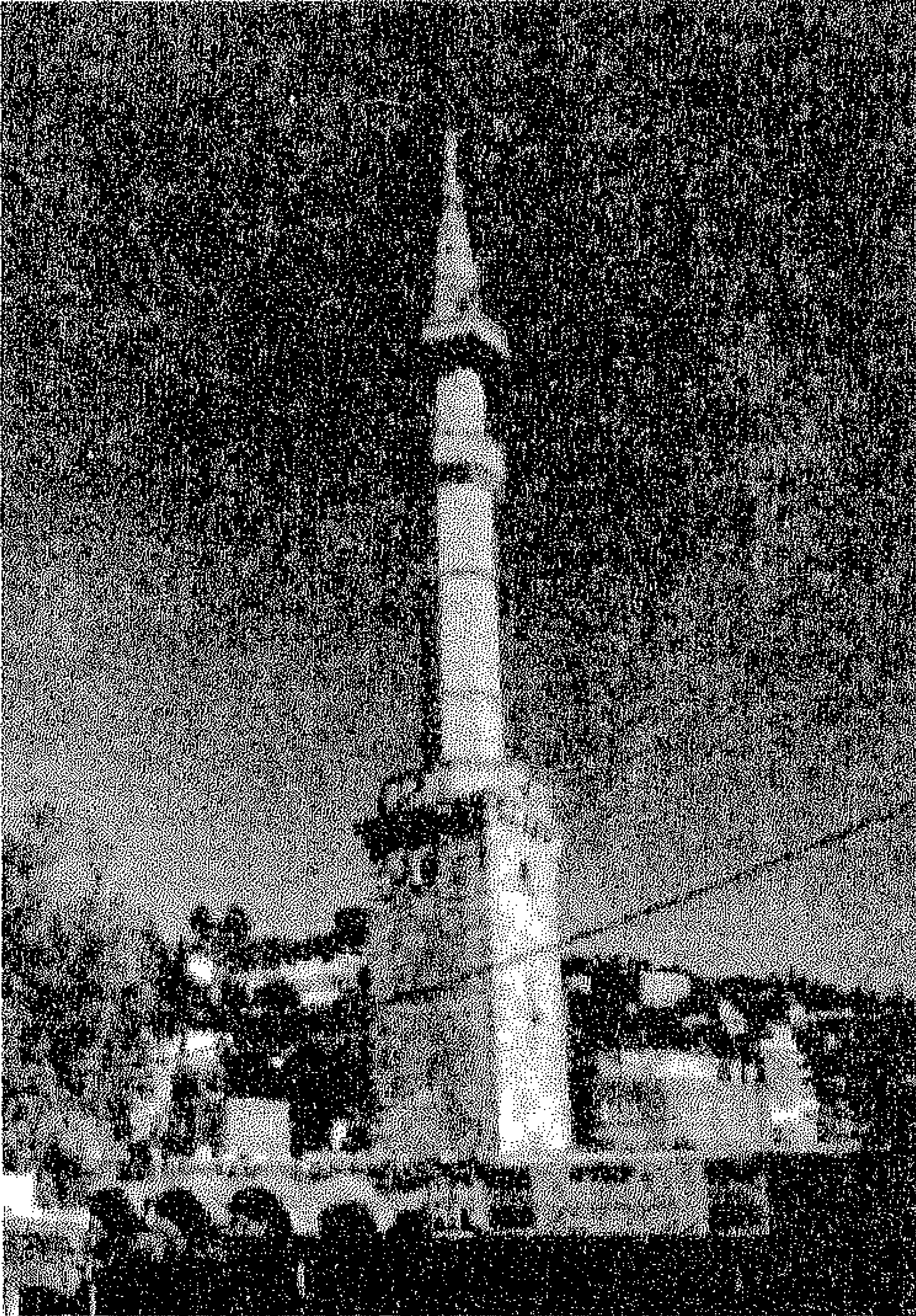
موقع معركة مؤتة



مقام عبدالله بن رواحة



مقام جعفر الطيار عليه السلام



أحد المقامات

(٦)

❖ كان المتطوعون من الأردن دون تدريب

❖ الجيش الاردني أسر «شارون»

❖ مع قضية فلسطين بدأ الوعي السياسي

❖ في الخمسينات انتشرت الحزبية كالوباء

❖ أحمد سعيد كان يحرك الشارع العربي

❖ الحزبية خلخلت البنية العشائرية

❖ في مدرسة الكرك كنا مشروع مظاهرات دائم

❖ حلف بغداد، عارضه أهل الكرك.

❖ بعد عبدالناصر لا قلق على أحد.. هكذا قالت والدتي

❖ الكرك، ما تزال تحتكم إلى قانون العشائر

الحياة المدرسية في حياتي مرحلة غنية وثرية ، تشكل جانباً كبيراً من شخصيتي خلالها ، مررت إبانها بمراحل متعددة واجتزت صعوبات متباينة ، وعانيت معها معاناة لم تكن بالسهلة ولا الهينة على فتى غرير آت من بيئة مغرقة في البدائية والبساطة ، بعيدة عن تعقيدات المدينة وقيودها . . فتىً اعتاد التلقائية والعفوية في كل تصرفاته مما أوقعه في مآزق كان لها تأثير على مستقبل حياته . . العام ١٩٥٢ حين اجتزت المرحلة الابتدائية ودخلت في مرحلة دراسية جديدة هي المرحلة الثانوية ، إذ كان مجموع السنوات الدراسية في

المدرسة ١١ عاماً . . عن المرحلة الثانوية في حياتي والتجاذبات السياسية آنذاك وتأثيرها على الطلاب أتذكر :

«في بداية الخمسينات بدأنا نعي أموراً سياسية ، سيما وأن الملك عبدالله وحّد الضفة الغربية مع الشرقية بالاتفاق مع الفلسطينيين والعرب ، وأصبح اسمها المملكة الأردنية الهاشمية . . وأذكر في السنوات الثلاث اللاحقة وقت النكبات التي مرت على فلسطين أن كان هناك متطوعون يذهبون من الضفة الشرقية إلى الغربية ليحاربوا في جيش الإنقاذ الذي كان يقوده أمين الحسيني ، وكان الأردنيون يذهبون للتطوع غالباً بلا تدريب . . وأذكر أحد أعمام والدي وهو العم «أحمد» ذهب متطوعاً ليقاتل مع الفلسطينيين وهي نوايا معلنة ، لكنني لا أعلم عن النوايا غير المعلنة . . ربما يظنون أن العرب سينتصرون ، أما البعض الآخر فكان يذهب لنهب أو سلب ، وآخرون كانت تذهب بهم الأحلام الرومانسية إلى ما وراء ذلك بأنهم سينتصرون على اليهود ويأخذون اليهوديات الحمراوات سبايا»!

«بعد فترة سقطت اللد والرملة ، وكان سقوطاً مدوياً في الشرق العربي ، وآمن حينها العرب أنهم في مواجهة خطر حقيقي ، سيما وأن الجيوش العربية في ٤٨ حين ذهبت لتحرير فلسطين كان نصيب الجيش الأردني في القدس ، وكان العسكريون في باب الواد وقاتلوا بقدر ما كان في وسعهم ، والغريب أن الجيش الأردني أسر جندياً إسرائيلياً هو (شارون) وأطلق سراحه ، وانهزمت الجيوش العربية وانهزم المقاومون ، وعاد عمي إلى القرية يروي الحكايات التي وقع بعض منها ، والبعض الآخر ربما كان متخيلاً ، لكن خلاصتها أنه رجع صفر اليدين ، حتى البندقية التي أعطوه إياها رماها مع من رموا بنادقهم لأنها كانت تعيقهم عن الفرار»!

«كانت هذه الأحداث بذرة تشكل الوعي السياسي في شرق الأردن ، وارتفع عدد الفلسطينيين الذين هاجروا إلى شرق الأردن وأنشئت لهم المخيمات ،

والبعض منهم ممن كان لهم أقارب لجأوا إليهم وسرعان ما انخرطوا في المجتمع وبدأوا يمارسون التجارة والحياة ، حتى أن كثيرين منهم لمهارتهم أصابهم ثراء طيب ، وآخرون ما حققوا ذلك الثراء لكنهم جاءوا بثقافة مختلفة ، إذ كانوا أكثر حضارة من شرق الأردن ومنهم معلمون ومهندسون وأطباء ، ودخلوا في المجتمع الأردني ، فللوهلة الأولى كان هناك شعور بالفوارق ، لكن مع الزمن اندمج المجتمع الأردني والفلسطيني وشكلوا مجتمعاً واحداً وبقي متلاحماً إلى يومنا هذا . . وهذا لا يعني أن الحياة كانت سمناً وعسلاً ، فكثيراً ما كانت تنشأ الفتن والمشاكل ، وكثيراً ما تغيرت القلوب ، سيما عام ١٩٥١ عندما اغتيل الملك عبدالله في المسجد الأقصى حيث اعتبر البسطاء من الأردنيين أن الفلسطينيين هم الذين اغتالوه ، وإن كان فلسطينياً من اغتاله ، لكن ليس كل الفلسطينيين» .

أعود إلى مسألة الوعي السياسي الذي تشكل لدى طلاب المدارس في هذه الفترة ، «تحت هذه الظروف كلها بدأ الوعي السياسي يتسرب إلى الناس وغالباً ما كانت البيئة المدرسية أكثر البيئات تأثراً ، وفي هذه الفترة بدأت تتشكل الأحزاب في بيئات خارج الأردن ، فصرنا نسمع عنها في أجهزة المذياع التي بدأت تنتشر بشكل محدود ، إلى أن كان العام ١٩٥٢ ودخل العالم العربي إلى منعطف غير عادي بثورة يوليو في مصر ، وأثرت في وعينا خاصة وأننا كنا نعي ما كان يجري في سوريا ولبنان حين كنا صغاراً أثناء الحرب العالمية الثانية ، حين كان رياض الصلح في زيارة للأردن واغتيل في المحطة بعمان وكانت صدمة كبيرة ، أن يغتال ضيف بالأردن ، وحينها بدأت سلسلة الاغتيالات في لبنان التي ما زالت متواصلة حتى عصرنا الحاضر ، وحينها وجهت الاتهامات تجاه الحزب القومي السوري»!

بدأنا نسمع عن مصر والملك فاروق ، ومحمد نجيب وجمال عبدالناصر ، والمذيع أحمد سعيد الذي لعب دوراً كبيراً جدا . . وأتذكر أن جاءت إلى الأردن بعثة تعليمية من مصر ، وكان أعضاء البعثة يوزعون على المدارس الأردنية ،

فكان على الحكومة الأردنية أن توفر لهم السكن ، أما الراتب فكانوا يتلقونه من مصر ، وكان ذلك موقفاً قومياً من مصر الثورة ، وكان الناس يقدرونه حق التقدير . . وللعلم فإن أول بعثة مصرية قدمت إلى البحرين كانت عام ١٩٤٤ وكانت مصر تدفع لهم نصف مرتباتهم . . وذلك قبل الثورة . وفي نفس الوقت كانت بعض أعضاء البعثة ممن درسوا في الكرك توزع علينا صور عبدالناصر ، ومن كان منا يظفر بصورة لعبدالناصر كان يأخذها لبيته ويبروزها . . حينها بدأت الأحزاب تتشكل وتصل إلى القرى . . حزب شيوعي ، حركة إخوان مسلمين ، حزب التحرير ، حزب القوميين العرب ، حزب البعث العربي الاشتراكي . . وبدأ الأساتذة ينشطون لكي يجندوا عدد ما يستطيعون من طلبة للحزب الذي ينادون به ، واستطاعوا أن يجندوا بعض المثقفين بالكرك ممن يشغلون وظائف في أماكن أخرى» .

إنها تفاصيل مرحلة هامة في حياتنا وكأنها بالأمس وإن كان قد مر عليها أكثر من خمسين عاماً ، وأعلنها على اعتبار أنها معلومة تصبح مباحة بعد مرور كل هذه السنوات على وقت وقوعها فلا تعود سراً ونشرها لا يسئ إلى أحد ، «كان من زعماء الأحزاب ممن يتداول بين الطلاب ، فكنا نسمع بصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني وميشيل عفلق وخالد بكداش وأسماء أخرى ، وكان معنا في المدرسة أساتذة يرتبطون بهذه الأحزاب ويدعون سراً لها ، ويشكلون الحلقات ويعقدون الاجتماعات ويتصلون فيما بينهم لتنظيم المظاهرات ، فكان في الكرك توفيق العمارين من الحزب الشيوعي ، وعبدالله العناسوة من حزب البعث ، وأسعد بيوض التميمي من حزب التحرير ، وآخرون من الأحزاب الأخرى ، فكانوا يدعون بين الطلاب ، وكان من بين الطلاب من هو أكثر وعياً ويقوم بالدعوة . . واصبح لدينا انطباع بأنه لا يجوز أن تكون طالباً إلا وأنت منتم إلى جهة ما ، وأنه نقص في وعيك وعلمك ألا تكون بعثياً أو شيوعياً أو تحريريًاً أو أخاً مسلماً أو قومياً عربياً ، وكانوا يوزعون النشرات التي تثقف النشء وتدعو

بطبيعة الحال إلى استقطابهم لهذا الحزب أو ذاك ، وربما مصادفة أن يصير الإنسان بعثياً أو تحريرياًأو أخاً مسلماً أو شيوعياً أو من يلقاه من هؤلاء الدعاة ، فقد كانت لهم أساليبهم في الدعوة والتحفيز ويوزعون الكتب والنشرات والأخبار من أجل الاستقطاب والانتظام في الحركة . . علماً بأن العمل الحزبي كان ممنوعاً منعاً باتاً ، وكل من يُظفر به ويثبت عليه أنه حزبي ، أو يُشتبه فيه يؤخذ ويسجن وينفى ، وكانت السجون معروفة الأسماء ومشهورة يتداولها الطلاب بالمدرسة وكأنما يتحدثون عن كليات أو جامعات ، فهذا خريج (الجفر) وذاك خريج (المحطة) . . إلخ ، وكثيراً ما كان أساتذة يُؤخذون ويغيبون ثم يظهرون ثانيةً ، فكانت بلبلة سياسية لا أول لها ولا آخر . . وانتشرت الحزبية كالوباء ، وأكاد أقول لم ينج منها أحد ، ومع ذلك فلم تكن بفعل وعي وثقافة ، بل كنا لا نكاد نميز بين أفكار هؤلاء وهؤلاء ، وتختلط علينا نحن الطلاب في هذه السن هذه القضايا مع نقص في أدوات الإعلام ، ومع تضليل كبير وكثير - ولأن الكرك منطقة قبائل ، فانتشرت الحزبية تبعاً لذلك فتعرف القبيلة الفلانية بأنها هذا الحزب أو ذاك»!

ولقد كنت ميالاً إلى حزب البعث ، وبحثت عن الطلاب الذين يقولون أنهم بعثيون ، وأصبحت صديقاً لهم ، وذات يوم وجدتني قد تم تنظيمي .

وقسمونا إلى مجاميع وجمعونا في حلقات كل حلقة لها أمين سر ، فإنه بحسب النظام الحزبي السري لا يعرف العضو إلا الذين معه في الحلقة وبشكل هرمي ، إلى أن تصل إلى القيادة العليا التي لم نكن نعرفها ، كانوا يحدثوننا أحاديث ما كنت أدري يوماً ما ستكون متاحة في الشارع . هل الوحدة العربية جريمة؟! ، وكانوا يحدثوننا عن الحرية ، وهل ينكر أحد الحرية وأهميتها في حياتنا سواء تحدث عنها البعث أو أي أحد ، كذلك حدثونا عن الاشتراكية وكانت كلمة مخيفة وقتذاك ومزعجة لارتباطها بالثقافة الشيوعية ، وإن كانوا يستغرقون الوقت الطويل ليشرحوا لنا لفرق بين الشيوعية والاشتراكية التي لا

تتناقض مع الإسلام وتعني العدالة الاجتماعية ، وهي مطلب لا أحد ينكره ، وإنما الخلافات دائما ما تقع على التطبيق ومفهوم كل جهة للمداولات ، فكنا في بداية الحلقة نقف ويقول أمين السر (أمة عربية واحدة) فنجيبه (ذات رسالة خالدة) ، وكانوا يشرحون لنا ما معنى الرسالة الخالدة ، وكنا ننبهر بالجملتين المسجوعتين ، إلى أن تبين لنا الآن أن هذا ليس شعاراً بعثياً وإنما جزء من ثقافة الأمة العربية التي تؤمن بدورها الحضاري في كل الأزمنة . . ولست أريد أن أشرح ماذا كانوا يعلموننا ، فالكل يعرف هذا الكلام والثقافة اليوم أصبحت متاحة للجميع . . أذكر أنهم كانوا يوزعون علينا كتاب (مواطنون لا رعايا) للكاتب الإسلامي خالد محمد خالد وكتباً أخرى على هذا المستوى ، وبقيت عضواً حتى العام ١٩٦٠ حيث قررت أن أخرج من الأردن وألقى خلفي كل ما كان في ذهني وأبدأ حياة جديدة وطريقة تفكير جديدة وفهم الأشياء أكثر عمقاً ما أمكنني إلى ذلك سبيلاً ، وطويت هذه الصفحة نهائياً» .

«لا يخاف الإنسان ألا يجد له مكاناً إذا نجح ، حتى والشمس طالعة يوجد له شمعة» .

في العام ١٩٥٥ قفز على السطح مشروع حلف بغداد ويومها كانت عراق نوري السعيد وباكستان وتركيا قد اتفقوا على إنشاء حلف للوقوف في وجه المد الشيوعي الآتي من الشرق ، هكذا كانوا يقولون ، وعرضوا الفكرة على الأردن ، حين كان رئيس وزرائها المرحوم هزاع المجالي ، ووافقت الأردن على الانضمام إلى هذا الحلف ، لكن لأن مصر رفضته ووقفت منه موقف العداء وجهت إعلامها المؤثر ضده ، فكان أحمد سعيد يحرك الشارع الأردني العربي ليلياً بخطبة من خطبه الحماسية من إذاعة (صوت العرب) ، فكان الناس يتحلقون حول أجهزة المذياع في الساعة التاسعة إلا ربعاً من كل مساء ليستمعوا إلى تعليق أحمد سعيد وينفذون في اليوم التالي ما يجيء في خطبته ، كانت خطب أحمد سعيد كأنها شفره تحرك الجماهير ، وكان يلهب خيالها بأن يذكر مدنها ، وقراها ، وحين

يقول «يا أهل الكرك» . . يتلقفها الناس ، «وهات يا مظاهرات»!

. . هكذا كانت هذه الحقبة المصيرية من تاريخ الشعوب وكيف عاشها الأردن بمدنه وقراه ، وحول خصوصية الكرك أذكر : «لا بأس ، كنا في الكرك لا نختلف كثيراً عن المدن الأردنية ، بل والعربية ، حيث أصبح عبدالناصر الزعيم الذي أجمع عليه العرب خاصة في العام ١٩٥٤-١٩٥٥ بعد أن وقع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا وبدأنا نستشعر أن الدنيا تتغير . . وبالطبع بعد تأميم قناة السويس في العام ١٩٥٦ وانفجار البركان الذي لم يتوقف بالعدوان الثلاثي- وكنت حينها طالباً في كلية المعلمين- خرج الناس في الكرك في مظاهرات ضد (تمبلر) الضابط الانجليزي الذي جاء إلى الأردن ليقنعها بالانضمام لحلف بغداد ، وكان رئيس الوزراء حينذاك هزاع المجالي - وكان من بلدي الكرك- وهو خريج جامعة دمشق في زمن كان خريجو دمشق يعدون على أصابع اليد الواحدة من الكرك ، وكونه جامعياً ناهيك عن كارزميته وذكائه أصبح رئيساً للوزراء بسرعة البرق ، إلا أن الثقافة الحزبية تجاوزت الثقافة القبلية وصار أهل الكرك ضد هزاع ، وهتفوا ضده بالرغم من أنه ينتمي إلى قبيلة عريقة في الكرك لها علاقاتها وصداقاتها ونفوذها ، ولقد أسهم كثيرون من رجالها في فترات متعددة مع رجال آخرين من الكرك في صناعة تاريخ الكرك ، وما يزال أهل الكرك يذكرون فيمن يذكرون توفيق المجالي وقدر المجالي ورفيفان المجالي ، وهم من زعماء ثورة الكرك في أوائل القرن العشرين» .

«من الطريف أن شقيق زوجة هزاع كان من قادة المظاهرات وابن زعيم قبلي في الكرك معروف جداً هو ارفيفان باشا المجالي ، وبقينا نتظاهر ونتظاهر يومياً إلى أن قال الملك حسين (بلاش حلف بغداد) . . وأوقف انضمام الأردن للحلف حيث لعبت مظاهرات الكرك على وجه الخصوص دوراً كبيراً لأن هزاع المجالي شعر أن الدنيا قد تغيرت وأن الاعتبارات القبلية قد ذهبت وحل محلها منظومة ثقافية هي منظومة الأحزاب ، ولأن الملك حسين كان يعتبر أهل الكرك بشكل

خـاص وأهل الجنوب بشكـل عـام هم بطانتـه وهم دفـؤه وعـزوته فـخـشي أن يخسرهم . . من الطريف أن أهل الكرك وهم يعلمون أن سياسة البلد لا ترسم بعيداً عن إرادة الملك وتوجيهاته وأن لا فرق في ذلك الموقف بين رئيس الوزراء والملك ، إلا أنهم كانوا ينأون بالملك حسين عن كل ملامة فكانوا يقولون (يسقط فلان وعاش الملك حسين) فكانت تلك مفارقة بقيت في الجنوب الأردني حتى الآن»!

«في هذه الأثناء كنا نعتقد ونحن شبان صغار أنه لا يجوز أن لا يكون أحد منا حزبياً ـ بل هي نقيضة في حقه ، إذا علم أنه ما يزال لم يلتحق بحزب من الأحزاب ، ثم إن المائدة كانت عامرة بكل الأفكار ، وكنا نفاخر بأننا من هذا الاتجاه أو ذاك ، وربما تنشأ بيننا نزاعات على أسس سياسية ، وليست عشائرية كالمألوف ، لكننا كنا (جميع الطلاب في المدرسة الثانوية) مستعدين للمظاهرات ، سيما وان جزءاً من نظرتنا للمظاهرات أنها هروب من الدراسة» .

«لم يكن الوالد يعرف أننا ندمن التظاهر بلا سبب أحياناً ، لكن حين كان والداي يسمعان ابنهما يتحدث بهذه اللهجة ويردد تلك الأسماء ،كانا يشعران أن ابنهما أصبح ذا شأن» . .

«أذكر موقفاً لوالدتي في العام ١٩٧٠ حين وقعت في الأردن نزاعات بين المنظمات الفدائية والجيش الأردني ، وكان لي أخ يشتغل بمدينة الزرقاء وهي من المدن التي كان الصدام فيها قوياً وسقط فيها قتلى وجرحى وإصابات ، فكانت الوالدة قلقة على أخي ، إلى أن كان ٢٩ أيلول والمعركة في أوجها ، وكان الزعماء للتو قد عادوا من مؤتمر القمة في القاهرة ، واستطاع عبدالناصر أن يطفئ شيئاً من هذا الوقود وهو يودع آخر ملوك العرب فأصابته الحالة المرضية وتوفى ، أجد والدتي تقول (ونقلق على من؟ . . بعد عبدالناصر ما في قلق)! ومعنى ذلك أنها كانت تعي الأحداث وأهمية الرجل رغم بساطتها» .

«للحقيقة فإن خمسينات القرن العشرين تجربة فريدة في سيرورة المجتمع

الكركي ، وعلى الرغم من الأحداث الكثيرة التي وقعت في هذا العقد المميز فإن الوعي السياسي والحركات الحزبية التي نشطت في تلك الفترة خلخلت المجتمع الكركي ، فمجتمع الكرك مجتمع عشائري ، كل إنسان فيه يستشعر الأمان من انتمائه إلى هذه القبيلة أو تلك ، وهو مجتمع تسوده التقاليد البدوية ، ولا أخالف الواقع إذا قلت أنه تحكمه العشائرية ، ويفصل في كثير من القضايا الهامة فيه والتي تنشب بين القبائل أو الأفراد بالقانون العشائري ، ويلتزم الجميع بما يلزمهم به قانون العشائر ، الذي يتناول قضايا القتل والثأر والعرض والأرض ، وقد يقع بعض الناس تحت طائلة القانون المدني ، الذي تطبقه السلطة القضائية ، لكنه في ذات الوقت ملتزم تجاه حقوق العشائرية . . وفي الخمسينات ، انتشرت الحزبية ، والاشتغال بالسياسة وكان الطلاب هم وقود هذه الحركة ، وهم يجيئون من كل عشائر الكرك ، وصارت العشائر تتأثر بما يحكيه أبناؤها الطلاب بشكل أو بآخر ، وصارت ثقافة الأحزاب تتداول في مجالس العشائر ، وقد تجد في الحزب الواحد عدداً من الأعضاء ينتمون إلى قبائل متنافسة ، وبدأت تتشكل ملامح مجتمع اقل تعصباً للعشائرية وصارت العصبيات ، مع انتشار التعليم ذات طابع سياسي ، وانقسم الناس على هذا الإعتبار ، بعد أن كانوا ينقسمون لاعتبارات قبلية ، وكانت هذه الخلخله في خمسينات القرن الفائت فرصة نشط فيها دعاة السياسية والحزبية والمعارضة ، لكن لم تستمر الأمور كذلك . . فما كاد العقد الخمسيني ينقضي حتى انفرطت الحزبيات وعادت الحياة إلى سابق عهدها ، وصار النزاع بين أجنحة الأحزاب يشجع الابتعاد عنها ، وعاد الحزبيون يمارسون عملهم السري ، وذوت ثانية الآثار التي بدأت تتشكل على سطح الحياة العشائرية ، وكاد الناس يعودون إلى سابق عهدهم لكن بشكل أكثر هدوءاً وأكثر تسامحاً» . . .



أمين الحسيني



ميشيل عفلق



الملك حسين



هزاع المجالي



المسجد الأقصى



نوري السعيد



أكرم الحوراني

(٧)

❖ بموت أختي سميحة فهمت ماذا يعني أن يموت إنسان!

❖ كنت ولي العهد المرشح ليحمل كل مصائب الأسرة وضوائقها!

❖ عملت عاملاً فنياً في ورشة لشق الطرق في السنة التاسعة من دراستي حلاً لضائقتنا المادية

❖ هذه قصة تخرجي من الثانوية العامة وبداية مشوار جديد من الآلام..

❖ لم أكن متفوقاً بمقاييس اليوم ولم أستطع زعم ذلك لأبنائي.. ٧٢٪ أعلى درجاتي وأقل درجة لدى أبنائي

❖ مع مصاعب الحياة تمكنت من مواصلة الدراسة.. كان ذلك قمة التفوق

جاءوا إلى المدرسة الثانوية من أصقاع الكرك ، وكان يشاركنا في المدرسة الثانوية طلاب من (الطفيلة) وهي مدينة صغيرة تقع إلى جنوب الكرك ، وكان التعليم فيها إلى مستوى الإعدادي ، وكان أبناؤها يتندرون على أبناء الكرك وأصقاعها فيقولون (جئنا نكمل تعليمنا في الكرك الشقيق) . . وشاركوا في الحياة الحزبية في تلك الفترة ، ومن عجب أن الحزبية أصابت أبناء (الطفيلة) مثلما أصابت أبناء الكرك ، لكن الحزبية على الطريقة الطفيلية ، مسألة غير عادية .

«هي استنبات ليس يملك من شروط الاستنبات أي شرط ، كل طلاب الكرك والوافدين إليها من الطفيلة كانوا محكومين بعلاقات قبلية عشائرية ، والقبلية في الكرك تشكل عصبية جامعة لأبناء القبيلة ، والقاعدة الذهبية (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) . . لذلك حين كنا نتحدث عن قبائلنا يداخلنا كثير من الفخر ، نصطنع بطولات لقبائلنا ، من الخيال ، إذا لم يسعفنا الواقع» . .

«لكن طرأت على المجتمع الكركي القبلي العشائري عوامل أيديولوجية تشكل روابط غير قبلية ولا عشائرية ، ففي العائلة الواحدة كان يوجد البعثي والأخ المسلم وربما الشيوعي على صعيد واحد ، ناهيك عن بقية العشائر ، فقد أصبح في العشائر زعماء سياسيون حزبيون ، فكانت الرابطة التي تربط بين العشيرة قد تخلخلت لأن العشيرة الواحدة ليست في حزب واحد ، وأصبحت الروابط الحزبية السياسية هي التي يتجمع حولها الناس ، وبحسب تعبيرات ابن خلدون . صارت العصبية العشائرية القبلية عصبيات حزبية ، فخف زخم العشائرية لكنها لم تختف ، لأن الذين التحقوا بالأحزاب هم الجيل الذي بدأ يتعلم ، أما ثقل العشائر من الآباء والأجداد والأخوال ، فقد بقوا يتمسكون بعشائريتهم ، بل وبقوا يناصبون أبناءهم الذين خرجوا عن طوعهم والتحقوا بعصبيات فكرية حزبية العداء ، وبدأ المجتمع الكركي يتخلخل بفعل الأحزاب ، إلا أن موقف السلطة كان لا يهادن ، فقد كانت هذه الأحزاب جميعاً سرية باستثناء الإخوان المسلمين ، حيث كانوا يجدون في الدين حماية فكانوا يعملون بعلانية إلى حد ما ، لكن هذا الأمر لم يكن صحيحا بصورة مطلقة لأن حزب التحرير الإسلامي كان ممنوعاً وتحاربه السلطات بشراسة أكثر مما تحارب الشيوعيين ، وظلت الأحزاب سرية بشكل عام إلى أن غيّر الملك حسين الأمر في العام ١٩٩٠ وأصبح العمل الحزبي علنياً ، وحينها -لا أعلم السبب- أصبح ضعيفاً ، حتى أوشكت الأحزاب على الانقراض وكأنها لا يمكنها العيش إلا تحت سطوة المنع»!!

فالممارسة الحزبية كانت تتم بصورة عشائرية «أذكر حين كنا في الصف النهائي من مدرسة الكرك ، حيث جرت العادة أن يقوم طلاب الصف الذي يلينا بتنظيم حفل توديع المتخرجين ، وكان الحفل مجرد جلسة يجتمع فيها طلاب الصف الرابع الثانوي ويودعون طلاب الخامس الثانوي بإلقاء الكلمات وتناول الشاي و(الجاتو) والتقاط الصور ، وكان ذلك قبل انتشار الحزبية ، لكن بعدها ، كان الوضع مختلفاً ، ففي ليلة كهذه وقع نزاع على من يلقي الكلمة ممثل حزب الإخوان أم حزب البعث ، وفي لمحة نشب شجار ووقعت معركة ، تمت السيطرة عليها ، وأخذت كل جماعة تقيم حفلها في مكان مختلف ، وكان معظم البعثيين في المدرسة من الديانة المسيحية في حين كان المسلمون في الغالب ضمن الإخوان ، وأذكر أننا ذهبنا إلى بيت أحد زملائنا المسيحيين ، واعتبرنا أن الحفل أقيم وتمت مراسيمه»!

وفي مفصل هام من مفاصل الحياة المدرسية في حياتي ، اعتبر أنني لم أكن متفوقاً ، وحين أريد أن أقول لأبنائي أني رغم الظروف الصعبة كنت متفوقاً لا استطيع ، فأنا أرى أن التفوق أمر نسبي ، «لقد نبشوا أوراقي ، واستخرجوا بعض شهاداتي ، التي لا تدل على تفوق ، ولا سيما شهادة الثانوية العامة ، فأعلى درجة عندي كانت ٧٢٪ ، وهي أقل درجة في شهاداتهم . . لذلك لا أزعم أنني كنت متفوقاً ، لكن بالمقاييس في ذلك العصر ، ولو أنني حسبت المتاح لي من مستحقاتي كطالب يذهب إلى المدرسة يومياً كأن يكون بملابس جيدة حاملا كتبه في حقيبة مدرسية بعد أن تناول طعام الإفطار وأخذ من أبويه المصروف اليومي ، دون أن يفكر ماذا سيكون الغداء في الظهيرة! كل ذلك مع توافر مواصلات مناسبة من سيارة أو دراجة أو حتى دابة . . كل هذه المتطلبات لم يكن متاحاً أقل القليل منها ، كما سبق وأن استطردت في سرد تفاصيلها في الحلقات السابقة . . في مثل هذه الظروف جميل أن يستمر الإنسان في مواصلة الدراسة ، وهذا ما فعلته أنا وقلة من أبناء عمومتي وإخوتي . . من جهة أخرى

كـان قلة من المعلمين الذين يقـبلون الـذهاب للتـدريس في مـدارس الكرك على اعتبـار أنها من المناطق النائية ، لكن توحيد الضفتين بعد نكبة ١٩٤٨ وتمكن المملكة الأردنية الهاشمية من دمج الشعبين الفلسطيني والأردني على أكثر من صعيد جعل من مجيء الفلسطينيين نعمة على أهل الكرك حيث أصبح بها مدرسون على مستوى طيب من العلم فبدأت المدارس تنتعش . .

وحتى اجتياز المترك يحتاج إلى هجرة مؤقتة»كان لا بد أن نقدم امتحان الثانوية العامة ونحصل على الشهادة التي تؤهلنا لدراسة أعلى ، أو للوظيفة ، وكان عدد سنوات الدراسة عشر سنوات ، ارتفعت فيما بعد إلى إحدى عشرة ، ولم تكن شهادة الثانوية العامة تعقد إلا في أماكن محددة من مملكة الأردن ، لذا كنا في الشهر الأخير نستعد لهجرة مؤقتة فنؤخذ من الكرك إلى عمان لنسكن في المدرسة الصناعية التي كانت مدرسة داخلية بها أسرة ومطاعم وكل ما يحتاجه الطالب الداخلي ، فكانت المدرسة تفرغ لسكنى طلاب شهادة الثانوية العامة القادمين من الكرك الثانوية التي كانت تضم كل أبناء الجنوب تقريباً وهم أكثر من نصف المملكة مساحة على الأقل ، وكنا حوالي ٣٥ طالباً دون أن تقدم لنا أية خدمات من طعام أو شراب ، وكان علينا أن نتولى أنفسنا في هذه البعثة الإجبارية القميئة ، وفي الصباح كنا نذهب إلى مدرسة مجاورة هي كلية الحسين وهي من كبريات مدارس الأردن الثانوية في العاصمة لنقدم الامتحان ، ومن ثم نعود إلى المدرسة الصناعية للسكن وتدبير طعام الغداء والعشاء» .

كم هو محزن ألا يكون في محافظة هي ثلث المملكة قاعة امتحان للدراسة الثانوية!!

«كان عطاؤنا دون شك أقل من المأمول ، ففريق كرة القدم مهما بلغ من الاستعداد والمؤازرة والدعم إذا لعب خارج أرضه يقل عطاؤه ، فما بالك بأطفال أعمارهم ١٧-١٨ سنة ينقلون إلى مدينة تبهرهم في كل شيء ويطلب منهم الدراسة وتقديم امتحان شهادة! وأذكر أنني حاولت التغلب على هذه المسألة

بخبرتي البسيطة ، وعند ظهور النتائج كنا مقسمين إلى فرقتين (أ) و(ب) طبقاً للمعدلات ، وكان في الفرقة (أ) أربعة طلاب ، وياللعجب أن هؤلاء الأربعة ابتعثتهم الحكومة وعادوا اثنان منهم أطباء وواحد مهندس والرابع أعتقد أنه محام ، وكنت أنا الخامس بعدهم لكن لأني كنت من الفئة (ب) لم يكن لدي أمل فيَّ بعثة ، وكان هذا التخرج مفصلاً من مفاصل حياتي الهامة ، إذ لم يكن الوالد قادراً على أن يعلمني في جامعة مهما حاول ، والحكومة ابتعثت من ظنت أنهم النخبة . . علما بأن من حصلوا على البعثات بناء على الدرجات العالية هم ابن أستاذ في مدرسة الكرك هو عصمت متري الحمارنة ، ومتري الحمارنة أستاذ لغة إنجليزية درس في الكرك أكثر من ٣٠ عاماً ، والثاني ابن شيخ من شيوخ الكرك ويملك ثروة طائلة هو مصطفى المعايطة والآن يعد من أشهر أطباء الحنجرة في الأردن ، والثالث أبوه بسيط جدا لكن والدته كانت واعية واستطاعت أن ترعاه وأصبح طبيباً وأزعم أنه كان الأول وأصبح الآن طبيبا مرموقا في طب العظام وهو فيليب الصناع ، والرابع هو فياض الشهابي (محام) ، وكان ذلك منذ ٥٠ عاما» .

أن الرحلة إلى عمان اضطرت والدي أن يشتري له بيجاما جديدة ما ازال اذكر لونها ومحل شرائها ، إذ كان المعتاد أن تحيك الوالدة بيجامات الأبناء ، لكن الوالد كان واعيا لظروف ابنه ولم يرض بأن يكون في مظهر أقل من أقرانه على أقل تقدير ، «وذهبت إلى عمان وقدمت الامتحان ونجحت وأصبح في بيتنا خريج ثانوية عامة . التي كانت تسمى (المترك) وهي كلمة ذات أصل إنجليزي Matriculation ، وهي شهادة مقبولة في جامعات سوريا والعراق ولبنان حتى الجامعة الأمريكية ، لكن في مصر كان لا بد من دراسة سنة إضافية وهي السنة رقم ١٢ (التوجيهية) وبعدها يمكن دخول الجامعات ، فالمتفوقون يحصلون على بعثات ، والأقل حظاً في التفوق كانوا يبحثون عن عمل وهو ميسور في معظم الأحوال ، فالدوائر الحكومية تحتاج إلى كتبة والجيش يحتاج إلى عسكر والأمن يحتاج إلى الشرطة ، وكان هذا هو غاية طموح خريجي الثانوية ، وبالنسبة لي

فقد كنت آلف العمل حيث عملت منذ نعومة أظفاري ، ويداي كانتا خشنتين منذ الطفولة المبكرة ، فحملت الحليب من القرية إلى المدينة في رحلتنا اليومية إلى المدرسة لأبيعه ، أما في السنة الدراسية التاسعة فقد عملت عاملا في ورشة لشق الطرق تحت مسمى عامل فني وهو منصب يشغله طالبو العمل من طلاب المدارس الذين لا يستطيعون القيام بالأشغال الشاقة غير المؤبدة التي كان يقوم بها (الشغيلة) من العمال ذوي الأجساد القوية وهم في أغلبهم أميون» .

عُينت عاملاً فنياً وليس طالباً ، إنها مرحلة اختلطت فيها الطفولة بالشباب والبراءة بشظف العيش وحاجة الطفل للعمل لتلبية متطلبات الحياة ، «كانت يومية العامل الفني ٢٠ قرشا وهو مبلغ لا أحسبه باذخاً ، لكن إذا ما قورن بحجم العمل الذي يقوم به العمال الذين يشقون الطرق فعلاً في مقابل ٢٥ قرشاً ، وحجم العمل الذي كنا نقوم به كطلاب مدارس تحت مسمى عمال فنيين دون أن نبذل أي جهد سوى الجلوس في الشمس ، فهذا يبدو أجراً مقبولاً»!

أصعب الذكريات تلك التي تنتهي بما يشبه الكارثة ، فتبقى عالقة في الذهن لا تغادره مهما مرت الأيام وطالت الأزمان ، فتأثيرها مؤبد وجرحها يبقى غائراً وإن اندمل ، فكيف يكون الحال حين تكون الذكرى المؤلمة قد حفرت ونقشت في عقل وقلب وذهن طفل هو إلى الطفولة أقرب منه إلى الشباب ، لكنه عمل كالرجال كي يحمل مسؤولية أسرة ويساعد رب البيت على اعتبار أن حظه في هذه الدنيا أسقطه في خانة الابن الأكبر . . واستحضر ذكرى أليمة مرت بي ومررت بها خلال فترة العمل في إجازة صيفية وسط سنوات الدراسة : «في تلك الفترة كنا قد بلغنا أنا وإخوتي الستة ، أربعة ذكور أنا أكبرهم وابنتان اثنتان ، وولدت والدتي أختاً ثالثة أسموها (سميحة) ، ولا أدري ، حينما نتحدث عمن فقدناهم تجدنا نتذكر أجمل ما فيهم ، ولعل ذلك مرده إلى رغبة الإنسان في أن يعذب نفسه بالحزن ، وكأن التعذيب في بعض الحالات يشفي النفس» .

«مرضت (سميحة) بعد أن بلغت سنة من العمر ، ويومها كنت أعمل

عاملا فنياً في شق الطرق في قرية مجاورة لقريتنا ، وحملها والداي إلى الطبيب وأنا معهما ، بصفتي الأكبر ، وأنا حينها ولي العهد المرشح ليحمل كل هذه البلاوي ، وبعد أن أخذ الطبيب مبلغا يسيراً من المال ، اتضح أنهما لم يكونا حاملين معهما سواه ، وأصبحا في مواجهة ورطة توفير الدواء المطلوب جلبه من الصيدلية التي تتقاضى ثمناً للدواء ، وكل ثمن يعد باهظاً لمن لا يملك . . وعادا يحملان الطفلة بما تحمله من ارتفاع في درجة الحرارة وألم وبكاء إلى القرية باستسلام منقطع النظير» .

«كان الموقف يعني ما هو أقل قليلاً من الموت ، وفي المساء كانت الطفلة في حضن الوالدة ، التي وجدناها تتكلم بهدوء لم نألفه منها البتة ، وباستسلام لا أعهده منها . . ووضعت الطفلة وقالت (الله أعطى ، والله أخذ) ، فعلمنا أنها ماتت . . وقتها صرت أكثر ألفة مع الموت! أكثر مما كنت عليه عندما مات أخي الذي يكبرني! الآن فهمت ماذا يعني أن يموت إنسان! . . ولأن الوالدة لم تبك ، احترم الجميع صبرها ولم يبك أحد منا! وفي الصباح رأيت نفراً من رجال القرية ومعهم الوالد وقد لفها في ثوب أبيض حاملا إياها بين يديه كعصفورة صغيرة ، ولم تمش الوالدة معهم احتراماً لتقاليدنا في الريف . . بعدها بدأت تبكي كالمألوف ، وبكت عدة أيام . . ثم عادت الحياة إلى دورتها الطبيعية» .

«لم أنس سميحة ، مثلما لم أنس محمود . . فبعد موتها بعشرين سنة عرضت لي في الحلم . . وقد كبرت وصارت صبية . . واستيقظت وأنا غارق في مشاعر الألم ، لا أظن أن هناك كلمة من اللغة المتداولة تكفي لتسمية هذه الحالة . . شيء فوق الحزن . . ولأنني أستطيع أن أبكي شعراً . . كتبت شيئاً من الإحساس بالفجيعة قصيدة بسيطة لكنها معبرة .

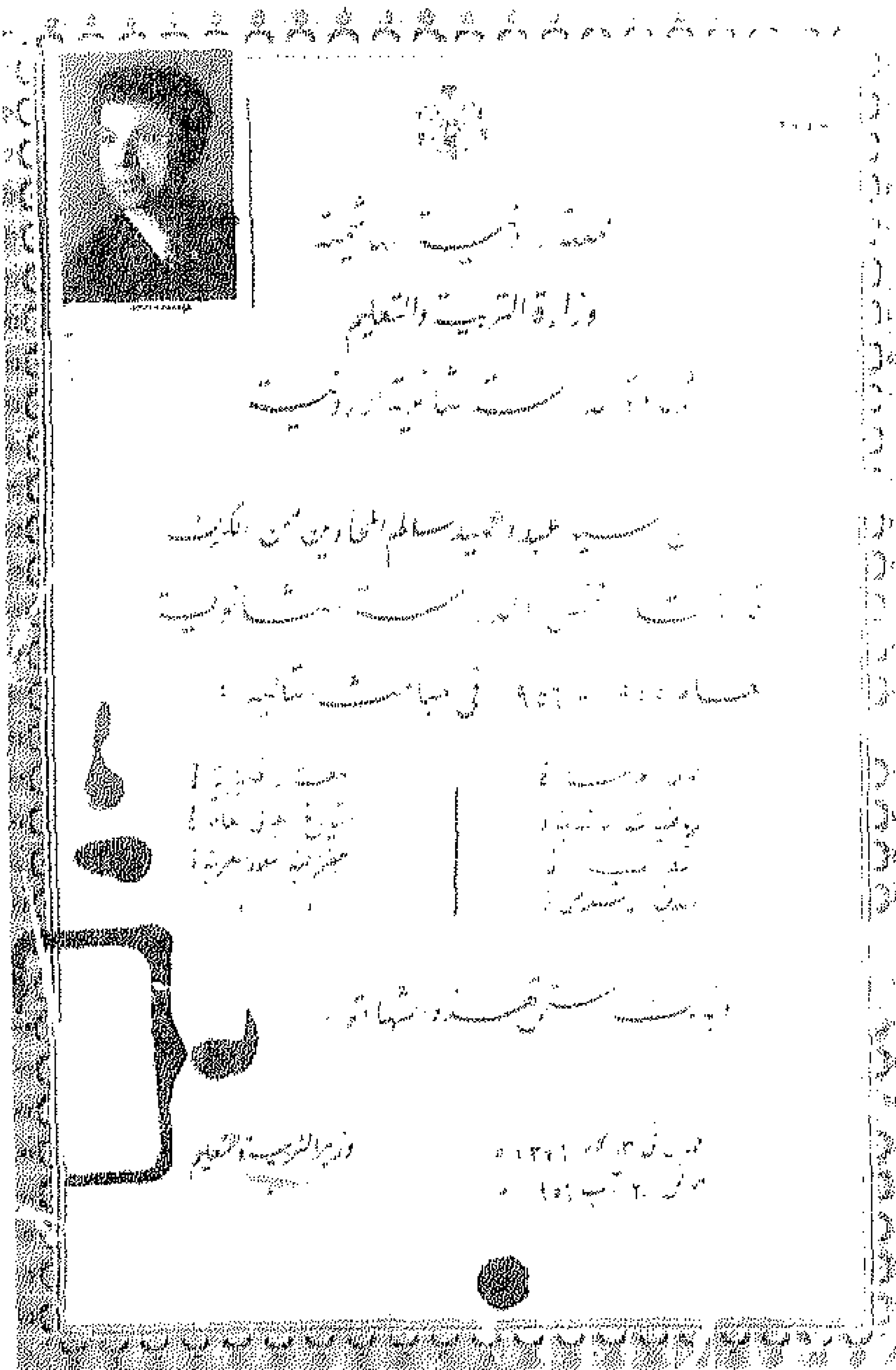
يا طيف
يا أحلى من نسمة صيف
يا أقسى من شفرة سيف

يا آت من خلف الموت
شفافاً كحبال الصوت
يا شيئاً من روحي
يا شيئاً من تحناني
يا شيئاً لم أذكره إلا أبكاني
يا طيف
من أي الأبعاد وصلت
من أي الآفاق رحلت
بيني يا طيف وبينك
أعوام عشرون
فلماذا الآن أتيت
يا طيف
يا حزني الأول
يا خفقة أحزاني الأولى
لم أعرف قبلك أن الإنسان
إن يحزن يبك
كنا طفلين
كنا شيئين
كنا أشياء
لكن ما أقسى الداء
ولأنا لا نملك شيئاً
هاجرت ، وكان الممكن أن تبقى
كي تشقى
لو كنا نقدر!

أن نبكي شيء معقول
لكن من غير المعقول
الكشف الأول كان بكاء

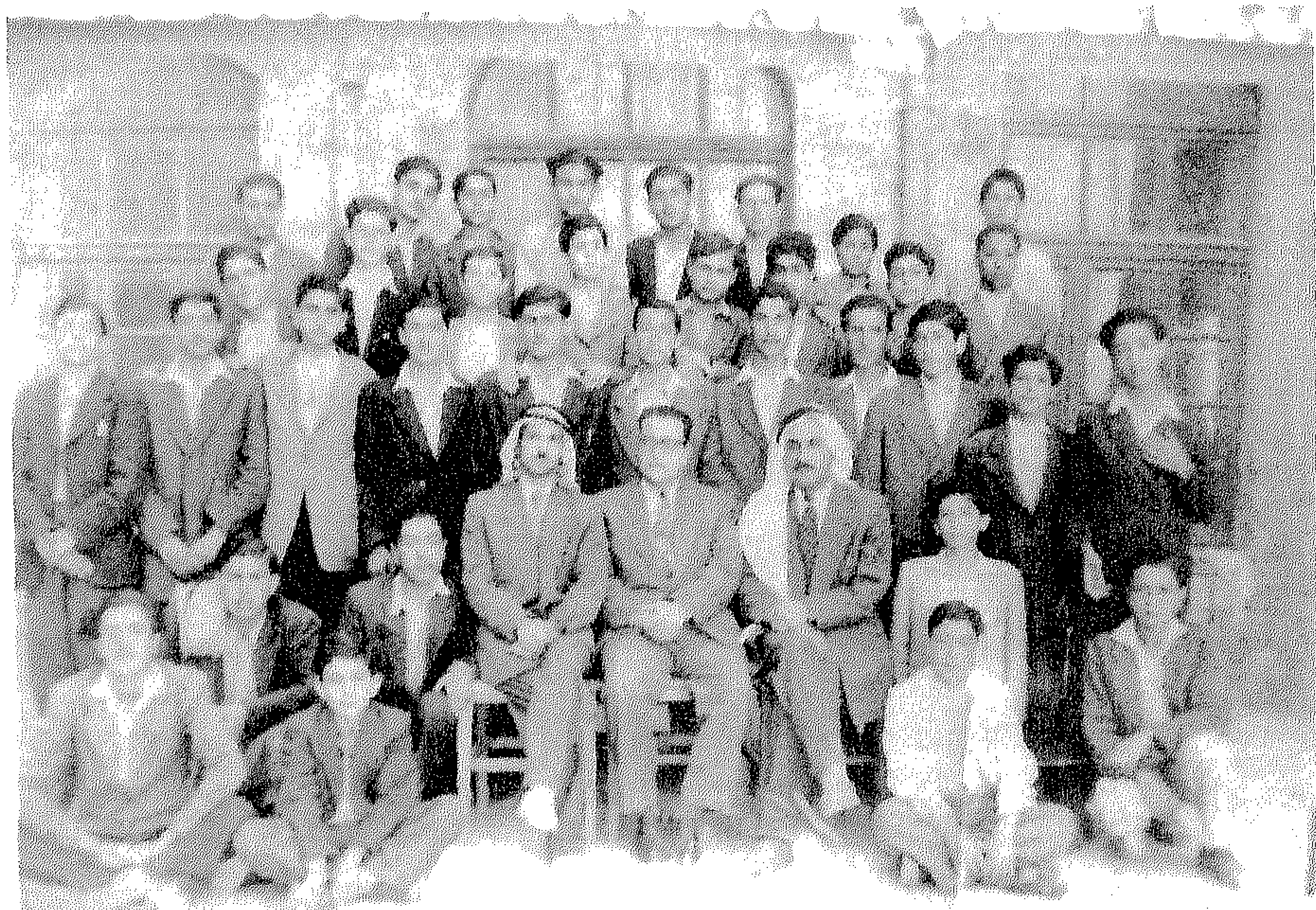
هذه الصعاب التي عشتها مع أسرتي جعلت من العمل بعد الحصول على شهادة الثانوية العامة أمراً جوهرياً لا بديل عنه «لما أنهيت الثانوية العامة ، كانت الخطوة التالية في مثل حالتنا أن أعمل لكي أساعد هذه الأسرة بالقدر الممكن ، في حين كان أترابنا من هم في مثل عمرنا قد التحقوا بالجيش أو الشرطة أو العمل في الورش والطرق قبل إنهاء الثانوية العامة فتسربوا مبكرين إلى ما يسمى بسوق العمل ، وهو سوق بائس وتعيس بكل المقاييس . . في تلك الفترة وهي العام ١٩٥٦ -١٩٥٧ كانت الدوائر الحكومية تعلن عن وظائف لخريجي الثانوية العامة دون أن يقدموا طلبات ، فهي تستقي القوائم من المدارس الثانوية ، فورد اسمي في جريدة يومية ، ولا أعرف حتى الآن كيف كانوا يتصلون بنا ، لكنهم كانوا يصلون إلينا ، وبدأت الحديث مع الوالد الذي كان يتمنى لي علماً كبيراً لحرمانه من العلم ، إلا أنني لم أكن أعي الكثير من أمور الحياة ، فتباحثنا في مسألة العمل ، ولم يكن الوالد يعول كثيراً على عملي لا لسعة في ذات يده ، وإنما من ضيقها ، كان يائساً من أن يكون عملي مغيراً للأحوال . . في هذه الأثناء برز طريق أمل ، لا أذكر تفاصيله وكيف برز ، وإنما هناك معهد اسمه دار المعلمين في عمان ، وكان قد ذهب إليه نفر قليل من أبناء الكرك لاستكمال تعليمهم فيها ، وأعلنت دار المعلمين عن أنها تريد أن تقبل دفعة جديدة لعام ٥٦-٥٧ وهو الفوج الخامس ، ولدار المعلمين قصة أخرى ومرحلة أخرى في تاريخي قبل حقبة البحرين» .

صورة لشهادتي الثانوية العامة

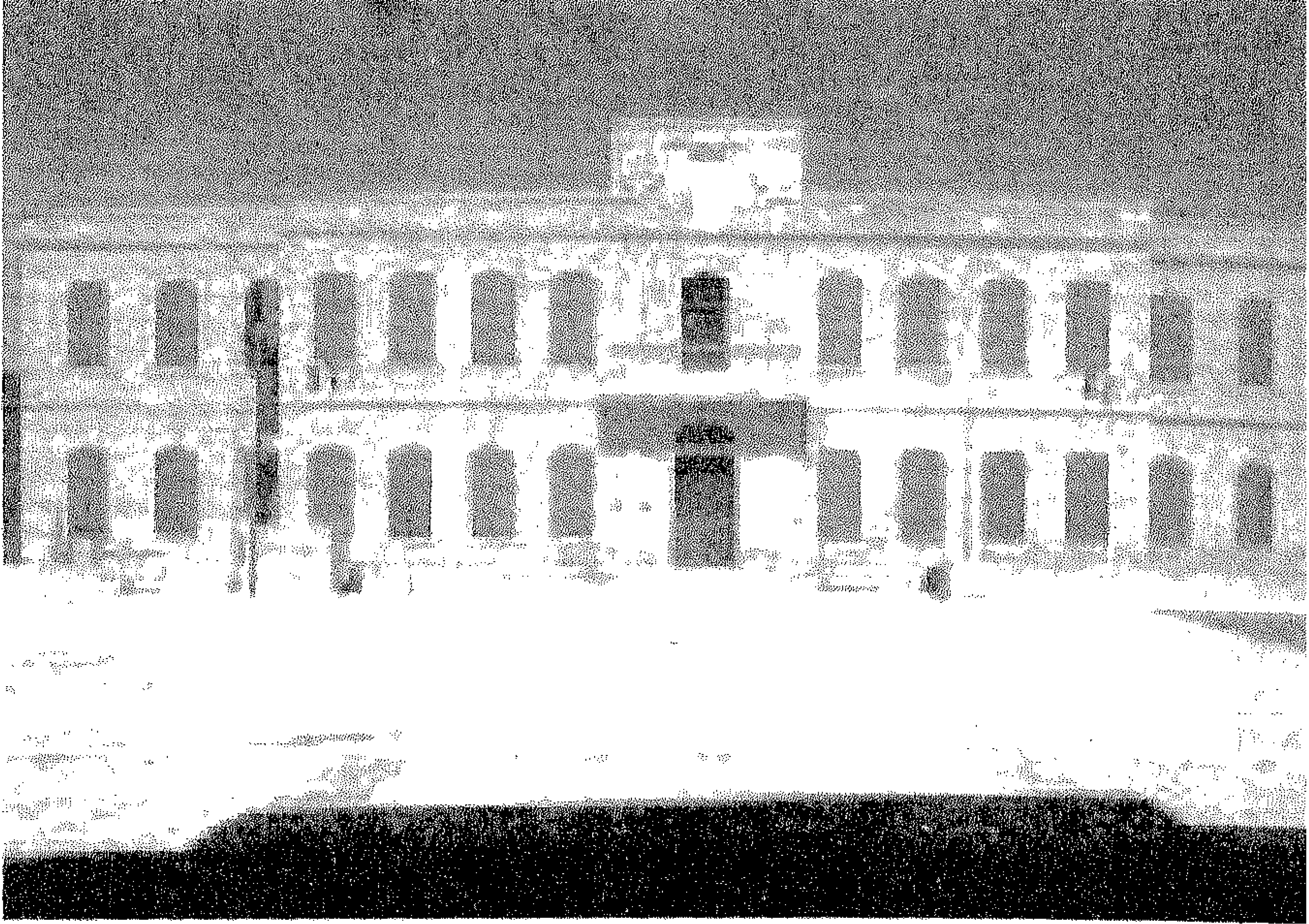


وزارة التربية والتعليم

وزير التربية والتعليم



سنة ١٩٥٤، ونحن قبل التخرج من الثانوية العامة بسنة في مقدمة الصورة المدير محمود سيف الدين الإيراني وعن يساره داود الجالي وعن يمينه متري الحمارنة



مدرسة الكرك الثانوية



بوابة قلعة الكرك

(٨)

❖ كانت دار المعلمين، ذروة الجسم الأكاديمي في الأردن في الخمسينات
❖ أي قدر هذا؟ أنا بين نبيهة القبيسي ونجمة المحادين!
❖ أكثر قراراتي عدالة وإرضاء تلك التي لا بديل عنها
❖ من لا يملك أن يختار فليتقبل الواقع وكأنه اختياره
❖ لماذا اعتبر قرار دراستي في دار المعلمين غير صائب؟!؟
❖ لماذا استدعاني رئيس الدار لماذا قال له «لا تلومن إلا نفسك»؟!

ما هي دار المعلمين؟ . . وهي مرحلة الدراسة ما بعد المدرسة الثانوية ، والتي كانت في دار المعلمين ، مرحلة اعتبرها فصلا جديداً من فصول معاناة متعددة كابدتها في حياتي . .

«كانت دار المعلمين أعلى مؤسسة تعليمية في المملكة الأردنية الهاشمية بصفتيها آنذاك ، فعلى سبيل المثال حين نقرأ عن إبراهيم طوقان في الثلاثينات والأربعينات يقولون أنه درس في كلية المعلمين بالقدس ، وهي مرحلة من مراحل دار المعلمين في عمان التي تعد خليفة الدار بالقدس ، حيث أنشئت في حي باب الساهرة عام ١٩١٩ بإدارة المرحوم خليل السكاكيني المربي الفلسطيني المرموق وواضع كتاب الصف الأول الابتدائي الذي ظل يدرس في فلسطين والأردن عشرات السنين وهو الكتاب الذي حين يذكره أبناء ذلك الجيل يقولون كتاب : راس روس ، دار دور وقد قرأت به في الأول ابتدائي عام ٤٦, . ثم خلفه

الدكتور خليل طوطح عام ١٩٢٠ ، وخلفه المرحوم أحمد سامح الخالدي عام ١٩٢٥ ، ثم تغير اسمها إلى الكلية العربية عام ١٩٢٧ وأقيم لها مبنى فخم على جبل (المكبّر) ، هذا الجبل الذي سقط في يد إسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧ واستخلصوه من يد الجيش الأردني الذي حافظ عليه بعد حرب ١٩٤٨ ، وظلت تخدم التربية في فلسطين حتى انتهاء الانتداب الانجليزي ١٩٤٨ وتخرج منها في تلك الحقب ٢٩ فوجاً من المعلمين الصالحين» .

«بعد انتهاء الانتداب وتوحيد الضفتين قررت المملكة الأردنية الهاشمية أن تستأنف مسيرة هذا المعهد العريق ، وأسست دار المعلمين في عمان على جبل الحسين عام ١٩٥٣ مع معاهد أخرى بالتعاون بين الحكومة الأردنية والنقطة الرابعة الأمريكية ، وهو برنامج أمريكي يقدم مساعدات للعالم الثالث وكانوا يوزعون الحليب ويوزعون الطحين في أكياس مرسوم عليها يد تصافح يد أخرى ، وكانت تعمل على تأسيس معاهد ومدارس ، وبالتالي وضعت خبرتها في تأسيس دار معلمين ، وعرضت الحكومة الأردنية إدارة هذه الكلية على الأستاذ المرحوم عبدالحميد ياسين الذي كان آنذاك يشتغل في التربية في فلسطين ، وهو يحمل بكالوريوس في التربية ، وفي الأدب ، وكان يعمل مدرساً بالجامعة الأمريكية في القاهرة وعميداً لكلية التربية فيها بالنيابة ، فاستحضروه للأردن ، وأسندت إليه إدارة دار المعلمين ، فجعل يبني هيئتها التعليمية من خيرة المعلمين من حيث المستوى والخبرة ، فكان قوامها في سنتها الأولى الأساتذة محمود الغول ، فتحي قدورة ، عبدالملك الناشف ، وهي أسماء معروفة في الأردن وسبق لهم التدريس في معاهد عليا في فلسطين وغيرها» .

«بدأت الدراسة في دار المعلمين في عام ١٩٥٣/١٩٥٤ وتخرج الفوج الأول منها بتاريخ ١٩٥٤/٧/٢٩ ، وهذا الفوج أنهى صف المعلمين بكلية الحسين قبل التحاقه بالدار ، وعام ١٩٥٨/١٩٥٩ بلغ طلاب الدار ١٤٧ طالباً ، واستمرت دار المعلمين تنمو ويزداد طلابها وتنمو هيئتها التدريبية ، وكانت دار المعلمين تقبل

النخبة من خريجي الثانوية العامة بعد أن تستوثق من إمكانياتهم الذهنية والعلمية ، بعدها كانت تجري معهم مقابلات شخصية لتتعرف على مدى توافر متطلبات مهنة التعليم في الذين تختارهم . . وكانت الدار تقدم لمن تختارهم من الطلاب من كل أرجاء المملكة السكن والطعام مجاناً لمدة سنتين ، ويدرسون فيها مناهج مسلكية وثقافية وعلم نفس تربوياً ودراسات أكاديمية ، وكل فوج فيه شعبتان ، علمي وأدبي ، وتتناول كل شعبة مواداً للإشباع في المادة الخاصة بها» .

«تخرجت من دار المعلمين في العام ١٩٥٨ الفوج الخامس وقوامه ٤٠ طالباً ، وكان مجموع أفواجها الخمسة ١٦٣ طالباً ، مما يدل على أنها انتقائية في طلابها . . وكنت أنا ضمن خريجي الفوج الخامس . . ولدخولي دار المعلمين قصة . . فبعد أن أنهينا الثانوية العامة أعلنوا أنهم يريدون طلاباً ليلتحقوا بدار المعلمين ، ولا أدري كيف التقطنا الخبر ، لكنني تشاورت مع الوالد وقال لي «اذهب والله يوفقك» ، خاصة عندما علم أن كلفتها المادية محدودة جداً . . وحسب الإعلان تواجدنا في مكان محدد بالكرك أنا وعدد من زملائي الذين أنهوا الثانوية العامة وكانوا حوالي ١٢ شاباً ممن لديهم الرغبة في أن يعملوا في التدريس ، وخضعنا لامتحان مكون من عشرات الأسئلة ، منها اختيارية وانتقائية واختيار من متعدد ومسائل حسابية بسيطة أو معلومات عامة أو لغة عربية . . ومن عجب أنني وقع علي الاختيار ومعي زميل آخر يكبرني سناً جاء لا لأنه يرغب في أن يصبح معلماً ، وإنما من باب تضييع الوقت لا أكثر ولا أقل ، وتم استدعائي بمفردي وتوجهت إلى المقابلة» .

حين توجهت إلى المقابلة التي سيتحدد على إثرها مصير حياتي برمتها فوجدت اثنين تبدو عليهم سيماء وجاهة العلم ، وثالثاً من مديرية التربية بالكرك ، وللحق لم أكن خائفاً ولا وجلاً ، بل كنت على غاية من التلقائية ، ولم استح من إجابة أي سؤال . . ولعلهم أعجبوا بحضوري الشخصي ، ربما ، أكثر من

علمي فقد كانت معلوماتي غاية في المحدودية ولا أملك من الحياة إلا طموحاً خفياً غير مبني على وقائع حقيقية ، لكن حين سألوني عن السبب الذي جعلني أرغب في أن أصبح معلماً قلت لهم لأنه لا توجد وظيفة أخرى ، فضحكوا وقبلوا مني هذا الجواب ، وقالوا لي على طريقة السوبر ستار (نلقاك في عمان) . . معنى ذلك أن مرحلة جديدة قد استجدت ، وإنني سأترك أسرتي وإخوتي وأذهب إلى عمان لاتعلم فيها لمدة عامين ثم أصبح معلماً بعدها . .

كان قراراً غير صائب!

«عندما أقلب هذا القرار بيني وبين نفسي الآن أجد أنه كان قراراً غير صائب»!

«لأكثر من سبب» .

«فالدراسة في دار المعلمين هي نصف حل ، بل لا تعني شيئاً ، لأن الخريج منها ليس خريجاً جامعياً ولا هو ظل معتمداً على الثانوية العامة ، فأصبح كمن سقط بين كرسيين . . من جهة أخرى فإن دراسة سنتين في التربية أمر لا يؤهلني لمواصلة تعليمي بالمستقبل ، ولا تعني إلا هذا الحقل بالذات ، علاوة على أن هاتين السنتين لا تُخرّجان مربياً ، فالكم الذي منح لنا وبجانبه الكم من المعرفة كلاهما لا يشكلان أساساً لثقافة جادة ، وفوق ذلك كنت بحاجة كي أعمل وأقتسم مع أسرتي الدنانير التي أكسبها في ذاك الوقت ، فقد كان لي من الأخوة خمسة في المدرسة لأب يملك إرادته وجديته ، وأم تكافح حتى القتال لكي يوفروا حداً أدنى لهؤلاء الأبناء ، وأعتقد أنهم نجحوا في ذلك» . .

«لكنني كنت أظن ، ولا أدري إن كنت على حق أم لا ، أنني خذلت أبي باختياري استمرار التعليم في وقت هو كان بحاجة إلى المساندة ، فأثقلت عليه بمصروفي الشهري وإن كان لا يتجاوز الدنانير الثلاثة إطلاقاً ، في حين كان لدى زملائي عشرات وأحيانا مئات الدنانير . . لكن ، أقر وأعترف بأنني رغم الفروقات التي كنت أراها بيني وبين أترابي نشأت دون أن تكون لدي أية عقدة

أو أي شعور بالنقص» .

هذا يموج في نفسي في لحظة اعتراف وصدق مع النفس ، ربما في محاولة مني للتخفيف عن نفسي ، أو ربما لأنه لم يكن إلا عن طريق مدخل دار المعلمين : وأتساءل هل أمامي بديل؟!!

وأجيب «ما كان هناك بديل»!

«إن أكثر قراراتي عدالة وأكثرها إرضاء هو القرار الذي لا بديل عنه ، فمن لا يملك أن يختار عليه أن يتقبل الواقع وكأنه اختياره ، وأنا كنت أدافع عن الواقع كأني أنا من اخترته ، رغم أنني ما كنت أملك أي خيار فيه ، وبالتالي كنت راضياً» .

«أنا أتكلم الآن والخطأ في القياس والتفكير أن تحكم على موقف ما ، في عصر آخر ، لكنني وقد ذهبت إلى دار المعلمين وسط أربعين طالباً من كافة أنحاء الأردن ، وأقلهم القادمون من الجنوب (الكرك ، الطفيلة ، معان ، العقبة) وهي مناطق ربما تشكل نصف الأردن ، لكن أتى منها اثنان أو ثلاثة ، كنت واحداً منهم»!

كانت دار المعلمين تجربة غنية وقاسية ، «كنا أربعين طالباً ، ومعنا حوالي ثلاثين آخرين من الفوج الذي يسبقنا ، كنا نلتقي معاً في قاعات الطعام وقاعات الدرس وفي حجر النوم ، وفي قاعات المراجعة والمذاكرة التي كانت تفتح في أوقات محددة للدراسة ، وأيضاً الملاعب والمكتبة ، والأهم من هذا كله كنا نتواجه مع أساتذة كبار ، دون أن يزيد عددنا في القاعة الواحدة عن ٢٠ طالباً ، مما يعطي فرصة للأستاذ كي يتفاعل مع طلابه فرداً فرداً . . للوهلة الأولى كنت حذراً من مسألة التفاوت في الإمكانيات المادية بين الطلاب ، لكن وجودنا في مكان واحد وتناولنا ذات الوجبات ونومنا على نفس الأسرة ، ضيّق الفجوة فيما بيننا ، ولم تكن لتظهر إلا في نهاية الأسبوع حين كان يسمح لنا بالخروج يوم الخميس من الظهر وحتى العاشرة ليلاً ، فلم نكن نخرج معاً ، ومن كان يخرج

لم يكن بحاجة سوى لبعض الدريهمات كي يذهب إلى مطعم متواضع ويأكل أحدنا نصف أوقية من الكنافة بخمسة قروش وفنجان قهوة بسبعة قروش ، أي أن الدينار كان يكفي خلال الشهر لتوفير رحلة إلى عمان والعودة مساء في باصات النقل العام ، أما عن التفاوت في الملابس فإن أبسط أنواع الملابس كانت تحل المشكلة ، سيما وأن دار المعلمين كانت تتكفل بغسيل ملابسنا وتنظيفها اسبوعياً ، وكان معظم طلاب الدار لا يملكون بدلات رسمية ، والطريف أننا كنا في نهاية كل فصل نقدم درساً نموذجياً لطلاب من المدارس المجاورة ، وكان لا بد من أن يظهر الطالب بالبدلة ، تلك البدلة التي كان الطلاب يُدوِّرونها فيما بينهم ليستكملوا مظهر (مشروع المعلم) وهو يؤدي الامتحان العملي» .

من جانب آخر أرى أن دار المعلمين تجربة ناجحة بكل المقاييس لا سيما وأنها داخلية علمتنا الانضباط وتقسيم الوقت ، ومعاني أن يعيش الإنسان بين مجموعة من الطلاب المختلفين والمؤتلفين ، ففي هذه البيئة يكون الإنسان مضطراً لأن يختار له أصدقاء يتقرب من بعضهم ويبتعد عن آخرين ، علماً بأن هناك اعتبارات كثيرة للاختيار والانتقاء والاقتراب والابتعاد ، «كنا نلتقي كأسرة واحدة في حيز واحد ، وكنا نعتبر الآنسة نبيهة القبيسي المشرفة على المطعم أماً لنا لقلبها الحنون رغم جهامة وجهها وجديتها ، حتى أنني كنت أقول بيني وبين نفسي (لماذا قدري هكذا؟! أمي في البيت ونبيهة في الدار)؟! فقد كان لكل منهما وجهها الصارم وحزمها وكلتاهما حظهما من المرح قليل ، وأقل منه حظهما من الضحك . في الدار كان مبدأ الفرز يتم بتلقائية ، وحتى هذه اللحظة لا أعرف ما هي الكيمياء التي تجعلك تقترب من (أ) وتنفر من (ب) ، ودائماً أتذكر حديث الرسول عليه الصلاة والسلام (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها اختلف) ، وللحق فإن فكرة وجود أهل الضفة الغربية وشمال الأردن معنا نحن أبناء الجنوب فكرة غير سعيدة لأنهم يعتبروننا متخلفين ، ويعتبروننا بطانة السلطة ، نظراً للشائع بأن أهل الكرك والجنوب هم

الجهة التي تعتمد عليها الحكومة في الجيش والشرطة والمخابرات ، وتستوزر منهم كثيرين لأسباب لا تستند للكفاءة بالضرورة بل أسباب قبائلية أو عشائرية مثلاً ، وهذه الاعتقادات جاء بها زملاؤنا من الضفة الغربية ، وإن لم يظهروها لكنها كانت تظهر في مزاحهم وقفشاتهم وهمساتهم» .

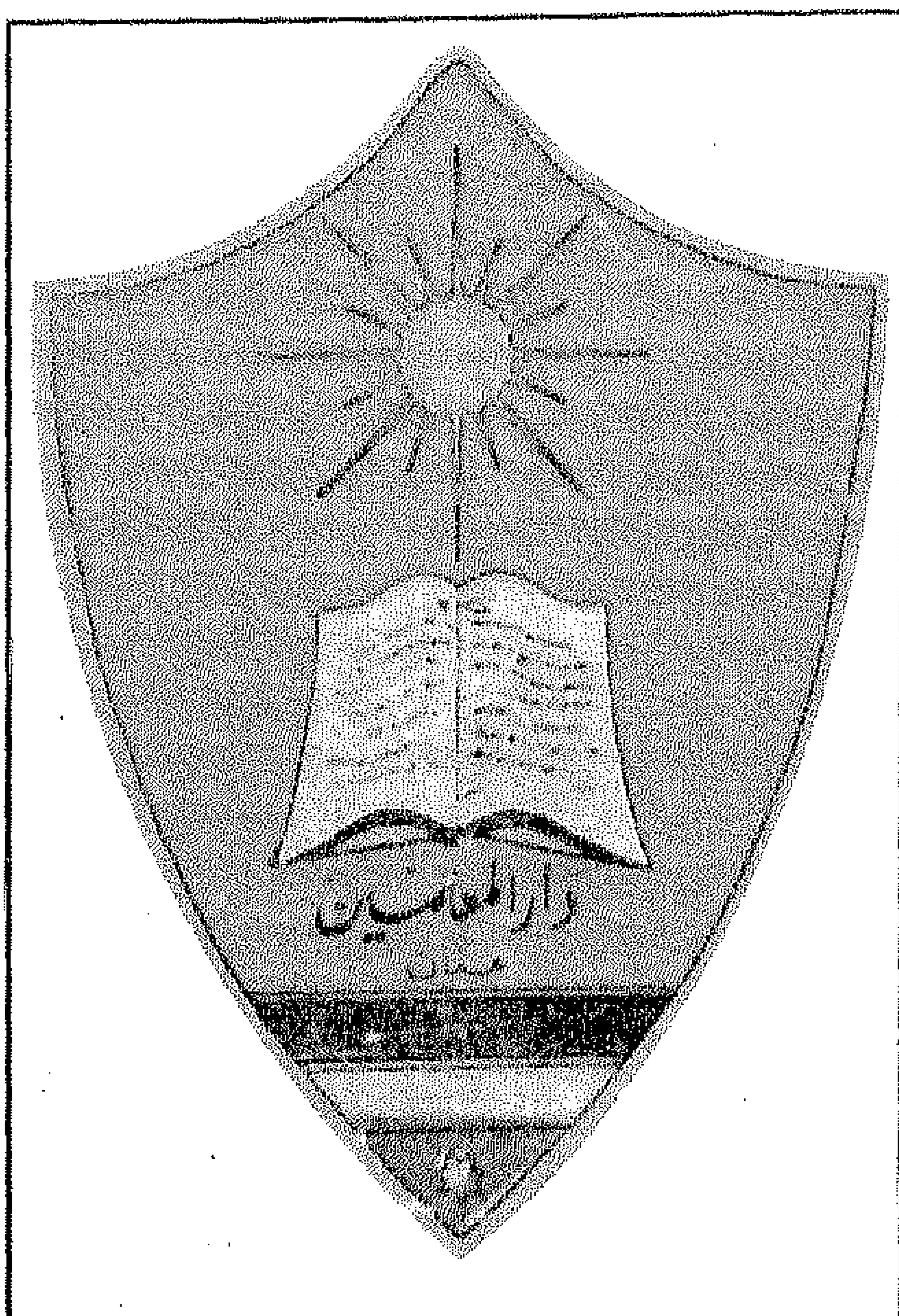
الطلاب في الدار جاءوا محملين بالأنشطة الحزبية التي كانت سائدة آنذاك في المدارس الثانوية ، وفي الضفة الغربية بشكل أشد ، ولعبت هذه العوامل الدور في أن تخلق تجمعات طلابية تشكل كل فئة منهم صداقات معينة . . وحول الحياة الحزبية في دار المعلمين «بقي كل يحمل معه أفكاره ، وكانت تلك الفترة فترة مخاضات وصراعات ، ففي سنة ١٩٥٧ كانت آثار حلف بغداد وشكلت في الأردن حكومة سليمان النابلسي ، وهي الحكومة الوحيدة التي كان فيها حزبيون ، وعلى سبيل المثال حين كان عبدالله الريماوي وزير الدولة للشؤون الخارجية بالحكومة ظن البعثيون أنهم أصبحوا مرخصين وبدأ نشاطهم ظاهرياً ، وكذلك بقية الأحزاب لأن سليمان النابلسي كان شخصية وطنية ومقبولة من الأحزاب ، لكن وقع خلاف بينه وبين رأس الدولة وأقيل وقامت المظاهرات ، فنزلنا من دار المعلمين وشاركنا في تلك المظاهرات ، ووقتها وقعت مشكلات في داخل الجيش ، وهرب ضباط إلى سوريا ، وآخرون اعتقلوا ، كل ذلك كان في فترة الاتحاد بين العراق والأردن ، والوحدة بين مصر وسوريا ، التي سبقها العدوان الثلاثي على مصر ، أي أن المنطقة كانت ساخنة والحقبة أيضاً كانت مشتعلة بالأحداث ، مما تسبب في شحن الشارع الأردني الذي كان الطلاب جزءاً منه سيما وأن دار المعلمين هي ذورة الجسم الأكاديمي في الأردن آنذاك ، وهي مرشحة لدور ما!» .

«من أبرز أحداث دار المعلمين ، وحينها كما ذكرت ، كنا نمارس الجدل السياسي ونتفق ونختلف ، وقد نتناقش بصوت مرتفع ، وكان لكل مجموعة مرجعية في خارج الدار ، وكان مدير الدار يعرف هذه المشكلة ، ويعرف أننا

نذهب لنحضر اجتماعات خارج الدار في العاصمة كلٌ حسب مشربه ، وكانت تأتيه المعلومات ، لا أدري من أين؟! ، إلا أنه اصطاد في إحدى المرات عدداً من الطلاب من مشارب مختلفة ، واستدعاهم واحداً واحداً ليسألهم ، وأنا كنت واحداً منهم ، وبدأ يسألني ، لأكتشف أنه لا يملك أية معلومات ، بل مجرد شك أو ظن ، فكانت كل إجاباتي على أسئلته بالإنكار والسلب ، وكنت صادقاً فلا معلومات لدي لكنني دفعت ثمن ذلك لاحقاً ، وسآتي على ذكره في موضعه . . ظل يسألني ويضيق علي بأسئلته ، وأصريت على الإنكار ، فتململ مني وقال لي : «روح ، لكن لو اكتشف أنك تكذب ، فلا تلومن إلا نفسك»! ، وكان فصل أي طالب بالنسبة له أمراً في غاية السهولة ، وكان عبدالحميد ياسين مرشحاً لإنزال أقصى العقوبات بسبب قسوته ، لكنه كان ذكياً إلى درجة استحالة خداعه ، إلا أنني أزعم أنني لم أخدعه ، لأنه لم يكن يملك أية معلومات ولا أنا أملك معلومات ، لأننا لم نكن حزبيين جادين ، بل مجرد أطفال نعبث بالحزبية واتخذناها على أنها موضة ، فقد كنا نخجل أن يقال فلان ليس منتمياً إلى أي حزب ، كما كنا نخجل أن يقال فلان ليس عنده حبيبة ، فكنا ندعي الحب ، وندعي الحزبية استكمالاً لمتطلبات المشهد ، علماً بأننا كنا في الحقيقة لا رجال حب ولا رجال مذهب ، بل مجرد عبث في موضة انتشرت في الأردن آنذاك كالوباء! وكانت علامات الرجولة لدينا هي : الحب والحزبية والتدخين والشوارب وقد كنت بهذه المقاييس لست رجلاً ، فلا شوارب لدي ، ولم أكن أحب ، ولم أكن أدخن ، ولا أمارس الحزبية . كنت مجرد أعرابي جاء من أطراف الصحراء ليصير معلماً فيما بعد!



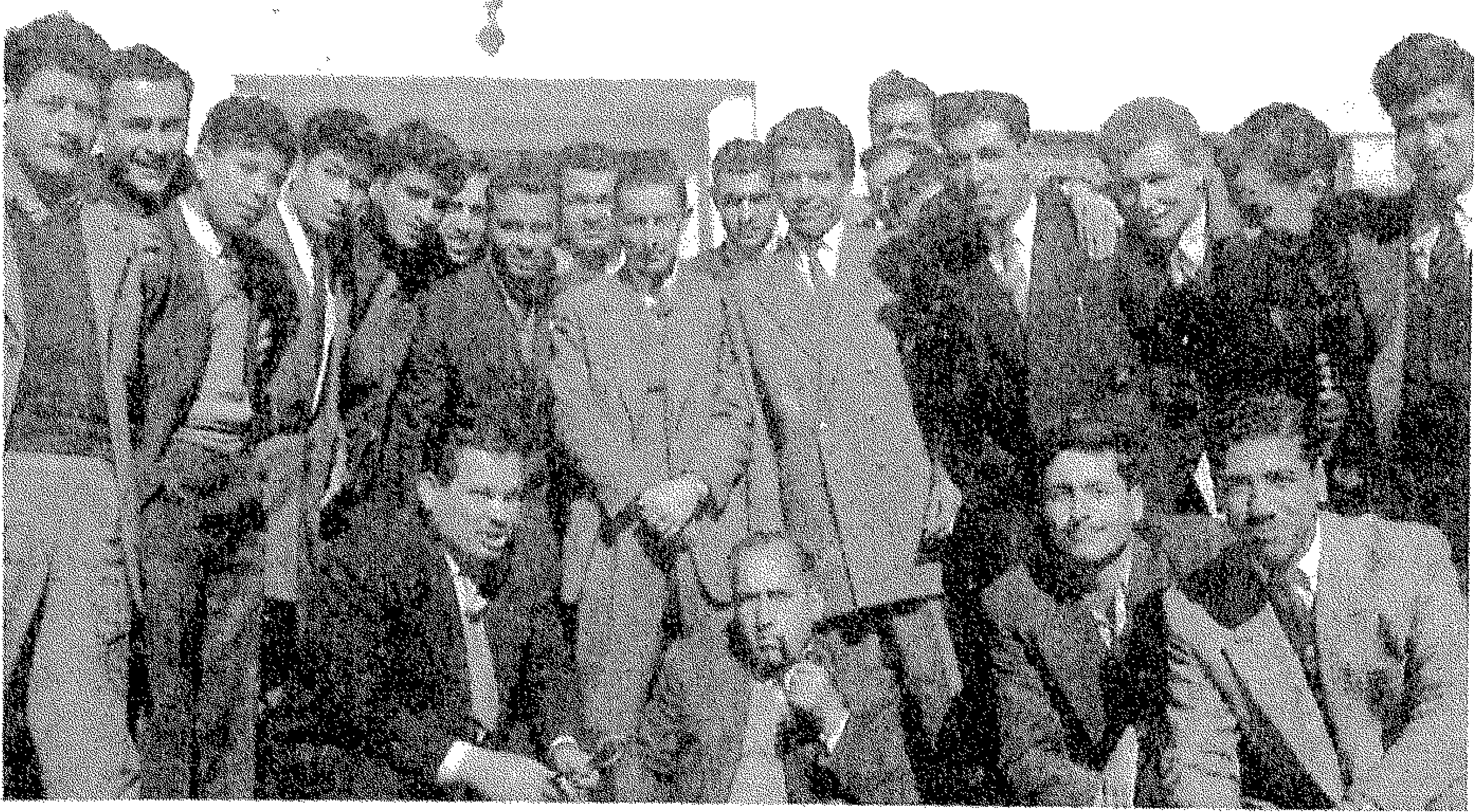
نبيهة القبيسي



شعار دار المعلمين



الملك حسين يزرع شجرة في عيد الشجرة في ساحة دار المعلمين سنة ١٩٥٧



صورة جماعية لاساتذة وطلاب دار المعلمين ويظهر في مقدمتها : فايز الغول وسعد إبراهيم . ومحمد حلاوة (اساتذة) وفوزي السوداني محاسب الدار



عبدالحميد ياسين



من أعمدة جرش

(٩)

أؤكد أنني كنت طالباً جيداً في دار المعلمين لكنني لم أكن متفوقاً ، إلا أنني تعلمت منذ ذاك الوقت أن أي احترام من قبل الأستاذ للطالب يترك أثراً بالغاً في نفسه ، فليس أجمل من أن يحب الطالب أستاذه حين يجد فيه نموذجاً أمثل . . عن علاقتي بالأساتذة في دار المعلمين استحضر ذكريات بشيء من السعادة الممتزجة ببعض الحزن الدفين رغم مرور أكثر من خمسة عقود من الزمان ، «من أساتذتنا الذين كنا نستظرفهم الأستاذ فايز علي الغول وهو خريج دار العلوم وكان لديه إلمام كبير بالتراث العربي القديم ، تعلمنا على يديه كيف نقيم علاقات مع هذا التراث ، وما أزال أذكر أنه علمنا الوساطة بين المتنبي وخصومه ، كما علمنا واحدة من مؤلفات أبوبكر الصولي ، وشرح ابن عقيل للألفية ، باختصار ، لقد أحببت اللغة العربية بفضله ، فقد كان قريباً منا بدرجة جعلتنا نستفيد منه ونتعرف من خلاله على الكثير . . أيضاً كان هناك الأستاذ محمد كمال الحسيني ، وهو الوحيد الذي كان يمتلك سيارة ، وكنا في الحفلات الداخلية الأسبوعية نقلد الأساتذة تقليداً جريئاً ، ومن القفشات أن سيارة الأستاذ الحسيني القديمة تعطلت ، وحين نزل ليرى ما بها وجدها التصقت بعلكة! ومن القفشات كذلك أن كان الأستاذ الحسيني يقود سيارته باتجاه الدار وحين رأى أحد الطلاب ماشياً في نفس الاتجاه عرض عليه إيصاله فأجابه الطالب : «شكراً يا أستاذ فأنا مستعجل»! ، وكان معنا زميل غاية في الخفة هو عطا الله علاوي ، كان فاكهة الدار لقفشاته وخفة ظله وروحه ، وهو من كان

متخصصاً في تقليد الأساتذة» .

«كان معنا أستاذان مصريان هما الأستاذ صالح بوبطين ، وصالح محمد صالح . . وأذكر أحد الأساتذة كان يعلمنا فن طباعة الأوراق marbelling ، وأستاذ الرياضة سعد الدين إبراهيم . . الجميل أن الأستاذ عبدالحميد ياسين مدير الدار كان يستدعي لنا كل أسبوع شخصية معروفة من الأردن ليحاضر لنا في الاقتصاد أو الأدب أو الشعر أو النقد ، ومن الذين اختلفوا إلينا عبدالرحمن الكيالي وشفيق بريك ، أما أظرف أساتذتنا فكان الأستاذ محمد نوري شفيق الذي أصبح فيما بعد رئيساً لجامعة الإمارات العربية المتحدة ، وكان موضع احترامنا جميعاً ، وكان شخصية تجمع بين الأصل الشركسي والفرع التركي أو الكردي مع الفرع العربي . . وما أزال أذكر أنه دخل علينا ذات يوم وقال : (اليوم أشعر بالسعادة) وحين استفسرنا عن السبب فتح حقيبته وأخرج منها مجلة بغلاف ألوانه زاهية ، وكانت العدد الأول من مجلة (العربي) ، التي تصدر من الكويت وشجعنا على متابعتها شهرياً حيث كانت تباع وقتها بعشرة قروش لكنه اعتبر هذا المبلغ ليس خسارة فيها ، وأذكر مولد المجلة كان في العام ١٩٥٨ واستمرت حتى الآن وهذا العام تحتفل الكويت بمرور خمسين عاماً على صدور مجلة «العربي» . . وكان الأستاذ شفيق قد ذهب في بعثة دراسية إلى أمريكا وعاد وقد ألف كتاباً عن الدعاية الصهيونية بأمريكا» . .

وعن أولى مشاركاتي الأدبية في المطبوعات أو الدوريات كانت عبر دار المعلمين من خلال مجلة يحررها أبناء الدار اسمها «القلم» ، ولأول مرة أكتب مقالة تنشر باسمي ، «كان اسم المقال (اللاأبالية خطر اجتماعي) ، وأذكر أن زملائي كانوا يتندرون على أسلوبي ويمازحونني ويعلقون عليها لأنني كنت مولعاً بالألفاظ ، لكني يومها اكتشفت أنني قادر على الكتابة ، إذ لم أكن قد كتبت قبلها إلا مرة واحدة في جريدة يومية اسمها (اليوم) في بريد القراء حين كنت في المدرسة الثانوية .

إن قليلاً من القروش كانت تكفي الطالب في دار المعلمين نظراً لأن المأكل والمسكن كانا متوفرين مجاناً ، لكن حين علم أحد أبناء عمومتي أنني أدرس في دار المعلمين وهو المحامي إسماعيل المحادين ، اتصل بي لمقابلته ، لماذا؟ ، «أخبرني إسماعيل المحادين بأنه موجود في عمان وإن أردت أو احتجت لأي شيء فهو حاضر ، فقد كان يعرف ظروفنا المادية مع ان الفقراء حساسون ، فشكرته وتهربت من الموضوع ، إنه أكد لي أن ما يفعله ليس معونة ، لكنه قرض يمنحني إياه ، وعلي إعادته بعد التخرج والانخراط في العمل ، وأذكر أنني أخذت منه بعض المبالغ على مرتين أو ثلاثة ، إلا أنها في المجموع لا تتجاوز العشرين ديناراً ، وما زلت أهجس حتى الآن إن كنت أعدت إليه المبلغ أم لا ، على أي حال فأنا أحمل له من العرفان ما يساوي الكثير وكأنه صرف علي في دار المعلمين ، لأن وقفته كانت في موقعها ، والشيء حين يكون في موقعه يكون مفيداً وجميلاً» .

«أنا مدين فيما يمكن أن نسميه ثقافياً (البنية التحتية) ، فقروي بسيط مثلي قليل الخبرة لم يكن يعرف أن وراء أفق قريته يوجد أي عالم ، فجأة وجد نفسه في أعلى مؤسسة تعليمية في المملكة الأردنية ولا يصل إليها إلا الواصلون باختبارات ذكاء ومقابلات ، ليصبحوا معلمين على اعتبار أن المعلم لابد أن يكون متوفراً على عدة مزايا وقدرات . . لا أزعم أنني أتمتع بكل المزايا المطلوبة ، ولا أزعم أنني خلقت لأكون معلماً ، بل إنني لم أكن أريد أن أكون كذلك» .

«أنا ما زلت أشعر بنفس أحاسيس عدم الرغبة في التعليم» ، « لكن أؤمن بقاعدة (إذا لم تستطع أن تغير الشيء فعليك أن تحبه) ، وكنت دائماً أعتبر أني إذا سمحت لميولي أن تتحكم في عملي فإنني أمارس شيئاً من الخيانة ، ولذلك استطعت أن أحب مهنتي وأتآلف معها ، وأحسب أنني كنت مدرساً ناجحاً ، وهذا ليس رأيي ، ولكنه رأي الكثيرين ممن تقاطعت معهم ، ومازالوا يحرجونني إلى الآن ، كما يقول أخي محمد البنكي إنني حببتهم في اللغة العربية ، حتى أنه يحملني الآن مسؤولية عودته من السعودية وتراجعه عن دراسة فرع علمي

لشغفه باللغة العربية ، فبدلاً من أن يكون مهندساً عاد ليكون أديباً وأستاذاً . . هكذا هو يقول ، وأنا ربما أصدقه»!

حاول الأستاذ محمد نوري شفيق معي الكثير لكي يجعلني أتذوق الموسيقى الكلاسيكية ،لكنه فشل فشلاً ذريعاً حسب ما رأى ، فكان يسمعني (بحيرة البجع) لتشايكوفسكي وغيرها ، رغم أن هذه الموسيقى لم تكن تعني لي شيئاً آنذاك وحتى هذه اللحظة ، قلت للدكتور نوري شفيق : إن حدّ تذوقي للموسيقى هو توفيق النمري . . «إذا أراد الإنسان أن يعرف ماذا تعني الموسيقى الأصيلة وبماذا توحي فعليه أن يسمعها وهو نائم ، وهذا ينطبق على أي أصوات أخرى ، فالأصوات خلال النوم تولد استجابات داخل النفس وأحلاماً لها علاقة ماسة بذلك الذي يسمعه النائم ، وستتولد لديه حالات من اللاشعور يستطيع بها أن يفسر أثر تلك الموسيقى ، وأعتقد أن هذه نظرية أطلقها لكني لا أستطيع أن أبرهن عليها»!

«بدأت أتحسس الحياة ، وأتذكر كتابات توفيق الحكيم وطه حسين حينما ابتعثا إلى الغرب ، مع الفارق بالطبع ، وكيف عبرا عن البعد بين القاهرة وباريس ، فعرفت ماذا كانا يقصدان ، لأنني كنت مصدوماً رغم صغر سني ، وكلما كنت أتقدم في المعرفة البسيطة كنت أشعر بالمأساة ، وأحياناً كنت أقول : (يا الله هل صحيح أن عمان وعزرا في وطن واحد؟! ولهما ملك واحد؟! ويدير شؤونهما وزير واحد؟!) إذ لم تكن الحكومة إلا لعمان والأخطر أن قناعتي هذه لم تتغير إلى هذه اللحظة»!

بالتأكيد إلى الآن أنا متعلق بعزرا ، فما زال لدي أرض ، ونفس الحجرة التي ولدت فيها وإخوتي موجودة ، ونفس البئر الذي حبسني فيها والدي موجودة ، ليس هذا فحسب ، فأنا رغم هذا العمر حين أنام أحلم بأنني في عزرا ، وكل أحلامي تعود إلى مرحلة الطفولة ، أتخيلها لأنها مواطن الصبا الأول» . وحتى حين توفي الوالد ، واقتسمت مع أخواني قطع الأراضي التي تركها لنا ،طلبت

منهم أن تكون الدار التي ولدت فيها هي من حصتي ، فوافقوني .

كان دخولي إلى دار المعلمين مصحوباً بفترة حراك سياسي نشط بصورة مذهلة ، ففي عام ١٩٥٦ المظاهرات كانت تقوم بين آن وآخر اعتراضاً وشجباً للعدوان الثلاثي على مصر ، ودعماً لعبد الناصر الذي وقتها بدأ يصبح مشروع زعيم قومي للعرب ، واذكر المظاهرة التي ضمت الفوج السابق والفوج الحالي بدار المعلمين ، بعدها كانت مرحلة الوحدة بين مصر وسوريا في العام ١٩٥٨ ، «العدوان الثلاثي والوحدة بين مصر وسوريا كانا حادثين كبيرين في سنتي دراستي في دار المعلمين ، كنا في غاية الوعي وغاية التوتر ، وأذكر عند إعلان الجمهورية العربية المتحدة حيث أصبح أكرم الحوراني الذي له حضور كبير في قلوب البعثيين بالأردن نائباً لرئيس الجمهورية ، وبدأنا نسمع أسماء ، وصرنا نتحدث عن شكري القوتلي الذي تنازل عن الحكم ، وهي مسألة نادرة في الثقافة العربية ، ووصل عبدالناصر ذروته وأعلنت الجمهورية المتحدة ، في هذه الأثناء كانت الأردن غير منسجمة مع هذه الوحدة ، فكان الحكم الهاشمي في عمان وبغداد ، وكان الملك حسين الذي يتمتع بسمعة دولية لافتة وخبرة سياسية عميقة ، وكذلك في العراق الملك فيصل والوصي عليه فيما سبق وولي عهده عبدالإله ، فسارع النظامان الأردني والعراقي إلى تأسيس اتحاد آخر كرد على الوحدة المصرية السورية وسمي (الاتحاد الهاشمي) ، لكن وقوع انقلاب ١٤ يوليو(تموز) الدموي في العراق أثناء وجود معظم وزراء الأردن هناك ومقتل رئيس وزراء الأردن ووزير الصحة الأردني مع من قتلوا من العراق ، فدخلت المنطقة في صراعات حادة ، وكنا نحن الطلاب نسمع ونعي ونشارك في المظاهرات ، خاصة وأن حزب البعث كان يلعب دوراً مهماً في ذاك الوقت» .

فبعد التخرج من دار المعلمين بسنة تقرر أن تصبح الدراسة في الدار ثلاث سنوات ثم أربعة ، ويمنح الخريج بكالوريوس تربية ، وتقرر فتح الصف الثالث ودعوا عشرين طالباً من ضمن أربعين من خريجي الفوج الخامس ، وكنت واحداً

من هؤلاء العشرين ، وتمت بالفعل مخاطبتي لألتحق بالسنة الثالثة لكن ظروفي الموضوعية لم تكن لتسمح ، فاعتذرت ، لكن المشروع أخفق ، وتم اختيار النابهين من المجموعة للدراسة في الخارج ومنهم سامح الخفش الذي سافر لسنتين وعاد بالماجستير من الولايات المتحدة الأمريكية وجاء إلى البحرين في بعثة التعليم العالي عندما أسست دار المعلمات ودار المعلمين ، ثم عين ملحقاً ثقافياً في يوغوسلافيا حيث أكمل دراسته العليا ، وهو يعمل حتى هذه اللحظة بالبحرين . حتى عام ٢٠٠٧ وصداقتي لسامح صداقة قدرية ، سأرويها فيما بعد .

من أجمل الذكريات التي لا أنساها أثناء دراستي في دار المعلمين والتي كانت في مخيم جرش ؛ فقد كان من سياسة الدار اصطحاب الطلاب في رحلات ميدانية لتعريفهم بأرجاء المملكة ، كالبرلمان والمتاحف وغيرها ، لكن أجمل الرحلات كانت في جرش التي كان لابد أن يتعاون الطلاب فيها على مشروع ثقافي يتفقون عليه ويستكملونه سوياً خلال الأيام العشرة التي يقضونها في المخيم ليصدروا بعدها كتاباً يتضمن محتويات هذا المشروع ، «جرش ، وما أدراك ما جرش ، مدينة رومانية لا تمت إلى التراث العربي بشيء ، فهي عبارة عن بقايا آثار وحجارة ومسارح ومدرجات ترجع إلى العصر الروماني ، وهي مرتبطة في الذاكرة الأردنية بالشركس وهم جاليات قديمة جداً عاشت في المملكة منذ تأسيسها مثل الشيشان والأرمن الذين هربوا من الحكم الروسي ومن الأتراك إلى سوريا ولبنان والأردن ، لكن الشركس اندمجوا في المجتمع الأردني وحافظوا على تقاليدهم وأبرزها في الزواج حيث لهم طريقتهم المميزة وهي الاختطاف وكذلك رقص السكاكين ، وهم موضع ثقة العائلة المالكة ، أما جرش الحجارة ، فقد عشنا فيها عشرة أيام ، واخترت موضوع صخور جرش الملأى بالمنحوتات الصخرية وذات أرضية من البلاط ، وبدأنا نقرأ المراجع وتحدثنا مع الأهالي ، وعلمنا أن معظم حجارتها نارية يمكن نحتها ، وجمعنا كل ما لدينا ، وعدنا وقدمنا مادة الكتاب ، لكن للأسف لم يكن لدي نسخة عنه لأنه

ربما صدر بعد تخرجنا حيث انقطعت علاقتنا بالدار» .

الاستعداد للتخرج ، هي المرحلة الهامة والصعبة في حياة طلاب دار المعلمين ، وكانت متطلبات التخرج اجتياز الامتحانات بنجاح في اللغة العربية والإنجليزية حيث تم تدريسنا عن الحضارة العربية والتراث ، أما في الإنجليزية فقد درسنا مسرحيتين لشكسبير ، وشيئاً من الأدب الأمريكي . . من جهة أخرى كنا نرسل إلى المدارس الإعدادية لندرس ضمن برامج الأساتذة ، وكنت أدرس اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا ، ودرست في عدة مدارس في عمان تحت إشراف أساتذة قدامى ، إلى أن جاء يوم امتحان التخرج ،»ويأتي يوم العرس ، ويمتحن طالب واحد في اليوم ، حيث يتم تحضير صف من مدرسة مجاورة ليكون جسم الامتحان ، ويعطى المدرس/الطالب الموضوع الذي عليه أن يشرحه أمام الممتحنين المكونين من رئيس الدار وأستاذ ممتحن داخلي وزائر خارجي ، يجلسون في نهاية الصف ، ويطلبون من الطالب بدء الدرس ، وعليك أن تنفذ درساً نموذجياً كي تنجح وتنال الشهادة . . كان الامتحان عسيراً ، وكنا ننتظر هذه اللحظة بخوف وترقب ، كما كان على الطالب أن يظهر بمظهر أنيق ، ولأن معظمنا لم نكن من الأغنياء ، كنا نتعاون ونتبادل الملابس ، وكل يتبرع بشيء للطالب العريس . لا أدري ما الصدفة التي جمعتني بدرس للتاريخ عنوانه الاستعمار البريطاني في العراق . عندما أردت أن أدرس هذا الموضوع لم أكتف بالمعلومات التي في كتاب المدرسة ، بل ذهبت إلى المكتبة واستعنت بمرجع وجمعت معلومات ضمنتها في مذكرة الإعداد للدرس ، وتحدثت خلال الدرس عن الثورة العراقية ضد الإنجليز ١٩٢٠ وقتل أحد العراقيين للمندوب السامي بضربة فأس ، لكن ممثل دار المعلمين لم يرق له ذلك ؛ ولم يكونوا يعلموننا ما يجوز قوله وما لا يجوز ، فاستدعاني محمد نوري شفيق ، وقال لي : (تجاوزت اليوم) ، فقلت له : (هذا موجود بالمراجع) ، فقال لي كلمة أخافتني : (أنت جازفت بتعب سنتين) . وفهمت منها أنني لن أنجح ، فسألته ببساطة (هل هناك

إشكالية في أداء الدرس؟) ، فأجاب (أداء الدرس كان ممتازاً) فتوقعت النجاح ، ربما كان رهاناً قائماً على حدس ، لكن تمر الأيام وأنا على قدر ليس بسيطاً من الحال القلق ، واسترجعت في مخيلتي تحقيق مدير الدار معي في إحدى المرات عمّا دعاه انتماءاتي الحزبية ، لكن قابلني الدكتور شفيق وقال لي (مرة ثانية قبل أن تقتل الناس فكر) ، وقال كلمة أخرى : (وأنت تدرس بره فكر)» . ومع هذا فقد نجحت .

«في حفل التخرج منح كل منا تذكرتا دعوة ربما ليحضر والديه ، فقلت سلفاً : (أعرف أن والدتي لن تتمكن من الحضور ، لكن توقعت حضور والدي وأحد من الأقارب ، لكن والدي لم يحضر ولليوم لا أعلم ما هي الأسباب وأحسبها مادية ، وجاء أحد أقاربنا ، وتم توزيع الشهادات التي كانوا يوزعونها كشهادات دون أن تكون الشهادة باسم الخريج ، على أن يفتحها مستلمها ويسلمها لصاحبها بعد الحفل وذلك لحكمة أن تبحث عن صاحب الشهادة لتسلمه إياها وتهنئه ، وهكذا كانت نهاية عامين في دار المعلمين .

«قبل التخرج ألقى علينا الأستاذ فايز الغول محاضرة كنا نتوقعها نصائح وإرشادات» ، «قال لنا الغول بصوته الجهوري (أوصيكم ألا تتزوجوا إلا حسناوات ، لا يتزوجن أحد منكم يا أفندي امرأة دميمة ، فإنه قد يكون فقد لذة الحياة) وحكمته في ذلك كما قال (الذي يتزوج امرأة جميلة يتفرغ لأشياء كثيرة في حياته لينجزها ، فهي بجمالها توفر عليه اهتمامات كثيرة) رغم (الجميلة وغرورها ينكد على الرجل) ، (كل زواج حالة خاصة ، لا يقاس زواج على آخر ، والدمامة والجمال مسائل نسبية) نتذكر قصة بثينة وجميل حين طلب الخليفة أن يراها ، وفوجئ بها قائلاً : (ويحك ماذا يعجب جميل بك؟!) فأجابته (جميل يراني بعينيه لا بعينيك)» .

لم تغب البحرين عن ذاكرتي وأنا في دار المعلمين . فقد امتلأ حضورها في ذهني . . ولهذا حديث آخر .



في مخيم جرش



محمد نوري شفيق



فايز الغول



مدينة الكرك



(١٠)

❖ **زيارة وزير التربية والتعليم في جمهورية مصر العربية لدار المعلمين**

❖ **المراسلات بيني وبين مدير دائرة المعارف بالبحرين أحمد العمران**

❖ **زيارة وفد منظمة التحرير الجزائرية للدار**

❖ **الزملاء الذين بقوا في الذاكرة، والذين غيبتهم الأقدار**

❖ **أستاذنا الإنجليزي الذي ظنناه لا يعلم العربية، فورطنا بذلك في إحدى الرحلات**

❖ **خرجت من «الكرك الثانوية طالباً وعدت إليها معلماً.. والفرق كبير!**

❖ **ماقصة الأستاذ روبنصون.. ولماذا وقع الحرج على الطلاب؟**

❖ **قصة صداقة غرائبية جمعتني وسامح الخفش بين الأردن والبحرين**

❖ **هذه هي قصتي مع البحرين وأحمد العمران وكأنه نداء القدر!!**

❖ **القطيعة الفورية مع خريجيها.. تقاليد غالبة في الأكاديميات العربية**

❖ **ليس هناك أسوأ من أن يمنح الإنسان شيئاً ناقصاً ويترك ليستكمله بمجهوده الفردي**

أنا مسكون بذكرياتي مع دار المعلمين ، وغير قادر على الخروج منها ، فقد كان لها تأثير في حياتي امتد معي حتى يومنا هذا ، «في السنة الثانية ، وفي شتاء ١٩٥٨ تصادف وجود إجازة لمدة أسبوع ، وكان الطقس بارداً ومثلجاً وممطراً ،

فأعلن مدير الدار أن من يود أن يذهب إلى أهله في هذه الإجازة له ذلك ، ومن أراد أن يبقى في الدار فهو مرحب به ، ومن المصادفات أن جميع الطلاب انصرفوا إلى أهاليهم ، ولم يكن لدي رغبة في الذهاب إلى الكرك وسط هذه الأمطار والثلوج . . فبقيت في الدار . . وبقي في الدار عدد من الأساتذة فكانت دار المعلمين توفر لهم وجباتهم الاعتيادية . . وأنا معهم . . فصرت لأول مرة أتناول الوجبات مع الأساتذة والمقيمين في المنزل . . وهي تجربة ظريفة مررت بها بالصدفة ، وتعلمت منها الكثير ، وبخاصة كيف نخاطب أساتذتنا في الأحوال العادية خارج الدرس ، وقضيت الأسبوع في القراءة والنوم . .

«كان يدرسنا (الفيلولوجي) أستاذ انجليزي هو (روبنصون) من المجلس البريطاني . . ولم يكن يتكلم حرفاً بالعربية . . وذات مرة كنا في رحلة من رحلات دار المعلمين وكان معنا بعض الأساتذة ، ولأننا نتوقع أنه لا يجيد العربية فكنا نتبسط أمامه في الحديث . . ونعلق أحيانا عليه ، ولما عدنا . . فاجأنا بأنه يتكلم العربية الفصحى وشيئاً من العامية ، واخذ يردد أمامنا بعض تعليقاتنا!! ولا عزاء لنا» . . .

«من الشهور الأولى نشأت صداقات بيني وبين بعض الزملاء» ،»وكان سامح الخفش هو أول صديق أتعرف عليه في دار المعلمين ، ولعل صداقتنا صارت قصة غرائبية . . في السنتين اللتين قضيناهما في دار المعلمين كنا متلازمين ، وبعد التخرج ذهبت أنا إلى الكرك وعاد هو إلى نابلس ، وبعد فترة قصيرة استدعتنا دار المعلمين للاستمرار في سنة ثالثة ، وثم رابعة . . للحصول على البكالوريوس . . فلم أذهب . . وعاد سامح لإكمال السنة الثالثة . . لكنه بعدها لم يتم إكمال الرابعة . . وكنت أزوره في دار المعلمين ، وقضيت معه بعض الإجازات في منزلهم في نابلس وقريتهم (مردا) ، وابتعثته الحكومة إلى الولايات المتحدة . . وبقي هناك سنتين وعاد يحمل ماجستير في التربية . وفي سنة ١٩٦٦ كان سامح عضواً في البعثة الأردنية التي أسست معهد المعلمين في

البحرين . . واستمر خمس سنوات ليغادر البحرين ، ويصبح مسؤولاً عن العلاقات الدولية في وزارة التربية الأردنية ، ثم يصبح ملحقاً ثقافياً في بلغراد . . حيث واصل دراسته ونال الدكتوراه . . ومن عجب أنه عاود الحضور إلى البحرين ليعمل في دائرة التدريب في وزارة التربية في البحرين . . وعاودنا الاستمرار في صداقتنا . . وبعد ١٩٩٦ عملت محاضراً في جامعة البحرين وعاد هو ليعمل في كلية التربية . . ومرة أخرى يكون مكتبه بجانب مكتبي . . إنها صداقة قدرية ومستمرة . . وفي شهر يوليو١٩٠٧ من العام الجاري كنت في الأردن ، وكنت أجلس على مقعد برجلي المكسورة بانتظار الذهاب إلى الكرك . . والتفت بجانبي ، وإذا سامح كان معي على نفس الطائرة بعد أن أنهى عمله في جامعة البحرين . . وهو يجلس بجانبي على ذات المقعد . . إنها بحق صداقة قدرية . . وكثير من البحرينيين يعرفون أيضاً سامح الخفش» .

وكان لاسم البحرين وهج خاص في نفسي كلما تردد الاسم أمامي ، وكأنني على موعد مع القدر في البحرين ، «كانت «البحرين» تلاحقني منذ أن سمعت اسمها وأنا في الرابع الابتدائي ، فهل يصبح المستقبل شيئاً من الذاكرة؟ طلبوا منا أن يعد كل طالب بحثاً عن إعداد المعلمين في بلد عربي ، فوقع اختياري دون تردد على البحرين . . وسرعان ما كتبت رسالة إلى المسؤول في التعليم في البحرين أطلب منه المساعدة في إعداد هذا البحث ، ولم أكن واثقاً من أن رداً سيجيء إلي . . وأفاجأ بظروف كبير يحمل طابعاً من طوابع البحرين . . وإذا هناك مجموعة أوراق تتحدث عن إعداد المعلمين في البحرين ، وأن إعدادهم يتم من خلال صفوف معلمين ملحقة بالمدرسة الثانوية وتفاصيل أخرى ، والأعجب أن توقيع الرسالة كان باسم مدير المعارف «أحمد العمران»! وهذا يعني أنني تواصلت مع مدير التعليم قبل الحضور بسنتين . . وأعددت البحث بهذه المعلومات وقدمتها واجتزت الدرجة المطلوبة ، وبدأنا نستعد للتخرج من دار المعلمين . .

واستمراراً في حديث الذكريات ، «كنا في قاعة المحاضرات عام ١٩٥٨ وأعلمونا أن وزير التربية في الجمهورية العربية المتحدة كمال الدين حسين سيزورنا بصحبة هاني السباعي وزير تربية الإقليم السوري ووزير التربية الأردني . . ولما دخلوا علينا بقينا قاعدين ولم نقف ترحيباً بالضيوف ، وأثار ذلك جدلاً فيما بعد هل كنا محقين أم كنا لا نفهم في البروتوكول . . واستقر الرأي أننا كان ينبغي أن نقف للترحيب بالضيوف . أي لا نفهم بروتوكول» .

«كانت ثورة الجزائر في أوجها . . وزارنا في الدار بعض المبعوثين الجزائريين الذين يزورون البلاد العربية . واحتفلنا بهم احتفالاً يليق بإنجازات ثورة الجزائر آنذاك . . كما أتذكر عن دار المعلمين أيضاً من زملائنا في الدار من أصبحوا شعراء وهم حكمت العتيلي وشفيق بلعاوي . . كذلك لا يمكنني أن أنسى صديقي فواز راغب الذي كانت تميزه عيناه التي كانت إحداهما زرقاء والأخرى خضراء» .

للتخرج من دار المعلمين بالأردن طقوسه الخاصة ، فقبيل التخرج يقدم الفوج هدية للدار باسمه ، وقد ارتأى الفوج الخامس في بداية السنة الدراسية الثانية أن تكون الهدية للدار شيئين ، الأول إعداد قاموس إنجليزي عربي في المصطلحات التي كانت تتداول أثناء مرحلة الدراسة في المعهد ، وكل مصطلح ومدلوله باللغة العربية ، «نفذنا الجزء الأول منه على أمل أن يواصل لاحقونا استكماله فيما بعد ، وبطبيعة الحال لا ندري ماذا تم فيه ، لأن هناك تقاليد غالبة في الأكاديميات العربية وهي القطيعة الفورية مع خريجيها بمجرد أن يتخرج الفوج ، وهذا ما حدث معي ، وهو أمر مؤسف للغاية ، فكم كنت أتمنى أن يعقد مؤتمر كل عشر سنوات يجتمع الخريجون خلاله مع المعلمين ويتبادلون حديث الذكريات ، هذا لمن بقي منهم على قيد الحياة» .

وأما عن الهدية الثانية «قررنا وبناء على نصيحة أحد أساتذتنا أن نشتري بالمبلغ المقرر للهدية مجموعة من الكتب الأجنبية التي تتناول القضية الفلسطينية ، وكانت المؤلفات عن النكبة محدودة ، فلم يكن قد مر على النكبة

أكثر من عشر سنوات ، لكن تم تشكيل اللجنة وشراء الكتب التي لا أذكر عددها ، وأذكر الخزانة التي جهزت لهذا الغرض وقد ملئت بالمجلدات ، على أن يستمر هذا التقليد مستقبلاً ، وكشأن القاموس لا أدري عن المكتبة شيئاً ، وانقطع عهدي بدار المعلمين منذ ١٩٥٨ إلى يومنا هذا» .

ماذا استفدت من دار المعلمين؟ وما هي النواقص التي ظلت تصاحبني؟ وكيف تغلبت على ما بداخلي تجاهها؟ «منحتنا دار المعليمن بعداً كمياً بصرف النظر عن البعد الكيفي ، فسنتان من الدراسة التربوية والمعرفية لا تكفيان لتؤهلا إنساناً يدخل الحياة العملية ليبدأ مشواره ، وليس هناك أسوأ من أن يمنح الإنسان شيئاً ناقصاً ويترك ليستكمله بمجهوده الفردي ، كنا نحس أن كم المعلومات الذي منحناه لم يكن كافياً لكي ننطلق منه في تدريسنا القادم في المرحلة الثانوية أو الثانوية المتوسطة ، وكان هذا إحساسي الشخصي ، كنت أدرك أن دراسة سنتين في علوم التربية وتطبيقاتها كانتا كافيتين ، لأن التربية مبادئ وسلوك ومواقف لا تحتاج إلى تعميق بالغ فكنا مؤهلين تربوياً للتدريس في المراحل الثانوية ، لكن الأمر لم يكن كذلك علمياً ، وظلت هذه المشاعر تجتاحني إلى أن تداركت نواقصي المعرفية فيما بعد وتجددت علاقتي بالدراسة مدة ١٥ عاماً حتى حصلت على شهادة أكاديمية عالية وهي الدكتوراه ، ففي العام ١٩٦٨ درست ٤ سنوات بكالوريوس ، ثم سنتين في دبلوم الدراسات الإسلامية ، تلتها خمس سنوات للماجستير ، و٣ سنوات للدكتوراه التي نلتها عام ٢٠٠١» .

«منذ الوهلة الأولى كنت أحس بأنني مشروع كاتب ، وعندما ذهبت إلى دار المعلمين قال لي صديق مثقف بعدما عرف توجهاتي الكتابية (أتنبأ لك بنفس مسيرة إبراهيم عبد القادر المازني ، فهو كاتب كبير لكنه بدأ حياته في دار المعلمين المصرية) ، ولا أدري إلى أي مدى صدقت هذه النبوءة وإن كنت صدقتها فإن إنجازاتي بعدها قد كذبتها» .

«تخرجت من الدار ، وعدت إلى مدينتي وقريتي ، وقد كبر إخوتي سنتين ،

ولم يطرأ على حياتنا أي تغيير ، فلا تحسن اقتصادي ملموس ، ولا تراجع إلى الخلف ، لأن مساحة التراجع ليست كبيرة ، فهي بقرب الصفر تقريباً ، والذي يقف بقرب الصفر ليس مرشحاً لأن يخسر كثيراً ، كنت ألاحظ في عيني أبوي وأخوتي أنهم مقبلون على رخاء وانفراج وأن كل الأشياء التي كانوا محرومين منها ستصبح متاحة الآن مادام أن إبناً لهم سيعمل موظفاً» .

«كان خريجو دار المعلمين يعينون على الدرجة الثامنة التعليمية ، في حين كان الجامعيون يعينون على الدرجة السابعة ، بما يعني أن خريج دار المعلمين كان يحسب بشكل تقريبي وكأنه ثلاثة أرباع جامعي ، والفرق في الراتب كان بسيطا في حدود (٦-٧) دنانير تقريباً . . ولأن بعض المسؤولين في العادة ميالون دائماً إلى فعل ما هو مؤذٍ أكثر من ميلهم إلى فعل ما هو مفيد ، فقد قرر الوزير في هذه السنة أن نعين على الدرجة التاسعة ، وهو ما يعني أن المرتب صار أقل ، وما كنا نملك حيلة في أن نغير ما يقرره الوزير ، ولأنهم في بيتنا واثقون بأنني لا بد أن أعمل كان السؤال أين سأعمل وفي أي مدرسة سأعين ، سيما وأن الجنوب الأردني يشكل نصف المملكة ، وأن الأمكنة منتشرة ومتباعدة ، فكان من الممكن أن أعمل في مدرسة تبتعد عن بيتنا كيلومترات بسيطة ، أو مدرسة تبتعد مئات الكيلومترات ، فالكل يتبع إدارة مركزية واحدة .

«كان قرار مكان العمل بيد مدير التربية والتعليم في منطقة الكرك ، وللمصادفة أن ابنه كان صديقي ، حيث كان في الفوج الذي يلينا في دار المعلمين ، وهو شاب لطيف صار الآن يحمل اسماً كبيراً في مجال التراث العربي (د . إحسان العبيدات) ، وسألني وقتها عن المكان الذي أرغب العمل فيه وأجبته ببساطة عن رغبتي في العمل في أقرب مدرسة من مكان إقامتي ، وسألني إن كنت أريد العمل في نفس المدرسة التي تخرجت منها ، فكان الأمر بالنسبة لي كالحلم ، وما هي إلا مدة أسبوعين وتظهر التعيينات وأكون ممن سيدرسون في مدرسة الكرك الثانوية التي تخرجت منها ، وكنت أتقاضى ٢٣

ديناراً أردنياً وسبعين قرشاً وهو مبلغ زهيد بالنسبة لكلفة الحياة ، لكنه كان يسهم في حل مشاكل الأسرة إسهاماً جيداً في ظل مستوى عام للمرتبات ، حيث كان الأستاذ الجامعي يتقاضى ٣٥ ديناراً» .

تجربتي في العمل مدرساً وفي نفس المدرسة التي كنت طالباً فيها ، قصة جديدة ، وفصل جديد في حياتي ، «وها هي ذاتها مدرسة الكرك عدت إليها بعد سنتين ، لكن المسافة في الإحساس كأنها عشر سنوات ، فرق أن تكون في مدرسة طالباً ، وبعد سنتين في ذات المدرسة مدرساً ، ونحن طلاب كانت تستهوينا المشاكل ، والتوترات والمظاهرات . . لأننا كطلاب نتلذذ بذلك بحكم خصائص السن وليس لدينا ما نفعله ، وليس لدينا ما نخسره . . فهي موضة تتفق وتوجهاتنا في سن المراهقة . .

لكن الآن أنا معلم . . إن ما كنا نفعله ونحن طلاب ، ويفعله الطلاب الآن لا يجوز للمعلم أن يتواصل معهم ، ولا يجوز أن تكون أمام طلابك إلا صفحة نقية بيضاء ، تعلمهم ولكن لا تتدخل في رؤاهم . . وربما لم أكن من الفصاحة والبلاغة والقدرة على الخطابة بالقدر الذي يمكنني من التأثير في الناس أو جذب أو تنفير أحد تجاه موقف من المواقف ، خاصة وان تجربتي كطالب كانت باهتة ومحدودة ، ومن هذه الفترة بدأت أغير موقفي الإنساني من الأساتذة الذين كانوا يمارسون الأنشطة السياسية المختلفة ونحن طلاب . . أن تكون معلماً هذه مسؤولية تستحق التعمق سيما في وقت مليء بالأحداث ، ويختلط فيه الأسود بالأبيض ، وأشبه الموقف بالقصة التالية : ففي أيام العثمانيين كانوا يمارسون «السخرة» وهي أنهم يستولون على كل وسائل المواصلات من جمال وخيل وحمير ويستخدمونها في تجييش الجيوش في ذلك الزمان . . وأعلنت السخرة في منطقة ما : وكان فيها أرنب ، ففر الأرنب هارباً ، فلقيه صاحبه وقال لماذا أنت هارب . . قال : هناك سخرة . . قال له وما شأنك أنت بالسخرة؟ فقال إلى أن يكتشفوا أنني أرنب ولست جملاً يكون ظهري قد انكسر» .

«أثار تعييني الكثير من التساؤلات ، فكيف أعين في الكرك وأنا حديث التخرج ، ومدرسة الكرك الثانوية هي المدرسة الأم في الإقليم كله ، وبالتالي لا يعين فيها إلا من ثبتت كفاءته . ذهبت إلى مدرسة الكرك ووجدت اثنين أو ثلاثة من خريجي دار المعلمين من أفواج سابقة ، معينين على الدرجة الثامنة وكأنهم جامعيون ، وأذكر منهم خليل الكركي وكمال المصاروة ونسيم مدانات ، ، ولأننا من معهد واحد فكنت موضع حفاوتهم خاصة وقد كنت صغير السن وطفولي الملامح ، لذا لم أشعر برهبة من التدريس في هذه المدرسة ، مع أنني وجدت الكثير ممن درسوني في المدرسة وقد أصبحوا زملاء ، وأذكر منهم داوود المجالي الذي أصبح مديراً للمدرسة وقتها ، وهو شخصية معروفة في محيط الكرك ، وزعيم عشائري إضافة لمكانته التربوية ، كان صارماً ويستعمل الخيزرانة كأداة تأديب ، وربما ذقت طعم تلك الخيزرانة حين كنت طالباً أدرس عنده العلوم ، وحين استقبلني مرحباً قال لي : (إن شاء الله تكون عند حسن الظن) . إنني كنت أخاف منه وأنا مدرس مثلما كنت أخاف منه وأنا طالب ، وربما ليس خوفاً ولكن توقيراً ومهابة» .

«من عجب أنني قبل عامين كنت في الكرك والتقيت بصديق عزيز لي ، يعمل رئيساً لمحكمة الكرك الآن ، وهو أحمد سالم البيايضة وهو متزوج من ابنة الأستاذ داوود المجالي ، وأذكر أنني مازحته عندما علمت أنه خطبها سابقاً وقلت له (ألا تخاف من داوود) فضحك ، وطلبت منه أن أرى الأستاذ داوود الذي لم أره منذ أكثر من ٤٦ عاماً ، ورتب لي بالفعل لقاء لكن في اللحظة الأخيرة اضطر للذهاب إلى عمان ولم تسنح لي الفرصة لملاقاته ، إلا أنني مصمم على رؤيته طالما أننا على قيد الحياة ، لما أكنه له من مودة واحترام» . وإنني أعترف الآن بأنني حزين جداً حيث لم التقِ أستاذي داوود ، وقد وافته المنية قبل شهور . .ولم تتحقق امنيتي في لقائه . رحمه اللّه .

«التقيت بأساتذة كبار في المدرسة منهم ذيب المجالي وشاهر المجالي وعبدالله

المدادحة وعايد بقاعين ومتري الحمارنة ممن درسوني ، وكنت عندما أتحدث معهم أشعر بالحرج وعمق مشاعر الطالب أمام أستاذه . وبدأت التدريس ، وأخذت أتجنب الجوانب الحزبية ، وأنا مؤمن بأن من حق الطالب على أستاذه أن يبصره في كثير من الأمور ويعلمه التفكير الصحيح وأن يفجر داخله الوعي بأن الصحيح هو الذي يصح ، وأن لا كرامة للإنسان إلا بحريته ، لكن هذه المبادئ لا تحتاج لأن يكون المدرس سياسياً سيما وأنها أنشطة محظورة وممنوعة ، فإن التصرف في إطار المنع والتحريم سيكون شيئاً من العمل السري ، وليست كل الأعمال السرية مبررة ، وبالتالي كنت أنسحب قليلاً قليلاً من هذا الموقف ، ولحسن الحظ لم يدم عملي كثيراً حتى وجدتني أنسحب بقناعة عن كل هذا الاهتمام ، وإن كنت دائماً أقنع نفسي بأن الصدق والحرية والعدالة هي من حقوق الإنسان ، وهذه المبادئ كل الأحزاب تنادي بها وكذلك الدين الإسلامي والأديان الأخرى . . فكل هذه التجربة أعتبرها مشوبة بتفكير طفولي غير معمق ، ولم تكن الظروف الموضوعية قادرة على أن تشق لنفسها طرائق في الفكر والممارسة السياسية بشكل أرقى وأفضل» .

«درّست في مدرسة الكرك اللغة العربية والتاريخ وأصبحت في مواجهة حقيقية مع كل مترسبات الحياة الفكرية والعشائرية والمستويات الاقتصادية والذهنيات المختلفة ، كنت أواجهها كلها على صعيد واحد في مدرسة الكرك أمام طلابي القادمين من أماكن متباعدة ومن عشائر مختلفة ومن بيئات زراعية ذات ملامح معينة ، وأنا لست غريباً عنهم بل واحداً منهم أتلمس هذه الأشياء التي مازالت تتفتح في أذهان الطلاب ومازالوا يحملونها إلى أماكن العلم ، فتشعر بأنه علم ممتزج بعقلية قبلية عشائرية مع خشونة وشيء من الشراسة ، فلم أكن ألمس نعومة العلم ودماثة السلوك في كثيرين من الطلاب ، فهذه بلدنا وأنا منهم ، حتى أن إخوتي الثلاثة كانوا طلاباً في نفس المدرسة ، ويومياً يكون أحدهم قد اشتبك في عراك وضَرب وضُرب وتمزقت ملابسه وكتبه ، ومزق ملابس وكتب آخرين ، فكان

هذا هو الجو العام تقريباً ، وقد خفت من هذه الممارسات العنيفة» .

«استطعت في سنة دراسية أن أتمرس في التعليم إلى حد ما ، وأن أكون معارف وصداقات داخل المدرسة ومع الأهالي خارجها ، ومرت تلك السنة وأصبح الأستاذ داوود المجالي مديراً للتربية والتعليم ونقل والد صديقي إلى الخليل التي كانت تابعة للمملكة وقتها ، ويجيء إلى المدرسة الأستاذ مصباح العابودي ليصبح مديراً للمدرسة في العام التالي ، وهكذا مرت الأيام» .

« في الأسبوع الأول من العام الثاني لي بالمدرسة جاءني الفراش خلال الحصة أخبرني أن المدير يريدني ، فتوجست وأنا لا أدري لم يريدني المدير ، فوجدته في غاية الإحباط ولا أبالغ إن قلت إن عينيه كانتا تترقرقان بدمع شفيف ، وقال لي (أنا آسف وحزين ، لكني مضطر أن أبلغك) ، ولولا أن في يده ورقة لظننت أن أحداً من أهلي مات أو شيئا من هذا القبيل ، لكنه مد يده في اتجاهي بالورقة ودعاني للجلوس ، فأخذت الورقة وقرأتها ، وإذا فيها (لقد تقرر الاستغناء عنك اعتباراً من تاريخه) ودون إبداء أي أسباب ، لكني لم أفاجأ كثيراً ، فتلك الأوضاع المضطربة ترشح كل إنسان ليصبح ضحية . فقد كان الفصل من الوظائف أمراً سائداً في تلك الفترة الملأى بالتهم ، والكيدية ، وكان الحكم في تلك الفترة صارماً حد القسوة ، والأحكام العرفية معلنة ، كما كان النزاع بين القوى السياسية على أشده ، وتختلط العشائرية والقبلية بالسياسة . لكن أين أنا من القوى السياسية وأين أن من هذا كله؟! وعادة عندما تكون السياسة عملاً سرياً يكون التيقن أمراً صعباً ويختلط الكذب بالصدق ، وحينما يتبين الصدق يكون الكذب قد أخذ مفعوله» .

لا أدري أي شعور انتابني في تلك اللحظة ، وعادة تمر على الإنسان لحظات يكون فيها كالمخدر لا تظهر عليه ردود الفعل ولا يستطيع أن يحزن أو يغضب أو يبكي ، وقد صورت هذه اللحظة في مقال اسميته (مدرسة الكرك الثانوية ، يا أول بوابات الوطن ، يا أخر بوابات الوطن) .

«كان درس التعبير فرصتنا وأنا تلميذ لنتحدث عن حب الوطن . . والفقراء هم أكثر الناس حديثاً عن حب الوطن . . كنت دائماً أحلم وأنا أكتب في التعبير . . أحب أن أكون جندياً لأحمي حدود الوطن وربما كنت قد كتبت إني أتمنى لو استشهد دفاعاً عن الوطن كنت أكتب في دفتر الإنشاء ، أحب أن أكون مزارعاً أحرث أرض الوطن ، أحب أن أكون طبيباً أداوي مرضى الوطن . ملأت دفاتر الإنشاء حباً ، مدرساً تمنيت أن أكون لأعلم أبناء الوطن . . كان المدرسون يستغربون من كثرة ما أكتنز من حب داخل ذاك الجسد الصغير . . كنت أحلم . . ويكبر الحلم ويتسع ، وأكبر ، مدرسة الكرك الثانوية تحفر في وجداني ، ترتسم حجراً حجراً ، حجرة حجرة ، أحفظها عن ظهر قلب ، أعرف طولها وعرضها . . سلالمها وممراتها تكبر معنا الآفاق والأوراق ، كنا كالأشجار تتطاول ربيعاً ، بعد ربيع ، تزهر ، تذبل تكمن خريفاً بعد خريف ، تتبرعم الآمال فوق شفاهنا كلمات حالمة رومانسية رغم قسوة الخطوات وجراح الأقدام ، ووخز الشوك ، كنا نحلم» . .

« حلمت بوطن أمنحه كل حبي . . أتفيأ في ظلاله الأمن . . والسكينة . . وطن أتدفأ فيه من برد الليالي ، أتلملم على أهدابه كقطرة الندى ، وطن يسع صدره كل نزق الشباب ، وشقاوة الشباب ، وطن كبير أطرافه أبعد من الخيال ، جباله أعلى من الأجنحة ، ووديانه أعمق من الأنهار .

وكان خريف ١٩٥٩ ، كنت في مدرسة الكرك ، مدرساً ، أستشرف الحلم ، اقتسم مع تلاميذي القمر أكاد أطير وأنا أحلق أمام تلاميذي حين أقرأ أشعاراً للوطن ، أعانق السحاب وأنا أقرأ مع ابن الرومي عن الوطن الذي آليت ألا أبيعه . . ومع شوقي عن الوطن الذي لو شغلت عنه بالخلد ما انشغلت!! دون العشرين . . أو على مشارفها . . وها أنا في مدرسة الكرك عصفور يقف على غصن من أغصان الوطن»!

«فجأة وكما تحدث الزلازل ، كما ينفجر البركان ، أو كما ينكسر غصن طري

تحت رجلي عصفور متعب . . فجأة . . سحب الوطن بساطه! قصف الوطن غصنه ، استرد الوطن وَديعته ، داس على ضلوعي حتى انكسرت ، سدد الوطن . . وفي مدرسة الكرك الثانوية ، مهد أحلامي ، سدد إلى قلبي رمحاً وحشياً . . فتفصد الدم من صدري ، وتدفق من أذني . . وفرت من رأسي الأحلام . . كما تفر طيور السنونو من أشجار غابة اشتعلت فيها النيران .

وغرقت في الدخان واللهب . .!! مشيت على جرحي ، سحبت الرمح من صدري ، وضعت كفي على ذلك القلب الممزق ، وكما دخلت مدرسة الكرك عام ١٩٤٥ ، أتلفت مسكوناً بالتوجس قادماً من الضياع ، مذهولاً ، أقف على بوابات العالم . . لأنّ بوابة الوطن . .أغلقت!! مدرسة الكرك الثانوية . . يا أول بوابات الوطن . . يا آخر بوابات الوطن . . . .!! على أرصفة العالم كان قلبي خارطة للوطن . . وأنا أحمل الخارطة خارج الأسوار بقيت» . . .!! هكذا كتبت في دفتر مذكراتي فيما بعد .

« طبعاً لم يكن من حقي أن أعود إلى الصف لأودع تلامذتي ، وعلمت أنني لم أكن وحدي ، بل كان سبقني خليل الكركي ، كمال المصاروة ، نسيم المدانات . . وجميعنا من خريجي دار المعلمين . حملت أوراقي وعدت إلى قريتي ، وأخبرت والدي بأنني تركت عملي فقال لي (تركته أم تُرّكته؟) فقلت له ما الفرق والنتيجة واحدة ، فأوضح لي أن الفرق كبير ، فإن أنت تركته فلا بد أن نعرف الأسباب ، لكن إذا كنت قد تُرّكته فهي مسألة علينا تقبلها ، وعملك لمدة سنة لم تغير كثيراً في أوضاعنا وعلينا تدبر أمورنا فيما هو آت . لكن كانت هذه أول صدمة في حياتي العملية ، ودائماً حينما أفكر في عملي لا أفكر في نفسي ، فأنا مجرد شخص يستطيع أن يعيش بسهولة ، أينما ذهبت ، لكن علامات الانكسار التي بدت في عيون إخوتي هي التي أججت في داخلي مشاعر كثيرة ، إحباط ، حزن ، غضب ، أسى ، لا أدري ، المهم أن مزيجاً من المشاعر تحركت داخلي ، خاصة حين كنت أرى في عيني إخوتي خيبة أملهم

عندما يأتون ولا يجدون معي مصروفهم اليومي الذي كانوا قد اعتادوا عليه تقريباً ، فوجدوا أنفسهم فجأة وقد تساقطوا من فوق الغصن الذي وقفوا عليه كعصافير السنونو ، متأملين أن الحياة ستكون أجمل . . وإنني أشهد الآن أن والدي لم ينكسر ، ولم يحزن ، وكذلك كانت والدتي التي أظهرت من التماسك ما اعتدناه منها في مواقف كثيرة» .

«ذهبت لأقابل وزير التربية والتعليم آنذاك وكان الشيخ محمد أمين الشنقيطي وهو من عائلة موريتانية هاجرت إلى الأردن وأقامت فيها ودخلت في نسب وعلاقات اجتماعية ، ووصل منهم هذا الشيخ إلى منصب الوزير ثم عمل فيما بعد سفيراً للأردن في المملكة العربية السعودية ، وعرضت عليه الموضوع بكل بساطة ، لكن أخذ يخاطبني الوزير وكأني زعيم سياسي أو منشق أو ثائر أو إرهابي ، ويكيل لي اتهامات ، كأن تتهم عصفوراً بأنه التهم تمساحا ، وكأني مسؤول عما في العالم من مشاكل ، وخشيت أن يتهمني بأنني أنا المسؤول عن طوفان نوح مثلاً . . .وكانت لهجته مشوبة بالتشفي والتهديد ، ولم يصغ إلي جيداً ولم يتعاطف معي ، بل زجرني بجمل قاسية ، وخرجت من عنده فاقداً أمل العودة إلى العمل . عدت إلى الكرك وبدأت أبحث عن عمل ، وقرأت إعلاناً في جريدة في الضفة الغربية بالقدس يريدون محرر أخبار وذهبت وامتحنوني ووضعوني أمام جهاز راديو ، وطلبوا مني سماع نشرة الأخبار وإعادة تحريرها بلغتي الخاصة ، لكن ثقافتي المحدودة وقتها لم تمكنني من اجتياز الاختبار . ثم استطاع أحد أقاربي العثور على عمل لي لا علاقة له بالتعليم ، ففي ذاك الوقت ، كان يجري شق طريق بين عمان والعقبة وهي الطريق التي تسمى بالطريق الصحراوي ، وكان يعمل فيها عشرات المقاولين ، ولأنها مشروع ضخم امتصت أيدي عاملة كثيرة من الأردن ومن مستوى المهندس إلى العامل ، عملت كاتباً بسيطاً في الخط الصحراوي ، وكنا نبيت في الخيام وتمتلئ حلوقنا بالرمال في حياة شظفة لا يتجاوز أجرها (٥٠٠ فلس يومياً) أي ١٥ ديناراً ،

وكنت أقوم بمهمتين أولاهما استلام (الكنكري) بالأمتار المكعبة ، «وهي الحصمة» من السيارات كي لا تكون ناقصة ، وثانيهما اختبار ما أسموه « قوة الرّك» في الطريق .

«ومن عجب الأمور أنني تكون لدي خمسة أو ستة أصدقاء في تلك الحقبة أي الجزء الأخير من ١٩٥٩ والأول من ١٩٦٠ ومنهم هاني مسمار ، عيسى الحداد ، فخري الشيشاني ، جورج تادرس ، وبشير مسمار ، وجميعهم من السلط ، وكلهم ماتوا في ظروف مختلفة ، وبقيت في الخط الصحراوي مدة ستة شهور تقريباً أقبض ١٦,٥ ديناراً أؤمن معظمها لوالدي كي تساعده على تحمل تبعات الأسرة .

«والعمل في الخط الصحراوي معاناة لا يمكن أن تنسى . . ولكننا كنا نتحمل . . وننسى . . وذات مرة يمر بنا سائحان ونحن في الصحراء وكل منهما يحمل حقيبة على كتفه ، ويقطعون المسافات بأسلوب (auto stop) رحبنا بهما وتغدينا معهما ، والوحيد الذي كان يتكلم لغة انجليزية كنت أنا ، وكان أحدهم انجليزياً والثاني استرالياً ، ونشأت بيننا شبه ألفة ، وفي تلك الأثناء كانت العلاقات في قمة التوتر بين مصر والغرب ، وكان الاسترالي باري سويفت يتحدث معي وكأنني رجل مسؤول في بلد عربي ، يشرح وجهة النظر الاسترالية ويدافع عن العلاقات المصرية الاسترالية ، وكان عبد الناصر وقتها قد أغلق عدة مدارس وإرساليات استرالية ، وكنت أجاريه في الحديث وبعد أن شربنا الشاي انصرفنا ، وأخذت عنوان الاسترالي وسجلته عندي ، وفي السنة الثانية من وجودي بالبحرين عام ١٩٦٢ كتبت له رسالة على عنوانه وذكرته بنفسي وأنني أكتب له لمجرد ارتباطنا بفنجان شاي ، وفوجئت بعد شهر أنه يراسلني برسالة تكلم فيها عن الخط الصحراوي وعن البحرين والعلاقات المصرية الاسترالية ، وعن رحلته والناس الذين تعامل معهم ، واحتفظت بالرسالة كل هذه السنوات حتى الآن ، لكني لم أجبه ، إلا بعد ١٢ سنة عندما وقعت يدي على الرسالة

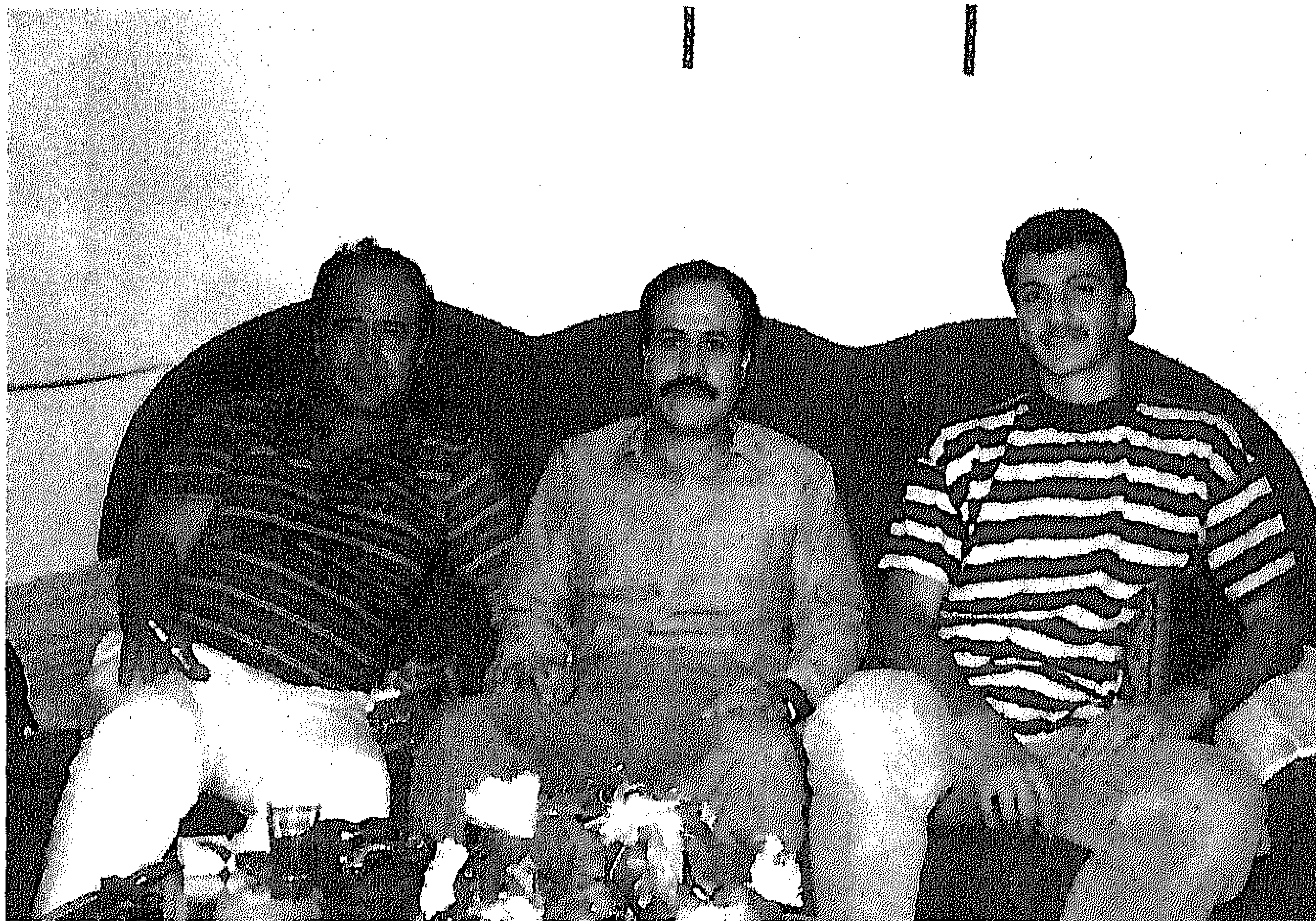
التي كانت تاهت مني في قلب كتاب وسألت إن كان ما زال على قيد الحياة مثلي، إلا أنني لم أتلق أي رد».

ذات يوم وجدت إعلاناً في الجريدة أن البحرين بحاجة إلى معلمين، وخلق هذا الإعلان انفجاراً داخلياً، وكأن شيئاً بداخلي يقول لي: «هل تذكر البحرين؟ ها هي قد جاءتك، فما عذرك الآن، وكانت نداء خفياً.. وكان لا بد أن ألبيه.. وللبحرين حكاية أخرى، سلام الله على البحرين»!


من رحلات دار المعلمين


حكمت العتيلي


أحمد العمران



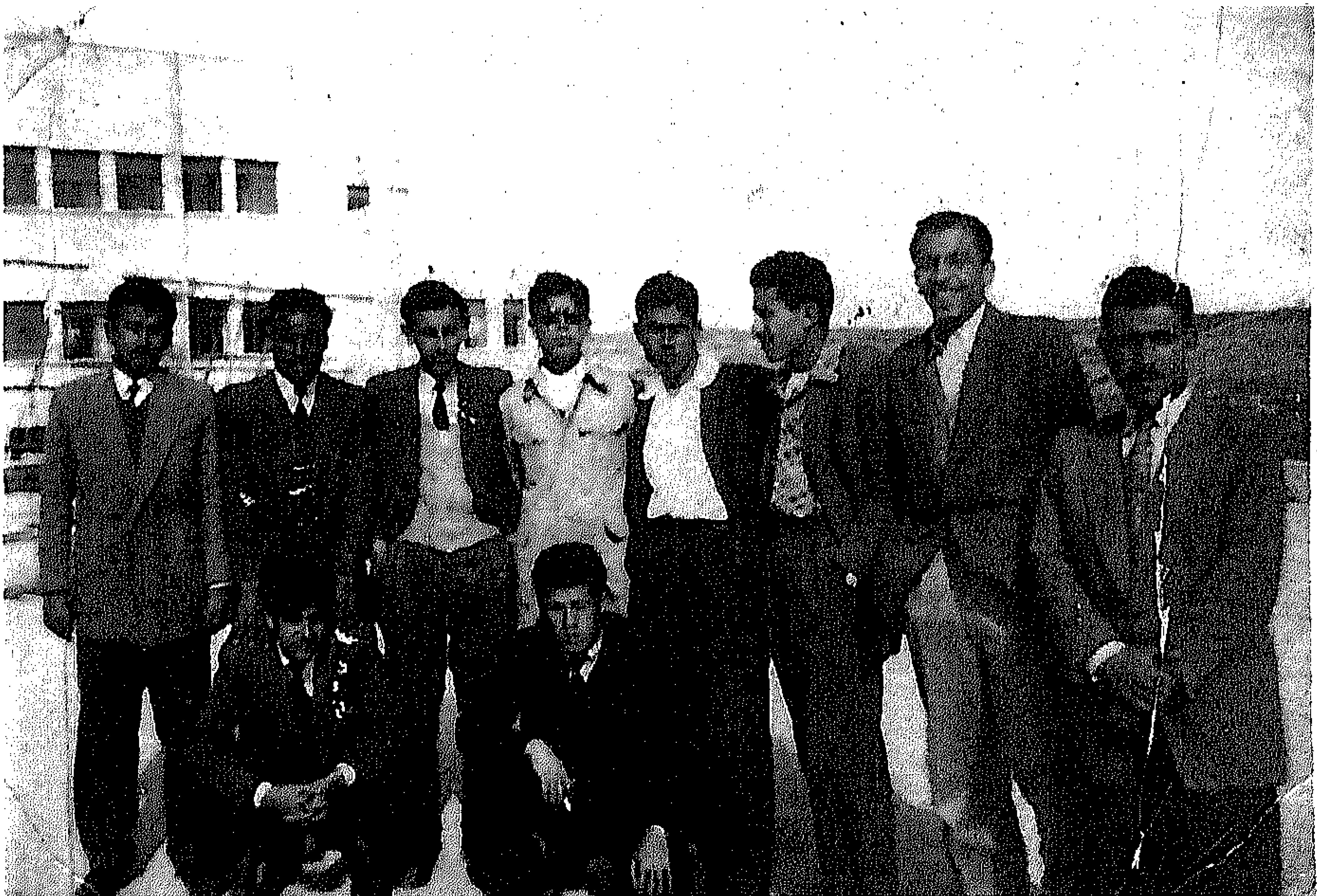
مهند الحادين ، محمد هاشم الكركي ، سامح الخفش



فواز راغب



في رحلة في اعمدة جرش



مجموعة من طلاب دار المعلمين - عمان

(١١)

❖ ألم أقل لكم أن للبحرين معي حكاية.. وها أنا أرويها الآن

❖ التقاطعات الأولى

❖ أيام.. قبل البحرين

❖ «هل يشتاق الإنسان لشيء سيأتي، ويحن إليه، أم أننا نولد محملين بقصة حياتنا كاملة مخبوءة في ذاكرة ما ومع سيرورة الحياة تبدأ تتكشف أجزاء منها مع تكشف الزمن؟ وإذا كان الإنسان يملك حاسة كاشفة عميقة فإنه في بعض اللحظات يكتشف بعض المخبوء في ذلك الشريط الذي نأخذ حياتنا من خلال دورانه كفيلم سينمائي وعلى الشريط أحداث كاملة داخله لا تتكشف إلا إذا دار».

تساؤلات طرحتها في مستهل سردي لذكريات حقبة جديدة في حياتي ، وبدء رحلتي في اتجاه البحرين ، موضع استقراري الذي لم أخطط له ، بل الأقدار هي التي رسمت لي طريقاً نحو جزر الخلود ، « كانت البحرين تعني لي شيئاً ، وكنت أحلم بالمجيء إليها ، لكنه كان حلماً غامضاً»

«عام ١٩٦٠ وكنت في قرية على مشارف الصحراء ، يمر أمامها خط حديد الحجاز ، هذا الخط الطيب الذكر ، يمر فوقه يومياً قطار عجوز ، نسمع لهاثه وأنين مفاصله مرتين يومياً ، مرة وهو ذاهب إلى معان محملاً بالفوسفات ، ومرة وهو عائد محملاً بالركاب . كنا نبتهج بهذا القطار العجوز . . حيث نشتري منه يومياً

جريدة بقرش واحد ، كانت آنذاك صحف الجهاد . . واليوم ، وصحف أخرى ، صعدت إليه ودفعت قرشاً وأخذت جريدة وعدت لأكمل الحديث وشرب الشاي مع بعض الأصدقاء من الذين تقلقهم الحياة كما تقلقني ، ويؤرقهم العيش كما يؤرقني ونشعر حنيناً إلى حياة طيبة . . لكن أين؟ وكيف؟ ومتى؟ لا أحد يدري . . وأقلب الجريدة . . وفجأة تتسمر عيني على إعلان صغير في صفحة داخلية . . البحرين . . تعلن عن حاجتها لمدرسين مؤهلين . . وتحت العنوان عمود فيه الإعلان بكافة شروطه . . ويتواجد وفد من البحرين لهذا الشأن ويذكر أن الوفد يقيم في فندق الأورينت في القدس» .

«وامتدت الخيوط من عام ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٠ وعادت الرعشة مرة أخرى تسكنني ، وشعور غامض يجتاحني . . البحرين . . لماذا؟ لماذا هذا الاسم بالذات يفعل بي هذا ، أم أنها مجرد أحاسيس لم أجد لها تفسيراً . . شعرت أن نداء غامضاً يجيء من مكان ما في الشرق ، كأنه يناديني أنا بالذات . . كان شيئاً غيبياً يحاول أن يجتذبني ، البحرين . . لو قيل لي يومها ، قف . . ووجهك إلى البحرين لم أكن أدري كيف أقف وإلى أين أدير وجهي .

نظرت في ذلك العمود الصغير في الجريدة . . وفجأة . . رأيت أمامي أرضاً فسيحة . . وعالماً مكتظاً . . وألف صوت ونداء . . إلى البحرين . وأحسست بأن الصدى أخذ يتجاوب بعرض العالم ، وأن الصحراء التي أمامي قد تمهدت وصارت طريقاً . . إلى البحرين .

صبياً كنت . . بخبرة قليلة ، وطموح قليل ، لم أكن أدري كثيراً عن العالم ، لم أسمع الكثير عما وراء الأفق . . كنت أحسب العالم مجرد مجموعة القارات التي كان مدرسنا للجغرافيا يشرحها لنا بكل ما في حديثه من معلومات مخلوطة . . لم أكن أملك أي هاجس للهجرة أو الاغتراب ، كنت أعتقد أنني ما خلقت لأبتعد عن قريتي الصغيرة العتيقة التي يبدو لي أنه لم يلمسها التطور منذ عهد آدم . . ماؤها من الأمطار ونورها من ضوء القمر . لا أدري هل كان

الناس سعداء أم تعساء . . أنا كنت لا أدري هل أنا سعيد أو تعيس ، الآن في العشرين من عمري . . صبي قليل الخبرة ، قليل المعرفة ، يواجه نداء . . قادماً من مكان مجهول . . وأصواتا مجهولة . . أشياء تقول لي : أذهب . . أذهب . . إلى أين؟ لست أدري . . لست أدري . لكن إنها البحرين . . ذلك الشيء الذي تحدد في ذاكرتي يوم كنت طفلاً في المدرسة الابتدائية ، ذلك السطر الذي صار فجأة في ذهني كتاباً . . ذلك اللون الأزرق الباهت على الجدار يتحول إلى بحر متلاطم الموج ، كاد يغرقني . . لكن اجتذبني وكأنني قارب فقد الاتجاه .

والآن بعد عشر سنوات . . ها هو النداء من جديد . . لكنه نداء له اتجاه . . إنها البحرين . . في جريدة . . بحاجة إلى مدرسين وأنا فرغت لتوي من الاستعداد لهذه المهنة . لم لا ألبي النداء!؟ لأعرف هذا الشيء الغامض . . وكيف ساورتني منذ الطفولة وهي مجرد اسم في سطر .

يالعجائب الأيام ، ألملم ملابسي البسيطة في تلك الحقيبة التي لا تتسع بالكاد لبيجامة وكدت أقول علبة حلاقة . لا»!

«حتى تلك اللحظة ما كنت أحلق وجهي بشكل جاد . . وما كنت قد استعملت آلة الحلاقة بعد ، وهذا الشعر الخفيف المنتشر هنا وهناك في أرجاء صدغي لم يكن يُشَكّل هما يستحق معه أن ألتفت إليه .

القدس . . وكيف الوصول إلى القدس؟ لم تكن المواصلات متاحة ، بجانب خط حديد الحجاز هناك الشاحنات التي تمر جهة الجنوب وتفرغ حمولتها وتعود إلى الشمال . . وكان السائق يحق له أن يحمل معه شخصين في مقدمة السيارة بجانبه . وفوق طريق من رمال تبدأ الرحلة شمالاً . . ونصل إلى عمان في اليوم الأول . وفي فندق متواضع ، أبيت ليلتي ، وأنا أحلم بالغد ، برحلة اليوم التالي . . القدس .

وفي صبيحة اليوم التالي . . سارت بنا الحافلة إلى وادي الأردن ثم إلى أريحا ومنها إلى القدس . . التي بلغناها بعد الظهر . وفي صبيحة اليوم الذي يليه

كنت في قاعة الأرينت للقاء الوفد البحريني» .

وها هي لحظات الاقتراب من تلبية النداء تقترب ، فهل أنجح في الاختبار كي أتمكن من تلبية النداء ،

«وجاءت اللحظة . . أحسست بتوتر خفي ، وبخوف . وأنا أدلف إلى مكتب جانبي ، ووقف رجل خلف طاولة بنية ، كان وجهه نحيفاً طويلاً حاسر الرأس بنظارة وصوت جهير رنان وعميق . . أهلاً وسهلاً . . قالها بلغة أليفة مألوفة . . لقد كان أول إنسان من الخليج أراه ، أو أقابله . . وكان أول إنسان بحريني أتحدث معه ، أنا الآن أمام البحرين . . رأيت البحرين في شخص ، فخالجتني طمأنينة غامرة ، استعدت توازني بسرعة ، وعادت لي ملامحي ، وأصبحت قادراً على الإحساس بالموقف ، لِمَ أخاف؟ أليست هذه هي البحرين التي سكنتني قبل عشر سنوات لأسباب لا أعرف ما هي؟ أليس هذا الرجل من البحرين؟ إذن لم التوجس؟ تكلم الرجل بثقة وبوضوح . . وأخبرني باقتضاب طبيعة العمل ، والظروف ، والمرتب . كل ما كنت أتابعه هو أني أنظر إليه كيف يتكلم وماذا يقول . . وأسمع لغته العربية السليمة . وحين فرغ من الحديث . . أو هكذا . . قال لي : هيا . . موافق ، إذا كنت موافقاً تعال غداً لتوقيع العقد . فقلت له أنا موافق» .

«ويتدخل رجل في الحديث ، رجل آخر كان يجلس على الطاولة وبقى صامتاً فترة حديث الرجل الأول . ولما انتهى وسألني موافق . . وأجبت نعم . تكلم الرجل الثاني وقال : أنا . . فالتفت إليه . . وأحسست أنه من بلد آخر . . ليس البحرين . . وقال : دون أن يسمح لي أن أتخيل كثيراً . . أنا من هنا من القدس ، وأعمل في البحرين منذ ١٩٥٣ ، وأنا سعيد هناك ، وأظنك ستكون كذلك . لم تزدني كلمات هذا الرجل شيئاً فأنا كنت قد قلت لصاحبه موافق .

ولكنني . . سألت . . نحن الآن على اتفاق ، ليتني أعرفكما بشكل شخصي! فقال لي الرجل الأسمر الطويل القامة ، العميق الصوت ، الواضح

النبرات ، أنا يعقوب القوز ، مدير تعليم البنين وهذا الأخ والصديق ياسين الشريف .

بسرعة ذاب الثلج ، ورجعت الأمور عادية ، وتحدثنا . . تحدثت قليلاً وتحدث الأستاذ يعقوب القوز ، وتحدث ياسين الشريف . . وافترقنا على أمل اللقاء غدا صباحاً لتوقيع عقد العمل» .

اختلطت عليّ التساؤلات والتجاذبات النفسية والاجتماعية والذهنية ،

«أين . . في البحرين . . أي حلم هذا! أي مصادفة! هل هذا هو تفسير تلك اللحظة التي عشتها يوم أن سمعت اسم البحرين قبل عشر سوات . . لا أدري ، لكنني لم أكن أصدق أنني سأذهب إلى البحرين ، البحرين بالذات . . وها أنا اليوم تكلمت مع رجل بحريني ، وتحدثت مع آخر يعمل في البحرين ، إذن البحرين صارت أمراً ممكناً . . ممكناً جداً . . يا للمصادفات . .!

وصلنا إلى اتفاق مبدئي . يعقوب القوز وياسين الشريف ممثلين لمعارف البحرين وأنا . . واتفقنا على اللقاء صبيحة الغد للبدء في الترتيبات . . حسب النظم المرعية في حكومة البحرين . غادرت الفندق على أمل اللقاء غداً . . وإن غداً لناظره قريب . . ذهبت أتجول في شوارع القدس ، وأتأمل في سورها العظيم ، وأستحضر في ذاكرتي منظر كنيسة النوتردام المهجورة الواقعة في المنطقة المحرمة ، والنباتات البرية تشكل غطاء للأرض بين يابس ورطب ، وكل شيء يبدو يباباً . . في هذه الأرض الواقعة التي تفصل بين القدسين القدس العتيقة والقدس الجديدة ، وعلى مرمى البصر . . فهناك القدس الجديدة ، الحياة والأضواء والحركة . . وهنا في القدس العتيقة . . إحساس بالمأساة والألم وفقدان شيء من الوطن ، وكان ذلك بعد مرور عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة فقط على النكبة الفلسطينية . . ما زال الجرح ساخناً والدماء رطبة ، وما زالت الذكريات متوهجة ، وكنا على مرمى أيام أو أشهر من حرب الثمانية والأربعين ، التي آلت إلى ما آلت إليه . كل شيء كان في الذاكرة . كل الجراح كانت لم

تندمل ، وكل الحزن كان في المآقي .
كان علي أن أقضي الوقت حتى صبيحة الغد . . ومن موقف للباصات في القدس القديمة ، بحثت عن باص رام الله عروس فلسطين ، هذه المدينة التي كانت تتسلق الأثير من خلال الإذاعة المتواضعة في القدس ، وهي تغني «وين عا رام الله» ومجذوباً بهذه الرغبة لقضاء نصف النهار في شوارع رام الله ، ولكنني في آخر لحظة ، وعندما ركبت في الباص والتفت فإذا قبة الصخرة تلمع من بعيد ، على قمتها هلال . أنها منطقة المسجد الأقصى مسرى محمد الله صلى عليه وسلم . . الذي بارك الله حوله . فاجتذبني المشهد وغيرت رأيي وترجلت من الباص قبل أن أدفع ثمن التذكرة . . وتدرجت ماشياً في شوارع متعرجة ، ومظلمة . . متجها إلى المسجد الأقصى . كان الوقت بين الظهر والعصر ، واهتديت إلى الممر الضيق المؤدي إلى هذا المسجد الذي تحس فيه بمشاعر لا يرقى البيان إلى الإحاطة بها . . بمجرد أن تدخل البوابة الرئيسية تحس أنك في مسرى محمد صلى الله عليه وسلم . . هذه الصخرة وهذه القبة ، وهذا المسجد ، وهذا مجد الإسلام . . وهذا أثر بني أمية . . وهذا مصلى المسلمين وهذا هو الذي بارك الله حوله . . وتتردد في جنباته أصوات الأذان من مكبرات الصوت . . الله أكبر . . الله أكبر . والمصلون يتزاحمون ويتدفقون من كل صوب . . ويصلون العصر . . وأصلي معهم . . وكانت رطوبة خفيفة في ذلك اليوم من أغسطس (آب) عام ١٩٦٠ تغطي مشرق البحر الأبيض المتوسط ومنها بيت المقدس . . أي مصادفة؟ في الطريق إلى البحرين أمر ببيت المقدس! في الصباح ، وفي موعدنا المضروب . . في فندق الأورينت كان يعقوب القوز في موعده . . وأمامه على الطاولة أوراق مطبوعة مسبقاً ، فناولني نسختين منها وقد وقع النسختين ، وقال هذه صورة العقد . . اقرأه ، وفي حالة موافقتك وقع في المكان المعين لذلك .
لم يكن يدري أي شوق في داخلي إلى البحرين ، وأي إحساس غامض

كان يسيطر على ذهني ، وأي رغبة في أن تختصر الأوقات . . البحرين . . مرة أخرى . . أنا في مواجهة مندوبها . . وها هي أمر متاح .

لقد كنت مستعداً أن أوقع العقد دون قراءة . . أليس هذا العقد يصل بي إلى ذلك الحلم . .! إلى تلك الأرض التي رافقتني اسمها سنوات . . وسنوات! منذ أن نطق به المدرس ذات يوم . . ومنذ أن صارت هاجساً . . ينتابني بين الفترة والأخرى .

لم أقرأ الشروط ، فأنا موافق على كل الشروط مسبقاً لم أقرأ رقم الراتب بشيء من الحساب والطرح والضرب ، لقد كان في المساحة المجاورة للمرتب مبلغ ٦٠٠ روبية . . وللحق والحقيقة ، لم أكن أعرف كم هذا المبلغ ، كم تساوي الستمائة روبية إذا حولت إلى دولارات . . كم تساوي إذا حولت إلى دينار أردني ، ولأنني لم أسأل . . سألني الأخ يعقوب القوز ، وكان ياسين الشريف قد وصل لتوه ، موافق على الراتب؟ فالتفت إليه . . وقلت موافق . .! قال هل تعرف كم يساوي بالقياس للدينار الأردني؟ قلت لا أعرف! قال : إذاً كيف توافق دون أن تعرف قيمة الرقم؟ فقلت للأستاذ يعقوب : أنا موافق . .»!

: «وعلمت فيما بعد أن الأستاذ يعقوب القوز مدرس حساب ، ولذا فهو مغرم بمثل هذه المسائل ، قال أنا أوضح لك رغم عدم سؤالك . الدينار الأردني يساوي ١٣,٤٠ من الروبية . . والمبلغ هذا يساوي حوالي ٤٥ ديناراً أردنياً .

لا بأس . . فليكن ذلك . . أنا موافق . . لم أناقش إطلاقاً ولم أسأل كثيراً . . وقال يعقوب القوز : سيكون لك سكن مناسب . . أيضاً . . وأخذ يعدد مزايا ذلك السكن . . وأبرز ما لفت نظري في المزايا التي عددها هي (البانكه) . . قال لي لك حجرة فيها الأشياء الضرورية وبها «بانكه» . . أيضاً . . لم أسأل ما البانكه؟ كنت أدري أنني لن أنام في العراء ، وبقية التفاصيل لم أهتم بها ، مع أنني لم أعرف ما البانكه . . ولماذا أختصها بالذكر دون بقية الأثاث . . لابد أنها شيء مهم جداً ، ولابد أنها واحدة من ترف الحياة ، لم أعرفها فيما سبق . .

وسأعرفها في لاحق الأمر.

ولم أسأل ما هي، ولكنني وبطريقة تلقائية جعلتها في أول القائمة وأنا أرتب الأشياء التي سأكتشفها هناك في البحرين فور وصولي، «وسيكون السفر بالطائرة».. هكذا فاجأني يعقوب القوز، وانتبهت من ذهولي وأنا أفكر ما البانكه؟.. إلى السفر بالطائرة.

ولا أنكر أنني حتى تلك اللحظة لم أفكر كيف الوصول إلى البحرين.. ولم يخطر ببالي أن أتساءل: ولم يخطر ببالي أن أفكر هل هي قريبة أم بعيدة.. حتى تلك اللحظة.. فأنا لم أنظر في خريطة للعالم العربي.. لأكتشف موقع البحرين.. أفي الشرق هي أم في الغرب..؟ لم أكن أدري عنها الكثير.. لقد فاجأني الأستاذ يعقوب بمسألة السفر.. وكانت مقولته: ستسافر بالطائرة.. وعندما نطقها نقلني نقلة ذهنية متميزة.. انقطع التفكير فيما سبق. وبدأت أفكر في مسألة السفر وبالطائرة.. وفطنت للمرة الأولى أنني سأسافر.. إلى مكان بعيد، وبالطائرة.. ولكن إلى أين؟! إلى البحرين.. لا يهم بعيد أو قريب.. إنما كيف سيكون ركوب الطائرة.. هذه مسألة أخرى لها حديثها.. ثم ماذا قال لي الأستاذ القوز.. هذا العقد. هل أنت موافق على البنود التي فيه (٦٠٠ روبية، حجرة.. بانكه، طائرة).. التفت إليه، وقلت دون تردد، أنا موافق، قال وقِّعْ إذن، ومددت يدي، ووقَّعت في المكان المخصص لتوقيعي، على النسختين.. فأخذ إحداهما وترك الثانية لي قائلاً: هذه نسخة العقد لك.

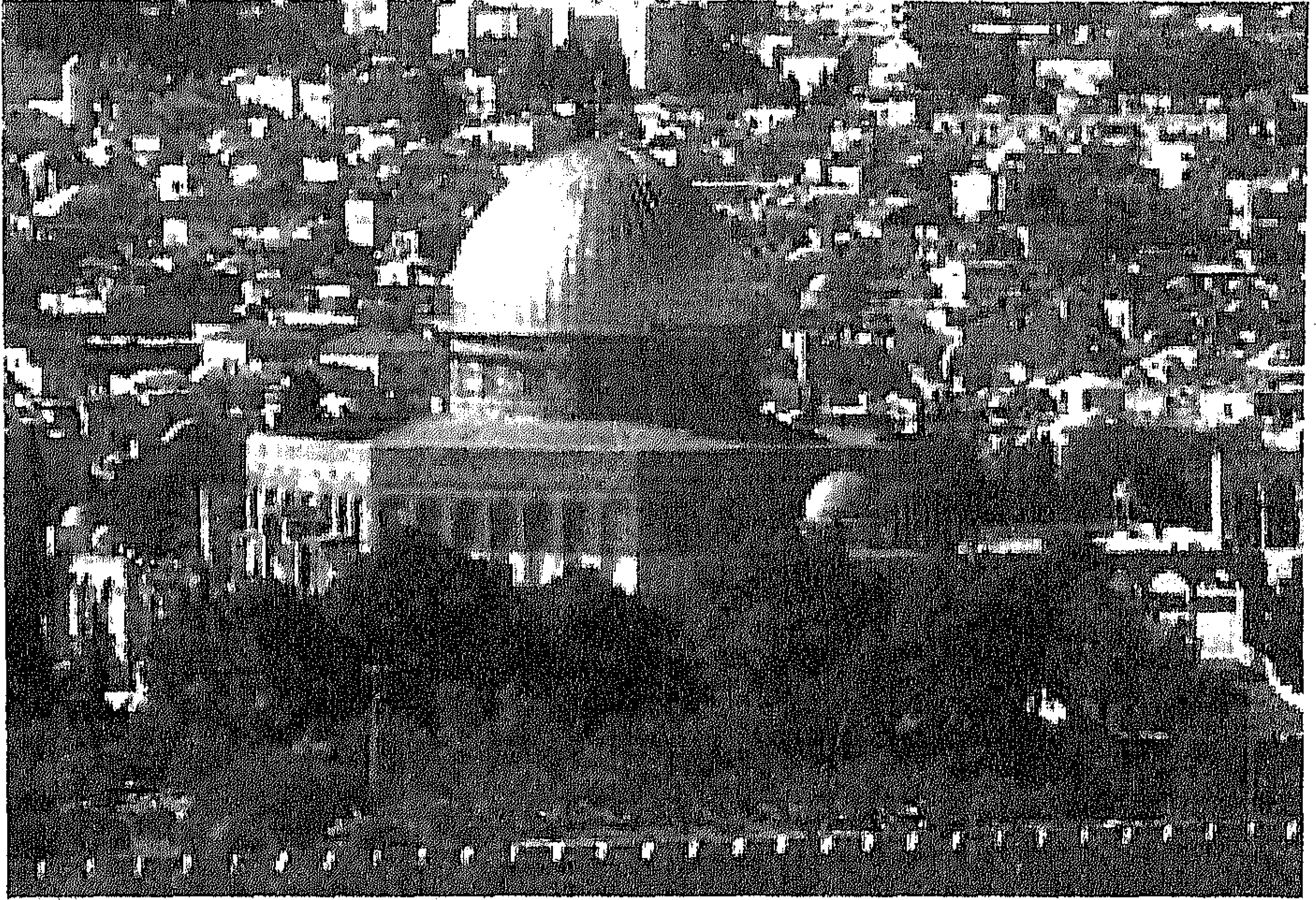
الآن صار معي شيء بحريني.. قبل أن أصل البحرين، هكذا قلت في نفسي!!

ظننت أن الأمر هكذا انتهى.. فقال لي: هذه ورقة أخرى تبين أنك من موظفي معارف البحرين، يا للعجب بدقيقة واحدة وبتوقيع، صرت موظفاً في معارف البحرين، ما أسرع التحولات وأقصر الزمن!

نعم.. خذ هذه الرسالة إلى القنصلية البريطانية بعد أسبوعين في القدس

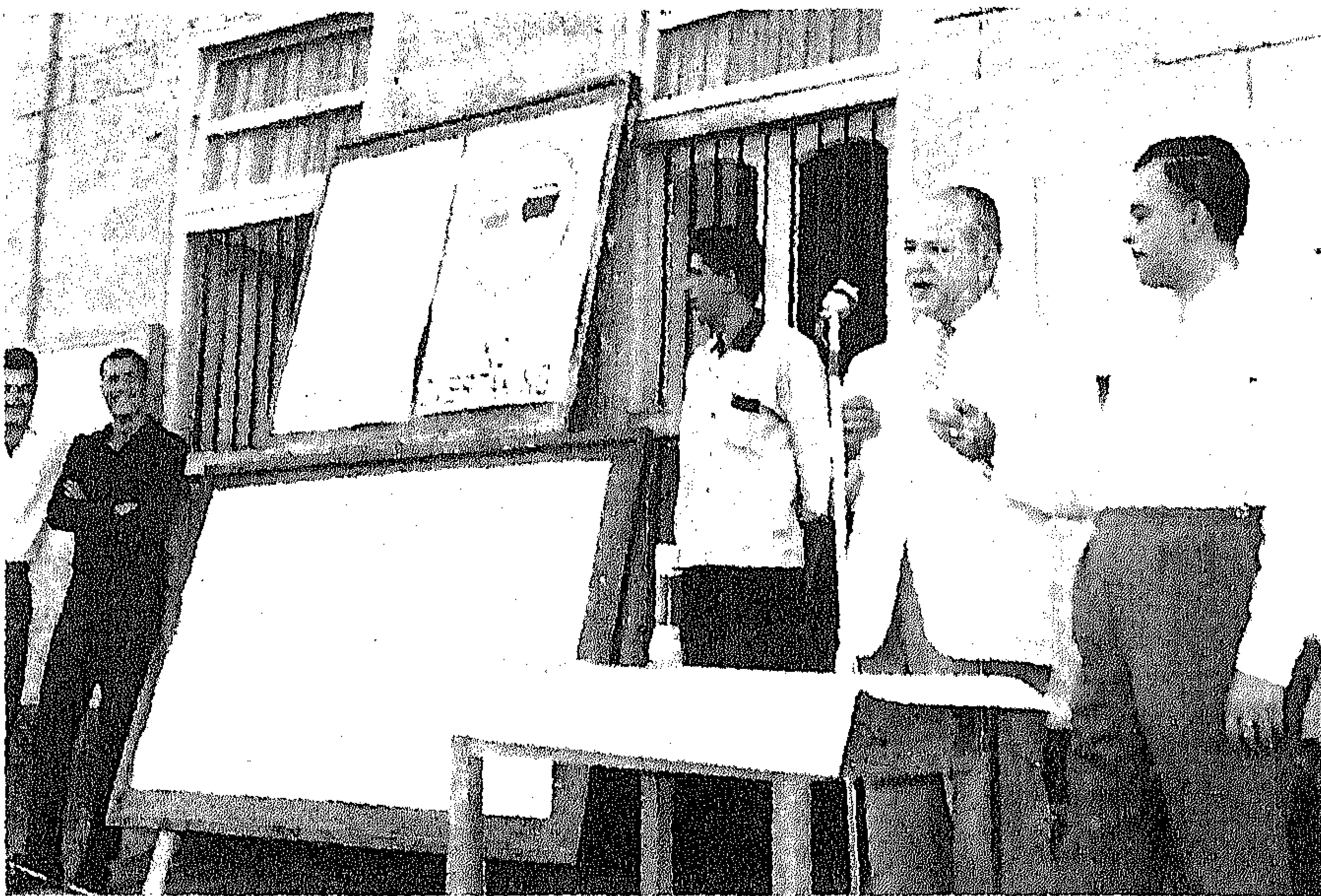
وهناك ستجد أنهم قد أعدوا لك تذكرة السفر وحددوا لك الموعد الذي تسافر به إلى البحرين . . منذ الآن ستكون على اتصال معهم ، لأجل استكمال الإجراءات .

وقال يعقوب القوز : أرجو أن ألتقي بك في البحرين في الشهر القادم . لأن شهر سبتمبر (أيلول) هو الشهر الذي يصل فيه المدرسون . ووقف ، ووقفت ، وودعت ياسين الشريف وخرجت» . . .


المسجد الأقصى


ياسين الشريف


يعقوب القوز



ياسين الشريف في مدرسة الهداية



أنا وبعض الزملاء في شارع من شوارع المحرق



في أحد اللقاءات أشعل سيجارة ياسين الشريف



عبدالله فرج مدير الهداية وعدد من المدرسين

(١٢)

❖ **اغتيال هزاع المجالي كاد يعطل تحقيق حلمي بالسفر إلى البحرين**
❖ **جرأة نادرة اجتاحتني وقررت مقابلة الحاكم العسكري لنيل إذن بالسفر**
❖ **بكت أمي لسفري أكثر مما بكت لموت أختي الصغرى.. فهل سفري أكثر إيلاماً من الموت..؟!!**
❖ **فجأة تذكرت موهبتي المكينة وهي القدرة على مشي المسافات الطويلة**
❖ **لا أدري لماذا سقط فنجان الشاي من يدي على طاولة الوزير**

لم يكن أمراً سهلاً مثلما توقعت ولا هيناً ، فالطريق إلى البحرين واجهتني فيه عقبات وصعوبات ، كادت الفرصة تضيع معها في مرحلة من مراحل الاستعداد للسفر لولا أن القدر كان مرتباً لأكمل رحلتي في الحياة على أرض البحرين . . فماذا حدث؟

بعد أن خرجت من لقائي مع ياسين الشريف ويعقوب القوز موقعاً العقد الذي اعتبره شهادة ارتباط بالحلم البحريني الذي طالما انتظرته ، اتجهت إلى موقف الباصات في القدس ، وما هي إلا ساعات كنت فيها في عمّان . . وساعات كنت فيها في الكرك ، وسويعة كنت فيها في قريتنا الرابضة هناك في جبل من جبال مؤاب . . ودخلت وكان والدي ووالدتي وإخواني . . الذين

يصغرونني جميعاً وتعلقت بي عيونهم . . وهم يرحبون بي . . ورحب بي والدي واحتضنني بشدة . . وقبلني في كل وجهي . . وكذلك والدتي . . وجلست أطمئن عنهم ويطمئنون عني . . إنني قادم من طريق معان . . لم يدروا أنني أحمل لهم مفاجأة . . إنني سأسافر عنهم . . سأذهب إلى البحرين . . لم يكن أبي قد سمع بها ولا أمي . . ولا إخواني بطبيعة الحال ، وبعد حديث فاجأتهم بالقول . . إنني سأعمل في البحرين . نظر أبي وأمي بذهول وقالا البحرين! قلت نعم»!

حين سمع والداي أنني سأذهب إلى البحرين للعمل . . وقع الأمر عليهما كالمفاجأة . . وسادهما وجوم . . وأخذ كل منهما ينظر في وجه الآخر . . وبدأ كل شيء حولي يصمت حتى الضجيج الذي كان ينبعث من عراك إخواني . . بدأ يتلاشى . . لقد كانوا يسمعون الحوار دون اهتمام وربما دون إدراك فعلي لما يجري . . لكن الوجوم الذي سيطر على والديّ لفت نظرهم . . ومنحهم فرصة الالتفات . . والترقب والمتابعة ، وربما حب الاستطلاع .

إن اعتراض والدي . . أو ربما ما حسبته اعتراضاً ، لم يكن على الجهة التي سأذهب إليها . . فهذه مسألة لا مقارنة فيها . . كل العالم خارج قريتنا عالم واحد . . وله نفس البعد ويحمل نفس المخاطر . . والبحرين بالنسبة لوالديّ إسم لا يعني لهما أكثر من أنه بلد ما ، بعيد عن قريتنا أو عن مدينتنا ولا أحد ممن نعرفهم سافر إلى خارج القنزية للعمل . . فما بالك وأنا سأسافر خارج القطر كله . كان والداي يعترضان على المبدأ ، على الفكرة ذاتها ، فالفكرة لم تكن ذات أي جاذبية . . وأنا لم أطلعهما على ما فعلت . . أخبرتهما فقط . . أما لماذا فعلت ذلك . . فتلك قصة أخرى!!

استمر الصمت . . وكان بعضنا يلتفت بين الفترة والأخرى لننظر في وجوه الآخرين . . لكن دون كلام . . شعرت أنني أُتهم بشيء ما . . وإلا كيف يجوز أن أسافر بعيداً . . إلى مكان لا أعلمه ولا يعلمه أحد . . وأجرؤ على القول أن ما

أقدمت عليه . . لم أُسبق إليه في جميع المحيط الذي أنتمي إليه . . أبي لا يحب الكلام كثيراً . . لكنه لا يخلو من مرح ، أما والدتي فهي امرأة صلبة ومتجهمة . . تبدو ودودة أحياناً . . رأيتها في حياتي تضحك أكثر من مرة . وهذا يؤكد ما ذهبت إليه . . كانت الأمور الاقتصادية قاسية جداً . . ومع ذلك . . لم يتكلم أبي كثيراً . . ولم يدخل في جدال معي . . سألني متى ستسافر؟ فقلت لا أدري . .! وكأنه أراد أن يطيل الحوار ليسمع صوتي على الأقل . . فقال وكم ستغيب؟ قلت لا أدري . . كاد يضحك . . ثم صمت .

أما الوالدة . . فقد عبرت عن رفضها بصراحة لا مجاملة فيها . . موجة من البكاء الصامت . . ثم سكتت . وعادت إلى جهامتها . . إن أمي لا تبكي لأمر هين . . وأن بكت . . فمن الأعماق . . قبل سنين . . تذكرت . . وأنا أنظر إليها تبكي . . عندما ماتت أختي الصغرى في حضنها مع الغروب فأمسكتها بكل الصبر الممكن ووضعتها على الفراش . . وغطتها . . وقالت . . الله أعطى وهو أخذ . . وصمتت إلى صباح اليوم التالي . . ثم ذهب والدي وعدد من رجال القرية وكنت أركض معهم . . وحفروا قبراً واروا فيه الطفلة . . ولم تكن والدتي قد بكت بعد . . والآن . . إنها تبكي!! هل سفري أكثر إيلاماً من الموت . .؟!! لا أدري . . هل لأنني الابن البكر . . من الأحياء على الأقل! لا أعلم . .

لم يوقفني هذا المشهد المؤلم عن مواصلة ما هو أنا ذاهب إليه ، فنداء البحرين كان قوياً لدرجة لم أستطع مقاومتها ، بعد أيام . . كان عليّ أن أسافر إلى القدس مرة أخرى . . كان يوم الاثنين ، يوماً غريباً . . من الكرك ركبت الباص إلى عمّان . . ثم القدس . . وذلك لمراجعة القنصلية البريطانية لاستكمال معاملة السفر . . إلى البحرين . في تمام الثامنة صباحاً من يوم الثلاثاء كنت أقف عند باب القنصلية . . كنت أول القادمين ربما لأنني قدمت قبل الموعد إلى القدس . . لقد قضيت الليل خارج المدينة التي شعرت أنني صرت أكثر معرفة بها . . كانت فرصة زرت فيها أحد زملائي الذين صحبتهم

في دار المعلمين لمدة سنتين . . زرته في قرية حلحلول قرب الخليل . . رحب بي الصديق بكل كرم العرب . . وعرّفني على الأسرة . . لم يكد يمر وقت طويل حتى أحسست أنني واحد منهم . . وأن التوتر الخفي الذي انتابني لا مبرر له . . ربما شعرت بالتوتر لأنني لا أحب أن أكون ضيفاً على أحد ، هذا أمر قارٌ في داخلي . . أفي به كلما كان ذلك ممكناً . سهرنا إلى آخر الليل . نمنا سويعات . . وما إن رحل أول باص إلى القدس شمالاً حتى كنت واحداً من ركابه . . وأمام القنصلية وقفت . . ومع فتح الباب دخلت . . استقبلني موظف بأدب جم وتهذيب زائد . . وزاد ترحيبه لما علم بطبيعة ما أنا قادم من أجله . . قال : نعم لدينا تعليمات لاستكمال إجراءات سفرك إلى البحرين . . لكن لابد من استكمال بعض الأوراق ، مسألة روتينية لكنها ضرورية . . لا بأس قلت . . ما الأوراق التي عليّ أن استكملها قال : شهادة حسن سلوك من الأمن العام في الأردن . . تذكر أنك غير مطلوب على ذمة أي قضية . حسناً هذا أمر هين . . فأنا فعلاً لم أكن مطلوباً على ذمة أي قضية . . وهذا يجعل الحصول على شهادة كهذه يسيراً . . ومنحني الموظف المهذب مدة أسبوع على أكثر تقدير لإحضار هذه الشهادة الهامة الروتينية كما قال . . إلى عمّان عدت فوراً . . وإلى الدائرة التي تمنح شهادات حسن السلوك وعدم المسؤولية القضائية . . قالوا أكتب رسالة . . كتبت . . قالوا ضع طابعاً بثلاثين فلساً . . وضعت . . ثم طلبوا مني أن أغيب بضعة أيام . . وأن أعود لاستلام الشهادة . . وحددوا يوماً قريباً لاستلام هذه الوثيقة الهامة» .

وفي اليوم المحدد . . في ٢٩ أغسطس عام ١٩٦٠ كنت منذ الثامنة والنصف أقف في طابور لاستلام الورقة من دائرة المخابرات العامة . . وللذهاب بها إلى القدس . . أنا حسن السلوك وغير مطلوب على ذمة أي قضية . . إذن فالورقة جاهزة . . وسأنادى بعد قليل لاستلامها . . والمسألة مجرد روتين . . كنت أقف في الطابور وأتحدث مع نفسي . . لا أدري . . هل كان الواقف أمامي أو خلفي

يسمع ما أقول بل لعل كلاً منهما يتحدث ذات الحديث أو ما يقاربه . . الآن سيبدأ النداء على المراجعين . . وسأكون بعد ساعات في القدس . وعلى غير انتظار . . دبت في المبنى حركة غير عادية . . اضطربت الأمور . . خلت أن شيئاً لم يبق في مكانه . كل شيء اضطرب . . لم أدر ما الذي جرى . . فجأة كان مدير الأمن العام . . وهو من بلدي . . أنا أعرفه . . لا لأني قابلته . . ولا لأنه يعرفني . . أبداً . . فهذا أمر لم يحدث . . لكنني أعرفه من خلال صوره في الصحافة . . وربما أكون رأيته في شارع مدينتنا مرة . . أو ربما لأنه يشبه ابن عمه الذي كان معنا في المدرسة الثانوية . . المهم . . المدير نازل من الطابق الثاني . . يركض إلى أرض المديرية . . كان حاسر الرأس . . ببزته العسكرية . . وخلفه أحد الجنود وربما الشرطي يحمل خوذته ويحاول جاهدا تثبيتها على رأسه . . وأدركه في أسفل السلم . . ولأنه وراءه بدرجتين . . فمن عل . . ألقى الخوذة فلبست رأسه بشكلها الصحيح مع ميل قليل . . إلى الخلف! اختفى المدير وسط الدهشة ماذا جرى لا أحد يدري . . لماذا كان ما كان . . وما هي إلا دقائق . . حتى انطلقت سيارات المديرية بأصواتها المميزة . . وبأبواق بعضها العالية . . إلى عمّان العاصمة . . تعلن بمكبرات الصوت الجهيرة منع التجول . . وعلى كل مواطن أن يختفي من الأسواق في مدة لا تتجاوز ثلاثين دقيقة . . تلقائيا خرجنا من المديرية . . إلى الشارع ، فإذا كل شيء يتحرك هستيرياً وبسرعة لا أحد ينتظر أحداً . . كأنه يوم القيامة . . حتى السيارات لا تنتظر أحداً . . كل يجري إلى مستقر له . . إلا أنا . . فأين أذهب . وللحقيقة لم أشعر في حياتي بالضياع مثل تلك اللحظة .

نسيت كل ما يدور حولي وأن علي الاحتماء في أي مكان تنفيذاً لأوامر حظر التجول خلال نصف ساعة وبدأت الهواجس تتحرك في داخلي : «القدس . . وماذا أفعل إذا ذهبت إليها . . الورقة ليست معي ، وكأنها صارت بعيدة عني سنوات . . كيف الذهاب والحركة ممنوعة . . أين أنت أيتها الكرك . .

وفجأة تذكرت موهبتي المكينة وهي القدرة على المشي لمسافات طويلة فأنا متمرس بهذه الرياضة . . منذ أيام الدراسة السعيدة . . كنت أمشي يومياً عشرات الكيلومترات دون أن أكل أو أتعب! والآن . . جاء موعد المشي . . عليّ أن أتسلل من الشوارع إلى الأحياء الخلفية مشياً على الأقدام . . من غرب جبل عمّان . إلى جبل الوحدات . . حيث موقف باصات الكرك . . المسافة حوالي اثني عشر كيلومتراً أو تزيد . . رغم عدم معرفتي الجيدة بعمّان . . إذ لابد من المشي ثلاث ساعات على الأقل . . فأنا أعرف أنني أقطع أربعة كيلومترات في الساعة مشياً على الأقدام . . وبالسرعة العادية . . رحلة تنطوي على النزول إلى السيل ثم الصعود إلى الوحدات . . حيث باصات الجنوب . . وحتى هذه اللحظة لم أعرف ماذا وقع!! . . ولماذا منعوا التجول . . لا أحد يرغب في الحديث مع أحد . . الكل يشعر بالتوتر والخوف . . أحكم منع التجول على الشوارع الرئيسية ، ولكن الأحياء السكنية كانت أقل هجراناً . لأني لا أعرف أحداً . . ولأن لا أحد يحب أن يتظاهر بالمعرفة . . سرت . . وفي ذاكرتي صورة مدير الأمن بلا خوذه . . الشرطي يقذف الخوذة على رأسه . . مكبرات الصوت تمنع التجول . . كل هذا مغموس بالتوتر . . وشهادة حسن السلوك . . هل ما يجري الآن . . يترك لأحد شهادة حسن سلوك؟! . .

في الواحدة ظهراً إلا دقائق كنت في الوحدات جنوب عمّان . . قطعت المسافة . . وكنت كحصان امرئ القيس ، لم أنضح بماء . . ولم أعرق . . في مكتب سفريات الجنوب كنت . . ليس هناك زحام في المكتب . . منع التجول في عمّان قلل من وصول المسافرين . . أو أنهم لم يصلوا بعد . . لا أحد يدري ماذا جرى . . هناك سيارات أجرة إلى الكرك بجانب الباصات ركبت في إحداها . . كانت تحمل اثنين أو ثلاثة غيري . . إلى الكرك هناك في الجنوب . . وخارج عمّان كان التجول مسموحاً . . حاولنا أن نعرف . . لكننا لم نعرف . . نشرة أخبار عمّان تذاع عادة في الثانية بعد الظهر . . باق ساعة ، كانت أخبار

القاهرة في الواحدة . . قالت : قد منع التجول في عمّان . . لأسباب لم يعلن عنها بعد . نشرة إسرائيل في الواحدة والنصف . . وتكلمت . . تفصيلاً . . وفي تمام الثانية . . من إذاعة عمّان . . قال المذيع مفتتحاً النشرة : يا أيتها النفس المطمئنة . . الآية . . ثم قرأ صرح ناطق رسمي بما يلي . . وبدأت موسيقى جنائزية حزينة بعد إعلان تشكيل وزارة جديدة برئيس جديد حيث أن رئيس الوزراء كان واحداً من الضحايا في المبنى الذي نسف في التاسعة من ذلك الصباح . . ولأن رئيس الوزراء هزاع المجالي . . من الكرك . . حيث كنا . . ذاهبين . . فإن عشرات بل مئات السيارات أخذت تتدفق من الكرك على عمّان . . لمرافقة جثمان الرئيس . . لدى نقله إلى الكرك . . ليوارى في مثواه الأخير .

وعلى غير توقع ، تغيرت الأشياء وانقلبت الحسابات . . وصارت البحرين . . مرة أخرى مجرد حلم . . أحسست أن المسافة بيني وبينها قد امتدت ، وتطاولت ، وكلما قرأت جريدة شعرت أن جداراً جديداً قد أضيف . . وأن عائقاً آخر قد تشكل . . في قريتنا لم يكن أي جهاز للراديو ، أو مذياع من أي نوع ، وكانت الصحافة مصدر الأخبار وكنت أمشي يومياً بضع كيلومترات على الأقدام لأشتري جريدة بخمسة عشر فلساً ، كنت أتدبرها بصعوبة بالغة . . أعلنت الأحكام العرفية ، صار وزير الداخلية الجديد حاكماً عرفياً عاماً . أصبحت الأسفار أضيق والانتقال أكثر صعوبة ، إلى أن كان اليوم العاشر من سبتمبر ، أي بعد أسبوعين من الحادث إياه . . وتنقل الجريدة تعليمات : أن السفر خارج الوطن ممكن ولكن بإذن من الحاكم العسكري مباشرة . . الحاكم العسكري . .!

كان الوصول إليه مسألة تدخل في باب الأحلام ، ولأنني حالم ، باستمرار . . فقد سمحت لنفسي بأن أحلم أيضاً وأن أتخيل أنني أقابل الحاكم العسكري ، ثم خطر ببالي هاجس ، «لماذا لا أحاول» . من يدري لعل المسألة أيسر مما أتصور ، لعلي أنا الذي أرى الأشياء صعبة . وهي في حقيقتها غير

ذلك ، أليس من الممكن أنني ابني حواجز من أوهامي ثم أصدقها ثم أتركها تعيقني؟ لا . . لا . . سأذهب وأقابل الحاكم العسكري ، لكن هو وزير الداخلية ، إذن لأسمِ الأشياء باسمها . . أنا سأقابل وزير الداخلية وليس شخصاً آخر وسأعرضُ عليه المسألة ببساطة . . وأرى ماذا سيكون» .

«في اليوم التالي . . وفي باص الساعة السادسة الذي يتحرك عادة في الثامنة بعد أن يعلن السائق أنه سيتحرك في السابعة! ويقطع المسافة بين الكرك ، مدينتي ، التي ليست مدينتي ، فأنا لا أملك فيها شيئاً . أنني قادم من القرية . . لقد خرجت من القرية ماشياً بعد صلاة الفجر ، وفي الكرك جلست في المقعد الأول من الباص ، الذي لا ينطلق إلا إذا امتلأ بالركاب . . وكان الركاب يتقاطرون عليه ، ويسألون السائق أو مساعده : باص الستة متى يتحرك؟ أي باص الساعة السادسة ينطلق أي ساعة؟! ويجيبهم في الساعة السابعة ، وهو يدري أن سينطلق ربما في الثامنة أو التاسعة .

أخيراً تحرك الباص العتيد ، وكان بطيئاً ، أو هكذا خلته وأخذ يقطع المسافات بتراخ ، وبعد عشرين كيلومتراً ، توقف . . في قرارة وادي الموجب ، ونزل الركاب ليتناولوا الشاي ويأكلوا ما يحملون معهم من زاد للطريق ، ومعظمه بيض مسلوق وقطع من البطاطا المقلية ، وخبز طابون ، إلى هذا الحد كانت المواصلات شاقة . . وكانت المسافة التي تقطع طبيعياً في أقل من نصف ساعة . . تحتاج إلى توقف وراحة ووجبة على الطريق ، وكانت جنبات وادي الموجب العميق ، والمخيف تردد مع الجرامافون اليدوي (البشتختة . . كما يسميها البحرينيون) الوحيد الذي يصرخ في المقهى في قاع الوادي أغنية لا أسمع سواها كلما مررت من هنا ولعل صاحب المقهى لا يملك إلا عدداً محدوداً من الاسطوانات . . التي يذيعها عشرات المرات يومياً . . كانت أغنية كارم محمود ، على شط بحر الهوى رسيت مراكبنا . .!!

وبصوته القوى تتردد في جنبات الموجب ، هذا الوادي السحيق الذي مضت

عليه قرون وهو مقر للصوص وقطاع الطرق ، وتعجز أي قوة عن اقتحامه لوعورته ، حتى جاءت التكنولوجيا الحديثة . . فتغيرت أوضاعه إلى حد ما ، وصار المرور به مأموناً!

بعد أن شرب الركاب الشاي وأكلوا البيض المسلوق ، والبطاطا ، تجمعوا مرة أخرى في باصهم . . وغادر الباص . . بينما كان الراديو في المقهى يغني الاسطوانة الأخرى لعبدالعزيز محمود «أسمر يا جيمل يا أبو الخلاخيل ، ياللي المنديل راح يأكل من خدك حته» .

امتلأت أذناي باللحن . . والغناء والصخب . . ولكن كنت ما أزال أتخيل ماذا سأفعل في العاصمة . . أقابل الحاكم العسكري! هل يسمحون لي؟ هل من الممكن أن أصل إليه وأطلب منه تصريح سفر إلى الخارج . . قبعت في المقعد الخشبي ، وبقى الباص يتمايل حتى بلغت الساعة الحادية عشرة . . وكنا في الموقف خلف المسجد الحسيني ، في وسط البلد ونزلت . . أتلفّت . . ثم مشيت على الأقدام وسط الزحام . . حتى وصلت إلى موقع في وسط البلد . . مبنى وزارة الداخلية . . بدأ قلبي يتوجس بالخوف لكنني تشجعت . . واقتربت من الحارس . . وبأدب جم . . سلمت عليه ، وقلت : أريد أن أقابل الوزير . .!

لم يصدق الحارس ما سمع أول مرة . . وقال لي : الوزير نفسه؟

قلت : نعم . .! قال لماذا؟ قلت لأطلب تصريحاً بالسفر . . قال لي : إلى أين تسافر؟ قلت إلى البحرين . . وهو لا يعرف البحرين أو أين تقع! ولكن صغر سني ، جعله يصدقني . . ويخجل من أن يعترف أمامي أنه لا يعرف أين هي البحرين ولو على سبيل الفضول . . ولعل الخجل الذي اعتراه لجهله بما أعرف . . أو نظراً لصغر سني ، وجد معه نفسه في موقف يجب أن يتخلص منه . . قال لي تفضل . . وقفت أمامه . . مرر كفيه على إبطي . . وملابسي . . في حركة تفتيش روتينية ثم قال تفضل . . لكن هل سيسمحون لك بمقابلة الوزير . .؟

قلت : لم لا؟!

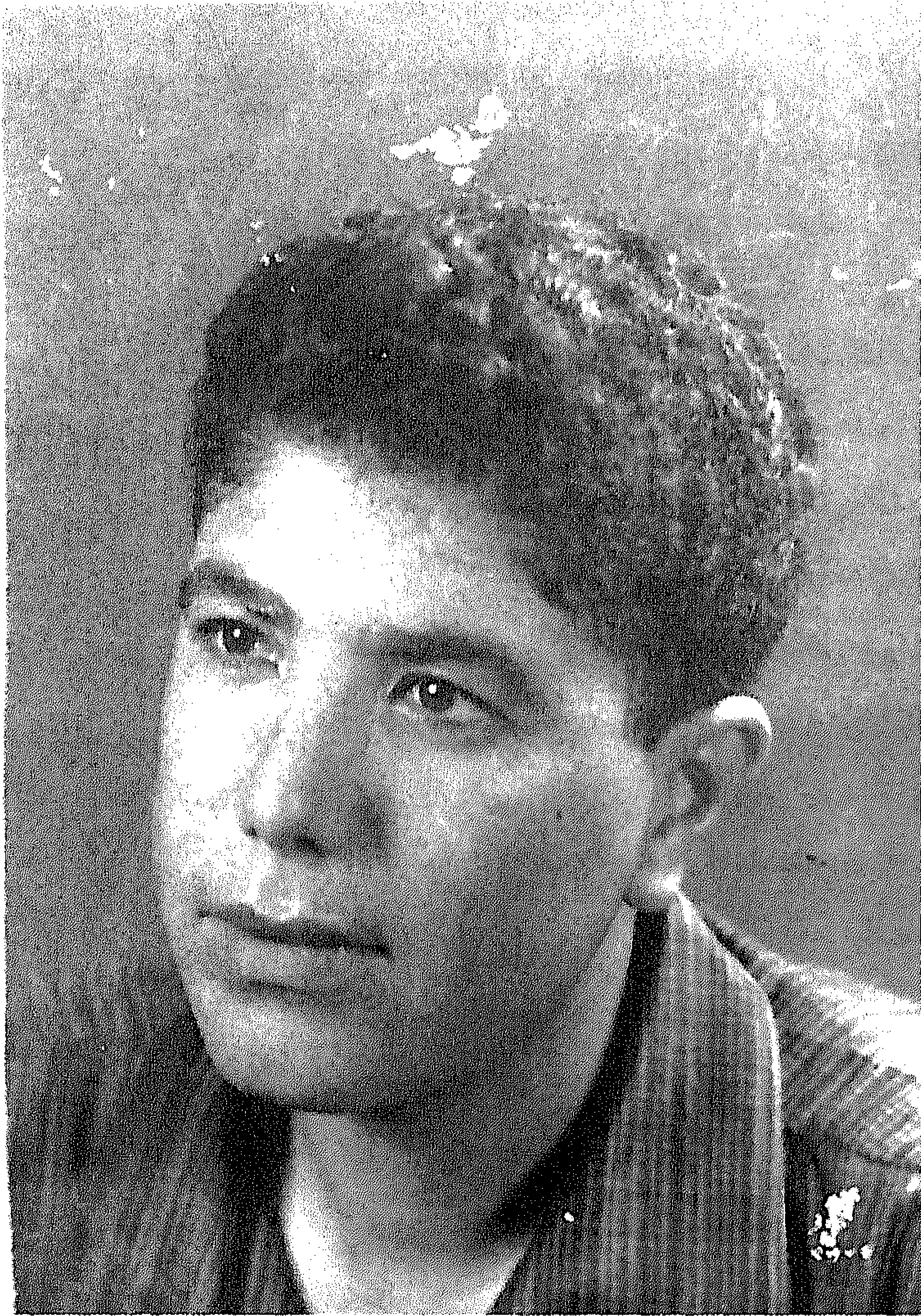
ليس صعباً الاهتداء إلى مكتب معالي الوزير . . اقتربت من الجندي المنتصب بالباب كان مشدود القامة ، حسن الهندام . . قلت له بعد التحية : أود مقابلة معالي الوزير . . وبينت له الغرض والاسم ، وبيسر غاب بعض دقيقة وقال تفضل . .!

دخلت متوجساً ، متهيباً ، ولا أقول خائفاً . . فوجدتني في . حضرة رجل ضخم الجثة مهيب ، كما كنت أتصوره وأكثر . . لكنه كان ودوداً ، إلتفت إليّ ورحب بي ، وطلب إليّ الجلوس . . وما كدت أستوي على المقعد حتى كان الشرطي قد وضع أمامي كوباً من الشاي . لخصت الموضوع لمعالي الوزير ، وأنني أنوي السفر للعمل في البحرين . . وبدا لي أنه يعرف شيئاً مما قلت . . لكنه قال وبلهجة مألوفة لدي : وبالعامية الأردنية : أنت لسه زغير . . وين رايح (الأردنيون يميلون بالصاد إلى الزاي في لهجتهم المحلية) .

قلت له الرزق يا معالي الوزير ، وأظن أني أحب أن أسافر إلى البحرين .

لا بأس! قال الوزير . . وتناول ورقة معدة لمثل هذه الأمور . . وكتب عليها بخطه بضع كلمات ووقع . . لا أدري ما الذي جعلني أتذكر الشاي الذي أمامي . . بعد أن كنت قد نسيته . . فمددت يدي وتناولت الكوب الصغير ، وإلى الآن لا أدري لماذا انزلق بين أصابعي ، وأندلق على الطاولة وعلى ملابسي . . لقد شعرت بأنني غصت في نفسي . أو أن الأرض ابتلعتني لقد كان موقفاً مخجلاً ، ومحرجا . لكن الوزير قال وبهدوء . . معليش . استأذنت وأنا أحمل الورقة وعلى ملابسي بعض طبع الشاي (سقوط كوب الشاي من يدي ، ظاهرة ما تزال تلازمني إلى الآن . . ربما تكريساً لذلك الكوب المميز) ورأيت الوزير تعلو وجهه ابتسامة ما ، لم أكن أدري ماذا كان يدور في خلده» .

لكن العقبات لم تنته عند هذا الحد ، بل ما زالت هناك عوائق وكادت تصل بي إلى الجنون ، وكأن الأقدار كانت تداعبني أو تشاغبني حتى تصل بي إلى آخر المطاف . . البحرين .



عبدالحميد المحادين

(١٣)

❖ **كيف اكتشفت إمكانية أن يصبح مجموع ١٦+٧= ٢٤**

❖ **في الخامس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٠م. كنت أخطو أولى خطواتي على المتر الأول من رصيف.. المجهول**

❖ **وأخيرا عرفت ما هي (البانكة) !**

❖ **من اليوم الأول اكتشفت أن البحرينيين يتقنون التعامل مع الوافدين والأغراب.**

❖ **خير الماء ما وصل إليك وأنت عطشان.. والبحرين كانت كأس الماء الذي صادف فيّ عطشاً**

❖ **سويعات قضيتها في الطائرة تباينت فيها مشاعري واختلطت أفكاري متجولة بين الركاب المرافقين وأسرتي التي تركتها ومستقبلي المجهول!**

«انتعش الأمل من جديد ، ها هي الموافقة إذن» . . حينما حصلت على إذن السفر من الحاكم العسكري ، وتواصلت همساتي قائلاً : «لماذا لا أسارع . . وفي غضون يومين . . حصلت على شهادة حسن سلوك ، تثبت أني غير مطلوب على ذمة أية قضية ما ، وكانت الأمور يسيرة وسهلة» .

إذن ما هي المرحلة التالية؟ . . في القدس . . في القنصلية البريطانية . . قدمت الورقة المطلوبة ، فقدموا لي تذكرة سفر إلى البحرين من عمّان ، على طيران B.O.A.C يوم الرابع والعشرين من سبتمبر . . ومن مديرية أمن الكرك

حصلت بناء على حسن السلوك، تصريحاً بالسفر مؤرخاً بتاريخ ١٩٦٠/٩/١٦ وصالح لمدة أسبوع . . وأن يوم السادس عشر إذا أضيف إليه الأسبوع، سيكون العدد ثلاثة وعشرين والتذكرة يوم . .٢٤٠, / ٩ لعلني في زحمة السفر وفي انفعالاتي الكثيرة أخطأت الحساب، فكان يوم ١٦ تاريخاً للتصريح لا يُمكّنني من السفر يوم ٢٤ بحيث يكون تصريح السفر قد انتهى . . وقد كان ذلك . . حين ناداني ضابط المطار في آخر لحظة ليقول تصريحك منته يا أستاذ منذ أمس . . ويؤسفنا أنك لن تسافر حتى تجدد التصريح، وزيادة في التنكيل قال: الآن ستعود حقيبتك» . .!

صدمة أخرى عشتها تسحب من تحت قدمي بساط الأحلام التي كادت تتحقق . .

وكرر الضابط بهدوء ودون انفعال:

أستاذ . . تصريحك منته!

قالها الضابط المسؤول بحيادية شديدة، لم استطع أن أدرك أكان آسفاً أم متشفيا، راضياً أم غاضباً، قالها . . وكان يقول مثلها عشرات المرات، إن كثيراً من المهن تكسب شخصية ممتهنها ملامح محددة . . يتشكل بها . . وتصبح جزءاً من حضوره . . أحسست أن الجهات الأربع تداخلت، وأني فقدت الإحساس لفترة وجيزة بأبعاد الأشياء .

وقد بدوت لشدة حيرتي هادئاً . . لعل الإنسان في كثير من مواقف الحياة يتحلى بالهدوء تعبيراً عن اليأس المطلق، وقلة الأمل . . ألا يبدو العصفور هادئاً . . والثعبان يزحف إليه . . ثم يفتح فكية ويلتهمه . . وهكذا العصفور هادئ حد الخدر . كنت هادئاً وبهدوء عميق تساءلت . . والضابط ما يزال ممسكا بالورقة إياها . . التصريح .

– ما العمل إذن؟

قلتها بهدوء بدا للضابط هدوء المطمئن، وبدا لي قاع اليأس . . إنهّا اللحظة

المحايدة تماماً . . حين يصلها الإنسان يكون قابلاً لكل مصير .

لقد انخدع الضابط لاطمئناني الشديد بالموقف الذي لا يبدو فيه أي رد فعل على الإطلاق .

تلفت الضابط ببساطة ، وكان يريد أن يتصرف نيابة عني . . لقد استدار نصف استدارة . . وقبل أن يبتعد عني قال : انتظر قليلاً . . فسألته بهدوء . . شديد . . ماذا سأفعل . قال : انتظر قليلاً . .

ذهب . . وابتعد خطوات ليست قليلة . . ودخل قاعة مجاورة كان فيها حركة غير عادية . فيها أناس من علية الناس ومن أصحاب المراكز . يبدو ذلك من تحركاتهم وسكناتهم ، وهم واقفون يتحادثون وينظر بعضهم إلى بعض ، وبعضهم ينظر في ساعته كأنه ينتظر شيئاً ما . . وفجأة وقف الضابط وانتصبت قامته وبهيئة رسمية حيا رجلاً من رجال الأمن الكبار ، ونظرت إليه أتملى وجهه ، فإذا هو إياه ذلك الضابط الذي رأيته قبل أربعة أسابيع ، بل أقل بيومين ، وهو يركض دون تركيز والشرطي يلقي قبعته على رأسه . . إنه هو . . هو . . يا للصدفة ، لقد بدا منظره هنا أفضل كثيراً من ذلك المنظر الذي رأيته فيه أول مرة في مديرية الأمن .

بضع كلمات . . قالها الضابط ثم مد الورقة لذلك المسؤول إياه ، وببساطة تناول قلمه . . ووقع . . في أسفل الورقة . . التصريح . .

ضرب الضابط قدماً بقدم ورفع يده إلى قرب حاجبه في تحية مهيبة . ثم استدار أقبل عليّ مبتسماً وقال : انحلت . تلك لهجة أردنية شائعة - وببساطة صار مجموع ١٦ + ٧ = ٢٤ .

وناولني الضابط التصريح ، ثم شكرته بذات الهدوء ، واتجهت إلى بوابة المسافرين ، وقفت أمام الشرطي الذي أمسك بجوازي ونظر في الجواز . ثم نظر في وجهي وختم الجواز بحزم وناولني إياه . . وقرأت فيه ١٩٦٠/٩/٢٤ .

الطائرة كانت بالنسبة لي مغامرة جديدة وحاضنة لعدد من القصص :

«جلست في المقعد المخصص في الطائرة ، على يساري رجل في الأربعينات وعلى يميني عجوز أجنبية وضعت على عينيها نظارة علقت بحبل أنيق يحملها حين تتدلى النظارة فوق صدرها .

كان الجالس عن يساري منهمكاً في بكاء هادئ . . لكنه يبكي والدموع تنحدر من فوق وجنتيه ويداريها ويمسحها بمناديل ورقية لكنه ظل يبكي . . صحيح أنني رأيته يعانق صبياناً قبل أن ينطلق إلى الطائرة ويلثمهم بحنان شديد لكنني لم أتفهم لماذا يبكي . . ربما لأنني بطبيعتي لا أميل للبكاء بل لا أحب أن أبكي ، وهذا لا يعني أنني لم أبك قط . . لقد بكيت في مناسبات معدودة . . لكنني كان ينبغي أن لا أبكي حينها .

تحركت الطائرة . . ولأنني أركب الطائرة لأول مرة . . فقد انشغلت تماما بها وبحركتها وتصميمها . بهؤلاء الرائحين الغادين بملابسهم الأنيقة الموحدة . . يتفقدون الركاب ، هذا لم يربط حزامه فيساعدونه على ربطه . . وقد ساعدني المضيف على ربط حزامي بينما جارتي الأجنبية كان قد ربطت حزامها منذ أول لحظة ركبت . . أي سائحة كانت! وأما جاري فقد ربط حزامه بطريقة توحي بأنه يفعل ذلك ليمنع نفسه من الفرار من الطائرة والعودة إلى الأرض . بكاؤه الحاد كان ينبئ بذلك .

تحركت الطائرة . . ومن النافذة البعيدة كنت أرى الأضواء تتحرك . . وتوقفت الطائرة ثم اندفعت . . ومن ثم ارتفعت في سماء عمّان وبدأت الرحلة . . ثلاثة كنا في مقاعد متجاورة . . أحدنا يبكي والثاني صامت بعمق والأجنبية قلبت صحيفة وبدأت تقرأ . . الطائرة الـ B.O.A.C إنجليزية وكل ما على ظهرها يجري بالإنجليزي والمضيفون كذلك وبعد كلمة ترحيبية كانت هناك موسيقى خفيفة . . لا أدري ما الذي ذكرني تلك اللحظة بباصات عمّان والكرك . . وضجيجها وهرجها ومرجها . وما الذي ذكرني بالموجب وبالمطرب عبدالعزيز محمود . . وهو يجلد الوادي عشرات المرات بصوته القاسي كالسوط .

أسندت رأسي على المقعد . . وأغمضت عيني . . وأخذت الأشياء تمر في ذهني بلا نظام . . ولا ترتيب . . كأنها رواد أحد المقاهي وقد أعلن عن وقوع حريق في أحد أطرافه . . اختلطت الأشياء في ذهني ومرت . . وتعثرت وأسرعت وتباطأت . . . وكدت أسمع صوت أمي . . وهي تخفي عني أنها على وشك النشيج وتتماسك وتودعني دون دموع . وصوت والدي وهو يطلب إليّ الا أنساهم من الرسائل . . وإخوتي الصغار وهم ذاهلون لأني سأفارقهم وهم لا يعلمون إلى أين ، وكأنني أعلم إلى أين! من منا يعلم إلى أين هو ذاهب؟ لا أدري إن كنت قد نمت أم لا . . لكن أعلمنا المذيع الداخلي أننا سننزل في مطار الكويت لمدة ساعة . . نستأنف بعدها رحلتنا إلى البحرين» .

كانت الكويت أكثر تداولاً في الصحافة من غيرها من دول الخليج وكان الذهاب إليها حلماً . . استقطبت كثيرين من الحالمين بالثراء ، ولقد شد الرحال إليها عشرات الناس بل مئاتهم ،لم تكن الكويت غريبة تماماً عني ففي الخمسينات ذهب أحد أقاربي إليها مدرساً وبقي لمدة عام . بعد ساعة أو بعض ساعة – عدنا إلى الطائرة – لقد ذهب جيراني . . الرجل والمرأة وحل محلهما آخران . . لم أهتم بمعرفة أي شيء عنهما فكنت مشغولاً بنفسي . بعد ساعة وبعض ساعة . . كنا في البحرين . . هكذا قال المذيع الداخلي – ووصلناها مع أول الليل وكان بانتظاري الأخ إبراهيم عبداللطيف وأحد سائقي دائرة المعارف وركبت في سيارة جيب . . وبعد حوالي نصف ساعة . . كنت في الحجرة التي خصصت لي . . وكأنني تذكرت ما وعدنا به الأستاذ يعقوب القوز يوم التعاقد» .

«وصلنا في حوالي العاشرة ليلاً وكان لا بد أن نمر على جسر الشيخ حمد الذي كان يغلق في وجه السيارت ويفتح جانباه للسماح بمرور السفن في الثانية عشرة ، علماً بأن سائقي التاكسي كانوا يدفعون ٢٥ فلساً كضريبة للمرور على الجسر ، ومن عجب أن مسار الجسر كان خطاً واحداً ، تقف سيارة على الجانب الغربي في انتظار مرور السيارة على الجانب الشرقي ، وبقينا في السيارة إلى أن

وصلنا إلى سكننا في مبنى أشبه ما يكون بالمدرسة من طابقين تحيط بساحة كبيرة ملأى بالأشجار والزراعة ، والغرف تطل عليها ، وعلمنا فيما بعد أنها كانت سكناً للطلاب الذين يدرسون في مدرسة المنامة الثانوية الذين يأتون من الحد وقرى البحرين ومن أبناء الخليج الذين يدرسون في البحرين ، وتولى الإشراف عليهم فيمن تولى يعقوب القوز ويوسف الشيراوي ، لكن هذا السكن ألغي وأصبح مسكناً للأساتذة المتعاقد معهم من لبنان والأردن وغزة ، حيث يسكن كل أستاذ في حجرة ، وتعرفت أول ما سكنت على خالد زنتوت رحمه الله ، حيث كان قد سبقنا إلى البحرين ويعمل في الهداية الخليفية أستاذاً للفنون .

هاهي البحرين ، وصلت بعد عناء وتعب وترقب ، فماذا عن اللحظات الأولى فيها؟ : «حجرة وسرير ، وتذكرت أن الأستاذ القوز قال شيئاً آخر وتذكرت الشيء . . إنه «البانكة» والتي لم أكن أدري ما هي . . لكنني بعد أن بدلت ملابسي . . تمددت على السرير . . وبقيت عيناي مفتوحتين معلقتين «بمروحة» تدور بتثاقل ، وتئن مع كل دورة هواء . . فحاولت أن أحثها على السرعة . . فأسرعت وكانت ذات ضجة . . كأنها طاحونة . . كان ذلك في القسم الداخلي الذي صار فيما بعد مدرسة تجارية والذي علمت أنه بني عام ١٩٥١ . . وأنا قدمت سنة ١٩٦٠ . كان عمره عشرة أعوام ولعله هو عمر هذه المروحة الكئيبة . . لكن . . لا بأس غدا سأسأل عن «البانكة» . . التي ارتبطت في ذهني بآلة تخفيف درجة الحرارة . تمددت على السرير وعلقت عيناي بالمروحة العجوز . . وبدأ العرق يتصبب من جسمي وبدأت الحجرة كأنها فرن من شدة حرارتها . . والأعجب أنها بلا شبابيك . . أخذت أتقلب فيها . . ثم . . حاولت النوم . إنني بحاجة إلى فترة انتقالية ولو لمدة ساعة . فكرت . . تذكرت . . تذكرت . . كل شيء سمعته - رأيته ، لقد اختزلت العشرين سنة . . وهي التي كانت كل عمري آنذاك . وأخيراً . . وبعد وقت ليس طويلاً . . أيقنت أنني منذ هذه

اللحظة . . دخلت في المجهول ومنذ الساعة الأولى من اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٠ . . كنت أخطو أولى خطواتي على المتر الأول من رصيف . . المجهول» .

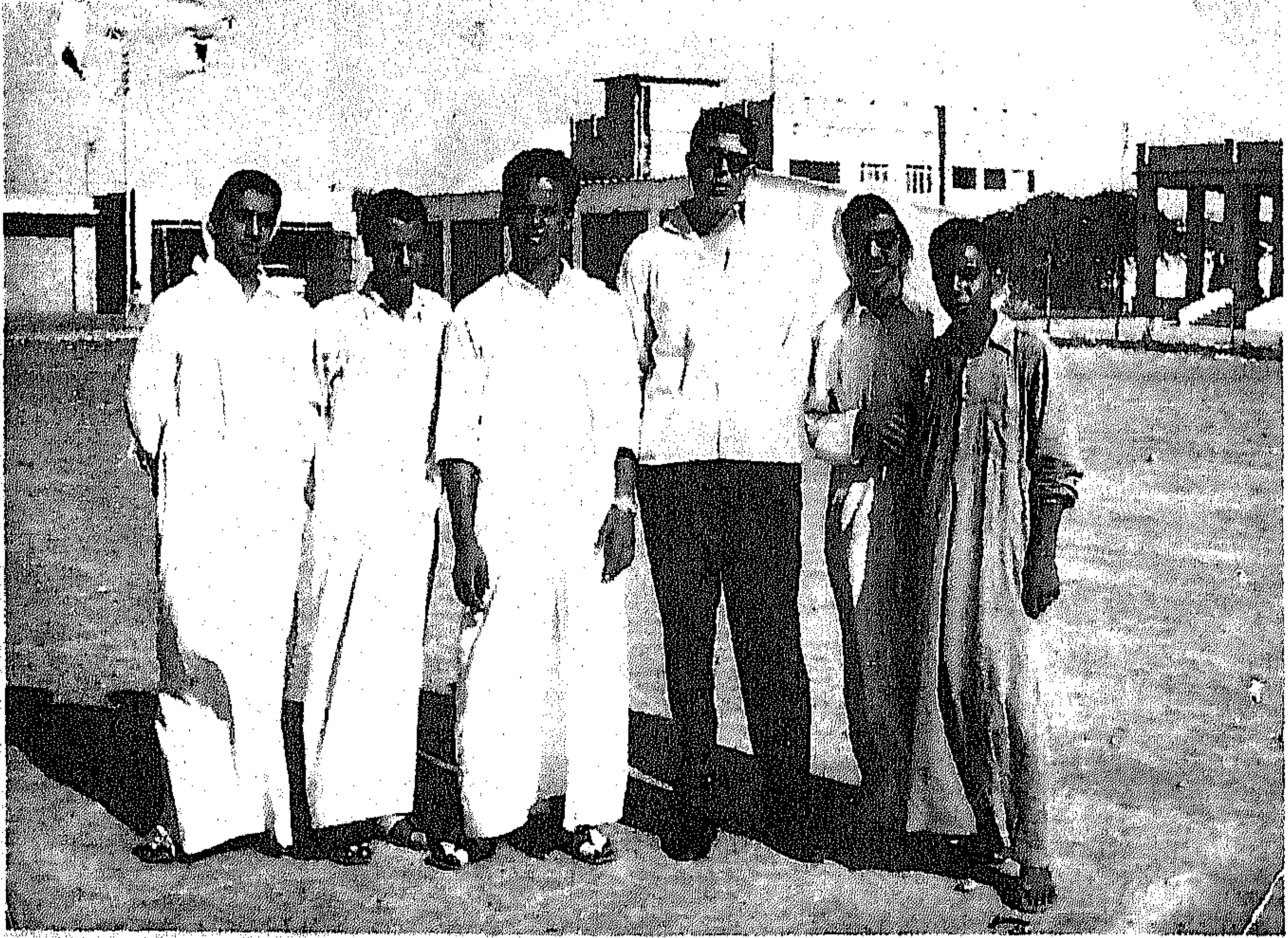
خرجت في اليوم التالي ، وتوجهت إلى مديرية التعليم ، التي كانت في موقع وزارة التربية السابق بجانب المدرسة الثانوية وعليها شعار (من المهد إلى اللحد) ، ودخلت وسلمت على يعقوب القوز الذي طلب مني الذهاب إلى الأستاذ جاسم زباري ليمنحني سلفة مقدارها ٣٠٠ روبية لأتدبر أموري حتى نهاية الشهر . . جلست بعدها عند عامل التليفون الجالس عند البوابة ، وأخذت أتحدث معه فكان في غاية الدماثة ، وللحقيقة فإن البحرينيين يحسنون استقبال الغرباء ، ويتعاطفون معهم ويصغون إليهم ، وحينها تجرأت وسألته عن معنى (البانكة) ، وقلت له «ياأخي ، قالوا لي أن الحجرة سيكون فيها (بانكة) لكني لم أجد شيئاً» فضحك بقوة وعلمت أنني وقعت في مطب ، وعلمت ساعتها أن مسألة التواصل باللغة مع هذا المجتمع الجديد ستكون مشكلة ، خاصة وأنني معلم ولا بد أن أتواصل مع الطلاب الذين عادة ما يستغلون أي مواقف مع أستاذهم ليتسلوا بها ، خاصة إذا كان يقع في مطبات لغوية معهم . . وأجابني جليسي ، بأنها المروحة ، فتساءلت «هل تعتبر المروحة ميزة»؟! ، وأكد لي ذلك إذ لا توجد مروحة في معظم مدارس البحرين والفصول لا مراوح فيها ، من جهة أخرى ، ولقلة خبرتي ، فقد كنت أرتدي البذلة في تحركاتي وربطة العنق ، وكانت بذلة وحيدة مقلمة ، ولاحظت دهشة من حولي دون أن أعرف السبب الذي سرعان ما اكتشفته إنه (البذلة) .

في البحرين اجتاحتني مشاعر متضاربة ليست المشاعر هي المشاعر ، إنه موعد اللقاء مع الحبيبة التي عايشت خيالي منذ ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٠ تظهر مرة وتغيب مرة ، لكنها لم تختف على مدى ثمان سنوات ، منذ أن تسلقت حروفها في داخلي يوم ذكرها الأستاذ ، لذا أحياناً يخامرني شعور بأننا نكون قد عشنا

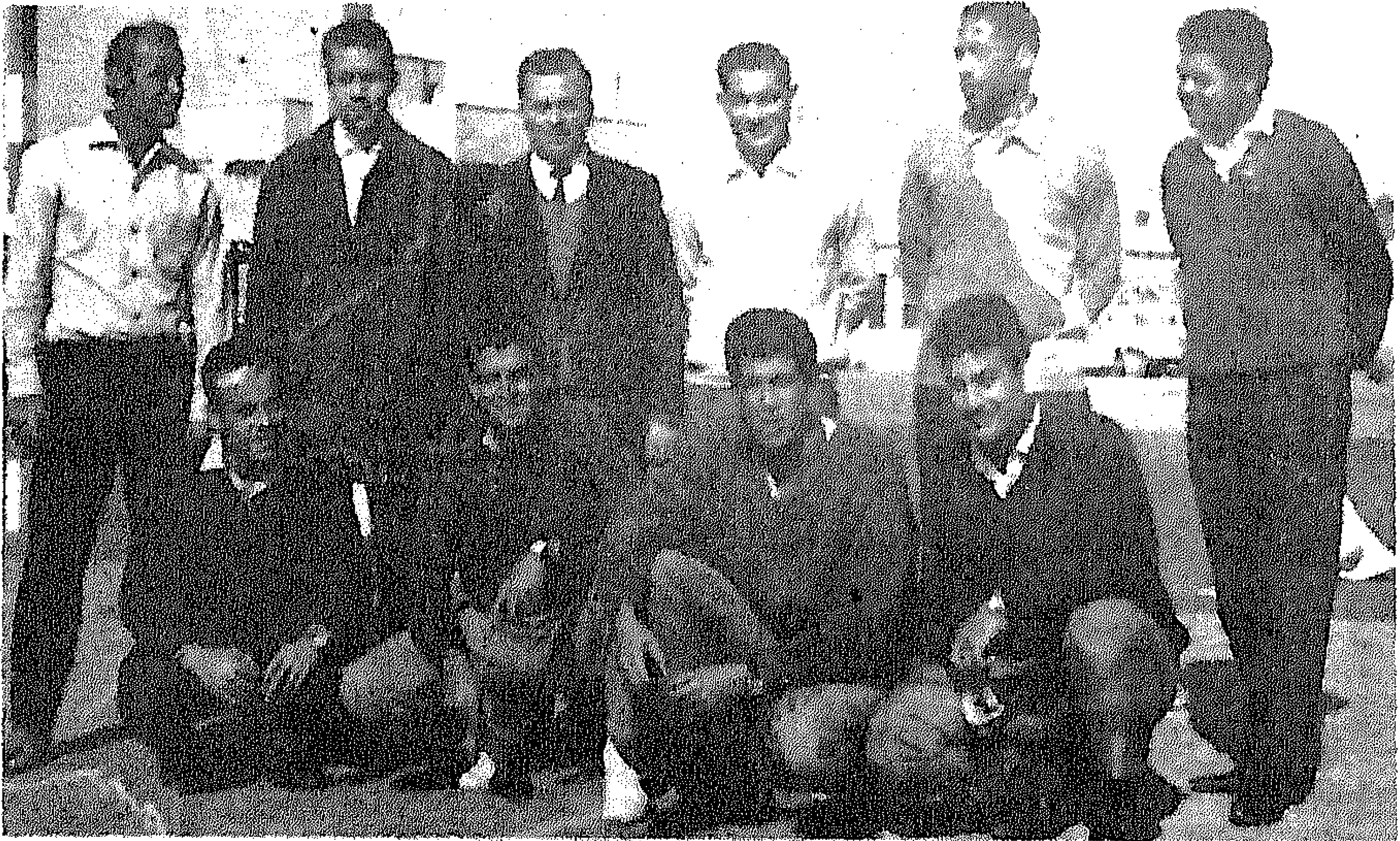
سابقاً حياة أخرى ، وعندما نموت تنمحي هذه الحياة وربما تذهب إلى آخرين يولدون فلا يتذكرونها ، لكنها تتخلق بشكل غامض في داخلهم بمعنى (هل كل الذين يؤمنون بنظرية التناسخ يملكون دليلاً ولو غامضاً على ذلك؟ لا أدري) لكن ما أعلمه هو أن خير الماء ما وصل إليك وأنت عطشان ، ولذلك قال الشاعر

وأنـي لأرجـــوها وأرجـــو لقـــاءها
كـمـا يطلب الظمـآن مـاءً مُـبـردا

فكانت البحرين كأس الماء الذي صادف فيّ عطشاً» . .



المحادين وسط تلاميذه



فريق الإسماعيلي المصري في مدرسة الهداية



يوسف الشيراوي



القسم الداخلي - سكن المدرسين

(١٤)

❖ إن الحياة في مجموعها مواعيد ولعبة شطرنج!

❖ الصدفة وحدها لعبت لعبتها معي منذ مغادرة الأردن وحتى وصولي البحرين

❖ مدرسة الهداية مصادفة ثانية شكلت بنية هامة في مجمل حياتي القادمة

❖ «مبنية من الحجارة.. والحجر رمز الخلود».. شعار الهداية الخليفية الذي أثار حيرتي

❖ في الهداية الخليفية كانت بدايتي.. مدحها الجميع دون أن يقنعوني بأسباب اختلافها وأهميتها

❖ البحر.. أول معلم علق في ذهني.. له وقع عميق.. لا سيما في الأيام الأولى

أتساءل أحياناً : ما هو دور المصادفات في ترتيب حياتنا ، وكيف تتشكل علاقة ما بين حادثة بسيطة وسيرورة حياة ومستقبل؟ . .

إن الحياة في مجموعها مواعيد ، فلو تغير موعد واحد فإن الرقعة كلها تتغير ، إنها لعبة الشطرنج ، بحركة واحدة للبيدق تكرُّ العلاقات جميعها وتتغير ، ويتغير طبقاً لها المشهد كله . . ومن هنا يجد الإنسان نفسه مطالباً بألا يحكم على واقعة واحدة ، ويحدد موقفه منها ، قبولاً أو رفضاً ، فهذه الواقعة هي جزء

بسيط من مسيرة لها بعدان ممتدان أحدهما من البدء والآخر إلى النهاية ، و«من» و«إلى» ملايين اللحظات ، لكن لا واحدة منها قائمة بذاتها يمكن تأطيرها والحكم عليها ، وينبغي الانتظار لتحديد الأهمية لهذه اللحظة ، ونحن نسمّي اللحظات مصادفات ، لكن لا يوجد مصادفة قائمة بذاتها منفصلة عما قبلها ، ولا تمتد إلى ما بعدها . . ولذا في مواجهة هذه اللحظات نقول : «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» ، وفي ذلك إجابة عن التساؤل السابق ما هو دور المصادفات في حياتنا . . والذي لا نحبه اليوم نكتشف أنه كان في موقعه تمهيداً لما سوف نحب وإنه كان لابد منه لكي يجئ ما بعده ، ولو أننا تحكمنا بالصدفة ، وهذا غير ممكن ، لاكتشفنا أننا باختيارنا شيئاً واحداً اخترنا تلقائيا مسيرة الحياة وملايين الاختيارات . . إنها فلسفة الحياة . . والإنسان دائماً على مفترق طرق ، ودائماً كما قال الشاعر :

في ملتقى الطرق
ما أصعب القرار
لنفس ذاك الملتقى
يقال أيضاً مفترق

الحياة تقاطعات . . واختيار الإنسان بإرادته أو بغير إرادته ، لأي طريق في التقاطع يعنى أنه اختار مسافات بعيدة ونهايات بعيدة . .

كل هذا خطر ببالي وأنا استحضر اليوم الأول من البحرين . . ١٩٦٠/٩/٢٥م . .

في الصباح . . خرجت من الحجرة إياها ، وتوجهت إلى مديرية التعليم . . التي تبعد عن السكن الذي أنا فيه بضع عشرات من الأمتار . .

وما هي إلا خطوات . . حتى كنت هناك . . وبسهولة تعرفت على البنية العليا للتعليم . . أحمد العمران ، ويعقوب القوز والشيخ عبدالعزيز بن محمد آل خليفة . . رحمهم الله جميعاً . . وجاسم زباري ، رحمه الله ، هذه هي كل إدارة

المعارف للبنين وكنت أترقب التعيين، وكانت المصادفة الأولى في حياتي في البحرين . . وكانت مصادفة لها ما بعدها . .

في الأيام الأولى . . بدأت السؤال الكبير . . .

لماذا أنا هنا؟! وللحقيقة لم أستطع أن أجيب عنه . . ولا أدري أين هي المترتبات؟ . .

الزمن ١٩٦٠ في شهر سبتمبر (أيلول) . . المكان البحرين . .

ما هي البحرين؟ بمَ توصف؟ كيف يتم تعريفها؟

سؤال لم أكن أملك له جواباً . . كيف تنظر إلى موقع لا تعرف فيه متراً مربعاً . . ولا تعرف فيه إنساناً تربطك به رابطة ما، كيف يتكلمون، كيف يتصرفون، كيف يعيشون، كيف يفكرون . . والسؤال الذي أواجهه كيف ابدأ هذه الحياة في مواجهة هذه المجاهيل كلها؟!

وما أن بدأت ألتقي الناس، وأتعارف معهم حتى زالت عنى كل المخاوف، وكل الأسئلة، وكل الاستفسارات، كل شيء بدا مألوفاً، لا استغرابات كثيرة، ولا مفاجآت من أي نوع، فاتخذت - وبغير تخطيط - في نفسي قراراً . . علي أن أعرف كل ما حولي ومن حولي، وأن لا أترك شيئاً للمصادفات إن كنت قادراً على الاستعداد له .

حتى هذه اللحظة لم أكن قد اكتشفت أنني مدرس . . كنت مجرد صبي، قليل الخبرة في الحياة . . قليل الأسفار، قليل الثقافة الشمولية . . هذه مفتاح الدرب . . إنني ينبغي أن أضع لنفسي منهجاً في الحياة . . لكن أين وكيف؟!! .

بضعة أيام لم أتجاوز حدود القضيبية، أختلف إلى إدارة التعليم، وأعيد الكرة إلى تلك الحجرة العتيدة وقد أصبحت آلف تلك الآلة المسماة «البانكة» .

نعم، البحرين هي المصادفة الأولى

وبعد أيام كانت المصادفة الثانية . . .

وقبل الثانية، كانت القضيبية عاصمة المعلمين المتعاقدين، من العرب

وغيرهم . . كل المعلمين كانوا يسكنون في القضيبية . وليس عسيراً أن تلتقي يومياً بعدد منهم في الشارع ، في الصباح أو المساء . . وقد كان المعلمون قد اعتادوا أن يلتقطوا وبسهولة المعلمين المستجدين . . ويكتشفونهم بسرعة . . ولا يتحاشونهم ، بل يسعون إليهم للتعارف والمساعدة إن كان هناك ضرورة للمساعدة .

وفي بضعة أيام تعرفت على أكثر من مدرس عربي قديم في البحرين . . وبدأت الألفة تنمو . . وفي الساعات التي نلتقي خلالها كانوا يحدثوننا عن تجربتهم وعملهم وذكرياتهم . . كان المدرس المتعاقد يتلقى مبلغ ٣٠٠ روبية للسكن ، وحوالي ٦٠٠ - ٧٠٠ روبية هي مرتبه ، وهكذا تسير الحياة .

وتجيء المصادفة الثانية . . وهي التي أعتقد أنها كانت حجر الأساس في جميع حياتي القادمة . . وإن كنت حينها لم أدرك ذلك بوضوح . .

بعد وصولنا ببضعة أيام صدرت التعيينات في مدارس البحرين . . وكانت المصادفة الثانية . . كان من الممكن أن أعين في أي مدرسة من مدارس حكومة البحرين . . في المعامير أو الحد ، أو المنامة ، أو في أي موقع . . لكن كانت المصادفة . . أنني سأعمل معلماً في «مدرسة الهداية الخليفية» ، وللوهلة الأولى لفت نظري تسمية المدرسة «بالهداية» و«الخليفية» ، وسرعان ما اكتشفت أن المدرسة منسوبة إلى الأسرة الحاكمة . .

حدثت الذين تعرفت عليهم من الأساتذة القدماء الذين سبقونا إلى البحرين . . بسنوات . . ولما علموا أنني سأعمل في الهداية الخليفية . . لم يكن ذلك شيئاً عادياً . . بل قالوا لي هذه المدرسة ليست كالمدارس . . ولم يكثروا في التفصيلات . . لكنهم قالوا إنها مدرسة تختلف . . ولم أكن أدري فيمَ تختلف؟ ولم يجبني أحد بوضوح عما يقصدون بهذا الاختلاف ، لكنهم ألمحوا أحياناً بقولهم . . أقدم مدرسة في البحرين . . هل القدم ميزة؟ هل هو مبرر للاختلاف؟! وقالوا إن دائرة المعارف توليها عناية خاصة . . وتقيم فيها مهرجاناً

ختامياً لألعاب القوى في كل عام . . . هل هذه ميزة؟

قال بعضهم . . هذه المدرسة كل طلابها عرب . . ما المسكوت عنه في هذا القول؟

وقال بعضهم هذه المدرسة الأولى في البحرين . . . وفي المحرق نهضة رياضية مرموقة . . وفي المحرق نادي المحرق الرياضي ، وقال آخرون . . مدرسة الهداية مديرها عبدالله فرج ، رجل صارم وقوي الشخصية . . وقال بعضهم أن فيها تأسيس مرحلة ثانوية في وقت قريب . . ١٩٥٩/١٩٦٠م . .

وكثر الحديث عن هذه المدرسة . . وقال آخرون هذه المدرسة فيها كثير من عيال الشيوخ طلاباً . . وقال آخرون للمدرسة تاريخ بعيد . . إنها أقدم مدرسة في البحرين . . منذ ١٩١٩ ، ولها تاريخ لافت ومرّ بها شخوص تربويون كثيرون وهذه المدرسة هي المدرسة الأم في التعليم ، وقال أحدهم إن مدير التعليم من طلابها السابقين ولذا هو يهتم بها . وقال أحدهم . . المحرق هي العاصمة السابقة للبحرين .

الحيرة انتابتني جراء عدم وضوح الرؤية لدي واختلاف الأقاويل والأسباب التي أوضحها الآخرون حول أهمية مدرسة الهداية الخليفية ، قالوا هذا وقالوا غيره ، وذكروها بكثير من الاحترام ولها موقع في النفوس . . إنها مدرسة مختلفة هكذا استقر في ذهني مما سمعت . . لكنني لم أتهيب العمل فيها . . وما هي إلا أيام حتى حملتنا سيارات الدائرة إلى هناك . . إلى مدرسة الهداية الخليفية . وقطعت المسافة ذاتها التي قطعتها ليلة وصولي إلى البحرين ، ولكن بشكل معاكس . . إنها في جزيرة أخرى . . في المحرق . وهذا يعني أنني أسكن في جزيرة وأُعلّم في جزيرة . . أي تجربة مثيرة هذه . . وأي شعور ينتابني مع رحلة كل يوم ، وسأكتب إلى أهلي إنني في جزيرة المنامة . . وأدرّس في جزيرة المحرق . . أمر ليس عادياً . .

«هذه هي الهداية . . وقد كتب في القوس الذي فوق بوابتها الغليظة :

«مدرسة الهداية الخليفية تأسست ١٩١٩م ، ١٣٣٨هـ» . مبنية من الحجارة . . والحجر رمز الخلود .

إنه اليوم الأول . . لا أكاد أنسى شيئاً من تفاصيله إطلاقاً . . . حين دخلنا على مدير المدرسة عبدالله فرج إلتقانا مرحباً ، إنه قصير القامة . . وهو يقف خلف المكتب ، يرحب بنا بحرارة .

للوهلة الأولى تكتشف أنه مدير كلاسيكي ، يمثل نمط المدراء الجادين في إدارتهم ، الصارمين في تعليماتهم ، الميالين إلى العبوس ، والشدة ، الذي يوحي لك بأنك دائماً في وضع من أوضاع المساءلة لو قصرت ، لو تخاذلت ، لو تهاونت . . وكان يسكن في منزل بقرب المدرسة . . وهذا يعينه على الحضور منذ الفجر إلى المدرسة . . وتدخل عليه فيحدثك بأنه استحم بماء بارد منذ الساعات الأولى للصباح ، وأنه لا يستخدم الماء الساخن . . وعلى مكتبه تتمدد خيزرانه ، اصطفاها من مجموعة من خيزرانات - وقد سمعت البحرينيين يجمعونها على «خيازرين» - التي أسندت هناك في الركن ، جاهزة للاستخدام . . ولا تفارقه تلك العصا في تجواله . . كان مربياً ، ومتمرساً ، ويعرف متى يستخدم الشدة ومتى يستخدم اليسر ، وهو ملم باللغة العربية إلماماً طيباً ، وملم بشيء من التاريخ ، وكان يحسن استخدام هذه الأشياء التي يلم بها .

وقد ولي إدارة مدرسة الهداية الخليفية عام ١٩٥٣م ، وهو مديرها الثاني عشر ويحمل الشهادة الثانوية ١٩١٨ وشهادة في التربية ١٩٢٦ وشهادة في التربية الحديثة ١٩٤٦ .

وقد عُرف أنه من مواليد فلسطين ١٩٠٣ ، وقَدم إلى البحرين ١٩٤٩ وعمل مدرساً في مدرسة الحد الابتدائية بمرتب قدرة ٢٢٠ روبية ثم نقل إلى المحرق الابتدائية ، ثم مديراً مساعداً في المدرسة الغربية ، ثم عين مديراً مساعداً لمدرسة الهداية الخليفية وكان مديرها غالب عبدالرحمن ، و١٩٥٣ صار عبدالله فرج هو المدير .

هذا المدير كان يدرّس قبل حضوره إلى البحرين في مدرسة المقاصد الإسلامية في بيروت - وفي زمنه استكملت الهداية المرحلة الإعدادية وأضيف إلى مبناها مبانٍ خارجية .

من أبرز ما أقيم في مدرسة الهداية زمن عبدالله فرج الحفل الرياضي في أبريل (نيسان) ١٩٥٤ بمناسبة زيارة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله للبحرين ، وحضر الحفل الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة رحمه الله ووزير المعارف المرحوم عبدالله بن عيسى آل خليفة ومستشار حكومة البحرين تشارلز بلجريف ، ومدير التعليم أحمد العمران .

أول يوم في الهداية ، ما زالت ذكريات الصبي الأردني لا تفارق خياله :
« . . . كثيرون الذين يتذكرون ذلك الصبي ، البدوي ، اليافع الذي انشقت عنه الأرض فجأة فظهر في مدرسة الهداية الخليفية ، في المحرق ، يتلفت حواليه بوجل ، وتكثر حوله وعنه الهمسات ، وتظن به الظنون ، ويواجهه كثيرون بتساؤلات ، مقترنة بعلامات تبدو على الوجوه ، وكأنها تقول له من أنت؟! وببساطة يحاول ذلك الفتى البدوي أن يجيب ، بدون تلجلج ولا مناورة ولا خبث ولا مواربة . . ولا مداراة . . بسيطاً كان ذلك البدوي الفتى ، شفافاً كان ، هادئاً ، مبتسماً . .

إنها الأيام الأولى ، أخذ يكتشف فيما حوله ، وفيمن حوله ، يوماً بعد يوم ، أشياء لم يكن يعرفها ، وأشياء كان يعرفها ، ومواقف كان لا يتوقعها ، وأخرى يتوقعها ، وكان عليه أن يتكيف بسرعة ، وأن يقفز فوق كثير من الاعتبارات ، وأن يقلل - ما أمكن - من التساؤلات .

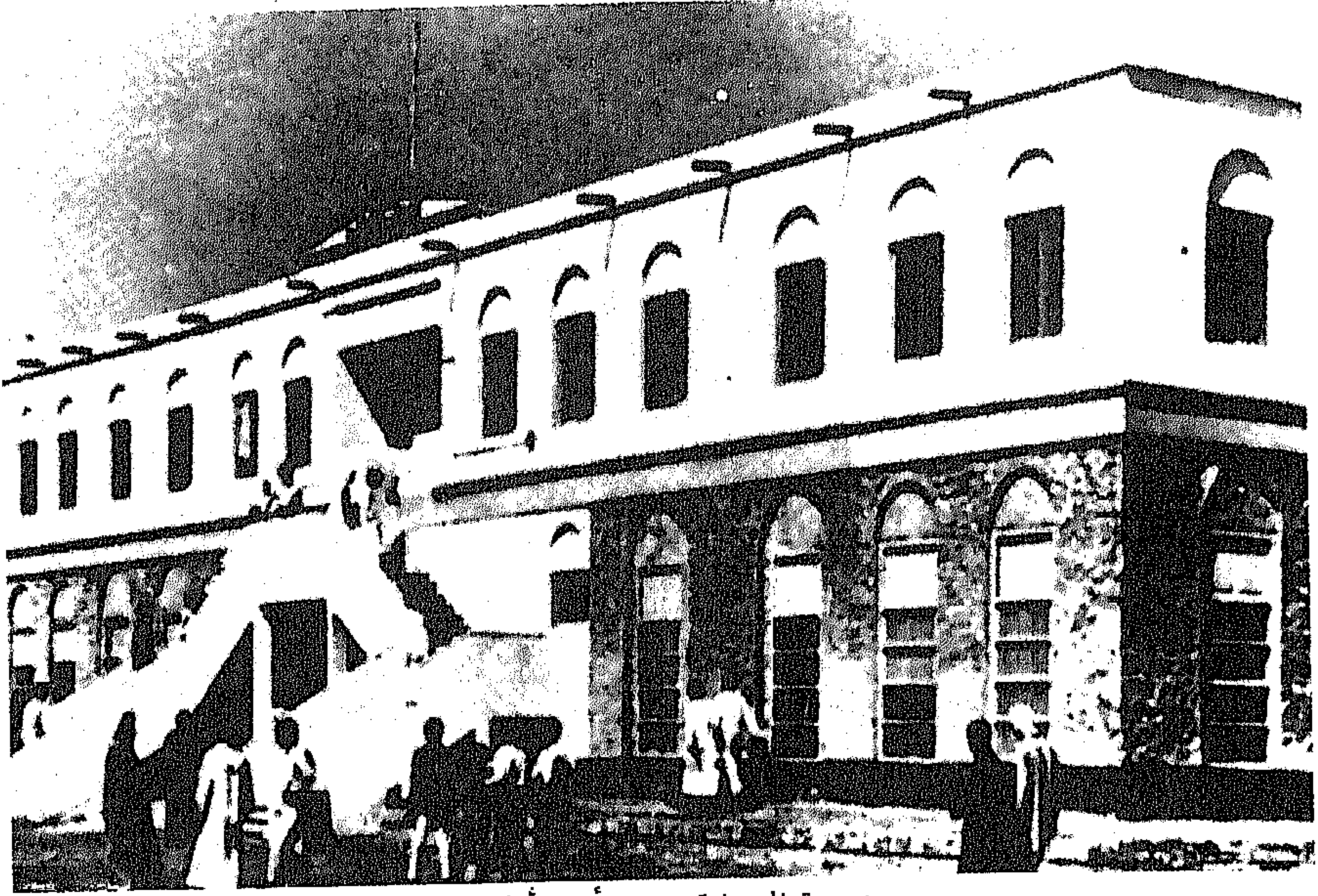
لم تطل الأمور كثيراً ، فقد ترتبت الأشياء المضطربة بسرعة ، والتقط الفتى البدوي خيوطها ، سيما أنه كان في المحرق . . سلام الله على المحرق! حيث زالت الاعتبارات الخلافية بسرعة غير متوقعة ، وبدأت عناصر الانسجام والألفة تتشكل بسرعة غير متوقعة كذلك .

هذه هي الهداية الخليفية ، نذهب إليها صباحاً في رحلة من المنامة إلى المحرق ، ونعود منها ظهراً في رحلة من المحرق إلى المنامة . . كان منظر البحر على جانبي الطريق ، الجسر الموصل من المحرق إلى المنامة . . يثير الدهشة . . ولأنني قادم من منطقة لا بحر فيها ، وأكاد أقول ولا أنهار أيضاً ولا ماء . . إلا ذلك المتدفق من «عين سارة» في ذلك الوادي السحيق المجاور للكرك ، والذي يقع تحت سطح البحر ، وتدفع المياه إلى أحواض على قمة الجبل توزع على الناس في مواسير وحنفيات . .

جميل هذا المشهد ، وخيط رفيع هو الجسر يتمدد فوقه ، وإذا نظرت يميناً لا تدرك حدود البحر وإذا نظرت شمالاً لا تدرك حدود البحر ، وإذا كنت في الهداية فأنت جار مباشر للبحر . . يكاد يغسل قدمي المدرسة كلما جاء المد . .

البحر ، هو أول معلم علق في ذهني . . وله وقع عميق . . ولا سيما في الأيام الأولى . .

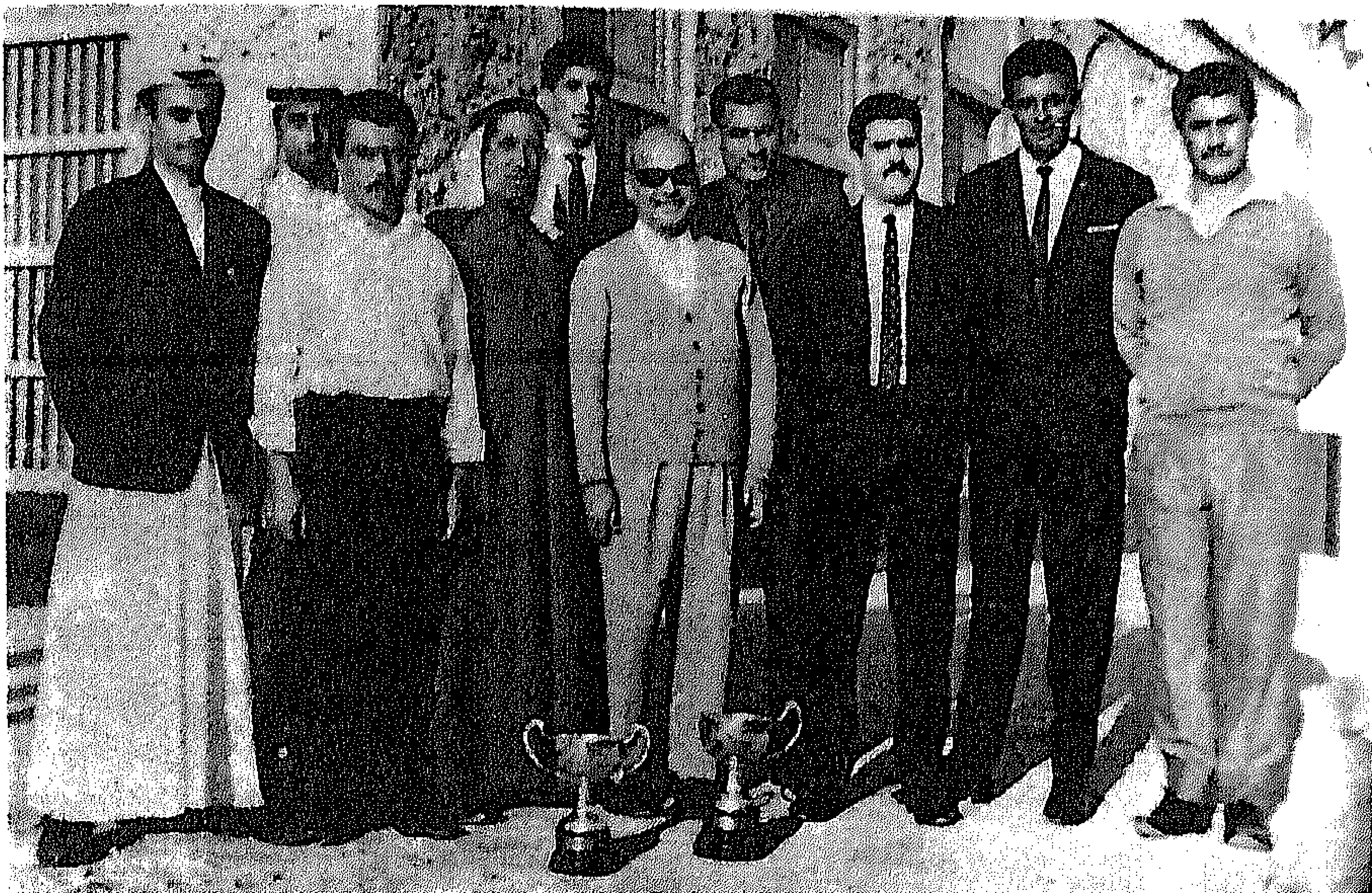
بدأت الرحلة في مدرسة الهداية الخليفية . . وبدأت التعرف وبسرعة على كثيرين من الزملاء . . انتظاراً لمجيء الطلاب إلى المدرسة ولنبدأ رحلة التدريس . . ولأبدأ تكييف أموري البسيطة والتخطيط الأبسط لهذه الأيام القادمة .



مدرسة الهداية حين رأيتها أول مرة



خالد زنتوت



عبد الله فرج يتوسط بعض معلمي الهداية الرياضيين



عبد الله فرج ، المدير الذي دخلت الهداية في عهده

(١٥)

❖ **قررت أن أتعلم من طلابي قبل أن أعلمهم.. تلك كانت سياستي في الاندماج بالمجتمع**

❖ **لا أجد غضاضة في أن اقتبس من شهرة أحد أنبه طلابي بعض الإضاءات**

❖ **قاسم حداد خير من أعاد إنتاج تلك المرحلة الأولى من حياتي في الهداية الخليفية**

قال قاسم حداد :

❖ **حين أتذكر الشأن الأدبي سوف أصادف في المحادين القارئ الذي يحببك في الأدب ويشعرك أنك الشاعر الوحيد الذي يمكنه أن يكتب قصيدة مهمة في هذا الكون**

❖ **وجدت في أستاذي انحيازاً مبكراً لحريات الشاعر المتوقفة على قدرته على الإبداع**

أعتبر هذه الحلقة مختلفة نوعاً ما لأنها لم تأت على لساني فقط ، وإنما ، لرغبة قوية مني ، تأتي الشهادة على لسان أحد تلاميذي النجباء ، حيث يعتز كل منا بالآخر ، تلمذة وأستاذية . . هذا التلميذ هو الشاعر قاسم حداد الذي أفرد فصلاً كاملاً في روايته ورشة الأمل التي ضمنها سيرة ذاتية للمحرق . . لأنها تصف بحرفنة أدبية دقائق السنوات الأولى من حياتي بالمحرق ، والهداية

الخليفية بالأخص . . عن تلك الفترة .

في الهداية الخليفة صرت الآن . . وكان علي أن أستعد لمواجهة هذا الوضع المستجد ، وما يمكن أن يقع لي من مواقف تتطلبها هذه المهنة المتعبة . إن على من ساقته الأقدار ليكون معلماً ، أو لنقل مدرساً أن يتمتع بمزايا كثيرة مترابطة ، وليست متفرقة ، تتكون شخصيته منها مجتمعة . .

صحيح أن تجربتي لم تكن عميقة ولا ثرية ولا خصبة ، فماذا أنا فاعل أمام طلاب ، رأيتهم حين رأيتهم ، فوجدت كثيرين منهم في مثل عمري ، أو أقل قليلاً . . والفوارق بيننا كثيرة ، بعضها في العمر ، وبعضها في اللغة واللهجة ، وبعضها في تفاوت المعرفة . . ونوعيتها . . أنا قادم من بيئة بدوية أو كالبدوية ، بيئة أشبه ما تكون بالصحراء . . وأنا الآن في بيئة بحرية . .

إن هذا فارق في الثقافة والموروثات . . إنني لا أعرف عن هؤلاء الناس شيئاً . . وأول ما يحتاجه المدرس هو أن يلم بالفضاء الذي يمارس فيه مهنته . . ولأنني من فضاء مختلف ، فإنني أجد المسافة بيني وبين طلابي شاسعة ، وهي تشي بعلاقات ستبقى مظنة لعدم الانسجام ، ثم إنني كنت أعلم من خلال تجربتي البسيطة ، ان الطلاب يفاجئون المدرس أحياناً ، بما لا يليق ، أو يتجرأون على المدرس في تعليقات لجهلهم بأثرها ، أو لتعودهم فيما بينهم على قولها ، مما قد يسبب الحرج لمدرس طارئ على هؤلاء الطلاب . . وكيف يمكن أن تنمو علاقة بين من لا يعرفون عن بعضهم شيئاً . . لكن . . وجدت إنني أمام تجربة ينبغي أن أدخلها بحذر .

وأدركت أني بحاجة إلى بناء جسور إنسانية مع هؤلاء الطلاب قبل الجسور المهنية . . وكنت أتفاعل مع زملائي من المدرسين ، والبحرينيون بخاصة ، لعلي ألتقط بعض الإضاءات ما ينفعني في التفاعل مع هؤلاء الطلاب .

وكان أول قرار اتخذته بوعي ، هو أن لا أهتم بما سأعلمهم ، فتلك مسألة بذاتها سهلة . . فأي كلام أقوله ، هو في نظرهم تعليم لهم . . لكنني سأهتم جداً

بما سأتعلمه أنا منهم . . قد يبدو هذا الموقف غير مفهوم للبعض ، لكن بالنسبة لي كان مفهوماً . . فلا سبيل إلى الوصول إليهم إلا بالتعلم وحين أقترب ، فأنا أستطيع أن أعلمهم .

إن أول بوابة للمعرفة بين المدرس وطلابه هو أن يتعرف على أسمائهم . . وعلى منظومة ألقابهم وكنية كل منهم وأسماء العائلات التي ينتمون إليها . . والقبائل . . فمعرفة الأسماء والكنى . . ثقافة بذاتها تعني الكثير لمن يود أن يقترب من الآخرين . . بدأت أتعرف عليهم ، أسمع أسماءهم ، أتبادل معهم التعليقات المناسبة ، والمهذبة . . وأتركهم يتحدثون . . أكثر مما أتحدث . . أصغي إليهم في الصف بشكل لا يحسون به . . لكنني لا تفوتني همسة منهم ، ولا تعليق . ولاسيما تلك التعليقات التي لا أفهمها من الوهلة الأولى ، لكنني أرتاب منها حين يصحبها موجة ضحك من الطلاب فأدرك أن مما قيل كلمة لها معنى ، هم يفهمونه ، ويتجرأون على قوله أمامي يقيناً منهم أنني لن أفهمه . . وكنت أتجاهل ما لا أفهم ، لكنني أسعى لفهم ما قيل خارجاً عن الموقف نفسه . . وأظنني نجحت في التعامل مع طلابي نجاحاً لا شك فيه . . وتعرفت على كثيرين من الطلاب ذوي السمات الخاصة ، والذي يبدو تميزهم حتى في تلك المرحلة . . وهؤلاء كانوا موضع اهتمامي . .

ولأنني لا يمكن أن أسرد ماذا فعلت في تلك الفترة الأولى ، وكيف تكيفت مع هذه الأوضاع المستجدة ، فإنني أترك لأحد أنبه طلابي ، والذي حقق فيما بعد شهرة جعلتني أفخر بأنني عرفته من قبل وإنني أقتبس من شهرته بعض الإضاءات ، أستضيء بها . . ولا أجد في ذلك غضاضة .

سأترك لهذا الطالب آنذاك . . والأديب الشاعر المشهور الآن أن يعيد أمامكم وأمامي إنتاج تلك المرحلة من حياتي في مدرسة الهداية في أيامها الأولى . .

إنه قاسم حداد . . وقد أفرد من كتابه «ورشة الأمل» فصلاً كاملاً يتحدث عن جوانب من فترة تكيفي مع العمل مدرساً في الهداية الخليفة . . .

يقول قاسم حداد :

شاعر يوشك على ذلك

ثقافيا ، يمكنني القول إنني تعرفت في مدرسة الهداية للمرة الأولى على ما يسمى بالبعد الثقافي لمرحلة الدراسة ، وفي الهداية بدأت الفكرة الثقافية والأدبية تنشأ في تصوري . فقد تعرفت على عدد من جمعيات النشاط في مجالات مختلفة . رياضية ، مشاركاً في المهرجانات السنوية للمدرسة (حيث الأستاذ شناف فيصل والأستاذ عبدالوهاب السيسي) ، وفنية ثقافية ، مولعاً بالرسم والمكتبة (حيث الأستاذ خالد زنتوت) ، والأشغال اليدوية لحفر وقطع الآيات القرآنية بالمنشار الناعم (حيث الأستاذ ربحي سالم) ، وأدبية ، لتحرير الصحافة المدرسية وجرائد الحائط (حيث الأستاذ سليم محمد سليم ، وبعد ذلك الأستاذ عبدالحميد المحادين) .

بدأت الدراسة منذ السنة الأولى في مدرسة الهداية تأخذ طابع الورشة النشطة المتنوعة التي يتسابق إليها الطلبة ، خصوصاً الموهوبين منهم في جميع المجالات . وكان المدرسون وقتها يبدون عناية ملفتة في اكتشاف تلك المواهب ، وتشجيعها في سبيل إظهار المعنى المختلف للانتقال إلى مدرسة الهداية . في تلك الفترة كانت ميولي الأدبية تبحث عن سبل للتعبير عن نزوعاتها . وفي الطابق العلوي (إلهي من الذي أمر بهدم الطابق العلوي في مدرسة الهداية؟) حيث الغرف التي درسنا فيها بالجانب الجنوبي ، وفي الجانب الشمالي المكتبة التي يديرها الأستاذ خالد زنتوت ، محاذية لورشة الرسم المسئول عنها الأستاذ زنتوت نفسه ، فهو بالمناسبة فنان يمتلك ذائقة فنية ساهم في تشجيع واكتشاف عدد كبير من فناني المحرق الذين درسوا في الهداية ، وهو ، إلى ذلك ، كان يدير متجراً للهدايا والتحف الفنية في (المنامة) يقع في المدخل الشمالي للشارع المسقوف ومتجر روما ، مقابلاً لمبنى (تشارترد بنك حالياً ، الشرقي سابقاً) موازياً لعمارة المطيري الشهيرة بالشارع البحري آنذاك ، والممتد من رأس الرمان شرقاً

إلى مستشفى النعيم جنوباً مارا بفرضة (مرفأ) المنامة .

كنت إذن من بين أعضاء لجنة المكتبة الدائمين في مدرسة الهداية ، حيث كانت الفرصة متاحة أكثر للحصول على بعض الكتب التي لم أكن قادراً على شرائها . أثناء ذلك بدأ نشاطي مساهما في إعداد جرائد الحائط في الفصل ، ثم تطور الأمر لكي أقود العمل في فريق جريدة الحائط فأقوم بتخطيط الجريدة ، وكتابتها كاملة بعد استلام مساهمات الطلبة الآخرين . وأذكر أن الروح الوطنية والقومية والحس السياسي كانا يتفجران في ذلك الجيل من طلبة مدرسة الهداية ، بحيث كنت أضع التصميم العام للصحيفة في شكل كلمات كبيرة مفرغة تكتب بداخلها المقالات والقصائد ، وأذكر على الأقل جريدتين وضعت لهما تصميماً على شكل كلمتين ، أثيرتين :الأولى كلمة (فلسطيننا) ، والثانية كلمة (حريتنا) . وكان بعض الأساتذة الفلسطينيين يستقبلون تلك الاجتهادات بحماس يشجعني على كتابة المقالات الحماسية المتصلة بالقضايا الوطنية والقومية ، الأمر الذي يحول تلك الجرائد مجالا يتنافس فيه المتحمسون من الطلبة على نشر مشاعرهم وأفكارهم . وكانت هواية القراءة التي تستحوذ على وقتي تساعدني على كتابة المقالات واختيار القصائد من مكتبة المدرسة . وأذكر أن الأستاذ سليم محمد سليم مدرس اللغة العربية في السنتين الأولى والثانية قد اهتم بما أكتبه في مادة الإنشاء لكي يشجعني على قراءة بعض الكتب المتصلة بفلسطين ، وأذكر أنني كنت صديقاً للأستاذ سليم لدرجة أنني كنت أراسله عندما يسافر في العطلات الصيفية ، وكنت أتلقى منه رسائل من عنوانه في مخيم عين الحلوة بلبنان ، فهو من لاجئي عام ١٩٤٨ المقيمين في مخيمات لبنان .

بعد ذلك سوف أكون لافتاً لنظر الأستاذ عبد الحميد المحادين ، الذي سيدرسني مادة اللغة العربية ، ويتعرف على نزوعي الأدبي الذي يحاكي ميوله الأدبية ، ليكون أول من يكتشف موهبتي الشعرية ، ويهتم بي اهتماماً خاصاً ، ويجعل فكرة أن أكون شاعراً (حسب تعبيره آنذاك) ممكنة .

الصداقة المبكرة التي نشأت مع الأستاذ المحادين ، كانت نموذجا غير تقليدي لعلاقة الأستاذ بالتلميذ الموهوب ، ويمكنني الآن القول أن الأستاذ كان يرى في تلك العلاقة محاولة لتحقيق الذات ، فالمحادين نفسه كان وقتها مولعاً بكتابة الشعر من جهة ومتورطا في مهنة التدريس من جهة أخرى ، فكأنه ، فيما يدعم الموهبة الشعرية ، كان يعبر عما يمكن وصفه باكتشاف الذات في الآخر . كان المحادين وقتها يكتب شعرا لا يجد من يقرأه ويحبه سواي . فحين صادف لديه تلميذا يعلن عن مشروع موهبة أدبية ، كان حماسه للأمر متوقعا لمشروع شاعر محتمل . هكذا أستطيع أن اقرأ طبيعة الصداقة التي هيأت لي مناخاً صحياً لكي أتعرف على الشعر بصورة أكثر رحابة مما فرضته علينا بلادة المقرر المدرسي .

المشكلة في ذلك المدرس ، الذي جاء تواً من قرية الكرك الأردنية ، أن عليه القيام بتدريس فتية لا يفترقون عنه في العمر إلا قليلا . كنا فتية في واحدة من ذروات المراهقة الممزوجة بما لا يحصى من الهموم والهواجس ، وكان على الأستاذ أن يستوعب نماذج صعبة من الشباب . في حين هو ليس بعيداً عنهم في الهموم . وإذا رأينا إلى ذلك الأمر من جانب آخر ، سوف نتيقن الآن أن تقارب السن آنذاك كان أهم الأسباب التي هيأت ليكون ذلك الأستاذ ، دون غيره من المدرسين ، قادراً لأن يقيم علاقة صداقة منقطعة النظير في مدرسة الهداية أوائل الستينات ، ولعل كثيرين من طلبة تلك الفترة في مدرسة الهداية يستطيعون تذكر المشهد بصورة واضحة الآن .

لقد كان المحادين أصغر أعضاء هيئة التدريس سناً في المدرسة ، وأكثرهم تميزاً بصداقته مع الطلبة . أكثر من ذلك أنه كان أكثر الأساتذة قرباً من حياة المحرق المدينة والناس . واختلافه عن زملائه المدرسين سوف يرشحه دائما للمزيد من المشاكل التي كان يتصدى لحلها على طريقته ، بمعزل عن تزمت الإدارة المدرسية بقيادة الأستاذ عبدالله فرج ، الذي سيكون من حقه وقتها أن ينظر إلى ذلك الأمر بشيئ من القلق .

لم يكن الأستاذ المحادين متمرداً ولا عاصياً لإدارة المدرسة ، ولكنه أيضا لا تستهويه الطريقة التقليدية التي تستدعي اللجوء الدائم لحدود الإدارة المبالغ في صرامتها وتزمتها . ويمكننا ، بمقارنه طريفة مع الأساتذة الآخرين ، أن نلاحظ الفرق المألوف والمحبب عند المحادين : فهو لم يعرف (مثلاً) بالصرامة القاسية التي أشتهر بها الأستاذ عادل سفيان رحمه الله ، مدرس اللغة الإنجليزية الذي كان يتفنن في ضرب الجودو على عنق الطلبة . كما لم يكن المحادين محافظا بصورة مبالغ فيها مثل الأستاذ وجيه نزال مدرس الدين . ولم يكن شخصية أرستقراطية متأنقا في ملبسه ومظهره مثل الأستاذ خالد زنتوت الفنان مدرس الرسم والقابع دوما في برجه العاجي في الطابق الثاني من المدرسة . ولا نراه مأخوذا بالمشاريع (التجارية) في خدمات المدرسة مثل الأستاذ ربحي سالم ، مدرس الرياضيات ، الذي يستعين بأعضاء جمعية الأشغال ، التي كان يتعهدها ، للعمل في مقصف المدرسة الذي كان أيضا يتولى إدارته .

أكثر من هذا كله ، فأنك لا تصادف كل يوم مدرساً قليل الركون في غرفة المدرسين مثل المحادين ، فمن المألوف جداً رؤيته خلال الاستراحة بين الحصص واقفاً مع مجموعة من الطلبة مستغرقا في أحاديث لا علاقة لها بالدرس .

وأذكر أنه كثيراً ما كان يحرص على مشاركة طلبته المناسبات وخصوصا في نهاية العام الدراسي . وهذا ما كان يجعل المحادين شخصية لا يستطيع المرء لأول وهلة أن يجزم ما إذا كان : مدرساً أم طالباً في تلك المدرسة . وليس من المتوقع كثيرا أن تصادف مدرساً ، غير مدرسي التربية الرياضة ، مولعا بكرة القدم ، وهذه واحدة من الهوايات التي كانت تقرب المحادين من قطاع كبير من الطلبة . فقد أصبح المحادين واحداً من أشهر مؤيدي فريق المحرق ، ويكون الأمر مشوقا أكثر إذا عرفنا أن أحد أشهر لاعبي فريق المحرق آنذاك كان طالباً معنا في نفس الفصل الذي يدرسنا فيه المحادين ، وهو الشيخ حمد بن أحمد الخليفة .

ثمة لحظات كان السجال بيننا وبين المحادين يصل ، لفرط الألفة ، إلى

الانفعال الحار ، كما لو كنا فتية حي واحد ، ولكونه أصبح بحكم المعايشة يحسن لهجة المحرق وأساليب التعامل باللهجة البحرينية الشعبية بمحمول مفرداتها الماكر ودلالاتها المغلقة على غير أهلها ، فهو ، مثلاً ، لم يتردد في اختراق من يحاول التطاول عليه متسترا باللهجة وكاشفاً تخابثنا ، دون أن يشكل ذلك أية حساسية من أي نوع لدينا جميعا . بل أننا سرعان ما ننفجر ضحكاً للموقف الذي نجد أنفسنا فيه مكشوفين أمام معلم أصبح يعرفنا أكثر مما كنا نعرفه ، وربما أكثر مما كنا نزعم معرفة أنفسنا في ذلك الوقت . أظن أن تلك أسباب جعلت المحادين صديقا جديراً لأن يحزن بعضنا أويعترض إذا وضع في فصل لا يدرس فيه هذا الأستاذ .

وحين أتذكر الشأن الأدبي في تلك البرهة ، سوف أصادف في المحادين القارئ الذي يحببك في الأدب ويشعرك أنك الشاعر الوحيد الذي يمكنه أن يكتب قصيدة مهمة في هذا الكون . بالنسبة له كان يتحدث عن شيء يحبه ، وقد وجدني مولعاً بالأدب بصورة تهدد علاقتي بالواجب المدرسي . لم أشعر أن ذلك الشأن كان يشغله كثيرا ، ربما لأنه لم يكن يخشى على الموهبة الشعرية (التي ثبت فيما بعد أنه واثق بها أكثر مني) إذا هي خسرت شيئا من الدرس ، مادامت ستؤكد ذاتها بجدارة . ولعله لم يكن بعيدا عما كان يعتمل في نفسي . لقد كانت أحاديثنا في الأدب والشعر تستغرق منا ساعات طويلة لا تسعها الفراغات بين الحصص في المدرسة ، مما جعلنا نواصل الاستغراق فيها بجلسات طويلة كنا نقضيها لديه في سكن المدرسين الذي كان وقتها في مبنى بقرب وزارة التربية والتعليم في المنامة ، ومن ثم في سكن آخر خصص للمدرسين الوافدين في المحرق بمنطقة القاعدة القديمة . كنت والصديقين ، زميلي الدراسة ، خليفة وعبدالوهاب العامر ، نقوم بزيارات منتظمة للمحادين لمواصلة الأحاديث المشوقة في حقل كنت أكتشفه بولع لا يضاهى . ولقد تعرفت من خلال تلك الأحاديث على الكثير من قضايا الشعر العربي الحديث الذي كان أستاذي

نفسه يجد متعة في الصدى الرائع منعكساً في المحاولات الشعرية التي كنت أحملها إليه في كل مرة ، ويقوم هو بوضع ملاحظاته الكثيرة المتعلقة باللغة والقدرة على التعرف على مفهوم الشعر .

وكان في مجلة (الآداب) ودواوين السياب ونازك الملائكة وصلاح عبدالصبور ونزار قباني وحجازي والفيتوري وغيرهم مادة خصبة لنقاش لا ينتهي . وحين استوقفني كتاب نازك الملائكة واعتراضاتها الخليلية على تجربة شعراء مجلة (شعر) المحتدمة في مجلة (الآداب) ، أثارتني مسألة البحور والأوزان التي لم تكن بالنسبة لي غير ضربٍ من الألغاز والعمليات الرياضية التي كانت سبباً في تخلفي في مادة الرياضيات .

وأذكر أنني بدأت أيامها أطرح على الأستاذ المحادين الأسئلة المتعلقة بالخليل وأوزانه ، فقد استثارني الزعم الرئيسي الذي كانت تتوقف عنده نازك الملائكة في معظم أطروحتها . وأذكر أن المحادين كان يتفادى الحديث عن ذلك الأمر في كل مرة ، حتى أوشكت على الظن أنه لا يعرف تلك الأوزان . وفي ساعة من ساعات انهماكنا في المناقشة أعدت عليه السؤال معبرا عن رغبة في أن يعلمني بحور الخليل بن أحمد ، فنصحني بصرامة : ماذا تريد بالقوانين الخليلية ، لم تعد بحاجه لها الآن ، انك تكتب شعراً موزوناً بدون أن تعرف الأوزان . اسمع نصيحتي ، إذا أردت أن تكتب الشعر لا تشغل نفسك بتعلم الأوزان ، لأنني أخشى انك ستفقد الشعر إذا شغلت نفسك بغيره .

لقد أذهلني ذلك الموقف لحظتها ، لقد كان ذلك (في اعتقاد تلك اللحظة) نقيضاً واضحاً لكل ما تتمسك به وتراهن عليه نازك الملائكة ، وهي من هي في تلك اللحظة من لحظات تجربة الشعر العربي الحديث . فعدتُ أراجع كل تلك الدوافع التي شحنتني للظن بأنني أمام شرط بمثابة الامتحان العظيم لابد من اجتيازه لكي أكون مؤهلا وجديراً بمزاعم الشعر . عدت لأكتشف أن ثمة مساحة إضافية من التحدي يقترحها عليّ شخص يؤكد موهبتي من جهة ويشكك في

حدود الخليل وشروط نازك الملائكة من جهة أخرى .

الآن ، أعتقد أن تلك اللحظة كانت أول المواقف التي وضعتني في مواجهة الحرية ، ثم لم تكف عن التأجج في داخلي طوال الوقت .

بدأت منذ ذلك الوقت في فهم الأسرار الفنية التي يحتج بها أصحاب التجربة الجديدة في الشعر الذين يشكلون لنازك الملائكة خطيئة لا تحتمل . ووجدت في أستاذي ، ربما من غير أن يقصد ذلك مباشرة ، انحيازاً مبكراً لحريات الشاعر المتوقفة على قدرته على الإبداع . ولعل في ذلك الانحياز تعبيراً لا شعورياً عن النزوع الشعري الذي كان يعتمل في روح المحادين نفسه ، وهو الذي كان يكتب قصائده الأولى أيضا ، (مازلت أحتفظ ببعضها بخط يده) كما لو أنه قرر أن يدفعني إلى الحد الأقصى من التجربة التي على موهبتي أن تجابهها بالمزيد من الحرية .

***

الأستاذ أو المدرس ، ثمة فرق

اشتعلت عندي حرائق الشعر أكثر مما كانت .

كان الحوار مع الأستاذ المحادين يتواصل بصورة تتجاوز الوقت والمكان ، حتى أننا كنا نواصل حوارنا الأدبي من خلال الرسائل التي أصبحنا نتبادلها في العطل الصيفية ، رسائل يكتبها لي من الكرك بالأردن وأكتبها له من البحرين ، ولا أزال أحتفظ برسائله المشحونة بالنقاش الأدبي ، على ورق أزرق رهيف اشتهرت به رسائل سنوات الستينات . لم يكن المحادين يكترث بالدرس إلا بوصفه مشروعاً إنسانيا من شأنه أن يفتح أمام الموهبة الأفق اللانهائي لمستقبل الشعر الذي كنت أحلم به ليل نهار . أتذكر أنه كان يقول لي : أنك ترى طريقك جيداً فلا تفكر في وضع القوانين أمام الخطوات .

وفي غمرة ذلك الحماس الذي كان يفضح الوعي الاجتماعي والسياسي المتفجر في محاولاتي الشعرية ، كان المحادين يمعن في صقل روح التفلت والجرأة لديّ من حيث لا يدري ، أذكر أنه قال لي ذات مرة : (الشاعر قدره أن يكون

شجاعا ، قلْ ولا تخفْ أو خفْ ولا تقل) .

وكان الباقي يتوقف على خبرتي في الحياة وفهمي لها ، ثم قدرتي على جرأة الخيار . والحق أن مثل تلك الاضاءات المبكرة التي كانت خليطا غامضا من الشعر والوعي الاجتماعي ، أشعرتني بالثقة الغامضة في اختياراتي الصادرة من طبيعة حياتي اليومية . كان المحادين محرضا غير معلن للنجاة من التقليد في الكتابة . نزعتُ إلى المغامرة حد التطرف ، وبقي هو في حدود المحافظ الأليف .

أذكر أنه عبّر عن رأيه في التقليد الشعري بصورة غاية في الطرافة دون أن تخلو من دلالة فنية ، بعد أن احتدم نقاش في الفصل بيننا وبين بعض طلبة الفصل الذين انتصروا للشعر العمودي ، في مقارنة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، كان على سبورة الفصل نص نثري لموضوع إنشاء يملأ الحيز ، تناول المحادين ممسحة الطباشير وقام بمسح النص في وسط السبورة ليقسم النص المكتوب إلى نصفين متقابلين قائلا : هذا هو الشعر القديم ، صدر وعجز ، يمكن لأي شخص يحسن البحور أن يكتب نصاً على هذه الشاكلة ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون ذلك شعراً ، أنها قيود يكتب فيها العرب منذ مئات السنين ، لابد للشاعر الحديث أن يكسر هذا القالب .

بالرغم من طرافة التشبيه وفرط السخرية فيه ، (وربما بسببهما) لم أنس ذلك الموقف أبدا ، لأنه مسَّ لديّ الحس الغامض بالشكل مبكراً والجرأة عليه ، فوجدت من الصعب أن أدرس قديم الخليل بن أحمد لكي أعيد إنتاج القالب القديم بكلامي الجديد .

في مدينة المحرق ، لم يكن وقتها ما يشير إلى وجود كثيرين يمكن أن يقبلوا مثل ذلك الاقتراح الساخر الذي ينقض النموذج المقدس للكتابة الشعرية . وقتها بدأت أدرك معنى أن يكون الشاعر شجاعاً : يقول ولا يخاف .

واستعدت لحظتها دلالة اعتراض مدرس آخر في فصل آخر في نفس المدرسة في سنة سابقة ، عندما كنت أختار بعض قصائد حديثة لكي أنشرها

في صحيفة الحائط ، عندما كان ذلك المدرس يقول لي : هذا ليس شعراً ، حاول أن تختار قصائد من عيون الشعر العربي لوضعها في الصحيفة .

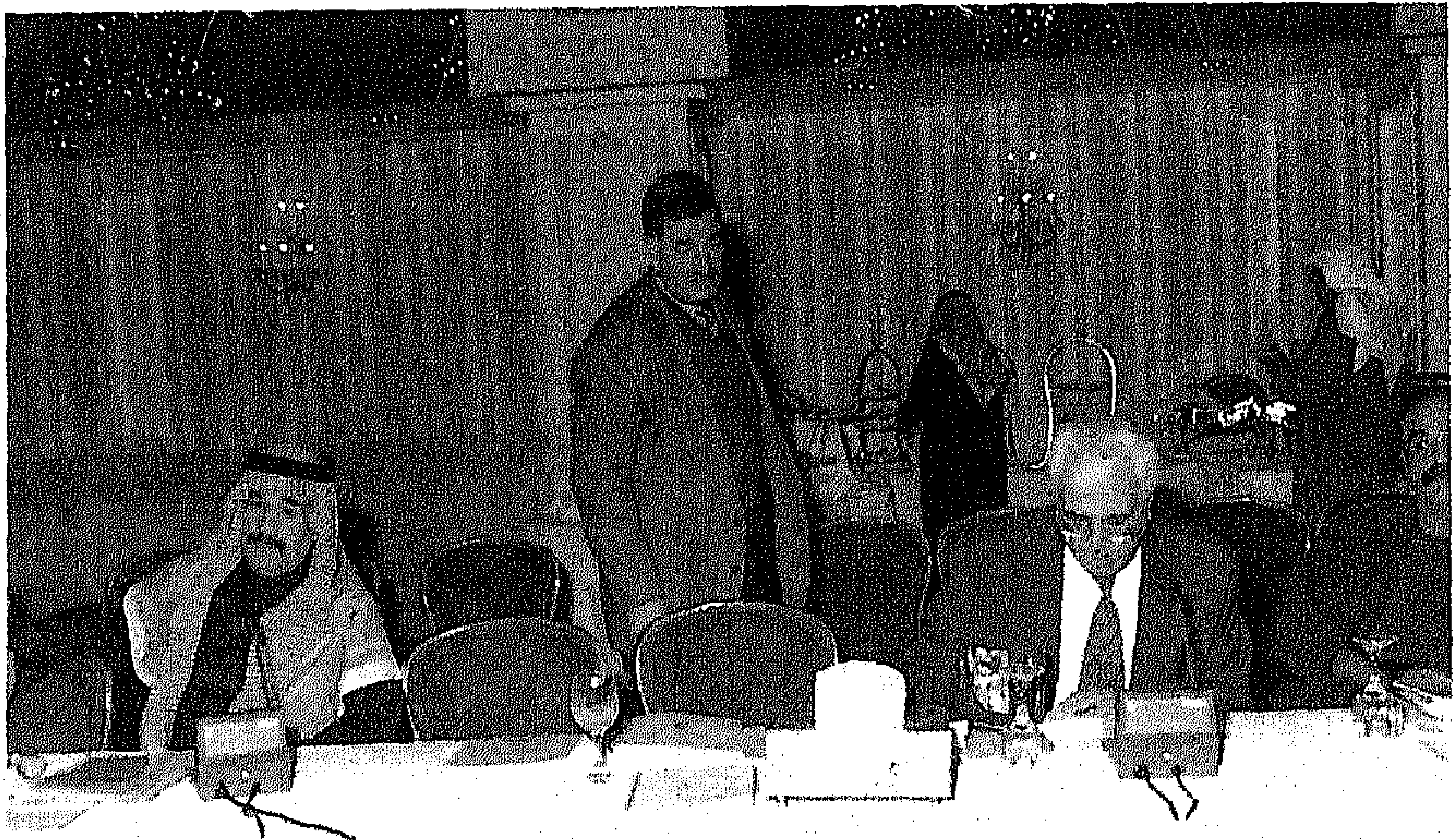
ذلك هو ما كان يميز الأستاذ المحادين عن الآخرين في تلك الفترة ، فهو لم يكن صديقا للطلبة لكونه اجتماعياً أكثر من سواه ، ولكن لأنه كان يتصل بالتجربة الحديثة للشعر العربي ، الأمر الذي يجعله منحازا للمستقبل أكثر من سواه . كان الآخرون مدرسين ، أما هو فقد كان أستاذا بالمعنى الحضاري للكلمة . فالفرق بين المدرس والأستاذ أن الأول سيكون مخلصاً دائماً للماضي ، المنهج المقرر ، في حين أن الثاني سيكون مخلصا للمستقبل ، ابتكار المخيلة .

الأستاذ المحادين أصبح من المعالم الحميمة في مدرسة الهداية ، وليس من غير المتوقع أن يكون هو ، من دون أساتذة كثيرين ، قد تصدى لوضع كتاب خاص في تأريخ مدرسة الهداية .

مدرسة الهداية ، بهذا المعنى ، كانت البداية الحقيقية لما سيأتي لاحقا ، على صعيدين : الانشغال النضالي والنزوع الأدبي . ولهذا فإنني أعتقد دائماً أن الأهمية التاريخية لمدرسة الهداية لا تقتصر على طبيعتها التعليمية والأدبية فحسب ، ولكنها أيضاً تتصل بالروح النضالية التنويرية التي كان المناخ العام في المدرسة ، من مدرسين بحرينيين وعرب ، يدفع ويشجع الطلبة على الاكتشاف والانهماك فيهما . أذكر أن ثمة روحاً شاملاً كان يجمع بين الطلبة والمدرسين بصورة تجعل تلميذاً صغيراً مثلي يجرؤ على مساءلة أستاذين بحرينيين عن الأسلوب المناسب للتعبير عن الروح الوطنية ، فأحصل من الأول على محاضرة في التعقل ودرسٍ في التوجيه المعنوي ، ومن الثاني درسٍ قاسٍ في الكف عن مثل هذه الحماقات الحماسية ، لأكتشف فيما بعد أنني قد أخطأت العنوان . وما كان عليّ إلا أن أبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة في مكان آخر خارج المدرسة . خصوصاً بعد تجربة مباشرة في المظاهرات التي كانت تخرج في المناسبات القومية المتلاحقة في تلك الأيام .



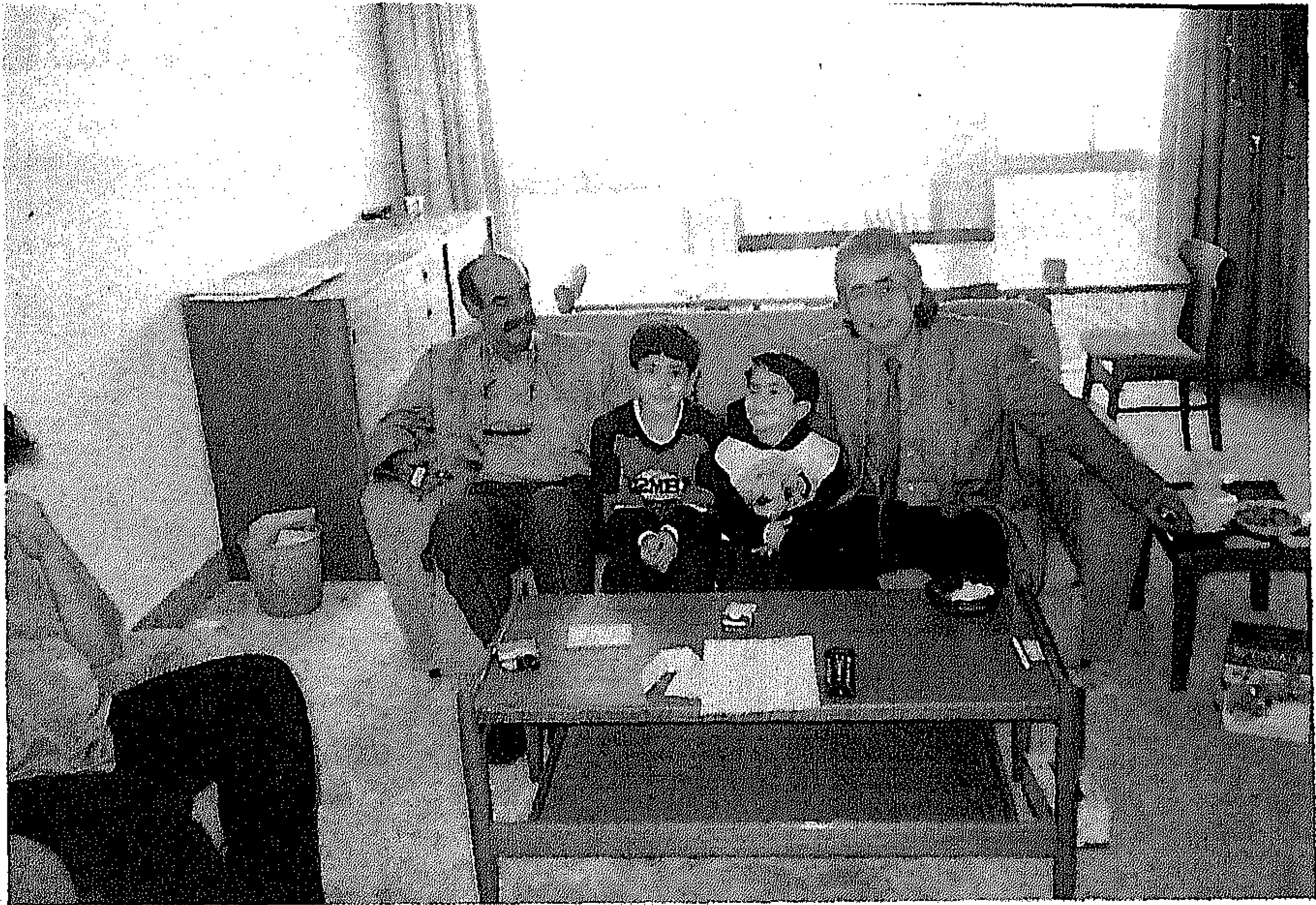
عبدالحميد المحادين ، د . عبدالقادر فيدوح ، الشاعر سميح القاسم ، قاسم حداد ،
د . عبدالكريم حسن ، د . سميرة بن عمو



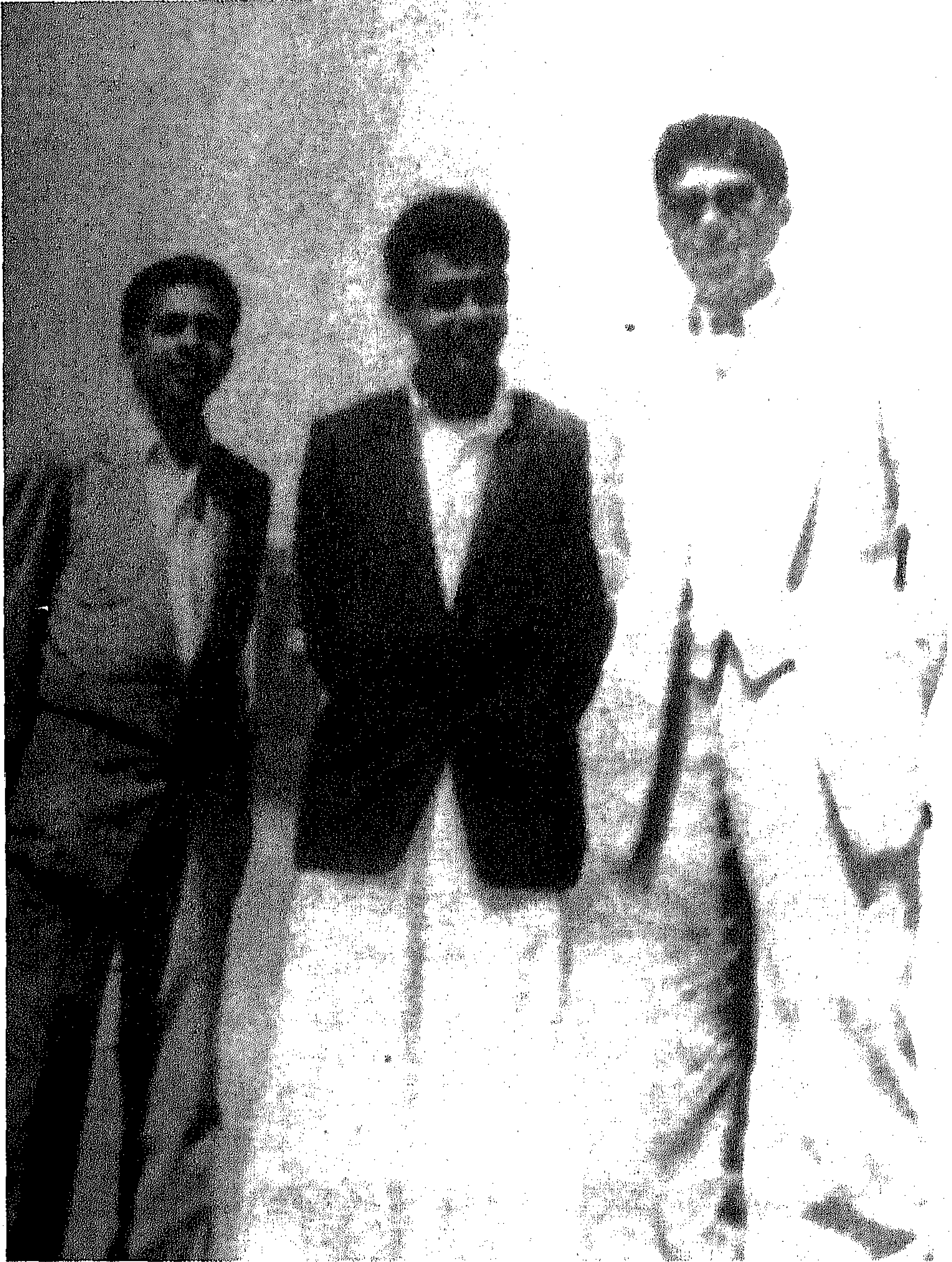
قاسم حداد ، عبدالحميد المحادين



المحادين ، قاسم حداد ، إبراهيم غلوم ،الروائية فاطمة العلي، محمد البنكي .



الدكتور كمال أبو ديب ، قاسم حداد وبينهما سريان وسلمان أبناء عبدالحميد المحادين



الحداد يتوسط المحادين وعبدالوهاب العامر

(١٦)

❖ سأقول عن قاسم.. قاسم ما أكثرك.. ما أجملك.. الشعر لك.. والحب لك

❖ كان يقفز فوق السنوات.. يذهب إلى المستقبل، ليتجاوزه ويجتازه

❖ كان يضعني أحياناً أمام نفسي حين أكتشف أن ما أعرفه قليل عما يسأل عنه

❖ حين كنت أتهرب من إجابته عن بحور الشعر كان يظن أنني لست من العمق في هذا الجانب..

❖ فاجأني ذات يوم قائلاً علمني بحور الشعر.. هنا ما كنت محرجاً لإلمامي التام بها

❖ لم أهتم بما دار في ذهن قاسم وكنت جاداً في أن لا أعلمه بحور الشعر.

❖ حين لا يتفق قاسم مع نحو سيبويه.. فإنه يصنع لشعره نحواً جديداً يزيد شعره جمالاً

❖ أمام قاسم لا أستطيع أن أزعم أنني أكتب شعراً

❖ حين سألوني إن كان شعر قاسم موزوناً قلت: «كل ما يكتبه قاسم موزون»

❖ ما الذي كان يزعج قاسم في مدرسة المنامة التي انتقل إليها بعد الهداية؟

❖ قال لي أنت تعرف دورك في تجربتي.. سواء اعترفت أو لم تعترف! فقلت له أنا لا اعترف..

❖ في أمسيته الأخيرة شعرت به بين قومه ومعجبيه.. يلتفون حول صوته كأنما اكتشفوه لأول مرة!

في الهداية الخليفية بدأت مشواراً اعتبره خصيباً وثرياً ، مثلما يقيمه كثيرون غيري ، فقد كنت منفتحاً على أن أتعلم وأُعلم ، وكنت أملك من القدرات الإنسانية ما يجعلني أُقيم جسوراً مع الآخرين يسهل العبور منها وإليها . . فإنا في هذه الحلقة أُدلي بشهادتي عن قاسم . .

مع الهيئة التعليمية كان بدء التعارف والتآلف والتخالف ، فلقد كان في الهداية مدير هو الأستاذ عبدالله فرج تغري شخصيته بأن تتعرف عليها ، لا لأنه ودود جداً ، لكن لأنه صارم جداً وكما يقال في اللهجة المحرقية كان «حقانياً» وهذه سمة تروق لي في الأشخاص ، سيما وأن الذين يبدأون الحياة من منطلقات ضعيفة لأسباب كثيرة ، يولعون بالأشخاص «الحقانيين» أملاً في أن يُنصفوا لأسباب تتعلق بجهدهم ، لا لأسباب تتعلق بغير ذلك ، وأن تقييم الإنسان بما يعرف هو الأساس إذا كان متعذراً أن يُقيم بمن يعرف . .

من هنا بدأت مسألة التعارف . . وقبل أن أشير إلى الزملاء . . سأذهب إلى الطلاب . . وإنني لمغرم بالتعرف على المميزين منهم . . أسارع بالتعرف على كل من يمتلك سمات توحي بأنه خامة لشيء مهم مستقبلاً . . هؤلاء موضع نظري .

والحقول التي يمكن أن يتجلى فيها هؤلاء المميزون في الأيام المبكرة من حياتهم ، وفي ذلك الزمن هي الحقول الرياضية ، والأدبية والفنية ، ولأن مدارس البحرين بشكل عام والهداية بشكل خاص كانت حاضنة لهؤلاء الأنواع من المميزين . . وأنني ابدأ من الالتفات إلى المميزين في دوائر يتسع بعضها وراء بعض . . دائرة الصف . . ثم دائرة الساحة . . ثم دائرة المجتمع . .

ففي الصف يسهل العثور على المميزين . . الذين تبدو فيهم ، ومن خلال سلوكهم ومواقفهم علامات النجابة وعلامة الوعد بما هو حصاد جيد أو ممتاز . .

وما دمت قريباً من حديث كتبه قاسم حداد ، وأوردت جزءاً من نصه المقتبس من «ورشة الأمل» الذي تحدث فيه عني متناولاً ذكرياته معي . . فلا بد من أن أروي من جانب آخر ذات الحكاية . . .

كان في أحد الصفوف مجموعة من الطلاب الذين يبدو عليهم النضج المبكر قياساً بزملائهم . . فهم لا تخطئهم عين المدرس بمجرد ان يبدأ التعامل معهم . .

من هؤلاء كان قاسم حداد . . وأول إشكالية كانت كيف يُلفظ اسم قاسم . . هل هو قاسم أم بالجيم جاسم . . واعتقد أنه ذات مرة ألمح لي أن الاسم المحبب إليه هو قاسم . . لماذا لا أدري . . لكنني رغبة مني في أن أكون مقبولاً لديه ، ولا أتيح له أن ينفر مني أخذت بهذا التلميح وصرت أناديه قاسم . . وإن كنت أنادي من يحملون ذات الاسم في مواقع أخرى جاسم . . هذا أول التمييز لقاسم . . مراعاة ما يحبه في اسمه . .

ليس سهلاً أن أتذكر تماماً تلك الأيام وهي قبل سبعة وأربعين سنة أو أكثر ، ما هي الذاكرة التي تستعيد سبعاً وأربعين سنة .

كان يلبس الثوب أحياناً ولكن غالباً يلبس البنطال والقميص وهذا أول مؤشر على أنه لا يؤمن بالرتابة ، بل ويتطلع إلى مخالفة ما هو مألوف . .

كان قاسم لا يستخدم النظارة بينما كنت أنا أستخدمها . . وهذا يعني أن رؤيته الفيزيائية صحيحة وسليمة . بينما أنا كنت أتعرف على الأشياء بالشبهة .

لم أره في أي من ملاعب المدرسة يلهو مع الطلاب في الفسحات . . وحيث ينتشرون في الملاعب القليلة المتاحة في مدرسة الهداية . . كما كنت افعل انا ، وكنت اشارك الطلاب في لعبة كرة السلة بشكل خاص ، ولا سيما ان مدرسة الهداية كانت ملأى بلاعبي السلة ممن وفدوا الى المدرسة من الحد . .

ولفترة طويلة كانت للحد فرق في السلة مرموقه . . لكن في كرة القدم . . لم يكونوا كذلك . لم يكن يتقافز مع الطلاب أو يلعب الكرة أو يمارس اللهو البدني من عراك أو شيء من هذا القبيل . . يبدو على قاسم أنه يميل إلى التفكير والتأمل ، لكن ليس إلى الحد الذي ينشغل فيه عن الآخرين . . وإنني كنت دائماً أوجه الكلام في الفصل له بشكل لافت لأنني أجده يقظاً معي دائماً ، وأجد في أجوبته ما يختلف عن أجوبة الآخرين . . وكنت أترقب أجوبته المختلفة بشيء من الانتظار . . لكنني اعترف هنا أنني لم أكن قد بلغت من المعرفة الحد الذي يجعلني انتظر قاسماً لأوجه إجاباته أو أقيم لها ميزاناً تقييمياً ، بل كنت انتفع ببعضها ، وأتخذ بعض ملاحظاته مفاتيح تهمني معرفتها .

لا أذكر أنني ناديته وكان منصرفاً تماماً عما يجري في الدرس . . كان قاسم قلقاً ، يتفجر بالأسئلة ، مكرساً للاستفهام عن كثير من الأشياء . . ما الذي كان يدور في رأس هذا المحرقي الأسمر ، وهو يصُفّ الأسئلة وراء بعضها . . كان يثير قضايا ، لم يكن أحد في الفصل يدرك أهميتها ، وأحياناً يثير مسائل أنا لا أدرك أيضاً أهميتها ، رغم أنها كانت شغله الشاغل . . يذكر أسماء غير متداولة في مثل هذا المستوى الدراسي . . يتحدث عن شناشيل إبنة الجلبي ، ويتحدث عن بدر شاكر السياب . . يذكر نازك الملائكة . . ونازك هذه كنت قد اقتنيت أحد دواينها في نهاية الخمسينات ، وقصتها مع القصيدة الحديثة كانت تشغل كثيرين من الدارسين . .

قاسم كان يقفز فوق السنوات . . يذهب إلى المستقبل ، ليتجاوزه ، ويجتازه ، كنت أحس أنه كالزمن يتغير كل لحظة ، ولا يبقى هو في أي لحظة . .

«ماذا تريد يا قاسم»؟ . . كنت أسأله . . وكان كل مرة يقول لي أنه يريد شيئاً . وأحياناً لا أدري ماذا يريد . . يقول لي ما هو الشعر؟! يقول لي هل ما أكتبه شعر؟ . . يقول مرة ما هي بحور الشعر ، وكنت أجيبه إجابات عفوية بسيطة من خلال تصوري لهذه الأشياء ، ولم أكن قد تعمقت في شيء من هذه

الموضوعات عن طريق دراسات منهجية ومراجع عميقة . . كان الأمر مبكراً بالنسبة لي . . لكن قاسم كان يضعني أحياناً أمام نفسي حين اكتشف أن ما أعرفه قليل عما يسأل عنه دائماً ظناً منه أنني أعرف . . وحين كنت أتهرب من إجاباته التفصيلية كان يظن أنني لست من العمق في هذا الجانب كما يتخيل . .

إلى أن فاجأني ذات يوم قائلاً علمني بحور الشعر . .

وللحقيقة فإنني هناك كنت غير محرج . . لأنني كنت ألم ببحور الشعر إلماماً لا مزيد عليه . . أعرف البحور ، عددها ، وتفعيلاتها ، وجوازاتها ، وعيوبها . . بل كنت تتلمذت على يد زميل لي في دار المعلمين هو الزميل حسين الشيخ ، فقد كان إذا سُئل عن بحر بيت من الشعر . . ينقر بيده على الدرج كما يفعل الصفارون ويقول هذا من بحر الرجز ، وهذا من المتدارك ، وهذا من المجتث ، ومرة جئناه بشيء غريب ليعرفه . . وبسرعة نقر على الطاولة . . وقال هذا من «مخلّع البسيط» . . . ولم نكن نعرف مخلع البسيط إلا من تلك اللحظة . . وقال هذا من وزن : مستفعلن فاعلن فعولن . . .

تهربت من قاسم وقلت له . . لا حاجة لك ببحور الشعر . . .

ومرت أيام . . وأعاد علي الاقتراح . . فقلت له لا حاجة لك ببحور الشعر . . وعلت على شفتي قاسم طيف ابتسامة خفيفة وكأنه يقول بينه وبين نفسه . . اعترف أنك لا تجيد معرفة هذه البحور . . وفاقد الشيء لا يعطيه! لم أهتم بما دار في ذهن قاسم ، وإنما كنت جاداً في أن لا أعلمه بحور الشعر . . لا لسبب سوى أن معرفة بحور الشعر لا تخلق شاعراً ، وقلت له يومها أن بحور الشعر ، التي استنبطها الخليل ، كانت مسبوقة بالشعر نفسه . . فلا امرؤ القيس ولا الشنفرى ولا تأبط شراً- وكنت أعرف أنه يقرأ كثيراً هذا النمط من الشعراء - لا يعرف أحد منهم البحور ولا الأوزان . . هذه موهبة إذا تمكنت من وجدان إنسان صار شاعراً دون أن تكون واضحة في ذهنه القواعد . . بحور الشعر ، كالنحو تماماً

استنبطت من النصوص ، فهي مجرد معرفة . . . لا تثري الموهبة ولا تثري القابلية . .

أتحدث عن قاسم قبل أكثر من خمسة وأربعين عاماً . . . كان قاسم يعرض علي قصائد يكتبها . . وكنت أقرأها بإعجاب لا حدّ له ، لكن بعض قضايا النحو كانت تخفى على قاسم فيما يكتب . . وأقول بعض وليس كل . . وقبل أيام كنت أستمع لقاسم يلقي آخر ما كتب من أشعار في أسرة الأدباء والكتاب . . وكان شعره في مضامينه وصوره ، وتجلياته رائعاً ، إلا أنني أيضاً التقطت من قاسم شيئاً من ذات الهفوات النحوية . . فقلت في نفسي ، النحو وحده لا يصنع شاعراً ، ولكن للشاعر نحوه ، وإن قاسم حين لا يتفق مع نحو سيبويه ، فإنما يصنع لشعره نحواً جديداً يزيد شعره جمالاً .

«كنا نفترق في الصيف . . لكن حوار الشعر كان موصولاً بيننا وكنا نتراسل . إنني مهمل في التوثيق ، فلا أحتفظ بكثير من رسائل أصدقائي . . وكان قاسم يفاجئني بأن يرسل لي أحياناً نسخة من قصيدة أو أبيات أو ملاحظات أو شيئاً من رسائلي إليه . . وكان ذلك يفرحني . .

لقد انتقل قاسم من الهداية إلى الثانوية . . وكان يدور حوار بينه وبين أحد أساتذة المدرسة . . وهو المرحوم مدرك القصير ، مدرس لغة عربية ، من لبنان ، له طريقة محببة في الحديث والشرح لكنه كان على خلاف مع الشعر الحديث ، شعر التفعيلة ، أو شعر الإيقاع فيما بعد . . وكان يحاور قاسم مقللاً من حظ هذا الشعر الحديث من البقاء . . وإنني متأكد أن ذلك كان يزعج قاسم . . وكان يكتب إلي معبراً عن هذا الانزعاج . . فكنت أبث فيه الطمأنينة إلى أن ما يكتبه هو شعر ، وشعر له مستقبل . .

كان قاسم كلما أهداني كتاباً من كتبه ، يكون إهداؤه قصيدة مكثفة ، وإنني لا أتحاشى الاعتراف بأنني أترقب كتبه لأرى ماذا كتب لي . . .

على كتابه ، ما أجملك أيها الذئب . . . جائع ومتعفف عن الجثث . .

كتب لي : أستاذي وصديقي الذي يجعل الذئاب اكثر جمالاً بدماثته . .

وكتب لي على الجزء الأول من أعماله الكاملة :

صديقي العزيز

هذا هو الأفق الذي رافقت خطوتي الأولى إليه . . .

ما أنبلك يا قاسم . . .!

وتمضي الأيام ونمضي معاً . . وكتبت في البحرين الثقافية مقدمة لحوار أجريته مع قاسم . . وكانت هذه المقدمة من أكثر النصوص قرباً من عالم قاسم كما رأيته .

وقد جاء فيها :

«أعترف منذ البدء بأنني ارتبط بقاسم حداد بمعرفة حميمة وأنني تتبعت تجربته منذ تبرعمت حروفها الأولى ، إلى اليوم حيث صارت البراعم قطوفاً وصارت العشيبات الخضراء غابات ، ولقد مرت بنا الأيام وتغير كل منا حسب منطق معين ومختلف ، ومع ذلك لم أشعر يوماً بأي اغتراب مع تجربته المتنامية ، والمتطورة وبوضوح . إن هذه الحميمية لن تكون غلالة ولو شفافة تحول بين يدي وملامسة تجربته مباشرة ، فهي تجربة تعلن في كل مرحلة – رغم تداخل المراحل – عن تمايزات وتغيرات وتطورات لافته ، وتنضح دائماً بفوران الدم والإبداع» .

لست هنا لأكتب عن شعر قاسم . . فذلك أمر أرجئه إلى زمن أرجو أن يمهلني العمر للوصول إليه . . لكنني أكتب عن شخص قاسم .

وقد أتيح لي – بعد أن امتد بنا الزمان . . أن نصطحب في أوقات كثيرة في رحلات خارجية في بعض المؤتمرات التي حضرناها معاً . . ففي الكويت كنا مدعويّن إلى فعالية واحدة . . وأتيح لي أن ألتقي قاسم كثيراً . . ومرة أخرى التقنية في رحلة إلى القاهرة في ملتقى الرواية العربية الثالث عام ٢٠٠٥ ، ونحن في الاوتوبيس ذات يوم وكان يجلس بجانبي قلت له وأنا متردد :

«قاسم . . كنتُ كما تعلم أكتب الشعر في السبعينات والستينات ، وأنني

هنا أرجو أن أستأذنك في أن أجمع هذه القصائد في ديوان» . أو بهذا المعنى كان كلامي . لأنني أمام قاسم لا أستطيع أن أزعم أنني أكتب شعراً . . وكان رده في غاية الأناقة والتهذيب ، شأنه دائماً . . يا أستاذ عبر عن نفسك كيفما تشاء فهذا حقك لا يستطيع أحد أن ينكره عليك!

ما أكثرك يا قاسم . . وما أجملك!

في ندوته الأخيرة في أسرة الأدباء سألني أحد الأصدقاء . .

هل شعر قاسم موزون؟!!

فقلت له : «كل ما يكتبه قاسم موزون» .

وفي عام ٢٠٠٧ كان قاسم يتماثل للشفاء من كسر أصاب ساقه . . وفي ذات العام وبعد شهور . . كنت على موعد أيضاً فانكسرت قدمي . . ولما كنت في المستشفى . . دخل علي قاسم يحمل في يده زهرية صغيرة فيها نبتة رقيقة كرقة قاسم وكتب معها بطاقة في غاية التهذيب . . وكأن كسر الساق والقدم شيء من هذه الرحلة الحميمة التي لم تنقطع يوماً .

لا أذكر أن قاسماً كان في حوارية أو مقابلة تلفزيون أو في ملتقى من الملتقيات التي تدار حول تجربته ، ويشارك فيها بشهاداته . . إلا وقد ذكرني . . وكتبت مرة وأنا شديد الحرج . . يا قاسم . . والله إن الدنيا كلها لا تعلم العصفور أن يغرد . . فهو يغرد بما وهبه الله له ومكنه منه . . وأنني أدين لك بهذا العرفان لكنني أشعر أنك تمنحني من التأثير بتجربتك أكثر بكثير مما أظنني فعلت .

وبالأمس ، قبل يومين تماماً كنت أهاتفه وأسأله عن مسألة غابت عن ذهني . . فقال لي أنت تعرف دورك في تجربتي . . سواء اعترفت أنت بذلك أو لم تعترف! فقلت له أنا لا اعترف . . فضحك وقال : هذا شأنك أما أنا فلى موقف آخر .

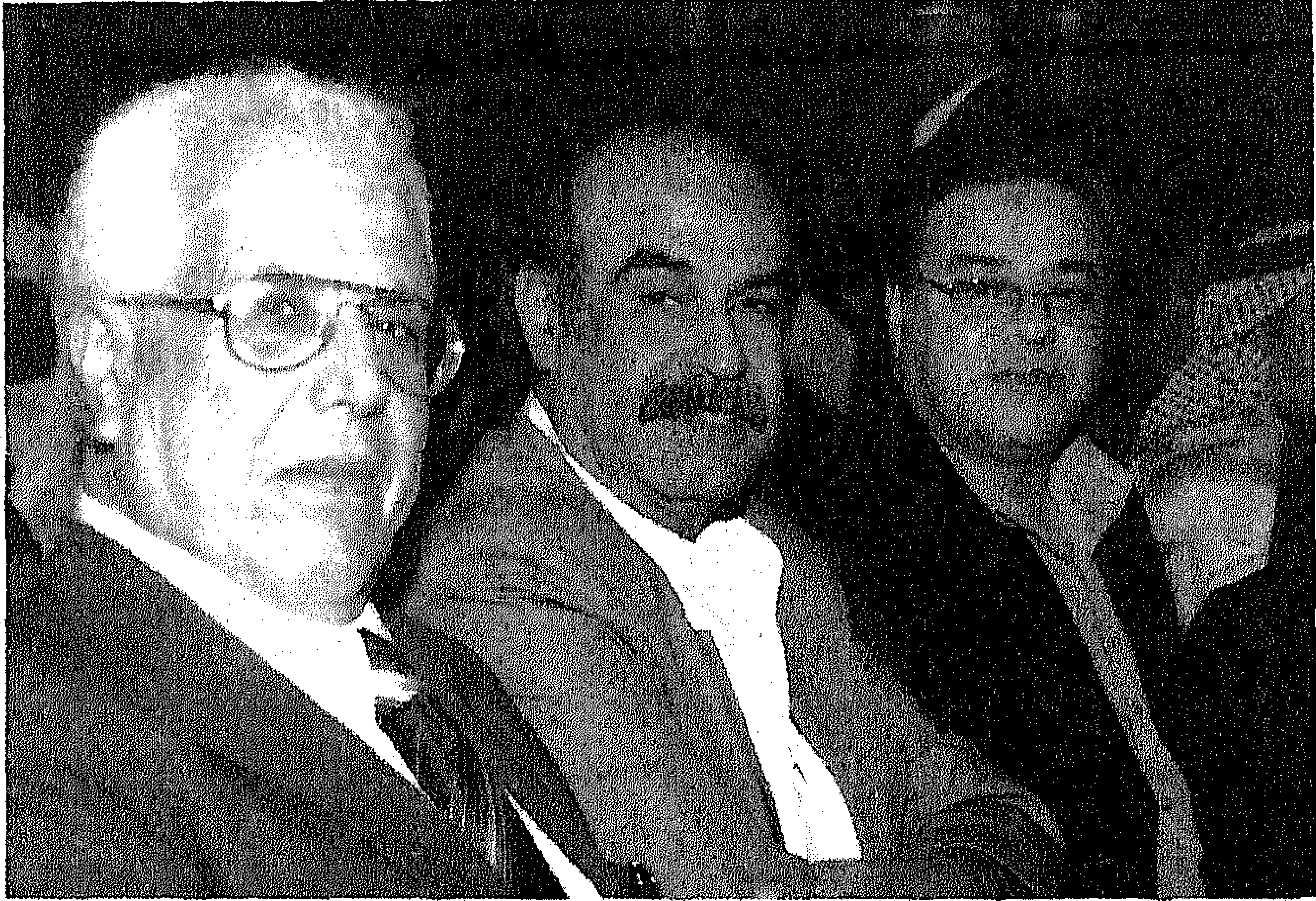
وفي أمسية أسرة الأدباء . . وقد جئت متأخراً ، وتسللت إلى القاعة التي لم أسمع فيها أي صوت لأي كائن . . والباب مغلق فظننت أن لا أحد هناك . . ولما

دفعت الباب بحذر كانت هناك قاعه ممتلئة بالمستمعين . . وأقول ممتلئة لا على سبيل المجاز بل الحقيقة . . والصمت يخيم . . وألتفت لأجد مكاناً خالياً . . وعثرت على كرسي في طرف بعيد وتسللت إليه . . وقاسم يقرأ بعض شعره . . والآخرون جميعهم . . ملء القاعة يصغون بكل الاحترام في حضرة الشعر . . وقلت في نفسي : «قاسم بين قومه ومعجبيه . . يلتفون حول صوته كأنما اكتشفوه لأول مرة»! . . أمسية رائعة . .

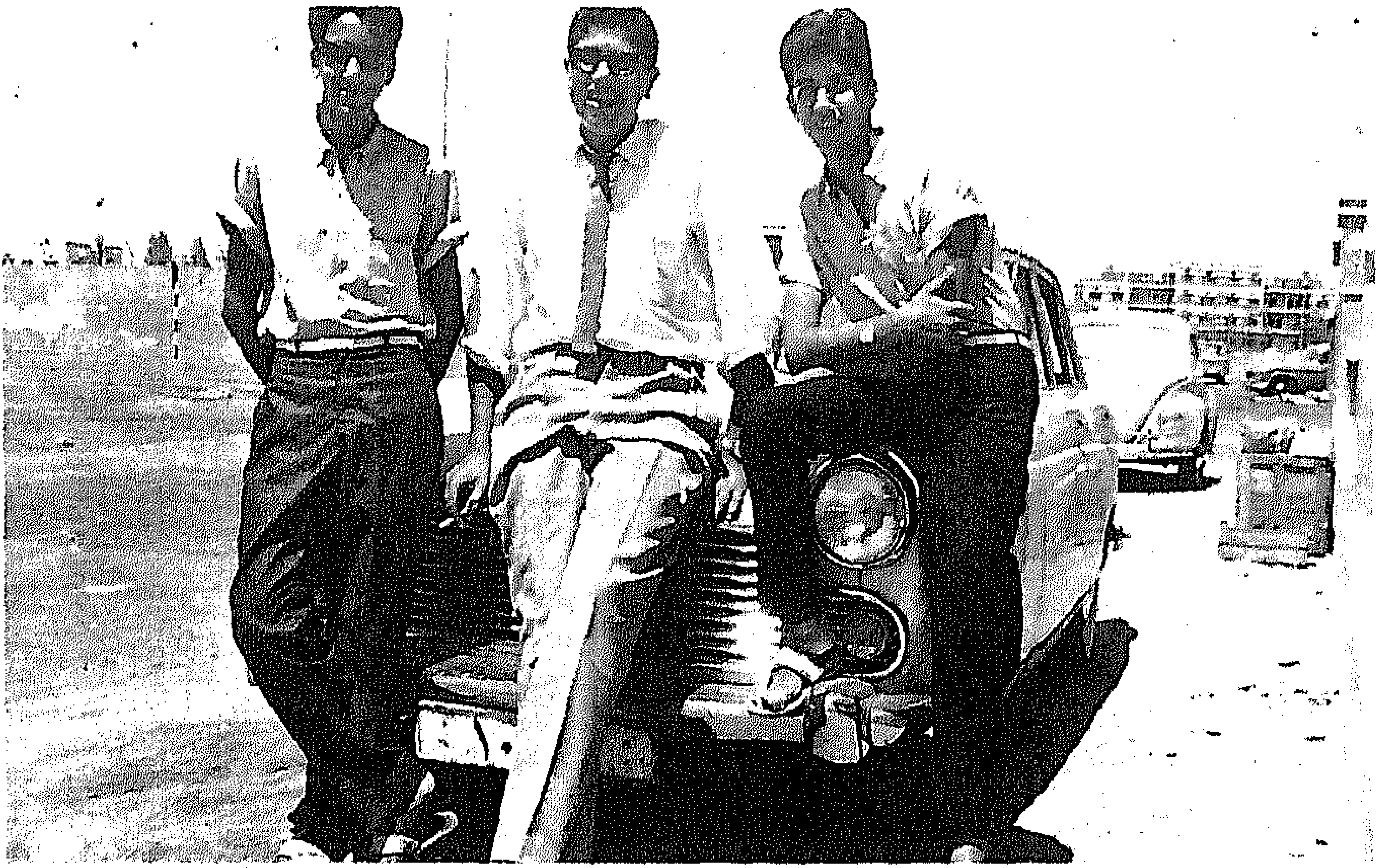
واقتبس شيئاً مما قال . . وأقول له :

قاسم ما أكثرك ، ما أجملك

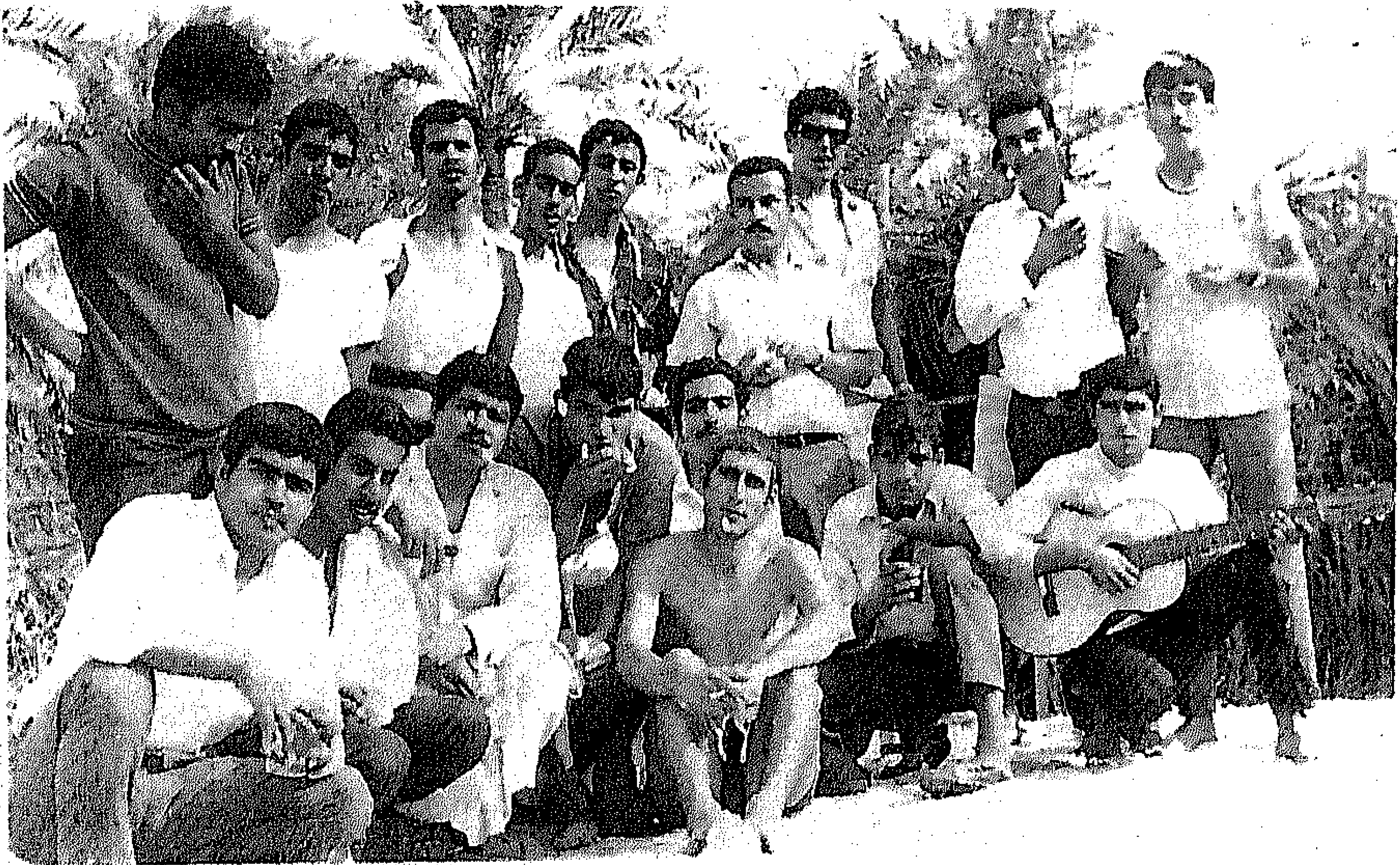
الشعر لك ، والحب لك



زهير أبو شايب قاسم في الوسط وأنا عن يمينه



المحادين يتوسط اثنين من طلابه، وهما عبد اللطيف وعبد اللّه المحمود



المحادين في وسط جمع من طلابه وزملائه

(١٧)

❖ الرياضة.. بوابتي للاندماج في المجتمع البحريني

❖ كانت أكثر المباريات حضوراً جماهيرياً التي يكون نادي المحرق أحد طرفيها

❖ تعرفت على نادي المحرق من ملاعب المنامة

❖ كان التنافس على أشدة بين المحرق والنسور.. والعجيب أن جاسم المعاودة يدرب كليهما

❖ تشكلت لي مع ناديي المحرق والنهضة علاقات حميمة وودية وكنت أشجع المحرق بلا تحفظ

ها هي البحرين ، وهذه هي الهداية الخليفية ، وها هنا المحرق بدايات وبوابات واحتمالات ، وأسئلة لا أجوبة لها ، وأجوبة تنطرح دون أسئلة ، وتقترح أسئلتها ، وفي هذا كله كنت أدرك أن هناك اختلاطات . . وتداخلات في هذه البيئة المستجدة ، ولابد من ترتيب الاهتمامات والأولويات .

كيف يتعرف فتى بدوي حل دون مقدمات على حياة لها خواصها وخصائصها ، وأناس يحملون ثقافة تبلورت لديهم مع الزمن فعلموا منها ما يأخذون وما يتركون .

بدأ هذا البدوي رحلة التكيف مع الزمن والمكان . . الآن وهنا . . لم تكن الحياة اليومية تحمل أي تعقيدات أو تحديات . . كانت الأمور مبسطة . . لكن

لا بد من تنظيم الحياة بوضوح وبفكر يحمل رؤية بعيدة إلى حد ما .

جلس الفتى البدوي ، يواجه «الآن وهنا» في حياته . . فلا بد أن يضع لنفسه استراتيجية ثابتة ينظم بها كل القادم من أيامه . . حتى يكون مريحاً ومستريحاً . . وحتى لا يتمزق جلده وذهنه وهو يتكيف مع الآن وهنا .

بكل ما في البدوي من ذهن عاصف ، وبكل ما في البدوي من قدرة على النفاذ إلى ما وراء ما يرى . . قرر هذا الفتى أن يجنب نفسه كل مطبات الضعف العاطفي ، وقرر أن يحب الناس جميعاً ، دون تعويل على موقفهم كيفما يكون . . وقرر أن لا مكان في قلبه لكره أحد . . وهذه مسألة في غاية الأهمية فنحن نضيع أجمل أوقاتنا في حب هذا وكره ذاك . ولم يكن ذلك الموقف متكلفاً بل هو موقف شفاف .

وقرر الفتى . . البدوي ألا يسمح لأحد مهما كان أن ينزل ضيفاً على ذاكرته ويقيم فيها دون رحيل ، إن ذاكرته ترحب بكل الضيوف المختلفين إليها يحلون ويرحلون وهم محاطون بالترحيب والمودة . وبذلك يضمن وفاء لثوابته غير متأثر بتغيرات الآخرين ولو فعل غير ذلك لكان مشغولاً بواحد بذاته ، ومشغولاً بإرضائه ومشغولاً بحيز ضيق ، أنذاك . . ولا ينكر ذلك الفتى البدوي أنه التقى أكثر من واحد كان مرشحاً للبقاء والإقامة ليس في الذاكرة فقط بل ربما على مشارف القلب ،لكنه سرعان ما يزجر نفسه بصرامة البدوي وتوحده ، «تذكر ماذا قلت لنفسك أول الطريق» ، فيتذكر ويتذكر .

ذاك البدوي . . ما هي مفردات الحياة حوله . . والاهتمامات التي لابد من التعامل معها ، وما هي التجاذبات التي تسكن قلبه وأوهامه أحياناً . . وأخذ يلملم أطراف المشهد النفسي والواقعي والذهني ، ويرسم لوحة ومخططاً للطريق التي يمكن سلوكها . . وبتلقائية ، انقسمت المشاهد إلى دوائر من الأقل إلى الأكبر . .

وأبرز عناصرها . . العنصر البشري . . مكثفاً في هذا الجمع من أبناء مدرسة

الهداية . . وهم ليسوا قادمين من الفضاء ، بل كل منهم يجيء من بيت وأسرة ، وعائلة وقبيلة . . بثقافات وأمزجة مختلفة ومتداخلة . . فالتعرف إليهم مهاد للتعرف على المجتمع المحرقي وراءهم . وحين أقول هنا المحرق أعني جزيرة المحرق بكل تفاصيلها وقراها . . فهنا أبناء المحرق المدينة . . وهنا أبناء البسيتين . . وهناك الحالات . . وهناك الحد . . وعراد ، والدير وسماهيج وقلالي . . وهناك المطار . . والمعسكر الانجليزي في الآر .إف . . وهنا ذلك الخيط من الأبنية في مواجهة البحر . . وعائلات من الأسرة الخليفية . كل أبناء هؤلاء يتجمعون في مدرسة الهداية الخليفية . . وهؤلاء شريحة تمثل المحرق كل المحرق من هنا إلى هناك . . وللتعرف على المحرق عليك أن تعرف هؤلاء . . وهذا ما فعلته بهدوء وبساطة . .

ولكي أتعرف على خصائص هذه البنية الإنسانية فإنني أخذت أتأمل في مكوناتها وخصائصها الظاهرة . . ولفت نظري تعليق كتبة الأستاذ مصطفى صبحي وهو الذي عمل مديراً لمدرسة الهداية الخليفة من الفترة ١٩٤٧ - ١٩٥٠ ، وكان عضواً في أول بعثة مصرية للتعليم وفدت إلى البحرين . . وقد كتب في يوميات مدرسة الهداية الخليفية : «اشتهر المحرقيون طلبة وأساتذة وشباناً في كل المهن وحتى صبية الأزقة بحب جارف للرياضة البدنية ، يزاولونها بافتتان وغيرة ، فإذا ما أقبلت في كل يوم من أيام السنة رأيت الملاعب غاصة باللاعبين ومن حولهم متفرجون كثر متحمسون لا تفوتهم من حركات اللعبة شاردة ولا واردة .

ورغبة في تنظيم هذه التوجهات قرر نائب مدير المعارف أن يقام المهرجان السنوي على ساحات الهداية ، ويدعي إليه حاكم البحرين وكبار الشخصيات في البلاد .

وببساطة يعني هذا أن المحرق عاصمة الرياضة في البحرين . . وقد وجدت في الهداية مصداق هذا القول الذي لاحظه مديرها الأسبق ، فما أن يقرع جرس الفسحة في مدرسة الهداية حتى تفرز عشرات الطلاب في الملاعب القليلة

والضيقة التي في المدرسة . . ويمارسون الألعاب . . وأبرزها كرة السلة ، والكرة الطائرة ، لكنهم جميعهم يبدون مشغولين في حوارات ومناقشات كلامية حول كرة القدم التي يمارسها الشباب في جزيرة المحرق ، ويشغل اهتماماتهم بشكل لافت ، كما وإن للمدرسة فريقاً لكرة القدم يغزون به المدارس الأخرى والأندية ويعودون غالباً مظفرين . . كما إنني كنت أسمع بعض المنافسات بين فرق جزيرة المحرق . . ومنها نادي المحرق ، ونادي النهضة ، ونادي الجزيرة ، ونادي شط العرب . . وأندية أخرى صغيرة أو متوسطة ، لكن الجو جميعه مشحون بالاهتمامات الكروية .

وفي مدرسة الهداية الخليفية التفت إلى هذا الجانب ، جانب الرياضة ، فوجدت فيه بوابة للتعرف على الخصائص البشرية وطبيعة العلاقات بينهم ، وأسلوبهم في التعبير عن أنفسهم ، ولا بد من أن أتعرف على زملائي المسؤولين عن الرياضة في مدرسة الهداية . . وكان أبرزهم الزميل والصديق شناف فيصل ، الذي تعرفت عليه وبسرعة وأجده ما يزال شاباً لكنه ربما يكون قد أخذ يميل إلى التدريب بعد أن كان لاعباً فذاً ، ومعروفاً في المحرق والبحرين . . وينتمي إلى «نادي النهضة» وبسرعة نشأت بيننا صداقة . . مع شناف فيصل ، والصديق عبدالوهاب السيسي الذي كان يشاركه الإشراف على فرق مدرسة الهداية .

وكان الطلاب الرياضيون يتجمعون في حجرة الرياضة الضيقة التي كانت مبنية قرب بوابة المدرسة ، وهناك دائماً يثار الجدل بين الطلاب بحسب الفرق التي ينتسبون إليها ، وكان الجدال أشد ما يكون بين أبناء نادي المحرق ، ونادي النهضة .

ومن هذه المساجلات تكونت لدي فكرة كاملة عن خارطة الرياضة في البحرين ولاسيما كرة القدم . وقد كان ملعب مدرسة الهداية لكرة القدم هو الملعب المعتمد للمباريات الهامة وبخاصة المباريات النهائية ، وكان فريق مدرسة الهداية ينتقل في مواقع كثيرة للمشاركة في مباريات مع مدارس أو أندية . . وهو

يشكل منتخباً من فرق جزيرة المحرق وكنا نلحق بالفريق نستمتع بألعابه ونشجعه ، فأفراده هم من طلابنا في الهداية .

بعد أن قضيت سنة أو أكثر قليلاً في تلك الحجرة ذات البانكة المشهورة في سكن المعلمين تم نقلنا إلى سكن آخر . . تم بناؤه قرب مدرسة العدوية للبنات ، ويتكون من طابقين ، في كل طابق عدد من الحجر الصغيرة ، وفي كل حجرة مدرس متعاقد ، وللحقيقة فإن هذا السكن لم يكن يوحي بالراحة ، والسكن إلا أن له ميزة واحدة وهو أنه يقع على مشارف ملعب من ملاعب الكرة . . الترابية التي لم تكن مزروعة ولا مسورة . . وكانت تقام عليهما مباريات الدوري . . ويصطف الجمهور وقوفاً حول خطوط الملعبين ، أو يتجمعون على ظهر الأوتوبيسات الخشبية محلية الصنع ، وكانت أقدام الواقفين تحاذي خطوط الملعب . . لكن الجمهور غالباً ما يلتزم بالنظام ولا يقتحم الملاعب إلا في حالات استثنائية .

كان هذا المشهد من كل أسبوع نترقبه . . ونستمتع بمنظر المباريات وكذلك كنت أتعرف على جانب من ردود الأفعال الجماهيرية من خلال المشجعين وكان لكل فريق مشجعون يقودهم أحد أكثرهم حماساً وكنا نسمع الشيلات . . والتشجيعات . . وأحياناً ننتقل إلى ملاعب أخرى قرب القصر القديم . . وكانت أكثر المباريات حضوراً جماهيرياً هي التي يكون نادي المحرق أحد طرفيها . . ومن هنا تعرفت على هذا النادي . . من خارج المحرق . . تعرفت على نادي المحرق من ملاعب المنامة . .

وللحقيقة فقد كان هذا الفريق مميزاً ، يلعب كرة منظمة . . ويفوز غالباً في جميع مبارياته . . أو معظمها . . وكان التنافس على أشدة بين المحرق والنسور . . ومن العجب أن هذين الفريقين كان يدربهما أحياناً مدرب واحد وهو جاسم المعاودة . . اللاعب الذي كان يلعب مع المحرق . . ثم انتقل إلى النسور . . من خلال هذه المباريات تعرفت على تفاصيل الحياة الرياضية في البحرين . . فهناك

فرق المحرق . . وهناك فرق مدينة المنامة والزعامة في المحرق لنادي المحرق ، وفي المنامة لنادي النسور .

في مدرسة الهداية تعرفت على أبرز لاعبي جزيرة المحرق . . وفي القضيبية حيث نسكن . . تعرفت على أبرز لاعبي المنامة .

وكان ملعب العاصفة أمام السكن وملعب النسور خلف المدرسة وهما قريبان جداً .

كانت فرق المنامة هي النسور والترسانة والعاصفة . . والتاج . . ويجيء فريق الرفاع من الرفاع . في هذه الحقبة امتلأت ذاكرتي بالمشهد الرياضي . . وكنت بحاجة إلى أن يكون في ذهني شيء من الحياة اليومية في البحرين . . ونتابع المباريات ونحتفظ بالمواقف للجدل الذي سيدور في اليوم التالي في مدرسة الهداية . . ومن خلال هذه الارتباطات الرياضية أشبعَت توجهاً خفياً داخل نفسي . . وهو حاجتي للانتماء . . وكنت أنتمي قليلاً قليلاً من منطلقات رياضية . . ولأنني في المحرق . . ولأنني تعرفت في الهداية الخليفية على لاعبين من نادي المحرق . . وأخذت تتشكل بيننا صداقات وثيقة أو حتى تعارف . . ولأنني تعرفت في المحرق على لاعبي الفرق الأخرى . . فكانوا يكملون اللوحة مع وضد ، وهذا يدخلني في الانتماء إلى اهتمامات الشباب ومشاركتهم في كرة القدم ، وكرة السلة التي لم تكن تلعب إلا في رمضان ، على الأضواء الكاشفة في ملعب المدرسة الثانوية والذي كان أيضاً يشهد المنافسات الشديدة بين ذات الفرق في كرة القدم . .

وهذا ملأ الفراغ لدي . . ومنحني الفرصة لأن أنتمي للرياضة مع وضد . . وكثيرون يعتبرونني رياضياً لكن مع المتفرجين . . ففي مدرسة الهداية تشكلت صداقاتي مع كثير من الرياضيين . . ومنهم شناف فيصل وعبدالوهاب السيسي ، ومن الطلاب حمد بن أحمد الخليفة ، ثم خليفة بن سلمان آل خليفة ، وصالح عيسى بن هندي ، الذي كان مشهوراً بسرعته وانطلاقاته في

الملعب التي لا يمكن حـدها أو التـقليل من خطورتهـا ، وكـذلك أحـمـد بن سـالمين . . الذي كـان أشـهـر هداف في مـلاعب كـرة القـدم ، وأظنه حـتى هذه اللحظة ما يزال ظاهرة تاريخية في هذا الحقل . . وممن عرفت في مدرسة الهداية يوسف المالكي حارس المرمى في النهضة ثم المنتخب . . وآخرون من مشجعي هذا الفريق . . ولا أنسى أن مشجعي النهضة كانوا يترقبونني صباح اليوم التالي لأي مباراة يفوزون فيها . . ولاسيما إذا ما كان الفوز أو التعادل مع نادي المحرق . . وهذا كان يحدث قليلاً جداً . . ليدخلوا معي في حوارات وتعليقات وجدل . . كان ممتعاً ولذيذاً . . وقد تشكلت لي مع ناديي المحرق والنهضة علاقات حميمة وودية وكنت أشـجع المحـرق بلا تحـفظ . . وأهاجم النـهـضـة حـينمـا أدافع عن المحرق . . لكن علاقاتي مع لاعبي وإداريي نادي النهضة كانت أكثر حميمية . . بل إنني كثيراً ما كنت أخرج معهم في الرحلات الترفيهية . . وكانوا يعتبرونني واحداً منهم . . وهذا ما كنت أحسه ... وكنت أقول لهم أنا أشجع النهضة إلا في مبارياتها مع المحرق . . فأنا لا أخون المحرق . .

وأنا أكـتب هذه الحلقـة اتصل بي في الصـباح صديقـان همـا ناصر محـمـد الإعلامي المعروف ومبارك الحادي صاحب الجهد المرموق في جمعية الهلال الأحـمر البـحـريني . . وناصر كـمـا هو مـعـروف من المتعصبين لنادي النهضـة ، والذي صار فيما بعد نادي البحرين ، وأما مبارك الحادي . . فهو المتعصب لنادي المحرق . . وقد كانا معاً . . لا أدري في أي مكان . . لكنهما هاتفاني وقال لي أبو بدر . . نشـرت لك صـورة في الأيام في الملحق الرياضي . . وأنت في وسط لاعـبي وجـمـهـور النـهـضـة . . وأشـرت إنك تشجع المحرق . . وبدأ بيننا حـديث يسـتـرجع تلك الأيام وكـان أبو بدر وأبو خليـفـة يسـتـعـيـدان المشـاحنات بين الناديين ، النهضة والمحرق ، ولكن بكـل الحب والمودة . . ومن المصادفات الطريفة أن أن المحرق في اليوم التـالي هزم نادي البـحـرين بخـمـسـة أهداف . . اللهم لا شماتة!!

ومن خلال تلك الفترة في البدايات . . تعرفت على الرجل النبيل المتواضع . . ذي الروح الرياضية العالية . . الشيخ عيسى بن راشد آل خليفة . . وكان يدعم بالتأييد والإدارة والنفوذ نادي النهضة ، وكنت حين ألتقيه نتبادل شيئاً من التعليقات حول المحرق والنهضة لكن في إطار المحبة والمودة . . إنّ أبا عبدالله رجل غاية من النبل والروح الرياضية العالية . . وأحسب إننا ما نزال صديقين . . كما إنني ما أزال صديقاً لكل الذين عرفتهم في تلك الفترة ومنهم شناف فيصل ، وعبدالوهاب السيسي ، وإبراهيم بوجيري ، ويوسف المالكي ، ، وأحمدي . . وإبراهيم علي إبراهيم وعيسى بونفور . . وعبدالرحمن بوجمال . . ومحمد تقي ووهبي (عبدالوهاب العسومي) ومراد وخليل إبراهيم وعقيل رئيس وعشرات الرياضيين ممن ملأوا بحضورهم روحي التي كانت تبحث عن الانتماء . . فكان انتمائي عن طريقهم إلى الرياضة . . والرياضيين وهذا أعانني على التغلب على كل المصاعب النفسية التي يتعرض لها الإنسان حينما يقدم على بيئة لم يكن قد نما فيها أو ولد . . وفي فترة من الأيام الأولى في الستينات سكنت مع الصديق العزيز أخي الطيب أيوب هليل . . وكان هو رياضياً يلعب كرة القدم ، حيث كان يمارسها في لبنان . . وحينما جاء إلى البحرين للعمل معلماً . . كانت روحة ما تزال رياضية . . فالتحق بنادي الترسانة وصار يدربهم ويلعب معهم . . وعن طريق ذلك الصديق تعرفت على معظم رياضيي المنامة . . وكان وقوفنا حول الملاعب في المنامة يتيح لنا المزيد من التعارف . . فعرفت أحمد البناء ، وشريف ، ومراد وفؤاد ، كما عرفت ناصر وليد وعبدالله وليد ، الذي كان حارساً للمنتخب . . عبدالله ذلك الشاب المتفائل دائماً . . الذي مثل البحرين في مباريات كثيرة . . وكنت شديد الإعجاب بعدنان أيوب الذي كان نجماً في كرة القدم وكذلك في كرة السلة ، وكذلك الرياضي محمد حمد المعاودة لاعب السلة الممتاز . . الذي استطاع المحرق الفوز ببطولة تلك اللعبة حين لعب لهم المعاودة في أحد المواسم .

كثيرون هم الأصدقاء من الحقل الرياضي . . وما أزال أذكر دور جاسم المعاودة . . وإنني أجريت معه لقاء مفصلاً نشر في كتاب من ذاكرة البحرين . . وفي مجلة البحرين الثقافية . . وأذكر أنه شكل فريقاً لكرة السلة ورتب لهم مباريات ودية مع فريق للسلة تشكل من جنود الآر .إف في البسيتين . .

لقد كنت أدعو فريق المحرق في سكن المعلمين العزاب في المنامة وكان زملائي المعلمين يشاركونني الحفاوة بنادي المحرق وكنا في رمضان نقدم لهم القطايف . . ومن الذين استمرت صداقتي معهم أبناء شريدة . . راشد ، وعبدالله ويوسف وسلمان وحمد من هذه العائلة الرياضية .

وهنا أعترف بأن العلاقات الدافئة مع الجمهور البحريني واللاعبين وكل الرياضيين والإداريين تشكل ملمحاً هاماً ولطيفاً فأنت إذ تشجع هؤلاء أو هؤلاء لا تدخل في أي جدل غير ودي أو شيء من هذا القبيل ، بالعكس تكون موضع الترحيب من الأندية «الخصوم» لأن الروح الرياضية كانت تسود وأحسبها ما تزال .

إن هذه الاهتمامات والعلاقات التي تابعتها في حقل الرياضة وفرت لي ذخيرة هائلة من معرفة الناس . . كل الناس . . والتعرف على المزاج الشعبي والرياضي في البحرين حيث كانت الرياضة تشكل رابطاً جميلاً حيث يستطيع الوافد أن يشكل قاعدة من المعارف ، أشبعت تطلعي إلى المعرفة الاجتماعية وإلى الانتماء إلى جهة ما . . هي الرياضة بشكلها العام ، وإلى نادي المحرق بشكل خاص ومن هنا ينتفي الشعور بالغربة أو الاغتراب ، أو الإحساس بالأقلية . . فأنت من خلال المعرفة والألفة تصبح واحداً من الآخرين ، تلتزم بأخلاقيات العلاقات الاجتماعية والإنسانية بحسب متطلبات الحياة . .

لا أظن أن الآخرين يدركون بشكل مباشر أن الإنسان إذا اغترب أو طرأ على مجتمع يبقى قلقاً وبحاجة إلى شيء من الارتباط بالآخرين للتقليل من الإحساس بالاغتراب ، وهذه مسألة كنت أحسها وأسعى إليها وأندمج فيها إلى

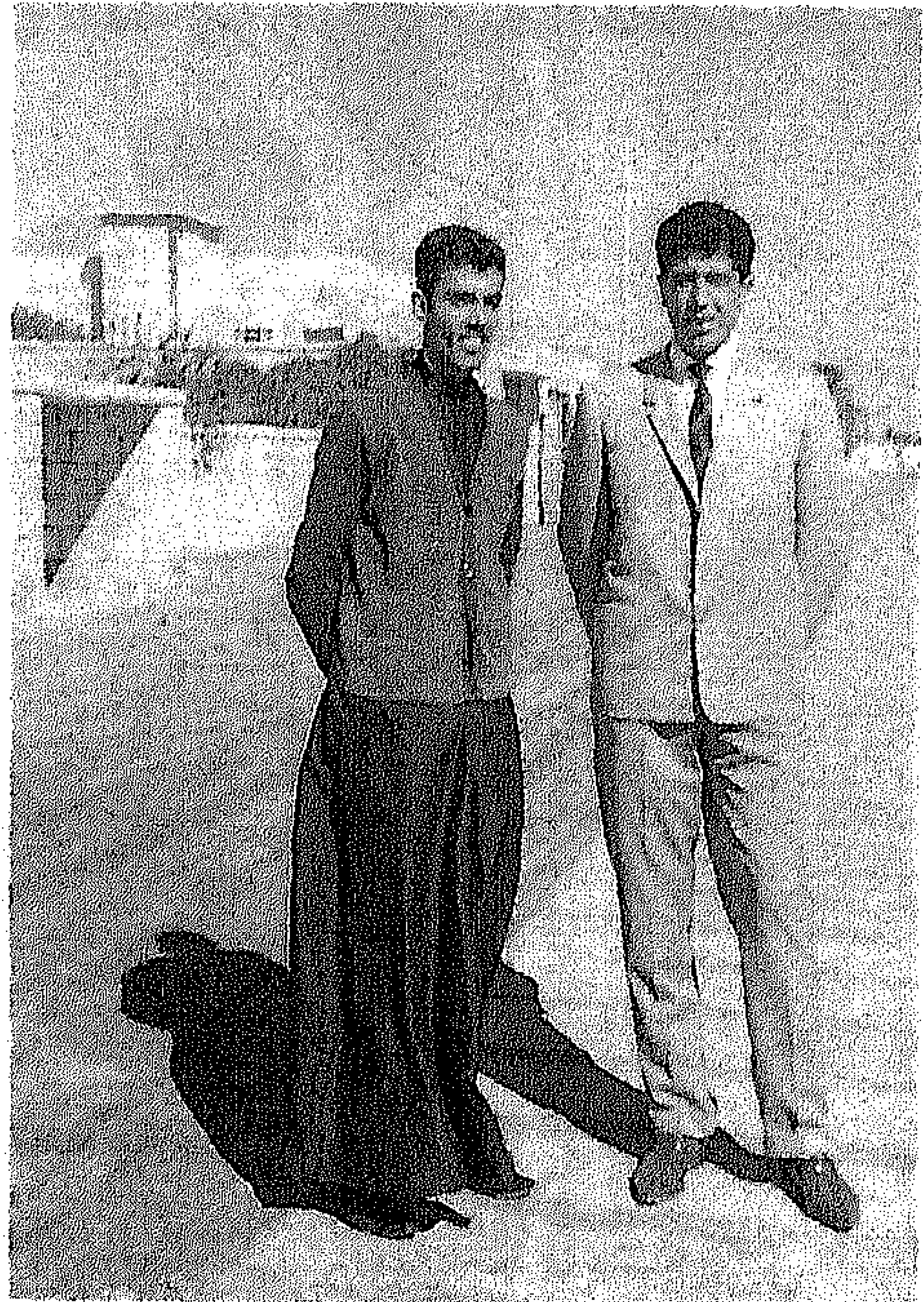
حد كدت أتخلص من كل إحساس باللاإنتماء ، أو الشعور بالعزلة والوحدة ، والشعور بالعزلة يجعل الإنسان ينغمر في شعور من الوحدة أو شعور بالأقلية وهذا الشعور يدعو إلى الانكماش ، وهذا ما لم أفعلة فقد أصبحت أعيش في مجتمع أتفاعل معه بفهمه وأدراك خصائصه والانسجام مع هذه الخصائص أو عدم مجافاتها على الأقل .



مع الرياضي نور الدين العوضي

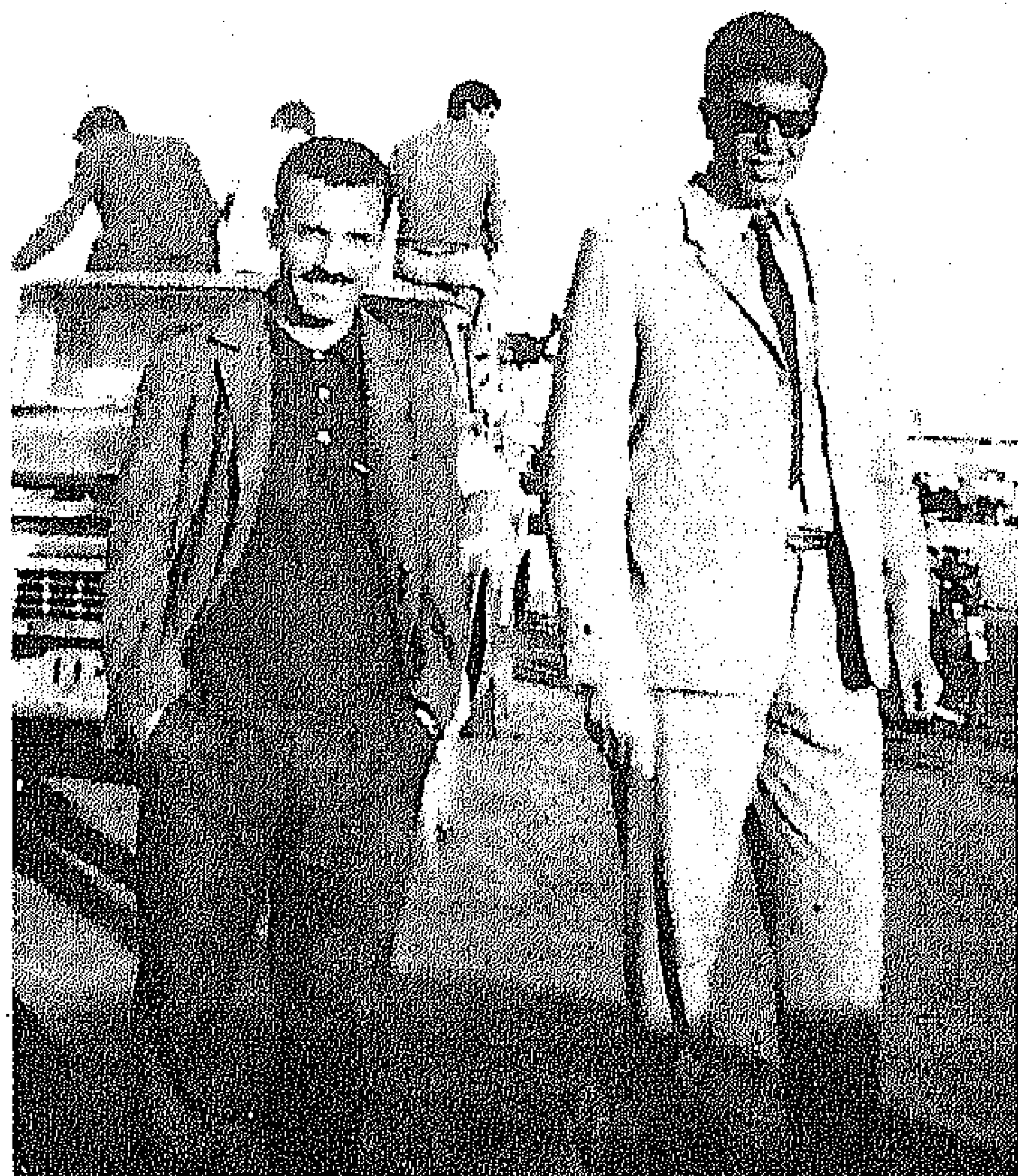
مع الرياضي الشيخ حمد بن أحمد





مع لاعب الكرة المشهور الشيخ خليفة سلمان

مع الصديق الرياضي أيوب هليل





في وسط لاعبي نادي النهضة (البحرين فيما بعد)
ويبدو شناف فيصل ويوسف المالكي ، وإبراهيم بوجيري ، وبقية الأعضاء .

(١٨)

❖ الصحافة وتاريخها.. محور ثان من انتمائي للبحرين بعد الرياضة وجماهيرها

❖ اكتشفت أنني لم أنزل في وادٍ غير ذي ثقافة ولا صحافة.. بل يزخر بالرواد والأعمال التأسيسية

❖ وجه الشبه بين (بلجريف) و(أبو حنيك)؟!

❖ تعرفت كيف يتعامل أهل البحرين مع الموت بواقعية لافتة.. عند وفاة عظمة الشيخ سلمان بن حمد رحمه الله

كانت القشرة الإنسانية المتاحة للتعارف هي تلك التي كنت أجدها في التجمعات الرياضية غالباً - لكن ليست الحياة هي جمهور الرياضة . . على أهميته للتعرف على ملامح المجتمع . . وكان لابد من الذهاب إلى أبعد من ذلك . . إلى التاريخ والثقافة والمكونات الذهنية والنفسية للناس من خلال التعرف المباشر . .

عام ١٩٦٠ حين جئت إلى البحرين . . لم يكن في البحرين صحافة بمعنى الصحافة . . هناك نشرات إعلامية لشركة بابكو مثلاً . . وأشياء مماثلة . . وأظن أن مجلة «هنا البحرين» كانت تصدر شهرية وتحمل برامج إذاعة البحرين لمدة شهر . . لم يكن للبحرين تلفزيون ولا في كل المنطقة . . وكان الناس في البحرين يقتنون تلفزيونات . . يتابعون فيها تلفزيون أرامكو . . . بالأبيض

والأسود . . ولا شيء وراء ذلك ، ولرغبتنا في متابعة بعض البرامج ولاسيما المصارعة الحرة . . وهي مصارعة بالأسلوب الإنجليزي ، لا إثارة فيها . . وإن كانت رغم دقة قوانينها . . تسلي . . . وكان يعلق على برنامج المصارعة باللغة العربية . . الأستاذ عيسى الجودر الذي عاد فيما بعد إلى البحرين ، فكنا نتابع برنامجه لجودة تعليقه على المصارعة الحرة ولغزارة المعلومات التي يقدمها . . وكان تلفزيون أرامكو يقدم بعض الأفلام المدبلجة . . والدبلجة تعنى أن يحول الحوار الذي يدور باللغة الأجنبية إلى حوار بالعربية ، كالمسلسلات المكسيكية في فضائياتنا الآن . . وكنا نتابع هذه الأفلام . . ونرى كم يطرأ على الدبلجة من تحوير لتناسب البيئة الخليجية ، وعلى سبيل المثال كنا نرى البطل يصب الخمرة في الكأس ويقدمها لمحاوره ويقول :

هل لك بكأس من عصير البرتقال؟ . . ولأن التلفزيون بالأبيض والأسود فاللون واحد . . ويثار سؤال على سذاجته . . من أين لنا بالجهاز؟ . . كنا نستأجر تلفزيون بثلاثين روبية شهرياً ونشترك فيها بواقع عشر روبيات للنفر . . كانت الحياة متواضعة . . كنا نسكن في سكن المعلمين العزاب . . في القضيبية قرب وزارة التربية والتعليم . . وكما قلت مرة لكل مدرس حجرة . . فيها سرير ومروحة تبدو أحدث من تلك البانكة اللعينة . . وهو سكن قلما يشعر فيه الإنسان بالراحة . . تصور أن تسكن مع عشرين . . قادمين من بيئات مختلفة . . وكل الحجر مصطفة بالتجاور . . والذي يمشي مع الممر تستطيع أن تحسب حظواته حتى يبلغ مقره . . لا بأس . .

لا صحافة ولا تلفزيونات . . ولا أي أداة اتصال في العالم . . اللهم إلا جهاز الراديو . . الذي لا يبث إلا في الليل لضعف الإرسال . . وكنا دائماً نجد في إذاعة البحرين شيئاً من التسلية . . وكان إبراهيم كانو رحمه الله ، يقدم نشرات الأخبار ، وهو يتمتع بصوت جهير جداً ، وكان يعاونه في تقديم الأخبار المرحوم أحمد يتيم . . ولم يكن صوته إذاعياً كصوت كانو ، وقد كان البعض يتندر حين

يقرأ المرحوم إبراهيم كانوالنشرة الجوية فيقولون أنه يمد يده من شباك الاستديو وبحسب شعوره يتنبأ بالطقس!! ، وكنا بين هذين الصوتين . . نقضي ساعات من الاستماع . . وتمتعنا بعض البرامج التي كان يقدمها المرحوم عتيق سعيد بصوته الهادئ . . وكان يعمل معنا معلماً في الهداية . . وهناك بعض البرامج الإذاعية مما يقدمها الشباب المتعاونون مع الإذاعة . . التي تبث ساعات محدودة . وما نزال حتى الآن ترتبط إذاعة الكويت بأذهاننا حيث كانت تبث نشرة الأخبار في الواحدة ظهراً . . وهي نشرة مفصلة جيداً . .

وفي الليل . . كنا نستمع إلى صوت العرب . . وإذاعات المنطقة المجاورة . وبعض الإذاعات البعيدة . . وكانت الإذاعات هي بوابتنا لمعرفة ما يجرى في العالم . . كان عدد المعلمين محدوداً . . وكنا نتلفت لنتعرف على الأشياء حولنا . . ومن أبرز الأحداث التي مرت بي حدثان في سنة واحدة . . الحدث الأول أننا ، عدداً من المعلمين ذهبنا في أول عيد مر بنا في البحرين . . وسلمنا على صاحب العظمة الشيخ سلمان بن حمد طيب الله ثراه . . وصافحنا عظمته مع عبارات من الترحيب وكان عظمته يقدر المعلمين الوافدين . . حيث كان مع بدء كل عام دراسي يستقبل البعثة المصرية في حفل عشاء . . ويرحب بهم ويجاملهم مقدراً دورهم في التعليم . .

وما مرت شهور . . حتى انتقل صاحب العظمة الشيخ سلمان إلى جوار ربه . . عام ١٩٦١ ، وكما تجمعنا للسلام على عظمته في العيد . . فعلنا . . وذهبنا للمشاركة في تشييع عظمته في مقبرة الحنينية . . وكان تشييعاً بسيطاً ، تعرفت حينها على مسألة هامة . . وهي كيف يتعامل أهل البحرين مع الموت . . . كانوا يتعاملون مع الموت بواقعية لافتة . . لم يرافق التشييع أي مظهر من مظاهر الاحتفالية . . حتى أن جثمان عظمة الحاكم كان محمولاً على نعش بسيط وملفوفاً ببساطة . . ووري عظمته رحمه الله التراب . . وانتقلنا إلى الرفاع حيث قمنا بواجب العزاء . . ولقد سمعنا من زملائنا الذين كانوا قبلنا الكثير

من مـزايا وتواضع عظمـة الشـيخ سلمـان طيب الله ثراه . . وبدأت بعـد ذلك الاستعدادات لإعلان جلوس ولي عهده المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان .

قلت في مقدمة هذا الحديث ، لم تكن هناك صحافة ولا وسائل إعلام متقدمة . . وكان ذلك في أوائل الستينات المبكرة . . كان الناس يتحدثون عن سنوات قريبة في أواسط الخمسينات ، ويتحدثون عن مستشار كان في البحرين . . حتى ١٩٥٧ . . هو تشارلس بلجريف . . ويسرفون في الحديث عنه . . ويروون قصصاً عنه تدخل في الأساطير أحياناً . . كانوا يروون أنه يركب حصانه ويجول في أوساط المدن والقرى يتفقد أحوال الناس . . وكانوا يروون أنه يعاقب بالجلد من يرتكبون شيئاً من المخالفات الجادة . . ويروون أن بلجريف كان رجلاً إدارياً وهو الذي أسس الإدارات في البحرين التي كنا نراها في معاملاتنا . . فهناك إدارات التعليم . . وإدارة الصحة . . ولم يكن في البحرين الا مستشفى النعيم آنذاك . . وهناك البلديات . . والجمارك . . والطابو . وتعليم البنات . . كان الناس يتحدثون عن ذلك . . واسمع بعضهم يوجه إليه النقد الشديد والبعض الآخر يتحرج . . ويذكر شيئاً من حسناته . . لست أدري ما وجه الشبه بين «بلجريف» وبين «جلوب» ، الذي كان الأردنيون يروون عنه حكايات مماثلة ويسمونه تحبباً «أبو حنيك» ويبدو أن بينهما صفات مشتركة كثيرة!!

«المستشار» وهذه وحدها اسم علم عليه . . وأحياناً يتحدث الناس عن الخمسينات . . وعن تجمع يطلقون عليه الهيئة . . ولم يكن الحديث واضحاً . . ولم تكن الأحكام محددة . . ولأنني طارئ على المشهد . . فلم أكن أتابع البحث في التفاصيل ، ولا أجد نفسي معنياً بالذهاب وراءها . . لكنني أسمع . . ويكون ما أسمعه شيئاً من الفكرة التي أكونها حول هذا المجتمع الذي وجدت نفسي في داخله ، وأحببت ألا أكون متشرنقاً . . بل أسمع بأذن مفتوحة على الأقل . . وإن كنت في كثير مما أسمع أظن أنه لا يشكل لي تحدياً معرفياً . .

لكن المعلومات . . وكما قال الشاعر البحريني طرفة بن العبد

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود . .

وإذا أنت لا تسعى إلى الأخبار فهي تصل إليك بغير قصد . . فمثلاً كان في أحد الصفوف التي أدرسها ، طالب هو عبدالرحمن إبراهيم فخرو (وهو الجراح المعروف حالياً) . . وكان طالباً نجيباً . . وكنت أطيل الاهتمام بالطلاب النجباء . . وأحب أن أسمعهم وأن أتتبع بعضاً من اهتماماتهم . . وفاجأني الطلاب ذات يوم بقولهم أن والده محتجز في السجن آنذاك . . على إثر أحداث الهيئة . . ولم أكن أدرى ما الهيئة ولا أدرى أي تفاصيل عنها ، لكن الطلبة كانوا يروون التفاصيل وكان ١٩٦٠ قريب العهد من ١٩٥٦ ، ويحدثونني عن أحداث مرت في تلك السنوات وحدثوني عن مرورعبدالناصر في البحرين ، لا أدري في الذهاب أم في الإياب . وأن الناس رحبوا به بشكل غير عادي . . وقد اهتم الطلاب في إيصالي هذه المعلومات . . بل إن واحداً منهم أحضر لي صورة وفيها جمال عبدالناصر يسير في مطار البحرين وبجانبه شارلس بلجريف . . وبعض الطلاب استخدموا وسائل الإيضاح الجغرافية . . ونحن نقف عند بوابة مدرسة الهداية أشاروا إلى الشارع وقالوا هنا كانت بعض الدوائر الصحية . وهنا مر سلوين لويد . . وقد قذفه الناس بالحجارة . . احتجاجاً على العدوان الثلاثي . . وأخذ الطلاب يحدثونني عن أشياء كثيرة . . بعضها استقر في ذهني وبعضها مر تحت وطأة النسيان .

كان ما حدثني به الطلاب مفاتيح لفتت نظري إلى أن هناك لهذا الموقع من الوطن العربي تاريخاً وله خصوصية فيما يظهر . . وتذكرت أنني قرأت في الكتاب الذي ألفه نهرو وذكر فيه أن الأردن بلد صغير ، لكن مشاكله مشاكل بلد كبير . . لا أدري ما الذي جعلني أتذكر تلك المقولة آنذاك؟! فهناك وعي ما بالحياة . . وأن المحرق على الأقل . . لها نصيب كبير من هذا الوعي . . وأنهم

ليسوا فقط يلعبون الرياضة في الأزقة والبراحات كما ذكر مصطفى صبحي مدير الهداية في الأربعينات وإنما هناك في ذاكرة الناس أشياء أخرى . . وأحداث أخرى . . كانت تنفلت على ألسنة التلاميذ وهم يحدثونني عن بعض ما يذكرون وبعض ما يهتمون . وكنت أصغي لهم وأن أقدر فيهم هذا الوعي بالأحداث حولهم . . وكنت أسمع لهم وأشعر بالراحة ويثقون بي ، وعادة ما تكون الثقة بين الطلاب وأساتذتهم ليست في أحوال طيبة . . فالعلاقة بين الأساتذة وطلابهم ، يشوبها التوتر . . لأن الطلاب لا يحبون الدراسة في العادة ويعادون الأساتذة الذين يتشددون في تعليمهم . . وذلك بطبيعة الحال نقص في وعي الطلاب . لأنهم ما أن يكبروا حتى يدركوا أنهم كانوا مخطئين وأن الأساتذة ما كانوا ليتشددوا إلا لكي يكون تحصيل الطلاب مناسباً للجهد الذي يبذله الطرفان . . وإنني أزعم أن طلابي كانوا لا يعادونني ولا أقول يحبونني . . وهذا ليس لأني أتهاون معهم في تعليمهم كما يتبادر للبعض فوراً ، بل لأنني أعلمهم بطرق مختلفة وتحقق في النهاية ذات المردود .

قررت أن أقرأ الكثير عن البحرين . . لأزداد معرفة بهذه البيئة ، وكنت أقرأ كل ما يقع تحت يدى عن البحرين . . وأذكر أن صديقي المرحوم خليفة حسن قاسم كان يكتب في صحيفة أسبوعية تصدر عن شركة النفط بابكو . . كان يكتب فيها عن تاريخ البحرين حلقات متواصلة . . وكان يحضر لي عدداً من هذه الصحيفة . . ولفت نظري هذا التاريخ فعلقت به وأصبحت أبحث في تاريخ البحرين بحث الذي يريد أن يعرف . . وعرفت الكثير . . ووقع تحت يدى كتاب لمؤلف إيراني كما أعتقد هو «مجيد خدوري» عن البحرين . وحاولت أن أقرأه كاملاً . . وفعلت ومازلت أذكر ذلك الكتاب بغلافه الزيتوني . . وخصوبة المعلومات التي وردت فيه . . ولقد كان شديد الحرص عل تأكيد أن البحرين مرتبطة بالجغرافيا العربية والتاريخ العربي بروابط لا يمكن التشكيك فيها ، وللحقيقة فإنني أعجبت بذلك الكتاب . . ولخصت بعضاً مما ورد فيه في

مذكرات كنت أكتب فيها أي معلومات عن البحرين في تاريخها البعيد والقريب . . وفي جغرافيتها كذلك . . لقد كانت معلومات بسيطة عن هذه المنطقة . . وساذجة أحياناً لكنني كنت أبحث وأقرأ وأتعرف . . ولقد عجبت أشد العجب ، حين وجدت أن الشركة التي تستخرج نفط البحرين أمريكية . مع أن البحرين حتى ذلك التاريخ في أوائل الستينات كانت مرتبطة ببريطانيا بشيء من التبعية .

وأنا أبحث عن مصادر للمعرفة عن البحرين . . علمت أنه في الخمسينات صدر في البحرين عدد من الصحف . . ثم اختفت ومنها القافلة مثلاً ثم الميزان . . وصحف أخرى . . وأن سبب إقفالها هو الخلاف بين أصحابها والمستشار . . وهنا مر فيما يروي الناس أسماء كثيرة . . منهم علي سيار ، ومحمود المردي ، وأحمد يتيم وأسماء أخرى . .

وكان هؤلاء مجرد أسماء تمر بي . . لم أكن قد قاربتهم أو تعرفت إليهم ، لكن علمت أن في الخمسينات صدرت صحف ثم أقفلت . . وفجأة عثرت على معلومة مثيرة هي أن في البحرين مجلة اسمها «صوت البحرين» . . صدرت في أوائل الخمسينات . . ويرأس تحريرها إبراهيم حسن كمال . . وكنت عرفته صدفة أول الأمر ، حيث كان يملك متجر «العلم الأخضر» في عمارة المطيري وقد اقتنيت بالشراء أول كاميرا تصوير أملكها في حياتي ، وما تزال تعمل حتى الآن وتعمل بشكل جيد وعمرها الآن ٤٨ عاماً . وللمصادفة أني كنت قد درست عدداً من أبناء إبراهيم حسن كمال . . وكان في الصف الذي أدرسه في تلك المرحلة حسن إبراهيم حسن كمال . . الذي صار فيما بعد ذا اسم في العمل الخيري ، في جمعية البحرين الخيرية التي رأسها المغفور له إبراهيم حسن كمال مدة طويلة . . وهو الآن رجل من رجال العقارات المرموقين في مملكة البحرين . . واقتصادي معروف . . ويرأس تحرير مجلة «البحرين الخيرية» .

تحدثت معه عن صوت البحرين . . وكانت علاقتي به كطالب جيدة

وودية ، فقال لي : «يا أستاذي . . كل أعداد صوت البحرين موجودة عندنا» . . قلت له «أين هي الآن» . . قال ملقاة في طبيلة السيارة - لأنها مخزن لمثل هذه المجلات .

وطلبت من حسن إبراهيم حسن كمال أن يحضر لي بعض أعدادها ، وزيادة في الكرم أتذكر أنه أحضر لي كل أعدادها . . على دفعات ولعلها لا تتعدى خمسين عدداً . . أخذت أقرأ في صوت البحرين . . وعلمت من خلال قراءاتي أنها كانت تحرر من البحرين . . وتطبع خارج البحرين وربما في بيروت . . وحيث أن إبراهيم حسن كمال رجل أعمال معروف ورجل ثقافة فقد كان يعمل مع المرحوم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة وزير المعارف . . وللمرحوم إبراهيم حسن كمال إلمام بقضايا التعليم والتعاقدات مع المعلمين ، وكان سكرتيراً لنادي البحرين . . وهو رئيس تحرير صوت البحرين التي صدرت ١٩٥٠ واستمرت إلى ١٩٥٤ . . ولعلي فوجئت على قلة خبرتي ، بمستوى صوت البحرين ، حيث كانت ذات مستوى رفيع في موضوعاتها وتبويبها وتوجهاتها وحواراتها . . وفيها متسع للمقالة وللقصة وللشعر . . وعلى صفحاتها تنفس كثيرون من الكتاب في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد تكونت صوت البحرين شركة مساهمة من عدد من الأشخاص ذوي المكانة في المجتمع والاهتمام الثقافي ، وقد دارت فيها حوارات كثيرة ، وكثيرون من كتابها كانوا يكتبون بأسماء مستعارة ، واستقطبت كتاباً من المناطق المجاورة ، ومن المنطقة الشرقية من جزيرة العرب . ومن كتابها إبراهيم العريض ، وحسن الجشي ، وعبدالرحيم روزبة ، وآخرون ، وتمتاز هذه المجلة برصانة في الموضوعات ولها توجه متحرر لكن بكثير من الانضباط والتعقل والرصانة ، إن في البحرين صحافة من الوزن الثقيل ، صحيح أنها لم تستمر ، وإن كانت مؤيدة من الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة طيب الله ثراه ، فقد كان يدعمها بالمال ويدعمها بالمقر الذي جعله لها من ممتلكاته في المنامة . . ونظراً لعدم تقدم التقنيات الطباعية في البحرين ، فقد

كـانت تطبع في بيـروت مـا عـدا العـدد الأول ، وكـانـت مطلوبة . . وتوزع كل أعدادها .

كلمـا بحثت في موضوع أجـده ليس منقطعاً عـما قـبله . . وليس نابتاً من فـراغ . . والثـقافـة تراكـم . . فقـد وجـدت وأنا أبحث أن صوت البـحـرين ليست تأسيساً مبتدئاً فقد سبقت بجريدة أسبوعية هي البحرين . . للشاعر والصحفي عبدالله الزائد ، حيث أصدرها إبان الحرب العالمية الثانية . . وكتب أنها يومية . . لكنه أصدرها أسبوعية . . وقد أحضر لها مطبعة من الخارج . . وغطت البحرين لعبدالله الزائد فراغاً إعلامياً هاماً إبان الحرب الثانية .

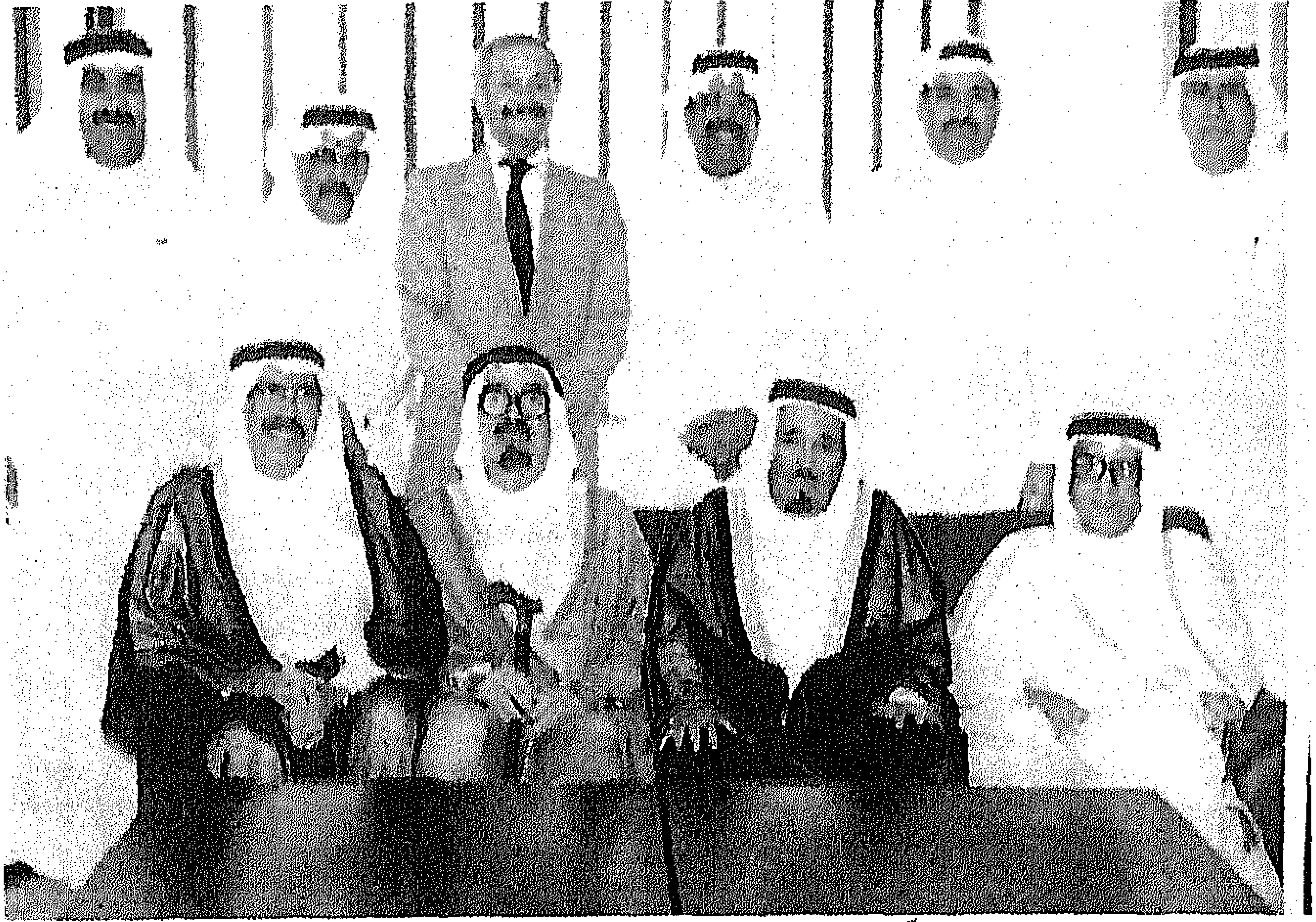
وبحثت عن أعداد منها . . ووجـدت . . وقرأتها . . فإذا هي جريدة منوعة . . سياسية ، اجتماعية ، أدبية . . وكـانت تغطي أخبار الحلفاء - وهذا مما جر عليها بعض المآخذ - ويكتب فيـها كتاب كثيرون من ذوي الأقلام في تلك المرحلة ، وتدور في صـفحـاتها حـوارات شـديدة وحـادة . . وبعـضـهـا بأسـماء مسـتعـارة . . وكتبت فيها أخبار التعليم ، وفيها إعلانات ، وكذلك الشعر . . والقصة القصيرة والنقد والحوارات . ولقد كان عبدالرحمن المعاودة ينشر فيها رباعيات يحاكي بها رباعـيـات الخـيـام ، وتعـرض المعـاودة إلى هجـوم شـديد ونقـد مـدوٍ وهب بعض الكتاب للدفاع عنه ، ونشبت حـواريات ذات أبعاد كـبيـرة ، مع شاعر الشباب ، وضد شاعر الشباب ، وشـاعر الشبـاب هو لقب المعـاودة . . وتطور الحوار وتشعب وتحول إلى ملاسنات حادة . . إلى أن تدخل القاضي عبدالحسين الحلي . . وأمر بفض هذه الحوارات وإيقافها لأنها خرجت عن مقصدها . . فتوقفت .

في جـريدة البـحـرين ذخيـرة كـبيـرة من الموضوعـات وهي تدل بشكل جيد على اهتمامات الكتاب والكاتبات في تلك المرحلة ، وكان التعليم يحتل مكانة عالية في البحرين . . ولقد أحسن الأخ الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم صنعاً حين كتب بيبلوغرافيا لجريدة البحرين . . تعين البـاحثين على العودة إليها فيما يهمهم من موضـوعـات ومن عناوين . فـبحـثت واكـتـشـفت أن «البـحـرين» ليـست نبتاً

شيطانياً فهي مسبوقة بجهد صحفي هام وجاد ولافت . . ففي أواخر العشرينات نزل إلى البحرين الرحالة الكويتي عبدالعزيز الرشيد . . وكان قد أصدر مجلة في الكويت أسماها «الكويت» . . ولما نزل في البحرين لظروف لم يستطع أحد أن يحسم فيها رأياً . . أقام هنا وعمل معلماً في مدرسة الهداية الخليفية في المنامة في أواخر العشرينات وواصل إصدار مجلة «الكويت من البحرين» وأصدر منها بضعة أعداد . . وفيها موضوعات تدور حول قضايا بحرينية . . وكان يحررها في البحرين ، ويرسلها إلى الخارج ليطبعها . . وهذا يشكل سبقاً في العمل الصحفي شكل في البحرين تأسيساً بنى فوقه الزائد ثم إبراهيم حسن كمال ، ثم علي سيار والمردي وأحمد يتيم . . وآخرون . . إلى أن كانت الستينات فتوقف العمل الصحفي برهة ثم تحرك في عام ١٩٦٥ . . وكانت الأضواء . .

إذن فإنني لم أنزل في وادٍ غير ذي ثقافة ولا صحافة . . إنه يزخر بالرواد والأعمال التأسيسية ، لكنه يحتاج إلى أناة في البحث والوصول إلى هذه الأعمال الرائدة – وفي أول الستينات تكونت لدي فكرة طيبة عن الحياة الثقافية في البحرين ، من خلال قراءة صوت البحرين ، والبحرين ، والكويت ، وكلها . . ذات فائدة جنيت منها الكثير . . ووصلت إلى معارف كثيرة . ومنها الأندية التي انتشرت في البحرين ، وهي أندية ذات أثر ثقافي منها نادي البحرين ، والنادي الأدبي ونادي إقبال أوال ونادي العروبة ، وهي جميعاً ذات أبعاد ثقافية لمن يريد أن يلم بهذه الجذور الثقافية في البحرين قبل النهضة الحديثة .

من هنا بدأت ببناء المحور الثاني من انتمائي للبحرين ، الأول عن طريق الرياضة وجماهيرها ، والثاني عن طريق الصحافة وتاريخها . . والأعداد المتبقية منها . . وأزعم أني ألممت بشكل ليس بسيطاً بالأعمال الثقافية الأولى في البحرين ، وأدركت أنني أمام قطر له تاريخ وثقافة وحضارة وله خصوصية يمكن البحث فيها وعنها فيما بعد .



الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة وعلى يمينه إبراهيم حسن كمال



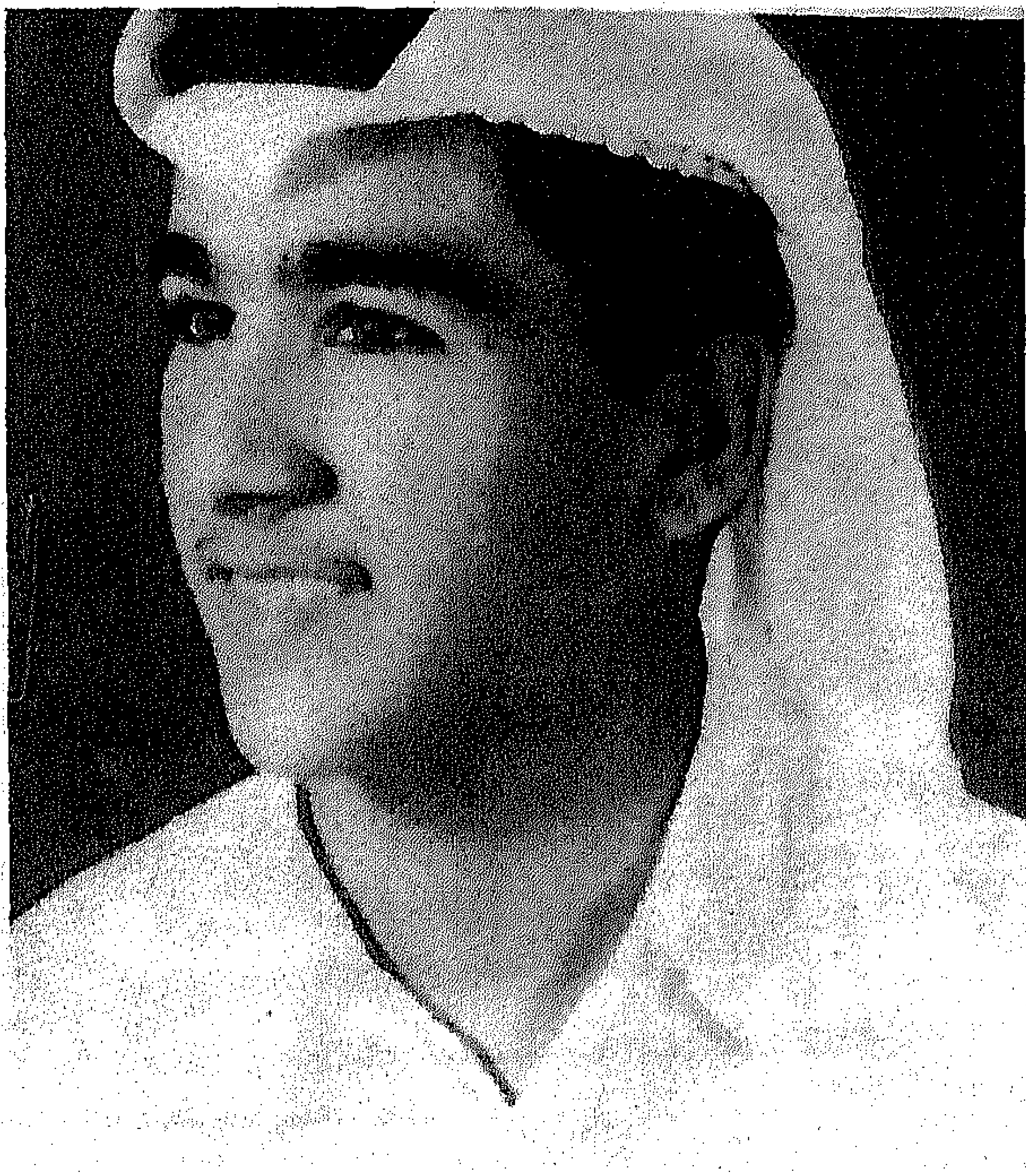
جمال عبدالناصر ومعه بلجريف يستقبله لدى مروره إلى باندونج



خليل المريخي



د . عبدالرحمن إبراهيم فخرو



حسن إبراهيم حسن كمال

(١٩)

❖ الشعر والأدب.. بوابتي الأوسع نحو النسيج البحريني المتعدد

❖ أعترف.. قراءتي لأشعار قاسم حداد والحواريات بيننا جعلتني أطرح إرهاصات تنتمي إلى الحداثة الشعرية

❖ تجرأت أن أكتب مقالاً عن الشعر البحريني بعد عامين من دراسة الساحة الشعرية المحلية

❖ «إن كان الشعر إلهاما واستلهاما فالبحرين أرض الإلهام وموطن الاستلهام».. هكذا وصفت البحرين في مقالي الأول

❖ عاش على أرضها عمالقة يتقطر أدبهم رقة وشعرهم روعة وجمالا

❖ غازي القصيبي من ارق الشعراء غزلا، يصدر شعره عن قلب رقيق حساس يفكر بالفراق قبل اللقاء

«بدأت اللوحة تتكامل ، وأخذت الرقع تتماثل لتصير ثوباً . . والألوان تتجاور . . بدأت أعرف الآخرين ، بقدر يقنعني أن الحياة ممكنة ، ومقبولة ، وربما تصير جذابة فيما بعد . . إن موقع البحرين ، في هذا التقاطع الحضاري جعل من هذا الإقليم ممراً ، يتقاطع فيه الناس ، ويقيمون أوقاتاً متفاوتة ، تطول وتقصر ، والناس أنواع وأشكال . . وكل إنسان يحمل معه ثقافته . . وهذا أكد مع الزمن لأهل البحرين أن التعددية مسألة إنسانية جداً . . وأن الاختلاف بين الناس لا يمكن أن يكون مدعاة للخلاف ، فالناس يتكلمون لغات مختلفة . . والناس

يلبسون ملابس مختلفة . . والناس يحكمون على الأشياء أحكاماً مختلفة وهذا جميعه جعل أهل البحرين متسامحين جداً تجاه الاختلاف . . ومتفهمين جداً لمسألة التنوع ، وقادرين على استيعاب ما لا يشبههم ، بل يتقبلونه أحياناً ويطورونه لكي يتسق مع ما لديهم . . لا تعصبات ولا مشاحنات بدون مبررات ، ولا خلاف بسبب الاختلاف . . لا شيء من هذا في الشارع . . وفي باب البحرين على وجه الدقه ترى أمماً من الناس مختلفين ، في لباسهم ، وفي لهجاتهم وفي لغاتهم . . وكل ذلك يجري بتسامح كثير . .

مساحات أوسع بدأت أدخل عليها كي أندمج في المجتمع البحريني ، هذا الاندماج الذي كان يشكل هاجساً بالنسبة لي ، وعاملاً مؤرقاً حاولت اجتيازه باختراق قطاعات مختلفة وتمكنت من الولوج في كل قطاع باقتدار منقطع النظير . . القطاع الذي ولجت بعد الرياضة والبحث في التاريخ البحريني من خلال صحافته على مر السنين ، كان قطاع الشعر والأدب . .

لم يكن الناس يتزاحمون في هذا الفضاء . . كانت هناك فراغات في الحياة . . وعدد السكان لا يبدو كثيفاً . . والمفاجأة أنني وجدت أن تعداد السكان عام ١٩٥٩ ، أي قبل أن آتي بسنة . . هو ١٤٣,١٣٥ نسمة ، تلقيت هذا الرقم وأنا متشكك فيه . . فهو عدد لسكان ربما في مدينة صغيرة ليس إلا . . وبقيت شكوكي إلى أن أُجري تعداد عام ١٩٦٥ ، وقد شملنا هذا التعداد وصرت رقماً فيه ، فكان سكان البحرين ١٨٢,٢٠٣ نسمة . . هذا الرقم يرشح البحرين لأن تكون في غاية الارتياح السكاني والمعيشي . . لكن ذلك لم يكن يبدو على السطح . . لا بأس فقد بدأت أوقن أن البحرين بلد التسامح السكاني فيه ، أمر لافت . . وإن الحياة لوافد ممكنة بل ومريحة إلى حد ما . . إذا كان هو ملتزماً باستحقاقات الحياة في هذا المجتمع» . .

تعرفت على قطاع كبير من خلال الرياضة . . وقطاع واسع من خلال الصحافة ، وما يتداوله الناس من ذكريات قريبة وبعيدة . . لكنني سرعان ما برز

أمامي السؤال الكبير . . «ماذا عن الحياة الأدبية في البحرين»؟ . . «أين شعراؤها»؟ . . إن كان لها شعراء! . . «وأين أدباؤها»؟ . . إن كان فيها أدباء! . . فعدم وجود الصحافة المتداولة يجعل التعرف على هؤلاء وأولئك يتطلب بحثاً . . أذكر حين عرف أستاذنا في المدرسة الابتدائية في أوائل الخمسينيات ، البحرين . . ذكر أن فيها اللؤلؤ . . وأديب هو إبراهيم العَرِيض . . إذا كان أستاذي سمع بالعرَيّض ، فأين هو العَرِيض ومن هو العرَيّض . . ومن هنا بدأت خيطاً أنسج منه فكرة عن الأدب في البحرين . . وبدأت رحلة التعرف على الأدباء البحرينيين ، وقد خصصت بالبحث الشعراء . . حيث لم يكن هناك نهضة قصصية بهذا المعنى الشامل ، ولا هناك كتب نقد أو فكر أو ثقافة سوى ما كان يرد في الصحف ، جريدة البحرين ، وصوت البحرين . . لا شيء بعد ذلك . . وبحثت فتعرفت على عدد من شعراء البحرين . . تعرفت على إبراهيم العريّض ، وأحمد محمد الخليفه ، وعباس مهدي خزام . . وغازي القصيبي وأخذت أقرأ المتاح من أشعارهم . . ولم أكن تعرفت إلى أي منهم شخصياً . .

وما تكاد تمر سنتان . . إلا وتكونت لدي فكرة عن الشعر في البحرين في تلك الفترة . . أي الشعر الذي يرتبط بالنصف الأول من القرن العشرين . . صحيح أنني كان لدي مشروعي المتواضع ورؤيتي حول الشعر ، وقد كنت أجرؤ على إبداء الرأي في بعض ما أقرأ ، أو في الشعر العربي وتطوراته الحديثة . . في حدود محاولات ليست معمقة . . وأعترف هنا أن قراءتي لأشعار قاسم حداد وتلك الحواريات التي تدور بيننا منحتني فرصة أن أقول بعض الآراء التي تنتمي إلى الحداثة الشعرية . . ولكن في حدود إرهاصات . .

ولم أكن تحررت من الدرس الشعري الذي تعلمناه في المدارس الثانوية ، وفي دار المعلمين وهو تقسيم الشعر بحسب أغراضه ، هذا التقسيم الذي تجاوزه الآن الدرس النقدي . . بعد أن بقي مسيطراً على النقد الشعري العربي إجمالاً بضعة عشر قرناً . . وتجرأت بيني وبين نفسي أن أكتب مقالاً عن الشعر

البحريني . . وهو أول محاولة لي لكتابة مقالة نقدية مبسطة . . وحين استقر رأيي على الكتابة برزت مشكلة أخرى . . أين سأنشر ما أكتب؟ . . وليس في البحرين صحيفة تهتم بهذا الجانب . . أو يمكن أن تحتمل مقالاً من بضع صفحات . .

«في القدس ، سلام الله على القدس ، كان أديب فلسطيني هو الأخ أمين شنار . . والذين عملوا في الكويت أخيراً عرفوه . . لأنه انتقل إلى هناك بعد أن صارت القدس مدينة محتلة . . وقد أصدر مجلة شهرية . . مع بدايات ١٩٦٠ هي : الأفق الجديد - مجلة الأدب والثقافة والفكر . . ولا أدري كيف تعرفت عليها . . أو كيف تعرفت هي علي . . المهم أنني كنت أتلقى منها بعض الأعداد . . وقررت أن أكتب فيها . . وأرسل لها المقالة عام ١٩٦٣ ، أي العام الثالث لوصولي هنا . . وكان ذلك جرأة مني . . بعد سنتين أزعم أن فكرة كاملة تكونت لدي عن شعراء البحرين . . وأنني أصبحت قادراً على أن أكتب عنهم! . . وهكذا قررت . . وكتبت . . وأرسلت المقالة إلى الأفق الجديد ، ولم أكن أتوقع أن تنشر . . وإذا نشرت لم أتوقع أن أعلم بذلك . . ولكن على غير التوقع نشرت في العدد ٣ شباط ١٩٦٤ السنة الثالثة .

«وإنني أظن أن هذا أول مقال ينشر خارج البحرين عن الشعر في البحرين . . وفيما عدا ما كان يكتبه إبراهيم العريض في الصحافة اللبنانية والمصرية فيما أظن . . لم يكن هناك كثير كتابة عن هذا الأدب والشعر البحريني . . وهنا أضع أمام القراء في البحرين ما كتبته عن شعر البحرين قبل حوالي ٤٥ عاماً . . . كم هي الأمور التي تغيرت . . وكم هي الأشياء التي تطورت!!! ومن العجب أن هذا العدد الذي نشرت فيه هذه المقالة ما يزال لدي وقد تغيرت بي الأيام ، وارتحلت إلى أكثر من عشرة مساكن في هذه الرحلة . . ومع ذلك بقيت أحافظ على هذا العدد من المجلة لأنه يمثل المقال البكر الذي كتبته في هذا الشأن . .

الشعر العربي في جزائر اللؤلؤ

إن كان الشعر إلهاما واستلهاما فالبحرين أرض الإلهام وموطن الاستلهام لؤلؤة في بحر من الزمرد ، جزر رائعة تقوم على سطح الخليج العربي بأمواجه الحالمة تغسل أقدام «أوال» كلما شاء القمر ، الماء العذب يتفجر من جوف الماء المالح . . والنخل باسقات لها طلع نضيد ، جزر البحرين تلفها الشمس كل غروب بسجف ذهبية والسماء المضمخة تحيط بها إحاطة الأضواء بالعروس الحلوة .

هذه هي جزر البحرين ، ينابيع من العطر تسقي أزاهير الفن ، وأين منها وادي عبقر الذي كان يوحي إلى الشعراء! هذه هي البحرين كانت ولا تزال موطناً خصباً من مواطن الأدب ومنبعاً ثرا من منابع الشعر ، عاش على أرضها عمالقة يتقطر أدبهم رقة وشعرهم روعة وجمالا . أليست البحرين موطن طرفة بن العبد صاحب الدالية الشهيرة بين معلقات العرب؟ أليست اليوم موطن إبراهيم العريض الشاعر الإنسان وموطن احمد محمد الخليفة وغازي القصيبي .؟

يقول النقاد ان الشعر الحقيقي ما كان كالصورة تلتقطها الآلة لمنطقة واسعة فتضغطها وتحتفظ مع ذلك بكافة التفاصيل ما دق منها وما وضح ، فتأتي القصيدة تعبيرا دقيقا عن انفعالات المجتمع بتفاصيلها ، فالقصيدة التي تعطينا صورة صادقة عن الحياة أو عن أي جانب منها هي القصيدة الخالدة ولا قيمة للشعر إذا لم يصور الحياة ويعبر عنها بكل متناقضاتها .

ولو درسنا الشعر العربي في البحرين لوجدناه يمثل خلاصة تجارب أدبية طويلة ، تمتزج بالبيئة امتزاجا شديدا فالشعر هنا خلاصة لالتقاء الحضارات وانعكاس لآثار البيئة وجمال الطبيعة وهو ليس بمعزل عن موجات التجديد التي يتعرض لها الشعر المعاصر ، فيساهم بعض شعراء البحرين في دعم هذه النزعة للتجديد في طبيعة وبناء الشعر التقليدية .

والشعر في البحرين متكامل ، يعالج الأغراض التي أصبحت هي الشائعة في عصرنا الحاضر ، وأنت عندما تقرأ قصيدة لشاعر من البحرين تشعر أنها عبارة عن صورة مخلصة لتراث طويل ولثقافة تكونت مع الأيام المتوالية ، ومن امتزاج الحضارات ، وبتعبير أدق نقول أن عوامل البيئة والثقافة ، البيئة بجمالها والثقافة بعراقتها ، أثرتا في الشعر في البحرين فانساب سحرا وعطرا فكانت كل رفة نسيم ومضة شعر ، وكل هزة نخلة خلجة خيال ، وقلما استطاع شاعر أن يتحلل من آثار البيئة في شعره حتى طرفة بن العبد نفسه فقد قال :

كأن حدوج المالكية[1] غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

وكان هذا الأثر واضحا في إنتاج جميع الشعراء من بعد طرفة ، حتى شعراء العصر الحديث بما يحيط بهم من مظاهر الحياة الجديدة وكمالياتها ، فكان اثر البيئة واضحا حتى انه كثيرا ما أصبح غرضا بحد ذاته فوجهوا كثيرا من شعرهم إلى الطبيعة الحلوة ، وليس ذلك غريباً فشعب البحرين يتذوق الجمال ويحوله شعرا ولوحات ورسوما .

قال الشاعر غازي القصيبي :

ارضي هناك مع الشواطئ والبحار الأربعة
والأفق والشفق المخضب حين ينثر أدمعه
فتظل ترمقه المياه كأنها تبكي معه

---

(١) المالكية : قرية بحرينية ما تزال قائمة إلى الآن .

حيث المساء يطل في صمت ويخطر في دعه
ويعانق الآفاق يمنح كل قلب اذرعه

. . .

الضوء لاح ، فديت ضوءك في السواحل يا منامه
فوق الخليج أراك زاهية الملامح كابتسامه
المرفأ الغافي وهمسته ، يهنئ بالسلامة
ونداء مئذنة مضوأة ترفرف كالحمامة
يا موطني ذا زورقي أوفى عليك فخذ زمامه

وللشاعر احمد محمد الخليفة قوله :

أوال يا حلم التجار ويا رؤى (م)
الغواص في البحر الجميل الصافي
ما أنت إلا صورة سحرية
في حسنها جلت عن الأوصاف
غناك رواد البحار ورددوا
ألحانهم في رنة المجذاف
والهازجات على الشواطئ بالهوى
مترنمات فوق كل ضفاف
فعلى رمال الشاطئين خمائل
وعلى شفاه السامرين قواف

وللشاعر عباس مهدي الخزامي :

بلد الأصداف واللؤلؤ والمجد التليد
ارسمي من صنع أمجادك لوحات الخلود

وأنيري أفق الأجيال بالفن الفريد
ايه يا أغنية الفجر وقيثار الوجود
وابتسامات الصباح البكر في ثغر الورود
يا بلاد العطر والإلهام والعيش الرغيد
كم تغنى بك سمار الليالي بالنشيد

الغزل عند شعراء البحرين

الغزل غرض خالد من أغراض الشعر ، قديم قدمه ، فن عميق لأنه صادر عن ضرورة إنسانية حياتية ملحة ولا يكاد هذا الفن يتغير في موضوعه مهما اختلفت الحياة وتباينت ، وشعراء البحرين أجادوا في هذا الفن ، ولإعطاء الفكرة عن ذلك نرى الأمثلة التالية :

للشاعر إبراهيم العريض :

وقـفنا ولما يشـرق البـدر طالعـا
ولا سبـقـتـه في السـمـاء نجـومـهـا
على جـدول قـد صـقلتـه يد الصـبـا
فـمـالـت مع الأغـصـان فـيـه رسـومـهـا
وكنت على مـا بي من الحـزن واجـمـا
وكـانت هي الأخـرى كـثـيـرا وجـومـهـا
نطقت اسـمـهـا همـسـا لتـرفع رأسـهـا
الي فلم تفـعـل ولست ألـومـهـا
فـأدنت فـمـا مـثل الاقـاح منورا
تودع والأحـشـاء دام كـلومـهـا
وقـد أرسلت من شعـرها حـول وجـهـهـا
فـفـاح كـعـرف اليـاسـمين شـمـيـمـهـا

وضـمت على الصـدر اليـدين كـأنما
هنالك شيء بالعـذاب يسـومـهـا
وأشـرق نور البـدر من خلف غـيـمـة
وغـادرتهـا والنفس ولهى ترومـهـا

والشاعر غازي القصيبي وهو شاعر سعودي عاش في البحرين منذ طفولته وحسب من شعرائها من ارق الشعراء غزلا ، يصدر شعره عن قلب رقيق حساس يفكر بالفراق قبل اللقاء ويخشى النوى قبل ان يحل النوى والقصيبي بلبل حزين غرد صداح وله :

أراك وراء ليـالي الجـفـاف
خـيـالا يموج بشـتى الصـور
فـفي ناظريك أمـاني الحـيـاة
وفي شـفـتيك ابتـسـام القـدر
والمح وجـهك عـبـر الفـضـاء
يضيء بهـالاته كـالقـمـر
احن لطيـفك عند الشـروق
واشـتـاق خطوك عند السـحـر
فـتـاة الخـيـال لنا مـوعـد
أعـيـش على يومـه المنتظر
ويغـمـرني منه نفح النعـيم
وهمس الأمـاني وحلو الحـذر
فـاحـيـا به واغني له
وأدعـوه يا حلمي المدخـر

أما الشاعر احمد محمد الخليفة فشعره الغزلي أكثر واقعية وأقل تهويماً من القصيبي ونلاحظ ذلك من قوله :

شاهدتها من ردهة المنزل
ترف في فستانها المخملي
فراشة بالنور سكرانة
بين الزهور البيض والجدول
تلفتت شطري مسرورة
كأنها للحسن في محفل
ترنو دلالا وعلى وجهها
سحر به الرحمن لم يبخل
دنوت منها أتملى وبي
ما يعتري الرهبان في الهيكل
هذا ترى حسن أم أن الرؤى
تصور الآمال والهم لي
ذكرني سحر ابتساماتها
لذات دنيا حبي الأول

القصة في شعر البحرين:

أن انعدام القصيدة القصصية شيء تقليدي في شعرنا العربي ولعل امرأ القيس حاولها دون قصد ، وبقي الشعر العربي خاليا من الملاحم الشعرية وليس هناك من تعليل أكيد لهذه الظاهرة فربما كان الروي والقافية هما السبب وربما كان الوزن وربما كان عدم إيمان العرب بالخيال ، ولو أن سيف بن ذي يزن أو أبا زيد الهلالي كان احدهما في امة غير العرب ما أظنه يمر دون ملحمة تخلد بطولته . واليوم يجيء إبراهيم العريض ليكتب الملاحم في الشعر العربي ، فله ملحمتان هما . «قبلتان» و«ارض الشهداء» والملحمة الأولى تصور حياة العرب في الأندلس والملحمة الثانية هي ملحمة فلسطين العزيزة ، وقد خلد الشاعر تاريخ

العرب في الأندلس بـ «قبلتان» وشارك في معركة فلسطين بأرض الشهداء وكل اقتباس من أحدى الملحمتين تشويه لها ، كما أن للعريض ديوانا من الشعر القصصي اسمه (شموع) .

الضياع والوجدانيات في شعر البحرين

إن الضياع في الشعر ظاهرة بدأت في الأدب الغربي الحديث وذلك ناجم عن إحساسهم بالتيه في صحارى الحياة ، حيث أصبح الإنسان هناك عبدا للالة ، وحيث أصبحت الروحانيات في الحياة الغربية ليست بذات قيمة ، ومن هنا فقد أدباء الغرب الإحساس بالحياة وشعروا بالفراغ ، لان مقاييس المجتمع الغربي اصبحت مادية بحتة وشعروا أن الدنيا أضيق من أحاسيسهم وآمالهم ونتيجة لانفتاح الثقافة في العصر الحديث انتشرت نظرات الضياع والغيبيات والتيه ، حتى وصلت إلى الشعراء العرب على غير ضرورة ، ولكن الثقافة المتفاعلة في العالم اجمع هي السبب المباشر .

نلمح التيه والضياع في شعر الشابين احمد محمد الخليفة وغازي القصيبي بشكل ملموس ، ربما لان الشاعر بما له من احساس مرهف يشعر بان الدنيا لا تملا طموحه ولا تتسع لمشاعره ، يقول غازي القصيبي :

يا سنيني تحية من شريد
ضاع في القفر مثل باقي القطيع
ظامئ للحياة والحب والشوق
فأين ابتسامة الينبوع؟
ليته مر بالسعادة يوما
ليته عاش مرة في الربيع
ضاع مني الصبا وضاعت أمانيه
ففري من الخريف المريع

ليس هذا حسناء أول جرح
طالعي قصة الأسى في دموعي
انه عمرنا يضيع كما ضعنا
ويمضي لهوة اللارجوع
وللشاعر احمد محمد الخليفة قصائد ضياع كثيرة .

الشعر الوطني

الشعر الوطني تعبير عن ضمير الامة بكاملها والشعب العربي في البحرين كأي شعب عربي آخر ينفعل مع الأحداث ويتفاعل بها ، فقد شعر بمأساة فلسطين وشارك الجزائر معركتها وللشعراء في البحرين أكثر من قصيدة في موضوعات وطنية ويكفي أن يكون إبراهيم العريض قد وضع ملحمته عن «ارض الشهداء»

وللشيخ احمد محمد الخليفة قوله عن اللاجئين :

بين الرياح تراءت لي خيامهم
شوهاء يصرخ فيها الجوع والسقم
حبست أنفاسي الحرى وصحت بهم
وبي نزوع ليوم الثأر محتدم
هيا فقد طلع الفجر الوضيء لنا
فحطموا معقل الظلام واقتحموا
حان الجهاد وغنى المجد واحتفلت
جيوشنا فتلوّى فوقها العلم
وزمجر الثأر في أعماقها ومشت
تميد من تحتها الاطواد والقمم
تقول والعلم الخفاق في يدها
إما لنا النصر في الدنيا أو العدم

وأخيرا شعر المناسبات ، وهذا النوع من الشعر موضع اتهام دائم من النقاد طيلة القرون فهم يعتقدون انه خال من العاطفة وان كثيرا من القصائد خلدتها المناسبة ولم تخلد هي نفسها ولكن هناك ما يهز العواطف من المناسبات من ذلك قول احمد محمد الخليفة بمناسبة المولد الشريف :

عـــانقي المجـــد واهزجي يا صـــحـــارى
واســـتـــفـــيـــقي وطاولي الاقـــمـــارا
واسكبي الضـوء في مـواكب هذا الليـل
بـشــــــرا ونـضــــــدي الازهـارا
واحـــملي مـــعـــزف اللقـــاء وغنى
واجـعلي الليل يســتـشـيـر النهـــارا
انهـــا نـهـــزة الزمـــان بعـــهـــد
كـــــان حلمـــــا يداعب الافـكـارا
ايه صـــحـــــراء هذي البـــــوادي
كلهـــا تسكب السنا اســتــبــشــارا
انهـــا ليلة الســـمــاء فـــحــسب الأرض
ان تمـــــلا الـــــدجـــــى أنـــــوارا
انه مـــولد النبي فـــحـــسب الروض
ان يـهــــــرق الـشــــــذا المعـطـارا

وبعد ، هذه لمحة عن النهضة الشعرية المعاصرة في البحرين ، نهضة لها جذور في التاريخ البعيد ولها مستقبل مشرق عتيد : أن البحرين بلد الأصداف واللؤلؤ والمحار بلد البحار الأربعة لجديرة بهذه المنزلة المشرفة التي تتبوأها في الأدب العربي .



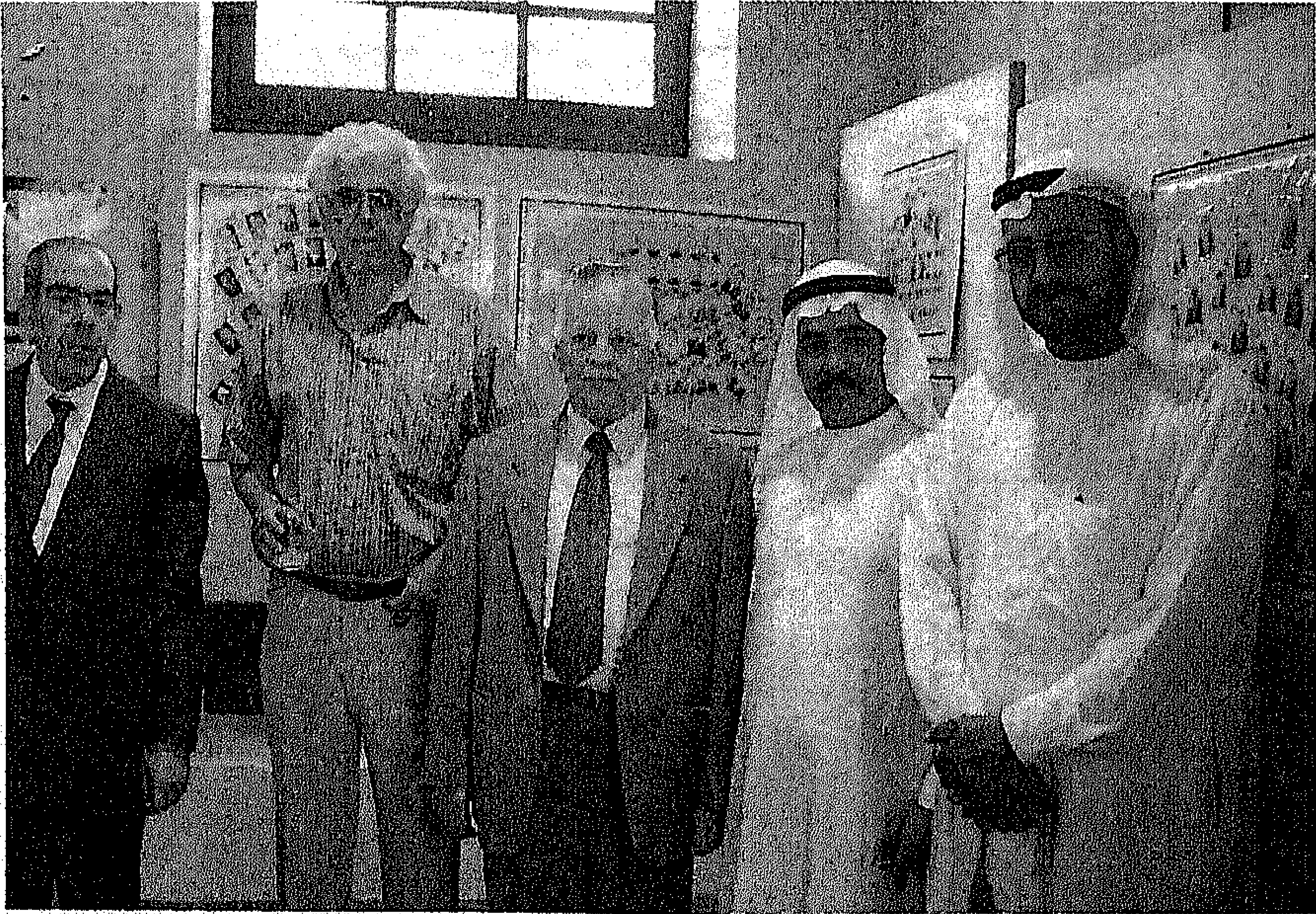
المحادين مع إبراهيم العريض في مدرسة الهداية



إبراهيم العريض ، علوي الهاشمي ، محمد جواد رضا ، عبدالحميد المحادين



إبراهيم العريض وعن يمينه المحادين وعن يساره علوي الهاشمي ومنصور سرحان



ياسين الشريف ، وعن يمينه المحادين ووفا نبهان وعن يساره عبد الوهاب بوكمال ، إبراهيم جمعان

(٢٠)

❖ وجدت في البحرينيين قدرة فائقة على التعامل مع حقائق الحياة بحلوها ومرها

❖ رأيت أناساً يجمعهم الولاء والوفاء في حفل تنصيب الشيخ عيسى بن سلمان

❖ شخصيات وأسماء تقاطعت معها في الهداية الخليفية.. جمعتنا وفرقتنا الحياة في مساراتها

❖ لماذا يروق لي أن أردد (أقّسم نفسي في نفوس كثيرة)؟!

❖ ساندت والدي في قرار تعليم الأولاد والبنات.. قرار لا يعلم مسؤولياته سوى من عاش ظروف الناس في بلدي

❖ هذه قصتي مع السائح الأسترالي «باري سويفت»......

رأيت في تشييع المغفور له الشيخ سلمان بن حمد ، كيف يتعامل أهل البحرين مع الحزن ، ومع الموت ، وقد خلصت بيني وبين نفسي أن أهل البحرين يتفاعلون مع الحزن بكل صبر ورصانة ، وقدرة على التفاعل مع حقائق الحياة حتى لو كانت مؤلمة . .

وبعد فترة كان هناك مشهد آخر أمام قصر القضيبية ، حيث اجتمع الناس منذ الصباح الباكر وملأوا الساحات ، والطرقات والشوارع المحاذية للقصر ، حيث جرى احتفال تنصيب المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان حاكماً للبحرين في

شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦١ ، وللمرة الأولى أرى جموعاً بهذا العدد . . وأرى أناساً يجمعهم جامع الولاء والوفاء وهم يحتفلون بالشيخ عيسى ، الذي وقف في المنصة ، مع شقيقيه ، الشيخ خليفة والشيخ محمد ومرت أمامهم فرق الخيالة والشرطة ، والموسيقى . . وآلاف الناس لا يخفون حبهم وتعلقهم بالحاكم الشاب . . ثم وقف الشيخ عيسى في إحدى قاعات القصر . . ومرت به الآلاف تهنئه وتبايعه . . وهو يصافحهم فرداً فرداً . . وهنا رأيت الوجه الآخر للتجمع الشعبي ، وللتقاليد التي بدا أنها مستقرة وسلسة وتلقائية ، لانتقال الحكم من الشيخ الراحل ، إلى ولي عهده فكانت لقطة تمكنت معها أن أزداد معرفة بهذا الشعب الذي قادتني الظروف لأنزل بين أفراده . . رأيتهم في ساعة الحزن . . ورأيتهم في ساعة الفرح . . وكانوا يمنحون كل ساعة استحقاقاتها .

كانت مدرسة الهداية حتى عام ١٩٥٩ مدرسة ابتدائية . . وبعد ذلك أضيف لها صف أعلى . . ليكون أول ثانوي ، وليكون في العام القادم ١٩٦٠ ثاني ثانوي ، ولم تكن تسمية الإعدادية قد استخدمت بعد ، فوجدت أمامي زملاء سابقين في مدرسة الهداية الخليفية ، ومنهم عيسى الذوادي وخليفة الجلاهمة وراشد البوعينين ويوسف علي حاجي الأنصاري ، وعبدالله سلمان كمال ، ومدرسون عرب آخرون ، وكان في المدرسة أيضاً محمد العيد ، ومحمد عبدالملك اللذان صارا فيما بعد مديرين للمدرسة على التوالي . . ولا يغيب عن الذاكرة خليفة حسن قاسم ، وعبدالعزيز عبدالرحمن بوعلي ، وقد تفرقت بهم الطرق والأيام ، وتغيرت مواقع بعضهم ، وانتقل بعضهم إلى مراكز مختلفة ، مثلاً عيد صالح وخليفة حسن قاسم التحقا بالبحرية ومحمد العيد ومحمد العمال ومحمد عبدالملك استمروا في مدرسة الهداية ، ويوسف الأنصاري ذهب إلى الإمارات وعبدالعزيز بوعلي صار سفيراً في وزارة الخارجية . . وقاسم المناعي ترقى فيما بعد وصار مديراً ، وانتقل من الهداية . . بينما ذهب مصطفى الكاملي ملحقاً ثقافياً فيما بعد . . ومن الأساتذة العرب الذين كانوا قد سبقونا

بسنوات في الهداية ، خالد زنتوت وعادل سفيان ، ووجيه نزال ، والذاكرة محشوة بكثيرين من الزملاء . . الذين امتدت بنا صحبتهم فترة غير قصيرة . . ومن الإخوة البحرينية أسماء كثيرة قد لا تحضرني الآن وأنا أكتب من الذاكرة . . لكن كثيرين كانوا ذوي حضور مميز ولهم أنشطتهم ، فمنهم عبدالوهاب السيسي ، وشناف فيصل ، أساتذة التربية الرياضية وأحمد المحميد الذي كان سكرتيراً لمدرسة الهداية حتى خلفه في هذا المنصب الأخ عبدالقادر بوحمود ومن الزملاء ، وعبدالرحمن كتمتو ، ومحمد عبدالله دغيم ، وكان من زملائنا محمد السيد يوسف ، الذي صار محامياً فيا بعد . . وكانت مدرسة الهداية مجتمعاً متماسكاً متآلفاً ، أساتذة وطلاباً ، وكان العمل في هذه المدرسة فرصة للتعارف والتآلف مع أهل المحرق أولاً ، ومع الزملاء العرب والبحرينيين ، على حد سواء . .

«وقد كان المدرسون بشكل خاص يحرصون على حضور المناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة . . وهذا يشكل فرصة لمزيد من التعارف ، ولمزيد من ألفة المجتمع ، وهي ألفة ضرورية لكثير من الناس المقيمين ، فهي تخفف عنهم بعض المعاناة التي ربما يلقونها بفعل هذا الاغتراب الدافئ .

ها قد مرت سنتان أو أقل قليلاً . . ولم أتحدث عن الوجه الآخر لحياتي ، وهو تلك الأسرة التي انفصلت عنها بشكل مفاجئ ، أنها والدي ووالدتي ، وإخواني الثلاثة وأختان . . وهي مرحلة كان لا بد من ذكرها لما لها من تأثير على معيشتي في البحرين ، وإحساسي بحال أسرتي التي ابتعدت عنها رغم تعويل والدي علي في الإنفاق على الأسرة . .

لقد سارت بهم الحياة بحسب نمطيتها المعروفة . . الأولاد والبنات في المدرسة يتابعون هذه الرحلة التي شاركتهم فيها سنوات ليست قليلة ، وكان قدري أنني الأخ الأكبر ، وفي الشرق ، وفي مشارف البادية . . يتحمل الأخ الأكبر مسؤولية مبكرة عن نفسه وعن أبويه وأسرته . . سيما إذا كان الأمر

يتطلب تضامناً مادياً بشكل مباشر . . كنت أتحمل هذه المسؤولية بكل الرضا وطيبة الخاطر ، وأنظر إلى أسرتي نظرة فيها الكثير من التعاطف والمواساة ، والرغبة في المساعدة . . وإن من أصعب الأمور التي تواجه أي إنسان هو أن يكون طموحه أكبر من إمكانياته المادية . . إن ذلك هو العذاب نفسه . . وإنني كنت أعاني من ذلك الكثير ، وكنت أعلم أن أسرتي تمر في ذات ظروفي . . ولذا فإن المعاناة كانت أمراً مؤكداً ، واتجهت إلى أن أسهم في رفع المعاناة عن هذه الأسرة - وتذكرت دائماً قول الشاعر الصعلوك :

أقسم نفسي في نفوس كثيرةٍ
وأحسو قراح الماءِ والماء باردُ

إن تعليم البنات في مدينة الكرك ، عاصمة مؤاب كان قد بلغ مستوى لا يقل عن تعليم البنين ، ولكن في أوائل ستينات القرن الفائت ، كانت الأمور في الريف ، وأشباه القرى ، والقرى ، ليست مهيأة لتكون فيها فرص التعليم متاحة للجميع ، لاسيما تعليم البنات . . وفي ذلك الوقت كانت ٩٠ بالمائة من البنات أميات لم يذهبن إلى مدارس لصعوبة ذلك ، وحيث كانت المدارس محصورة في المدن الرئيسة . . ألم أقل فيما سبق أن امتحان الثانوية العامة كان يتطلب هجرة من مدن الأقاليم إلى العاصمة .

فكم هي المعاناة التي تتحملها أسرة مكونة من خمسة أبناء معهم بنتان ، يرغبون جميعاً في أن تتاح لهم فرصة التعليم ، ولأن البنتين في أسرتنا هما آخر الإنجاب . . فقد سبقهما الأبناء في الالتحاق بالمدرسة . . ولما كان موعد التحاقهما . . بدأت الأسرة تواجه امتحاناً صعباً . . وكانت معظم الأسر في منطقتنا تحل المسألة بأن تعليم الفتاة ليس ضرورياً . . ولا ألوم أحداً منهم ، وهم معذورون فإن الظروف الموضوعية تجعل من ذلك موقفاً عادلاً . . المهم ، أن أبناء الأسرة أخذوا يقتربون من الثانوية العامة ففي ١٩٦١ تخرج من الثانوية العامة أخي الذي يليني «فلاح» . . وبعد كفاح وتعطيل التحق بمعهد للمساحة

والقياس ، ودرس فيه بحيث نال الدبلوم والتحق في عمل في الضفة الغربية . . واقترب الأخ الذي يليه من المرحلة الثانوية ، والآخر من المرحلة الإعدادية . . بينما قررت الأسرة أن تكون فرصة الفتيات التعليمية مكافئة لفرصة الأولاد . . وهكذا كان . . رغم كل المشقة والمعاناة . . فقد كان والدي يؤمن بأن الذكور والإناث في الأسرة لهم حقوق متساوية ، وأول هذه الحقوق حق التعليم . . ولقد كنت أقتسم مرتبي الذي أحصل عليه كمعلم هنا في البحرين ، وقدرة ٦٠٠ روبية هندية ، أقتسم معظمه لكي أساند أسرتي في قرارها تعليم الأولاد والبنات ، وهو قرار لا يعرف مسؤولياته إلا من كان في ظرف مثل ظروف الناس في بلدي . . آنذاك . . حيث لا كهرباء ، ولا ماء ، ولا تلفونات ، ولا مواصلات ، إطلاقاً . . حياة بدوية أو شبه بدوية . .

بدأت الحياة تأخذ شكلها المستقر المستمر . . هنا . . أعمل في الصباح مدرساً في مدرسة الهداية الخليفية . . تحملنا إليها سيارات المعارف في الصباح وتعيدنا منها ذات السيارات ظهراً إلى المنامة ، وإلى منطقة القضيبية بالذات . . وهناك وقت فراغ كبير جداً . . من بعد الظهر إلى صبيحة اليوم التالي . . كانت فترة تسمح لأي إنسان أن يحقق طموحه إذا كان لديه طموح ولاسيما أن المسكن كان بقرب المكتبة العامة . . ولم نمكث سوى سنة واحدة في السكن المحاذي للمكتبة ، ونقلنا إلى سكن جماعي آخر . . في ذات المنطقة . . كنا نقضي وقتنا في المكتبة العامة . . نقرأ بعض المجلات ، وبعض الجرائد ، ونستعير الكتب ونقرأ فيها . . وهذه فرصة لكي يعمق الإنسان قدراته المعرفية . . ونقضي عصر بعض الأيام في الوقوف على حافة الملاعب نتابع مباريات كرة القدم وننفعل مع أحداثها . .

قبل البحرين هناك حادثة أو موقف رائع أتذكره رغم مرور سنوات طويلة عليه ، وإن كان البعض يراه بسيطاً إلا أن له معاني كبيرة عندي ، حتى أني دائم الذكر له ويسعدني أن أتحدث عنه ، في ربيع ١٩٦٠ كنت أعمل في طريق معان

الصحراوي . . قبل حضوري إلى البحرين . . وكنا نعيش في مخيمات ، وكانت الصحراء لا تبخل علينا بالرمال أحياناً تحملها الرياح وتكاد تغمرنا . . وكنت في مخيم واحد مع أصدقاء لي من عمان والسلط ، وأذكر منهم هاني مسمار وعيسى حداد ، وجورج تادرس وفخري الشيشاني ، وياسين مسمار ، وكانت الحياة تتطلب التعاون وأن نواجه تكاليفها ومشقتها مجتمعين حتى تخف عنا أعباؤها . . وكان يمر بنا أحياناً سياح يذهبون جنوباً إلى البتراء من خلال هذا الطريق الذي أسموه طريق معان الصحراوي . . وكان معظم السياح يقطعون المسافات بالأوتوستوب . . ومر بنا ذات يوم سائحان شابان في العشرينيات . . ونزلا على خيمتنا بغرض الاستراحة فرحبت بهما . . وقدمت لهما الماء ، والشاي ، وشيئاً من طعام متواضع . .

ولقد استطابا الجلسة والاستراحة . . وكان أحدهما إنجليزياً والآخر أسترالياً . . والأسترالي أكثر ألفة ومرحاً ، ولأنني أجيد شيئاً من الإنجليزية التي تعلمناها في المدرسة الثانوية وفي دار المعلمين ، بدأنا نتحدث معاً أنا والاسترالي واسمه باري سويفت . . وكان لا حديث للناس إلا في السياسة . . ومحور الحديث جمال عبدالناصر . . وكان في أوج زعامته . ولاسيما تحقيق الوحدة التي كانت بين مصر وسوريا . . وتحدثنا أنا والأسترالي في بعض القضايا العامة في ذلك الوقت ، لأن لا شيء مشترك تتحدث فيه سوى ما يلتفت إليه الناس من أمور السياسة . . ولو كان ذلك بسذاجة وبساطة . . وغادرا بعد أن شكراني . . وترك الأسترالي لي عنوانه ، ووعدته أن أكتب إليه فيما بعد . . وتمر الأيام وأحضر إلى البحرين ١٩٦٠ في ٩/٢٤ وبعد أن استقربي المقام كتبت إلى باري سويفت رسالة . . أخبره أنني الآن في البحرين . . وأعمل معلماً . . وأرسلت الرسالة ، ولم أكن أتوقع أن يجيئني رد عنها . .

ولا أقول انتظرت ، بل بعثتها ونسيتها . . وأفاجأ بأنه قد أرسل لي رسالة على عنواني في البحرين . . وكانت الرسالة مفاجأة لي . . وللحقيقة حين

قرأتها . . وجدت أن صاحبي الاسترالي كان وفياً بما وعد ، أميناً في حديثه ، وهو ذلك الشاب الذي لا يتجاوز الخامسة والعشرين وهو خريج كلية الإعلام في استراليا . . وكتب لي :

التاريخ :١٥ يناير ١٩٦١

عزيزي عبدالحميد

إنها فترة طويلة منذ تكرمت بالكتابة لي وتخيلت أنني رددت على رسالتك ، لكنني اكتشفت مؤخراً خطأي وأعود لأكتب إليك .

أتذكر جيداً حسن ضيافتك لي على طريق معان ، وبكل صدق أود أن أعلمك أنني وجدت العرب هم الألطف والأكثر دماثة من بين الثلاثين دولة التي زرتها ، ورغم أنني وزميلي كنا نمتلك المال ، لكن العرب (وأنت منهم) كانوا يستضيفوننا ويرحبون بنا لاعتبارات الأخوة فيشاركوننا ما لديهم .

كما أتذكر نقاشنا السياسي المطول ، وللأسف أن العلاقات بين الدول العربية واستراليا كانت متوترة بعد أن كانت الأفضل خلال الحربين العالميتين لتأتي بعدها قضية السويس وتختلف الأمور . ورغم أن منطق الصح والخطأ أمر وارد في مثل هذه القضايا ، فبكل سرور أود فيه أن أخبرك بأن العلاقات الدبلوماسية قد عادت بين استراليا والجمهورية العربية المتحدة .

وإن كنا قد شعرنا بقلق بعض الشيء تجاه مدارس المسيحيين في مصر فقد اكتشفنا أن الأربعة ملايين مسيحي من المصريين في مصر هم عرب يمتلكون كل الولاء لوطنهم تماماً كولاء أخوانهم المسلمين وينعمون بالحرية الدينية طبقاً لتقرير الأمم المتحدة بما في ذلك حق الآباء في اختيار نوعية التعليم الذي يفضلونه لأبنائهم . . فالمسيحية لا تشكل تهديداً للإسلام ولكن القوى الاستعمارية هي التي تسعى للتشكيك في الإيمان بالله خاصة وأن أي خلاف بين المسلم والمسيحي هو نصر للاستعمار وهذا ما لابد مواجهته بكل السبل .

لقد مررت برحلة ممتعة جداً في طريق العودة إلى موطني أستراليا مروراً

بسوريا ، تركيا ، إيران ، أفغانستان ، الهند ، ثم استقليت الباخرة إلى استراليا مروراً بجزيرة سيلان ، السكان المحليون في تلك الدول كانوا لطفاء معي وبالأخص في باكستان ، ان جمال وروعة تاج محل في (أجرا- الهند) تفوق الوصف ، فقد رأيتها خلال ضوء القمر ولا يمكن للكلمات أن تعبر عن هذا الجمال . . أما دلهي وطهران فكلاها حديثتان بالمعنى الغربي ، لكنني أفضل المدن الفارسية القديمة كمشهد وأصفهان التي تحمل الطابع الآسيوي بصدق . .

أما في لاهور فقد أصبت بالتهاب الكبد الوبائي وبقيت مريضاً لفترة طويلة ، إلا أنني ولحسن الحظ قد شفيت تماماً حالياً .

من الواضح أنك صرت تعيش في البحرين حالياً ، أتمنى أن تكون سعيداً في حياتك ، فقد لاحظت أنك قد ذهبت إلى مهنة التدريس ثانية ، فالتدريس مهنة مثالية ويسعدني أنك عدت إليها ، كما أنني على ثقة بأن صحتك جيدة ، فالبحرين دون شك ستكون بيئة أفضل صحياً من طريق العقبة!! وإذا تحدثنا بلغة سياسية فإن وجودك في البحرين يعد أكثر أمناً!!

الآن ، لابد من إنهاء الرسالة ، شكراً لك على مشاعرك اللطيفة ، ولغتك الانجليزية جيدة مع ملاحظة أن تستخدم الزمن الماضي في تعبيرك بدلاً من استعمال كلمة (have) بخلاف ذلك فإن أسلوبك في الكتابة يعد سلساً .

وبالمناسبة . . فلم أدون كتاباً عن تجربتي ، فالمرض قلص من طاقتي وحالياً لدي مشروعات أخرى تشغلني .

أتمنى لك كل النجاح

صديقك

باري سويفت

«عمر هذه الرسالة ٤٧ عاماً ، ولقد احتفظت بها ، ولم أكتب له في حينها . . وفي أوائل التسعينات تذكرت أنني ربما أجدد العهد في الحديث

معه . . فكتبت له رسالة ولم أطل فيها بل قلت له :

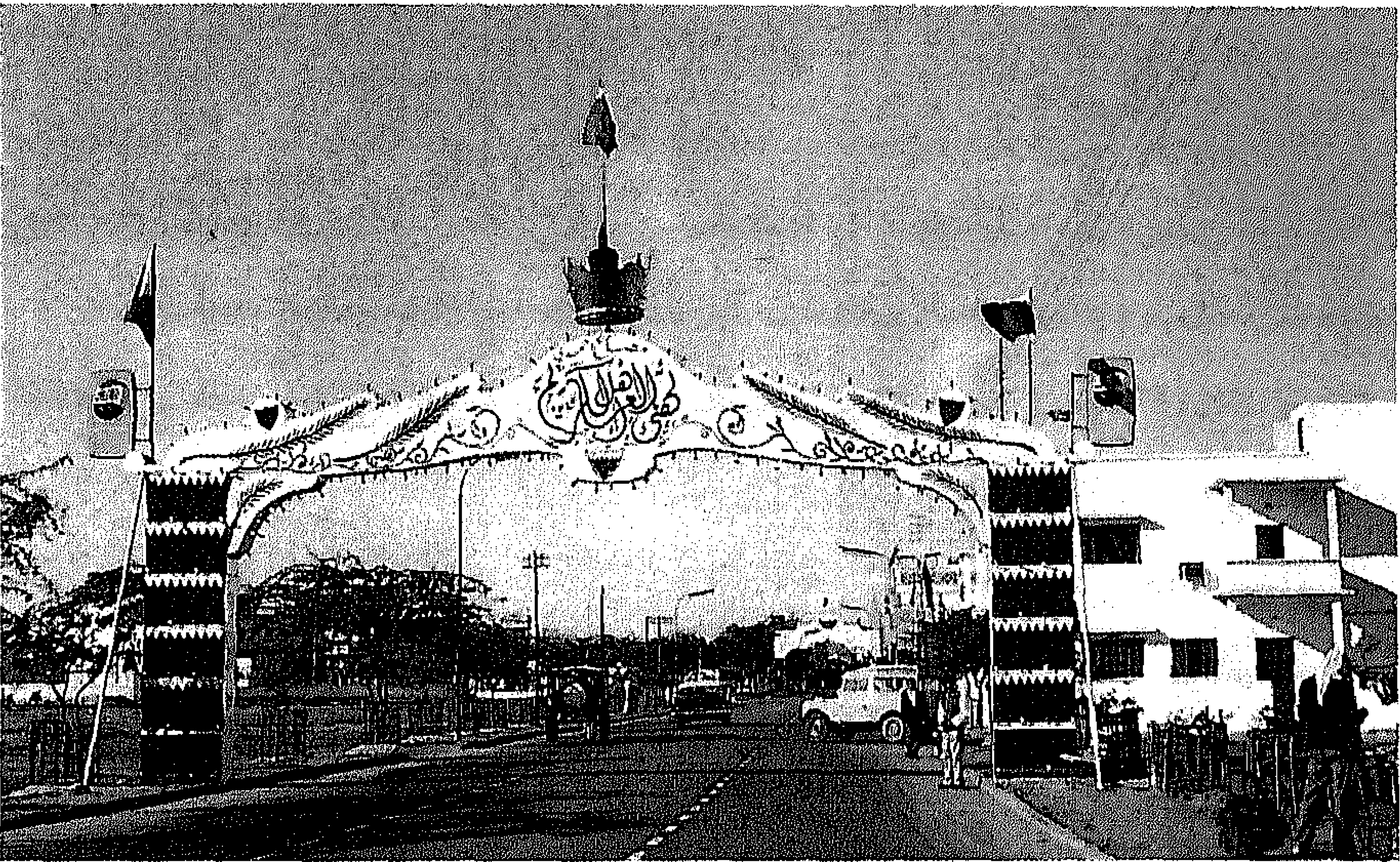
عزيزي باري

أنا مازلت حياً . . هل أنت كذلك؟!

وبعـث بالـرسـالة إلى عنوانه في نيـوسـاوث ويلز . . ولكن لم يجئ رده إلى الآن . . وما أدري هل باري سويفت مازال حياً»؟!! .



الحادين يتحدث في مدرسة الهداية



قوس زينة بمناسبة تولي الشيخ عيسى مقاليد الحكم

(٢١)

❖ أعترف الآن أمام طلابي أخطر الاعترافات لأول مرة

❖ أعتذر إلى كل الذين درستهم في بواكير حياتي.. إنني لم أكن أملك حكمة أو معرفة فائضة أقدمها لكم

❖ لم ير الناس مني إلا الرضا.. أما الجمر.. فإنني كنت أكابده وحدي

❖ «لا أملك حكمة تسعدني.. فكيف بي أمنحك حكمة تسعدك».. هكذا كنت أسارر نفسي حين يسألني طالباً ليقتبس من حكمتي!!

❖ كنت أعاني من مسألة أن تكون معلماً.. وأنت تحس أن ما تعلمه للطلاب ليس بذي فائدة

❖ بانتهاء الحصة كنت أكاد أركض لأسبقهم في الخروج من الفصل.. فهي أثقل علي ألف مرة مما هي عليهم!!

❖ كنت أشفق على نفسي وعلى تلاميذي وأنا أشرح وأفسر أقوال جرير للفرزدق

❖ بلقاء عبدالرحمن المعاودة تحققت لي معرفة شاعر كنت أسمع عنه وشعره الكثير

❖ مسرحيات عبدالرحمن المعاودة إضافة جديدة إلى الشعر العربي لم يسبقه إليها إلا أحمد شوقي

«بضع سنوات ، بل أقل من ذلك هي مدة وجودي هنا ، وصرت موزعاً بين

ثلاثة عوامل تتجاذبني ، ارتباطي بمن هم هناك ، أهلي وأسرتي ووالدي ووالدتي ، إخواني وأخواتي ، وإحساسي بأنني بشكل أو بآخر ، ولأكثر من اعتبار ، مسؤول عنهم ، لكي أخفف عنهم المعاناة وضنك العيش ، وارتباطي بنفسي ، أنا ، من أنا؟ وحينما انفرد في المساء في حجرتي ، التي هي العالم بالنسبة لي ، جدران أربعة ، وأشياء في أبسط الحدود ، وهي تكاد تكون رمزية ، سرير متواضع ومرتبة أكثر تواضعاً ، وغطاء ، وبطانية . . هذا كل الأثاث . . وأنا أنتمي إلى هذه الحجرة ، وإلى هذا الأثاث . . وكل وسائل الترفيه فيه مروحة ، لا أكثر ولا أقل» . .

كتبت الصحفية رندة فاروق معلقةً على بعض إعترافاتي في جريدة الوطن (حديث الدكتور عبدالحميد المحادين في هذه الحلقة ذو صبغة فلسفية بحتة ، مليء باعترافات يدلي بها أمام طلابه الذين درسهم في الهداية الخليفية ولأول مرة خلال تاريخه الطويل والزاخر في البحرين . . الكلام الذي تفوه به كان مفاجئاً بالنسبة لي ، وأعتقد أن تلاميذه القدامى سوف يفاجأون به ، خاصة وأنني أسمع من كثير منهم استشهادات بكلمات وعبارات كان قد قالها لهم خلال رحلتهم التعليمية معه والتي ربما ، بل وفي كثير من الأحيان تجاوزت مرحلة التعليم واستمرت لتصبح علاقة صداقة مستمرة حتى الآن ، فالمحادين عند طلابه رمز صداقة وابوة وأخوة لدى الكثيرين ، نادراً ما رأيتها بين طالب ومدرس) . .

«كنت أجد فرصة لتأمل ذاتي . . لأستحضر ما أريد أن أستحضره من تلك الحياة التي امتلأت بها ذاكرتي . . وكنت أفسر ما لا تفسير له ، وأناقش بصمت قضايا كثيرة معقدة ، وأطرق عشرات الأسئلة ، وأحاول أن أجيب عنها ، للحق فإنني أجبت عن كثير منها ، وأخفقت أمام كثير منها ، وأرجأت بعضها إلى مواعيد أخرى . . وحين تتأزم بي المسائل ، أقول لنفسي «ساعة أبرك من ساعة» وكنت أشعر أحياناً بالأقلية . . وبالوحدة . . وبالغربة . . لأنني أحايين أخرى

أتغلب على هذا الإحساس ، وأحاول أن أقفز فوقه ، وكلما عرض لي سؤال ذاتي : «لماذا أنا هنا»؟! أجيب : «ينبغي أن أكون هنا» . . وأطوف في ذهني لأرى حولي العشرات بل المئات . . أظنهم لا يختلفون عني كثيراً ، فهم أيضاً هنا ، ولماذا هم كذلك . . والإجابة لأنه ينبغي أن يكونوا كذلك» .

المسألة قدرية إذن . . لا اختيار فيها . . فهل نحن نختار ، وهل نحن نملك أن نكون هناك بدلاً من هنا . . مسألة استقرت في قناعتي إنها قدرية لا فكاك منها . . وإن كل الأشياء ليست مصادفة بل هي حصيلة لأسباب بعيدة جداً ، موغلة في القدم بحيث تتجه إلى أن تبلغ في كل لحظة مبلغاً كان لابدّ منه . . وحتى يصل الأمر أن نواجه هذا الذي بلغنا . . ينبغي أن نكون قادرين على استيعابه بقدر عجزنا عن تغيير مسبباته ومقدماته» .

«لا فائدة من طرح الأسئلة ، ولا فائدة من البحث عن الإجابات مادامت لا الأسئلة ولا الأجوبة قادرة على أن تغير أمراً كان مفعولاً . لكن التساؤل والبحث طبيعة في الإنسان الذي لا يستطيع أن يستسلم كلية إلى ما هو فيه . . سيما حين تحاصره الجدران . . ويجد نفسه في مكعب بائس ، يكاد يطبق على أضلاعه ، ويكتم أنفاسه . . ويزيد الإحساس معاناة هو أن الناس . . الذين اعتادوا على أن يتفاعلوا مع الآخرين بشكل ظاهري . . يؤمنون بوجودهم ويرحبون بهذا الوجود . . ويتعاملون معهم بتسامح . . وليس وراء ذلك شيء . . فالإنسان في مثل هذه الحالة مجرد رقم ، مجرد اسم ، مجرد كائن يتحرك ، ينظر إليه الناس على أنه ليس أكثر من هذا الوجود . . لا يدرون بإحساساته ، ولا يدرون بمعاناته ، ولا يدرون أحزين هو أم فرح ، ولا يدرون إن كان لديه ما يشغله ويؤلمه . . ويقلقه ، ويحيل حياته إلى جحيم . . لا . . ليس لديهم منك إلا أن تكون حيوياً مرحاً مبتسماً ، راضياً ، هذا أمر مفروغ منه . . انطوِ على نفسك والتف بمعاناتك . . واصبر على ما أصابك . . ولا تظهر للناس إلا تجملاً وصبراً ورضاً ، وأن تكون حيثما يريدونك راضياً مرضياً» .

لا أعلم كيف كنت أتفاعل مع ذلك . . كنت أستحضر في ذهني هذه الحياة وأرتبها ، وأفككها ، كالطفل الذي يلعب بالرمل ، يبني منه بيوتاً ، ويبني منه حدائق وجدران . . ودُمى وقلاعاً . . وإذا فرغ منها يجيل فوقها يده بسرعة فيعيدها رمالاً كما كانت . . وكنت كل ليلة أبني مدناً وأبني عوالم ، وأقيم مهرجانات . . وأسافر . . وأبتعد ثم أرجع ، وفي لحظة . . تنهار كل هذه العوالم . . وأواجه جدران حجرتي والضوء الذي يسهر على ليلي . . وإني أطفئ ذلك . . وأدخل في الظلام بانتظار اليوم التالي . . بعد أن أتحدث في خيالي مع والدتي وأخوتي . . وأسامرهم وأتخيلهم . . وأبدأ أتحسس همومهم وأضع الخطط لأساعدهم على تجاوزها . . وحين أقرر شيئاً من ذلك . . ربما أكون كتبت رسالة لهم . . أو أرجئ ذلك إلى اليوم التالي . . لأبدأ الحياة . . مرحاً ، متفائلاً ، لا يرى الناس مني إلا الرضا . . أما الجمر . . فإنني أكابده وحدي . . وأفرغ نفسي من كل الشحنات . . وعشرات التحديات . . ولكن يغفر كل هذا إنني أمام تلاميذي ، أظهر بمظهر الهادئ . . المستعد لتبادل الأحاديث والقفشات مع الطلاب . . وكم أجد سعادة وأنا أرى هذه العيون اللامعة في كل أرجاء الفصل تنظر إليّ جميعها . . كم يحتمل الأستاذ المدرس حين تلتقي كل هذه العيون على وجهه . . كيف يحتمل ذلك الانبهار . . ومع ذلك كنت أحتمل . . بل أستمتع بهذه العيون ، عشرات منها . . تنظر إليّ . . تريد أن أقول لها ما يفيد . . وما ينفع . . إنهم جاؤوا ليتعلموا وأنا جئت لأعلمهم . . يا لسخرية الحياة . . ماذا أعرف أنا لأنقله لهم . . وكيف هم بسذاجة يصدقون إنني أقول لهم ما ينفعهم في حياتهم المقبلة ، ولعل بعضهم يظن أني أنفعه في حياته الدنيا ، وحياته الأخرى ربما . . أنا هذا الصبي الذي يقضي ليله . . يجوب الآفاق ، ويحاور أناساً لا يراهم . . وربما يقارب البكاء ولا يبكي . . ولكنه يضحك أحياناً من سخرية الحياة . . وكم أجد حرجاً حين يلح تلميذ يرفع يده . . وسبابته . . ويُنادى يا أستاذ ، وأنا ربما أكون مشغولاً عنه بتلميذ آخر يعبث بكتابه أو بدرجه وأنتبه

لهذا الذي يلح في لفت انتباهي . . يريد أن يقتبس من حكمتي ومن علمي . . ومن معرفتي ، يأخذ زاداً ليسعده في القادم من أيامه . . وإنني أكاد أقوله له . . أنا لا أملك حكمة تسعدني . . فكيف بي أمنحك حكمة تسعدك . . يا ولدي أنا وأنت بحاجة إلى حكيم حقيقي يقول لنا ما الذي نفعله وهل نحن على الطريق السوي . . أنت وأنا هل نحن سائرون على درب يوصل إلى شيء؟ لكنني كما قال الشاعر هممت ولم أفعل ، هممت أن أقول له ، أنت وأنا وكثيرون غيرنا علينا أن نستمتع بجهلنا ، وبضياعنا وبقلة معرفتنا ، يا ولدي . . إنني لا أملك فائض حكمة أغدقها عليك ، فإنني أكثر منك ضياعاً وأكثر منك حاجة إلى حكمة حقيقية . . ومع ذلك فإنني ألتفت إليه ، وبوقار مفتعل أوجه وجهي صوبه فيرى كل وجهي ناظراً إليه ، فيجد أنه وصل إلى نبع الحكمة ويسأل سؤاله ، وأفتعل الوقار والرصانة وأجيبه عن سؤاله ، وينظر إليّ بامتنان كأنه فهم . . وأنظر إليه وأنا أعلم أنني لم أقل شيئاً ينفعه» . .

هل أواصل حديثي الصادم ، الذي سيصدم به كثيرون ، وأخالهم لن يصدقوني ، بل سيعتبرون ذلك نوعاً من تواضع الأستاذ أمام تلاميذه : «أعلم أن طلابي الذين سيقرأون الآن ما أكتب أو اعترف به أمامهم ، سيصابون بذهول وخيبة أمل . . فكثيرون يلتقونني الآن ويحدثونني عن أنهم يذكرون إجاباتي تلك ويحفظونها عن ظهر قلب وأن الأيام تبرهن لهم صدق ما ذهبت إليه وحكمة ما قلته . . والأكثر إثارة . هو أنهم يذكرون لي أقوالاً ينسبونها إلي ، أنا لا أعرفها ولا أذكر أنني قلتها . . وحتى لو كان كذلك فهي في الحكمة لا تساوي شيئاً بجانب هذه الحياة الصعبة والشاقة» . .

وما أن ينفض الدرس . . وأتخلص من هذا الحرج الذي أحسه بيني وبين نفسي . . وهو أن الطلاب . . يظنون أنهم وصلوا في تدرجهم إلى شيء من المعرفة المفيدة . .

لكنني بمجرد أن أنفلت من الدرس . . أكاد اركض لأسبقهم في الخروج من

الفصل ، فالحصة أثقل علي ألف مرة مما هي عليهم ، هي ثقيلة على لأنني أعاني من مسألة أن تكون معلماً ، وأنت تحس أن ما تعلمه للطلاب ليس بذي فائدة . . كما كنت أسعد حين أجد طالباً ، وقلماأجد ، يثير أمامي قضايا تختلف عن هذا الذي نتحدث عنه . . فأحس بأن شيئاً من ضيق الصدر قد تبدد» . .

«لا أدري ماذا يشعر مدرس ، وهو يقف أمام الطلاب ، الذين يصدقون أنهم يأخذون من هذا الجهبذ علماً يفيدهم ، وهو يمزق الصمت بشرح نقائض جرير والفرزدق . .

على سبيل المثال . . إنني كنت أشفق على نفسي وعلى تلاميذي وأنا أشرح وأفسر ، قول جرير للفرزدق :

إني انصببت من السماء عليكم

حتى اختطفتك يا فرزدق من علِ

كم من الجهد احتجت لأقرب هذه الصورة ، ولأجعلها جميلة بحيث يحبها الطلاب . . إن أى إنسان لا يمكن أن يقارب معنى إلا إذا أحبه ، وإذا أحبه يفهمه بشكل أفضل ثم يحق له أن يقيمه وأن يستخلص منه ما يضيفه إلى علمه . . فماذا أضيف لطلابي من خلال ما فعله جرير بالفرزدق . . هذا شيء قليل من كثير . .

إن هذا الشعور كان ينتابني وأنا أواجه طلابي . . ولعل طلابي يحبونني - هذا إذا كانوا يحبونني - لأنني لا ألتزم بتدريسهم بهذا المنهج الذي لم يكن يستحق الجهد المبذول فيه . .

وإني اعتذر إلى كل الذين درستهم في بواكير حياتي . . إنني لم أكن أملك حكمة فائضة أو معرفة غير عادية . . أقدمها لكم . . لكنني كنت أشيع بينكم الرضا والاطمئنان والاسترخاء . . وكنتم تظنون أن هذا بسبب العلم الذي أوصله لكم . . لكن في الواقع بسبب إحساسي بأنني مسؤول عن أن أجعل للوقت الذي أقضية معكم قيمة . . وليس ضرورياً أن تكون قيمة علمية .

قال لي أحد الآباء الواعين الذين يدركون معنى العلم والتعليم ، وقد أنجب أولاداً حققوا الكثير من النجاحات ، وصار لكل منهم اسم في حقله ، قال لي الأب : أريد أن أبعث لك إبني لكي تعلمه . . فقلت له : أنا أعرف ابنك أنه في علمه كله أقوى مني ، وليس لدى ما أعلمه إياه . . فقال : يكفيني أن تجلس معه وتتحدث إليه وتحاوره في أي موضوع . . هذا يكفى . . وكأنني برهنت بذلك على أنني ما كنت أعلم الطلاب ، لكنني كنت أحاورهم وأحسن الإصغاء إليهم . هذا ما أدركه يوسف حمرة وأنا أحاور أبناءه عزيز ، رياض ، عما ، مناف .

كم كنت أسعد باللعب في ملاعب المدرسة مع الطلاب بكرة السلة ، عندها كنت أنسى أنني مدرس . وأذكر تماماً أنني صبي مثل هؤلاء الطلاب يملك حرية الركض والصراخ» . .

كأنني ابتعدت قليلاً عن الحديث عن الآخرين . . وسمحت لنفسي أن أتحدث عن نفسي . . وأعاود الحديث عن الأشياء حولي . . الضلع الثالث من الحياة ، الجذور ، أنا ، الآخرون . . وها أنا أعاود تذكر الآخرين : هممت أن أتعرف على الأدباء الذين قرأت لهم وسمعت عنهم ، وصرت راغباً في أن ألتقي من ألتقيه منهم إن كان ذلك ممكناً . . وكان عبدالرحمن المعاودة ، ذا حضور مميز لدى ذاكرة الناس عامة وأهل المحرق خاصة . وكنت أسمع اسمه في مواقع كثيرة ، ويتحدث عنه الناس كثيراً . . ودائماً يقارنون بينه وبين إبراهيم العريض . . هذا شاعر المنامة والمعاودة شاعر المحرق . . وليس هناك ثنائية أخرى تجعل أحدهم يستدعى الآخر» . .

وأنا أقرأ . . وكثيراً ما قرأت ، وجدت أن عبدالرحمن المعاودة كان ضمن البعثة الأولى التي أرسلت عام ١٩٢٨ إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وقوامها طلاب تخرجوا من الهداية الخليفية ، أي حصلوا على الابتدائية أو ما يزيد عنها من تحصيل حر ، وكان المعاودة واحداً من هذه البعثة . . وقد ذكر محمد الفراتي الشاعر السوري الذي كان يدرس في الهداية مع عثمان الحوراني في الفترة من

١٩٢٦ - ١٩٢٩ أنه سمع إلى بعض محاولات عبدالرحمن المعاودة الأولى وأنه وجد فيه شاعراً ذا مستقبل واعد ، فشجعه على مواصلة هذه المرحلة الشعرية . . ويعود المعاودة من بيروت ١٩٣١ ويعمل مدرساً ، لكنه ضاقت به مهنة التدريس الحكومية ، فأسس مدرسة أهلية خاصة هي مدرسة الإصلاح الأهلية وأخذ يدرس فيها تدريساً حراً ، وأبرز إنجازاته أنه ألف عدداً من المسرحيات الشعرية ، وكان يخرجها بنفسه ويمثل فيها طلاب مدرسته ، وقد أضاف إلى المسرح البحريني عدداً من المسرحيات ، وهي ذات أبعاد قومية تاريخية . ومنها :

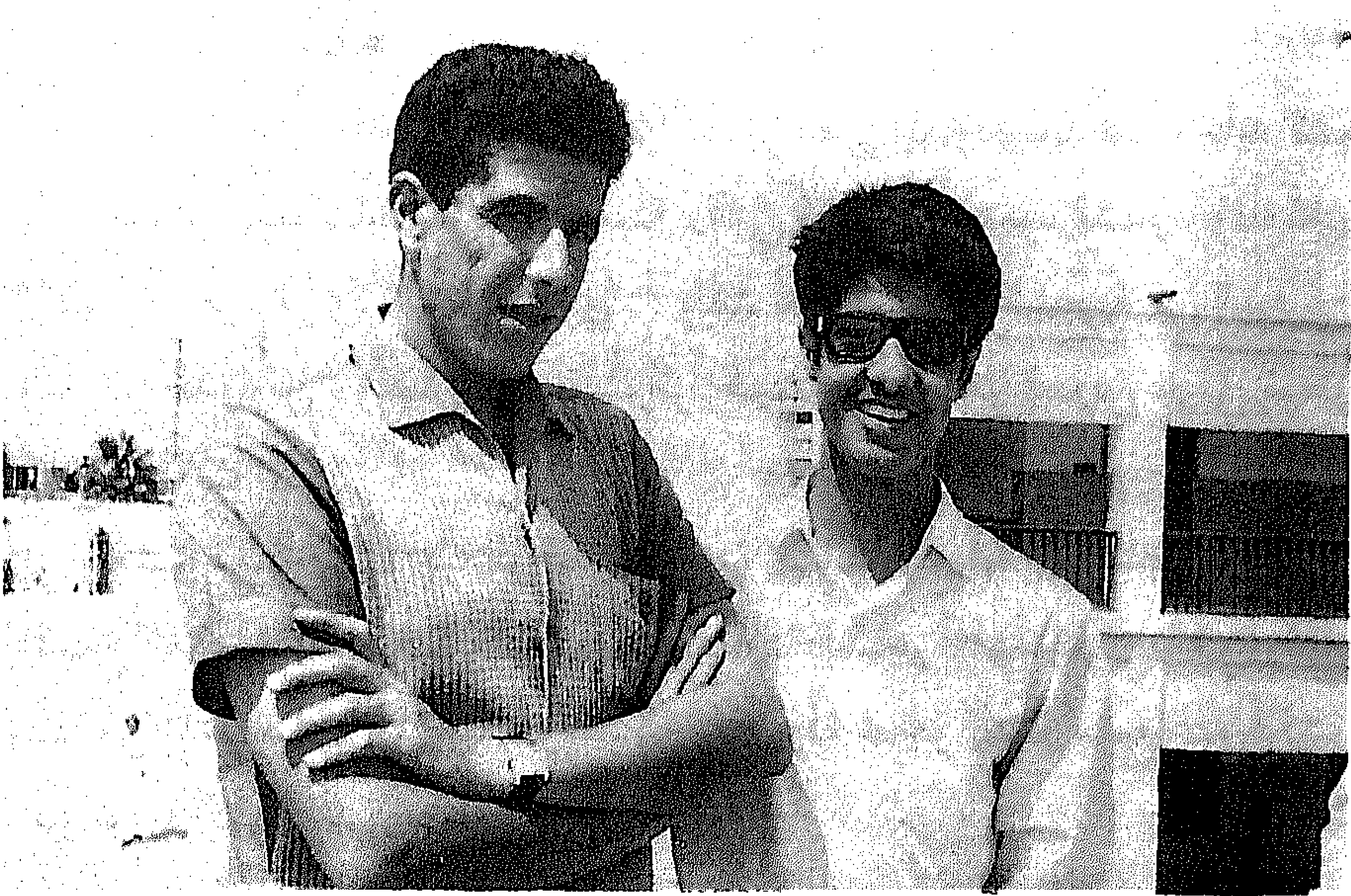
عبدالرحمن الداخل ، الرشيد وشارلمان ، خروج العرب من الأندلس ،يوم ذي قار ، سيف الدولة الحمداني ، المعتصم بالله ، جبلة بن الأيهم ، العلاء الحضرمي .

والتقيت المعاودة في جريدة البحرين ، حين كان يؤلف رباعيات تحاكي رباعيات الخيام وأثارت جدلاً كبيراً ، ودارت حولها مماحكات ومحاورات طويلة عريضة . . لكن الأبرز في رحلة المعاودة هي أنه كان على علاقة سيئة بالانجليز ، وكان شعره الوطني يثير له المتاعب ، وقد سافر من البحرين وأقام في الخارج ، وصار شعره يتداول في المنطقة جميعها . . وقد كتب دواوين كثيرة منها : قصائد العرش ، ولسان الحال ، وديوان المعاودة . . . وغيرها ، ولقد حرصت على أن ألتقى هذا الشاعر الذي كنت أحتفى بشعره . . وكان من طلاب مدرسة الهداية الخليفية عدد من أبناء أسرة المعاودة ، وأذكر منهم محمد حمد المعاودة ، سفير البحرين الآن في الإمارات . وكذلك خالد عبدالله المعاودة ، وقد أبديت لهم رغبتي في لقاء عبدالرحمن المعاودة الذي كان يختلف إلى البحرين في مناسبات كثيرة ، ويقيم في الفندق . . وقد رتبت لي بواسطة أقاربه فرصة التقيته وحاورته ، وتحدثت إليه ، ونشرت المقابلة في مجلة بانوراما الخليج . . وقد كرمته حكومة البحرين عام ١٩٩٥ كرائد من رواد التعليم في البحرين وقدم له سمو المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير دولة البحرين هدية

تذكارية ثمينة كانت عبارة عن سيف من الذهب . .

«ولقد خرجت بانطباع عن الشاعر عبدالرحمن المعاودة بعد اللقاء بأنه كان شديد التعلق بالقصيدة العربية الرصينة ، التي تقوم على عمود الشعر ، وقد كان لا يقبل الشعر الحر ولا الشعر النثري . . ولقد أثرى التجربة الشعرية في البحرين بعدد من الدواوين ، وبمقاربات تركت أثراً حيوياً في الشعر العربي ، وفي شعر الخليج بالذات . .

وتعتبر مسرحيات عبدالرحمن المعاودة إضافة جديدة إلى الشعر العربي ، والمسرح العربي ، وهي إضافة لم يسبقه إليها إلا الشاعر أحمد شوقي الذي وضع عدداً من المسرحيات الشعرية . وتحققت لي معرفة شاعر كنت أسمع عنه الكثير وعن شعره أكثر» . .



الحادين مع صديقه عبدالمجيد حسن



الحادين مع طلابه في مدرسة الهداية ، ويبدو في الصورة
محمد حمد المعاودة ، وأحمد حسين العريفي .



الشاعر المعاودة يصافح الشيخ عيسى بن سلمان أمير البحرين



عبد الرحمن المعاودة وسط اقاربه وأصدقائه

(٢٢)

- **علاقتي بالأدب البحريني والشاعرين إبراهيم العريض والشيخ أحمد الخليفة**
- **وجدت أن البحرين في الستينات تعيش مرحلة شبه قطيعة مع الظواهر الأدبية السابقة**
- **عقد الستينيات من القرن الفائت فترة انتقالية شهدت نضج الجيل السابق وميلاد الجيل اللاحق**
- **غازي القصيبي وعبدالرحمن رفيع ينتميان إلى آخر الجيل السابق وأوائل الجيل اللاحق**
- **«يا ولدي.. لا تنقطع عني.. كن على اتصالٍ معي».. هكذا طلب مني إبراهيم العريض بعد أول لقاء به**
- **اقتسم أحمد الخليفة الأضواء مع إبراهيم العريض في اتجاه الميل إلى الحياة والطبيعة كموضوع للشعر**
- **دعاني المردي ليثنيني عن نشر مقالتي النقدية لترجمة العريض للخيام فأصريت على النشر!**
- **ما حقيقة الخلاف الذي دار بيني ومحمد الماجد؟ وكيف تحول إلى (محبة بعد عداوة)؟!**

أن تحاول أن تتلفت حولك لمزيد من المعرفة ، أمر مربك حقاً فأنت حين

تواجه كماً هائلاً من الظواهر ، ويكون علمك المسبق بها محدوداً ، أو مرتبكاً . . فالاختيار يتطلب أناة وتؤدة شديدتين وهذا أيضاً متطلب يضيع الوقت . . فكان الاختيار الأجدى هو أن أترك كل هذه الأشياء . . وأتعرف على ما يتقاطع معي منها . . أي ألا أذهب إلى الفرز والتمحيص والتساؤل ، بل أن أنصرف عنها جميعاً ، وأجعل حياتي استمراراً لاهتماماتي ، وأكون مرشحاً للتعارف مع الأشياء التي تواجهني في طريقي ، وكثير من الأمور حولي لا تعنيني ، وكثير من الأمور حولي هي ظواهر بذاتها . . ربما لا حاجة لي بها سيما وإنني دائماً استعيد بيت شعر لزهير بن أبي سلمى «ومن يغترب يحسب عدواً صديقه»!»

صحيح أن هذا موقف سلبي يدعو إلى الريبة والتشكك ، والحذر ، عشته في بدايات مسيرتي داخل البحرين ، ربما لا حاجة لي بمثلها . . لكنني أن أعرف يكون خيراً من ألا أعرف ، ولقد أعجبت بتعبير لمدير المعارف ووكلن . . حين قال «إن الحذر هو الساعد القوي» وقررت فيما بيني وبين نفسي ألاّ أقبل على شيء بكليتي ، وأتجاهل المخاطر ، والمحاذير ، دون أن يكون ذلك مرضاً ارتيابياً «بارانويا» ، لا لم أكن أعاني من ذلك الشيء ، لكنني قررت أن آخذ الأشياء بثقة وطمأنينة مع هامش يجعلني حذراً ، ولا أستسلم لغفلة ما . . وأن أثق بقدرتي على الحكم على الأشياء بسرعة دون تردد ودون شكوك . . وهذا جعلني آنس بالناس بسرعة . . بمجرد أن أدرك أنهم موثوقون . . وللحقيقة إنني لم أخطئ أي مرة في اختيار الآخرين وبسرعة ، فكان حدسي صائباً دائماً ، سيما وإنني أؤمن بأن حسن النوايا لا يقود إلى الجحيم دائماً كما يقولون ، فحسن النوايا يجعل الإنسان مطمئناً ، واثقاً موثوقاً . . . وهذا ما كنت أفعله .

كنت مشغولاً على ثلاثة محاور : الأول انتباهي لذاتي ولنفسي ولتفاعلي الداخلي ، فكنت أطيل استبطان ذاتي . . وأحدد ماذا أريد لكي أرضى عن ذاتي ، وماذا أريد كي أشعر بأني إنسان طبيعي ، وناجح . . لقد راقبت نفسي مراقبة يقظة . . وكنت أتجرد من ذاتي وأخرج من شخصي لأراقبني من خارج

نفسي إن أمكن ، فأرى أين هو أصاب وأين هو أخطأ . . لم أستسلم لمجرد الرضا . . لكنني أحاول أن أكون شخصاً نامياً متحركاً . . كل يوم يكون فيه أمر مختلف يزداد أو ينقص . . المهم أن لا يتشابه في حياتي يومان . . . فينبغي أن أعالج المستجدات وأضيف إلى معرفتي معرفة وبشكل تلقائي ، وكنت كل يوم أزداد معرفة بالناس . . ويزداد عدد الذين يدخلون في ذاكرتي . وأكون معرضاً أيضاً لأن أنسى . . وأنا أتمتع بقدرة على النفي والإقصاء والنسيان لكل ما لا حاجة لي به ، لا أسمح لنفسي أن أكون كالعجوز ، التي كلما استغنت عن شيء في منزلها ، وضعته في أحسن مكان من البيت لتخزنه . . وتضن به على النفي . ويتحول منزلها في النهاية إلى مخزن لكل الأشياء التي لا حاجة لها بها . . ولا تجد مكاناً لشيء لها به حاجة . . ولذا فإنني كل يوم أطهر ذاكرتي مما لا حاجة لي به . . وأحل محله ما أرشحه للبقاء ولو مدة قصيرة . . ها هي السنوات تمر . . وأنا راضٍ عما عرفت ، وراضٍ عما نفيت ، راضٍ عما حفظت ، وراضٍ عما نسيت . . وهذا يعني أنني لم أعدً مثقلاً بشيء لا أُريده . . بل وأن ما أريدُه لا يشكل حملاً ثقيلاً . . أُدرّس في الهداية الخليفية . . وأعود إلى حجرتي يومياً لأواصل قراءاتي في حدود الممكن من وقتي .

اتجه إلى تحديد موقفي الفردي من هذه السيرورة اليومية . . وأنا دائماً أعتقد أن كل شيء له هدف . . ولا شيء بلا هدف ، حتى الشيء الذي نفعله بلا هدف . . يكون هذا النفي هو الهدف له ، وبما أننا إضافة إلى هذا الواقع ، صحيح أنها إضافة ربما لا يحسها الآخرون ولا يهتمون بها . . ولا ينتظرون منها شيئاً . . أقول ربما . . لكني في نظر نفسي ينبغي أن أكون إضافة ، وينبغي أن يكون لي دور ما . «دور الوافد» . . أمر في غاية الصعوبة . . فلابد أن يحدد الوافد له دوراً . . يمارسه في المكان والزمان الذي حل به ، وهذا الدور يجب أن يتسم بسمات هامة . . حسب قوله ، ألخصها في النقاط التالية :

- أن يكون دوراً مطلوباً . . يحس به الآخرون .

- أن يكون قادراً على تعميقه ، ويكون مؤهلاً له ، لكي يواصل فيه الطريق ، وينتزع من الآخرين اعترافهم بأهميته .

- أن يكون ممارساً في حياته بشكل يدعو إلى أن يكون مقبولاً ومحبوباً إذا أمكن . .

ما هو هذا الدور؟ سؤال . . كنت أبحث عن إجابة له ، وألتمس في نفسي وفي المجتمع حولي الظروف . . بحيث أنجح فيه . وأزعم أنني بشكل غامض عثرت على احتمالات هذا الدور ، ونتيجة لقراءاتي ، وعلاقاتي ، ورؤاي . . وجدت أن البحرين في الستينات قد وصلت إلى مرحلة تشكل شبه قطيعة مع الظواهر الأدبية السابقة . . وكانت البحرين كبستان مترامي الأطراف . . تنظر إليه فتجد شجرات معدودات طالت واستطالت ، وغلظت سيقانها ، وأثمرت . . وكاد موسمها يتعدى وينتهي . . لكن في الأرض حول الأشجار هناك طلائع نباتات ، بدأت تعلن عن ذاتها ، وعن وعودها . صحيح أنها نباتات رقيقة ، وممتلئة خضرة ، وبدأت كالبراعم تتفتح ، باحثة عن الفضاء البعيد ، وتشرئب إلى الأفق ، ولا يمكن أن تنكرها عين أو تخفى على أذن . . لم يكن هناك في هذا الفضاء وسائل ملائمة لكي تعلن عن نفسها . . فالصحافة كانت غائبة . . ولا وجود إلا لمجرد تذكر لصحف ظهرت ثم طمست . . لسبب أو لآخر . وكانت «هنا البحرين» هي المساحة التي تعلن بين حين وآخر عن كاتب قصة ، أو عن شاعر ، أو عن ناقد . . ولكن كان ذلك في مسافات متباعدة ، لم تكن تشكل هذه الإبداعات حضوراً يدل عليها . . إلا في حدود ضيقة .

«أحسست أنني ألتفت إلى ذلك وأهتم به . . بل وإنني من الممكن أن أتفاعل معه . . ولم أكن بعيداً ذهنياً وانفعالياً وإنسانياً عن هذه المشهد الواعد الذي بدأت نجومه في الظهور ، لكن في حدود ضيقة . . لأنها تستجيب لاستحقاقات السن والحياة والتجربة . .

وها هي «البحرين اليوم» أو «هنا البحرين» . . لست أدرى على وجه الدقة ما

كان اسمها . . ويكتب بها كثيرون من الشباب الذين صاروا يشكلون مظهراً من حيوية الإبداع في البحرين ،لكنه مرتبط بشروطه . . . وها هي «الأضواء» تصدر بعد أن مُهدت لها الظروف ، ومرت بمخاضات شديدة الإيلام . . وهل هناك ولادة بلا آلام فيها . . ويرأس تحريرها صاحبها الصحفي المتمرس محمود المردي ، ويصدرها المردي أسبوعية . ويعتبر عقد الستينيات من القرن الفائت فترة انتقالية ، كانت تشهد نضج الجيل السابق ، وميلاد الجيل اللاحق ، وبدأت الحياة الأدبية والثقافية في البحرين تتحرك وتتململ ، وكان غازي القصيبي وعبدالرحمن رفيع ينتميان إلى آخر الجيل السابق ، وإلى أوائل الجيل اللاحق ، وكذلك كان د . محمد جابر الأنصاري . . كان هؤلاء فوق قنطرة الستينيات يمدون يداً إلى ما قبل ويداً إلى ما بعد ، ولقد مدوا يدهم للقادمين ، وهذا موضوع آخر يجيء فيما بعد!

أن الحديث عن الستينيات ينبغي أن يقودنا إلى الحديث عن الشاعر أحمد محمد الخليفة والشاعر الناقد إبراهيم العريض . . فهما ما يزالان في أوج عطائهما وما يزالان يمثلان حضوراً لافتاً على ما بينهما من فروق ، وإبراهيم العريض كان اسماً قد سبق إلى ذهني منذ أوائل الخمسينيات حين ذكره أستاذنا في الصف مقروناً باللؤلؤ ، فهما يمثلان ارتباطاً خارجياً بشهرة البحرين . . وحين حضرت إلى البحرين كنت تواقاً لأن ألتقي إبراهيم العريض ، وكنت دائماً أحاول أن اقرأ كتاباته . . وأن أحاول أن اقتحم عالمه ، حيث أنه يغري قارئيه بغزير علمه ورشيق أسلوبه ، واتساع ثقافته ، رأيته مرة في شارع باب البحرين ، ذا قامة مكتملة ، فلا يرى الناس رجلاً أكثر اكتمالاً منه ، طولاً وعرضاً ، وثقة ، وتجرأت واتصلت بمكتبه طالباً لقاءه . . وقد رحبت بي سكرتيرته وسألتها عن عنوان المكتب فقالت إنه في الشارع المؤدي إلى أم الحصم ، في مكاتب شركة نفط الإمارات فيما أظن . . وفي الوقت المحدد ذهبت ماشياً إلى مكتبه . . ولما وصلت في الوقت وجدته ينتظرني . . أو هكذا تخيلت . . لكنني كنت أرى المسافة بيننا بعيدة . . علماً وثقافة . . وحتى هيبة . . وحضوراً . .

لكنني احتشدت بيني وبين نفسي . . وتشجعت . . ودلفت إلى مكتبه . . فوقف خلف المكتب . . كما رأيته في السوق . . لكن الفرق أنه لا يرتدى بشته ، ولست أذهب الآن لأصف ما رأيت من وسامته وحسن سمته ، ولم يكن ملتحياً . . بل ذقنه حليق . . مد يده . . وتصافحنا ودعاني إلى الجلوس . . وجلست وبيننا طاولته المصقولة . . . واكتشف بسرعة أنني «وافد» لأنه قال . . من أي قطر أنت وسألني أسئلة كثيرة . . وكأنه أراد أن يسمعني وأن يختبر معرفتي به ومدى جديتي في أن ألتقيه . . ولا أدري هل نجحت أمامه في الامتحان أم أخفقت . . إلا أنني في حدود معرفتي المتواضعة تكلمت معه ما وسعني الكلام . . ولم يحدثني عن نفسه كثيراً . . وكنت مضطراً أن أحدث عما يعرف هو ، فقلت له أنني قرأت عنه في جريدة البحرين ، وقرأت في صوت البحرين ، وقرأت كتبه التي أتيحت لي وقرأت مقالاته في مجلة الأديب . . وكنت أروى له ما أعرفه عنه . . من قبيل الإحساس بالطمأنينة . . لأنني لم أكن واثقاً من شيء لأحدثه عنه غير ما يتعلق به ، وكان يجيد الإصغاء ويجيد التعليق . . ولما أزف الموعد استأذنته لأنصرف . . فقال لي : «يا ولدي . . لا تنقطع عني . . كن على اتصالٍ معي» . . وإنني أزعم الآن أنني حفظت وصية إبراهيم العريض . . فقد أغراني لطفه وإنسانيته وتواضعه وعلمه أن أبقى على اتصال معه . . ولكنني في ذات الوقت كنت أحلم في أن أكتب عنه شيئاً ما .

وأقفز قليلاً في الزمن لأستكمل شيئاً من علاقتي بإبراهيم العريض . . في العام ١٩٦٥ صدرت (الأضواء) . . وكنت من قرائها . . وربما كتبت فيها شيئاً ، لا أذكر الآن أني كتبت فيها في أيامها الأول . . إلى أن أصدر العريض رباعيات الخيام عام ١٩٦٦ ، وأعتقد أنه نشرها أولاً في الأضواء . . لقد كنت قرأت تراجم كثيرة للخيام . . ولما وجدت العريض قد ألحق بها ترجمة . . تساءلت في نفسي ، وفي حدود ثقافتي المتواضعة آنذاك ، ما هي القيمة التي يضيفها العريض إلى هذه التراجم التي تجاوزت العشر ، ولماذا هذا الحرث المتواصل في

حقل الخيام . وزين لي علمي البسيط أن أكتب مقالاً بهذا المعنى . . فكتبت تحت عنوان «الهالة الملتهبة» وأشرت إلى أن هذه الرباعيات جهد لو بذل في عمل آخر لكان أفضل . . ولا أذكر من تلك المقالة التفاصيل . . كل ما أذكره أن محمود المردي ، رئيس التحرير ، وقد كنت وقعت المقالة بالحروف الأولى من إسمي ، كتب إلى بذات الحروف في جريدة الأضواء أن أذهب لمقابلته . . وذهبت وقابلت المردي في المكتب المتواضع هناك ربما في فريق الفاضل . . المهم أنه يتفرع من باب البحرين شرقاً . . ودخلت على المردي لأقابله للمرة الأولى . . وكنت رأيت صوراً له في الصحف . . فاستقبلني الرجل بهدوئه . . وطيف ابتسامة خفيفة على وجهه . . ولا أدري أي انطباع تكون لديه . . لكنه سألني . . لما أدرك أنني «وافد» كذلك . . قلت له أنا من أين جئت . . تثبت من أني كاتب تلك المقالة . . فقال لي :

«إن الأستاذ إبراهيم العريض رجل شديد الحساسية ، وهو لا يرتاح أبداً لأي كتابة سلبية تجاهه . . فأنا أضع أمامك هذه المعلومة ، فهل تحب أن أنشر الموضوع»؟! قلت له : «لا أظن أن مقالة كهذه تزعج أستاذاً في حجم إبراهيم العريض ، وعليك أن تنشرها» ، ونشرها المردي في العدد اللاحق . . وفي العدد الذي يليه كتب محمد الماجد رحمه الله مقالاً شديد اللهجة كما يقولون في لغة السياسة . .

وقال في مقاله : «كاتب هذا المقال . . (يعنيني) ، معلم جاء من فلسطين» ، واستمر يظهر جهلي بأنني لم أستطع أن استوعب ما كتبه العريض . . ولم أهتم كثيراً بالهجوم . . لكنني اهتممت بأنني كنت قد ذكرت بحر الشعر الذي كتب عليه العريض ، وكان قد التبس على ببحر آخر . . فوقعت في خطأ . . ولقد ركز الماجد على هذا الخطأ ليقيس عليه كل ما قلت . . وأن الذي قلته كله خطأ . . وبطبيعة الحال رددت على محمد الماجد . وكان السجال بين متعارفين هذه المرة . . وقلت له : «لا يهم ما قلت لكنني أعتقد أن الذي دلّك على ما أخطأت أنا فيه من

البحر ، هو ليس أنت وأنا أقدر أن الأستاذ العريض هو الذي اهتدى إلى هذا الخطأ» . . ومرت بيننا الأمور . . ثم التقينا في مناسبات كثرة ولم يفسد الموضوع للود قضية بيننا . . سيما وأن محمد الماجد مرح ، وصاحب نكتة . . وبقينا نتواصل حينما يتاح ذلك إلى أن كان عام ١٩٨٧ ، وكان محمد انتقل إلى جوار ربه ، فأقامت أسرة الأدباء ملتقى لمناقشة تجربة الماجد . . وشارك فيها سليمان الشطي وسعد البازعي وإبراهيم غلوم ، ومحمد جابر الأنصاري وكتبت تحليلاً مطولاً عن محمد الماجد ، ونشرت كل المداخلات في كتاب باسم «رومانسية السخط» .

وقد كان العريض رحمه الله يهاتف أصدقاءه في أوقات مختلفة . . يطمئن عنهم ويطمئنهم عن نفسه ، وقد التقيتة مرات كثيرة ، ولما أصدرت دار الغد عدداً خاصاً من (كتابات) في أوائل الثمانينات يدور كله حول إبراهيم العريض ، كنت كتبت مقالاً عنه ، ثم أجريت معه مقابلة مستفيضة نشرت في البحرين الثقافية عام ١٩٩٤ ، ونشرت في كتابي «من ذاكرة البحرين» . رحم الله العريض فقد كان جبلاً . . وكان علماً ، كان رجلاً عالماً أديباً ، مبدعاً . . على طول القرن العشرين . ولما أرادت سعاد الصباح تكريم إبراهيم العريض ، فقد استعانت بالدكتور محمد جابر الأنصاري ليستكتب من لهم دراية بالعريض ليصدر من ذلك كتاباً ، وقد أسند إليّ موضوع «العريض في مرآة النقاد العرب» وكان الموضوع خصيباً حيث أن إبراهيم العريض كان يلتفت إلى أمور قلما التفت لها سواه ، فهو كان يحتفظ بكل مطبوعة كتب عنه فيها ، وكان يوثق في ببلوجرافيا كل ذلك ، فيكتب اسم الصحيفة أو الكتاب ، والموضوع وتاريخ النشر ، وهذا ييسر للدارسين الحصول على المعلومات الوثيقة ، ولقد كتبت في ذات الموضوع بحثاً نشر مع البحوث الأخرى في كتاب (العريض ، والإشعاع الحضاري للبحرين) ، وهو كتاب قيم فيه دراسات تحيط تقريباً بتجربة هذا الشاعر الفذ» .

أما الشاعر أحمد محمد آل خليفة فإنه : «كان يقتسم الأضواء مع إبراهيم العريض ، في اتجاه آخر ، وهو الميل إلى الحياة والطبيعة كموضوع للشعر ، في

رومانسية حالمة تمزج بين الوطن والجمال والمرأة ، والأحاسيس الذاتية والتهويمات وراء الأمجاد والإنجازات وقد صدر له ديوان «هجير وسراب» ١٩٦٢ بعد ديوانه الأول من أغاني البحرين ١٩٥٥ ، ومن هنا كانت بوابة التعرف على الشاعر أحمد محمد آل خليفة . . وقد كنت تواقاً للقائة ، كما كنت مع إبراهيم العريض ، وفي ذات أمسية حملتني رجلاي إلى منزل الشاعر في منطقة الجفير بعد القصر القديم إلى الجهة اليمني ، ودخلت على الشاعر الذي رحب بي ترحيباً حاراً . . وكان مجلسه عامراً ببعض أصدقائه ، وكان يعزف على العود ويغني قصائد عربية فصحى ، علمت فيما بعد أنها الأصوات التي اشتهرت بها منطقة الخليج واليمن ، وهي قصائد مختارة من رقيق الشعر العربي ، وبعد شيء من المجاملة واصل أحمد آل خليفة العزف على العود والغناء . . وبدأت معرفة بيننا استمرت طويلاً جداً ، كنت أزوره في منزله بالجسرة ، وحينما ساءت صحته إلى حد ما ، بدأ يجمع دواوينه ، والتي آخرها غيوم الصيف ١٩٨٨ ، وكنت أزوره أيضاً في مكتبه في وزارة الأشغال . . أحمد الخليفة شاعر يجمع بين شكل القصيدة التقليدي ومضامينها الحديثة . . ولقد أجريت معه أكثر من لقاء ، وكتبت عن شعره كتابات كثيرة في الصحافة ، وهو يجيد كتابة الشعر النبطي ، كما يجيد بالفصحى ، ومال في أيامه الأخيرة إلى كتابة القصيدة التاريخية . . وقد هاتفني في أخريات أيامه ومررت به . . ورحب بي ترحيباً استثنائياً ، وقال لي أريد أن أقدم لك هدية تذكاراً مني . . وقدم لي رحمه الله «ساعة» . ولا أدري أي رمز للزمن أكثر دلالة من «الساعة» التي ترمز إلى هذا الذي نحن لا نحس بأنه هو قاتلنا لا محالة . فالزمان يقتلنا ونحن نصادق الزمان . . وصنعة الزمان قتل الأصدقاء . . رحم الله الشيخ أحمد الخليفة» . .

ومن اللافت أنه أقيم له احتفال تكريمي ، في حياته واستمع إلى ما يقوله عنه معاصروه ، وقد التف حوله أصدقاؤه ، وكأنهم كانوا يودعونه ، وكأنه كان يتفرس الوجوه . . ويلقى عليها نظرة الوداع .



إبراهيم العريض يطبع قبلة على جبين
عبد الناصر



المحادين في حديث مع
الشاعر عبد الرحمن رفيع

(٢٣)

❖ هل من اليسير أن أبدأ بتكوين تاريخ شخصي لي.. في مجتمع يمر به المئات من الوافدين؟!

❖ عبدالله سلمان كمال وعيسى الذوادي وحسن المحري.. زملاء تركوا الهداية للتحصيل العلمي.. كدت أفعل مثلهم.. ولكن!!

❖ قراران اتخذتهما في لحظة واحدة.. ولعل الجمع بينهما مضحك.. أكمل دراساتي العالية.. وأحاول كتابة الشعر

❖ كان الزملاء منجم أبحث فيه عن الحجارة الثمينة والجواهر النادرة

❖ «في بيتنا ضابط».. هكذا هتفت بيني وبين نفسي عند تخرج أخي برتبة ملازم.. وما أدراك ما «الضابط» في بلدي الأم؟!

❖ بموت جدتي.. اكتشفت أن الأم رمز ارتباط الإنسان بوجوده كله وانتماؤه إلى آدميته وإنسانيته وكينونته

❖ وها هي تفاصيل تشكل المشهد الثقافي والأدبي البحريني في أوائل السبعينات

على مشارف ١٩٦٥ ، تلفت لأرى هذه المحاور الثلاثة التي تلتقي بي في كل لحظة ، فأنا لا أغفل عن نفسي ، وعن موقعي الذي يعنيني أكثر مما يعني غيري مع الناس . . كل الناس . . مجرد معلم وافد يذهب إلى عمله صباحاً ويعود ظهراً ، ويبقى منتظراً حتى اليوم التالي . . كيف أتدبر أمري وكيف أمضي هذه

الساعات الطويلة . . وكيف حين أغلق باب حجرتي . . وأتذكر أبيات امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ
بصبح وما الإصباح منك بأمثل

أواجه الليل وتنتابني الهواجس ، أتذكر ما مضى ، وأستحضر بعض ما أتذكر ، وأنفعل مع أحداث عشتها . . وعاشتني ، وصرت فيها عالماً من القلق . . وأنظر إلى ما أنا فيه . . إنني غير راض عن نفسي . . إن تحصيلي العلمي لم يعد يقنعني وإن كنت رفدته بقراءات جادة ومنوعة ، لكن الناس لا يسألون أخاهم عما يعرف . . وإنما يختصرون الطريق بالسؤال عن شهاداته . . كنت أحمل شهادة دار المعلمين في عمان وهي شهادة كانت في زمن ما أعلى شهادة في الأردن . . وحاملها . . معلم ممتهن ويمكن أن يكون موضع الثقة ليتولى مواقع تربوية إذا كان طموحاً ، لا يتوقف عن النمو . . وها أنا أحمل هذه الشهادة . . لكنني هنا . . والآن . . بحاجة إلى ما هو أكثر . . لا القراءات تنفع . . ولا الموهبة الفردية تنفع . . ولابد من أن أطور نفسي واقعياً . . وأزداد تحصيلاً وكان ذلك أمراً أشبه بالمغامرة . . هل أترك التدريس من أجل هذا الهدف . . وهو هدف يستحق المغامرة . . وها هما أستاذان من زملائي . . غادرا في سبيل الاستزادة من التعليم . . ها هو عبدالله سلمان كمال . . «رحمه الله» وكان يحمل شهادة نصف طبيب حصل عليها من ألمانيا . . ولظروف ما عاد ليعمل معلماً لكن على نية مواصلة الدراسة ، وكان معنا في الهداية منذ التحاقي بها . . وأذكر أن عبدالله سلمان كمال قد دعانا ونحن زملاؤه إلى منزله لتناول طعام إفطار في

رمضان . . وذهبنا جميعاً وكانت المرة الأولى التي يستضيفني فيها زميل بحريني في منزله ، ولا أعني أنا فقط . . فقد كنا جميع الزملاء الضيوف . . وكانت فرصة تعرفنا بها على السيد والده ، وتعرفت بها على بعض تقاليد البحرينيين في مثل هذه المناسبات . . وبعد فترة يذهب إلى العراق ويكمل الدراسة في علوم الطب ، ويعود ليعمل طبيباً . . في القضيبية . . قبل أن تدركه أقداره . . وينتقل إلى جوار ربه . . رحمه الله . .

والزميل الآخر الذي ذهب لإكمال تعليمة هو الصديق عيسى الذوادي الذي غادر إلى العراق ، وعاد منها بليسانس لغة إنجليزية . . وأخذ يدرس هذه المادة فيما بعد . . قبل أن ينتقل إلى حقول من العمل أخرى . . وإنني أذكر أن عيسى الذوادي كان مولعاً بالترجمة . . وقد نقل إلى العربية قطعة «قبلا خان» وكنت دائماً أتبادل معه بعض الطرائف العربية والإنجليزية واتفقنا أن يترجم لي مقطوعة شعرية من الإنجليزية إلى العربية وأقوم أنا بصياغتها شعراً ، وفعل بقصيدة «إلى سيليا» للشاعر بن جونسون . . ودفعها إليّ مترجمة بالعربية ، وتصرفت بها وترجمتها ، إلى لغة شعرية عربية وهي كالتالي :

إلى سيليا

ترجمة عن قصيدة للشاعر «بن جونسون»

أشــربي نخــبي بعــينيك وهاتي
كــأسك المتــرع تحــسوه عــيوني
أودعي في كــأس خــمــري قــبلة
تشــمل الروح وتنســيني شــجوني
فـــأوار تـتلظى فـــيــه روحي
ليس يطفــيــه ســوى خــمــر الســمــاء
لو أتأني جــوبتــر من كــأســه
خــمــرك المســحــور يســري في دمــائي

فـــاعـــذريني عندمـــا أرسلت ورداً

قـــدرك الســـامق أســـمى من ورودي

إنما يبـــقى نضـــيـــراً في يديك

يلتـــقي فـــيـــهـا مع العـــمـــر الجـــديد

ونثـــرت بعض أنفـــاسك فـــيـــه

وأعـــــدت الـورد لـكـن مـــــاذوى

كـلمـــا ضـــاع شـــذاه وتهـــادى

لـيـس مـنـه ، إنما مـنـك الـشـــــذا

ولقد كان عيسى الذوادي يجيد العزف على العود ، وكنا نستمع إليه في الرحلات وكان صحبته طيبة ومريحة .

حين ترجمت هذه الأبيات شعراً . . استيقظت لدي حاسة الشعر واكتشفتها صدفة ، وهذه تذكرني بأن الأسد لا يعرف الافتراس ، ولكن عندما يبدأ الركض لسبب ما . . فبالمطاردة تستيقظ لديه غريزة الافتراس . . فجأة . . ويصير بعدها مفترساً . . هكذا كنت أنا . . بعد الأبيات التي تعاملت بها مع عيسى الذوادي استيقظت لدي غريزة الشعر وأخذت أسائل نفسي هل أكتب الشعر؟ هل أنا قادر على أن أكتب الشعر؟! ودخلت في تجاذبات داخلية . . ولكنني أعلم من قراءاتي أن الشعر لا يتفجر إلا من معاناة حادة ولا أقول أنني لا أملك هذه المعاناة لكنها معاناة وجودية في أساسها ، ويتبقى أن تتركز المعاناة في هدف محدود ومحور واضح يكون موضوع الانفعال وكيف لي ذلك وأنا حتى تلك اللحظة لم استطع أن أحدد أو أعيش هذا الانفعال لكي يفجر الشعر لدي . . هذا إذا كنت شاعراً . . كنت أقرأ أن بعض شركات النفط تختار مكاناً وتحفر فيه وتبذل جهداً . . ثم سرعان ما تغلق هذه الحفائر وتعلن ليس فيها كميات تجارية وخشيت أنني حين أبدأ بالحفر عن الشعر ألا أعثر على كميات تجارية وهكذا كان . . وأرجأت الموضوع إلى مناسبة أخرى .

والزميل الآخر الذي بدأ معلماً ثم ترك التدريس وذهب إلى الهند وأكمل دراساته العليا في ميدان اللغة الإنجليزية هو زميلنا حسن المحري الذي عمل معنا في الهداية معلماً ثم صار مديراً ثم انتقل إلى مناصب عالية في وزارة التربية والتعليم .

إذن هناك نماذج تركوا العمل وأكملوا دراساتهم لكنني بعد دراسة دقيقة لوضعي وجدت أن هذا الأمر عسير علي وغير ممكن . . فأخذت أخطط لإيجاد بديل لذلك ولم أنس مسألة أنني سأحاول الشعر سيما وأنني كنت أمتلك أدواته فيما أظن .

قراران اتخذتهما في لحظة واحدة . . ولعل الجمع بينهما مضحك ، أن أكمل دراساتي العالية وأن أحاول كتابة الشعر ، هل كتابة الشعر قرار أم هي حالة لا يمكن تجاهلها . . لا أدري إنما هكذا فعلت .

من الصعب على إنسان منفرد يعيش وافداً على بلد لا يبدو فيه مهماً ، ولا يبدي الآخرون اهتماماً زائداً له ، وهم قد اعتادوا على أن يمر بهم مئات الناس يطرأون ثم يختفون ، ولا يذكرهم أحد بعد رحيلهم ، ولا يهتم بهم أحد قبل رحيلهم إلا ما كان من مستحقات العمل اليومي .

هل من اليسير أن أبدأ بتكوين تاريخ شخصي لي . . صحيح أن الأفراد ربما لا تاريخ لهم لكن هناك أفراداً يصنعون لهم تاريخاً شخصياً تذكر أحداثه بذكرهم ، ويستدعي ذكره هذه المواقف أو الأحداث حيث الإنسان في الموضع الذي ولد فيه وفيه جذوره ، وامتداداته ، فهم يشكلون له تاريخه الذي ليس عسيراً أن يضيف عليه ، فهو في منظومة يزداد بها وتزداد به ، أما أن يكون مجرد ساق عارية لشجرة لا امتداد لها فإن صنع تاريخ له أمر في غاية الصعوبة ، ولكنني كنت تلقائياً أؤسس لي تاريخاً شخصياً أفرضه على من يعرفونني . . فيعرفونني به . . وأنا أنتسب إلى البادية وللبادية أعرافها وأخلاقها ، وثقافتها . . يقول البدو «إن غاب من الإنسان أصله ، فإنه يدل عليه فعله» ، قد تغيب

جذوره وعائلته ووسطه وقبيلته . . فإذا حل في قوم فإن سلوكه يدل على أصله وفصله ويدل على جذوره وثقافته فيكون سلوكه هو تاريخه . .

وإنني أحسب أنني نجحت في التعريف بنفسي من خلال حياتي اليومية البسيطة وعلاقاتي ومواقفي من الأشياء ومع الأشياء . . وكنت أمشي في الركب وخطوي وحدي . .

بدأت أنتقي وأصطفي أصدقائي الذين أصير قريباً منهم ويصيرون قريبين مني ، وكنت أتريث في ذلك لكنني أقترب من الذين أعرفهم والذين أتوسم فيهم رغبة في أن يتعارفوا وهؤلاء كنت أقترب منهم ومعهم على حذر شديد وتتشكل مع الأيام تكييفات بناء الصداقة وبناء الألفة . .

وكان الزملاء هم المنجم الذين أبحث فيه عن الحجارة الثمينة والجواهر النادرة . . وأظفر بذلك وقد قال النبي صلى الله علية وسلم : «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

والصداقة علاقة روحية لا تخضع لتجربة معملية ولا لحسابات رياضية ، الناس يلتقون فيأنس أحدهم للآخر ويتعارفون ويتصادقون واتخذت أصدقائي وبدأت أتشكل من خلالهم وبدأت أرسى تاريخي الشخصي بخطى متتالية ، وأحس أنني أفعل ذلك وأتنامى مع الناس الذين اقتربت منهم واقتربوا مني وأنني أنوي أن أتحدث عن هؤلاء الأصدقاء وأن أفي كلاً منهم حقه فهم جزء من هذا التاريخ الذي أنوي أن أتحدث عنه وأفصل فيه . .

وأتلفت إلى المحور الثاني . . هؤلاء الذين غادرتهم ، مرات ومرات وفي كل عام أذهب إليهم صيفاً ثم أغادرهم عائداً إلى عملي . . أسرتي في الكرك . .

أسرتي والدي ووالدتي وأخواني وأخواتي . . تخرج أخي الثاني من الثانوية العامة . . وكان هذا الأخ «صالح» مولعاً بالجندية وما إن دعيت دفعته إلى الالتحاق بالعسكرية حتى ذهب مسرعاً . . وأجريت له مع زملائه إجراءات القبول وها هو قد صار مرشح ضابط ، وفي إحدى إجازاتي ألتقيه وقد لبس تلك

البزة الملونة . . بخطوطها الطولية وكانت قامته تضيف إلى البزة هذه ثقة وأملاً وطموحاً . . وكأنني هتفت بيني وبين نفسي «في بيتنا ضابط» وفي مجتمعنا ، ونظراً للثقافة السائدة كان الضابط يجيء في الصف الأول من المهن ويقف بجانبه الطبيب وهكذا كان المجتمع ينظر إلى الضابط والطبيب . . أما المعلم فكان في نظر المجتمع عمل من لا عمل له . . لذلك كانت النسوة يتندرن على المعلمين من قول أحداهن – تحاور صديقتها . . ماذا يعمل ابنك؟ فتجيب : معلم . . فترد عليها : مو عيب!

وتمر سنتان ويتخرج «صالح» ملازماً «قد الدنيا» وأما الأخ الذي يكبره فقد كان مساحاً!!

أقول صار أحد أفراد أسرتي ضابطاً ، ونحن هناك في الريف وفي البادية ، تفخر الأسرة إذا قدمت للقوات المسلحة أحد أفرادها ليكون جندياً ، فهو شكل من أشكال الإسهام في حماية الوطن .

إن البسطاء هم أكثر الناس عشقاً للوطن ، وحتى حين كنا طلاباً في المدرسة كنا نكتب في دفاتر الإنشاء ونحن نتحدث عن أحلامنا . . كنت أكتب أتمنى أن أكون جندياً أحمي حدود الوطن ولا بأس أن أستشهد إذا كانت ذلك من أجل الوطن . . كنت أكتب أتمنى أن أكون طبيباً أعالج المرضى من أبناء الوطن . . أو أتمنى أن أكون مزارعاً أستثمر أرض الوطن . . أو معلماً لأعلم أبناء الوطن . .

الناس البسطاء وأكاد أقول الفقراء يعوضون كل الحرمان الذي يواجهونه في الحياة بتأجيج عاطفة حب الوطن تعويضاً عن كل فقدان ، ويمتلئون بهذا العشق إلى حد الذوبان ولذا فتجد هذا الميل ليكونوا جنوداً ، وكم هو اعتزاز الأسرة بأن يكون أحد أبنائها جندياً ، وانسجاماً مع هذا العشق . . فقد كان وجود أحد أبناء أسرتنا ضابطاً تأكيداً لهذا الانتماء ، للتراب ، وللناس ، وللتاريخ وللدولة . . وبرهاناً لا يحتاج إلى براهين أخرى بأن الإنسان جزء من هذا الفضاء الإنساني

الذي وجد فيه . .

بدأت حياة الأسرة تتغير تلقائياً مع الخطوات التي يخطوها الأبناء وكانت الأسرة جميعها تنمو معاً . . ففي كل عام كل فرد يزداد سنة من عمره وتجربته . . ويكبر الأبوان وتبدأ الحياة تفرض نواميسها التي هي : الزيادة والنقص فهما متساويان ومجموعهما يشكل رقماً ثابتاً . . أي زيادة في أي مكان يقابلها نقص في مكان آخر ، وبدايات النقص أن جدتي لأبي توفيت في تلك الأيام التي بدأت الحياة في الأسرة تتغير ، وهذا التغيير السلبي له دلالته . . جدتي . . التي ورثنا منها البنية الجسمية فكنا جميعاً طوال القامة بشكل لافت ولا يحتاج الأمر إلى تفسير فجدتي كانت كامرأة طويلة جداً وتركت هذا الأمر وراثياً فينا ، ولقد كان اسمها شاعرياً «ريّا» ولم أدرك شاعريته إلا حين قرأت فيما بعد بيت الشعر العربي :

حننت إلى «ريّا» ونفسك باعدت

مزارك من «ريّا» وشعباكما معاً

ولما توفيت كنت أدرك أن الوالد حزن عليها حزناً شديداً ، وكنت أحسب أن الأطفال وحدهم هم الذين يحتاجون إلى الأم . . إلى أن وعينا هذه الحياة . . وأدركنا أن للأم معنى يتجاوز كل ما كنا نظنه من حاجة إليها واكتشفت أن الأم رمز ارتباط الإنسان بوجوده كله ، وأنها انتماء الإنسان إلى آدميته وإنسانيته وكينونته ، وفقدانها يعني أن الإنسان بدأ يواجه مصيراً لم يحسب له حساباً ، كنت أعتقد إن الإنسان لا يموت مادامت أمه تقف بجانبه ، فإذا ما فقدها فإنه أصبح مرشحاً للموت ، وهذا الظن صار فيما بعد يقيناً . رحم الله جدتي . . وقد كنت أسارع للاحتماء بها حين كان الوالد يغضب علينا ويعرضنا إلى عقوبة بدنية . .

بدأت الأسرة تزيد في جانب وتنقص في جانب معادلة ثابتة لا يمكن نقضها . . الزيادة تساوي النقصان . . فالمجموع ثابت» .

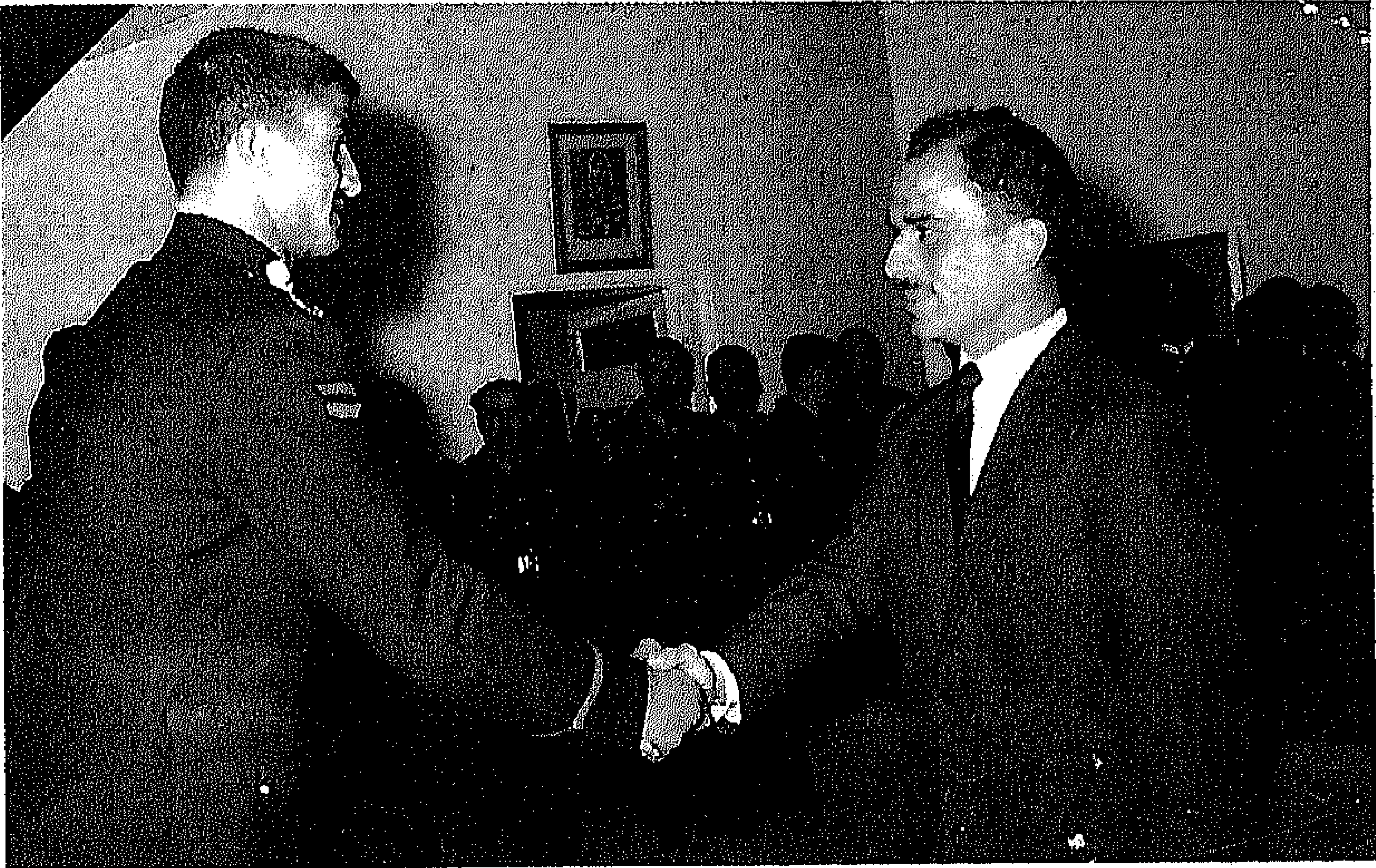
أما الضلع الثالث . . الآخرون حولي فقد كنت مهتماً بالحركة الثقافية والأدبية والفنية التي بدأت إرهاصاتها تظهر على السطح واضحة وتكاد تبشر بأن انبثاق الثقافة والأدب أخذ يفرض نفسه . . وكان هناك من ينشط في هذا الاتجاه . .

كان محمد جابر الأنصاري وهو الأستاذ في معهد المعلمين والحامل للماجستير من الجامعة الأمريكية والممتلئ رؤى وطموحات تتجاوز هذا الذي يقرأ في الكتب ، إلى تلك الآفاق المتعلقة بالثقافة والحضارة والتجدد والتنوير . وها هو يبدأ رحلة البحث عن ميراث المنطقة الأدبي . . مبتدئاً بالشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة وبعد ذلك يقارب قضايا المنطقة والخليج ، وها هو يقيم الندوات ويلقي المحاضرات ويناقش قضايا حيوية في الأدب ، ويحاضر حول اللغة وحول أحمد شوقي . . وبدأ يتحرك المشهد الثقافي ، وها هو غازي القصيبي الذي كان معروفا كشاعر مجيد حتى إنه طبع ديوانه الأول «أشعار من جزائر اللؤلؤ» ولما يبلغ العشرين من عمره ، وها هو قد نال الشهادات العليا وقد ذهب إلى بريطانيا وأمريكا لاستكمال درجاته الأكاديمية ، ويصدر ديوانه الثاني قطرات من ظمأ عام ١٩٦٥ ، وها هو يسهم في الحراك الثقافي والأدبي في الأمسيات والندوات ، وها هو عبدالرحمن محمد رفيع الصديق المقرب لغازي يلقي أشعاره الظريفة ، الملأى بالنقد الاجتماعي ، وصار يصدر دواوينه ، والناس كلما تذكروه تذكروا قصيدته «الشعري . . الربعة بثمان» بدأ الحراك الأدبي بالأسماء الطالعة في هذا المشهد ، قاسم حداد ، علي عبدالله خليفة ، محمد عبدالملك وعلوي الهاشمي ، وأحمد المناعي وعلي الشرقاوي ويعقوب المحرقي وحمدة خميس ومحمد الماجد ، ولأنني أكتب من الذاكرة فأتوقع أن يعذرني الآخرون لأن الذاكرة لا تسعفني دائماً . . فهناك أسماء أخرى سأشير إليها فور تذكرها .

بدأت هناك رغبة ما في أن يكون هناك تجمع لهؤلاء الأدباء ، من شعراء وقاصين ونقاد ما يزالون في طور التشكيل بمسافات متباعدة ، ولعل محمد جابر

الأنصـاري أدرك أن هناك دوراً لـه هو أكـثـر من سـواه ، عليـه أن يقـوم به بحكم خبرته وتقدمه في التحصيل ، ومكانته كمحاضر في معهد المعلمين ، وموقعه في مجلس الدولة وهو يرأس دائرة الإعلام التي سرعان ما صارت وزارة ، كل هذا جعل محمد الأنصاري مرشحاً لدور يحرك به هذا الزخم الأدبي ويجمعه في كيان واحد . . ولقيت الفكرة تجاوباً من المشتغلين بالمشهد الأدبي والثقافي .

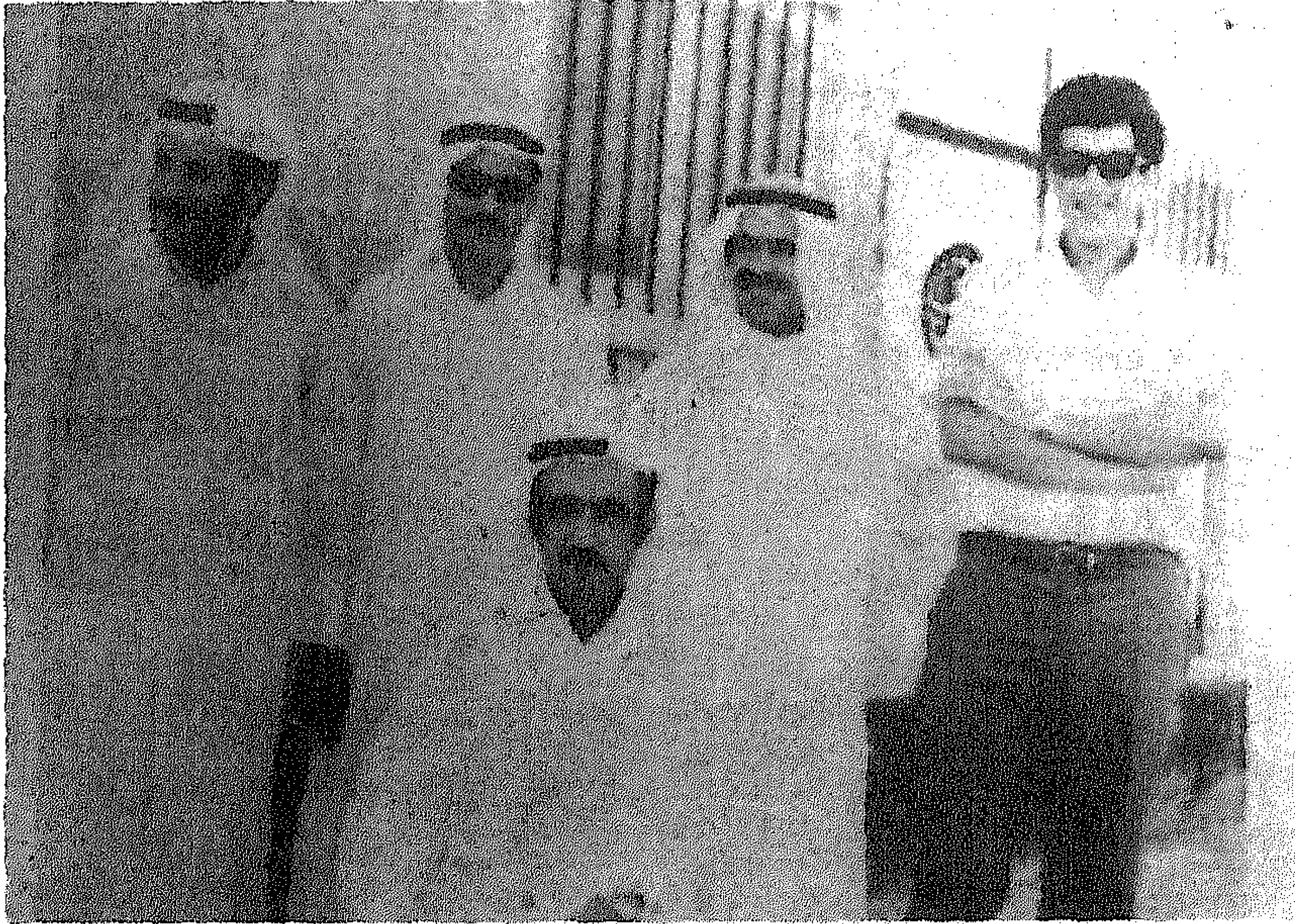
ويدعو محمد جابر الأنصاري الأدباء الذين بدأت أسماؤهم تفرض نفسها على الساحة والأدباء الذين كانوا قد قطعوا أشواطاً في هذا الاتجاه دعاهم إلى اللقاء في بيته وبعد تداول واتصالات وخلال فترة وجيزة ولدت أسرة الأدباء والكتاب وأخذت تستكمل شخصيتها وانتخبت هيئة إدارية لها برئاسة محمد جابر الأنصاري وكان ميلاد الأسرة منطلقاً هاماً في الحركة الأدبية والثقافية في مملكة البحرين ، وبدأت تمارس حضورها الاجتماعي والجماهيري . . وبدأت أيضاً تواجه بعض الإشكالات نظراً لشيء من اختلاف وجهات النظر والصراع بين القديم والجديد ، لكنها ولدت لتستمر وكان ميلادها إيذاناً بحركة أدبية أخذت مكانها في البحرين والوطن العربي .



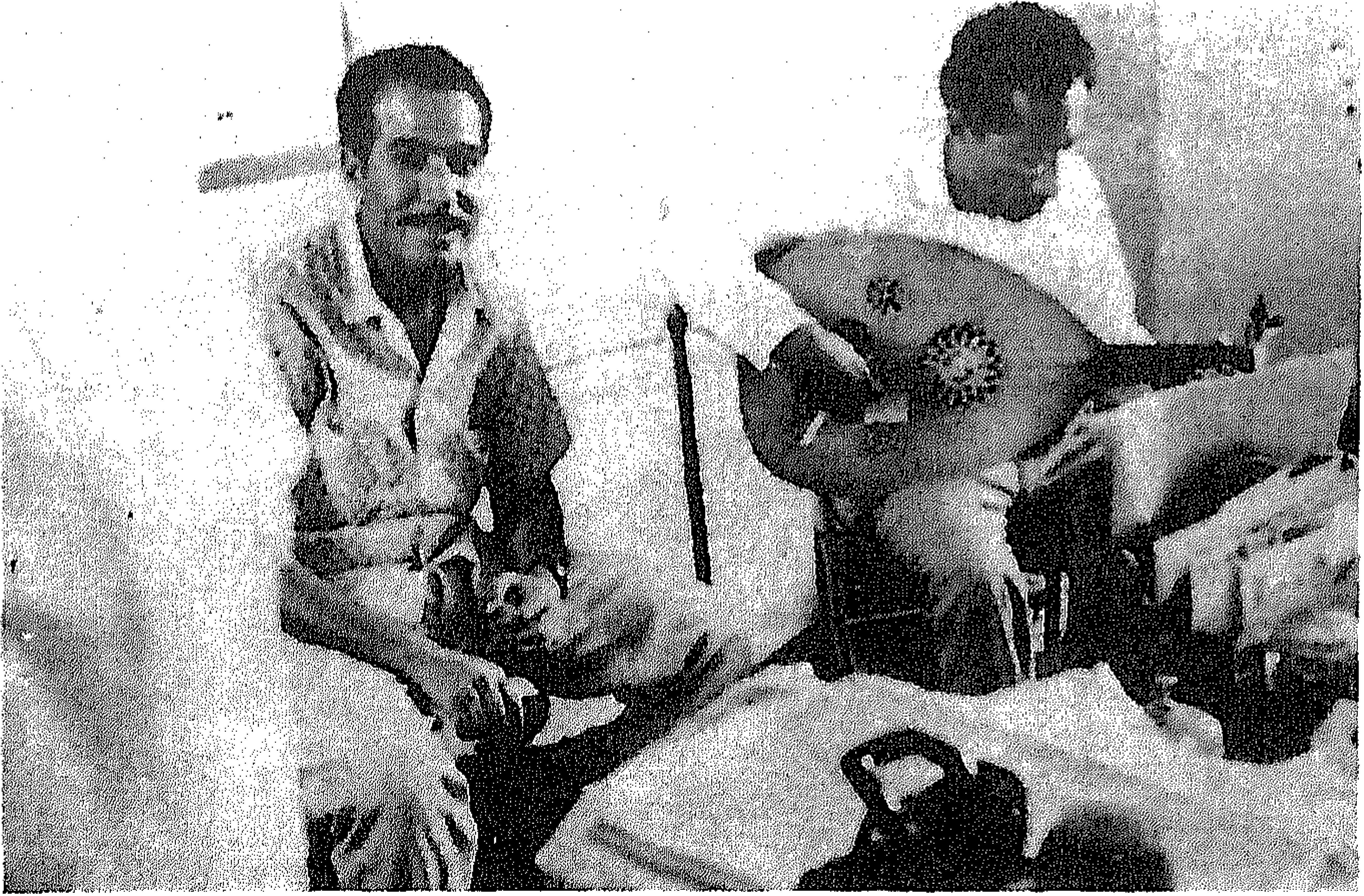
شقيقي صالح ، وهو يصافح الملك حسين



عبدالله سلمان كمال



عبدالحميد المحادين ، شناف فيصل ، جاسم المناعي ، إبراهيم شمس ،
وفي مقدمة الصورة أحمد جناحي



عيسى سلطان الذوادي وبجانبه أحمد كامل



نشاط مدرسي في الهداية

(٢٤)

❖ هكذا تعرفت على علي عبدالله خليفة.. وهذه شهادتي عنه..

❖ «أنين الصواري» قصيدة جعلتني أهتف كأرخميدس: «وجدتها.. وجدتها»!

❖ أعلنت تجربة علي عبدالله خليفة عن نفسها.. وكانت النبض الحي لأمسيات أسرة الأدباء والكتاب في البحرين

❖ حلم علي عبدالله خليفة بمجلة أدبية يتنفس من خلالها كتاب البحرين فجاءت «كتابات ٧٦»

❖ مدين باكتشافي لنفسي إلى علي عبدالله خليفة الذي مكنني من أن أجرب مقدرتي في التعاطي مع النقد السردي

❖ أواسط الستينات.. بدأت أعبث في كتابة الشعر والنثر.. وأتطلع إلى استكمال التعليم فالتحقت بجامعة بيروت العربية

❖ مئات من البحرينيين كانوا يذهبون لتقديم الامتحانات في بيروت العربية ومعظمهم شغلوا مناصب رفيعة بعد التخرج

❖ هكذا احتفلت مع البحرين بيوبيلها الذهبي للتعليم.. وهكذا أرخت لخمسين عاما من تاريخ التعليم..

في مدرسة الهداية وفي أوائل الستينات ، أتلمس مواطن التفوق في الحياة حولي ، وأتعرف على المبدعين ، أو مشاريع الإبداع ، وكانت مدرسة الهداية

الخليفية ، تعتبر البوتقة التي انصهر فيها أهل المحرق على طريق التعلم والإبداع ، وهنا أتذكر بداية علاقتي بالشاعر علي عبدالله خليفة منذ أيام مدرسة الهداية .

في يوم قرأت قصيدة منشورة ، تحت عنوان «أنين الصواري» ، ولا أدري كيف أخذت بهذه القصيدة وكدت أهتف كما هتف أرخميدس : «وجدتها . . وجدتها»!! قصيدة مميزة في موضوعها أولاً ، وهي التي حملتني إلى بعيد عن تهاويم كنت أبحث عن ملامستها ، وهي البحر والغوص . . والشعر . . ها هي قصيدة «أنين الصواري» حملتني إلى مسافات سندبادية ، إلى البحر ، إلى الألم . . إلى المعاناة . . إلى الغوص . . إلى الشعر الذي ينفجر من هذا كله . . وكانت القصيدة الأولى التي أقرأها لطالب كان في الهداية الخليفة هو علي عبدالله خليفة .

قاسم حداد تعرفت عليه لأنني كنت أُدرّس ذات الفصل الذي كان فيه . . وكانت فرصة التعارف متاحة . . بل وكثيفة . . أما علي عبدالله خليفة . . فلم أدرسه في الهداية ، بل كان في فصول أخرى ، لكنني وبسرعة اهتديت إليه من هذه القصيدة «أنين الصواري» . . سألت عنه قال الطلاب هو هنا في المدرسة . . وبسرعة ظفرت به . . والتقيه . . صبي أسمر البشرة . . خفيف البنية . . لافت في حركته الرشيقة . . والتفاتاته التي توحي بأنه يهتم بكل شيء حوله . . ومن اللحظة الأولى كأنني أعرفه من سنوات ، ومن اللحظة الأولى شعرت أن شرارة المعرفة بيننا قد أرسلت أول ومضة . . وللحقيقة ، إن تلك الومضة ما تزال مشتعلة بيننا حتى هذه اللحظة وصرت أتابع علي عبدالله خليفة ، وصار علي عبدالله خليفة يبادلني مودة بمودة . . وبدأت أتعرف عليه عن قرب .

كان علي يعمل في فترات ما بعد الظهر . وكان دائماً يبحث عن شيء ما . . وكان يقرأ ، وكان يتحدث معي فيما يقرأ ، وكنت ألتقيه في ساحة المدرسة كثيراً ، وألتقيه خارج المدرسة أكثر . وسرعان ما ترك المدرسة ذاهباً إلى المدرسة الثانوية . . حيث أن الهداية لم يكن فيها إلا صفوف إعدادية مكونة من صف

أول إعدادي وثاني إعدادي . وكان الصفان يسميان ثانوي . .

وانتقل علي خليفة إلى الثانوية ، وسنين تمر . . كان علي يعمل في الجمارك ، وأذكر أنه أول من اقتنى سيارة من جيله من الأدباء ، وكان الإرهاص لتأسيس أسرة الأدباء . . وكان علي في الطليعة من هذا النشاط . . وتتأسس أسرة الأدباء والكتاب وهي الفرصة التي كانت تتاح لي لأكون قريباً من هذه المجموعة الطالعة من الإرهاصات . . والمعاناة . . لقد كنت فيهم ، كأنني لا أحس بفرق في العمر ، فأنا أقول بأنني أنتمي لهذا الجيل من الأدباء ، كان ميلادي الأدبي في ذات زمانهم . . ومع تأسيس أسرة الأدباء والكتاب أصدر علي عبدالله خليفة ديوان «أنين الصواري» الذي يحمل اسم تلك القصيدة التي فجرت ذات يوم في مخيلتي حياة البحرين واللؤلؤ في الخليج .

وكانت المتغيرات جميعها على موعد ، في هذا الجزء من العالم ، التقت على حافة الأفق المطل على الخليج العربي سياسياً واجتماعياً وأدبياً ، على موعد بالتحولات كانت أحلاماً في أحيان وكانت أمنيات في أحيان ، وكانت آلاماً في أحيان وكانت جميعها تحمل مواعيدها كالميلاد لا تؤجل ، ولما اكتملت عناصر المشهد كانت لحظة التفجر ، عاصفة هادئة ، ومشهداً مبشراً . . وكما هي سنن الحركة الاجتماعية فالشعر يكون أول الواصلين ، والشعر يكون حامل الراية التي تطل من الأفق ، قبل أن يسد هذا الأفق بالقادمين زحاماً وحركة ، وهكذا بدأ أفق البحرين تتشابك فيه الرايات الآتية ، أحلاماً ، آمالاً ، شعراً وبدت طلائع القادمين يحملون تجربة طازجة تخففت من أثقال التقليد مكتنزة بالمستقبل والحداثة .

كانت البحرين في قلب المشهد ، ومع أول الطالعين من الأفق كان الشاعر علي عبدالله خليفة ، أعلنت تجربته عن ذاتها منذ أوائل الستينات ، في موعد مع التغيير الكامن في طبيعة الحياة ، شاعراً مميزاً ، وباباً لمستقبل مفتوح على مصراعيه ، لا يعرف المداجاة ولا المواربة ، يمتلك لغته التي انفتحت على اللغة

العربية في كل مستوياتها ، واثق الخطوة وهو يتلمس الطاقة المعبرة حينما تكون في لغة العرب ، فصيحة أم محكية ، أليست هي الوعاء الحامل الأساسي للمشاعر وللأحلام ، وللآمال دائماً .

أعلنت تجربة علي عبدالله خليفة عن نفسها ، لا يملك المتتبع إلا أن يراها ويسمعها ، كانت أمسيات أسرة الأدباء والكتاب في البحرين ، والتي كان علي عبدالله خليفة مؤشراً لنبضها الحي ، فرصة للقاء الجمهور المتعطش للشعر الجديد مع الواعدين بالمطر وعذب الشعر ، وفي الصف الأول منهم كان هذا الشاعر النحيف الرشيق المفعم بالأمل والحلم والألم .

علي عبدالله خليفة الآتي تواً من البحر ، من الغوص ، ومن الألم تفجرت شاعريته ، تعلن وبهدوء عميق انتماء عن حقبة حاضرة في الذاكرة الخليجية ، تحمل آلام الغوص ومعاناة البحارة الذين كانوا يقبضون على الجمر ، يحلمون بلؤلؤة مستكنة هناك في قلب صدفة .

كان شعر علي عبدالله خليفة هو لؤلؤة الألم الطالع من أنين الصواري على صدور الهواري والجلابيت في حضن البحر ، في صراع دائم لا هوادة فيه ، الحلم في الصدور والجرح في الأصابع ، والعنفوان في الدم ، هكذا كانت نفثات الشاعر علي عبدالله خليفة يحمل آلام أسرة عايشت البحر والغوص ، ونسجت من ألم البحر والغوص حكاياتها التي كانت ترددها على مسمعه «أم علي» وهي تهدهده وتتلو في أذنيه تلك المواويل التي تقطر بالمعاناة والجمر . . كيف لا يلتقط الشاعر علي عبدالله خليفة «أنين الصواري» والإقطاع البحري ، وقسوة الإنسان على الإنسان ، وقسوة البحر على كليهما والبحار بين قسوتين ، قسوة النوخذة ، وقسوة القرش .

إنه اللؤلؤ . . الحجارة الجميلة . . ترى كل لؤلؤة قصة جرح . . قصة موت . . ألف آه . . ألف قطرة دم . . وعلي عبدالله خليفة يطرق باب الحياة . . ويعيد إنتاج الألم . . صوراً تنز ألماً ودموعاً .

كان اللؤلؤ هو الوجه الآخر للألم . والنخيل هناك صامد في الرمل يتضور عطشاً ، ويروي جانباً آخر من ملحمة الشقاء ، فالناس كانوا أحد اثنين ، مزارعاً بائساً أو غواصاً أشد بؤساً . . وعلي عبدالله خليفة ينحاز إلى هؤلاء وهؤلاء . . يفجر بلغته الفصحى والعامية كل ما اختزنته اللؤلؤة والنخلة . . وكل ما يرف على الأجفان ، من حلم في المستقبل ربما يكون أجمل .

إن تجربة علي خليفة بلا ضفاف . مفتوحة على كل احتمالات التجديد ، وهو يستنجد باللغة المحكية ليصوغ منها أرق الأغاني . . فعلي شاعر الشعر الملقى والمقروء ، وإلقاؤه للشعر يمنحه بعداً سيمفونياً رائعاً .

أرى أنني أُخذت بتجربة الشاعر علي عبدالله خليفة ، وإذا تركت لنفسي الاسترسال في الحديث عما عرفته من علي في بواكير تلك الأيام ، وما أبدع فيما بعد ، فإنني أخرج عن قصد هذه الصفحة ، ويبقى لعلي عبدالله خليفة في ذمتي دين ، هو أن أكتب ذات يوم عن مجمل تجربته إن سنحت لي الفرصة وتباطأت عني عوادي الزمن .

وكانت دار الغد ، وكانت طموحات علي عبدالله خليفة في أن يتيح النشر للزملاء الذين يكتبون ولا يجدون مكاناً للنشر ، وكنت قريباً من هذا الطموح أتابعه بالإعجاب ، ولا أستطيع إلا أن أرقب هذا الشاعر الطموح وهو يحفر الصخر بأظافره . .

ولأن علي لا حدود لطموحه ، وكانت أحلامه ملأى بالمشاريع المتعاقبة ، وهو يملك من الجسارة أن ينفذها حتى ولو كانت المعطيات الموضوعية محدودة بين يديه وأمام ناظريه . . وحلم علي عبدالله خليفة بمجلة أدبية يتنفس من خلالها كتاب البحرين أولاً ، والكتاب العرب ثانياً . . وكان أن حصل على ترخيص لكتاب اسمه «كتابات ٧٦» هكذا كان التفافه على قوانين النشر ، وبدأت رحلة علي عبدالله خليفة مع كتابات وكان هيئة تحريرها هما علي عبدالله خليفة وعبدالقادر عقيل ، وقد كنت بحكم ترددي على دار الغد ،

وصداقتي لهيئة التحرير، أتعاون معهم في بعض الأمور، وأكتب فوق ذلك في هذه المجلة الواعدة الصاعدة «كتابات»، ولشدة شغفي في أن أساند هذا العمل بالجهد المتاح لي.. وهو كجهد ذلك العصفور الذي يروى أنه كان يملأ منقاره بالماء، ويطير فوق المكان الذي أوقدت فيه النار لإبراهيم عليه السلام ويرمي في جوفها، فكان العصفور يلقي القطرات من بعد على هذا الحريق، وقيل له يومها ماذا تفعل؟ فقال بحسبي أنني أفعل ما أستطيع.

نعم كنت مع علي وعبدالقادر أفعل ذلك.. نعم كنت مع علي وعبدالقادر أفعل ما أستطيعه، وهو متواضع وقليل جداً، لكن.. عذري كان أن هذا ما أستطيعه.

وكان علي يتلقى هذا الجهد بغير حدود من الامتنان والرضا.

وقد كتبت لأول مرة مقالة في النقد السردي، وكانت حول قراءات في رواية الطريق لنجيب محفوظ، وأقول الحق أنني يومها اكتشفت نفسي، لقد اكتشفت أنني استطيع أن أكتب في النقد السردي والأدبي، أن أكتب في نقد القصة وأن أكتب في نقد الشعر، وأن أكتب المقالة.. إنني مدين باكتشافي لنفسي إلى علي عبدالله خليفة الذي مكنني من أن أجرب مقدرتي على صفحات «كتابات» حتى توقفت بعد ٨ سنوات من الصدور.. وقد ذهب علي خليفة إلى قطر ليكون مسؤولاً عن مركز التراث الشعبي، وهو مؤسسة إقليمية انبثقت عن دول الخليج العربي.. وتلك تجربة أخرى.

ليس هنا موضع الحديث عن كثير من المصاعب التي واجهت الشاعر علي خليفة والتي عايشتها معه ورأيتها بأم العين، وليس هنا موضوع الاستمرار عن الحديث عن تجربتي مع علي عبدالله خليفة، لكني أقول صادقاً، منذ ١٩٦٤ وحتى هذه اللحظة فبراير (شباط) ٢٠١٠ لم تنقطع الصلة بيني وبين أبو فهد، وأنا دائماً قريب منه وهو قريب مني.. نلتقي غالباً، ونتهاتف دائماً، وقبل شهور حين زارني في المستشفى وقد دفنت ساقي بالجبس واللفائف حيث كانت

قدمي على وشك الانفصال عن ساقي ، وحضر إلي علي عبدالله خليفة زائراً وأذكر تلك اللحظة التي نظر إلي فيها وقال «فديتك»!!

لقد تواصلت مع علي عبدالله خليفة كثيرا ، وما أزال أتواصل كثيراً مع أبوفهد . . علي عبدالله خليفة . . عليك سلام الله .

في أواسط الستينات بدأت التفت إلى أكثر من مسألة ، كنت قد أشبعت نفسي قراءة عن تاريخ البحرين ومن ثم تاريخ مدرسة الهداية الخليفية التي أقضي فيها أطول مدة فترة ممكنة ، وكنت ألتفت إلى نفسي من حيث استكمال تعليمي العالي ، إن كان ذلك ممكنا . . وكانت البحرين تمر في هذه الفترة ببعض مراحل التشكل والتحول . . والهواجس . . وحتى ١٩٦٧ كان مدير المدرسة ما يزال عبدالله فرج ، الذي كان له أسلوبه في الإدارة . . وكانت المدرسة ما تزال إعدادية . . أي أن الدراسة فيها ٨ سنوات ويستكمل التلاميذ دراستهم في ثانوية المنامة - وكان عام ١٩٦٧ عاماً له أبعاده في الحياة العربية ، وفي الذهنية العربية وفي الفكر العربي . . عام ٦٧ هو من أبرز أعوام الانكسار العربي في العصر الحاضر ، لقد تغير طعم كل شيء ، وبدأت الحياة العربية تتخذ مجرى آخر ، بحثاً عن كثير مما فقدوا وكثير مما فرطوا وكثير مما أحبطوا .

في أواسط الستينات بدأت أعبث في كتابة الشعر وكتابة النثر ، وأتطلع إلى استكمال التعليم ، وبدأت الخطوات العملية لإنجاز كل ما هو مطلوب مني تجاه نفسي أن أنجزه . .

بعد درس ومراجعة للذات قررت أن ألتحق بالدراسة في جامعة بيروت العربية ، لأستكمل دراستي في اللغة العربية ، والجامعة العربية في بيروت واحدة من أيادي عبدالناصر القومية ، فهذه الجامعة كانت المنقذ الأول لعشرات الآلاف من الطموحين العرب ، الذين تحول ظروفهم الموضوعية بينهم وبين استكمال دراستهم الجامعية ، سيما وأنها تساهلت في مسألة الحضور والدوام ، وركزت في تقييم طلابها على تحصيلهم العلمي من خلال امتحان سنوي

شامل ، يحدد مستوى الدارسين ، وكانت استجابة لهذه المنهجية تطلب من أساتذتها أن يكون هناك كتاب مقرر لكل برنامج ، وتحبذ أن يكون الكتاب من مؤلفات الأستاذ . . ولأن بيروت العربية فرع من جامعة الإسكندرية ، فكانت تستعين بأساتذة جامعة الإسكندرية والجامعات المصرية ، وكان أساتذتها من ذوي الشهرة الأكاديمية ، وبرامج الجامعة تقف في الصف الأول من الجامعات العربية ، وتبقى مسألة الفروق الفردية والمقدرة على التحصيل .

وفي عام ١٩٦٨ كنت في السنة الأولى من هذه الجامعة وفي عام ١٩٧٢ تخرجت منها بتقدير عال ، كنا نذهب إلى الجامعة التي تبدأ امتحاناتها في الصيف ، وكان الآلاف من الوطن العربي يحضرون إليها صيفاً ، والبحرين كان يذهب منها المئات إلى بيروت العربية وكثيرون ممن شغلوا مناصب عليا في الدولة بدأوا رحلتهم الجامعية من بيروت العربية . . إن سنوات الدراسة في بيروت العربية من أمتع السنوات ، لأننا ذهبنا إليها ونحن قد نضجنا إلى حد كبير ، وكانت بيروت في تلك الأيام غاية في الرخاء والهدوء والاستقرار . . لكنها كانت تعيش مقدمات ما سوف يأتي . . وما إن أنجزنا هذه المهمة وتخرجنا سنة ١٩٧٢ حتى كان كل شيء يؤذن بأن الآتي هو الأسوأ . . وهكذا كان .

وفي عام ١٩٦٨ بدأت مدرسة الهداية تستكمل مراحلها ، لتصبح ثانوية كاملة ، واستقال عبدالله فرج وسافر مع عائلته إلى مصر ليقيم هناك ، وقد كان أبو عدنان قد ترك أثراً كبيراً ، وأسهم إسهاماً طيباً في الحركة التربوية من خلال إدارته لأقدم وأعرق مدرسة هي الهداية الخليفية .

وفي وسط الستينات كنت ذات يوم في ساحة المدرسة قرب المبنى الاحتياطي الذي كانت فيه المرحلة الإعدادية ، وفي حجرة صغيرة من حجراته ، كانت تتكوم ملفات قديمة وكثيرة ، ووقفت سيارة بيك آب . . ونزل منها عمال أخذوا يحملون هذه الملفات إلى هذه السيارة ، وفي هيئة تدل على إنهم بصدد إتلافها . . ولا أدري لماذا أحسست بشيء من الأسى ، لذلك مددت يدي

وتناولت بعض الملفات وحملتها وأخذت أقلبها واكتشفت أنها تعود إلى الأيام الأولى لمدرسة الهداية ، وأنها تحتوي على ثروة معرفية حول تلك الأيام موثقة بشكل أو بآخر . . وقد كانت السيارة قد نقلت محتويات ذلك المكتب ، وبقي في يدي بعض هذه الملفات ، فقرأتها وقدّرت إنني انتفع ببعض ما فيها ، أما كيف فلم أكن أدري! .

بدأت مديرية التربية والتعليم حركة للاحتفال باليوبيل الذهبي لتأسيس التعليم في البحرين ، وقدّروا أن يكون ذلك في النصف الأول من عام ١٩٦٩ وأخذوا يستعدون لهذا الاحتفال ، وتبنت مديرية التعليم برئاسة أحمد العمران هذا الموضوع وبدت الاستعدادات بأن هناك سيكون احتفال مهيب ، هكذا بدأت المسألة ، وكنت وأنا الباحث عن دور ما ، أفكر كيف أسهم في هذا الاحتفال ، وقررت أن أضع كتيباً يتضمن لمحات من تاريخ مدرسة الهداية الخليفية ولم أكن حينها قد تعمقت في هذا التاريخ ، فقررت أن أجعل منه مادة طريفة لكتيب نصدره في هذه المناسبة ، ولما عرضت الفكرة على ياسين الشريف مدير المدرسة الذي خلف عبدالله فرج قادماً من المعهد الديني ، استحسن أبو أسامة الفكرة ، وبدأت في البحث عن شذرات من تاريخ التعليم .

وبغير منهج ما ، عثرت على كثير من المعلومات النافعة ، ومن الملفين الذين استدركتهما من تلك السيارة ، وجدت معلومات ومراسلات جديرة بأن يُلتفت إليها ، منها تعليقات ورسائل أولياء الأمور ورسائل من الإدارة وقوائم مدرسية ورواتب ، ومن الملفات التي احتفظت بها من السيارة مراسلات من مدير المعارف في أول الأربعينات ووكلن ، وهي تنطوي على توجيهات قيمة جداً ولاسيما تلك التي وجهها إلى مدراء المدارس في أول الحرب العالمية الثانية والنصائح التي أسداها لهم ، وفي الملف نص الخطبة التي ألقاها أحمد العمران أمام الريحاني ونص الرد الذي قاله الريحاني :

وجمعت هذه الجذاذات وصنفتها في كتيب أسميته (مدرسة الهداية

الخليفة للبنين بين ١٩١٩و ١٩٤٨) وكتبت في الكتيب قصيدة بالوزن والقافية تحت عنوان في العيد الخمسين ومنها :

يا غـارس المجـد في أفـيـاء مـدرسـة
إن الطمـوح طريق كلهـا عـرق
تبني الرجـال رجـالاً في مـصـانعـهـا
بالحق ، بالنفس ، بعـد الله قـد وثقـوا
لو زلزلت فـيـهم الدنيـا لما عـبـئـوا
لو هدمت حـولهم مـا مّـسـهم فـرق

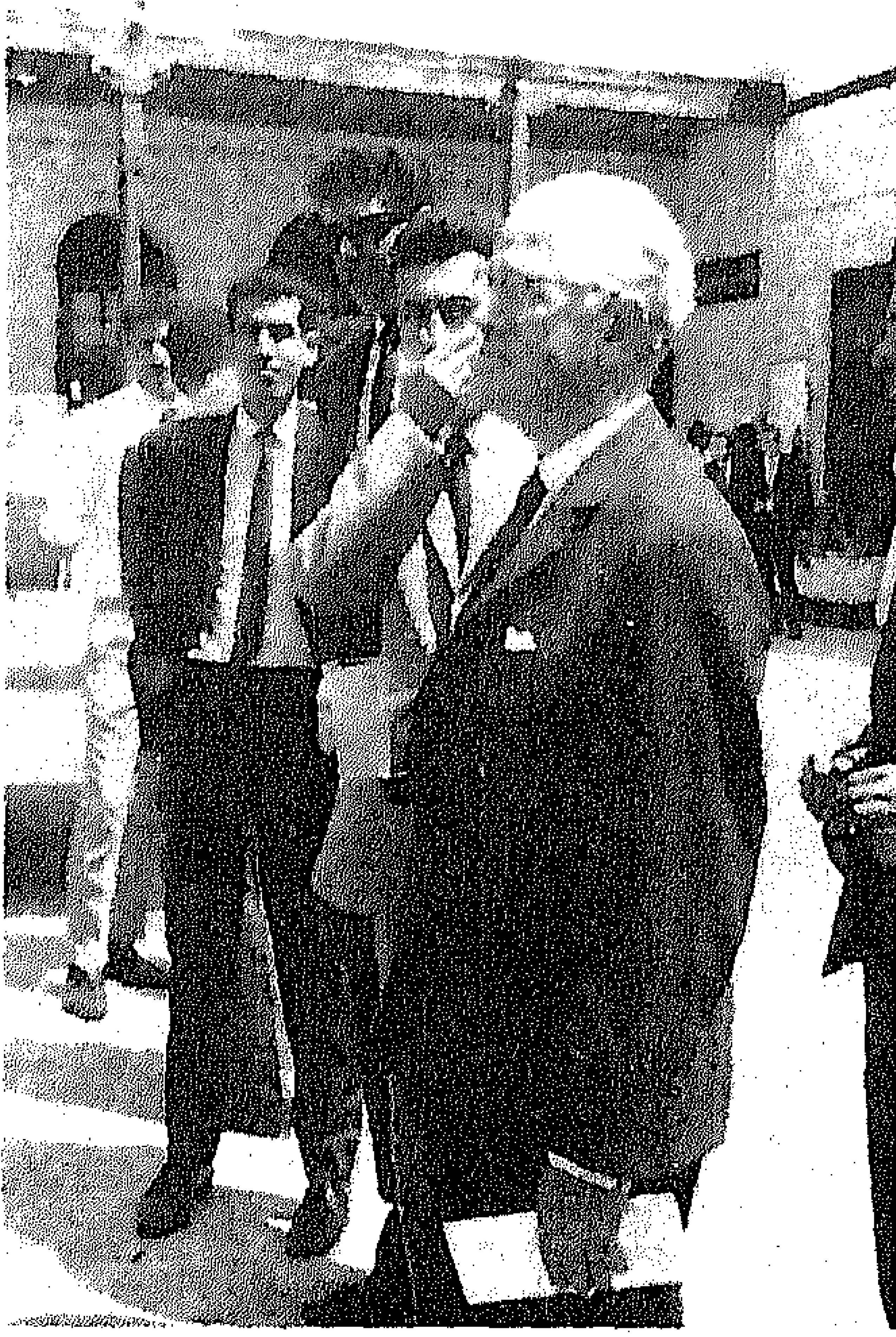
وقد طبع الكتيب في المطبعة الشرقية - البحرين - وكنت وأنا أتابع بروفاته ألتقي بالمرحوم الأستاذ عبدالملك الحمر ، وكان إذاك مدير المدرسة الثانوية وقد وضع كتاباً عن التعليم باللغة الإنجليزية ، وكان يتابع بروفاته كذلك .

وجهزت هذا الكتاب ليكون هدية مدرسة الهداية لزوارها المميزين الذين زاروها في عامها الخمسين .

وأقيمت احتفالات اليوبيل الذهبي وتوجت بعروض طلابية مختلطة في استاد مدينة عيسى تحت إشراف الأستاذ سيف جبر المسلم رحمه الله ، وقد حضر هذه الاحتفالات عدد من وزراء التربية العرب ووفود من الأقطار الخليجية ، وأقيم في مدرسة الهداية الخليفية معرض للصور والأنشطة ، وممن حضر إلى هذه المدرسة عبدالخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية .

وقد كان المدير عبدالله فرج مقتراً في مصروفات المدرسة ، ويدور كل سنة مبلغاً ، فلما جاء ياسين الشريف وصادفت إدارته اليوبيل الذهبي ، فصرف كل ما في خزينة المدرسة وغطى الكثير من نواقصها .

عبدالخالق حسونة ، الأمين العام للجامعة العربية في مدرسة الهداية سنة ١٩٦٩

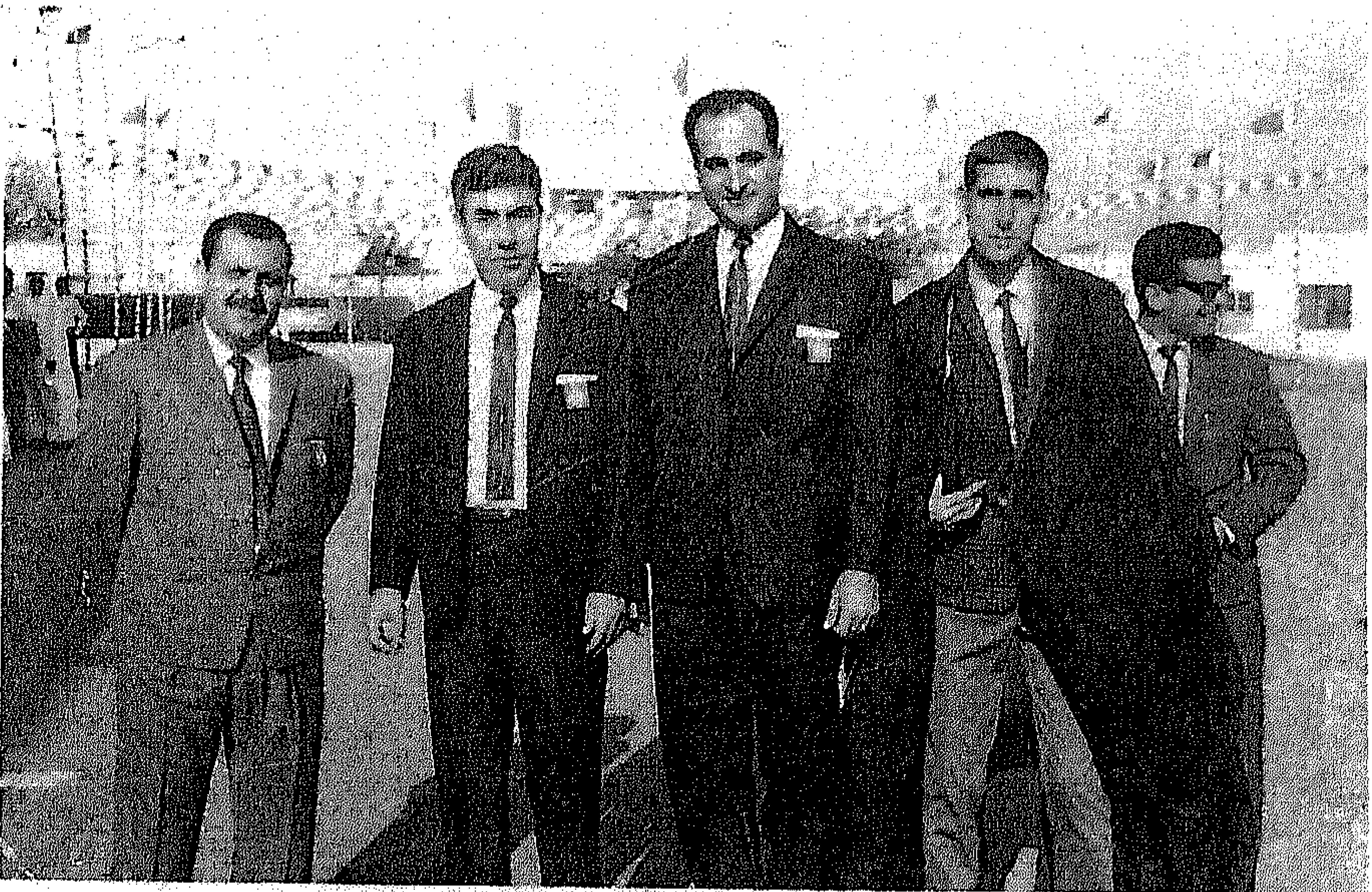




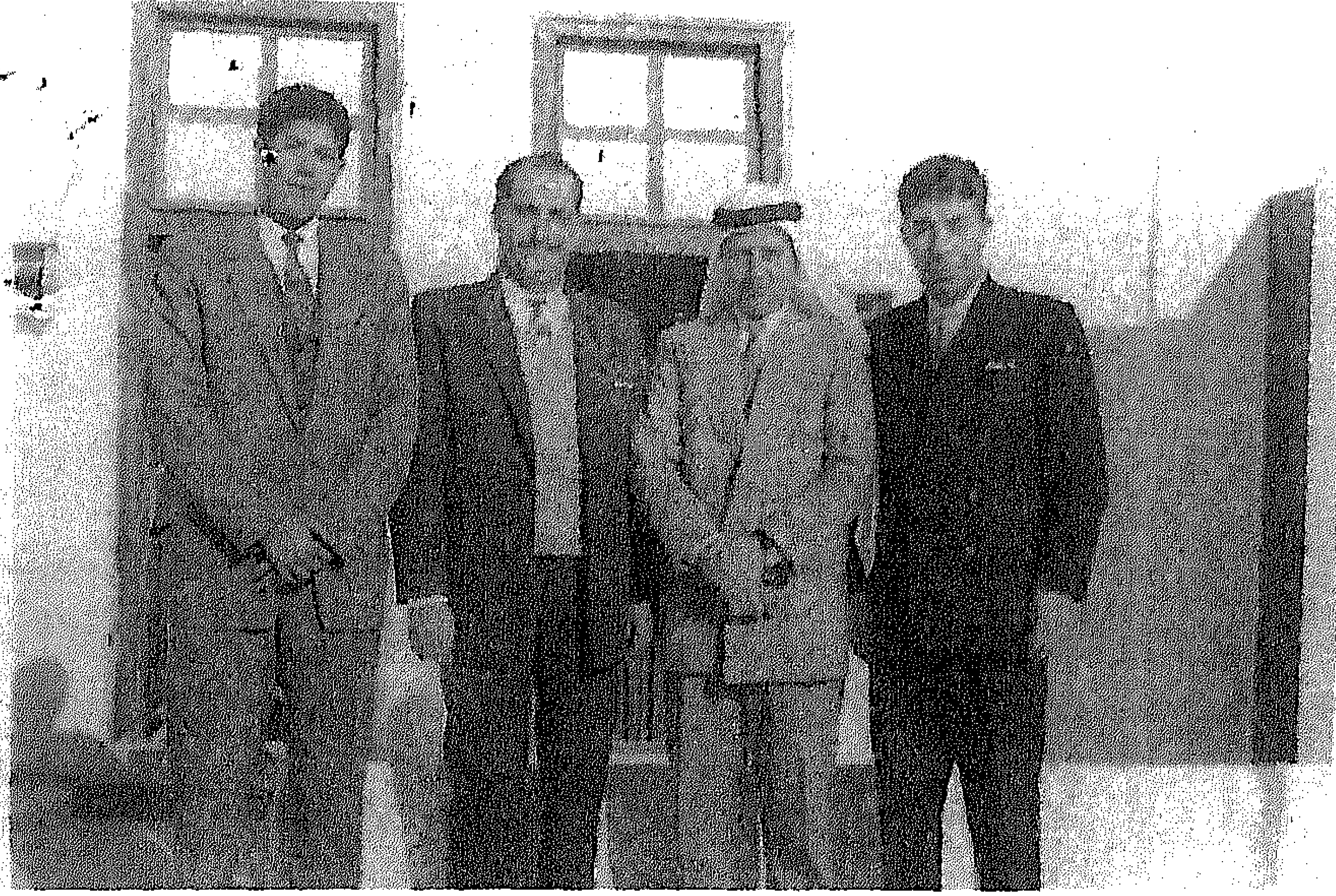
حفل تكريم المحادين برعاية المغفور له عبدالرحمن كانو ويظهر في الصورة على عبدالله خليفة



في معرض الهداية ، سنة ١٩٦٩ ويظهر في الصورة عبدالخالق حسونه وحشد من الموظفين والمدرسين



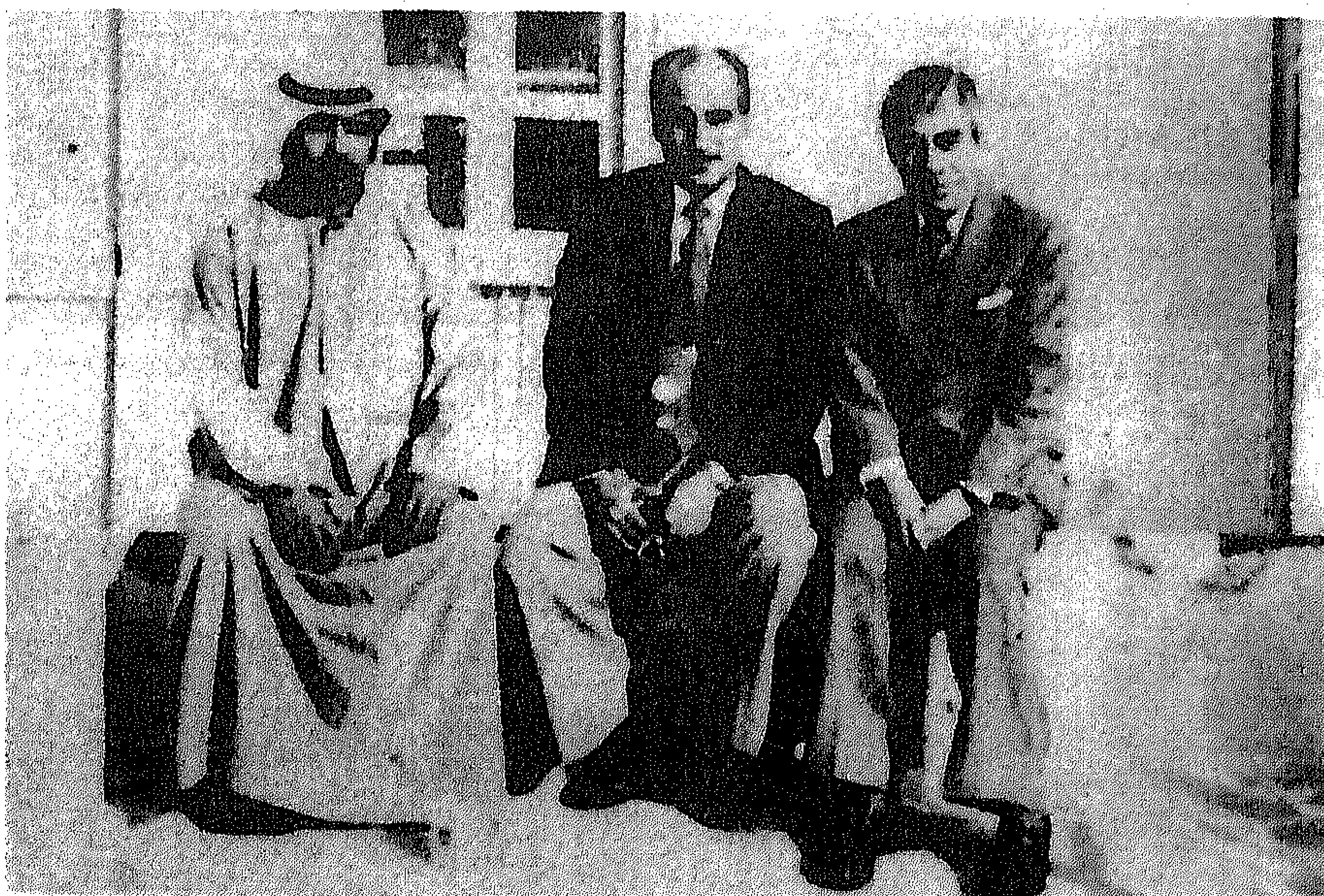
من أساتذة الهداية : أحمد الشباك ، عادل سفيان ، خالد زنتوت ، عصام أبو طه



خالد زنتوت، وجيه نزال، عبدالله حجازي، عبدالحميد المحادين



أحد احتفالات مدرسة الهداية الخليفية



خالد زنتوت ، عادل سفيان ، عبدالوهاب بوكمال

(٢٥)

هكذا عشت البحرين بعد استقلالها وخبرتها...

❖ في الآر. إف.. قلت لهم: «لا قبر أحسن من قبر! وهذه قبور لأحياء»!

- لا أدري من صاحب فكرة انتقال المدرسين العزاب إلى المعسكر الذي أخلاه الإنجليز

❖ متعتي اليومية لقضاء رحلة صباحية وظهرية مشياً على الأقدام.. بين الآر. إف والهداية

❖ كيف تحول مسكن مدير الهداية إلى مكتبة المحرق العامة؟ وكيف استفدنا منها؟

❖ معن العجلي.. قصة تطول مع حكاياته ورواياته عن الأدب والعراق وعربستان خلال أمانته للمكتبة!!

❖ حتى هذه اللحظة من حياتي لم أقل لامرأة قط إنني أحبك.. ولم أسمع من امرأة قط كلمة أحبك!

❖ جنبت أخي تكرار مأساتي بالدراسة في دار المعلمين والتخرج «نصف جامعي»

❖ هذه هي الأسباب التي جعلت إبراهيم شمس يبكي.....

❖ المرحوم إبراهيم شمس.. كان خير صديق وونيس لي.. رحمك الله يا أبا عبدالله

❖ لماذا اعتذر قاسم حداد وعلي عبدالله خليفة أرق اعتذار سمعته في حياتي؟!

«للمكان قيمة ، وكثير من حياة الإنسان تتشكل بفعل المكان الذي يوجد فيه ، بل إن المكان هو العامل الأول في سيرورة الحياة ، وكثيرون ، بل جميع الناس لو وجدوا في أمكنة غير التي وجدوا فيها لكانوا غير ما هم ، ولتغيرت سيرتهم تغيراً جذرياً» . .

«استقلت البحرين في أوائل السبعينات من القرن العشرين ، وانسحب الجيش الانجليزي من قاعدته التي كانت تسمى R.F في البسيتين ، هذه القاعدة التي دخلتها قبل ذلك الوقت حين نظم جاسم المعاودة مباراة في كرة السلة بين منتخب المعلمين ومنتخب الجيش الإنجليزي في هذه القاعدة . . ولعبنا مباراة جميلة في ليلة صيفية رطبة ، وحينما انسحبوا خلفوا وراءهم مباني كانوا يشغلونها ، وكان لكل جندي حجرة لا تزيد مساحتها عن ستة أمتار مربعة ، فيها سرير ، ولا شيء غير السرير ، وفيها تبريد عن طريق تمرير الماء البارد في مواسير تمر بالحجرة ، وكانت ربما تؤدي الغرض بالنسبة لجندي . . يجد أموره مرتبة ، من حيث الغذاء ومطاعم مخصوصة ملحقة بالمعسكر ، ومن حيث النظافة والغسيل ، كله يتم له على أحسن حال . . ولا أدري من صاحب فكرة أن ينتقل المدرسون المتعاقدون العزاب إلى المعسكر الذي أخلاه الإنجليز في الآر إف ، ويُعطى كل مدرس حجرة لا تزيد ولا تنقص . .

ولما أُخذنا أول مرة لاختيار حجرنا!! ومررت بعدد منها ، ولما سُئلت أي الحجر اخترت أجبتهم : «لا قبر أحسن من قبر! وهذه قبور لأحياء» . . ومع ذلك ملئت بالمدرسين العزاب ، ومعظمهم من العرب ، فما أن ينفض سامر التدريس في مدرسة الهداية حتى ننصرف ، وتحملنا أتوبيسات المعارف ، إلى هناك ، في مكان كان يوماً ما معسكراً . . . وللحقيقة فإنه كان مسكناً ضنكاً . . ولكن له ميزة واحدة وهي إنني كنت أقطع المسافة بين هذه المنازل إلى مدرسة الهداية مشياً على الأقدام ، وحين يكون الطقس مناسباً فإن هذه المسافة تعتبر متعة يومية لقضاء رحلة صباحية وظهرية مشياً على الأقدام ، ولم تكن البسيتين

مكتظة بهذه العمارات ، بل كانت في معظمها أرضاً فراغاً» .

«لست أدري كيف كنا نتدبر طعامنا ، وحياتنا وحاجاتنا ، فقد كانت سنوات في غاية البؤس ، لكن خفف عني هذا البؤس هو أن مكتبة للمعارف فتحت في مبنى بجوار مدرسة الهداية الخليفية ، كان مسكناً لمديرها عبدالله فرج ، ثم سكنه المدير الذي جاء بعده ياسين الشريف ، ولما تولى إدارة المدرسة حسن الحري ، أول مدير بحريني لمدرسة الهداية ، صار المبنى خالياً ، فقررت مديرية المعارف أن تفتتح فيه مكتبة للعموم ، وحشدت فيها ما ينشر من الكتب ، وصارت هذه المكتبة لي ملاذاً أذهب إليه يومياً بعد الظهر لأقرأ الصحف وأقرأ بعض الكتب ، وأستعير منها كتباً كذلك وكان يدير هذه المكتبة الصديق معن العجلي ، و«معن» هذا له قصة تطول ، فهو ينتمي إلى قبيلة عربية عريقة في العراق هي قبيلة بني عجل ، ، وكان قد قدم إلى البحرين في الخمسينيات ، وكان معاصراً لأحداث الخمسينات ، وللهيئة وإشكاليات تلك الأيام ، وبقي يتردد على البحرين وتوسط له أصدقاؤه وعين أميناً لمكتبة المحرق ، وكنت أذهب إلى هذه المكتبة في ساعات الفراغ الصباحية ، وأذهب إليها في الساعات المسائية ، ونتحدث مع معن العجلي ، يروي الحكايات وأيام العرب وأيام العراق وعربستان وغيرها . وهو حافظ للشعر ، ويروي الأدب ويجيد الفارسية كأبنائها وكان يعود ظهراً من المكتبة ويعود عصراً إليها ، ويعود ليلاً من المكتبة بثوبه وعباءته المتعلقة على كتفيه ، وغترته وعقاله ، كان هذا في السبعينات ، وقد خرج معن العجلي من البحرين وأخذ يتجول في بلدان عربية ، وآخر حديث بيننا كان منذ شهور حيث جاء في الأخبار اغتيال ابنه المثنى ، وهو شيخ من شيوخ قبيلته ، فبحثت عن تليفون معن وهاتفته وعزيته ، فكان في غاية الصلابة والتماسك ، وهذا شأنه دائماً .

كانت المكتبة تجتذب القراء يومياً من المحرق للقراءة أو استعارة الكتب ، يقوم على شؤونها وشؤون ترتيبها والإعارة منها مجموعة من الفتيات البحرينيات ،

من بنات أهل الحد وأهل المحرق وكلهن ينتمين إلى عائلات وقبائل معروفة ، وأتاح لي ترددي على المكتبة أن أتعرف على جانب من جوانب المجتمع المحرقي . . وكن يمثلن النموذج الممتاز للمرأة البحرينية العاملة التي تقتحم الحياة العامة ، بكل الجد والوقار والرصانة ، مع غير قليل من اللطف والتوازن والمحافظة . . لقد كانت المكتبة ملاذاً لي من الفراغ ، وفي ذات الوقت مصدراً من مصادر المعرفة والقراءة والإطلاع» .

ذلك كان في أوائل السبعينات حين أنجزت الدراسة الجامعية وأصبحت مؤهلاً تأهيلاً مقبولاً كمعلم ، لكنه لم يكن يرضيني أو يشبع طموحي ، كنت أحلم بعلم أعلى ، وتحصيل أكثر عمقاً ، وكنت أحاول ، ولكني كنت أحس بأن الطريق طويل ، وأن الطريق شائك وأني ربما أتعثر ، هكذا ظن ، وهكذا قال .

«كنت أحاول أن أكتب الشعر ، وكتبته ، ومنذ ١٩٦٥ ، صرت أعتقد أنني شاعر ، وبدأت أفجر في داخلي حوافز الشعر ، والشعر لا يأتي إلا من معاناة ما ، والعربي أول ما يكتب الشعر يتغزل ، والغزل يعني أنه يعايش تجربة عاطفية ، أي أنه محب ، ولكنني كنت أعلم إنني لم أجرب الحب قط ، كثيرون لن يصدقوني ، ولا يهمني أن يصدقوني ، وإنني أختصر عليهم الطريق ، وأقسم لهم إنني حتى هذه اللحظة من حياتي لم أقل لإمراة قط إنني أحبك ، والأكثر تأثيراً إنني لم أسمع من إمرأة قط كلمة أحبك ، ولست صادقاً في شيء أكثر من صدقي في هذه المقولة . . إذن كيف أكتب الشعر ، وكيف أكتب الغزل ، ومع ذلك كتبت ، وكتبت شعراً «غزلياً» وتغزلت ولم أكن أعني امرأة بذاتها ، لكنني أمارس الشعر لأنني قادر عليه إلى حد كبير ، وأعترف أنه واتاني شعر كثير في الغزل وغيره ، وهو بكل المقاييس شعر ، وإني أتجرأ لأن أجمع هذا الشعر في ديوان صغير ، والعجيب من هذه التجربة أنني بعد عام ١٩٨٠ لم أكتب سطراً واحداً في الشعر ، وهجرت الشعر نهائياً ، والسبب ، وبكل بساطة ، لأنني تزوجت ، والشعر والزوجة عدوان لدودان ، فسكتّ عن الشعر إكراماً لأم

ساسان . . وإن كنت حتى هذه اللحظة لم أجفف منابعه من وجداني ، وانتقل الشعر إلى النثر لدي ، وأنا أكتب نثراً أحسبه حين أقرأ فيه فيما بعد شعراً منثوراً ، وأعتقد أن هذه الميزة جاءتني من ذلك النهير الذي جففته وأغلقت قنواته ، فانتشر في كتابتي النثرية وكان في ذلك خير كثير» .

«لابد من مواصلة البحث ، وفحص البدائل ، إنني أتطلع إلى تعليم أبعد ، كيف ، أين ، متى ، أمور لا إجابة لها ، أنا أتطلع إلى شيء وحسب ، لكنني كنت واثقاً إنني في نهاية الأمر لابد أن أكتشف طريقاً ما» .

عن الأهل في الأردن خلال تلك المرحلة من تواجدي في البحرين «أخي الذي هو الثالث أي الرابع في الترتيب إذ أنا كنت الأول ، كتب لي ذات يوم ، أنني سألتحق بمعهد للمعلمين في شمالي الأردن ، ليتخرج معلماً نصف جامعي ، الدراسة فيه سنتان ، بعد الثانوية العامة ، ونظراً لتجربتي ، فأنا لم أشعر بالسعادة لاختياره ، وإنني كنت أعلم أنه لا يملك فرصاً لاختيار آخر ، من الناحية المادية ، والوالد لا يستطيع أن يفعل له شيئاً وأنا كنت لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، لكنني في لحظة جسورة قررت وقلت له : لا تذهب إلى المعهد ، فكتب لي : لقد ذهبت وداومت من أسبوع فكتبت له : لا تكرر تجربتي وأنا أتحمل قرارك هذا . وقد كنت واثقاً أنني لا أستطيع أن أتحمل إلا إذا غامرت في هذا القرار ، وبحسبة رياضة بسيطة ، وجدت أنني في ١٢ سنة خدمة ازداد مرتبي نتيجة للزيادة السنوية والتي هي ديناران ونصف لكل سنة ، وهذا يعني أن مرتبي زاد عن ٨٠ ديناراً بشيء قليل . . سأقتسمه مع أهلي وأخي ، وأظنه سيكون كافياً ، فقلت لأخي محمود : إذهب إلى دمشق وادرس أي تخصص فيها تريده ويقبلونك فيه . . والطريف أنه قبل الذهاب إلى دمشق ، كان قد شارك مع قبيلتنا في يوم من أيام العرب ، في اشتباك مع قبيلة أخرى . . . وكان أن سجن من أجل ذلك فترة من الزمن ، فأردت أن أحرره من هذا الجو وأبعده إلى دمشق ليتعلم فيها . . ويذهب ويدخل كلية الحقوق وهي من أصعب كليات

جامعة دمشق التي هي أصلاً صعبة ، وبأربع سنوات حصل على ليسانس في القانون ، وها هو أصبح قابلاً للعمل ، وعمل في إحدى سفارات الأردن ، هذه الأسرة بدأت تنمو في الاتجاهات الصحيحة» .

«لا أريد أن أبتعد عن الهداية ، وعن حياتي في المحرق ، في البسيتين لا بأس ، لقد أصطفيت أستاذاً محرقياً كان يعمل معي في الهداية الخليفية ، وكأن هاتفاً قال لي . . إنه هو . . ليكن صديقك الأقرب ، على صعيد العمل والحياة اليومية ، وكأنه كان يسمع ذات الهاتف ، إنه صديقي وأخي ، لست أذكر متى تعارفنا لأول مرة ، ومتى التقينا أو متى قررنا أن نكون أصدقاء ، هذا إذا كنا قد قررنا . . إنها مسألة قدرية أيضاً ، ربما لأنه على علاقة كبيرة بنادي المحرق ، وربما لأن صهره (زوج شقيقته) هو اللاعب الشهير عبدالرحمن بوجمال ، الذي كان أبرز مدافعي نادي المحرق الرياضي ، ربما ، وربما ، المهم تعارفنا وأصبحنا أصدقاء . . إنه «إبراهيم شمس» .

ذلك الصديق ماذا أقول عنه . وقد أصبحت بيننا ألفة ومودة ، وأكاد أقول أنه من القلائل جداً الذين صحبتهم في حياتي العملية ، كان معلماً معنا في الهداية ، وكان يدرس اللغة العربية ، وهذا يعني أننا لا نفترق إلا في الحصص التي ندخلها للتدريس . . صرنا رفاق حياة ، وكانت لإبراهيم وصهره عبدالرحمن سيارة ، وكنا ثلاثتنا نذهب كل يوم جمعة في رحلة إلى الصخير ، أو ما حولها وكانت لنا رفقة من أصدقاء آخرين تعرفت عليهم عن طريق إبراهيم وعبدالرحمن ، وهم من أقاربهم وجيرانهم .

صحبة كانت تمثل أروع ما تكون العلاقات بين مجموعة من الشباب ، وقد تذكرت أبيات ابن الرومي التي يصف فيها رحلة أصدقاء من هذا المستوى .

«جسومهم شتى ، وقلوبهم معاً»

لقد كانت الحياة مع إبراهيم شمس ، ذات طعم مختلف فهو رجل «هاب ريح» ، وصديق صدوق ، ويتمتع بروح ساخرة ، كنت من أكثر الناس انجذاباً لها ،

وقد كان بروحه الساخرة يخفف عنا كثيراً من وعثاء العمل ، أو ثقل دم آخرين ، وهو ذو طرافة غير عادية . . وكنت أنا وهو نتفاهم بمجرد النظر .

ومن طرائفه المؤلمة ، كنت أنا وهو وزميلنا محمد حسين عبدالملك في سيارة عائدين من مشوار في المحرق ، ومررنا في طريقنا إلى الهداية بمقبرة المحرق ، وكانوا يبنون حولها سوراً ، فقال إبراهيم : «زين زين اللي بنلحق عليه» . . كانت الحياة قاسية على إبراهيم فقد أصيب بمرض في القلب ، وكان بطبيعته متشائماً ، رغم خفة دمه ، ورغم سخريته الفائقة ، بل لعل مصدر سخريته هو هذا الخوف المزمن لديه ، فكان ذلك يترك عليه ضغطاً نفسياً هائلاً ، وضعفت مقدرته على التعبير ، فكان يلجأ إلى الكتابة ، لكن بقيت ذاكرته قوية جداً رغم اضطراب قدرته على الكلام .

«كان دائما يحثني على أن أطلب جواز سفر بحريني . . يقول لي أرجو ألا أموت إلا وقد رأيتك تحمل جواز البحرين ، وفي سنة ١٩٩٦ تحققت أمنيته لي ، وكنا في مدرسة الهداية ، وقد جاء يزورها وهو مريض ، وكنت للتو حصلت على الجواز ، فنظرت إليه ومددت يدي إلى جيبي وأخرجته وأريته له ، فنظر إبراهيم إلي نظرة اكتنزت بمشاعر الأخوة والمودة والصداقة ، لم يتكلم لأنه لا يستطيع الكلام ، لكن دمعتين حارتين تفجرتا من عينيه . . ومشى إلي واحتضنني ، رحمك الله يا أبا عبدالله ، رحمك الله ، لقد فقدت بفقدك أخاً وصديقاً ورفيقاً رحمك الله أيها المحرقي الصدوق» .

كنت أبحث عن تجمع ما ، فكانت تجمعات الأدباء هي التي تجتذبني لأكثر من سبب ، وأهمها أني كنت مولعاً بالأدب ، وكان معظم الأدباء من أصدقائه ، وكنت أجد فيهم الدفء حين أقترب منهم ، «ولا أنكر أنهم كانوا بذلك يواسونني ، وكنت أحرص على حضور ندواتهم وأمسياتهم وأكاد أتعرف كل مرة على واحد منهم أضيفه إلى ما أدخره من مشاعر إنسانية معهم . . إلى أن كان يوم وكنت قد تلقيت تلفوناً من صالح أبو إصبع وكان يرأس تحرير مجلة ثقافية

في ليبيا ، إذ كان يعرفني عن طريق أحد أقاربي هناك ، وقد جاء إلى البحرين ونزل في فندق مون بلازا وهاتفني للسلام علي ، فذهبت إليه ذات مساء وجلست معه وبعد حديث طويل قال لي إنني أنتظر بعض الأخوة البحرينيين من الأدباء لأجري معهم حديثاً عن الأدب في البحرين ، ولما أردت أن استأذن قال ابق معي حتى أنجز الحديث وجاء الأخوة الذين كان ينتظرهم اثنان فيما أظن كان ذلك حوالي العام ١٩٧٢ وجلست ، وأخذ يوجه لهم الأسئلة وهم يجيبون عنها باستفاضة جيدة ، وتكونت من إجاباتهم فكرة معقولة عن الأدب في البحرين والحركة الجديدة . ولقد أحسست بفضول أن أبدي ملاحظة ، وأعتقد أنني لم أكن متطفلاً على الحوار إلى هذا الحد ، لكنني لا أدري ربما أكون قد خذلتني الكياسة ، وهي لا تخذلني دائماً : اسمحوا لي بملاحظة ، جميل ما تحدثتم به لكن وبحكم معرفتي بالحركة الأدبية في البحرين أرى أنكم أغفلتم سهواً اسماً من أبرز أسماء الحركة الأدبية ، وهو معروف في الوطن العربي ، وأود أن تستدركوا هذا السهو ، إنكم لم تشيروا إلى إبراهيم العريض . . فالتفت لي الأخ الذي تحدث طويلاً عن الحركة الأدبية وقال لي : هذا شأننا وهذا أدبنا ، فقلت في نفسي : ليس بعد»!!

«وحتى أكون منصفا وحتى لا أتجاهل أمراً كان في غاية الروعة والإنسانية فإنني في أمسية في نادي البحرين ، بعد تلك الواقعة بأيام ، تلقيت من أخي وصديقي قاسم حداد وأخي وصديقي علي عبدالله خليفة ، وقد علما بما وقع من الأخ الأديب ، أرق اعتذار سمعته في حياتي» .



علي عبدالله خليفة، وعبدالحميد المحادين في الملتقى الأهلي



محمد حسين عبدالملك أحد مدراء الهداية الخليفية



المحادين وإبراهيم شمس



إبراهيم شمس في مقدمة الصورة ثم أحمد جناحي ، عبدالحميد المحادين ، حامد الخطيب ، جمعة عدوان وجاسم المناعي



عبدالحميد المحادين ومعن العجلي



إبراهيم شمس



المستر ووكلن ، في زيارة لمدرسة الهداية مع زوجته ، ويبدو في طرفي الصورة محمد حسين عبدالملك وأحمد الشوملي ١٩٨٢

(٢٦)

❖ بلغت الثلاثين من العمر.. وما حققت من استحقاقات المرحلة شيئاً!!

❖ تذكرت أني لم أتزوج.. وكانت المرأة بالنسبة لي مسألة مبهمة!

❖ تنازعتني أسئلة ثلاث.. متعلقة بطموحي.. إنسانيتي..جذوري

❖ لم أكن أمقت فعلاً كمقتي لما يسمونه «التحضير»، وأن ترسم خارطة طريق للحصة!

❖ كانت مسألة التحضير هي المشكلة المزمنة بيني وبين المدراء وبيني وبين المفتشين

❖ أصدقاء ثلاثة غيروا في حياتي تغييرا جوهرياً.. غلوم والشايجي والهاشمي

❖ كان إبراهيم غلوم وهلال الشايجي يعتبران التدريس في الهداية محطة مؤقتة.. وكانت بالنسبة لي دائمة

❖ تتبعت رحلة الزملاء الثلاثة في التعليم العالي..وتبلورت لدي الرغبة في المواصلة.. لكن ظلت حلماً مؤجلاً

«في السبعينات ، أكون قد تجاوزت الثلاثين ، ماذا يعني أن يتجاوز الإنسان الثلاثين؟ الأهم في هذه الدلالة هو أن يكون قد أنجز مشروعه الحياتي ، تعليمياً واجتماعياً ، واقتصادياً . . النمط العادي للرجل في أي مجتمع حين يتجاوز الثلاثين يعني أن يكون أنجز مشروعه العلمي . . وواصل فيه إلى الحد الذي

يرتضيه لنفسه ، ويكون قد استقر اجتماعيا . . تزوج . . وحقق لنفسه أسرة ما ؛ ويكون قد استقر اقتصاديا ، في عمل ما ، يدر عليه ما يحفظ وجوده ، ويطمئنه على الآتي من أيامه . هذا كنت أعلمه . . وأعرفه وأقتنع به . . لكن هل تحقق لي ذلك في ذاك الوقت»؟

فمحاسبة الذات هي من أصعب أنواع المحاسبة على الإنسان ، إما أن تصعد به إلى الأعالي أو تقف به عند مفترق الطرق ليمر من أمامه الجميع يلقون عليه السلام ويواصلون مسيرتهم . .

«أستطيع أن أجزم أنني لم أكن قد حققت واحدة من هذا المستحقات لهذا العمر . . لم أكن قد أنجزت مشروعي العلمي . . ولا أملك فيه سوى الطموح ، وشهادة جامعية ، دبلوم يؤهلني لمهنة التعليم . . لكنني أتطلع إلى ما هو أكثر ، أكثر جداً . . أما المشروع الاقتصادي فهو هذا المرتب الهزيل الذي لا يكاد يسمن أو يغني من جوع ، أقتسمه مع عائلتي والتوفير منه غير ممكن ، وليس لي أي ضمان من ضمانات الحياة في السن المتقدمة ، وهي آتية لا ريب في ذلك . . وأما الجانب الاجتماعي فعنوانه الزواج . . وحتى تلك اللحظة كنت قلقاً لأن أوضاعي العلمية والاقتصادية والوظيفية ، لا تغري بزواج ، وأنا كالطيور المهاجرة لا تبني أعشاشها ولا تتكاثر . .

في الثلاثين وما فوقها . . ينبغي أن يراجع الإنسان أولوياته إن كان له أولويات ، ويصنف طموحاته ، إن كان له طموحات ، على الإنسان أن يواجه نفسه ، ويقف أمام السؤال ماذا فعلت وماذا لم أفعل ، فينزرع في الأرض التي هو فيها . . واكتشفت أن الإنسان لا ينزرع في الأرض أحياناً إلا إذا دفن فيها ميتاً ، وهذا انزراع يساوي الفناء والغياب . . وهو انزراع ميكانيكي لا خيار فيه ، ولا يمكن فلسفته أو الدفاع عنه . . أو استجلابه لأنه يقف في حكمتين غياب بالقوة وغياب بالفعل وبينهما يتأرجح الإنسان على حبال لا يعلم أين ارتبطت أطرافها . . فهو يمشي على حبل مشدود في وتدين غير مرئيين ، لا يدري ماذا

قطع ، وماذا بقى»

وفي هذه الفترة تنازعتني ثلاثة أسئلة . .

«سؤال يتعلق بطموحي ، وسؤال يتعلق بإنسانيتي ، وسؤال يتعلق بجذوري . . وفي نقطة من هذا المثلث الوجودي أتشبث بالأبعاد وأشعر أحياناً أنني في دوامة . . لكن لابد من الرضا بشكل أو بآخر ، وأحياناً أصل إلى اليأس المريح» .

«عام ١٩٧٤ ، في الهداية القديمة ، وهي أشبه بقلعة سميكة الجدران . . مبنية من الصخور . . وها هو مديرها الخامس عشر ، وهو المدير الرابع ممن عملت معهم ، عبدالله فرج ، ياسين الشريف ، حسن المحري وإبراهيم الخثلان . .

لست أدري كم كنت على وفاق مع مدرائي ، ولكنني كنت دائماً أستحضر بيت المتنبي في علاقتي مع كثيرين منهم :

أريك الرضا ما أخفت النفس خافيا

وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

وللحقيقة فليس هناك مدير يشبه مديراً ، فكل منهم له خصائصه ، والمدرس الذي يتعاقب عليه مدراء كثيرون عليه أن يؤقلم نفسه معهم ، ويداري أوضاعه كي يرضيهم ، وكنت ميالاً إلى أن أُدرّس بحرية ، على هامش المقرر . . ولم أكن أمقت فعلاً كمقتي هذا الذي يسمونه التحضير ، وأن ترسم خارطة طريق للحصة ، وكانت طرق التدريس سقيمة إذ لم يكن المدرس والطلاب يملكون حق أن يباشروا الدرس دون خطة ، وأن يذهبوا من خلال الحوار إلى أبعد المذاهب ، وهذا ما كنت أفعله . . وكانت مسألة التحضير هي المشكلة المزمنة بيني وبين المدراء وبيني وبين المفتشين الذين يجيئون من مديرية المعارف أو التربية والتعليم . . ويجلس المفتش في آخر كرسي في الفصل ويتبع دفتر التحضير ،ويفترض أن المدرس لا يقول سوى ما هو في هذا الدفتر العتيد! وإني أعترف أني كنت دائماً على خلاف مع المفتشين بسبب إنني كنت إذا درست

صفين مثلاً مادة واحدة ، أدرسها في كل فصل بشكل مختلف ، حتى إذا التقى الطلاب وتحدثوا عنها يظنون أنني درست موضوعين مختلفين ، وقد كان نظام المدرس الأول قد بدأ في المدارس الثانوية ، وبقيت هذه المشكلة تقوم دائماً» .

«لقد كنت ثابتاً في مكاني ، يتغير حولي الآخرون ، وأنا لا أتغير ، وكانت فرصة التغيير معدومة ، وعادة من لا يتقدم عليه أن يتأخر ، ورأيت أنني كنت كمن يمشي على سلم ملقى على الأرض ، يقطع كل الدرجات ، ولكنه لا يرتفع . . تمر بي الأجيال وأنا أتلفت ، وأتفرس وجوه القادمين ، وأحزن على وجوه الذاهبين وبين القادمين والذاهبين أيقونة للتغيير في حياتي . .

لا بأس . . في هذا العام ، الذي اعتبره مميزاً ، لا يشبه ما قبله ولا يشبه ما بعده» . .

«كان الصديقان إبراهيم عبدالله غلوم ، وهلال مهنا الشايجي قد عادا للتو من الأزهر ، وقد تخرجا من كلية اللغة العربية وعرفت أنهما تخرجا في البحرين من المعهد الديني ، وحسبت أنني سألتقي بزميلين ، بحكم سيرورة تعليمهما ، ربما يميلان إلى اتجاه مخصوص من الثقافة ، وأفاجأ بأنهما يحملان ثقافة حداثية ورؤية تجديدية واضحة ، وللحقيقة فإنني سعدت بحضورهما حيث عينا معلمين في مدرسة الهداية ، وكنت أعرفهما سابقاً بشكل بسيط ، وتعارفنا كزملاء مهنة ، ولكنني سرعان ما أدركت أنهما التحقا بالتعليم على نية الخروج ، ومواصلة التعليم العالي وكنت أمازحهما وأقول لهما مجيئكما إلى الهداية زواج على نية الطلاق ، وكنا نطيل الحديث عن إكمال التعليم ، وكنت أجاريهم في ذلك وبدأت تلك البذرة تنمو داخلي بشكل ملح ، وكنت أستمتع بجديتهم في الحديث عن مواصلة التعليم ، وأحس بشيء من الفرح لطموحاتهم ، كان التعليم العالي في البحرين يتمثل في معهدي المعلمين والمعلمات لكن من يستشرف المستقبل يدرك أن البحرين مقبلة على تطور في التعليم العالي ، وأن جامعة لابد أن تكون ، لاسيما وأن البحرينيين مقبلون على التعليم العالي في

جامعات العالم المختلفة . . والبعثات تذهب إلى معظم أقطار العالم ، وحواضر العلم في الوطن العربي» .

«كنا في المبنى القديم من الهداية الخليفية ، وفي تلك الحجرة والجدران مشققة ، والنورة تتفلت من بين الحجارة ، كل ما في المشهد يوحي بالقدم والتاريخ . . والأحلام وحدها تتعلق بالمستقبل . . كنت أسمع أحاديث الزميلين ، وكنت أدرك معطيات الموقف ، إنها مختلفة . . ولذا فالنتائج مختلفة . . وفي المنطق الرياضي فإن المقدمات هي التي تولد النتيجة ، وكانت المقدمات بالنسبة لي غير منتجة . . ومضى بنا عام ١٩٧٤م وكان إبراهيم غلوم وهلال الشايجي يحسان أن الهداية محطة مؤقتة جداً ، وكنت أحس أنها بالنسبة لي منطقة إقامة دائمة . . وكنت أضع الحسابات ، وهي حسابات لا تنتهي بأي شيء يدعو للتفاؤل ولم أيأس ولم أحبط ، لكنني أوشكت أن أستسلم لواقع الحال ، وتوثقت الصداقة بيني وبين هلال وإبراهيم ، وكنت ألتقي إبراهيم أحياناً مع علوي الهاشمي في متجر في باب البحرين ، قرب شارع الشيخ عبدالله ، لبيع العطور ، وكنت أعرف علوي من أسرة الأدباء . . حيث كان يشارك في الأمسيات الشعرية .

ونقل إبراهيم إلى معهد المعلمين ، وسافر هلال إلى القاهرة لاستكمال دراسته العليا في كلية اللغة العربية في الأزهر . .

ثم تبعه إبراهيم وعلوي ، وكان علوي قد أنهى تمهيدية الماجستير في القاهرة عام ١٩٧٢ وانقطع فترة ثم استأنف لإكمال الماجستير في جامعة القاهرة ، وذهب إبراهيم إلى المعهد العربي للدراسات والبحوث لاستكمال الماجستير والتحق علوي بجامعة القاهرة لذات الغرض» . .

لقد تبلورت لدي رغبة في مواصلة التعليم العالي ، ولو من خلال بدائل ، تتفق مع إمكانياتي الوظيفية ، والتحقت بجامعة القاهرة ، وحصلت على تمهيدية الماجستير ، وكذلك سجلت في معهد الدراسات الإسلامية ، مدة سنتين

وحصلت على دبلوم الدراسات الإسلامية ، وكنت لا أحضر المحاضرات . . وهذا يسر لي هذا النوع من الدراسة ، وكان ذلك في عام ١٩٧٦ وكان من العسير الاستمرار في دراسة الماجستير في جامعة القاهرة ، لاشتراط الإقامة في القاهرة مدة سنة ، وهذا كان أمراً بعيد المنال . . لا تسمح به ظروفي ، وكنت أتتبع رحلة الزملاء الثلاثة في تحصيلهم العالي . .

بدأت أتجرأ وأكتب الشعر وأنشره في الصحف المحلية ، في الأضواء ، وصدى الأسبوع ، وأخبار الخليج . . ثم أخذت أكتب عموداً أسبوعياً في أخبار الخليج تحت اسم «نوافذ» .

في منتصف السبعينات بدأت الأمور بالنسبة لي تشكل ضغطاً شديداً . . بدا مشروع استكمال التعليم العالي صعباً جداً وطريقه شائكاً . .

تحدد لي دور ، بحسب تقديراتي ، اتجهت تلقائياً ونوعياً إلى الفئة التي تصلح أن تكون حاضنة بشكل ما لهذا الدور ، وكتبت مرة : «هكذا قرر الفتى الذي بدأ يدخل إلى عصر الكهولة ، فكانت فئة المثقفين والأدباء والكتاب والصحفيين والمفكرين هي الأقرب إلى نفسه وطبيعته وإمكانياته . .

وزالت المسافات بينه وبينهم واقترب منهم قليلاً قليلاً ، ووجد نفسه في النهاية معهم وبينهم وفيهم وبشكل منسجم وجميل إلى الحد الذي لم يعرض هويته إلى أي تساؤل ولم يشعر أبداً بأزمة هوية . .

إن فكرة الإنسان عن ذاته لا تكفي أن تكون هي هويته ، فهي تصطدم بفكرة الآخرين عن ذاته أيضاً ، وتصطدم بما يراه هو في الآخرين . . وما يجده الآخرون في ذواتهم ، وكيف يمكن لبدوي بسيط أن يفلسف هذه المسألة وهي أيضاً بحسب المواقع ، والمواقف ، لكنها ثابتة كهوية . وقرر الفتى ألا يكون في أي لحظة يعاني من أزمة هوية ، لأنه يعرف تماماً ذاته ولديه ثوابته ، وفي ذلك يتقابل مع ذوات الآخرين بكل حرية وثقة ، من دون أن تهتز فكرته عن ذاته ، وهذا كان لابد منه في مواجهة هذا الطوفان من الاختلافات والتنوعات في مجتمع ، وهو

طارئ عليه بكل بساطة .

ويعرف هذا الفتى ، ولا ينكر أنه واجه أسئلة كثيرة ألقاها هو على نفسه ، أو ألقاها عليه الآخرون ، واصطدم بفكرة الآخرين عنه أحياناً ، وقد تكون سالبة أو صادمة ومباينة تماماً لما يعرف . .

قرر الفتى أن يعفي نفسه تماماً من الالتفات إلى كثير من الانشغالات التي وجدها في هذا المجتمع ، فالناس ينشغلون ويشتغلون بأمور وقضايا وأفكار عمرها مئات السنين ، ووجد أن عليه ألا يلتفت إلى شيء من هذا إلا بالقدر الذي تتطلبه ضرورة معرفة ما حوله ، حتى لا يبدو ناشزاً عن المجتمع ، فيتفهم الآخرين من دون أن يتفاعل مع ما يتفهم ، وهذا بذاته جعله قريباً من الجميع أو بعيداً عنهم .

اختار الفتى بعد هذا التشكل في فهمه لهويته ودوره ، واختار أن يكون دوره معرفياً ، وثقافياً بقدر ما لديه من إمكانات متواضعة وبسيطة ، لا ينهض عليها دور إلا إذا أسس لها وطورت» .

«وكم كانت الأمور مشكلة في هذه السن . . وصرت في ثلاث قنوات . . وأنا أبدأ مرحلة الكهولة : مدرساً ، مما ترك لي عشرات الأصدقاء بل مئات ، كبروا وكبرت معهم ، ومنهم من صار له اسم في عالم الفن أو الأدب أو الشعر أو الإدارة . . وها هي القناة الثانية ، وهي التلاحم مع الفئة المثقفة ، وأهل الفكر والأدب ، بل وصلت بي الجرأة أنني أخذت أضيف إلى خيوطهم خيوطاً ربما تتداخل مع معمارهم الباذخ . . والثالثة هي الإنجاز الأكاديمي المأمول الذي أخذ يلح علي ويضغط على أعصابي ، وهو طريق مكلف ووعر» .

«ولا أنسى أمرين كانا أطلا على حياتي فكانا التحدي الأكبر الذي لا أستطيع أن أراوغه ، أولهما أن والدي ذي الخمسة والستين عاماً بدأ رحلة المرض ، ونحن في الحياة إما أن نموت فجأة . . أو نمرض فجأة ثم نموت . . وها هو والدي مرض فجأة . . وبدأ رحلة الانحدار ببطء . . والأمر الثاني أنني تذكرت

أنني لم أتزوج بعد وكانت المرأة بالنسبة إلي مسألة مبهمة ، قلما أتحدث عنها . . ولكنني في هذه السن . . كنت قد بدأت الحديث عن معنى الزواج» . .

«خطوتان في الفراغ خطوتهما لتحقيق حلم التحصيل الأكاديمي وهما تمهيدية الماجستير ودبلوم الدراسات الإسلامية . . ثم كان لابد من إيقاف هذا الحلم مؤقتاً ، بل جعلته حلماً مؤجلاً لعل الأمور تصير إلى ما يساعدني على تحقيقه ، واكتفيت من الحلم بمتابعة أصدقائي الثلاثة . . هلال الشايجي ، وإبراهيم غلوم ، وعلوي الهاشمي . . وكأنني كنت كلما قطعوا رحلة أحس أنني قطعت ذات الرحلة . . لكن بشكل مؤجل . .

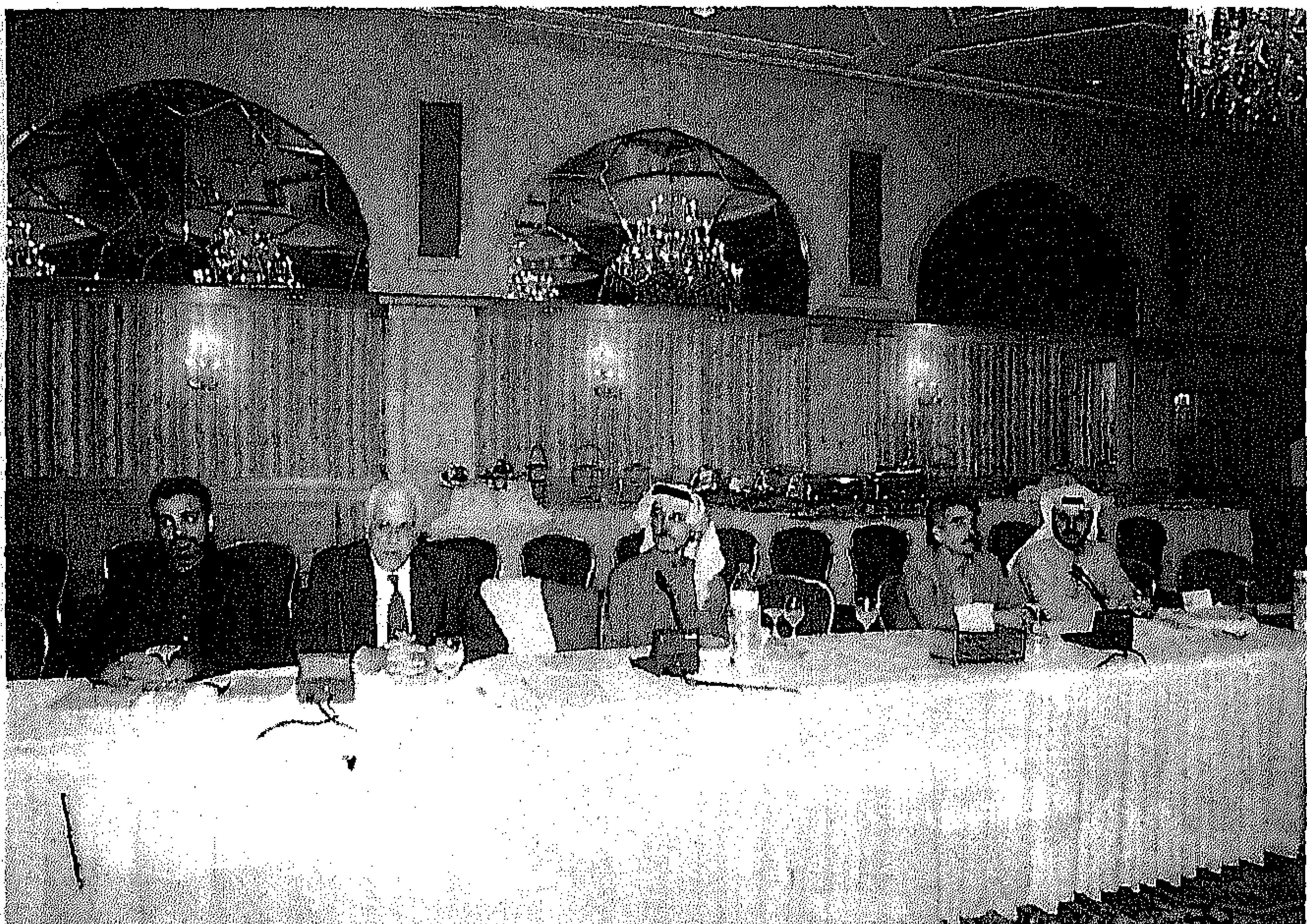
أما الكتابة الأدبية فقد وجدت في صديقي علي عبدالله خليفة ، ومجلته «كتابات» خير معين لي على أن أكتشف قدراتي الكتابية والنقدية وأن أطورها ، وصرت مهووساً بالسرد والرواية والقصة القصيرة . . وهذا طريق طويل ما أزال سائراً فيه . . وأما مسألة الزواج التي تذكرتها فجأة . . فهي مسألة لها حديث في مكان آخر» .

– أتدرج نحو أواخر السبعينات و . . . .

«الوالد مريض ، وأنا أسكن في الآر إف ، وأكتب في «أخبار الخليج» عموداً أسبوعياً ، وأكتب في «كتابات» ، وأشارك في تحريرها . . مع علي عبدالله خليفة وعبدالقادر عقيل ، ، وكانت صحبة لا تخلو من الطرائف ، وكتبت في صدى الأسبوع ، وكان يحرر الصفحة الادبية فيها حسن مدن . . ولم يكن معجباً بما أكتب عكس علي سيار ، وكنت كتبت في «البحرين اليوم» ، وفي مجلة «المجتمع الجديد» التي كان يصدرها إبراهيم حسن كمال ، وها أنا أتدرج نحو أواخر السبعينات وأواجه أحداثاً كباراً على صعيد حياتي الشخصية» . .



هلال الشايجي مع محمد إبراهيم المطوع



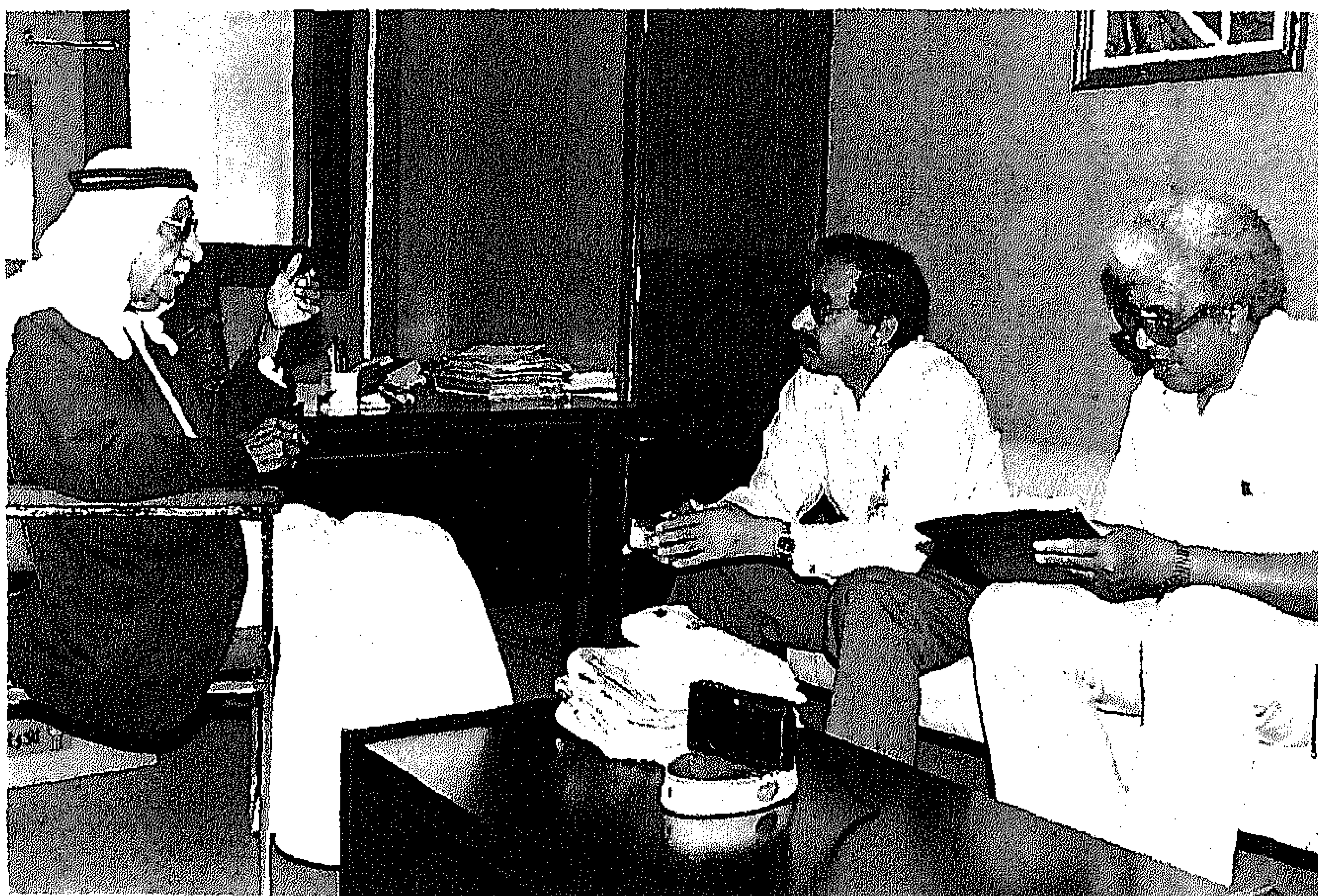
في ملتقى القرين حول الشعر الحديث (الكويت) من اليسار إلى اليمين
محمد البنكي، عبدالحميد المحادين، إبراهيم غلوم، إسماعيل فهد إسماعيل



المحادين يتوسط عز الدين إسماعيل وإبراهيم غلوم في البحرين



إبراهيم غلوم وصلاح كزارة والمحادين في أحد الملتقيات



علوي الهاشمي والحادين يحاوران إبراهيم العريض

(٢٧)

❖ لا أدري لماذا توجهت إلى الشيخ عبدالعزيز.. ليبدى لي رأيه في قصيدة

❖ كان الشيخ عبدالعزيز.. ناقداً.. يملك رؤية وموقفاً تجاه الشعر

❖ بلغ التواضع بالشيخ الوزير أن رد علي بخط يده.. أحتفظ برسالته منذ ٣٤ سنة

❖ لماذا استقال والدي من الحياة.. بعد أن اطمأنّ أني تزوجت؟!

❖ أربع سنوات كنت أبحث عن زوجة.. واخترتها في بضع دقائق!

❖ لماذا قالت زوجتي: «البحرينيون الأحياء لا يؤذون أحداً، فما بالك بالأموات»!

❖ تحت ركام الألم.. سر والدي لما علم أنني سأصبح أباً

❖ كيف هو شعور من يفقد أباه؟

❖ البنكي قبل ٢٨ سنة.. قدم لي بطاقة تهنئة بالزواج.

❖ هذه فلسفة الحياة.. يتشكل ابني.. فيرحل والدي.. سيرورة شديدة الإحكام

بعد أن تجاوزت الخامسة والثلاثين ، بدأت منهجاً في التفكير مختلفاً ، وبدأت تبدو جدية الحياة إلى حد ما ، وصارت الأفكار السوداوية تنتابني كثيراً ، خوفاً من الآتي ، وعدم طمأنينة من الأيام ، وهواجس كثيرة انتابتني ، فكنت

أعيد الحساب واستعرض الأيام ، وانظر فيما علي أن افعله . .

«مدرساً مازلت في الهداية الخليفية ، أسكن في حجرة هي خلية من خلايا الآر إف ، أذهب إلى الهداية يومياً ، وماشياً في أغلب الأحوال ، وأقضي ساعات العصر والمساء في مكتبة المحرق . . وأعاود الرحلة شمالاً . . مدرسة الهداية أصبحت مدرسة متسعة نسبياً ، لكنها مازالت متواضعة المباني ، والأثاث وتبدو الشيخوخة وقد غزت مفاصلها» . .

«نسيت أن أقول أنني بدأت قبل سنوات كتابة الشعر ، وهو شعر كنت أرضى عنه أحياناً ، وأنظر إليه بغير رضا أحياناً أخرى ، كنت أتغزل ، فظن الناس إنني محب . . وكتبت شعراً لا غزل فيه . . ولكنني كنت أغرقه بعواطف صاخبة في كثير من الأحوال . . لكنني لم أكن أعتبر نفسي شاعراً ، بل إنني أمارس النقد على نفسي بأقسى ما يكون النقد ، لكنني كنت أجرؤ على نشر بعض ما أكتب . . إلى أن كان يوم نشرت فيه قصيدة لا أدري كيف كتبتها وتحت أي مشاعر وكانت حادة جداً ، وتكاد تكون متطرفة . . إنها لحظة من لحظات العنف الشعوري ، ونشرتها . . وبعد أن هدأت أحببت أن أسمع فيها رأياً نقدياً ، وتلفت لأجد من يقول لي ذاك الرأي . . وكنت أعلم أن وزير التربية والتعليم آنذاك وهو الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل خليفة ، طيب الله ثراه ، كنت أعلم أنه قارئ جيد للأدب العربي ، وهو متمكن كثيراً من اللغة العربية ، وفوق ذلك كان رساماً ، وهذا يعني أنه كان فناناً ، والفنان يتذوق كل الفنون مهما تعددت أجناسها . .

وقد وقر في نفسي أنني أريد أن أعرف رأي الشيخ عبدالعزيز في شعر كتبته . . وقصيدة نشرتها . . فوضعت القصيدة في مغلف وبعثت بها إلى الشيخ عبدالعزيز ، وطلبت منه رأياً ما . . ولم أكن أدري ما هي حاجتي إلى ذلك الرأي . . فهي قصيدة ونشرت . . لكنني مع ذلك بعثتها وانتظرت إجابة عنها . . ولم يخيب الشيخ عبدالعزيز تطلعي إلى رأيه فقد بعث إلي بتعليق على القصيدة

كتبه بخط يده ، وإنني أكبرت من الوزير الشيخ هذه اللفتة فقد رأى أن تكون العلاقة حول هذه القصيدة شخصية وليست رسمية . . فكتب رأيه بخط يده . . وبعث به إلي عن طريق مدير مدرسة الهداية الخليفية . . وكانت رسالته التي تحمل هذا الرأي هي أول رأي يصل إلي حول قصيدة أنا كتبتها ، ولم يقلل من أهمية ذلك أنني طلبت الرأي . . ولقد سرني رأي الوزير الشيخ ، مع أنه وجه لي نقداً حاداً من حيث المضمون الذي ورد في القصيدة ، وإن كان قد أبدى رضاه عن القصيدة من وجهة فنية . .

إنني من عادتي أن أحتفظ بالرسائل التي أعتز بها وأحاول أن أداريها . . وأحوطها بالحفظ حتى لا تتلف ، وإنني أقدر أن هذه الرسالة ربما كانت قبل ثلاثين عاماً أو أكثر . . مع ذلك . . اتجهت إلى مكانها ، حيث أحفظها . . وسللتها من بين أوراق أخرى أعتز بها أيضاً . . وعاودت قراءتها ، ها هي كما جاءت وبخط الشيخ عبدالعزيز رحمه الله وطيب ثراه . .

ولا أخفي أنه حين كتب لي ما كتب . . كأنما أوحي لي أن أكتب شعراً ليس قليلاً ، وها هو الشعر يكاد يفرض نفسه علي . .

لم تكن تلك أول قصيدة أنشرها ، ولا آخر قصيدة ، فقد نشرت قصائد . كثيرة على شكل حوارات ، وبعضها كانت مكثفة . ومما نشرت :

يا عينيك
ماذا أعددت لهذا البدوي
المعجون بومض البرق
لا يعرف من كل جهات الدنيا
إلا مطلع عينيك ، فمن
أين تجيئان
فذاك هو الشرق

أعلم أن كثيرين ربما استثقلوا هذا الشعر ، لكن ماذا علي إن كان هذا كل ما

تستطيعه موهبتي المتواضعة» . .

«كانت أسرتي في الأردن تعاني من مرض الوالد ، الذي يشكل ألماً نفسياً على كل أفراد العائلة . . الوالدة ، التي ، كانت بصحة طيبة ، والإخوان والأخوات ، وهم يرقبون رجل العائلة . . الذي كان ملء العين والبصر ، وقد تناهبته الأمراض . . وملّ من زيارة المستشفيات ، وتشبث بالحياة ، ما استطاع التشبث ، لكن كل ما في ظاهر صحته يوحي بأن رجل مريض . . إلى حد بعيد . . كان في مرضه ، يتشافى أحياناً ليعاوده مرض آخر .

للحياة منطق . . وللحياة سيرورتها ، وينبغي أن نفهم أن الحياة لها قوانينها العادلة . .

عندما بلغت الخامسة والثلاثين . . بدأت أفكر في الزواج . . لأن ذلك هو المنطق الطبيعي للوجود ، حسب وجهة نظري ، وأخذت أتلفت حولي . . باحثاً عن امرأة أستطيع أن أكوّن معها ، أسرة فعلية . . وكان لابد لي أن أبحث وأبحث ، لكن بالبحث لا يمكن أن يتم لقاء . . كما أعتقد

«وبالصدفة ، وقد تكونت في ذهني سمات المرأة التي أحبها وأتوقعها زوجة لي . . لا أدري كيف جمعت في نفسي ملامحها . . دون أن أراها أو أسمع بها . . لكنها كانت في عمق وجداني تتشكل ، وكنت أحدد ملامحها . . وأبحث في من أراه من الناس والنساء . . لم يكن ذلك يمر بالصدفة أن امرأة ما تشكلت في ذهني وأنا أبحث عنها . . وعلى حين صدفة . . وجدتها . . والتقيتها . . وعرفتها . . إنها هي التي أبحث عنها . . وها هي . . فلقد تشكلت . . واكتملت صورتها كما أريدها . . ولقد أحببتها . . وتعلقت بها . . وهي الخلاص من الحيرة ، ولا أدري إن الحياة تخاطر . . فكانت هي أيضاً تقف على نفس المسافة . . إنها الحياة ، إنها خياراتنا التي تقع لنا ولا ندري عن أسبابها . . لكنها تتشكل في داخل نفسنا بشكل يكون غامضاً . . ولقد كانت هي التي أريدها زوجة لي» .

«إن الإنسان محكوم بأقدار لا مفر له منها ، لكن الغريب أنه يتعامل مع هذه الأقدار كأنها خياراته ، ولذا يحبها ظناً منه أنه يتمتع بكامل الحرية فيما يفعل . . وهكذا كان في نهاية الأمر بعد رحلة البحث» . . .

لقد مكثت أبحث أربع سنوات . . إلى أن كان ما كان . . إنها الحياة مرة أخرى قوانينها عادلة . . رغم أننا لا نظنها كذلك . .

وكانت طقوس الزواج بحسب المألوف من عادات أهل الكرك على أطراف البادية . . لكن بعد الزواج وقبل السفر إلى البحرين برفقة العروس ، واجهت موقفاً كان شديد القسوة علي

«لا أنسى وأنا أركب مع زوجتي سيارة في مدينة الكرك لنقصد مطار عمان للانتقال إلى البحرين . بجانب السيارة كان والدي واقفاً وينظر إلينا نظرة تحمل كل مشاعر الحب والحدب وإنني لما نزلت لأودعه مرة أخرى . . وجدته . . لا يحسن الكلام ، لأنه كاد يجهش بالبكاء . . وودعته للمرة الثانية . . ونظرت إليه وأطلت النظر ، ولم أكن أدري أنها هي اللحظات الأخيرة التي أراه فيها واقفاً على قدميه ، حيث لم أره بعدها . . إلا وهو في فراش المرض» . .

«هذا هو الوالد بقامته المديدة يتحامل على نفسه من شدة الألم ، لقد كانت بيني وبينه صداقة استمرت ثلاثة عقود ونصف ، وأنا في كامل وعيي . . وكنت أخشى من تلك الساعة . . لكنها كقدر لا مفر منه جاءت . . وكانت تقترب . وجئت إلى البحرين . . وتزوجت وأقمت في البسيتين ، في منزل يقع بقرب المقبرة . . وكنت أحاذر أن أقول لزوجتي وفاء . . إننا نجاور القبور . . وذات يوم لا أدري ، كيف طرح الموضوع ، فقالت لي : «أنا أعرف أنها مقبرة ولكنني لا أذكر ذلك أمامك» ، فقلت لها «ألا تخافين»؟! قالت : «إن البحرينيين الأحياء لا يؤذون أحداً ، فما بالك بالأموات»! .

كنت مرتبطاً بعلاقة قوية مع طلابي كما سبق وأن ذكرت ، فقد اندمجت في المجتمع البحريني وذابت الفوارق تقريباً ، فلم أعد أشعر بالغربة بينهم

«وبعد أيام . . يقوم طلاب الصف الذي أدرسه ، وهو ثانوية عامة . . وكان فيه نخبة من الطلاب أبرزهم محمد البنكي . . ويقيمون حفلة في داخل الصف ويقدمون لي هدية زواجي . . وربما أن الطلاب جمعوها من مصروفهم اليومي ، وكان لها أثر عميق في نفسي . . فهم كانوا أبنائي قبل أن أرى أبنائي . وألقى محمد البنكي كلمة الطلاب ، وكنت إذّاك أتوسم فيه النباهه والفصاحة ولم يخيب أبوجاسم ظني» . .

«يا الله . . ذات الطلاب وذات الصف . . بعد أيام جاءوا إلى البسيتين إلى منزلي . . وقد أذن لهم مدير المدرسة صديقي الأستاذ محمد حسين عبدالملك ، أن يأتوا جماعة ، مشياً على الأقدام . . ليقدموا لي العزاء حيث انتقل الوالد إلى الرفيق الأعلى . . في ١٩٨٠/٢/١٩ . . وقد كنت قد ذهبت إلى زيارته في مرضه الأخير أنا وزوجتي . . ولما تلقانا . . كان في حالة من الضعف والمرض . . شديدة . . وقد رحب بنا . . ولقد سر رغم مرضه لما علم بأننا سنصبح أبوين بعد ستة أشهر ، لم يخف سروره . . ولكنه سرور إنسان يودع وهو ينسحب من الحياة قليلاً قليلاً» . . .

«ياللفجيعة . . كيف يكون شعور إنسان يفقد أباه»؟؟!!



طلاب الصف يقدمون لي هدية زواجي



الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل خليفة


المحادين يشكر الطلاب على حفاوتهم به


مع الزملاء



مع ابنائه الطلاب



عبدالحميد المحادين مع زوجته في حفل عقد القران

(٢٨)

❖ هاهم أبنائي الطلاب وقد بدت مواقعهم تتشكل.. لاعب.. شاعر.. كاتب.. فنان.. ضابط.. موظف..

❖ وزير التربية الشيخ عبدالعزيز آل خليفة يرعى احتفال الستين عاما للهداية ويتذكر أيام التلمذة فيها!!

❖ الصديق محمد عباس العمادي.. صديق يمتاز بخفة ظله وتعليقاته الحادة وروحه المرحة

❖ استمرت علاقتي به داخل المدرسة وخارجها وما أكثر رحلاتنا البرية

❖ كنت مسؤولاً عن الإذاعة المدرسية وأرتجل الكثير طبقاً للمناسبات العامة

❖ في الفسحة كنت أحرص على أن أُسمع الطلاب أغاني فيروز للارتقاء بالذوق الفني لديهم

في نهاية العقد الثامن من القرن الماضي كانت الحياة بالنسبة لي قد طرأ عليها تغيير أساسي وجوهري ، وأصبحت أواجه جوانبها الأساسية ، وتغيرت معطياتها وكثرت تعقيداتها ، فكنت في العمل عشرين عاماً ، الطلاب الذين تعرفت عليهم في رحلتي التعليمية قد كبروا وصاروا شباباً ، وبدأت تظهر أسماؤهم في مواقع كثيرة من الحياة ، وهذا يعنى أني بدأت ألمح حولي آثار المدة التي قطعتها ، وصرت أتلمس مواطن النجاح والإخفاق في هذه المسيرة ، وهذا

بذاته يشكل التزاماً أدبياً ومعنوياً لي وعلي

«فأنا صرت أحس بأنني جزء من هذا المجتمع حولي ، أليست هذه جدلية الأخذ والعطاء ، وهذه سنة الحياة وملامح الوجود . . وها هم أبنائي الطلاب وقد بدت مواقعهم تتشكل ، فهذا فنان تشكيلي ، وهذا لاعب معروف ، وهذا شاعر ، وهذا كاتب ، وهذا ضابط . . وهذا جندي ، وهذا موظف هنا ، وهذا موظف هناك . . والذين بدأت بتدريسهم وهم في منتصف العقد الثاني أو دون ذلك صاروا الآن في منتصف العقد الرابع ، لا أكاد أكون في مكان إلا وألتقي ببعضهم ، ويسارعون إلى التذكير بأنفسهم ، وإن كنت أتذكرهم تماماً . . ولا تخونني ذاكرتي إلا لقليلين . . لا أحب أن أبتعد عن الهداية ، ففي كل عام من عملي فيها حضور مختلف» .

«عام ١٩٧٩ يكون قد مر على التعليم النظامي ستون عاماً ، والهداية وإدارة المعارف احتفلت باليوبيل الذهبي ١٩٦٩ ، وها هي عشر سنوات قد مرت . . نحن في ١٩٧٩ أي في الذكرى الستين ، ولا بد من احتفال بهذه المناسبة ، وكان وقتها مدير المدرسة الأستاذ محمد عبدالله العيد ، وكان لابد من احتفال يليق بذكرى هذه المدرسة والتعليم النظامي ، ومحمد العيد هو من أبناء الهداية ، وأصبح أستاذاً فيها ، ثم مديراً . . وقد قامت المدرسة بتبني هذا الاحتفال ووجهت الدعوات وحددت الموعد ، وكان الاحتفال تحت رعاية المغفور له الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل خليفة وزير التربية والتعليم ، وأقيم معرض في المدرسة للأنشطة . . وقد ألقي الشيخ عبدالعزيز كلمة تحدث فيها عن مدرسة الهداية وذكرياته فيها ومما قال (مع التخلي عن الديباجات المعتادة في الكلمات التي تلقى في مناسبات مشابهة) :

«يسعدني أن تتاح لي فرصة الحديث إليكم في هذه المناسبة السعيدة المجيدة . . مناسبة الاحتفال بمرور ستين عاماً على افتتاح مدرسة الهداية الخليفية . هذه المدرسة التي كانت ولا تزال وستظل ، المشعل ، والقبس ، والمنار .

مشعل العلم ، وقبس المعرفة ، ومنار العرفان . هذه المدرسة التي كانت ولا تزال وستظل ، العلم والراية ، واللواء . علم العمل الطيب المثمر الذي يفوح طيباً وعبقاً ، ويتدفق فوائد ومنافع للناس . . وراية الهداية إلى الخير والسداد والصواب . . ولواء البذل والفداء والعطاء ، من أجل الوطن ومن أجل صالح الوطن . . من أجل أبناء الوطن ومن أجل صالح أبناء الوطن» .

«حينما دعيت للتحدث إليكم في هذه المناسبة خطر لي أن أرتجل كلمات قصاراً . . وما لبثت إلا أن أعدت النظر فتهيبت الموقف . ذلك لعلمي أنني سأقف وسط طوفان من الذكريات والصور والرؤى من مخزون أواخر الطفولة وأوائل الشباب في هذا المعهد الجليل الوقور الذي تزخر أرجاؤه وأفنيته وزواياه بذلك المخزون من الذكريات والصور والرؤى . فأكون أمام موقفين إما أن أحصر ويرتج على فلا أحسن أن أتفوه بكلمة . وأما أن أسترسل فأطيل وأمل .

«ولقد آثرت أن أكتب هذه الكلمات متيقناً أن الكلمات لا تكاد تفي ولا تكاد تجدي في أن تعطى الموضوع ما يستحقه من أي زاوية أخذته . فالكلمات لا تكاد تفي الهداية الخليفية حقها ، معهد خرّج المئات من أبناء هذا الوطن الذين ساهموا ويساهمون في بناء نهضته وصنع رخائه ورعاية تقدمه ، وصيانة حريته واستقلاله . والكلمات لا تسعف ولا تجدي في إبراز المكانة الخاصة لهذا المعهد في نفوس أبناء البحرين ، خصوصاً الذين وردوا حياضه ونهلوا من منابعه الثرة العذاب» .

أجل أيها السيدات والسادة . . هذه المدرسة الأساس . . هذه المدرسة الأم . . هذه المدرسة المصدر . التي صدرت عنها وتفرعت منها مختلف روافد معاهد التعليم ومؤسساته ، وتخرجت فيها نخبه من أبناء هذا الوطن في مختلف المجالات ومختلف التخصصات . وهم الآن يقدمون خدماتهم لهذا الوطن في المجالات التي اختاروها لأنفسهم والتي تتفق وميولهم واستعداداتهم ومواهبهم . يخدمون هذا الوطن وهم يؤمنون بأن خدمته فرض وواجب ، لابد من تأديته بأمانة وإخلاص وصدق . يخدمون هذا الوطن وهم موقنون أن خدمته دين لابد

من أدائه . دين لهذا الوطن . . ودين لهذا المعهد الزاهر . . الهداية الخليفية التي لا تنفك العقول والقلوب تهفو إليها بكثير من التقدير والتبجيل والاعتراف بالفضل . . وبفيض من الحب والحنان والود . هذه المدرسة التي ستخرج الأجيال كما خرجت الأجيال» .

«إنه لمن الواجب المحتم على القائمين بشؤون الخدمة التربوية في هذا البلد أن يتيحوا لمدرسة الهداية الخليفية أن تسهم وأن تقوم بدورها في تجديد التربية وتحديثها مفهوماً وفلسفة ونهجاً وتنفيذاً» .

«إن المسؤولية التي تقع على عواتق القائمين بشؤون الخدمة التربوية ، هي أن يطوروا التعليم ، والتدريب بما يتناسب وحاجات البلاد ومتطلبات نموها وتقدمها . في إطار من الحرص والكفاءة والرشاد . وعلى أرضية من التخطيط والجدوى ، وفي ضوء من العلم والتجريب» .

«وإذا كان ذلك كله يُنفذ الآن . . فإن مدرسة الهداية الخليفية التي حملت لواء العلم والتعليم زهاء ستين عاماً ، ستسهم أيضاً في مواصلة حمل الرسالة ونشر العلم المطور ، والتعليم المخطط له بحيث يلبى حاجات البلاد المتجددة في مختلف المجالات . ومتطلبات نموها ورقيها وتقدمها» .

«لا أستطيع أن أنهى كلمتي قبل أن أترك متنفساً ضيقاً للذكريات . . مخزون الذكريات الزاخر ، لا تزال تتردد في صدري وفي مسامعي كلمات ذلك النشيد الذي كنا نردده في هذه الأرجاء» .

تقول الكلمات . . وأنا أنقل من الذاكرة :

يا معهد العلم السني
يا مصدرا للمنن
يا ملجئي في المحن
ومؤنسي في الوطن
يا معهدي يا معهدي

يا معهدي كم جليت بك الهموم
وكم قطفنا منك أثمار العلوم
اصعد بنا اصعد بنا إلى النجوم
فليس في الدنيا سوى العلم يدوم
يا معهدي يا معهدي
يا معهدي وقيتني شر العدا
وصنتني على المدى من الردى
جميع ما أملكه لك الفدا
حبك يا نور الهدى عين الهدى
يا معهدي يا معهدي

«بل إنني أيها السيدات والسادة لا أزال أستمع إلى دعاء القنوت تتردد أصداؤه بين جدران هذا الفناء ، يلهج به الطلبة في صوت مهيب واحد في طابور الصباح .

«اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت . فإنك تقضى ولا يقضى عليك . وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت . تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت . أستغفرك ربي وأتوب إليك» .

«ثم ينتقل طابور الصباح إلى الصلاة الإبراهيمية ، يلهج بها الطلبة في صوت مهيب واحد شديد الخشوع» .

«اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم . وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد ، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين أنك حميد مجيد» .

«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا لا تزغ

قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب» .

كانت تلك كلمة المرحوم بإذن الله تعالى الشيخ عبدالعزيز آل خليفة ، ويالها من كلمات معبرة عبر فيها وزير التربية عن ذكرياته المدرسية في احتفال مدرسته بعيدها الستين . . يالها من مفارقة رائعة . . ومناسبة جميلة حضرها رجال التربية والتعليم ، والشاعر أحمد محمد الخليفة والشاعر إبراهيم العريض ، والأستاذ حسن الجشي ، ووجهاء المحرق . .

«وصار اللقاء العقدي ، أي كل عشر سنوات مناسبة يتجمع فيها المهتمون من أهل المحرق ، ورجال التربية ، وبحكم علاقتي بالمدرسة صرت ألتقى بكثيرين من طلاب المدرسة السابقين والذين صار لهم شأن فيما بعد . . ولعل عقد السبعينات يعد ذا تميز خاص ، حيث أن كثيراً من ظواهر الحياة تغيرت ، وكثيراً من العلاقات تبدلت ، وإنني كنت في معظم الأوقات أتولى الإشراف على الإذاعة المدرسية ، وكنت في مكتب أتشارك فيه مع الصديق محمد عباس العمادي ، وهو صديق يمتاز بخفة ظله ، وتعليقاته الحادة ، وروحه المرحة ، وقد كنت على علاقة وثيقة به داخل المدرسة وخارجها ، وكنا نلتقي في الرحلات الليلية التي يتجمع فيها الأصدقاء في البر ، ويتبادلون الأحاديث والمرح الحلال ؛ وكنت على علاقة مع نادي النهضة ، والزملاء فيه كذلك . . وقد جمعتنا أنا ومحمد عباس سهرات برية كثيرة ، وكانت صحبتنا لطيفة ، وكنت أستطيب الحديث معه ، وحتى ونحن في المدرسة ، وكان مشرفاً فيها وكنت مشرفاً على الإذاعة . . وحتى حين انتقل إلى الوزارة وصار مسؤولاً عن إدارة محو الأمية لم تنقطع الصلة بيننا . . ولنا مواقف طيبة مع بعضنا . . ولقد أسندت لي مهمة إدارة الطابور الصباحي ، فكنت أرتجل الكلمات الصباحية ، وأخاطب الطلاب ، بما يحضرني من مناسبات الوقت واستحقاقات اللحظة ، وفي الفسحة كنت أحرص على أن أُسمع الطلاب أغاني فيروز ، للارتقاء بالذوق الفني لديهم ، فهي رمز لارتفاع الكلمة واللحن والصوت» . .



محمد العيد



جاسم الحربان



سنة ١٩٧٩ في الاحتفال بمرور ٦٠ عاماً على تأسيس الهداية

(٢٩)

❖ أنظر إلى طلابي الآن فأشعر بكثير من الإعجاب بهم.. كثيرون كانوا حسب الوعد والموعد وفوق ذلك كثيراً..

❖ كان حافظ الشيخ في نظري نموذجاً للشاب المستقيم الطموح المفكر رغم شروده وعدم التزامه بالدوام المدرسي

❖ للغتم معي قصة تطول تصلح نموذجاً للوفاء والعلاقة الممتلئة بالثقة والمودة والتقدير

❖ كم أعتز حين يقول أحد طلابي أنني حببت إليه الشعر واللغة العربية.. كم أنا فخور أنني فعلت شيئاً من ذلك!.

❖ ماقصة الشاب الذي قفز بكل الشوق والمحبة ليصافح المحادين في عزاء أخو إبراهيم بشمي؟

❖ أسأل لحسن الجشي الرحمة والنعيم..وأشعر بأننا والمهتمون من الباحثين في البحرين فاتنا منه الكثير

في السبعينيات وفي أواخرها صرت أكتب في الصحافة ، وكتبت في» أخبار الخليج» ، و«الأضواء» ، و«صدى الأسبوع» ، وفي «كتابات» . . فأخذ اسمي يتشكل قليلاً قليلاً على استحياء ، وكانت مساهمة خجولة ، لكنها تدل على أن هناك إنساناً يحاول أن يعبر عن نفسه بشكل من الأشكال . . فكتّبت الشعر ، وكتبت النقد والدراسات ، واتسعت علاقاتي بالآخرين ، ولاسيما

بأبنائي من طلاب المدرسة ، كما أحب أن أصفهم ، وصاروا يشكلون بالنسبة لي البيئة الإنسانية التي أنتمي إليها ، وبدأت أحس بأن هؤلاء الأبناء هم الذين يشكلون المستقبل ، ويعدون به ، وكنت أتوسم خيراً في كثيرين منهم ، وأتوقع ألا يخذلوا توقعاتي فيهم . .

«لقد توثقت معرفتي بحافظ الشيخ ، وحافظ كان تلميذاً نجيباً ، وذا شخصية مميزة منذ صباه ، ويبدو عليه أفق التفكير والتأمل في أمور الحياة ، وكنت أحس أن مسألة الدين تشغله كثيراً ، ولعله كان قلقاً ويبحث عن قناعات مستقرة ، وأحسبه لم يعثر على هذه القناعات في تلك الفترة على الأقل ، إلا أنه كان دائب البحث والتساؤل ، وكان يود لو يصل إلى مستقر لفكره وقناعاته ، ولم أكن أنا ، رغم أنني أحس بقلقه ، بقادر على أن اقترب من مشروعه الذي كان يشغله ، لكنني متأكد بأنني كنت من خلال أدائي للدرس ، وهو كان بين تلاميذي ، يحاول أن يعثر من خلال ما أناقشه معهم على مفاصل ذهنية ، لكن ذلك لم يسعفه كثيراً . . . وكان على نجابته ، كثير الشرود في الفصل ، وأكاد أقول كان لا يلتزم بالدوام في المدرسة بشكل صارم . . ومع ذلك كان حافظ الشيخ في نظري نموذجاً للشاب المستقيم ، الطموح ، المفكر ، القلق . . كان خلوقاً ، ويقرأ في كتب كثيرة ، وكان ربما يعرض علي بعض ما يقرأ ، هكذا أتذكر ، وكنت أراه ، وأخشى عليه من قلقه ذلك . . حتى كنت أسمح لنفسي أن أسأله بعض الأسئلة التي لم يكن على استعداد لأن يجيب عنها ، لكنه كان يصغي لها . . وكنت على معرفة بالأستاذ جاسم الشيخ ، وجاسم الشيخ والد حافظ مدرس قديم في مدرسة الهداية الخليفية في الخمسينيات وتذكر الوثائق أنه كان مع بعض المدرسين من زملائه يشاكسون مدير المدرسة ، وقد ترتب على ذلك مشادة ، تطورت إلى إضراب . . . وتدخل فيه المرحوم أحمد العمران ، وجاء إلى مدرسة الهداية ، وعاقب المدرسين المضربين عقاباً وصل إلى حد الفصل من العمل ، وبعد تدخلات كثيرة ، قرر تفريقهم على المدارس وتوزيعهم ، وكان ذلك

زمن المدير غالب عبدالرحمن الذي كان مديراً لمدرسة الهداية الخليفية منذ ١٩٥٠-١٩٥٣» . .

وعندما غادر حافظ مدرسة الهداية بعد أن أنهى فيها المرحلة الثانوية الدنيا ، والتحق بثانوية المنامة ، ثم ابتعث إلى الجامعة الأمريكية في بيروت فيما أظن ، وما أدري كيف سارت به الأمور هناك ، ثم أكمل تعليمه العالي في الولايات المتحدة الأمريكية ، ويحمل ماجستير في أحد التخصصات . . . ويعود حافظ الشيخ ، وأذكر أنه بدأ يكتب في الصحافة ، وكانت كتابات لافتة منذ بواكيره وتطورت به وسائل الكتابة وصار واحداً من كتاب أعمدة الرأي في البحرين ، ولي معه مواقف فيما بعد وسوف أتحدث عنها في حينها . . لكنني أعتبر أن حافظ الشيخ واحد من الطلاب الذين تشكلت بيننا وشائج من المودة التي تتشكل عادة بين التلميذ ومدرسه ، وتستمر بينهما ما استمر بهما الزمان» .

«وإنني حين أعاود تقليب أوراقي القديمة وألبوماتي أعثر فيها على صور تشكل وثائق لها دلالتها على تلك العلاقة التي ربطتني بطلابي وعلى مر السنوات ، وهي علاقة ليست جماعية فقط ، بل كذلك كانت فردية إلى حد ما ، وأنني كنت أعرف من طلابي مواهبهم وأعرف من الكثيرين منهم طموحاتهم ، وأقدر لهم سعيهم ليحققوا لأنفسهم مستقبلاً ، وهكذا كان حدسي ، وهكذا كان إنجازهم ، الذي أنظر إليه الآن فأشعر بكثير من الإعجاب بهم ، وكيف كانوا في غضاضة صباهم ، وكيف صاروا الآن لهم أسماء ومناصب وأمكنة . . ولا أدري عم أتحدث عنهم . . . فلكل منهم قصته بذاته ، وكل منهم له سيرة ومسيرة ، والأعجب أن كثيرين كانوا حسب الوعد والموعد وكانوا عند التوقع وفوق ذلك كثيراً» . .

«وبعضهم أكتنف مسيرته كثير من علاقات التفوق والنجاح وكثيرون أراهم الآن . . . وأذكرهم ، ولم نتقاطع في شأن من شؤون الحياة فيما بعد ، فهم تراكمت مسيرتهم وحققوا في الحياة مطالبهم ، ولعل بعضهم لم ألتقه منذ أكثر

من عـشـرين سنة ، لكنني أسـمع عنهم ، وأراهم وأدرك أنهم رمـوز للنجـاح في الحياة ، وبعضهم تقاطعت بهم في مواقع الحياة ، وأصبحت في فضائهم الذي يعملون فيه ومن هؤلاء محمد البنكي ، الذي سأتحدث عن سيرته معي وسيرتي معه ، وهي غنية وثرية وذات دلالة ، ومنهم حافظ الشيخ الذي كانت الصحافة هي الفضاء الذي تلاقينا فوقه ، ولقد فاجأني بكتابة عدد من الأعمدة ، وأنني سأتحدث عنه وعنها في حينها ، وهي موضوعات تصلح لأن توثق ، وأن أتكئ عليها في مناقشة بعض الأمور في هذه الحياة . . . . ومنهم محمد جاسم الغتم ، وللغتم قصة تطول وحكايتي وحكايته معي تصلح نموذجاً للوفاء والعلاقة الممتلئة بالثقة ومعه المودة والتقدير ، وسأتحدث عنها في مكانها الملائم لها . .

كثيرون هم الأبناء الذين كانوا في سيرورتي التعليمية معالم للطريق التي يسلكها مدرس نذر نفسه لطلابه ، وحاول أن يفهمهم وأن يعينهم على فهم الحياة حولهم في طريق يكونون فيه البراعم التي تتفتح . .

في ألبومي عشرات الصور ذات الدلالة والخصوصية التي حين استحضرها في مواقعها وزمانها ومكانها ، أحس أنني كنت مفعماً بالأمل ، متفائلاً دائماً ، وأنظر إلي الحياة أنها مشروع جدير بأن يملأه الإنسان بالتفاعل مع من حوله وما حوله وأن يحاول أن يكون رقماً بين الأرقام وسطراً بين السطور . . وأن يكون في الحياة إنساناً يحس به الناس حوله . . .

كم أعتز حين يقول أحد طلابي وهو الدكتور عبدالرحمن فخرو وهو طبيب جراح ، يفترض أنه بعيد عن الرومنسية والشعر ، يقول في مقابلة أنني حببت إليه الشعر واللغة العربية . . كم أنا فخور أنني فعلت شيئاً من ذلك!

كثيراً ما أقلب في ألبوماتي وأستعيد السنين من خلال الصور ، وأتذكر ، وأتذكر ، ومع ذلك فإنني سأنشر بعض هذه الصور ، لألقي بالكرة إلى طلابي ، ليتذكروا ، وإنني أكون قد أثرت في نفوسهم أياماً مضت ، لكنها بكل يقين هي باقية الأثر ، ولا يمكن أن يتجاوز الإنسان حياته الأولى . . سيما إذا كان قد

صادف مؤشرات لا تنسى» . .

«وأنا في هذه السن ، علمت في الصيف الفائت أن أحد أساتذتي ما يزال على قيد الحياة ، وكم انتابني شوق لأن أراه ، وربما لم أكن أحبه أثناء تدريسه لي في خمسينيات القرن الماضي ، لكنني التقط فيه جانب أنه أستاذي ، وكنت أقف أمامه باحترام ، وسعيت إلى الالتقاء به ، ولكن الظروف كانت ضنينة بذلك ، وها أنا على أمل أن أفعل هذا العام ، وأرجو أن تسمح لنا الحياة بأن نلتقي فكلانا صار في عمر لا يمكن الاطمئنان معه إلى عوادي الزمن - فأنا بإحساسي بأستاذي ، أقدر أن الكثيرين لابد أن يساورهم شيء من الإحساس هذا . . وها أنا أسعى إليهم لأوقظ فيهم أياماً يحسبونها مضت وانقضت . . وقد كنت ذهبت لأعزي الأخ إبراهيم بشمي في شقيقه رحمه الله ، وأنا أقف معه قفز إليّ شاب وبكل الشوق والمودة صافحني ، وقال لي أتذكرني ، أنا أحمد عبدالله فخرو . . يا الله . . إنه من طلاب عرفتهم قبل ثلاثين عاماً كما أظن لكنني مع ذلك تذكرته ، وعثرت عليه في الصور» . .

أجد مشقة الآن وأنا أقلب في ألبومات صور لدي وأتعرف على مئات من الأفراد . . . وأتذكر كيف لقيتهم ، وأين؟ وأكاد أستحضرهم واحداً واحداً ، هل يستطيع إنسان واحد أن يتذكر هذه الوجوه جميعاً . . إنها مسألة ترتبط بقدرة الإنسان على الحب والألفة والارتباط بمن عرفهم وتعامل معهم . .

« كنت في تعزية آل الجشي والموسوي بالمرحوم حسن الجشي ، ولقد سعيت منذ أكثر من عشر سنوات ، بل أكثر ، وكان حسن رحمه الله بكامل قوته ووعيه وحضوره ، وكنت أتطلع إلى أن أجري معه لقاءً تفصيلياً عن سيرته وحياته ، وأنا الذي كنت أعلم عن هذه السيرة الكثير ، ولكنها كانت من القراءات والأحاديث ومما جمعت من تاريخ البحرين وتاريخ التعليم ، لكنني كنت أرجو أن ألتقيه لأتحاور معه ، وأتحدث معه عن سيرته كمدرس ، وسيرته كمدير ، وسيرته فيما بعد ، وذهابه إلى خارج البحرين وإيابه من خارج البحرين ، وتوليه رئاسة أول

مجلس وطني في البحرين ، وما تلا ذلك من مشاغله الأدبية والثقافية ، والتحليلات التي كتبها للحركة الشعرية في البحرين ، وللأثر التي تركه في أسرته وإخوانه ، وهم يتحدثون عنه . . كان لدي عشرات الأسئلة ولكن الأستاذ حسن طيب الله ثراه تجنب هذا اللقاء . . . فاضطررت أن أتوسل إلى لقائه بأن أوسط بيننا الصديق رسول الجشي ، وقد بذل رسول جهداً طيباً في سبيل ذلك ، ولكن لم أظفر بلقاء مع الأستاذ حسن . . والأمس في مأتم الجشي ، في بلاد القديم لقيت الصديق رسول الجشي وسارع ليقول لي . . . إنني تحدثت للأصدقاء عن محاولاتنا لكننا ما ظفرنا بذاك اللقاء . . .

إنني إذ أسأل لحسن الجشي الرحمة والنعيم ، لأشعر بأننا ، والمهتمون من الباحثين في البحرين فاتنا منه الكثير . . وليرحمه الله رحمة واسعة . .

إنني مولع بالتأريخ للأفراد ، وبالتالي للمجتمع ، وأحس بأن كل فرد مهما تحدد دوره هو نموذج تجربة لا يمكن إلا أن ينتفع بها الآخرون كثيراً أو قليلاً ، وأن ما يتركه الأفراد من ذكرياتهم ومن تجربتهم لا يشكل زوائد لا قيمة لها ، بل هي مسائل جوهرية ، إذا أستطاع الآخرون التعرف عليها والانتفاع بها ، وإلا تكون على الأقل للتسلية . . وهل التسلية شيء هين»؟!

«بدأت الكتابة في أخبار الخليج ، وقد أتيح لي أن أقرأ أول كتاب نشره الصديق حمد النعيمي ، وفي تلك الفترة كنت مولعاً بالنقد الحاد الذي يسبب في العادة الضيق لمن أتناول نتاجهم ، وأمسكت بكتاب الصديق حمد النعيمي ولم أتوان عن نقده بقسوة ، وربما لم أكن على حق في كثير مما قلته ، لكنه كتاب أغراني بالهجوم عليه ، ويرد علي في الأسبوع التالي الصحفي فوزي شعبان ، ويدور بيننا جدل في عدة حلقات ، لأقع بعدها في سجال مع الأستاذ مأمون ياسين ، وكان أستاذاً في المعهد العالي للمعلمين ، فكانت سجالات أقرأ الآن فيها وأعجب كيف يخوض أحدنا في موضوع بكل جدية ليكتشف فيما بعد بأنه جهد عبثي لا يضيف شيئاً ولا ينقص شيئاً ، وإنما هي رغبة المبادأة والمناجزة

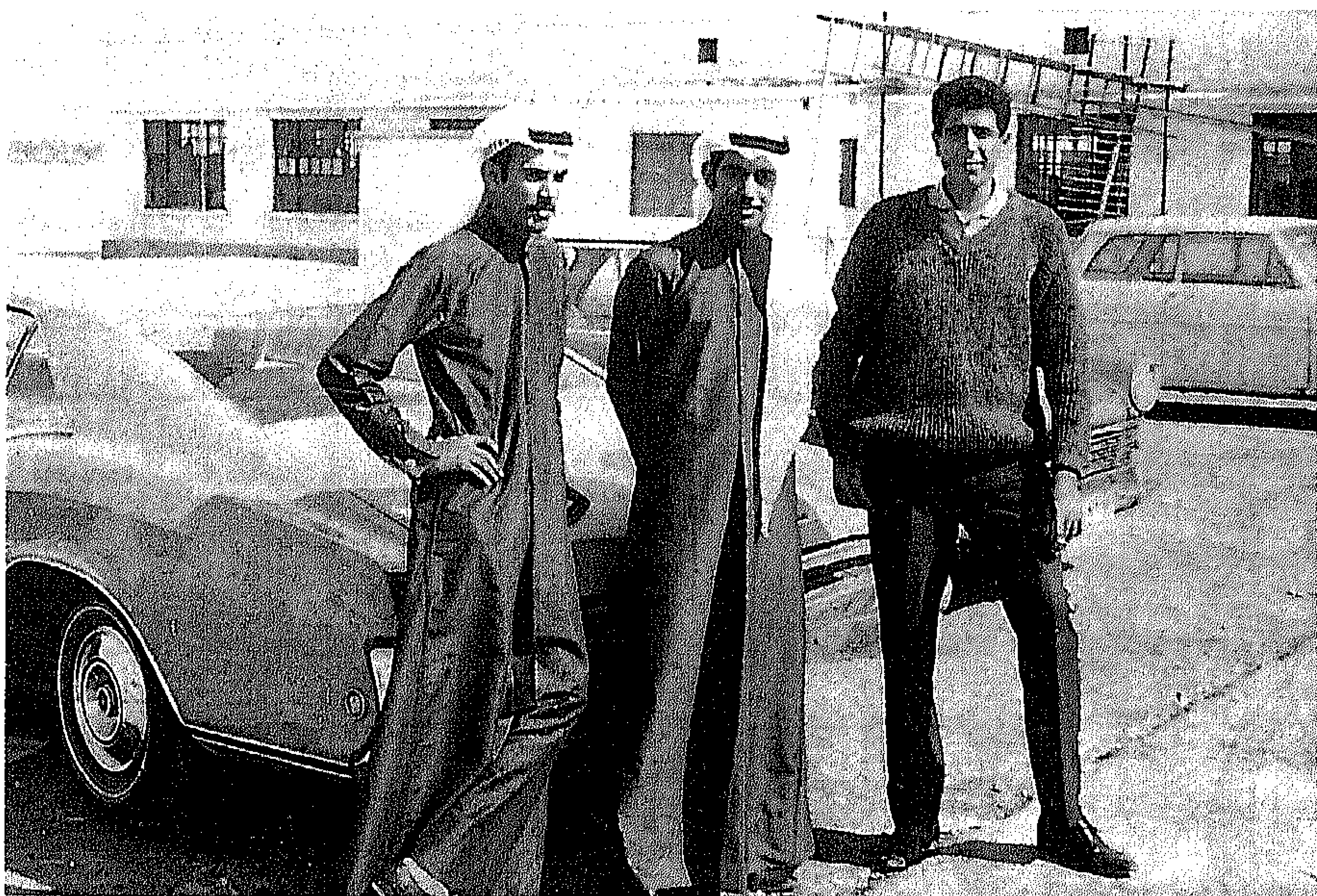
اللغوية التي تسبب هذه الجدالات التي لا تسمن ولا تغني . .

هذه الجدالات تكرست لها وللكتابة الصحفية ، وهذا بذاته هو الذي قادني إلى الولوج في الصحافة البحرينية كمحرر للصفحات الأدبية فيها ، وكانت البداية مع «الحدابادي» ، الكاتب الساخر خليفة حسن قاسم عليه رحمة الله ، في «المسيرة» . . .

«وخليفة حكاية لا تنطوي صفحاتها ، عرفته أول ما جئت إلى الهداية الخليفية ، شاباً أسمر ، يرتدي البنطال والقميص ، واسع الجبهة ، خفيف الحركة ، يوزع القفشات يميناً ويساراً ، يقرأ الشعر ، ويروي النكات ، في شخصية ساخرة بكل ما في السخرية من دلالات على أزمة النفس في عمقها ، وكان خليفة رحمه الله مأزوماً بالطموح وكان يحس أنه ليس في مكانه الصحيح ، وفعلاً لم يكن خليفة قاسم معلماً ملتزما بالمهنة ، فهو لا يستقر على حال ، وكانت علاقته مع مدير المدرسة عبدالله فرج على أسوأ ما يكون ، عبدالله فرج مدير ملتزم تقليدي ، كلاسيكي يؤمن بالانضباط والنظام ، وخليفة حسن قاسم شاب بوهيمي فوضوي ، لا يلتزم بشيء ولا يكاد يوقن بشيء ، هكذا بدا لي خليفة أول ما عرفته ، وتصادقنا وقتاً من الزمن ، واختفى خليفة قاسم . . . ولم أدر أين ذهب؟! ثم شاع بيننا أنه أصبح بحاراً يجوب البحار ليصبح قبطاناً فيما بعد ، وصدقنا هذه المقولة لأن عيد صالح زميلنا في الهداية انضم إلى ذات الوظيفة البحرية - وتمر الأيام وإذا خليفة ينتقل من البحر إلى البر وهذا يعني أن خليفة حسن قاسم قد بدأ رحلة مغايرة . . . ومن هنا أرجئ الحديث عنه وعن مجلته الأسبوعية «المسيرة» . . فقد كانت حكايات خليفة لا تنسى . . رحم الله أبا بثينة!



عبدالحميد المحادين ، محمد إبراهيم الشروقي ، أحمد النعيمي



عبدالحميد المحادين ، حمد بن أحمد الخليفة ، خليفة سلمان الخليفة



صورة مع الطلاب ويبدو في الصورة أحمد عبدالله فخرو، محمد فايد، إبراهيم الحمر



جاسم الشيخ (أبو حافظ) في صدر الصورة



عبدالرحمن محمد ، عبدالله حبيب ، عبدالحميد المحادين ، محمد جاسم الغتم

(٣٠)

❖ احتضنت الهداية نماذج رائعة من الطلاب الذين كانوا وصاروا في مواقع المسؤولية.

❖ السبعينات.. سنوات الحصاد ومحاولات جادة لحياة أكثر تلبية للطموحات

❖ مجموعة من الرياضيين.. وأخرى من المجتهدين، وثالثة من الطموحين.. توليفة ممتعة وجدتها في فصل واحد

❖ كان راشد بن عبدالله آل خليفة.. طالباً هادئاً ملتزماً في دراسته.. جاداً بقليل من المرح وكثير من التهذيب

❖ محمد يوسف جكنم.. شأنه في الصف كشأنه في الملعب.. يتمتع بمكر محبب إلى النفس

❖ كنت أحب أن يقرأ سلمان بن هندي النصوص المقررة لصوته الجهير وقراءته المتقنة

❖ كانت تبدو على دعيج بن سلمان سمات الجسارة.. رياضي الروح والبنية

❖ كنت أستعير بعضا من كتب مبارك العماري وكان يلاحقني بالمطالبة بها، حتى قبل أن أنهي قراءته!

❖ حمود سلطان الذي كان يقطع المراحل نحو النجومية بسرعة كبيرة.. دائم المرح في الدرس وقليل الانتباه إلى ما أقوله

❖ **أعترف الآن بصدق بنبوءة حمود سلطان حين قال لي مرة: «إنك ستفتخر ذات يوم بأنك درستني»!**

❖ **أشعر بحزن شديد لانتقال فؤاد عبدالله فؤاد وهلال الشايجي إلى الرفيق الأعلى**

❖ **تعاطفت مع أهل المحرق والحد المشهورين بكرة السلة وكنت أشاركهم اللعب في ساحة المدرسة أوقات الفراغ**

❖ **قال لي المرحوم الشيخ حسن آل خليفة عن ابنه: يا أستاذ.. «خالد خذ قشارة وظهر» فقلت له «إن شا الله» وحسبتها تصلح لكل المواقف!!**

السبعينات كانت سنوات الحصاد ، والمحاولات الجادة لحياة أكثر تلبية لما كنت أطمح إليه ، ففي القاهرة كنت أبحث عن شيء من مستقبل عن طريق الدراسات العليا ، لكنه كان مليئاً بالتعقيدات على المستوى الشخصي ، في حين كان يمتاز بشيء غير قليل من النجاحات ، على صعيد العمل . . أجد مجموعة من الطلاب ، التقوا في فصل واحد مصادفة ، وتكون بهم مجموعة ذات تميز بشكل أو بآخر . . تقاطعت فيها مع العديد من الشخصيات المعروفة اليوم في البحرين حين كانوا وقتها طلاباً لي ، تعاملت معهم وصادقتهم في حدود تتجاوز تفاصيل العلاقة التقليدية بين المعلم وتلميذه . . شخصيات أصبحت اليوم ذات شأن في المجتمع على الصعيد الرسمي أو الصعيد الأهلي والفني والثقافي . .

في فصل من الفصول كان مجموعة من الرياضيين ، ومجموعة من المجتهدين ، ومجموعة من الطموحين ، وتدريس مثل هؤلاء يشكل متعة إذا استطاع المدرس أن ينفتح عليهم وعلى طموحاتهم ففي فصل واحد كان يلتقي الطالب راشد بن عبدالله آل خليفة . مع محمد يوسف جكنم ، وسامي حسن ،

ومحمد الحسناوي ، وآخرين أذكرهم ، وكانت المناقشات الرياضية حاضرة دائماً ، وقد لعب معظمهم مع منتخب البحرين لكرة القدم ، ومنهم كان راشد بن عبدالله آل خليفة الذي كان طالباً هادئاً ، وكان ملتزماً في دراسته وفي مواظبته ، تبدو عليه الجدية مع قليل من المرح ، وكثير من التهذيب ، وكان سامي حسن يتمتع ببنية رياضية لافته ، وأما محمد يوسف جكنم ، وهو يلعب مع فريق النهضة (البحرين) فيما بعد ، فكان شأنه في الصف كشأنه في الملعب ، يتمتع بشيء غير قليل من المكر المحبب إلى النفس ، كانوا مجموعة تضفي على الصف حضوراً غير عادي . . وها أنا الآن أنظر فأجد أن كلاً منهم حقق نجاحاً بشكل أو بآخر ، وأنني الآن أنظر إلى هذه المجموعة ومجموعة كانت قبلهم فأجد أن اثنين منهم يقفان الآن في مواقع المسؤولية الرفيعة ، بل وأن هذين الاثنين يقف كل منهم على قمة مؤسسة على قدر كبير من الأهمية بل هما أخطر مؤسستين من حيث حجم المسؤولية المناطة بكل منهما . . من أجل الوطن ومن أجل سلامته . . أولهما راشد بن عبدالله آل خليفة وهو من أسرة من آل خليفة على ارتباط وثيق بكرة القدم وبنادي المحرق ، فراشد ابن للاعب ممتاز من لاعبي نادي المحرق ، وهو عبدالله بن أحمد آل خليفة ، الذي لم يمهله القدر لكي يبرز كل مواهبه في هذه اللعبة الشعبية ، وعمه حمد بن أحمد لاعب نادي المحرق ، ورئيس النادي في فترة من الفترات وابن عمه خليفة بن سلمان بن أحمد لاعب الكرة الشهير ، وثانيهما هو دعيج بن سلمان شقيق خليفة بن سلمان بن أحمد ، وقد كان في المدرسة تبدو عليه سمات الجسارة ، فقد كان مرحاً وجسوراً في ذات الوقت ورياضي الروح والبنية . . وأني أحسبه أنه مع المزايا التي ينبغي توافرها في الجندي على موعد ، قوة في البنية وجسارة ، وروح غاية في التوافق مع النفس والعمل . . وثقة لا نهاية لها ، وله معي مواقف في غاية الطرافة .

إنهم من ذات أسرة المرحوم علي بن محمد آل خليفة رئيس نادي المحرق

حقبة من الزمن ، ودعيج بن خليفة الذي ارتبط أيضاً بنادي المحرق ، وأذكر من أبناء الهداية المرحوم راشد بن حسن الذي تخرج طياراً ، وهو من ذات أسرة الشيخ أحمد بن علي آل خليفة رئيس نادي المحرق الآن .

كانت الهداية تحتضن هذه النماذج الرائعة من الطلاب الذين كانوا وصاروا في مواقع المسؤولية فقد كان سلمان بن هندي محافظ المحرق الآن يمتاز في الصف بصوته الجهير وقراءته المتقنة ، كنت أحب أن يقرأ دائماً النصوص المقررة ، ودائماً ما كنت أشيد بمقدرته على الإلقاء وتمثل المعاني بجانب صوت عميق .

وها هو مبارك العماري الذي كان منذ التحاقه بالهداية ينحو منحى الثقافة ، وكان دائماً يحضر معه إلى المدرسة كتباً لا علاقة لها بالدراسة ، ويعرضها علي ، وكنت أستعير بعضها لأقرأها . . وعندما يعيرني كتاباً كان يلاحقني بالمطالبة به ، حتى قبل أن أنهي قراءته ، ويذكرني به في كل درس . . وللحقيقة فإنني كنت ملتزماً بإعادة كتبه إليه . . إلا إذا كان أبو عمرو يرى غير ذلك . . لكنه كان وفياً لهذا التوجه ، وكان يهتم بالمصادر والمراجع ويجمع منها الكثير ، وبلغ اهتمامه أنه كان يسافر إلى خارج البحرين ، فيما بعد حين نضجت لديه هذه الموهبة ، وصار يبحث عن أمهات الكتب سيما في الشعر الشعبي ، والمواويل ، وبعض الكتب والدراسات ، وبعد ذلك نشأت بيننا شبه شراكة في تبادل الخبرات . . وشجعنا على ذلك أننا لسنا في حقل واحد . . لكنني انتفعت بالكثير الكثير من الكتب التي في مكتبته ، بل أكاد أقول أن مبارك يمتلك مراجع ومصادر ليست إلا عنده لكن أبرز سمة في مبارك العماري أنه لا يبخل بمعلومة ولا يبخل بكتاب ، ولا يضن بمرجع ، بل إنه يتعاون إلى أقصى غايات التعاون ، فإذا تسأله عن معلومة أو مرجع ، يسارع إلى تصوير الجزء الذي يعنيك ويقدمه لك ، بكل امتنان . . ولذا فإن أي مرجع عند مبارك العماري اعتبره مرجعاً لدي . . وهذه سمة في الباحثين الجادين . . وقد أثرى مبارك العماري المكتبة العربية بمؤلفات في الأدب العامي ما كان لها أن توجد لولا ولعه بهذا

الفن ، وصبره وطول باله على البحث والاستقصاء .

سألني ذات مرة في البحرين هل عندي خماسية عبدالرحمن منيف فما أدري ماذا قلت له ، لكنني فوجئت به ، وقد كان في رحلة إلى الشام ومر خلالها بالأردن وزارني في الكرك وقد حمل معه لي خماسية عبدالرحمن منيف (مدن الملح) ، وأعتقد أنه جلبها من الشام» .

في الهداية تعرفت على أبناء العريفي ، أحمد وكان تلميذاً ، وراشد وكان مدرساً للفن ، وإنهما في حقيقة الأمر فنانان يؤمن كل منهما بطريقه ، وراشد واحد من الفنانين المجتهدين في البحرين ، والذين بذلوا جهداً سخياً ليكون لهم اسم ، ولهم أسلوب خاص ، وراشد هو صاحب المدرسة الدلمونية في الفن التشكيلي ، وله في هذا الحقل ، تصورات واجتهادات تحسب له . . وراشد فنان طموح جداً ، وأرى أنه كان وفياً للحركة التشكيلية ، متفانياً في مساندتها ودعمها ، من خلال جمعية الفن المعاصر التي تحتوي على عدد غير قليل من رواد الفن التشكيلي في البحرين .

وأعاود الذكرى ، لأستحضر حمود سلطان الذي كان يقطع المراحل نحو النجومية بسرعة كبيرة ، وكان في ذات الصف الذي معه فيه حسام بن عيسى آل خليفة ، وقد كان حمود دائم المرح في الدرس ، وقليل الانتباه إلى ما أقوله . . لكنه كان يتمتع بحضور غاية في الفكاهة وتعليقاته تثير ضحك التلاميذ دائماً ، وكنت أتجاوز ذلك منه ، وأمازحه باستمرار . . قال لي مرة : «إنك ستفتخر ذات يوم بأنك درستني»! وإنني أعترف الآن بصدق بنبوءة حمود سلطان فإنني الآن أفتخر بأنني درسته ذات يوم ، لكن أعترف أنه لم يستفد مني شيئاً ، وأعترف بأنني عجزت عن أن أوصل له أي معلومة . . وإنما كان دوره الرياضي جديراً بأن يبقى موضع التبجيل والإشادة والاحترام . . وها هو حسام بن عيسى آل خليفة ينهض بمسؤوليات هامة ودور طيب في العلاقات الدولية ، ولقد كان مع حمود في درج واحد ، ولست أدري إن كان لتسمية حمود لابنه حسام ، علاقة بتلك

الأيام . وكان شقيق حسام سلمان بن عيسى بشخصيته الهادئة ، كذلك في مدرسة الهداية ، وقد بلغ شوطاً في المسؤولية كبيراً .

إنني في مدرسة الهداية ، أذكر طلاباً لا حصر لهم وأذكر من القسم التجاري الصديق عبدالعزيز بوجيري هذا الشاب الذي أحسب أنه قرأ كل كتبي ، واقتناها ، وهو دائم الاتصال بي ، يحدثني عما أكتب غالباً ويشيد بما يقرأ ، وهو يمتاز بذاكرة لا تغفل عن شيء . . وحين ألتقي به وكثيراً ما نلتقي ومصادفة في معظم الأوقات ، أشعر بحديثه الوفي ، والدافئ وبروحه الصادقة ، وألفته المريحة .

كنت على علاقة طيبة بأندية أخرى في المحرق ولاسيما نادي الجزيرة ، كما كنت على صداقة مع محمد خلقون ، الذي كان في أول أمره لاعباً ثم صادر حكماً . . وكنت أمازحه دائماً وأتهمه بأنه ليس لاعب كرة مبدع ، وكنت أقول له : أنت الوحيد الذي يسمح لك أن تلبس شيرتاً وتنزل إلى الملعب مع أنه لا علاقة لك بكرة القدم ، وكان يقبل مني ذلك المزاح دائماً ، وقد عملنا معاً في مدرسة الهداية الخليفية ، كان أصدقائي من أيام التدريس في الهداية ، كثيرين وكثيرين . وإنني أشعر بحزن شديد إذ اثنان ممن عرفتهم من الهداية الخليفة ، ثم عرفتهم بعد ذلك في رحاب الحياة انتقلا إلى الرفيق الأعلى ، وهما فؤاد عبدالله فؤاد ، وهلال الشايجي ، وذلك في فترة ليست متباعدة ، ومع اختلاف طبيعة معرفتي بالمرحومين إلا أن كل من أعرفه يترك في نفسي جرحاً ، وحزناً إذا ما ذهبت به عوادي الزمان .

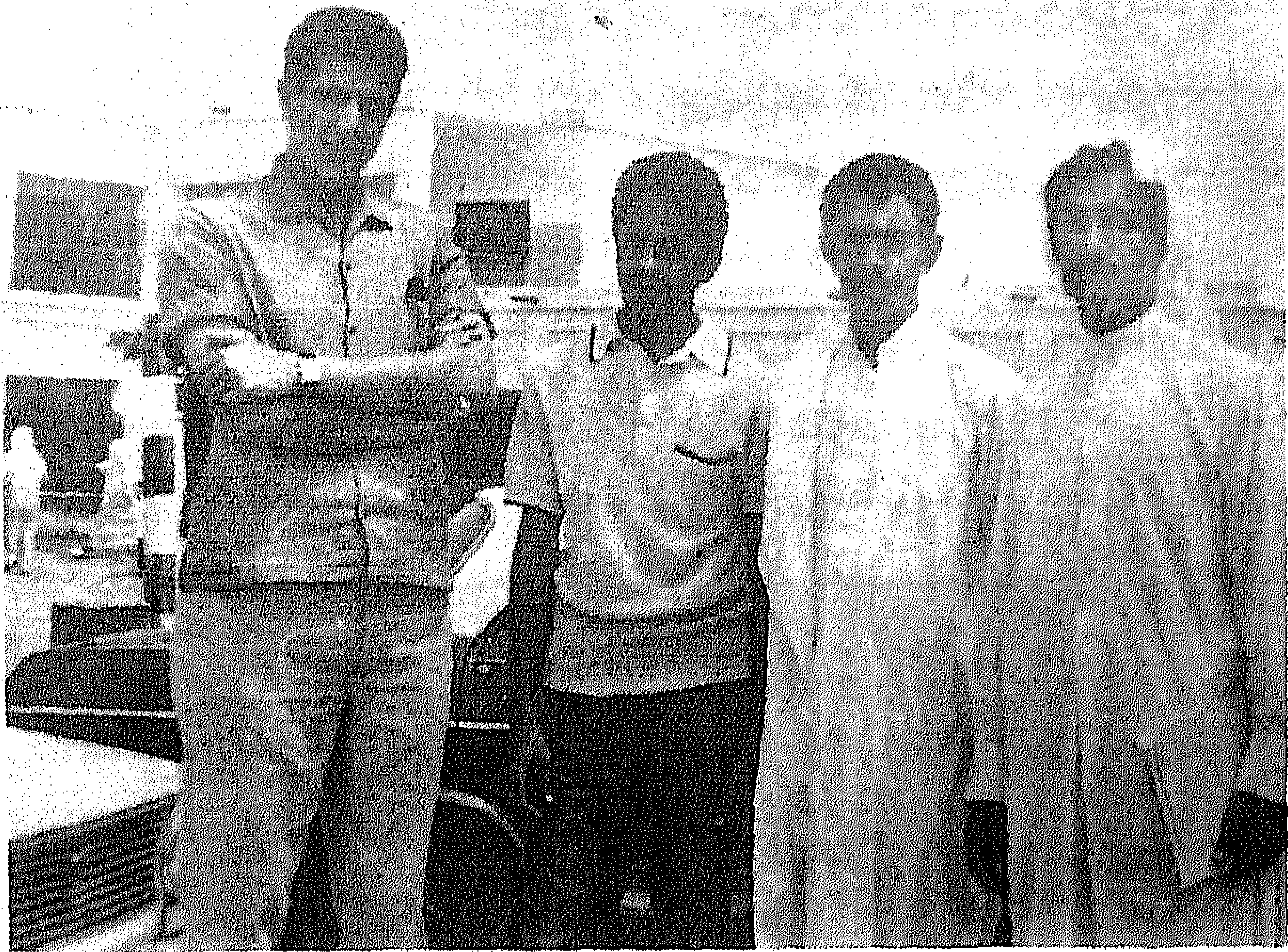
من السبعينات ادخرت عدداً هائلاً من الأصدقاء ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من الذين تقاطعت معهم في مدرسة الهداية الخليفية ، ونتيجة لذلك تعاطفت مع أهل المحرق والحد . وقد كان طلاب الهداية من الحد ، مشهورين بكرة السلة ، يلعبونها ويجيدونها ، وكنت أشاركهم اللعب في ساحة المدرسة أوقات الفراغ ، ولا أزال أذكر أبناء جبارة ، وهم عائلة سلاّوية ، وراشد أبو جابر

وفهد المسلم ، وغيرهم من ذاك الجيل الذهبي ، ولقد مرت بي طرائف في مسألة التواصل باللهجة التي كنت قد أتقن كثيراً من أسرارها ، لكن بقى بعض جوانبها لم أكن اكتشفتها بعد .

كان من أوائل الطلاب الذين درستهم في الهداية خالد بن حسن آل خليفة ، وكنت كشأني مع جميع طلابي على علاقة حسنة به ، وكان والده المرحوم الشيخ حسن آل خليفة يعلم أن بيني وبين نجله علاقة احترام متبادل وذات يوم فوجئت بالوالد يسأل عني ، ولم أكن تحدثت معه من قبل ، وبعد أن سلمت عليه ، قال لي : يا أستاذ «خالد خذ قشاره وظهر» .

ولم أفهم من الجملة سوى اسم ابنه . . ولما كنت أسمع أهل البحرين عادة حينما يتبادلون الكلام يكثرون قول «إن شا الله» وحسبتها تصلح لكل المواقف . فالتفت إلى الشيخ أبو خالد ، وقلت له مباشرة : إن شاء الله . فقال لي : أقول لك الولد ظهر تقول لي إن شاء الله . . قلت له لم أفهم بالضبط ما قلت! ولعله ألتمس لي عذراً أنني لم أفهم مضمون العبارة . .

فشرح لي ما كان من الأمر . .! وأخيراً انتقل خالد إلى جوار ربه ، وكنا قد تجاورنا معاً في البسيتين بضع سنوات .



من اليمين : عبدالعزيز الشيخ ، راشد بن عبدالله آل خليفة ،
عبدالله شريدة ، عبدالحميد المحادين

(٣١)

❖ ألقى أبو بثينة «بعصا التسيار» بعد أن تعاقبت عليه كل المهن وتعاقب عليها

❖ «المسيرة» الأسبوعية كانت محطته الأخيرة.. امتلكت عوامل الحياة.. ولكن!!

❖ لخليفة طريقة خاصة في إدارة المجلة.. وظف لها صحفياً واحداً وأكمل الطاقم من «العمالة السائبة»

❖ كنت منجذباً إلى شخصية خليفة حسن قاسم ومستعداً أن أعمل معه بدون مكافأة

❖ كان كاتباً ساخراً.. قادراً على أن يفجر من المواقف البسيطة مفارقات هائلة

❖ تعلمت الكثير من خليفة حسن قاسم.. وبقيت معه إلى أن أُغلقت «المسيرة» ذات أمسية

❖ هكذا كانت طرائفه مع «محمد» الفراش حين عينه مديراً للتحرير ليوم واحد.. أو حين وعدنا بمقابلة شخصية هامة!!

❖ لماذا رفض خميس المقلة اصطحابي لرؤية أبو بثينة في أيامه الأخيرة؟!

❖ باحث سوداني حفزني على تطوير دراساتي في النقد وزيادة الكتابة في السرديات

مع بداية الثمانينات وأواخر السبعينات كانت الأشياء في سَيرورتي يطرأ عليها بعض العوامل والمتغيرات ، وذلك على الصعيد الشخصي والصعيد الأسري والصعيد الثقافي والصعيد الاجتماعي ، وابدأ بالصعيد الثقافي لأنه يشكل ملمحاً بارزاً على هذه الطريق المعقدة ، وكنت تكرست كاتباً ، كثرت إسهاماتي في الصحافة ، وبدأت تكون لي جرأة أن أكتب . . تلك مرحلة هامة وجوهرية في حياتي ، تقاطعت فيها مع الكثير من الشخصيات البحرينية التي سيأتي على ذكرها مسجلا معها مواقف لا تنسى ومؤرخا لمرحلة هامة من تاريخ الحركة الثقافية في البحرين . .

ومن قبيل المصادفة ، فصديقي خليفة حسن قاسم رحمه الله ، بعد أن طوف في الدنيا ، وذهب في شرقها وغربها ، وبرها وبحرها وجوها ، وملّ من الأسفار ، وكما يقول العرب في البادية (ألقى عصا التسيار) . . وقرر بعد أن جرب الوظائف الحكومية المختلفة ، ولم يقنع منها بما يرضيه ، وخليفة ذلك الرجل القلق لا يرضيه شيء . . فيحصل أبو بثينة على رخصة مطبعة ومجلة أسبوعية أسماها (المسيرة) ، وأخذ يحشد لها من تيسر من الأصدقاء الذين آنس بهم مقدرة على أن يسهموا معه في حمل هذه المجلة الأسبوعية ، وكان خليفة قد اشتهر بعمود يومي في جريدة أخبار الخليج اسمه : (طاش ما طاش . . للنوخذة والطواش) . . . وأحسب أنه كان ينال مكافأة على هذا العمود المقروء ربما لا ترضي طموحه ، لم تجنبه مغامرة كإنشاء صحيفة أسبوعية . .

لخليفة طريقة في إدارة المجلة التي أعلن عنها ، وأظنه وظف لها صحفياً واحداً فقط لا غير ، وأكمل الطاقم من «العمالة السائبة» ، والمسيرة كانت مجلة تملك عوامل الحياة لو أن خليفة أراد لها الحياة . .

كنت أسكن في البسيتين ، وذات يوم هاتفني خليفة ، وذهبت إليه ، ولم أكن رأيته من سنوات . . . لكن العلاقة بيننا كانت عماراً ، وبعد أخذ ورد . . وكان مكتب المسيرة قرب دوار الحورة . . . وعرض علي خليفة أن أشرف على باب

الثقافة في هذه المجلة العتيدة . . ولأنني أعرف خليفة جيداً ، فقد ترددت وأحس هو بي ، فقال : «سأدفع لك مكافأة شهرية» . . . وأكد لي بقوله : «أنت ربما لا تصدقني» . . قالها مازحاً فقلت له : «أصدق المشاعر ما كانت متبادلة» . . . . فقال : «عليك أن تثق بي» . . وبما أنني كنت منجذباً إلى شخصية خليفة حسن قاسم ، فقد كنت مستعداً أن أعمل معه بدون مكافأة ، وأنا أعلم أن مكافأته لن تجعلني غنياً ، وحرماني منها لن يزيد فقري . . . فأنا في درجة الصفر . . فقلت له : «أنا أقبل . . إذا كنت جاداً» ، فقال : «أنا جاد جداً» . . .

وبدأتُ رحلة مع خليفة قاسم وتجربة لا عهد لي بها ، فخليفة صحفي متمرس ، ويملك أسلوباً كان من الممكن أن يكون جذاباً ، لكنه لم يكن يوظف مواهبه الصحفية والأدبية بجدية تلائم هذه القدرات . . هو كاتب ساخر ، ويمكنه أن يفجر من المواقف البسيطة مفارقات هائلة ، كما أنه يجيد كتابة الشعر بالعامية والفصحى ويمتاز بحفظ الأشعار والأقوال ، ويمتلك ثقافة جيدة . لكنه كان يحمل الأمور دائماً على محمل السخرية والفكاهة والمفارقة ، وقد بدأت معه منذ البداية ، وكنت أحرص على أن تكون الصفحات التي أحررها جادة وصادقة وواقعية ، وأذكر ذات مرة أن المرحوم عبدالجليل الصفار الذي كان يحرر الثقافة في مجلة المواقف قد عقد ندوة شارك فيها محررو الصفحات الأدبية في الصحافة البحرينية ، وقد كانت ندوة جيدة نشرها الصفار في مجلة المواقف . . . ويومها عبرت عن بعض ما كنت أحس به وهي مقاطعة الأدباء والكتاب في البحرين لمجلة «المسيرة» ، حيث أنهم كانوا يعزفون عن النشر فيها ، وأكاد أجزم إنني وليت الصفحة الأدبية من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨١ أو ٨٢ ولم يرسل أحد من أدباء البحرين أو شعرائها قصة أو قصيدة أو مقالة أو حتى خاطرة لتنشر في المسيرة ، وأذكر إنني ألحت إلى ذلك في اللقاء الذي نظمه الصفار ، وقد ذهبت أبعد من ذلك فقلت أنني أنا المعني بهذا التجاهل ، ورغم أن كثيرين نفوا هذه المظنة لكنني كنت ومازلت أعتقد شيئاً من ذلك» .

ورغم كل ذلك نهضت بالصفحات الأدبية في هذه المجلة «المسيرة» وكنت أجري المقابلات مع الأدباء وأستكتب البعض . . وبطبيعة الحال فقد كان شأن المسيرة شأن بقية الصحف ، لا يدفعون للكتاب أي مكافآت . . . بل يكتفون بالجملة المعهودة «مشكور وما قصرت»!

كنت أكتب في أماكن كثيرة ، ولكن بعد العمل في «المسيرة» صرت أكتب فيها بشكل متواصل . . . ولقد تعلمت الكثير من خليفة حسن قاسم ، وبقيت معه إلى أن أُغلقت «المسيرة» في ذات أمسية» . .

«لخليفة طرائف كثيرة ، وكان يوظف الموظفين ويطردهم بعد يومين ، ومن طرائفه الكثيرة ، أن كان يعمل في «المسيرة» عدد من الصحفيين ونحن ثلاثة ، وأنا والصديق محمد حماد مصطفى ، ومحمد كان يحرر ٨٠٪ من «المسيرة» وصحفي لست أذكره ، وقد طلب إليّ خليفة ذات مرة أن أكتب «برجك اليوم» . . . وكتبتها . . . واكتشفت من يومها كم يكونون مغفلين الذين يقرؤون برجهم في الصحافة ، ويصدقون وربما يبنون مواقف على هذه الأبراج التي اكتشفت كيف تكتب وما هو مدى المصداقية فيها .

انتقلت مكاتب «المسيرة» إلى شارع الكويت ، وهناك قرر خليفة تطوير الصحيفة ، وحاول جاهداً واستقدم لها صحفيين من السودان ، وفي يوم أصدر فرماناً بتعيين «محمد» ، وهو فراش هندي كان يعمل في المسيرة ، عينه خليفة مدير تحرير . . . وأصدر الفرمان وألزم به الجميع أن يطيعوه . . وكان ذلك لمدة يوم ثم عزله!

قال لنا ذات نهار : «غداً تعالوا في لباس رسمي» ، وأردف خليفة : «إنكم ستقابلون شخصية هامة» ، وفي اليوم التالي جئنا ولقد لبسنا البذلات . . . وربطات العنق ، واجتمعنا عند رئيس التحرير خليفة قاسم في انتظار الذهاب إلى الشخصية التي ألمح إليها ولكنه بقي جالساً خلف الطاولة يدخن السيجار كعادته ، ويلقي بالقفشات يميناً وشمالا ، وبعد انتظار قلنا له : «أين هي

الشخصية التي سنقابلها»؟! فقال بسخريته المعهودة : «أنا ، وإلا أنا مو تارس عينكم»! وأخذنا نلتفت في وجوه بعضنا وأدركنا أن أبا بثينة لبّسنا مقلباً .

كانت المسيرة تحتضر ، وكان موتها مؤجلاً ، رغم أنه حشد فيها زوايا محلية ، مثل : «طاش ما طاش» ، ومن «عرّه وبرّه» ، وغيرها ، ولكن لأمر ما لم تنجح ، ورغم مثابرة رئيس تحريرها . ،فإنها كانت غير رائجة ، ولا توزع إلا بضع عشرة عدداً . . ثم توقفت «المسيرة» عن السير ، بقرار إداري من وزير الإعلام فيما أظن ، وانتقل خليفة إلى «دار المسيرة للطبع والنشر» وتلك حكاية أخرى .

تعثرت الأمور بخليفة حسن قاسم ، وهو الذي جرب مهناً كثيرة ، التدريس ، والبحرية حيث كان يحلم أن يصير قبطاناً ، ثم عمل في الصحافة في الكويت ثم البحرين ، بعدها عمل في الإعلام ، دائرة السياحة . . واستقر أخيراً في «المسيرة» المجلة ، ثم دار النشر ، ودار النشر هذه كانت في القضيبية وقد كان يديرها على طريقته . . لكنها إجمالاً كانت ناجحة ، وكانت تطبع الكتب والقرطاسية للأعمال التجارية .

في العام ١٩٩٥ قررنا الاحتفال بمرور ٧٥ عاماً على التعليم في البحرين ، اليوبيل الماسي ، وقد تقرر في المدرسة إقامة معرض للصور ، ويحتاج المعرض إلى مئات البراويز ، وهي مسألة مكلفه بالنسبة لموازنة مدرسة . . فأجريت اتصالاً مع أبو بثينه ، حيث كان يداوم في المطبعة وكنت أزوره دائماً وعرضت عليه فكرة الإسهام في المعرض ، وبكل الأريحية التي كان يتمتع بها خليفة قاسم أمر بأن تلبي مطبعه المسيرة كل حاجاتنا من البراويز مجاناً . وتم تنفيذ ما اقترحته عليه دون أية مجادلة .

وفي موقف آخر كان قد استدعاني يوماً وقال : «إنني سأطبع الأعمال الكاملة للشاعر الدكتور غازي القصيبي وأريدك أن تشرف على مراجعة الطباعة من وجهة لغوية . . وأحيطك علماً بأنني لن أدفع لك ولا فلساً» . . قلت له : «أقبل شريطة شيء واحد . . هو أن تخبرني عن تفاصيل هذه الصفقة بينك

وبين غازي القصيبي» ، فقال : «ليس هناك صفقة ، فقد طلب مني ذلك ودفع لي مبلغاً من المال» . . وأنا الآن أصدق خليفة لأن غازي القصيبي كتب في الكتاب التذكاري الذي أصدرته ابنة خليفة قاسم بثينة وقال إنه أي غازي لم يستلم من خليفة ما طبعه في المسيرة ، فقط كان يأخذ منه ما يحتاجه من نسخ . . والباقي تصرف به أبو بثينه .·. هكذا قال غازي . .!

انقطع خليفة قاسم عن المطبعة . . ومررت به مرات ولم أجده وسألت عنه قالوا لي إنه مريض فهاتفته ، وسألت عن صحته فذكر لي أنه ملتزم البيت . . وذات يوم التقيت الصديق خميس المقلة وهو خال بثينة ، وقلت له أرجو أن تأخذني ذات يوم إلى خليفة لأراه ، وفاجأني خميس بقول : «لتبق في ذهنك صورة خليفة كما رأيته آخر مرة ، ولا أحب أن تلتقيه الآن فقد أجهده المرض وغيرة تماماً» . . وبعد أيام انتقل أبو بثينة إلى الرفيق الأعلى . . هذا الفتى الحدّي الساخر . .

واصلت الكتابة في الصحف والمجلات ، وبدأت أدواتي تتطور وأسلوبي يتحسن بالممارسة وصرت مقروءاً إلى حد ما ، ولاسيما ما كتبته في «كتابات» ، وفي مجلة «الدوحة» القطرية ، وفي مجلة «أفكار» الليبية ، و«أفكار» الأردنية و«البيان» الكويتية ، وصحف أخرى هنا وهناك .

وذات يوم جاءتني رسالة من أحد الإخوان السودانيين الذين يدرسون في لندن لتحضير الدكتوراه حول أدب الطيب صالح . . وكنت قد كتبت بحثاً عن الطيب صالح ، أو ربما أكثر من بحث ونشرتها ، وقد عثر هذا الباحث السوداني وهو يبحث عن دراسات لموضوعه ، على ما كتبته عن الطيب صالح وبالذات عن روايته «عرس الزين» ، فبعث بي هذا الأخ السوداني روح المواظبة ، ومنها قررت أن أطور دراساتي في النقد ، وأن أكثر من ممارسة الكتابة في السرديات . . .

وقد جاء في رسالة الأخ زاكي الدين سليمان كمبال . . . ما يؤيد ما ذهبت اليه .

لا أريد أن أبتعد كثيراً ، بل أود أن أقف عند حفل تكريم الزميل والصديق العزيز عبدالله المحرقي ، فقد كانت لفتة جميلة تلك التي قام بها الأخوة في لجنة تكريم الرواد ، وهي الانتباه إلى هذا الفنان التشكيلي المبدع الذي كان حاضراً في الساحة الفنية منذ عقود من الزمان ، ولم ترتخ أصابعه على الفرشاة ، ولم تهتز خطوطه ، ولم تضطرب ألوانه ، ولم يهن عزمه ولم يتوان خياله ، فقد بقي مصراً على دوره الفني يتابعه بكل جد ، وأنه جدير بالتكريم وجدير بكل ما يمكن أن يقدم إليه من إشادة وتحفيز ومؤازرة . . وعبدالله المحرقي ، كما حاورته ذات يوم وتحدثت إليه وتحدث إليّ ، وأجريت معه مقابلة ما أظن المحرقي قد استفاض في حديث عن تجربته كما فعل في تلك المقابلة وإنني أتابع كل ما يقدم من كاريكاتير يومي في أخبار الخليج وقد تقاطعت معه في كاريكاتير ، كتب تحته (عيد بأي حالٍ عدت ياعيد) فأكملت هذا الشطر بشطر وبيت ونشرها عبدالله المحرقي مشيراً إلى ذلك» .

ندوات الأيام للألفية الثالثة

30 ديسمبر 1999م

اللغة العربية والعولمة


الأستاذ يوسف أحمد الشيراوي


الأستاذ عبدالحميد المحادين

❖❖❖ للأستاذ يوسف أحمد الشيراوي ❖❖❖

المعقب: الأستاذ عبدالحميد المحادين

إدارة الندوة: الأستاذ محمد البنكي

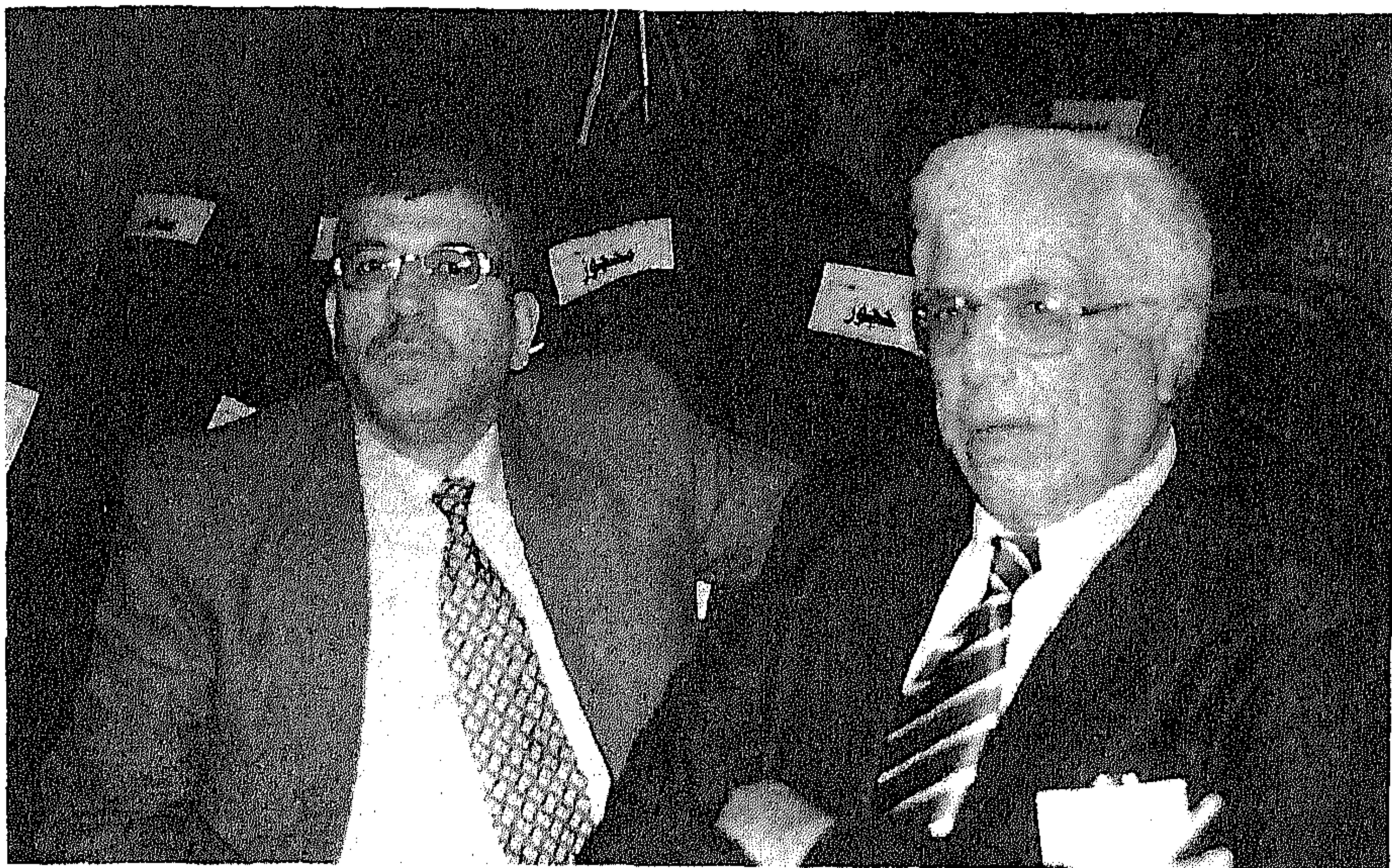
الساعة 9 مساء

مركز البحرين الدولي للمعارض

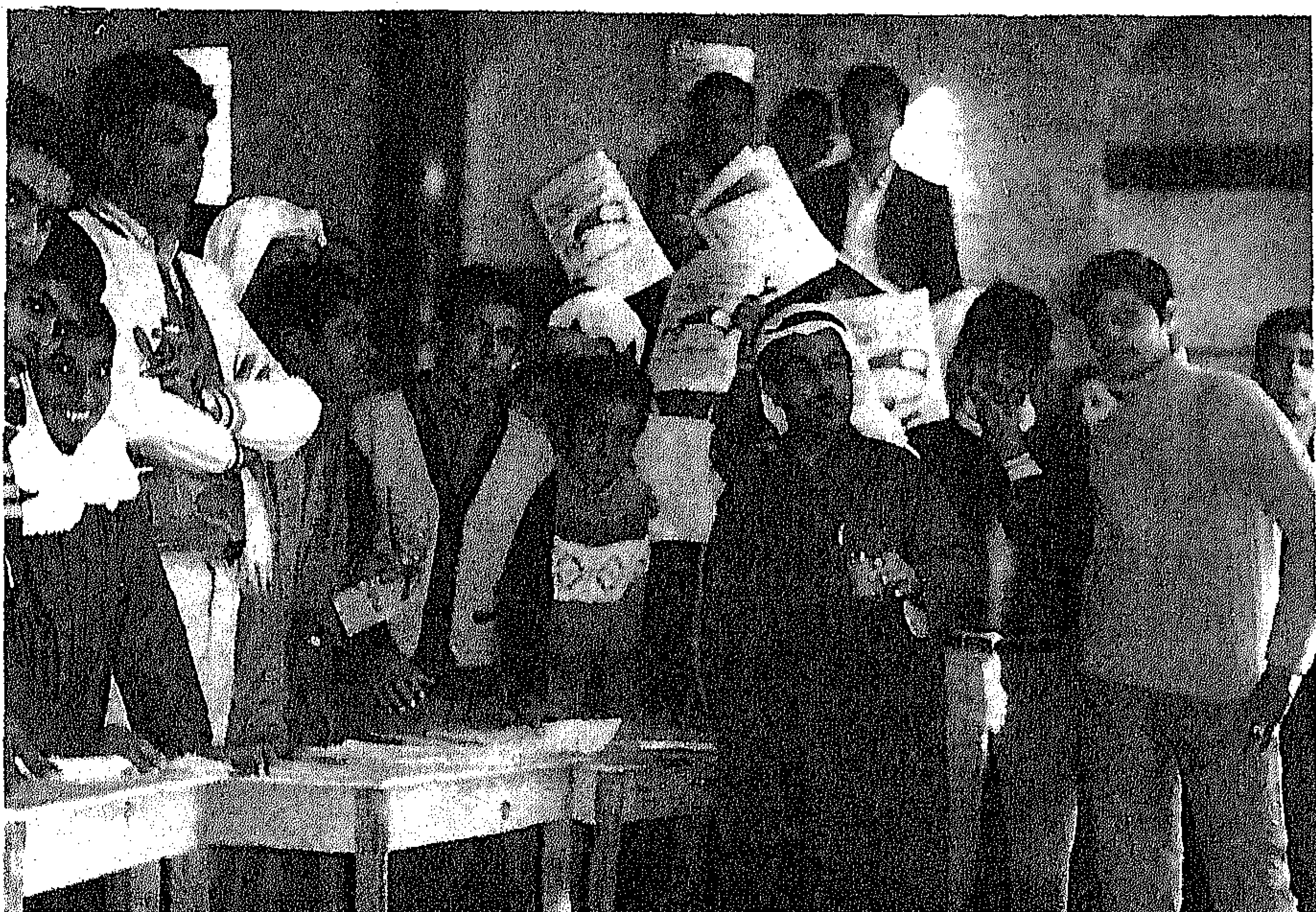


الفنان راشد العريفي





مع الدكتور سامح الرواشدة في أحد الملتقيات



(٣٢)

❖ «مبروك جالك ولد».. نعم ها هو ابني «ساسان» قد ولد!

❖ رغم تهاوني الظاهري في قضايا الحياة.. كنت أحلم أن أكون أباً

❖ الأبوة «معاناة» من وجهة نظري.. وهذه هي الأسباب!!

❖ مرت البحرين في الثمانينات بطفرة عقارية غير مسبوقة.. ارتفعت أجور المساكن وزاد الاستغلال

❖ الإنسان في أقسى الظروف وأشدها ضيقاً يجيد صناعة التكاثر

❖ كانت مسألة أن يولد ابني الأول في مسقط رأسي مسألة ملحة لم أقاومها

❖ الاستمرار الزماني في ذات المكان يشكل مسألة نفسية أساسية في إحساس الإنسان بوجوده

❖ نعاني في تاريخنا من انقطاعات حضارية حادة فنبدو وكأننا نحن الإنسان الأول

❖ يوم ولادة ابني.. تذكرتني ممرضات المستشفى الإيطالي حين كنت طفلاً أحمل البيض والحليب من قريتنا لأبيعه عليهن!!

❖ تلك هي قصة نشر كتابي الأول (رؤية في الظل) مع علي سيار وطارق المؤيد رحمه الله...

في بدايات الثمانينات كانت هناك مستجدات حقيقية في حياتي ،

وتشعبت اهتماماتي ، وتكاثرت مسؤولياتي ، وتراكبت واجباتي ، وصارت الحياة تشكل ضغطاً علي بل ضغوطاً ، وأصبح للمكان دلالات وللزمان دلالات ، وأصبحت موزعاً بين هذا وذاك ، فعلى الصعيد الاجتماعي أصبحت متزوجاً ، ولدي رفيقة درب وشريكة حياة . . وهذا يعني أننا أصبحنا شركاء حتى في اتخاذ القرارات فيما يخص حياتنا . . وكنت بحاجة إلى أن أقرّب وجهات النظر بيني وبين رفيقة الدرب . . وإن التفاهم بين اثنين سيما في حياة زوجية ، يتطلب سعة أفق ، وروحاً متسامحة ، وقدرة على التنازل بين فترة وأخرى ، والالتزام بروح من المحبة والمودة مهما تباعدت وجهات النظر .

كنا نسكن في البسيتين إبان سنة زواجنا الأولى ، وكانت البحرين تمر بطفرة غير مسبوقة ، وارتفعت أجور المساكن ، وأصبح المستأجرون عرضة لمضايقات يومية من أصحاب العقارات الذين طالبوا بمضاعفة الإيجارات . . وصرت أتلقى كل أسبوع رسالة من المالك يطالبني فيها بالرحيل ، ويبدى المبررات المختلفة . . كنت أحاول أن أكون سلساً في هذا الموضوع ، وأخذت أبحث عن سكن بديل . . فقد ظهرت نتيجة للغلاء ، ظاهرة استغلال المرحلة ، فأخذ كثيرون يجهزون على عجل جزءاً من بيوتهم ، أو حجرة ومطبخاً وحماماً في صالة واحدة أو . . أو . . أو . . وكانت المأساة حين تدخل لتستأجر وتجد أنك في مكان ليس له من المواصفات اللائقة شيئاً . . وللحقيقة كانت أياماً عجافاً . . وضاقت بنا الأمور . . فلا الراتب يمكن أن يسمح باقتطاع كبير ، ولا البيوت متاحة بسعر معقول . .

وفي ذات الوقت ، فقد كنا ضد طبيعة الأشياء . . إن الطيور لا تتكاثر إلا إذا كانت مستقرة . . وحتى الحيوانات المتوحشة ، لا تتكاثر إذا كانت سجينة الأقفاص . . عكس طبيعتها – إنما الإنسان في أقسى الظروف وأشدها ضيقاً يجيد صناعة التكاثر . . والتعلق بالحياة والمستقبل مهما كانت الصورة قاتمة» . .

«في عام ١٩٨٠ وبعد زواجي بعشرة أشهر . . من الله علينا بمولود طالما

انتظرناه . . وأنا بالذات كنت أحلم به ، ورغم تهاوني الظاهري في قضايا الحياة – كنت أحلم أن أكون أباً . . وللأبوة دلالات كثيرة بحسب الزمان والمكان ، والعمر ، والطموح والأحلام ، ورؤى الآتي ، ورؤى الماضي» .

ولقد جن جنوني حين صرت أباً للمرة الأولى . . وربما أن السبب هو أنني كنت على مشارف الأربعين ، وكدت أيأس من تحقق هذا الحلم البهيج . . كنت بحاجة إلى أن أتعلق بالمستقبل بشيء ما . . لأنني مللت تكريس حياتي للواقع الذي أنا فيه فحسب . . الحياة ينبغي أن تمتد . . وينبغي أن يكون للإنسان ارتباط ما بالآتي حتى ولو كان مجرد حلم ، وزادني تعلقاً بالأبوة أن والدي قد توفي بعد زواجي بشهور قليلة . وكان ابني مشروع إنجاب قادم . . ولم يكتب لوالدي وابني أن يلتقيا . . فقد كنت معلقاً بينهما . . ثم انقطعت العروة التي تربطني بالماضي بوفاة الوالد ، وأصبحت معلقاً بعروة قادمة ، متوقعة . . هي ذلك الحلم الابن الذي صار وعداً قادماً . . ولو أن الإنسان انقطعت به عرى الترابط لأصبح في مأزق شديد» .

لا أدري لماذا حرصت أن يولد ابني في ذات المدينة التي أنتمي إليها . . مدينة الكرك . . حيث أقاربي وأقارب زوجتي . . وحيث والدتي . . وإخواني . . وذهبت في إجازة الصيف عام ١٩٨٠ إلى الكرك – الأردن . وقد غامرت بأن تسافر زوجتي في شهورها الأخيرة بالطائرة رغم تحذير الطبيب . . كانت مسألة أن يولد ابني الأول في مسقط رأسي مسألة ملحة ولا أقاومها أو أقاوم ضغطها . . لست أدري آنذاك لماذا حرصت كل الحرص هذا . . لكنني الآن وبعد مرور هذه السنوات أستطيع أن أفسر ذلك . .

الإنسان مسكون بأحاسيس الاستمرار ، والاستمرار يكتب بعده الفعلي إذا كان في ذات المكان ، فالاستمرار الزماني في ذات المكان يشكل مسألة نفسية أساسية في إحساس الإنسان بوجوده . . ولذا كنت مشغولاً بهاجس أن يكون ميلاد ابني الأول في ذات المنطقة والمدينة والمكان الذي ولدت أنا فيه ، والذي

مات والدي فيه ، سلسلة الاستمرار ضرورية جداً . . ها نحن في مؤاب . . في الكرك . . بانتظار هذا الحدث الذي ربما لم يكن يهم أحداً غيري ، لكنني كنت في غاية الاهتمام به . . ولست معنياً باهتمام آخرين . . المهم أن أكون منسجماً مع تطلعاتي لهذه السيرورة المعقدة في وجود الإنسان . . الزمان والمكان والإنسان . . هذا الثالوث الخطير في الوجود كله . .

وفي ذات ليلة من أغسطس (آب) ١٩٨٠ كنا في المستشفى الإيطالي في الكرك ، وهذا المستشفى قديم جداً أذكره في طفولتي . . وهو أول مستشفى في هذه المحافظة العريقة . . إننا حين نقرأ في الكتب عن مملكة مؤاب وميشع الملك ، والملايين التي كانت في المنطقة هذه ، وهي الكرك عاصمة صلاح الدين والظاهر بيبرس . . وعاصمة المؤابيين . . وعاصمة نصف الشرق الأوسط . . وهاهي ليس فيها إلا مستشفى في أوائل القرن العشرين . . إننا في تاريخنا نعاني من انقطاعات حضارية حادة ، وأحياناً نجد أن عدة قرون من حياتنا ، لم تكن شيئاً مذكوراً ، أين ذهبت تلك الحضارات وأين اندثرت تلك المدن ، وأين صارت تواريخ العلماء . . بعد تلك الحضارة كنا نبدو وكأننا نحن الإنسان الأول . .

لا أستطيع أن أغفل عن قريتي وذكرياتي فيها حينما يكون للحديث صلة بها ، فتاريخها الضارب في القدم وتراثها العريق آسر بالنسبة إليي ، دخلت إلى المستشفى الطلياني مع زوجتي . . هذا المستشفى بمرضاته الإيطاليات ممن وهبن أنفسهن لهذه الخدمة الإنسانية ، وبملابسهن البيضاء وهي ملابس مميزة ، وكنا نراهن ونحن أطفال يقطعن المسافة بين المستشفى الإيطالي الواقع في غرب مدينة الكرك بجانب برج الظاهر بيبرس ، ومقبرة النبي نوح التي هي العنوان الأخير لكل الوجهاء والمعروفين من مدينة الكرك وهن ذاهبات إلى الكنيسة صباح الآحاد . . ومن المستشفى الايطالي يطل المرء على وادي الكرك ، والبحر الميت وسفوح فلسطين الشرقية ، وتبدو أضواء القدس والخليل .

وقد فوجئت أن بعض ممرضات هذا المستشفى قد عرفنني ، وتذكرنني يوم

أن كنت طفلاً ، أحمل البيض والحليب إلى هذا المستشفى من قريتنا لأبيع بثمن أعلى من السوق قليلاً . وقد عرفت بعض الممرضات اللاتي يظهر أنهن قضين في هذا المستشفى بضعة عقود من السنين .

إنها لحظات طالما انتظرتها . . وطالما تخيلتها . . نعم . . وما هي إلا ساعات . . حتى سمعت الكلمة التي كنت أرجو أن أسمعها . . وهي التي تتكرر في الأفلام وفي الدراما العربية : «مبروك جالك ولد» . . بالنسبة لي المسألة تختلف فهذا أمر طالما حلمت به وانتظرته وتوقعته . . فكانت لحظة . . غاية في الدلالات . . نعم ها هو ابني «ساسان» قد ولد!

الأبوة مسؤولية لا يقدرها إلا الذين عانوا منها ، وغالباً بعد أن يكبر الأبناء ، ويكتشف الآباء معنى الأبوة ، كيف تعاملوا معها وكيف مارسوها . .

أرى أن الأبوة كذلك لأنها تنطوي على القدوة ، فالأب هو المرجع الأول للأبناء ، وهو النموذج وهو المثل الأعلى ، ولذا فهو يواجه مسؤولية أن يكون سوياً ، وأن يراقب نفسه في كل ما يقول وما يفعل ، وأن يفي للقيم التي يود أن ينشئ ابنه فيها وعليها ، والأبوة مسؤولية ، فالأبناء يظنون أن الآباء قادرون على كل شيء ، فهم لا يتفهمون معنى ضيق ذات اليد ، ولا يتفهمون معنى أن لمقدرة الآباء حدوداً ، والأبناء لا يقدرون ولا يتساهلون فيما يرونه حقاً لهم .

وإنني أحسست بأن الأبوة مسؤولية لا يعدلها مسؤولية فهي فن التعامل مع أحب الناس إليك ، أبنائك ، وهي فن مراقبة الإنسان ينمو يومياً ، وهي فن الاستجابة لمتطلبات الحياة من خلال الأبناء . . وأخطر ما في مسؤولية الأبوة هو أن الآباء يتصرفون في متابعة الأبناء وينسون أنفسهم ، وهم أي الأب والأم يقيمان شراكة بل شركة يظنانها مقفلة ، وهي شركة مساهمة مفتوحة لكل العوامل ، فالأبناء عرضة للمؤثرات الصحية والنفسية ، والاجتماعية والعلمية ، وتحصينهم ضد مفردات الحياة المؤلمة مسألة غاية في التعقيد ، وأن الآباء والأمهات وهم يركزون على أبنائهم ينسون أنفسهم ، ويكتشفون في وقت لاحق

أنهم قد كبروا ، وأن الزمن لم يمر بهم مروراً عابراً ، فها هو يترك على وجوههم لمساته التي لا تخفى على راءٍ ولا تغيب عن بالٍ أبداً . .

فلقد كنت كتبت مقالاتٍ كثيرة في صحف البحرين وغير البحرين وأغرتني الكتابة بحقل من حقول النقد هو حقل السرديات وصرت أكتب في الروايات وفي القصة القصيرة ، وفي قصص الأطفال .

لقد دخلت في عوالم الرواية ، ودخلت في عوالم كتّاب من البحرين والخليج ، والوطن العربي ، وكتبت أول ما كتبت عن رواية شاهندة التي كتبها راشد عبدالله ، وزير خارجية الإمارات فيما أحسب ، كتبها في ستينيات القرن الماضي أو قبل ذلك ، ولم أعثر على كتابة عنها إذ ذاك فيما أظن . . وإنني بهذه المناسبة أذكر أن إمارة عجمان ، في الإمارات العربية المتحدة قد أقامت دائرة الثقافة فيها قبل ثلاثة شهور ملتقى للرواية الخليجية تحت عنوان «شاهندة» ولقد استغربت أن هذا الملتقى وضعت له محاور للدراسة هي مأخوذة حرفياً من كتابي : (جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية) . . هكذا أظن . . وإن أي مراجعة للمحاور ستبرهن أن هذا الكتاب كان مرجعها الوحيد ، ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت إنني أقول هذا القول ، حتى أبرر لنفسي حق أن أدعى لأقول شيئاً في هذه العناوين التي وضعت فيها كتاباً . . أقول لعلي ، فيما التفت إليه ، أكون مخطئاً . . وهنا أذكر أن رواية شاهندة قدمها لي أحد تلاميذي النابهين ، وهو يوسف النجدي ، وذلك في ستينات القرن الماضي ، ولقد عاد يسألني عنها ، وإنني لا أدري أين يقع هذا الكتاب الآن!!

أعاود الحديث عن شاهندة لراشد عبد الله النعيمي . . وعن الكتاب الآخرين الذين عرضت لأعمالهم أمثال عبدالله خليفة وكلثم جبر وعبدالعزيز المشري ومحمد علوان ، وعلي سيار ، وخليل الفزيع وإسماعيل فهد إسماعيل ، وأمين صالح ، وسليمان الشطي وخلف أحمد خلف ، وسليمان الخليفي ، وعبدالقادر عقيل ومحمد الماجد ، ومنيرة الفاضل .

«كما أنني ولجت إلى عوالم نجيب محفوظ وحنا مينة وعبدالرحمن الربيعي ، وعبدالرحمن منيف ، وفؤاد قسوس وفخري قعوار والطيب صالح .

«وقد تطلعت إلى أن أجمع هذه المقالات في كتاب واحد ، وإنني أحسب أن حفظها سيكون مفيداً للجانب التاريخي فيها على الأقل . . كعادة الحالمين في النشر ، فبحثت عمن يطبع لي هذا الكتاب . . ولم أوفق ، حتى اهتديت ذات يوم إلى مطبعة الحكومة في البحرين ، وهذه كانت أيضاً ليست مسألة متاحة إلا عن طريق وزير الإعلام ، وكان وزير الإعلام آنذاك المغفور له طارق عبدالرحمن المؤيد ، ولم أكن على علاقة ما بطارق المؤيد ، وكنت حينها أعمل مع علي سيار في «صدى الأسبوع» . . ولعلاقتي مع طارق المؤيد ، وعلاقتي مع علي سيار وقصة نشر كتابي (رؤية في الظل) ، حكاية سأسترسل فيها في قادم الأيام . . فقد كانت تلك العلاقات ، علاقات ثقافية أذكرها وأتلذذ بكثير من المواقف فيها . . وربما لا أبالغ فيما سأكتب . .

حين أقفلت المسيرة . . وبعد فترة ما . . كانت خطواتي الأولى في صحيفة صدى الأسبوع . . وصدى الأسبوع معروفة لدى كل قراء الصحف في البحرين من خلال شهرة علي سيار الذي كان يصدرها أسبوعياً ، وكان علي سيار ذا قلم مميز ومذاق حاد حارق فيما يكتب وكانت صدى الأسبوع في عزها مجلة ذات شأن . . وتقاطعت معها ، ومع علي سيار فترة من الزمان أحسبها من أخصب ما تعلمت في الكتابة الصحفية ، وهذا ما سوف يجيء فيما بعد . . لكنني أذكر هنا أن «صدى الأسبوع» أولتني اهتماماً ، ففي سنة ١٩٧٨ كان في «الصدى» صحافي لامع هو علي المأذون وكان يقدم في صدى الأسبوع مقابلات أسماها «الوجه الآخر» وقد طلب مني أن نكون على موعد في هذا اللقاء ، وهكذا كان ، وأذكر أنه وضع بورتريهاً لي على غلاف «صدى الأسبوع» وكتب بجانبها «ابن عزرا البحريني» يحكي شعراً ، ولقد كانت هذه المقابلة من أجمل المقابلات التي حظيت بها ، وكنت إذ ذاك ما زلت على سجيتي وأتكلم بعفوية بالغة ، فوفقت

في أمور فيها لا أحسب أنني الآن استطيع أن أقول مثلها .

وأذكر من الإضاءات التي وردت في هذه المقابلة الرائعة :

* الموت هو الوسيلة الوحيدة للتجديد . . وفي مسرح صغير كالدنيا لا يمكن أن يتجمع كل الممثلين .

* قريتي تستضيء بالنجوم وتشرب ماء المطر .

* حتى والشمس مشرقة يوجد مكان لشمعة .

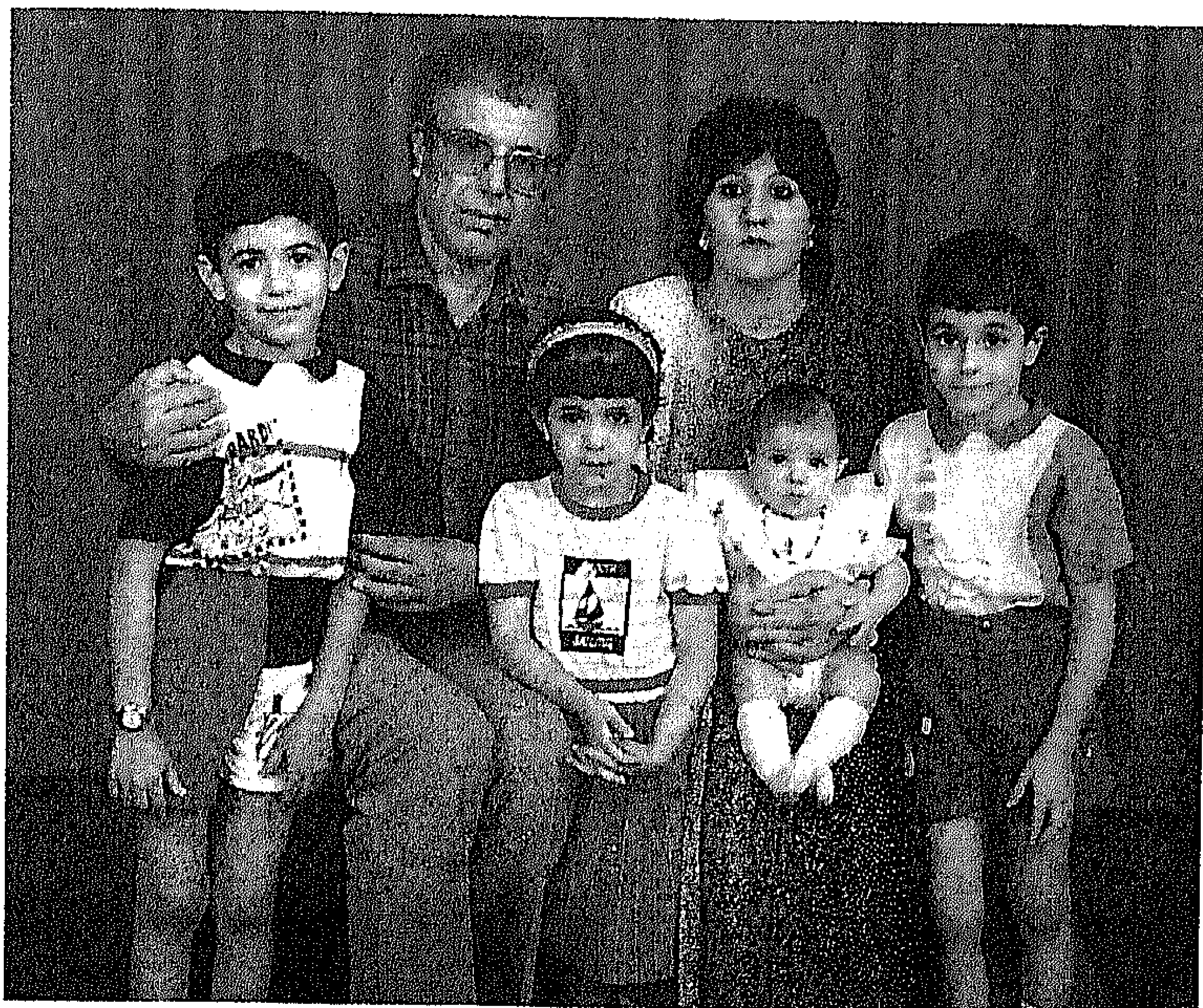
* المرأة قارة دفيئة لا تصلح وطناً .



الدكتورة سناء أنس الوجود تتوسط ابنتيّ سونار وسيمين



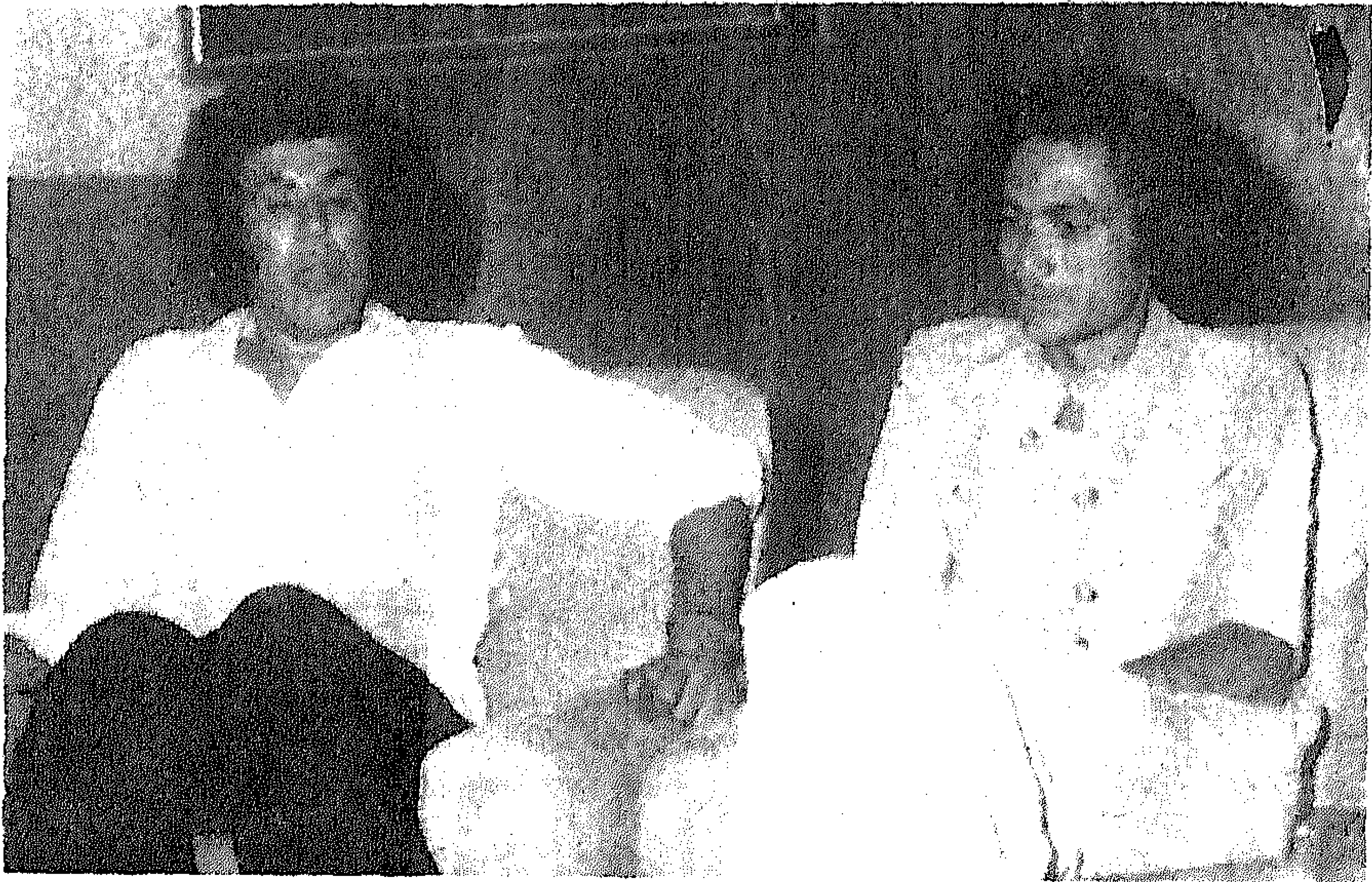
أول ابنائي «ساسان»



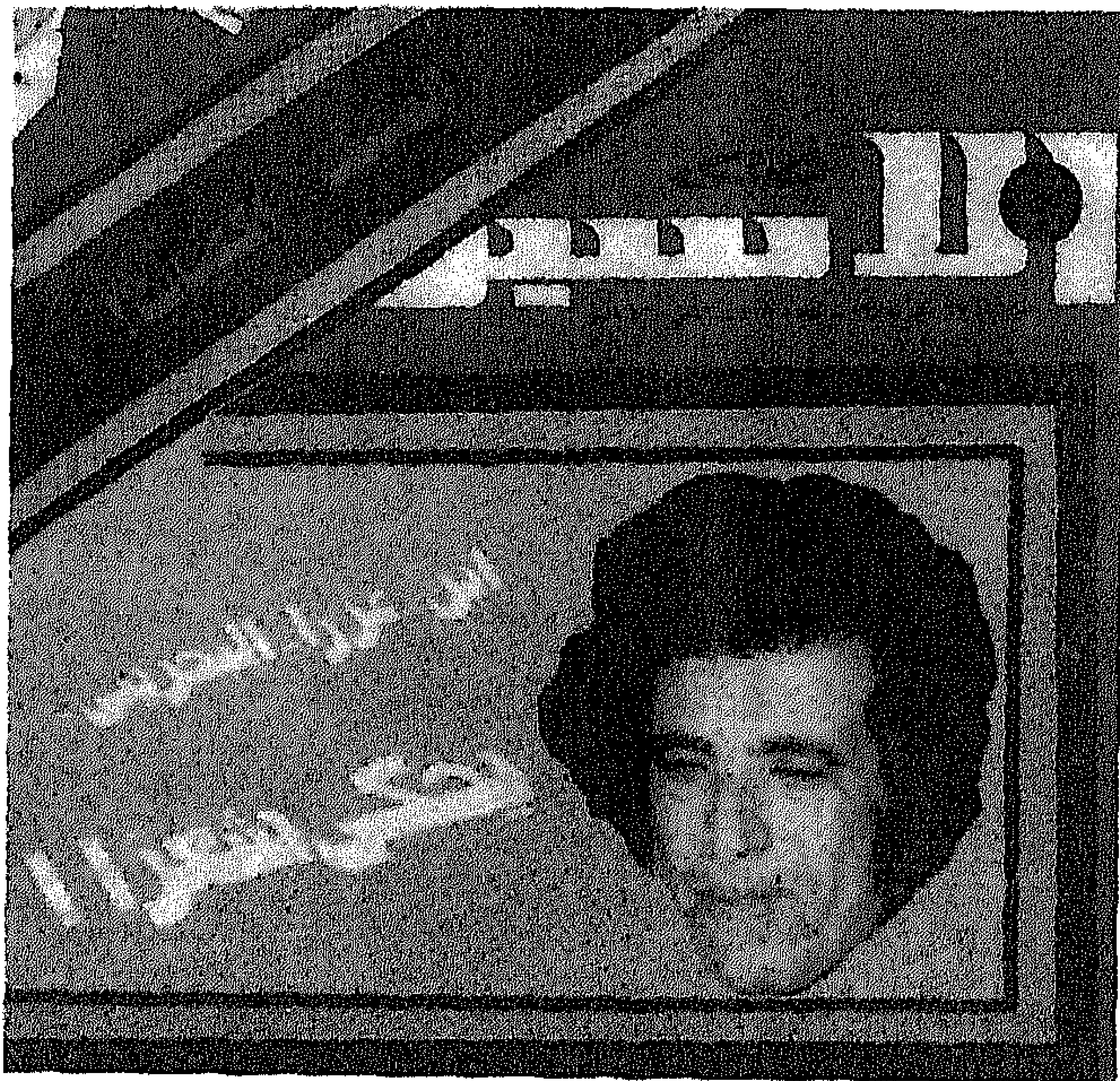
أنا وزوجتي وابنائي ساسان وسيروز وسيمين وسونار



ساسان فيما بعد



علي المأذون وأنا



غلاف صدى الأسبوع

(٣٣)

❖ من الكرك وفيها ولد ابني الأول.. إلى المحرق وفيها ولد الثاني.. وفي القضيبية اكتمل ثالث أضلاع المثلث!!

❖ رحلتي مع علي سيار وحكايا عن مسيرة «صدى الأسبوع»

❖ حملت «صدى الأسبوع» في سنواتها الأولى من علي سيار ملامح كثيرة

❖ كان علي سيار يجيد فن استقطاب المحررين.. وأيضاً فن إنهاء خدماتهم

❖ لو منحها كل اهتمامه ووظف لها طواقم قوية لكانت من أنجح المجلات

❖ تلك هي خطوات علي سيار في التخلص ممن حان وقت الاستغناء عنهم!

❖ كان كنزا من المعلومات.. لكن الحوار معه قاسٍ ومؤذٍ!!

❖ إذا نُسي نزار بهذه السرعة.. فما نصيب البسطاء من التذكر حين يرحلون!!

أؤمن أن في حياة الإنسان مظاهر قدرية ، بعيدة الدلالة ومنسجمة مع بنيته الحياتية وأفكاره ومعتقداته ، وتترابط أحياناً بعض هذه الأحداث رغم صغرها ، ويبقى بينها علاقات خفية . . ومن هذه القدريات . . أن هذه الذكريات موسومة بعنوان من الكرك إلى المحـــرق . . وها هو ابني الأول يولد في الكرك . . ومن العجيب وبمعنى مصادفات تلقائية ولد ابني الثاني في المحرق ، وبذا شكّل مكان

ميلادهما رمزية لم أرتب لها بالضرورة ، صحيح أنني كنت حريصاً على أن يولد أول أبنائي في الكرك في مسقط رأسي ، حيث دفن أبي ، رمزاً لاستمرار الحياة بشكل طبيعي ، وصحيح أنني أحببت المحرق وجعلت منها انتمائي الثاني ، لكنني لم أرتب أن يولد ابني الثاني في المحرق ، وهذا ما كان ، ففي الأول من فبراير ١٩٨٢ ولد ابني «سيروز» وكنت أسكن في البسيتين ، وأتجاوز مقبرة المحرق إلى مستشفى الولادة . . وهي معالم بارزة في المحرق ، الهداية للتعليم ، والمقبرة للمغادرين ، ومستشفى الولادة للقادمين تواً إلى المسرح . وما الحياة إلا هذه الثلاثية .

وأرتحل من المحرق إلى المنامة لأسكن في القضيبية ، وما هو إلا عام حتى اكتملت لدي صورة الحياة ، فأكملت ابنتي دور المرأة في حياتي ، وكتبت يومها :

بنيتي سيمين

في حجم القبضة أنتِ أو أكبر قليلاً لكنك أكملت أضلاع المثلث . . حول ثلاث نساء تتشرنق عواطف أي إنسان ، الأم ، الزوجة ، الابنة . . والآن يا بنيتي أكملت في حياتي الضلع الغائب ، فعرفت الآن كيف يحب الرجل أمه ، وكيف يحب زوجته ، وكيف يحب ابنته . .

ما أعظم الإنسان . . يملك كل هذا الفيض من الحب ، في عيد الأسرة كنت هدية زوجتي إلي . . فماذا تراني أقدم إليكما في عيد الأسرة .

بنيتي . . . لا أملك إلا الحب . . وإني أمنحه بلا حدود .

كانت صدى الأسبوع ما تزال تواصل صدورها ويشرف عليها صاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ علي سيار ، ولقد كانت صدى الأسبوع في أيامها الأول بل سنواتها الأولى مجلة تحمل من علي سيار ملامح كثيرة ، حيث كان يوليها عنايته واهتمامه الخاص وإشرافه . . فعلي سيار صحافي متمرس منذ الخمسينات ، وشارك في إصدار عدد من الصحف كالوطن والقافلة ومر بتجارب

كثيرة ، وكان كعادته وطبيعته حاد اللسان ، شخصيته ذات طابع صدامي ويحب أن يستثير الغبار حيثما حل وحيثما كتب . . وتجربة صدى الأسبوع تمتاز بأنها المدرسة التي تخرج منها كل الصحافيين في البحرين ، فما من صحافي له اسم الآن في الصحافة إلا وقد تقاطع ذات يوم مع صدى الأسبوع كعقيل سوار وعلي صالح وعصمت الموسوي ، وإبراهيم بشمي ، وقائمة تطول من المشتغلين في الصحافة . . وكان كثيرون لا يعمرون طويلا في صدى الأسبوع ، فعلي سيار يجيد فن استقطابهم ، وفي ذات الوقت يجيد فن إنهائهم ، وله أساليب معروفة في الاستقطاب وفي الإنهاء ، وكان في العادة يعتمد على صحافي بارز يستقدمه من أحد الأقطار العربية ، وتنهض المجلة الأسبوعية على جهد هذا الصحافي ، ويطعم صدى الأسبوع بجهود محلية من الذين يتوسم فيهم المقدرة الصحافية ، ولما انتهت «المسيرة» كنت معروفاً لدى علي سيار حيث كتبت مرات كثيرة في صدى الأسبوع ، كما كنت أكتب في الصحف الأخرى ، وذات يوم اتصل بي وذهبت لمقابلته ، وقال أريد أن تعمل معنا في صدى الأسبوع وأن تحرر لدينا الصفحة الثقافية أو الركن الثقافي ، ولأنني كنت أعرف أبا وائل ، وأعرف شيئا عن مزاجه المتقلب وحدة شخصيته ، فقد ترددت ولكن حزمت أمري وقلت بيني وبين نفسي : «تجربة مع علي سيار تثري ، وسأتعلم منها الكثير ، فهو الصحافي المتمرس واللامع ، كما أنه مدرسة في الصحافة الحديثة» . . وكان ذلك في سنة ١٩٨٢ أو ١٩٨٣, . واستقبلني مرة أخرى للتوجيه وتحديد خصائص العمل وتحديد المكافأة ، وقد قدر لي مكافأة شهرية ١٢٠ ديناراً ، على أربعة أو خمسة أعداد في الشهر ، وبدأت العمل مع علي سيار وتعرفت أثناء ذلك على عقيل سوار وعلي صالح وعصمت الموسوي وأحمد الساعاتي ، وصحافيين من مصر منهم عاصم رشوان ، وكنت أعرف قبل ذلك علي المأذون وكمال الذيب ، وكثيرين ممن عملوا في صدى الأسبوع أو كانوا يترددون عليها بحكم صداقتهم مع علي سيار حيث تعرفت على الدكتور محمد

عبد الغفار وزير الإعلام الأسبق والمحامي سعيد العليمي وكثيرين من رجال المجتمع البحريني .

كنت ألاحظ اهتمام علي سيار بتجميع أعداد المجلات والصحف السابقة التي صدرت في خمسينات القرن السابق ، وكانت له قدرة على الأرشفة ، وللحقيقة فإن صدى الأسبوع كان يمكن أن تكون من أنجح المجلات وأكثرها انتشارا لو أنه كان يوليها كل اهتمامه ويوظف لها طواقم قوية وفاعلة ، فقد كان يصرف عليها فيما يظهر بقدر دخلها ، ولم أكن أظن أنها كانت تشكل له مصدرا ربحياً ، لأنه كان قد انشغل عنها بتجارته في مؤسسة سيار المعروفة . .

استمر عملي مع علي سيار ربما سنتين تزيد أو تنقص ، وحينما بدأت تظهر عليه بعد ذلك الأعراض التي عادة ما تظهر حينما يريد أن يتخلص من احد العاملين معه ، فلديه آليه كنا نعرفها وكل الذين عملوا مع علي سيار كانوا يعرفونها ، فبمجرد أن تعمل هذه الآلية يتم إدراك المعني بها أن الطلاق أصبح وشيكاً ، وكنت أتوقع منه في أي لحظة أن يبدأ هذه السلسة من الإرهاصات التي تمهد للاستغناء . . فأولها استدعاني ذات يوم وقال لي : «إننا نعاني من أزمة في تمويل المجلة» ، فأدركت فوراً أننا اقتربنا من اللحظة الحرجة ، لكنني لم أكن مهتماً حقيقة للاستمرار أو عدمه ، فهي هواية أمارسها ، ولو لم أكتسب منها سوى معرفة الناس لكان هذا كافياً ، ولو كان علي سيار يدرك أن هذا الجانب يشكل لي مكسباً أعتز به لاكتفى بأن تكون هي مكافأتي . . ثم واصل الحديث وقال : «لقد قررت أن أجري تعديلات على المكافآت ، وإني بدأت بنفسي فأنا الآن أكتفي بمكافأة ٥٠٪ وأستغني عن الـ ٥٠٪ الأخرى» . . بدا لي المنطق مضحكا والمدخل أيضاً مضحكاً ، وليست المسألة سذاجة في علي سيار وإنما هي مبالغة في الاستخفاف بالآخرين! . . فتظاهرت بأنني لم أفهم وقلت له : «ماذا تقصد»؟ ، فقال لي : «أنت مكافآتك ١٢٠ دينارا ، ومن هنا سنكتفي بأربعين»! وبحسبة بسيطة نجد الأربعين بالنسبة لـ ١٢٠ ليست ٥٠٪ ، فقلت :

«لا بأس . . اللي تشوفه يا أبا وائل» ، لكنني كنت قد حزمت أمري على الرحيل . . ومن العجب أنه ما من أحد رحل عن علي سيار إلا بعد أن يفتعل معه «طوشه» إما أن يفتعلها علي سيار أو أن يفتعلها الصحافي الذي سقطت ورقته وحان أجله ، فقلت (ماشي الحال) لكنني كنت أنتهز الفرصة لأنسحب فلما استبطأ انسحابي ، وهذا ما يفعله عادة مع الصحافيين الذين يحب أن ينهيهم حيث كان يكتب رسالة باسم قارئ ، ويرسلها إلى المجلة يهاجم فيها كتابات الصحافي المعني ، وبعد أن ينشرها يستدعي الصحافي المعني ويقول له : «شوف ، الناس بدأوا يكتبون عنك ، أداؤك مو زين» . . وبحكم علاقتي مع المجلة كنت أرى الرسائل التي ترد للمجلة بخطه ، وخطه لا يُخطأ ، وخاصة بطريقة شطبه للجمل . وذات يوم دخلت عليه وقد كان بادي الاستعداد متوقعاً أن أكون محتجا أو غاضبا وهذا أمر لا يجيء مني لأنني باستمرار أمارس فن الرضا في هذه الحياة ، جلست معه وقلت له : «يا أبا وائل ، سعدت بعملي معك أي سعادة ، واستفدت منك أيما فائدة» ، (ولم أكن أجامل فقد كان بالفعل مدرسة في الصحافة وذا لغة مميزة في الكتابة) ، وواصلت قولي له : «والآن أعتقد أنني اكتفيت من العمل مع صدى الأسبوع وهذا شرف لي نلته وأرجو أن تسمح لي بأن أعتذر عن عدم المواصلة لظروف تخصني» . . وللحقيقة تفاجأ أبو وائل فلم يكن أحد من الذين انتهت رحلتهم معه تنتهي بهذه السلاسة وبهذه النعومة ، فلا بد من الصراخ والسباب والشتائم وصفق الأبواب وما إلى ذلك ، فقال : «والله أنا أحب أن تستمر معنا ، وأشكرك ، والأمر متروك لك» . . وخرجت من صدى الأسبوع وأنا راض كل الرضا عن الأشهر التي قضيتها هناك ، وللحقيقة قدمت في صدى الأسبوع مقالات ومقابلات وإنجازات لا أظن أنها ليست ذات أهمية . .

ومرت بضعة شهور ويتصل بي علي سيار مرة أخرى ، وذهبت إليه ، فقال لي : «أريد منك عملا منفرداً . . هنالك رجل أحب أن تجري معه مقابلة لصدى

الأسبوع ، ولم أجد أفضل منك يجري معه هذه المقابلة . . هل تفعل»؟ قلت : «أفعل ، من هو»؟

قال : «حسن المنصوري من المحرق ، هذا الرجل كان معي ونحن في القاهرة في الأربعينات ، وقد التحق بالجيش الأمريكي فيما بعد فترة طويلة من الزمن ، وها هو عاد الآن إلى البحرين ، أريد أن تجري معه مقابلة عن هذه الرحلة لصدى الأسبوع .

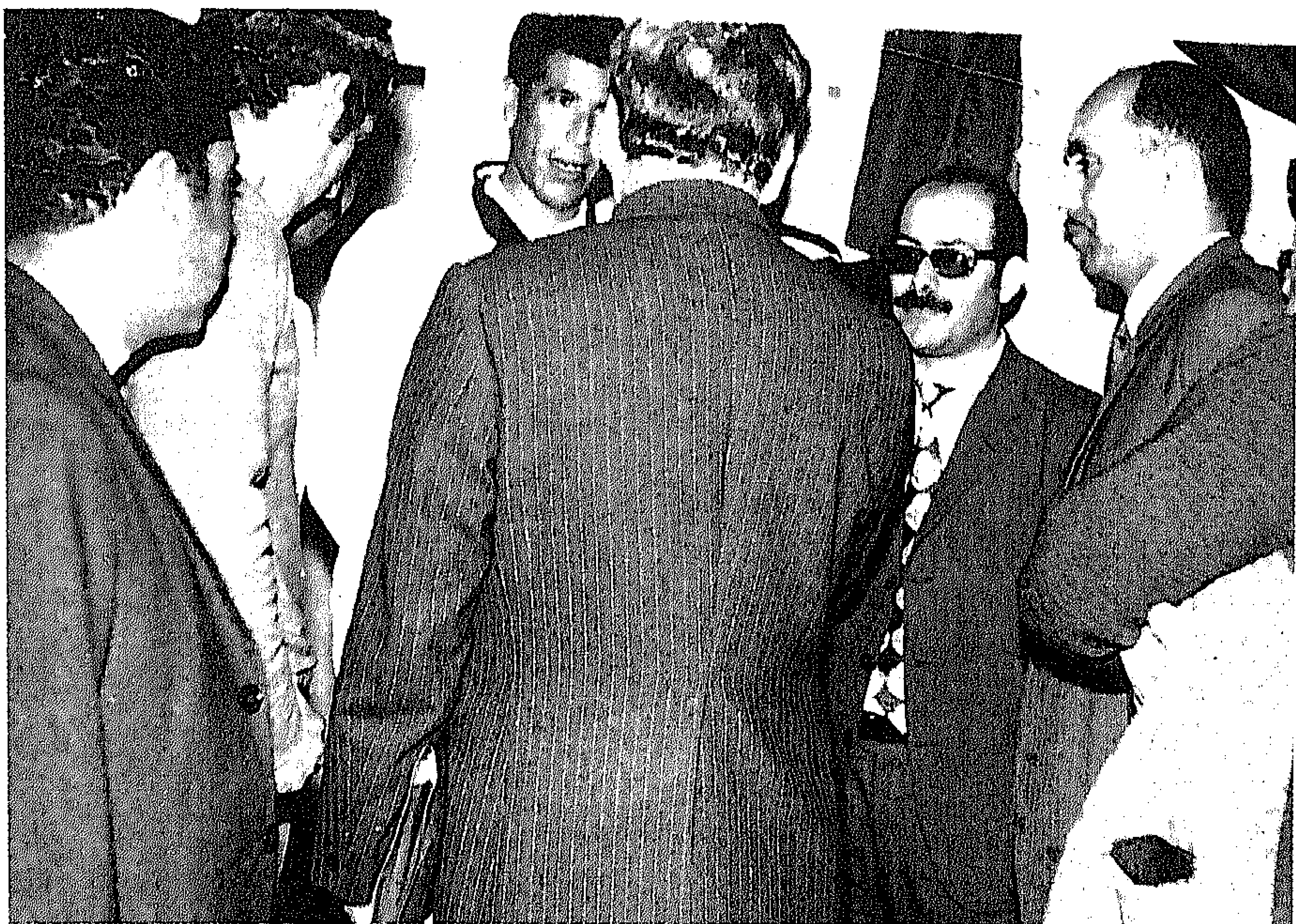
فوافقت وأجريت المقابلة ، وكانت مقابلة ثرية ، أعتقد أنها نشرت على حلقتين في عددين متتاليين ، وما تزال هذه المقابلة من ألطف هذه المقابلات التي أجريتها وسلمتها لعلي سيار وغبت عنه فترة طويلة ليتصل بي بعد شهور ، وقال لي : «لك عندنا مكافأة ، ألا تريد أن تأخذها»؟ ، فقلت : «لم لا»! . . ومررت ووجدته قد ترك لي مكافأة رمزية على هذه المقابلة . واستمرت علاقتنا بعد ذلك حميمة لا تشوبها أية شائبة . إلى أن عملت في البحرين الثقافية وبدأت سلسلة من المقابلات ومنها مقابلة مع علي سيار ، ولقد التقيت به مرات كثيرة ، وكان كنزا من المعلومات ، لكن الحوار معه قاسٍ ومؤذٍ ، فهو يغير جملاً ، ويغير من الزوايا التي يعالج بها الموضوعات ، وكلما قرأ المقابلة قرر أن يضيف إليها ، وأحيانا يستطرد داخل المقابلة ، وشكوت إليه ذات مرة منه ، ومع ذلك أنجزت مقابلة كانت عامرة بالمعلومات ومليئة بذكريات المجتمع البحريني فترة من الزمان ، خاصة أن علي سيار يملك أن يقول كثيرا ، ويذكر كثيراً ، وله تجربة خصيبة» .

الآن أنا وهو أصدقاء ، واستمرت صداقتنا وحضرت يوم تكريمه في مركز الشيخ إبراهيم وكذلك في مسرح الجزيرة ، وللحقيقة كان علي سيار رجلا متمكنا في لغته الصحافية ، يملك حساسية الصحافي ويملك القدرة على استخدام الأساليب الصحافية ويستطيع وبنعومة أن يقول كل ما يريد أن يقول ، وله شخصية لا تخلو من عنف أحياناً تثير الإشكالات أحياناً أخرى ، وللحقيقة

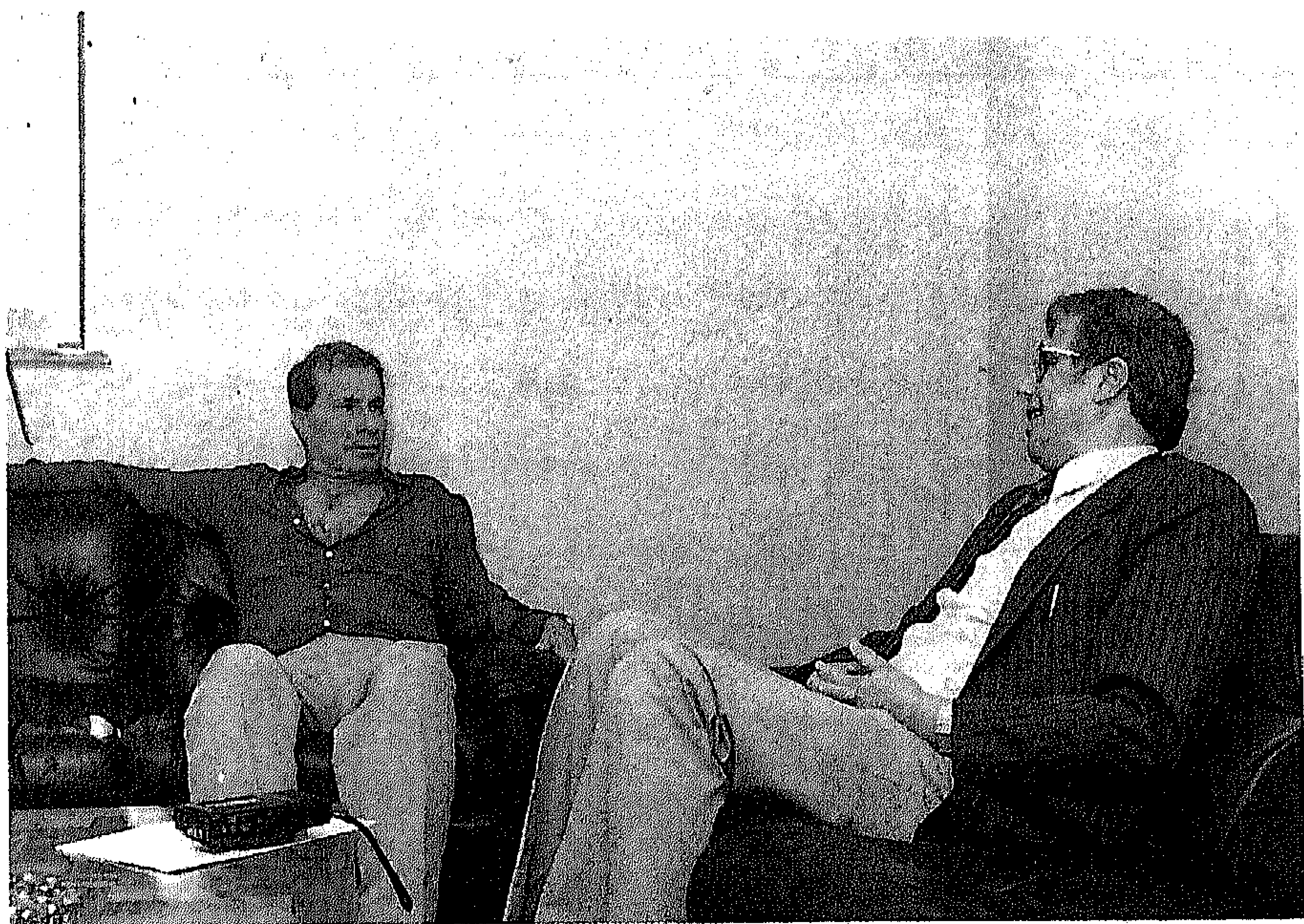
هو واحد من رجالات البحرين في هذه الفترة ما بعد منتصف القرن العشرين» .

للأسف أن صدى الأسبوع كانت عرضة لتوقفات وعرضة لاهتزازات في المستوى ، إلى أن آل مصيرها أن أصبحت جزءا من مؤسسة الأيام ، وإنني كنت أعرف دائما بأن علي سيار كان طامحاً أن تكون لديه مؤسسة صحافية كبيرة ، لكن لم ينجز هذا الأمر ، ولأن صدى الأسبوع كانت جهدا فرديا وليس جهدا مؤسسيا ، فهي مرتبطة بمزاج صاحبها وصحته وإمكانياته المادية ، وتحت هذه الظروف لا تعيش صحيفة ، مما اضطره إلى بيعها إلى مؤسسة الأيام حيث لم يبق من صدى الأسبوع إلا اسمها واسم مؤسسها على الغلاف بتاريخ التأسيس .

تحضرني بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل نزار قباني ، زيارته إلى البحرين ، وقد لقي من الحفاوة ما يستحقه كشاعر ارتبط اسمه بالقرن العشرين ، وبالتحولات العربية اجتماعياً وسياسياً وها هو تمر ذكراه ويكاد يكون الناس قد نسوه . . فإذا نسي نزار بهذه السرعة ، فما نصيب البسطاء من التذكر حين يرحلون!



مع نزار قباني في البحرين



المحادين مع حسن المنصوري



الحادين مع علي سيار



سيروز ابني الثاني



المحادين مع إبراهيم العريض في الهداية الخليفية

(٣٤)

❖ «بانوراما» إبراهيم بشمي.. مرحلة ثرية من مراحلي في العمل الصحافي

❖ انتقلت إلى بانوراما حين أنهيت شهور العدة بعد طلاقي من «صدى الأسبوع»

❖ دخلت الملتقى الثقافي في المجلة بعد قاسم حداد وأمين صالح

❖ دخلت مع العدد ٦ وخرجت من العدد ٩٢.. نشرت فيها عشرات المقابلات وكتبت أجمل الموضوعات

❖ أوقعني إبراهيم بشمي في ورطة دون قصد.. مع مذكرات تلميذ خائب!!

❖ كيف انحشر المتنبي في داعوس كبير ليكون هذا نصيبه من الأرض!!.. هكذا علقت على شارع المتنبي!!

❖ وافق طارق المؤيد على وجودي في هيئة تحرير «البحرين الثقافية» رغم أنني لم أكن بحرينياً.. وهذه هي الأسباب.....

❖ «شاب يحمل بين جوانحه معاناة جيل كامل».. هكذا وصفني الشيراوي في الأضواء

ما كدت أنهي شهور العدة الصحافية بعد الطلاق بيني وبين صدى الأسبوع ، حتى عاودت الرغبة في الكتابة وانتظرت أن يجيئني خاطب من

صحيفة أخرى . . وكانت بانوراما!

كانت بانوراما قد بدأت في الصدور وهي مجلة مختلفة من حيث شكلها وطباعتها وتاريخ صدورها ومضمونها ، فهي اجتماعية بالدرجة الأولى وشهرية وملونة ، وصاحبها إبراهيم بشمي وأفرد فيها صفحات لما أسماه الملتقى الثقافي ، وأسند الإشراف على هذا الملتقى إلى قاسم حداد وأمين صالح . . ولم يستمرا فترة طويلة حتى تركا هذا الإشراف وبدأ البشمي يبحث عن من يسند إليه تحرير الملتقى الثقافي ، وكنت ألتقي بإبراهيم البشمي في جاليري راشد العريفي ، الذي كان في شارع المتنبي بالقضيبية .

وعلى ذكر شارع المتنبي فدائماً كنت أتساءل بيني وبين نفسي «هذا المتنبي الذي كانت الكرة الأرضية تضيق به ، كيف انحشر في داعوس كبير ليكون هذا نصيبه من الأرض!!

والتقيت بشمي ذات مساء عند راشد العريفي فعرض علي العمل معه في بانوراما ، وكنت للتو قد تركت صدى الأسبوع فقلت له مازحاً «أنا ألحين في العدة!! وحتى أبرؤ من علي سيار (ضاحكاً) سأفكر حينها ، وبعد ذلك سأفكر في الأسرة الجديدة» . وبعد فترة التحقت ببانوراما التي كان موقعها في شارع المعارض ، واشتغلت فيها أحرر الملتقى الثقافي ، ولعل بانوراما هي التي قضيت فيها أطول مدة ممكنة . . لقد عملت فيها سبع سنوات . . دخلت مع العدد ٦ وخرجت من العدد ٩٢ ، ولأنها شهرية فقد كانت لدي فرصة لأشبع الصفحات المخصصة للثقافة ، ولقد نشرت فيها عشرات المقابلات وكتبت فيها أجمل الموضوعات ، لاسيما إنها ملونة وإنني اعتبر السنوات التي غطيت فيها الملتقى الثقافي من أخصب وأجمل ما عملت في الصحافة ، وبقيت مستمراً وكان البشمي إنساناً متفهماً والعمل معه عمل مريح ويخلو من المنغصات فلم يكن يتدخل ، لا من قريب ولا من بعيد .

كنت أشبع رغبتي في الصحافة والكتابة التي أعتبرها لوثة إذا اعتاد عليها

الإنسان تصبح إدماناً ، واستمر بي العمل في بانورما إلى أن اتبعها إبراهيم للأيام ، وإن كانت في أيامها الأولى محافظة على شخصيتها وكان يشرف عليها مباشرة ثم أسند تحريرها إلى صحافيين آخرين ، وإنني هنا أذكر أن أجمل فتراتها حين كانت رئيسة تحريرها عصمت الموسوي ، ثم بعد ذلك أخذت أكتب فيها ووجدت أن كثيراً من كتاباتي لا تنشر . . ولما استفسرت قالوا لي أن قراءها من الذين لا يحبون الكتابة الصعبة ، ونرجو أن تكون كتابتك تتفق مع هذا المستوى من القراء ، فانسحبت منها بإحسان كما دخلتها بإحسان في أول الثمانينات .

وإنني اعترف أنني نشرت فيها أجمل ما كتبت في هذه المرحلة الطويلة ، وأجريت فيها من المقابلات التي ما تزال الآن موثقة عندي ، حيث يشكل ركناً من أركان كتابي من ذاكرة البحرين . . وهنا أود أن أؤكد أن إبراهيم بشمي صحافي وديمقراطي ومتفهم جداً إلا أنه أوقعني ذات مرة ، دون أن يدري ، في ورطة صحافية .

كنت أحرص أن يكون في كل عدد مقابلة مع أحد رموز المجتمع البحريني وقد أجريت مقابلة مع مدير مدرسة أم الحصم الابتدائية الأستاذ يعقوب يوسف المعتز ، وهو شخصية ذات أبعاد غريبة ، حيث اشتهر بالتوثيق فاحتفظ في بيته بمجلدات كان يكتب فيها أحداث البحرين يوماً بيوم حتى أسماء الذين يتزوجون أو يولدون أو يموتون . . وكانت دائرة معارف عجيبة ، ولديه سجلات لكل أغاني أم كلثوم لدية ألبومات مليئة بالصور النادرة ، سيما وأنه من مواليد الثلاثينات من القرن الماضي . . أجريت معه مقابلة غاية في الجمال . . وأورد لي حكايات كانت تدور بشكل منافسات بينة وبين زميله في الصف علي محمد فخرو ، فكانا يتنافسان في قراءة المتاح من الصحف وفي المعلومات العامة وذات يوم كما يروي الأستاذ ، قال : «فاجأني علي فخرو بأن أراني مجلة وقال لي هل قرأت هذه يا خائب؟! ولما رأيتها علقت عليه بشيء مناسب ، وكانت المجلة تحمل اسم (مذكرات خائب) .

جهزت المقابلة وأنجزتها وأعدت تبويبها وتدقيقها إلى صديقي إبراهيم بشمي وعادة عندما تقدم له مادة للنشر لا يقرأها ، فلدية مصحح لغوي ويقرأها في المجلة التي تكون على وشك الصدور ، وطبعاً هناك صورة كبيرة للأستاذ يعقوب المعتز الذي أجريت معه المقابلة . . ويضع إبراهيم بشمي عنواناً بالخط العريض «مذكرات تلميذ خائب» . . ويصدر العدد ويقرأ هذا الأستاذ العنوان ويتصل بي ولا أدري أن كان يبكي أو لا ، فقال لي : «ليش سويت فيني هاللون»؟!

قلت له «ماذا؟ أنا لم أفعل شيئاً»!

قال : «هزأتني»! . . «أولادي في المدرسة يطاردهم الزملاء ويعرضون عليهم العنوان . . أهلي ، أقاربي ، بناتي . . ياه ذبحتني!!»

وأقسمت له وتذكرت بيت النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب

حلفت له أنني لم أضع هذا العنوان وأن رئيس التحرير هو الذي اشتق العنوان من كلمة المزاح التي كان بينه وبين علي فخرو ، ولكنه لم يصدقني وبعد فترة طالت أو قصرت توفي إلى رحمة الله ، وأعتقد أنه كان في نفسه شيء من العتب علي . . وبطبيعة الحال كما قال الشاعر

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذبنا
فما اعتذارك من قول إذا قيلا

هذا موقف أنا متأكد أن إبراهيم لم يقصده ولم يعمد إليه ولكن هذا ما حصل .

هذا الموقف ذكرني بخليفة قاسم حيث كتب مرة عنواناً في المسيرة بناء على حبه للتلاعب باللغة فكتب : «عبدالعزيز آل سعود موحد الله وموحد الجزيرة العربية» وجرّت عليه ملاحظات وعتابات كثيرة .

ولقد دعيت عندما أقامت الأيام حفلة بمناسبة مرور عدد من السنوات على تأسيسها ، وكان ذلك قبل أربع سنوات . . دعيت وكرمني نبيل الحمر ، كأحد المساهمين في بانوراما وأهدونا العدد الأول من بانوراما .

هذا بالنسبة للصحافة الأسبوعية والشهرية ولقد تكونت لدي حصيلة من الخبرة في العمل الصحافي ، إلى أن قرر المجلس الأعلى للثقافة والآداب والفنون ، فيما قرروا إصدار مجلة ثقافية ، وبدأت الفكرة تتفاعل في المجلس الأعلى وقد تبناها بشكل جذري الأخ الشاعر علي عبدالله خليفة . . وبعد مناقشات قرروا تنفيذ هذه الفكرة وأسندوا إلى علي عبدالله خليفة تشكيل هيئة تحرير المجلة ، ولما عرض الأسماء على المجلس الأعلى لاعتمادها ، كان اسمي بينهم ، وهنا برزت مشكلة أنني لست بحرينياً إلا أن طارق المؤيد قد دعم اقتراح علي عبدالله خليفة وقال : «هذا عندنا من زمان بعيد ونحن نعتبره بحرينياً ولا بأس في أن يكون في هيئة التحرير» . وهذا موقف أحسبه لطارق المؤيد ولدي معه عدد من المواقف كلها أذكرها باعتزاز وسأذكرها في موقع آخر عندما أتحدث عنه .

في بداية الثمانينات دعاني الصديق حسن إبراهيم حسن كمال للانضمام إلى جمعية البحرين الخيرية ، وقد فعلت وأصبحت عضواً في اللجنة الإعلامية ، وفي هيئة تحرير مجلة «البحرين الخيرية» وللحقيقة تعرفت في الجمعية على مجموعة من الأصدقاء والزملاء ، إنني أحمل في ذاكرتي لهم أطيب الذكرى وبخاصة الأخ الصديق محمد صالح عبدالرزاق القحطاني ، إنه من الذين إذا دخلوا الذاكرة لا يكونون مرشحين لمغادرتها .

في العام ١٩٨٣ ،كتب المرحوم محمد قاسم الشيراوي عموداً بعنوان (في أمان الله) في جريدة الأضواء ، وذلك قبل حوالي ربع قرن ، وتحدث فيه عن كتابي (رؤية في الظل) الذي كان قد صدر لي في هذا العام ، المقال جميل ، وصفني فيه شكلاً وفكراً وأسلوباً ، حيث قال :

«عبدالحميد المحادين عالم لوحده . . فهو شاعر وكاتب وصحفي وقاص وناقد ، وأستاذ للغة تخرجت على يديه أجيال تكن له من الحب والاحترام ما يغبطه عليه الكثيرون .

والمحادين رغم بسطة الجسم التي أنعم الله عليه بها ، فإنه وديع كالحلم ، وذلك لما حباه الله أيضا من بسطة في العقل والعاطفة ، وما أندر من منّ الله عليهم ببسطة في الجسم والعقل والعاطفة .

عرفنا المحادين منذ سنوات شاباً يحمل بين جوانحه معاناة جيل كامل ، ومضت السنوات ، ثم التقينا كثيراً بعد ذلك وإذا بنا نجده يحمل إلى جانب معاناة الجيل معاناة أمته العربية كاملة بأحزانها . . بترنماتها . . بتمزقها . . بأحلامها . . وفي ذات الوقت يحمل آلامه ويمشي . . ويحمل آلامه ويغني شعراً فيهزك من الأعماق .

لقد جاء المحادين إلى وطنه الثاني البحرين ، ومنذ قدومه يشارك ويحضر اسمه في أكثر من مجال . . وإذا كان في الصباح أثناء الدوام في العمل يقدم ذوب روحه لتلاميذه ، ويضع بين أيديهم عصارة أفكاره وخبرته ، فإنه لا يفتأ يشارك في ندوة هنا أو في لقاء هناك . . وليس ذلك وحسب ، بل إن صحف البحرين ومجلاتها ، دون استثناء تحمل لفترة تطول أو تقصر إسهامات رائعة له دونها قلمه المعطاء الرشيق واحتضنتها عباراته الرشيقة وتعبيراته العميقة المعنى القريبة التناول الخصبة المضمون ، أي ما يعبر عنه بأسلوب السهل الممتنع» . .

ومنذ أيام استقبلت مكتبات البحرين الطبعة الأولى من كتابه الرائع (رؤية في الظل) وهو العنوان الذي اختاره المحادين لكتابه . . ولما قرأناه وجدنا أنه (رؤية في النور) . لماذا؟ لأن كل الذين يعرفون المحادين يرونه واضحا كل الوضوح لا تلفه ضبابات من غموض أو سحابات من التواء .

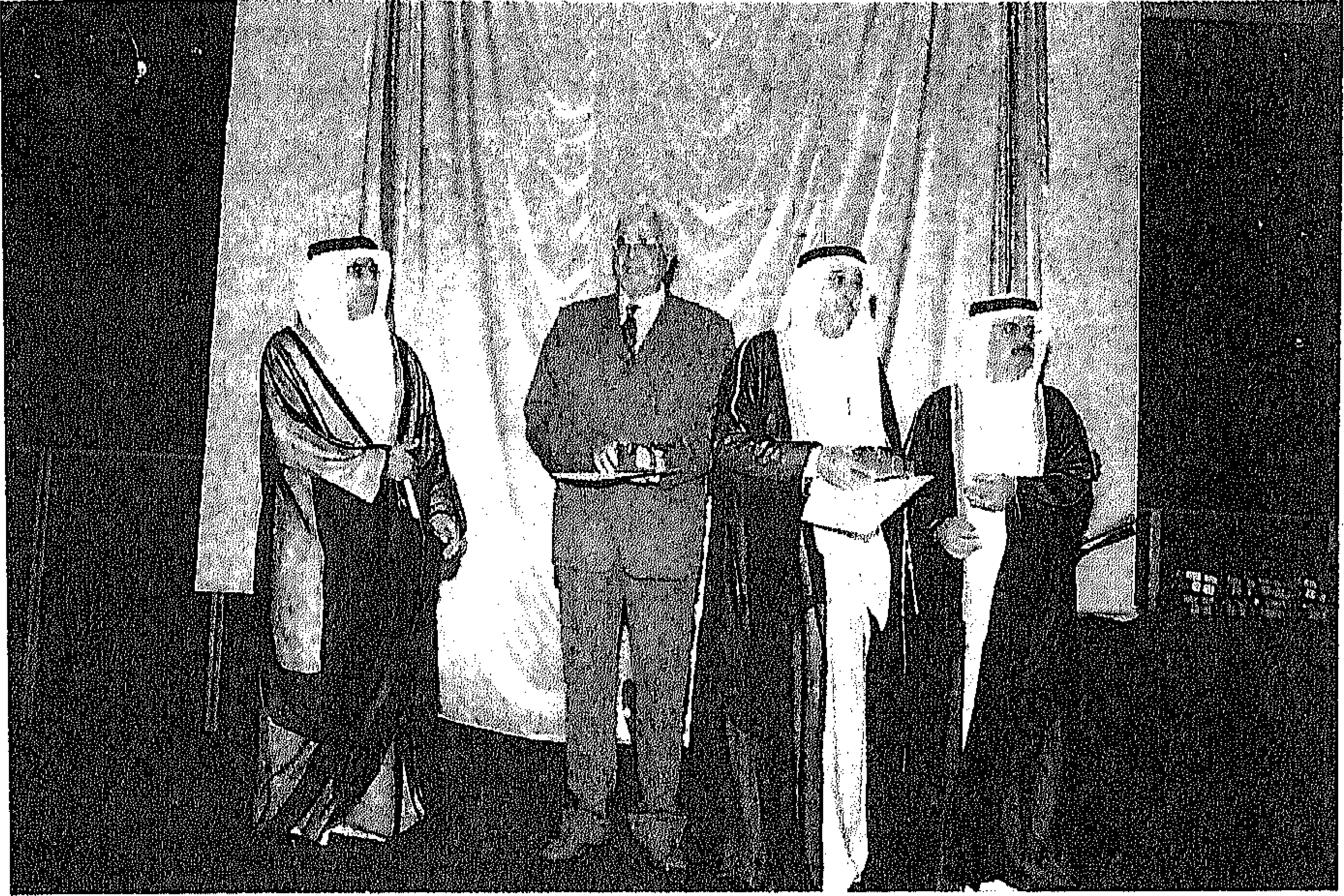
«وكتاب الزميل المحادين الجديد إضافة ممتازة لا يعرف قدرها إلا من حاول التصدي للحركة الأدبية في الخليج ، فلقد عاشت أجيال عدة من الباحثين

لاقت ما لاقته من عناء لندرة المصادر عن حركة الأدب الخليجية . . وكانت النتيجة أن عاشت أجيال وأجيال من الشعراء والأدباء ثم مضت دون أن يدري بها أحد . . ظلت الحركة الأدبية في البحرين والخليج مجهولتين يتحاشاهما الرواة لوعورة الطريق . .»

«وكتاب المحادين الجديد يضم دراسة لخمسة وأربعين عملاً أدبياً ظهرت في البحرين ما بين رواية ومجموعة قصصية وقصص للأطفال . . كما يضم الكتاب دراسة تتناول بعض الأصوات البحرينية الشابة والواعدة في القصة القصيرة»

وإذا كان البعض يعتقدون أن النقد هو النقض فقط وأن قلم الناقد ليس أكثر من سكين مهمتها ذبح الكاتب ، فإن المحادين يفند هذا الاعتقاد ، لأن الزميل في كل كتاباته ناقد بالمعنى العلمي للنقد . . وهو في سطوره أستاذ متفوق يؤمن تمام الإيمان بأن مهمة الناقد هي العدالة وإعطاء العمل الأدبي حقه الكامل في التحليل وإظهار سلبيات وإيجابيات العمل ، وكذلك إضاءة درب قد يكون غامضاً بعض الشيء ، أمام عين الأديب .

النقد عند المحادين بناء ، والنقد عنده درب يفتحه للأديب أو الشاعر والقاص حتى يتبين مواقع خطواته . . وهنا لا تجرفه بعض الرمال المتحركة . . ومن هنا تأتي القيمة الحقيقية لكتاب الزميل المحادين . . فالكتاب مدرسة ليس لمن تناول المحادين أعمالهم بالدراسة فقط ، وإنما أيضاً لمن يريدون أن ينسجوا على منوالهم أو يسيروا على دربهم .



نبيل الحمر يكرم المحادين



مع المكرمين من أعضاء جمعية البحرين الخيرية



إبراهيم حسن كمال يحيطه أعضاء اللجنة الإعلامية في جمعية البحرين الخيرية

(٣٥)

❖ عرفت طارق المؤيد مثلما لم يعرفه كثيرون

❖ لم تكن مواقفه معي خطيرة.. لكن دلالاتها تكسب التذكر ملامحه وقسماته..

❖ لعل التلفزيون أدخل طارقاً إلى كل بيت.. وأنا من الذين وصل طارق إليهم..!

❖ قال لي حين دعاني على العشاء مع خالد الكركي: «أحب أن تجئ كبحريني لا كأردني».

❖ فاجأني حين قال لي: «أتدري لماذا أقدرك أنا»؟!.. وكانت هذه هي أسبابه..

❖ في السنوات الخمس الأولى من الثمانينات أنجزت.. «كتابان وثلاثة أبناء وزوجة.. إنني أحمد الله على ذلك...»

❖ أعتز بأنني أول معلم في وزارة التربية والتعليم يكرم كمعلم مميز في العام ١٩٨٧

لأنني أذكر طارق المؤيد ، وعلي سيار ، فإنني أسمح لنفسي أن أتذكر من طارق المؤيد مواقف معي ، والإنسان يشهد على ما رأى ، والأمانة تقتضي ألا يقول إلا ما رأى . .

حين يموت الإنسان ، يصبح بعيداً . . بعيداً في الذاكرة ، وتتكيف نظرة

الأحياء بعده من عارفيه ، وأصدقائه ، وأحبائه بشكل يتفق مع هذا البعد ، لأن المسافة بين الموت والحياة . . مسافة طويلة ، بقدر الإحساس بمعنى الغياب الأبدي ، ومن هنا كان الميت ، «بعيداً على قربٍ ، قريباً على بعدٍ» .

«والموت يحيل التذكر إلى مجموعة من المواقف ، ويمحو من الذاكرة التفاصيل اليومية للحياة . . لأن البعد يمحو الأشياء الصغيرة . . ويُبقي على أعمقها وأكثرها بقاءً . . وشباباً في الذاكرة والنفس . . ليس مهماً أن تكون المواقف الباقية خطيرة ، أو ذات أهمية ، لكنها ذات دلالة تكسب التذكر ملامحه ، وقسماته . .

لست ابن عم لطارق المؤيد ، ولم أعاصره في مدرسة أو جامعة . . لم أعمل معه مباشرة في أي حقل من حقول العمل ، ولم أعرفه في البداية إلا بقدر ما يعرف الناس العاديون الأشخاص ذوي الأسماء الكبيرة ، التي تختلف عليهم وسائل الإعلام ، فيعرفهم الناس ولا يعرفون هم الكثير من هؤلاء الناس . .

منذ بداية السبعينات بدأت أسمع اسمه . . وما أظنه كان يسمع لي باسم ، حين صار وزيراً للإعلام ، عرفته كما عرفه كل الذين يتابعون الصحف ويجلسون أمام نشرات الأخبار . .! ولعل التلفزيون ، بحكم خصائصه الإعلامية ، أدخل طارقاً إلى كل بيت ، وأنا من الذين وصل طارق إليهم . .!

ولذا عرفته . . وهي معرفة من جانب واحد . .

ومع بداية الثمانينات . . أظن أن طارقاً ربما قرأ اسمي في صحيفة أو في جريدة أو تحت قصيدة أو بجانب خاطرة . . أقول ربما . . ولكن ما كنت قد التقيت به وجهاً لوجه . . ولا حتى صافحته يداً بيد . .

في أوائل الثمانينات ، كنت أكتب في بعض الصحف المحلية ، بعض الخواطر ، وبعض التعليقات ، وشيئاً من كلام كنت أظنه شعراً . . ثم خطر ببالي أن أجمع أجمل هذه الأشياء ، إن كان فيها جميل ، في كتاب ولكن لم أكن مستطيعاً تحويل هذا الحلم إلى حقيقة ، وكيف السبيل إذن إلى إصدار كتاب!!

جاءتني الفكرة . . وزينت لي نفسي أن أستنجد بوزير الإعلام فقد كان طارق ينشر بعض إنتاج أدباء البحرين في مطبعة الحكومة بتسهيلات كبيرة . . ولم أنس أن الذي كان يأمر بنشره هو من إنتاج أدباء البحرين ، وأنا ببساطة لست من البحرين . . ولست من أدباء البحرين ، ولكن لي صفة أخرى ، فأنا ضيف على البحرين . . والضيف في سنن العرب . . شريك للمضيف في بعض ما عنده ، هكذا هي الضيافة العربية البدوية الصافية . . لكنني لم أكن قد وثقت من أن طارقاً يعرفني كضيف ، ولست متأكداً من أنه سيلتزم بهذه السُنّة العربية بعد أن يعرفني . .

وكنت أنا أعرف علي سيار ، وعلي سيار يعرفني حيث عملت معه في صدى الأسبوع فترة جميلة . . سيستغرب كثيرون كيف تكون فترة عمل مع علي سيار جميلة! . بالنسبة لي كانت كذلك . وكنت ألمس أن حبال الود بين الرجلين لم تكن في أقوى حالاتها . . ومع ذلك طلبت من علي سيار أن يعرض على طارق طباعة كتابي على حساب وزارة الإعلام» .

لا أدري كيف عرض علي سيار الموضوع على طارق ، فالتواصل بينهما هما أدرى بتكييفه . . وقال لي علي سيار في اليوم التالي : «خذ مسودة الكتاب إلى المطبعة» . .!

«شعرت أن طارقاً عاملني تماماً كضيف ، وكان مضيفاً بمنتهى الكرم . . حيث يفيض المضيف على ضيفه من ماله ، ومن نفوذه ، وضيف العزيز عزيز» .

وتمر سنوات . . التقيت فيها طارقاً في مناسبات ثقافية كثيرة . . وكنت أعمد إليه بالسلام ، والمصافحة ، حينما ألتقيه . . كان يتلقاني بوجه بشوش ، لكن لم نتبادل أي حديث غير التحية!

ذات وقت ، بعد ذلك ، زار أدونيس البحرين . . زيارته الأولى . . ويقيم له طارق حفل غداء في مجمع الإعلام بمدينة عيسى . . وينتقي طارق بنفسه الذين يدعوهم مع أدونيس لهذا الغداء ، وللحق ، فقد وجهت لي الدعوة أيضاً ،

وربما بتوجيه منه كذلك . . وذهبت . . ووجدت أن المدعوين هم تلك الفئة المرتبطة بالقلم ، من أهل البحرين شعراء وكتاب ونقاد وقاصون وصحفيون . . لا يخالطهم غيرهم . . وبعد سلام وترحيب وغداء وبعض المجاملات . . وقف طارق لنودعه . . ولما كنت بصدد مصافحته استوقفني وشد على يدي وبعد عدة جمل لطيفة قال لي : «أتدري لماذا أقدرك أنا»؟! فوجئت بالسؤال . . وسارعت بالقول : «تحديداً لا أدري»! قال : «لأنك كنت نبيلاً في حديثك عن البحرين في جريدة الرأي الأردنية» .

كانت جريدة الرأي الأردنية قد أجرت معي لقاءً مطولاً قبل سنة من لقائي هذا بطارق . . سئلت عن البحرين وقلت عن البحرين ما هو فيها . . وما أعلمه علم اليقين ، وتحدثت عن أشياء جميلة ورائعة في البحرين . ولعل طارقاً قرأ هذا اللقاء بشكل أو بآخر ، لا أدري كيف ، لكنه كرجل إعلام مميز ، له وسائله في تتبع ما يقال عن البحرين خارج البحرين ، ومن حقه أن يهتم بما يقال ، وأن يتتبع الصورة التي تنقل عن هذا البلد!

قلت لطارق : «أنا قلت الحقيقة . . ولم أجامل ، فالبحرين فوق ما ذكرت» . . قال : «مرة أخرى أشكرك على نبلك» .

«بعد فترة ليست بطويلة . . كانت فكرة تأسيس مجلة بحرينية ثقافية تصدر عن وزارة الإعلام . . برعاية المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون . . تحمل ثقافة البحرين إلى العرب . . وتحمل ثقافة العرب إلى البحرين . . وكانت الخطوة الأولى بعد الدراسات المستفيضة هو تحديد هيئة تحرير المجلة . . وقد أسند أمر المجلة إلى الشاعر علي عبدالله خليفة ، وقام علي بترشيح هيئة التحرير . . وكنت واحداً منهم!

ولكي يصير القرار نافذاً لابد من موافقة طارق وزير الإعلام ورئيس المجلس الوطني ، ولما عرضت الأسماء على طارق . . توقع البعض أن يضع خطاً تحت أحد الأسماء . . وهم يعرفون ما معنى أن يضع طارق خطاً تحت اسم ما ،

ويحيطه بدائرة . . لكنه لم يفعل . . وقال بما معناه : إنه منا!!

ومرت الأيام ، وكان مؤتمر النقد الأدبي العربي في جامعة البحرين . وكان طارق يحضر بشكل مستمر فعاليات هذا الملتقى العربي الكبير . كنت في المدرج جالساً مع الآخرين بجانب الممر بانتظار بدء الجلسة الأدبية . . وكنت منهمكاً بقراءة جريدة . وكانت صحف البحرين تصدر ملحقاً يومياً لهذا المؤتمر ، وكنت ممن أسهم بتغطية الأحداث . . والكتابة والتعليق أحياناً . . وأنا أقرأ الجريدة شعرت بيد تضغط على كتفي الأيمن ، ولأنني اعتدت مثل هذه الحركة من أصدقائي ، الكثيرين حين يمرون بي جالساً . . ولذا لم ألتفت مباشرة . . لكن سمعت . . «صباح الخير» . . جاءت إلى سمعي بصوت ليس من أصوات الأصدقاء الذين هم مألوفون لي . . وألتفت فإذا هو أبو أسامة . . ونهضت واقفاً احتراماً للرجل وقلت له : «مسامحة لم أكن أعرف إنه أنت» ، قال لي : «العمود الذي كتبته في أخبار الخليج جميل جداً ورائع» . . وكنت قد كتبت يومها عموداً بعنوان : «صباح الخير أيها النقاد» فقلت له : شكراً . . وودعني وذهب حيث كان الصف الأول واقفين بانتظار وصوله . .

وفي عام ١٩٩٥ كان خالد الكركي نائب رئيس وزراء الأردن ووزير الإعلام في زيارة للبحرين وكان طارق يلازم ضيفه ويحيطه برعايته . . وخالد الكركي ، بالمناسبة ، هو صديقي وابن عم زوجتي . . وفي يوم ما ، كنت في منزلي المتواضع . . ودق التلفون ، وتلقفه أحد أبنائي الصغار ، وأبنائي الصغار حين يدق التلفون يتسابقون للوصول إليه . . وربما أوقع بعضهم بعضاً في الطريق ، وداسوا على بعضهم ، والذي يصل منهم سالماً يرد على التلفون . . وكان أحدهم قد وصل فعلاً ليحصل على التلفون . . وسمعته يتحدث مع أحد . . ومن إجابات الطفل كنت استنتج الأسئلة . . «ما اسمك»؟! «هل أنت في المدرسة»؟! . . إلخ . . «هل أبوك موجود»؟ . . قال الولد نعم . . ولا أدري لماذا قال الولد له : «من أقول له» فقال : «طارق المؤيد» . . وببراءة قال الطفل والتلفون قرب فمه : «بابا . .

واحد اسمه طارق المؤيد عايزك» . . لم يكن الولد قد أدرك كيف وقع هذا الاسم علي . . ولا أخفي أن ذلك كان مفاجأة لي بكل المقاييس . . لم أتوقع يوماً أن يحادثني طارق بشكل شخصي وبالتلفون ، وبهذه البساطة . . ويمضي بعض الوقت في مداعبة الطفل . . المهم التقطت أنفاسي ، وسلمت على الرجل ، واعتذرت له عن ثرثرة الطفل ، لكنه قال بالعكس : «كان ظريفاً»!

المهم قال لي : «أحدثك وها هو د . خالد الكركي بجانبي وإنني أدعوك إلى العشاء هذا المساء مع خالد الكركي . . لكن بشرط واحد . . أحب أن تجئ كبحريني لا كأردني» . .

كان في بداية الثمانينات يعاملني كضيف يشركني ببعض ما لدى المضيف . . وطبع لي كتابي مجاناً . . وها هو اليوم لا يكتفي بمعاملتي كضيف . . إنه يعاملني كواحد من أهل الدار . . البحرين» . . «في المساء . . كان العشاء . . وكانت مقابلة لطيفة مع أبي أسامة . . وكلمات مجاملة . . لا يزال الدكتور خالد الكركي يذكر ذلك الموقف . . وعندما التقيته بعد ذلك لأودعه مساء قال لي خالد الكركي : «ما كنت أدري إن أهل البحرين يحبونك إلى هذا الحد» . . فقلت له : «أنني أيضاً أحبهم فوق هذا الحد»!

ولا أدري أين تكون المفارقة حيث هذه الليلة التي تناولت فيها العشاء مع خالد الكركي وطارق المؤيد ، هي «الليلة الأخيرة التي بات فيها طارق المؤيد وزيراً للإعلام» .

في عام ١٩٨٧ كانت مناسبة عزيزة على قلبي ، ففي هذا العام أضيف إلى فقرات عيد العلم فقرة تكريم المعلم المميز ، وقد تم ترشيح عشرة معلمين ومعلمات لهذا التكريم ، وإنني أعتز أيما اعتزاز بأنني أول معلم في وزارة التربية والتعليم يكرم كمعلم متميز ، وقد حظيت بالسلام على المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة طيب الله ثراه ، وكانت المرة الثانية التي أتشرف فيها بالسلام على سموه ، حيث كانت الأولى حين أهديت سموه نسخة من

كتابي «نوافذ» .

كتبت في إهداء كتابي الأول : «رؤية في الظل» الصادر في العام ١٩٨٣

«إلى المرأة التي أعادت ترتيب
المضطرب من حياتي
وأنبتت المجدب من أرضي
حقولاً من الزهور والأمل
إلى المرأة التي علمتني أن أتشبث
حباً بالآتي من عمري
إلى . . زوجتي»

أما كتاب نوافذ» الصادر في العام ١٩٨٥ فقد كتبت في إهدائه :

«إلى الرجل الذي علمني
إلى الرجل الذي جعل أبوته
رمزاً للاستقامة والعفة
والصبر والتضحية
إلى الرجل الذي كلما ازددت بالأشياء
معرفة . . ازددت إيماناً بالقيم
التي كرسها في حياتي
إلى مثلي الأعلى
إلى . . . . أبي»

«كتابان وثلاثة أبناء وزوجة . . إنني أحمد الله على ذلك . . .»



مع خالد الكركي في جامعة البحرين



طارق المؤيد في أحد معارض الكتاب

(٣٦)

❖ أمتلك رصيداً هائلا من الحوارات واللقاءات مع عديدين من الفنانين والأدباء وزوار البحرين

❖ حرصت على إجراء حوار مع كل إنسان ظننت أن لديه ما يقوله وما يمكن توثيقه

❖ صرت شغوفاً بما أسماه أخي محمد البنكي «ثقافة السؤال»

❖ بعدما أنجزت مشروع الزواج والإنجاب لم أجد مؤجلا في حياتي إلا التعليم العالي لكنني أرجأته

❖ ماذا أعني باستكمال المربع في حياتي الأسرية؟!

❖ المملكة الأردنية توجه الدعوة للمغتربين للتباحث في شأن دعم الدينار الأردني في أواخر الثمانينات

في أواسط الثمانينات بدأت أستشعر شيئاً من الاستقرار ، وهو استقرار نسبي ، فقد أنجزت مشروع الزواج ، وهو مشروع ليس سهلاً كما يتصور كثيرون ، سيما إذا جاء هذا المشروع في وقت لا يقبل الفشل ، ولا مجال فيه للتدريب والتجريب ، فهو قرار نهائي ، جاء في وقت متأخر نسبياً ، ومع ذلك فقد أنجزته ، وأصبح لدى أسرة من ولدين وبنت وزوجة . . واستقر بنا مطاف السكن في القضيبية ، مرة أخرى . . والقضيبية هي عاصمة المدرسين الوافدين إلى البحرين . . يسكنون فيها ويتركزون في أرجائها أكثر من أي مكان آخر في

البحرين . . وكان السكن أيضاً شبه مستقر . وبدأت أتلمس الجوانب المؤجلة في رحلة حياتي الأولى . . ولم أجد مؤجلاً إلا التعليم الأعلى . . كان حلمي الأول وحلمي الثاني . . كنت أبحث عن طريق لهذا الحلم ، وحاولت أكثر من مرة ، ولا أقول أخفقت ، لكن أقول لم أنجح النجاح الذي كنت أؤمله ، ومن هنا فقد قررت أن أرجئ هذا الحلم مرة أخرى . . وأن أنصرف في راهن وقتي إلى أسرتي وإلى عملي وإلى إنجازات بعض الطموحات التي كنت قادراً على إنجازها . . «أول هذه الطموحات أنني كنت مسكوناً برغبة الكتابة ، وكنت أستشعر أن العمل في الصحافة يشكل حافزاً لكي أكون على علاقة وثيقة بالثقافة والأدب في البحرين أولاً وفي الخليج والوطن العربي بعد ذلك . .

طموحاتي لا تتوقف عند حد ، ونشاطاتي متعددة وتمكنت من الدخول على كل الجبهات من فكر ونقد وأدب وشعر وتدريس ودراسة وزواج وإنجاب . . شعلة نشاط متقدة ، لم تفتر همتي في جميع الأحوال . . ففي الصحافة أخذت أكتب في المتاح لي من الصحف المحلية والعربية ، وكان هناك متسع للكتابة في الأضواء وأخبار الخليج ، وصدى الأسبوع ، والمواقف ، ولكن بانوراما كانت أكثر من متنفس ، ففيها وجدت فرصة للتعبير عن تطلعاتي الكثيرة ، ولا سيما أنني صرت شغوفاً بما أسماه أخي محمد البنكي «ثقافة السؤال» ، فصرت أجرى اللقاءات والحوارات مع المثقفين والأدباء والفنانين . . وكانت بانوراما ميالة إلى حقل الفن والأدب ، والمجتمع ، وهذا ما شجعني على أن ألتفت وبجدية إلى هذا النشاط الجميل ، ولأنها شهرية فقد وجدت من الفسحة ما يجعلني أنضج هذه المقابلات بحسب المتاح ، أي أنني أتلفت إلى واقع الحياة في البحرين ، وأختار من الناشطين في أي حقل فني ، من أحاورهم ، وأجرى معهم من اللقاءات ما يقربهم إلى القراء ويمنحهم فرصة الكشف عما يدور في ذواتهم ، وقد كانت البحرين في الثمانينات تعهد مرحلة مسرحية نشطة وتوجد فيها مسرحيات داخلية وخارجية ، ولا سيما من المسرح الكويتي . . وكانت تستقبل ضيوفاً من

الفنانين يحلون في رحاب البحرين ، ويصبحون هدفاً للراغبين في التعرف عليهم ومحاورتهم ، بجانب ذلك الكثيرون ممن في البحرين لهم حضور مميز . . وهكذا انتعشت فكرة السؤال والحوار لدى ، ونشطت في هذا الاتجاه .

وقابلت ممن قابلت كثيرين من هؤلاء الفنانين والأدباء والشعراء والمثقفين ، من مستويات مختلفة ومنوعة . . وإنني كنت أحرص على إجراء حوار مع كل إنسان أظن أن لديه ما يقوله ، ولديه ما يمكن أن يتم توثيقه ، لأن ذلك يشكل مخزنا للذاكرة فيما بعد ولو أن أحداً استعرض الأسماء التي قابلتها ونشرت مقابلتها في صدى الأسبوع أو المسيرة قبلها أو بانوراما حتى عام ٩٤ ، فإنه سيعثر على عشرات من المقابلات ، التي حين أنظر في بعضها الآن أعثر على معلومات أنا أجدها كأنني أراها للمرة الأولى ، وإنني أتطلع لو أن جهة ما ، تجمع هذه المقابلات في كتاب واحد ، فإن ذلك سيكون احتياطياً هائلاً يمكن الاستفادة منه في تأريخ الحياة الاجتماعية والثقافية والأدبية في البحرين والأقطار المجاورة ، والأقطار التي تقاطع مثقفوها بشكل أو بآخر مع البحرين .

لن أتحدث عن الذين جمعت مقابلاتهم في كتاب «من ذاكرة البحرين» فلذلك قصة أخرى ، لكنني أتحدث عن هؤلاء الذين ما تزال مقابلاتهم متناثرة هنا وهناك عرضة للضياع إذا لم ينهد إليها أحدهم ممن يمتلك آليات ملائمة ليجمعها وينشرها ، أو تتجه إليها دائرة من الدوائر المعنية بهذا اللون من الثقافة . .

إنني أتذكر . . عدداً من الذين قابلتهم ونشرت مقابلاتهم في بانوراما وصدى الأسبوع والمسيرة . . فمن الفنون التشكيلية يمكن العثور على حوارات مع راشد العريفي وأحمد العريفي وإبراهيم بوسعد ، وعباس الموسوي ، ومن المسرحيين الممثلين . . جاسم شريدة وشفيقة يوسف وسلوى بخيت «أم هلال» وعبدالله يوسف وأحلام محمد وسعد البوعينين وزهير نوباني وراشد المعاودة ومحمد ملك وشهيرة وميمي جمال وبابا عبده (عبد المنعم مدبولي) ، وتوفيق الدقن ويونس شلبي وسعد الفرج . . ومن الموسيقيين سامي عبدالملاك . . ومن

كتاب القصة محمد عبدالملك ، وعالمة الكوش بسيسو ومنيرة الفاضل وسليمان الشطي . . ومن الروائيين إسماعيل فهد إسماعيل ، وسليمان الطراونة . . ومن الصحفيين محمود الكايد ، ومن الأدباء خالد التركي ، والمذيعة مديحة المدفعي ، ومن الشعراء عبدالوهاب البياتي ، وعلي عبدالله خليفة ومحمد الحارثي ، ومن المطربَين والموسيقيين الأخوان زيمان ، هذا ما يحضر في الذاكرة وعشرات غيرهم . .

أما من جمعتهم في كتاب ذاكرة البحرين فهم وجبة أخرى . هذا عدا الكتابات التي كتبتها والتحليلات والتعليقات على إنتاج كثيرين من الأدباء والمثقفين .

وفي عام ١٩٨٧م أقامت أسرة الأدباء برئاسة الدكتور علوي الهاشمي ملتقى لدراسة الأديب الراحل محمد الماجد ، ولقد تحدث في هذا الملتقى : عبدالحميد المحادين ، د . محمد جابر الأنصاري ، الدكتور سعد البازعي والدكتور سليمان الشطي والدكتور إبراهيم عبدالله غلوم . . وقد تم بحث جوانب إبداع محمد الماجد القصصية . . ولقد حظيت هذه الندوة بتغطية صحفية كبيرة ، ولا سيما من الصحافة في المملكة السعودية ، ودار نقاش ثرى خصيب حول الموضوعات التي قدمت ، ولقد قامت أسرة الأدباء بجمعها في كتاب هو : «رومانسية السخط» وقد طبع في جمهورية مصر العربية .

وفي أواخر الثمانينات وكان الوضع الاقتصادي في الأردن يمر بمأزق عسير ، وكان الدينار الأردني مهدداً بنزول قيمته ، حيث كان الدينار بثلاث دولارات أو أكثر . . وفجأة أصابته الاهتزازة ، فسارعت الحكومة الأردنية إلى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وأعلنت عن مؤتمر للمغتربين الأردنيين في كافة أنحاء العالم . . ليلتقي مندوبوهم في عمان ، وليبحثوا هذا الشأن من خلال أن يشكلوا دعماً للاقتصاد الأردني وعن طرق مختلفة ومنها تشكيل الشركات القابضة ، برؤوس أموال ضخمة . . وكانت المناقشات تدور.. . ويحظى المؤتمر بأعلى رعاية . . وقد

عقد مرتين ، في سنتين متتاليتين . . ولكن كان يبدو أن هذا الدواء لا يكفي لإزالة ذاك الداء . . فالمسألة كانت أصعب وأعقد وأخطر ، وما هي إلا سنوات قليلة حتى بدأ الدينار الأردني ينبئ عن أزمة اقتصادية . . لكن بطبيعة الحال . . عولجت بحسب استحقاقاتها واستمر الوضع في الأردن . . متماسكاً . .

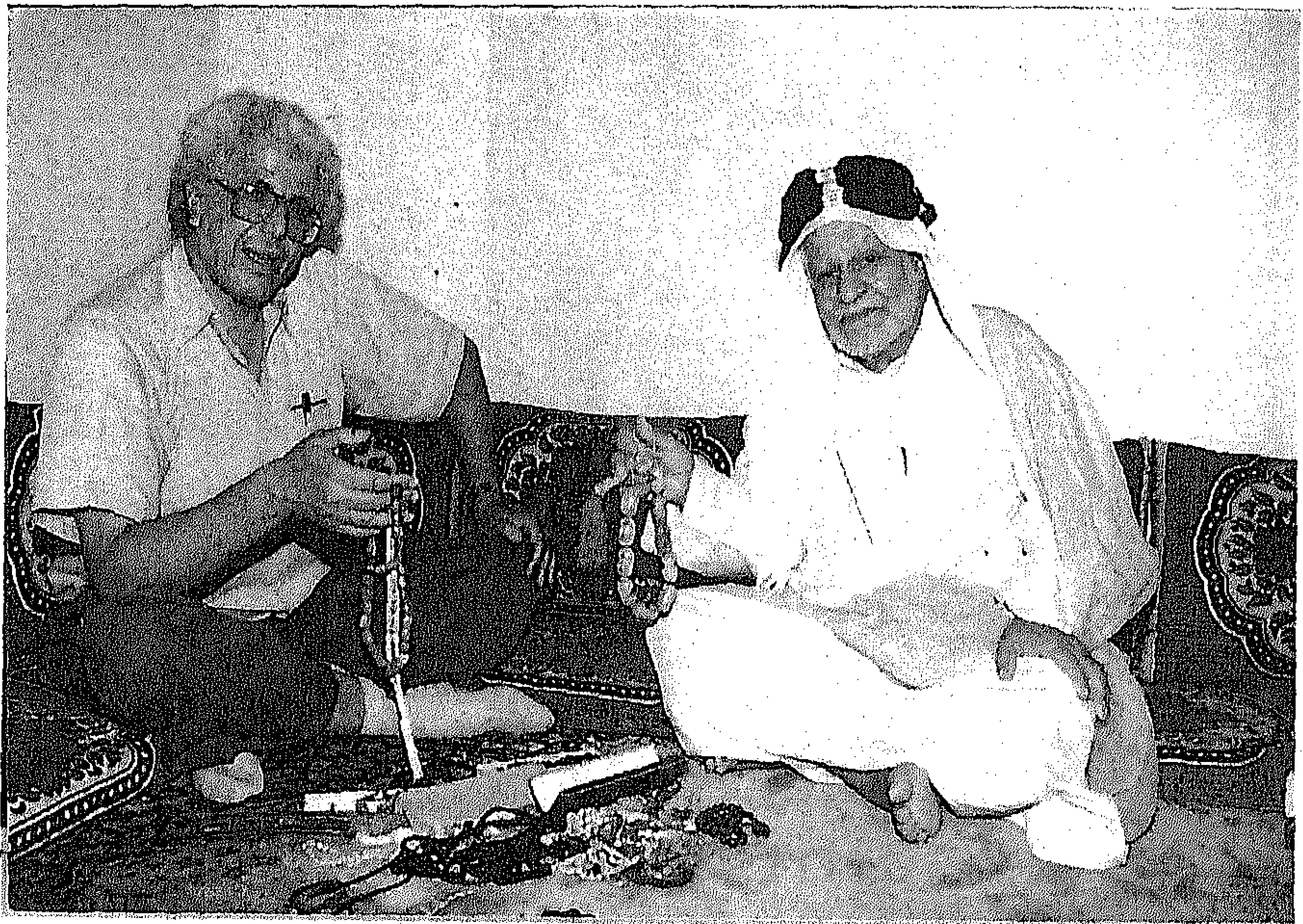
لقد كان لقاء المغتربين ذا فائدة كبيرة . . فقد جاء الأردنيون من كافة أقطار العالم . . وكل يحمل ثقافة مغتربه . وهذا أتاح شيئاً من التعارف الإنساني ، وعَمّق إحساس كل واحد منا بتجربته ومزاياها ، وخصائصها وخصوصيتها . . وقد تقدم المغتربون باقتراحات تتعلق بأمورهم وبما يجدون وراء البحار ، وتفاعلت معهم الحكومة الأردنية آنذاك ، وقد قرر البرلمان الأردني السماح للأردنيين المغتربين بالحصول على جنسيات الأوطان التي يقيمون فيها دون أن يلغى ذلك ارتباطهم بالأردن . . لأن كثيرين من المغتربين أفادوا بأن الجنسية التي يحصلون عليها في الأوطان التي يقيمون فيها تنفعهم وتسهل حضورهم وإسهاماتهم ، في تلك الأوطان . . ولقد أسهمت في ذلك المؤتمر الثاني ، بأنني كنت عضواً في لجنة صياغة قراراته ، وكان في اللجنة مجموعة من الإعلاميين الأردنيين في الوطن العربي والخارج ومنهم مديحة المدفعي وهي من أشهر المذيعات في محطة الـ (بي .بي .سي) وآخرون لست أذكرهم الآن . . ولقد كانت هذه المؤتمرات فرصة لنا جميعاً للتعرف على أصقاع ومواقع من الأردن . . لم نكن قد ذهبنا إليها ، أو تمكنا من رؤيتها ، وزرنا مواقع أثرية كثيرة ، ووقفنا على الجسر الذي يربط الضفة الغربية بالشرقية ، في شمالي البحر الميت . . وكنا نقف على الطرف الشرقي من الجسر ويقف على الطرف الغربي جنود من الجيش الإسرائيلي . . وكانت الأحداث أسرع من مؤتمرات المغتربين وتجاوزتهم ، وبددت أحلامهم . . وسرعان ما حدث الزلزال . . وخلط الأوراق ، والأحلام والآمال . . عام ١٩٩٠ . . وقد وقعت طرائف كثيرة ، وتعليقات ونقاشات تعكس كم نحن مختلفون . . «وتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى!

أعاود الحديث عن حياتي الشخصية ، فأسرتي ازدادت واحدة ، هي ابنتي التي ولدت في عام ١٩٨٨م ، فتوازن لدي الفريقان ولدان وابنتان ، وكانت «سونار» هي الضيف الجديد على الأسرة وكانت ضيفاً معززاً لأنها تصغر أقرب أخوانها إليها بخمس سنوات ، لكنها أكملت المربع . .

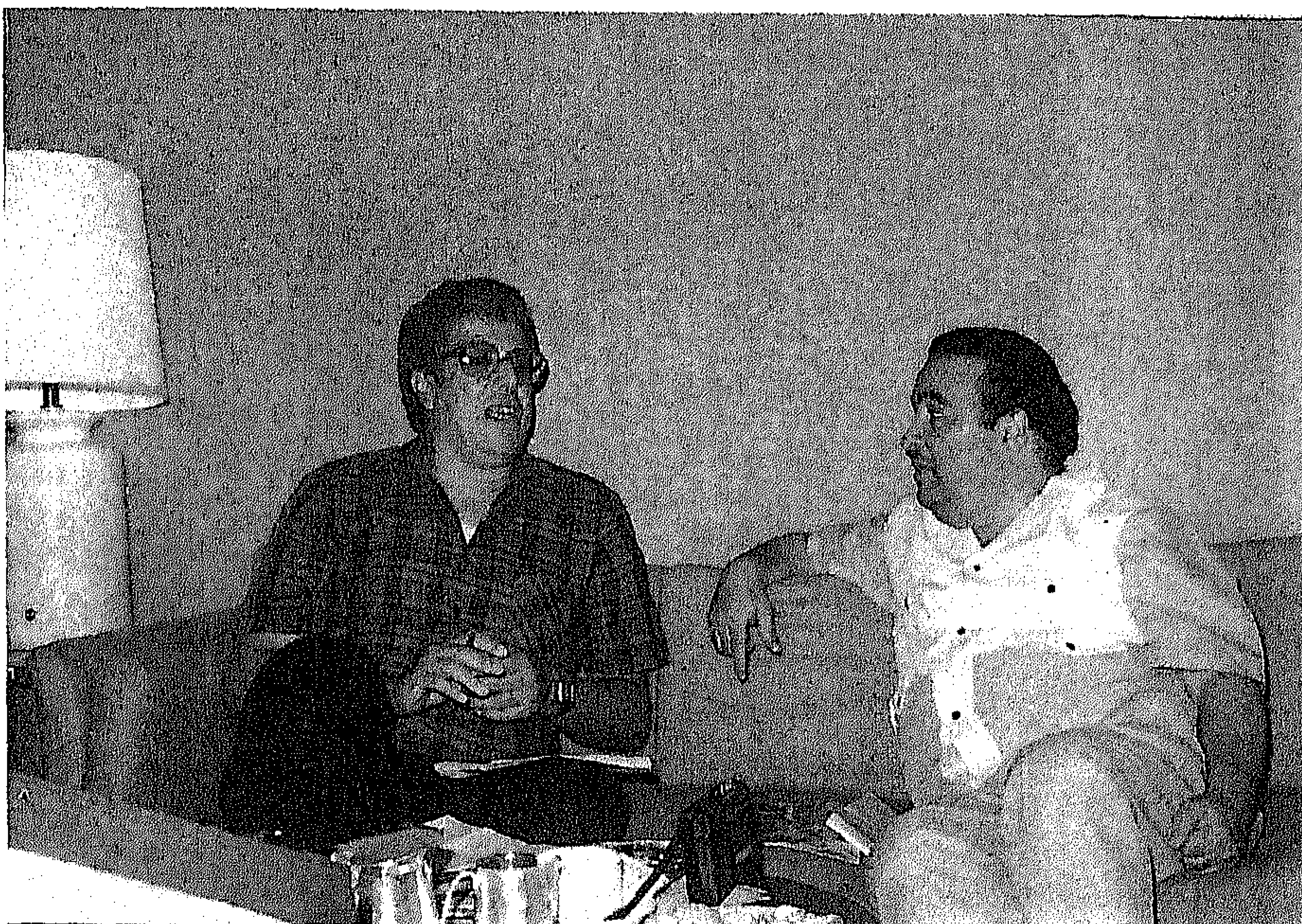
وفي أواخر الثمانيات كان هناك خيط من الضوء بدأ يربطني بجامعة البحرين ، حيث اتصل بي الصديق المغفور له بإذن الله تعالى د . هلال الشايجي ، وكان عميداً للآداب في جامعة البحرين ، وأسند إلى تدريس بعض المقررات في قسم اللغة العربية ، وكان ذلك في مدينة عيسى ، وسارعت إلى الاستجابة ، وارتبطت بشكل جزئي بجامعة البحرين ، وهذا كان حلماً من أحلامي وقد شاركت لأكثر من سنة في هذا العمل الجزئي ، واستطعت أن أكوّن زمالة محدودة مع كثيرين من هيئة التدريس في قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية وهذا بذاته مهد لي أموراً أخرى فيما بعد ، سأتحدث عنها في وقتها . . وبدأت انشغل فوق ذلك كله بمسألتين هامتين في نظري ، وهما : خطر ببالي أن أضع كتاباً مكتملاً في حدود الممكن عن تاريخ التعليم وأدبياته في البحرين ، خاصة وأنني ألممت بكثير من مفاصله وكثير من مظان معلوماته ، وقد أسهمت إسهاماً كثيراً في الاحتفال بالتعليم في ١٩٦٩م ووضعت كتيباً ، وكذلك أسهمت في احتفال التعليم ١٩٧٩م والآن نحن على مشارف ١٩٨٩م وإنني أتجه إلى وضع كتاب أشمل قليلاً ولأبدأ بالمدرسة الأم ، الهداية الخليفة ، فبدأت أجمع المعلومات وأنسقها وأرتبها استعداداً لذلك ، ويتوازى مع جمع المعلومات الاستعداد لاحتفال تقوم به المدرسة لإحياء ذكرى مرور ٧٠ عاماً على تأسيسها . . ومن هنا بدأت في الخطوتين معاً . وقد أعانتني إدارة المدرسة والهيئة التعليمية على إنجاز الاحتفال وانفردت بتأليف كتاب شامل من مدرسة الهداية الخليفة المدرسة الأم . . وعندما جاء العام ١٩٨٩م ، كان الكتاب قد صدر ، وكان الاحتفال قد جهز له . . وهذا موضع لحديث آت .



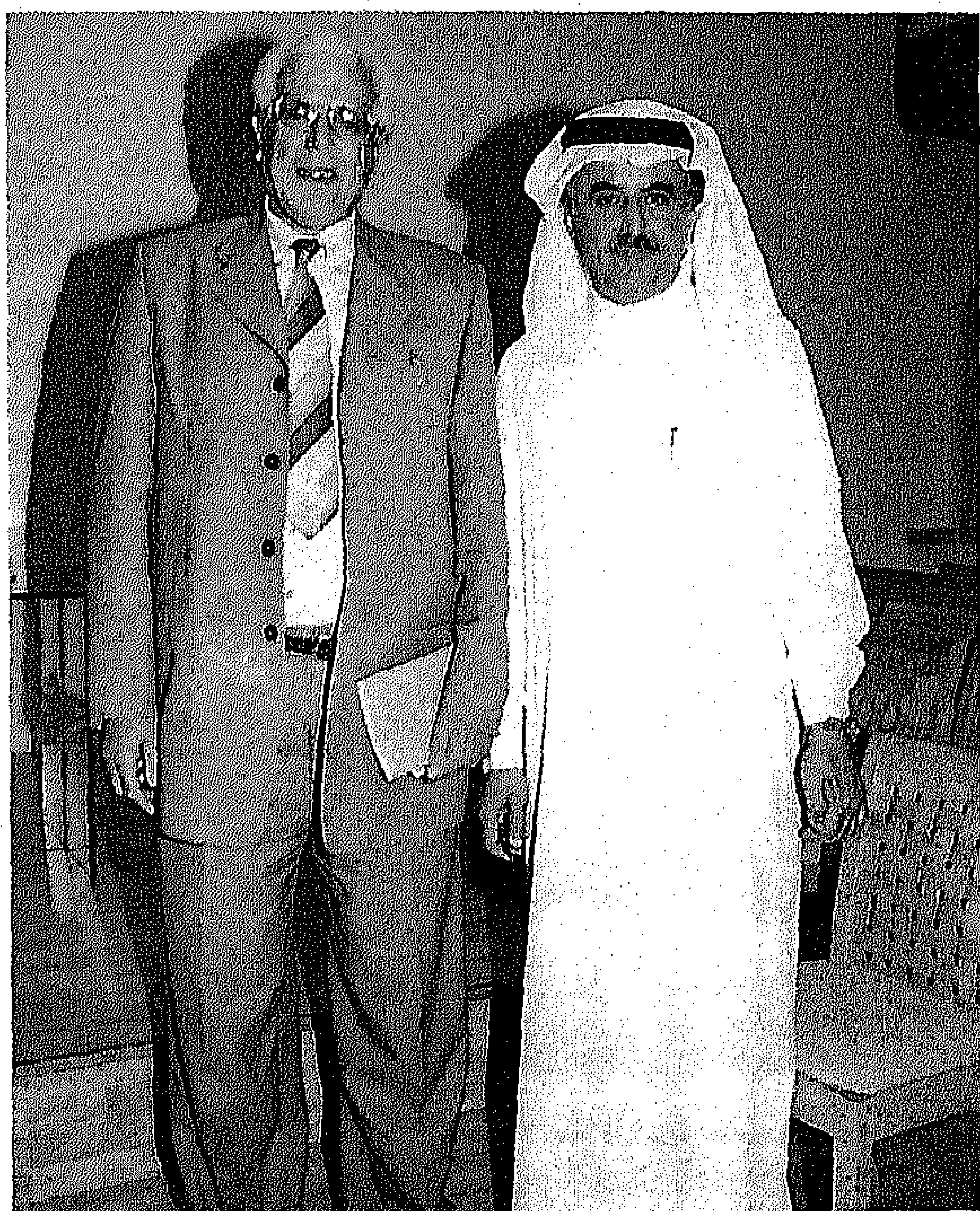
مع سعد الفرج



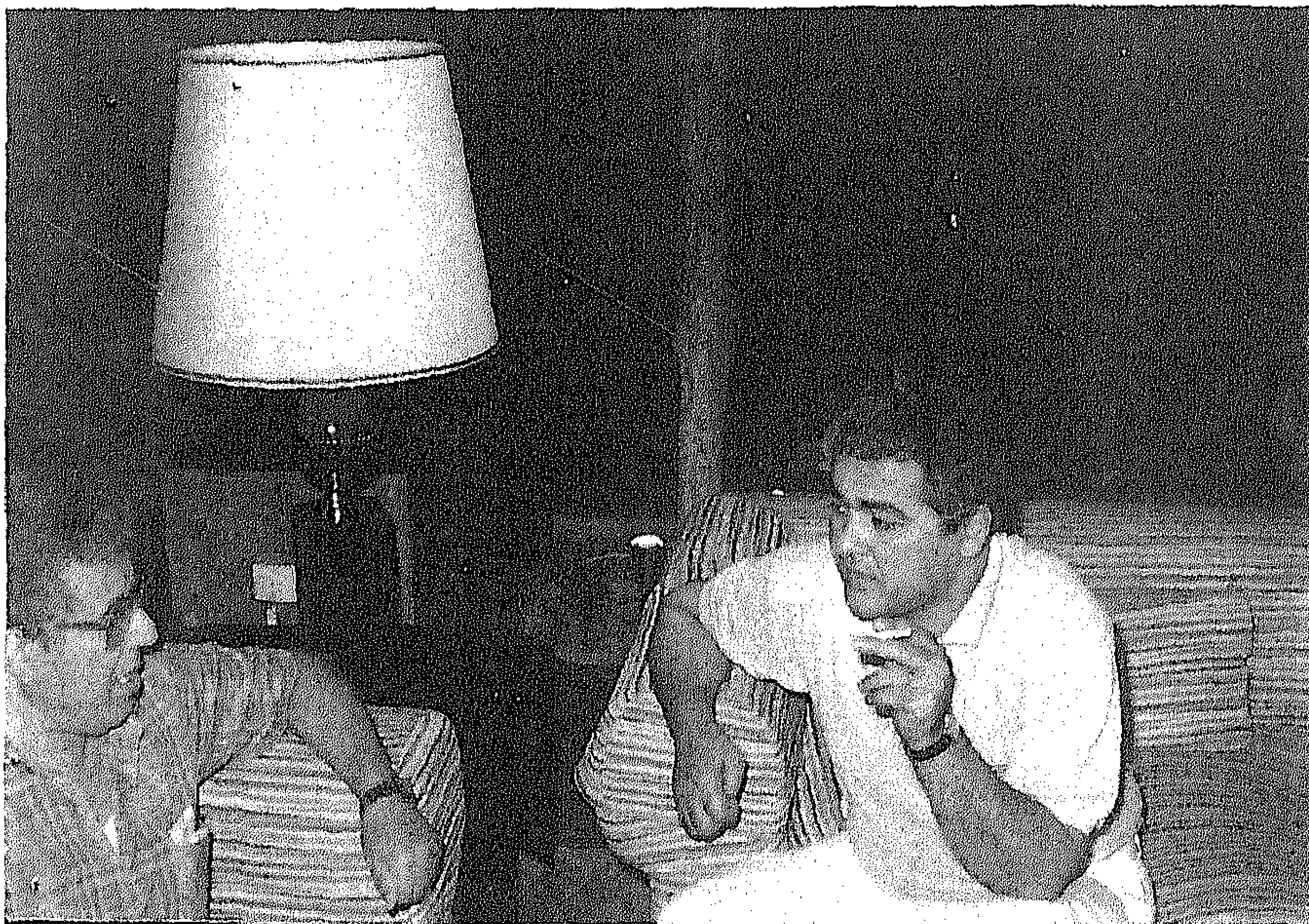
مع الشيخ محمد علي الناصري



مع يونس شلبي



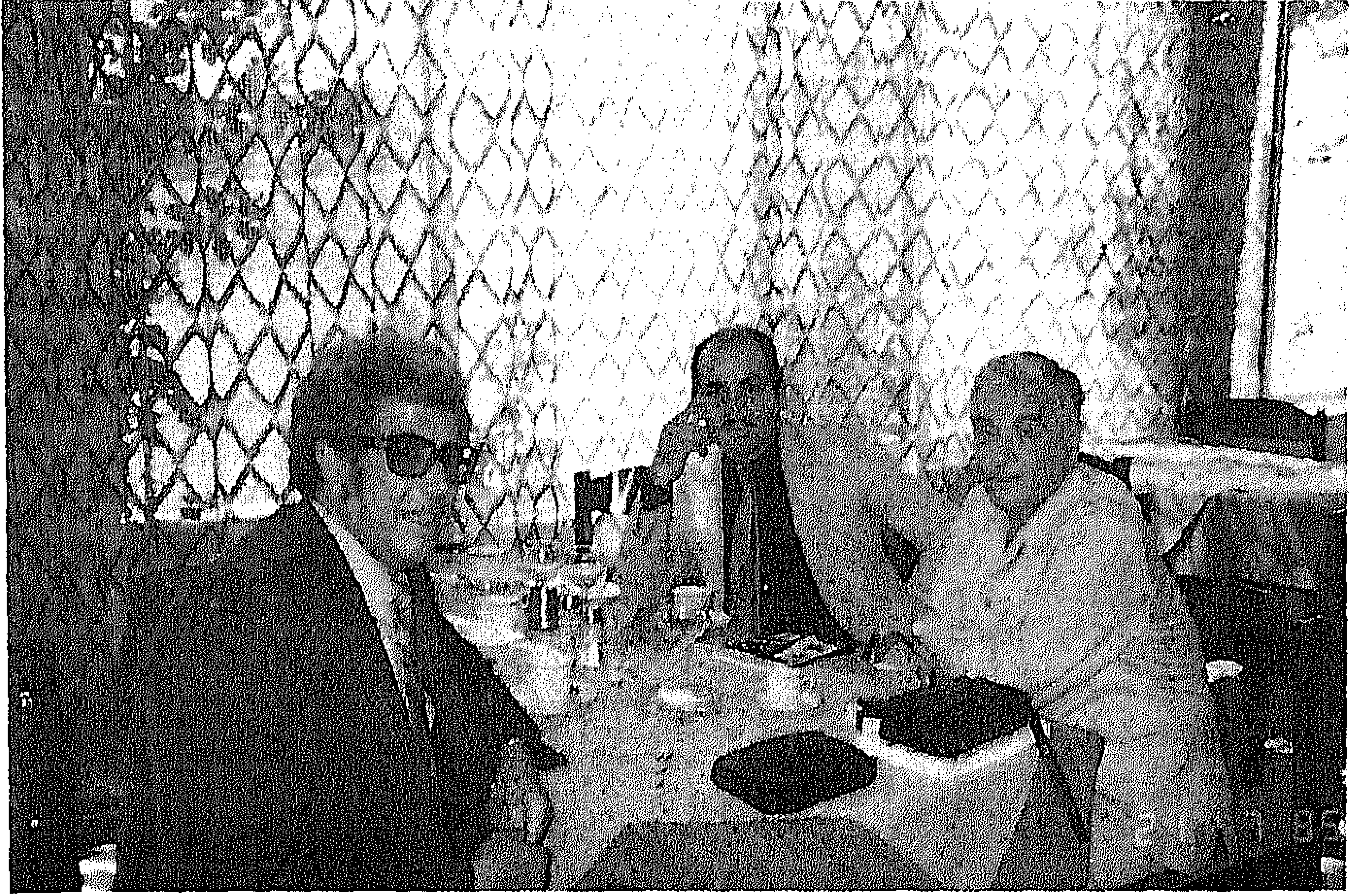
مع الروائي أحمد أبو دهمان



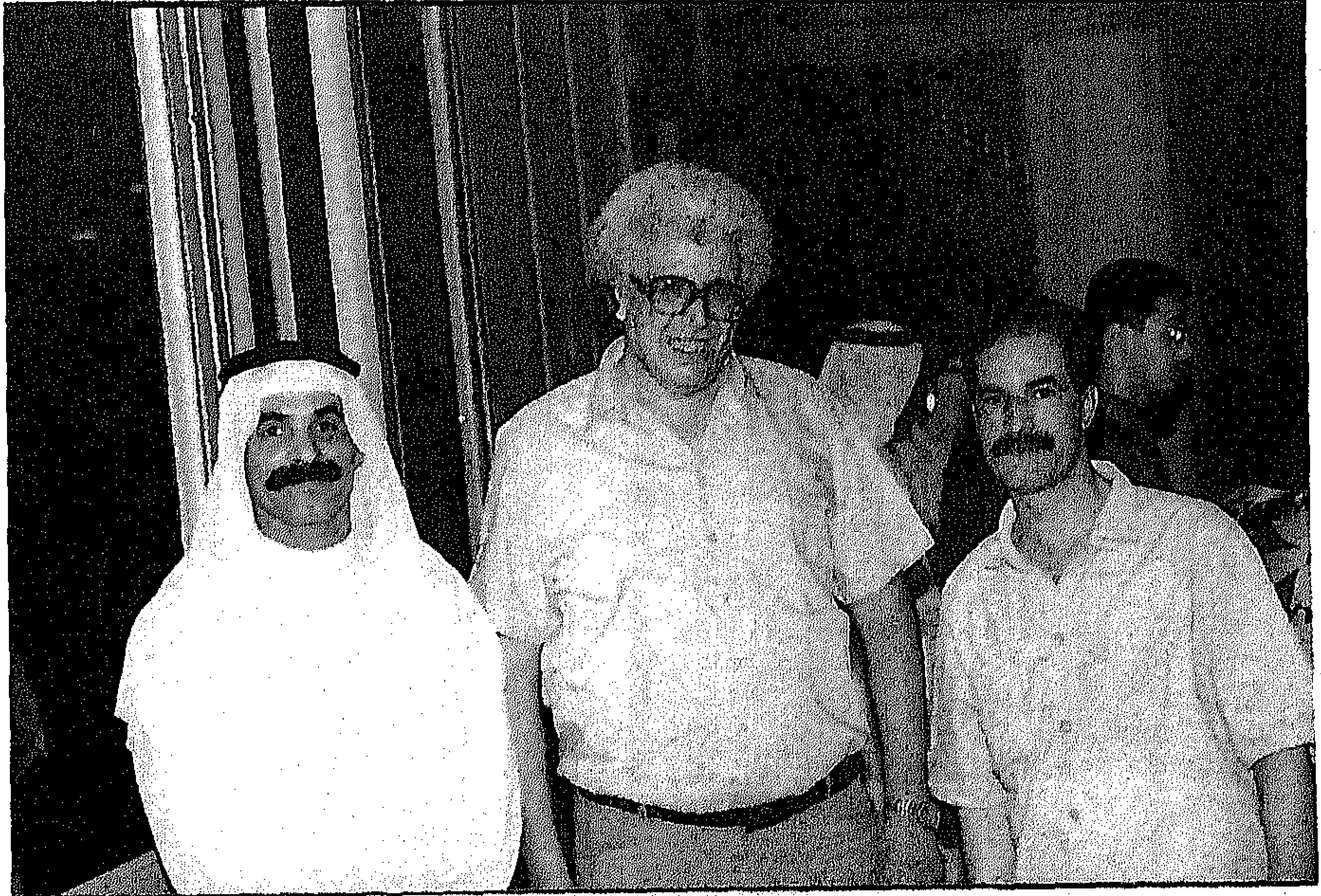
مع مصطفى متولي



مع عمر الحريري



مع جعفر العلاق وعبد الوهاب البياتي



المحادين يتوسط سعيد يقطين وحمد النعيمي

(٣٧)

❖ خالد زنتوت.. تاريخ لا ينسى في ذاكرة الهداية الخليفية ومحمد جابر الأنصاري يتذكر وهجها

❖ هكذا أرخت لتاريخ التعليم في البحرين.. والوثائق تتحدث

❖ لا أنسى قلم الحبر السائل ذي اللون التركوازي الذي ميز خالد زنتوت في كتاباته

❖ لم أعرف حتى هذه اللحظة مبررات هدم الطابق العلوي «المهيب» من مبنى الهداية!!

❖ القصيدة كائن مستقل تقدم نفسها.. تدافع عن نفسها.. فتنجح أو تسقط

❖ عشقنا للشعر يفقدنا الحس بحجم الأشياء.. ومن هذا الفقدان نمنح الشعر دوراً مستحيلاً

إنها أواخر الثمانينات ، ولقد كنت في مدرسة الهداية الخليفية وكان العام ١٩٨٨ ، وذكرتهم في المدرسة بأنه يجب الاحتفال بمرور ٧٠ عاماً على تأسيس المدرسة ، بحيث يكون الاحتفال في عام ١٩٨٩ ، وقررت المدرسة أن تقيم معرضاً للأعمال التي ينجزها الطلاب ، ووثائق المدرسة ، ونهضت بدوري بوضع كتاب عن التعليم في البحرين هو أول كتاب جاء عن هذا الموضوع أسميته . . الهداية رجال وآفاق ولقد استوفيت فيه كل المعلومات الأساسية عن التعليم في

البحرين حتى عام ١٩٨٩ ، مع نبذة عن تعليم البنات ، واستكتبت فيه بعض أبناء الهداية ، ممن شغلوا فيما بعد مناصب بارزة ومواقع متقدمة ، وكان هذا الكتاب هو باكورة تأليف لكتب في تاريخ التعليم سيجيء ذكرها فيما بعد . .

وتقيم المدرسة احتفاليتها وتدعو إليها كثيرين ممن يرتبطون بتاريخ التعليم ، وبوزارة التربية والتعليم أيضاً ، وهنا أشير أن احتفالية ١٩٨٩ كانت إبان وزارة الدكتور علي فخرو ، وقد تمت في المدرسة الجديدة ، أي في المبنى الجديد ، وكانت احتفالية لعرض الصور والوثائق والأعمال التي أنجزها الطلاب ، وللحقيقة فقد زار المدرسة بهذه المناسبة العشرات من أبناء المحرق ، وإنني من خلال احتفالات مدرسة الهداية بعشرياتها المتلاحقة ١٩٥٩ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٩ ، ١٩٨٩ وما تلاها ، لمست حضوراً عميقاً لدى شعب المحرق بكل أجياله ، وحتى الذين وصلوا إلى مراكز عالية فقد كانوا يسارعون إلى الهداية يستحضرون في فضاءاتها المكانية الزمانية وذكريات وزملاء وأصدقاء ، وكنت أتابع أحاديثهم وهم جميعاً يلتفون حول فضاء واحد هو الهداية الخليفية ، وكانوا يرحبون بالدعوات للحضور والمشاركة والمساهمة وكانت المرأة المحرقية تحرص على المشاركة في هذه الاحتفالات ، بل وأبعد ذلك ، فحين كنا بحاجة إلى طباعة بعض الكتب ، نذهب إلى أبناء الهداية ونطلب منهم الرفد والمساعدة ، وللحقيقة فإن الذين كنا نخاطبهم كانوا يستجيبون بكل أريحيه وطيبة ، وحرصت على توثيق المعلومات حول سيرورة هذه المدرسة ، وقد استكتبت كثيرين من خريجها الذين صار لهم أسماء وصار لهم حضور في مجتمع البحرين ، كان ذلك في عام ١٩٨٩/١٩٨٨ وجمعت ذلك كله في كتاب هو رجال وآفاق ، وللحقيقة فهو كان مرجعاً متواضعاً لتاريخ مدرسة الهداية وتجلياته في الحياة الاجتماعية في كتاب ليكون فاكهة احتفالية بمرور سبعين عاماً على الهداية الخليفية ، وذلك ١٩٨٩ وأقامت المدرسة الاحتفالية ، وأقامت معرضاً للصور المتاحة وللوثائق المنتشرة في خزائن المدرسة وهي وثائق لا تغطي كل الوثائق التي ضاع منها الكثير ، ولم

يُلتفت إليها في معظم الأوقات .

وأنا أجمع أوراقي لإعداد هذه الحلقة فاجأني أخي وصديقي محمد البنكي برسالة نصية S.M.S تذكرني بالزميل الكريم خالد زنتوت رحمه الله الذي ارتبط اسمه بالهداية أستاذاً للفنون وأميناً للمكتبة ، وكان مكتبه يقع في القسم العلوي من المدرسة القديمة ، في شمالها . . أعادتني هذه الرسالة إلى أيام خالد زنتوت ، الذي كان مثالاً بالأناقة ، وهو أنيق في لباسه وفي أخلاقه ، وكان يستخدم قلم حبر سائل يملؤه بحبر ذي لون مميز هو اللون التركواز ولا يستعمل سواه في كل كتاباته . . ولقد ذكرني ذلك أيضاً بجانب ذكرى خالد زنتوت رحمه الله ، وقد كان في مسكن بيت الطلاب عام ١٩٦٠ حين قدمت إلى البحرين . . ثم تزوج بعد ذلك وأنجب ولداً وبنتاً ، وكان اسم ابنه وليد . . وقد انتقل زنتوت إلى جوار ربه عام ١٩٧١ فيما أظن ، وبالتداعي حضرتني صورة الهداية القديمة ، وقد تعرض مبناها لشيء لا يدل على أفق واسع في التعامل مع المكان ، حيث هدم القسم الشمالي من الطابق العلوي وكذلك القسم الشرقي والجنوبي ، وعادت مدرسة الهداية إلى حجمها عام ١٩٢٣ ، ولقد كان الطابق العلوي جزءاً من شخصيتها ، وكان مصيره أن يتهدم . . وإلى هذه اللحظة لم أعرف أو أسمع ما هو مبرر هدم ذلك الجزء المهيب من هذا المبنى!!!!

وأنا اقلب في القصاصات التي احتفظ بها من الصحف ، منذ سنين طويلة ، وتلك عادة دأبت عليها ، فحيثما ورد في جريدة شيء يهمني أو يكون لي فيه علاقة ما ، أقص الوريقة واحتفظ بها ، لكنني كنت مقصراً أنني لا أكتب تاريخها أو المكان الذي نشرت فيه . . وتبقى معومة لا ترتبط بزمان ما ولا مكان ما . .! أقول وأنا اقلب في القصاصات عثرت على مقطوعة نثريه كتبتها رداً على ناقد أردني تناول قصيدة لي بالتحليل والنقد . . هذا أيام كنت أكتب الشعر أو النثر والشعر ، وقد أخذ على قصيدتي تلك ، وبمقاييس النقد في السبعينات أيام كانت الواقعية الاشتراكية هي مرجعية لكثيرين يعرضون الشعر عليها ويقيمونها

بموجب تلك المقاييس . أخذ على قصيدتي أنها «لم تتناول الهوة بين الإنسان وواقعه ، وتحاول ردم هذه الهوة» وقد كتبت يومها رداً على الصديق الناقد ، فقلت له :

الأخ م .ا .ل (وهكذا وقع تحت مقالته)

منذ البداية ، أشكر اهتمامك بالقصيدة التي نشرتها في الرأي ، بعنوان - نهاية - وأشكرك على كل حرف كتبته عنها وعني معها . . وإنني سعدت بما كتبت . . ولا ينقص من عمق تلك السعادة أنني اتفق أو اختلف معك ، فهذا أمر آخر . . لست أريد الدفاع عن القصيدة . . فرأيي فيها أسوأ من كل ما كتبت أنت عنها . . ولست أرى أن أي قصيدة تستحق أن ينصب لها محكمة بين دفاع وهجوم . . على الأقل من جهتي لن أدافع . . لأن القصيدة كائن مستقل تقدم نفسها . . تدافع عن نفسها تنجح أو تسقط . . هذا مصيرها لا أستطيع أن أساعدها فيه . .لم أكن وقتذاك قد سمعت بنظرية موت المؤلف!! لكن ما أردت كتابته هو تعليق على المقدمة التي كتبتها بين يدي النقد . . ولست أقصد أنني أرد عليك بالضبط ، لا . . أقصد أن مقدمتك أوحت لي بما دار في خاطري وارتأيت أن أكتبه . . وهو موقف فردي بكل يقين ، وما أظن أنني إذ أتفرد بالدفاع عنه سأمنحه حق الوجود . . لكن هي كلمة نقولها . .

أحسب أننا نحن العرب ما نزال نعشق الشعر ، لكنه عشق يفقدنا الحس بحجم الأشياء . . ومن هذا الفقدان نمنح الشعر دوراً لا يمكن أن يؤديه . . ولعلنا نجعله بديلاً عن أدوار عقلانيه ، لا يمكن لغير العقل فعلها . . نريد من الشعر أن يكشف ، ويعمق ، ويفعل ، وينفعل ، ما أدري أية قوة نظنها لهذا المخلوق الضعيف البسيط الذي نسميه الشعر ، صحيح أنه معادل لمعاناة مسبقة ، لكن المعاناة هي الأساس ، والمعاناة لا تحتاج في وجودها إلى الشعر ، فهي توجد دونه . . ولذا فالشعر لا يصنعها . . بل يتولد عنها ، ولن يحل محلها ، لا خالقا ولا فاعلاً ، فالنتيجة التي لا تملك الضرورة لا تحل محل السبب مطلقا . . ومن هنا ففي رأيي

أن الشعر لا يعلم المتلقي ما يجعله يتباعد بهوة مع واقعه ، لأن الهوة بين الإنسان والواقع أن كانت قائمة ، فهي قائمة ، دون تدخل من الشعر ليعمقها ، وليست هوة تلك التي يحتاج الإنسان لقصيدة كي يحس بها . . . ثم كيف نبحث من الشعر الذي يعمق الهوة ، أننا نبحث عما يردم الهوة ، ويلغيها . . ويخلق التكامل فهل الشعر قادر؟؟ وفي يقيني أن الشعر لا يخلق هوة ولا يردم هوة ، وإنما هو معادل للإحساس بوجود أو عدم وجود . .

أظن يا صديقي أننا نبالغ في ما ننتظره من الشعر ، ولعلنا نحن العرب تخلينا في كثير من قطاعات حياتنا عن الفعل الحقيقي بحثا وانتظارا لقصيدة ، تنقلنا إلى شاطئ القمر . . إلى الحدائق التي ما تزال بكرا . . فهل الشعر يفعل ، وهل الشعر يمهد ، لا أدري . . لو أنه يفعل لكان في شعرنا الكثير مما كان مؤهلاً لذلك الدور الذي حددته له . . . ومع ذلك لم يفعل . . وإذا كان المتلقي يا صديقي ساكنا وبانتظار أن تفجر فيه قصيدة ، بالأفضل أن نبقيه على سكونه ، ولا نفجر فيه شيئاً . .

أما مقولة - القصيدة الجيدة هي المعول المنقض على الواقع المعاش ، أيا كان نوعه ، حتى في أرقى أشكال المجتمعات ، ذلك لأن من سمتها البارزة الطموح ، وإلا فقدت مبررات وجودها . . أرى في ذلك تنظيرا شاعريا ، وشعريا . . وهذه مهمة للشعر لا أرى أنني اتفق معك فيها - رغم عدم أهمية ذلك - أعطني مجتمعا راقيا كما ذكرت واشنق فيه كل الشعراء . . فسيبقى راقيا . . وهات مجتمعا محنطا كمجتمعاتنا ، وأملا بالشعر أرضه وسماءه ، سيبقى محنطا . . الشعر ليس البديل عن شيء . وليس الشعر سوى مؤشر للأشياء . . لكنه ليس الأشياء . . الشعر يا صديقي - كما أراه - كبطاقة الجندي . . فيها اسمه وفصيلة دمه ، هذه البطاقة لن تعينه على انتصار ولن تحميه من هزيمة . لأن النصر والهزيمة يصنعهما السلاح ، الذي في يده . . ولكن تنفعه في مسألة نقل الدم لو جرح ، والتعرف على ذويه حين تسليم جثته . .

«يا صديقي لسنا نحتاج شعرا . . قليل من العقل يفرح قلب الإنسان»

ومن طرائف الفعل الزماني أن كثيرين ممن شاركوا في احتفالات مدرسة الهداية عام ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٩ منحهم الزمن مهلة الاستمرار في ذلك والحضور ، ومنهم المغفور له علي بن يوسف فخرو الذي كان شديد الاعتزاز بالهداية حيث كان والده يوسف فخرو أمينا ماليا لمدرسة الهداية حين تأسيسها . وبين أوراقي التي أحافظ عليها هناك صفحتان بخط الدكتور محمد جابر الأنصاري بعنوان (ذلك الوهج الذي كان . . «الهداية») حيث قال فيها :

كانت «الهداية» نافذتي الأولى على العالم الرحب من حولي وعلى القضايا والاهتمامات التي كانت تعتمل فيه . . في الهداية تعرفت أول ما تعرفت إلى معالم الأدب العربي وكيفية تذوقه . . وإلى قضايا اللغة العربية وشؤونها وذلك على يد أستاذين فاضلين كانا يتنافسان في تحبيب طلاب الهداية إلى لغتهم العربية وتراثهم العربي وهما الأستاذان عبدالله الطائي ويوسف العمران . كما أذكر بالعرفان الأستاذ كمال حبيشي الذي كان يدرسنا الرياضيات ولا يبخل علينا بالتشجيع وفي مكتبة الهداية تعرفت إلى أوائل الكتب العربية من قديمة وحديثة وما تشمله من عوالم سائغة رحيبة وكنا نقرأ كل هذه الكتب في بيوتنا على قناديل الزيت الشاحبة قبل انتشار الكهرباء . .

وفي أحاديثنا مع أساتذتنا البحرينيين والعرب - حيث كان الجميع يعملون بروح عربية واحدة - اكتشف قضايا الاستقلال الوطني والوحدة القومية والنهضة الإسلامية التي كانت تسود الساحة حينئذٍ وكانت مصر العربية حينذاك - ١٩٥٠ ، ١٩٥٤ - تخوض نضالها ضد الاستعمار ومن أجل التحرير والتوحيد والبناء الحضاري العربي الشامل . .

وفي صفوف الهداية وساحاتها كونت أجمل صداقات العمر التي مازالت حية إلى الآن . . تمثل أصفى ما في مدينة المحرق - مدينة مدرسة الهداية ومستقرها التاريخي - من قيم الوفاء والانتماء . . وفي ملاعب الهداية شاهدت

أول المهرجانات الرياضية . . والمباريات المثيرة . . وكانت الهداية في زمني مدرسة ابتدائية . . لكنها بمستواها وأساتذتها وطلابها وأنشطتها كانت في مستوى مدرسة عالية . . وأتمنى أن ألتقي في رحاب «الهداية» يوماً ما بجميع خريجيها القدامى لنستعيد ذلك الوهج الذي كان «الهداية»!



في الهداية الخليفة



في أحد احتفالات الهداية



زوجتي بين والديَّ



عبدالحميد الحادين

(٣٨)

❖ أردت أن أنجز بعضاً مما أنجزه هلال وعلوي وإبراهيم مقتدياً بهم

❖ الثلاثة الذين كنت أقتفي خطواتهم هم من أسهموا في مساعدتي.. فدرسني اثنان وأشرف على الرسالة الثالث

❖ ها هي تفاصيل صراعي حتى حصلت على الماجستير.. وهكذا هنأني محمد البنكي.. وهكذا كانت نظرة أطفالي تجاهي!!

وبعد أن تغلبت على مسألة المشاريع المؤجلة واعتبرت أنني بعد أن تزوجت أصبحت أكثر حرية في التعامل مع الزمن فالتعليم مع وجود الهمة والإرادة أمر يبقى ممكناً . .

لكنني بعد أن تزوجت وأنجبت وكان ابني البكر «ساسان» ، تغيرت أشياء كثيرة في داخلي وترتبت الأولويات بطريقة تلقائية وشعرت أنني كتلك الآلة التي في المطار عندما تتحرك أرقامها والمنتظرون يتابعونها وكل يبحث عن رقم ما يخصه ، لأن كلاً منهم يبحث عن رحلة تعنيه . . فتحركت في داخلي اللوحة واختلطت أولوياتي إلى أن استقر بي الأمر على أن تكون أسرتي هي الأولوية الأولى بيننا ، وإنني أصبحت أباً وللأبوة طعم وإحساس لا يدركه الإنسان إلا إذا بلغه متأخراً . . وأمام إحساسي بمسؤوليتي عن أسرتي اكتشفت أنني كنت إنساناً حالماً أكثر مما يجب ، وبأنني استسلمت لطموحات كنت أظنها سهلة وهي لم تكن كذلك ، لكنني رغم كل شيء اعتبرت أن لكل شيء في حياة الإنسان

جماله في اللحظة التي يتحقق فيها بغض النظر عن أي اعتبار آخر .

واستعدت توازني النفسي وتحررت من الخوف الذي انتابني عندما أنجبت ، وتحررت من الإحساس بالعمر والزمن ، وعاودت الرضا ، ثم أيقظت الطموحات التي نحيتها بضع سنوات ، لكنها حيث أيقظتها عقلنتها وجعلتها أهدافاً أسعى إليها ، فإن حققتها فذاك وبها ، وإن لم أستطع فليس ذلك نهاية العالم .

وفي هذه الفترة من الثمانينات بدأت جامعة البحرين ، وعاد إليها تباعاً هلال الشايجي وإبراهيم غلوم وعلوي الهاشمي ، وكانوا قد حصلوا على الماجستير ثم الدكتوراه . . إبراهيم وعلوي من الجامعة التونسية وهلال من الأزهر . . وعادوا تباعاً مع فوارق في السنوات ، وبدؤوا يكونون لهم أسماء لامعة في الحقل الأكاديمي وفي جامعة البحرين ، ولم تكن علاقتي بهم قد انقطعت ، لكنني دائماً أحس أن هنالك طريقاً صعباً على أن أقطعه بالتصميم ، إن أردت أن أنجز بعض ما أنجزوه ، وأرجو ألا يظن أحد أنني كنت أستكثر عليهم ما هم فيه ، فهم جديرون بما أنجزوا ، لكنني كنت مقتدياً بهم .

أحب أن أقطع هذه المسافة أو أضيقها إن استطعت ، ومن أطرف الأشياء أنني لم أكن أهدأ ، وبقيت منتهز الفرص ، وفي ذات الوقت طورت معرفتي بالمطالعة والقراءة ، وكنت على علاقة طيبة معهم ، بل أن كلية الآداب في فترة من الفترات كانت بحاجة إلى بعض المدرسين ليغطوا بعض المقررات التي فاضت عن الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية . . وعادة في مثل هذه الأحوال تسعى الجامعة إلى استقطاب مدرسين ومحاضرين من جهات أخرى ، على أن يكون دوامهم جزئياً في الجامعة وكان رئيس قسم اللغة العربية هلال الشايجي ، ولمعرفته بي فقد جعل عميد كلية الآداب يخاطبني وأتعاقد مع الجامعة في العام ١٩٨٩ مدرساً بمكافأة جزئية ، وهذا دون تخطيط جعلني أكون في ذات المنطقة التي فيها إبراهيم وعلوي وهلال . . وتعرفت على آخرين لكن اعتزازي بهؤلاء الثلاثة بقي حاداً ورغبتي في الاقتداء بهم بقيت قائمة . .

وبقيت أدرس في نظام جزئي في جامعة البحرين سنوات متتابعة بشهادة البكالوريوس .

إلى أن كان عام ١٩٩٢ ويفتح قسم اللغة العربية برنامج الماجستير في اللغة ، ورغم أني كان حينها قد تجاوزت الخمسين من العمر بسنتين وأصبح ابني البكر «ساسان» في السادس الابتدائي وبعده ابني وابنتاي ، أي أصبحت أسرتي أربعة أبناء لكني ما زلت ألهث وراء شهادة عالية . .

كنت أحياناً أثبط من نفسي ، وأحيانا يثبطني الآخرون ، وأحياناً أقول ليكن تعويضي في أبنائي فما فاتني لا يفوتهم . . لكنني كنت شديد الرغبة في أن أواصل بقلمي ، وأن أكون في مستوى التحدي الذي دائماً عندما يستيقظ داخلي أشعر بأنني ما أزال قوياً وقادراً على المواصلة . . وأذهب لأسجل في برنامج الماجستير وكان رئيس قسم اللغة العربية د .إبراهيم غلوم وعميد كلية الآداب د .هلال الشايجي وكان من متطلبات القبول إجراء مقابلة شخصية ، ودخلت إلى المقابلة ، وكان رئيسها الدكتور إبراهيم غلوم وكنا على تواصل في الصداقة وخاصة عن طريق مسرح أوال وأسرة الأدباء والكتاب واحتفالات كثيرة ، وشاركت معهم في ملتقى الماجد للقصة القصيرة عام ١٩٨٧ وكنت قد قدمت ورقة بحث كما قدم د .إبراهيم ورقة بحث وكما د .قدم محمد جابر الأنصاري ود .سليمان الشطي من الكويت ، ود .سعد البازغي من السعودية . . وهذا يعني أن مقدرتي الأدبية والنقدية كانت موضع احترام الجميع رغم إنني ما استطعت حتى ذلك الوقت أن أتوجها بلقب أكاديمي عال . .

دخلت وقال لي د .إبراهيم بعض كلمات المجاملة لاستكمال المشهد وانتهت المقابلة دون مقابلة لكنني ما كنت أحسب أن د .إبراهيم يدرك أن هذه المقابلة جزء من هذه المعركة التي أخوضها ولا كان هلال يعرف ولا حتى علوي .

وتجيء المفارقة الثانية فكان علينا أن ندرس ٣٠ ساعة معتمدة قبل تسجيل رسالة الماجستير ، وهنا كانت الأمور بمفاجأتها ، وكان من زملائي في برنامج

الماجستير الدكتور ناصر المبارك والدكتور سيد جواد الوداعي وزملاء آخرون وزميلات . . أولاً كنت أنا ومحمد البنكي معاً في هذا البرنامج وكنا زميلين متحابين متوادين وكنا أحياناً في الاختبارات نتبادل المعلومات ، بل والأكثر غرابة أنني كنت أنا ومحمد البنكي فقط في مادة مع الدكتور حلمي مرزوق ، ومع إنني كنت أدرّس في ذات الكلية مع حلمي مرزوق تدريساً جزئياً بل والأكثر إنني اشتركت مع حلمي وبعض الأخوة في وزارة التربية والتعليم في تأليف كتاب مدرسي . . وكان حلمي مرزوق ليس ودوداً بطبيعة الحال ، وشخصية تتلذذ بالإساءة إلى الآخرين ، وفوق ذلك فهو عالم بكل معنى الكلمة لكنه يفتقد تنظيم المعلومات ، فكان كالتاجر الذي يضع مئات السلع كومة واحدة يمد يده ويبيع إلى الزبائن ما يتيسر . . وكان يعلم حلمي أنني لست شديد الإعجاب بعلمه لغياب التنظيم عنه ، ولعلي ذات يوم قلت له ممازحاً يا دكتور حلمي أنت كالقطار فوق السكة الحديد تمشي على القضبان فإذا ما نقل أحدهم في المحطة القضبان إلى اتجاه آخر تذهب في ذلك الاتجاه دون أن تعرف أنك خرجت عن الخط الأول . وهذه كانت شخصيته حقيقة .

ولكن لم أكن أدري أن ذلك قد أثر في نفسه بشكل سلبي ، ولما جاءت نتيجة الامتحان وجدته قد أعطاني -C وأعطي محمد B . في مادة المذاهب الأدبية . مادة الرومانسية . ولست أستغرب أن يأخذ محمد B فهو يستحق أكثر ، حتى أكثر مني ، لأن عقليته كانت ما تزال فتية وهو مطلع ، لكنني أستغرب أن أُعطى -C لسبب بسيط وهو أنني لا يحق لي أن استمر في برنامج الماجستير مع هذه الدرجة ، وأسقط في يدي ، ماذا أفعل مع هذا الرجل؟! واستسلمت للأمر فلما علم الأصدقاء هلال وإبراهيم وعلوي وربما آخرون أنكروا على حلمي هذا الموقف وضغطوا عليه إلى أن عدّل الدرجة إلى C فقط حتى يمكنني أن أستمر في البرنامج فكانت هذه المفاجأة . .

ويدرسني في هذه الساعات المعتمدة اثنان من الثلاثة هم د .علوي حيث

كان يحاضرنا في مادة الإيقاع ، ود .علوي في إيقاع الشعر أستاذ متمكن ، ورسالته للدكتوراه حول «الساكن والمتحرك» المكون من ٣ أجزاء ومجلدات ، هي إثبات على ذلك . . ولو عاودت الحياة الخليل بن أحمد ، لقبل أن يتتلمذ على يدي الدكتور علوي ليعمق لديه مفهوم الإيقاع في الدرس الحديث . .

ويدرسني في مادة إعجاز القرآن د .هلال الشايجي ، فها هما اثنان من الثلاثة الذين كنت أتتبع خطاهم أصبحوا أساتذتي ، ومع ذلك كنت ما أزال شديد التصميم على المواصلة وأن أنهي الساعات الثلاثين وأسجل رسالة الماجستير «التقنيات السردية في روايات عبدالرحمن منيف» . . وكان مطلوباً من طالب الماجستير أن يقدم سيمينار حول موضوعه يناقشه فيه أساتذة قسم اللغة العربية ، وذهبت إلى «السيمينار» لأنني كنت أول من سجل رسالة في قسم اللغة العربية ، وكان القسم مليئاً بالمشاحنات بين أساتذته ، ولعل تقدير حلمي مرزوق الهابط لي هو شكل من هذه المشاحنات ، وكان الأستاذ صلاح فضل في قسم اللغة العربية وعلى خلاف ومشاحنات مع كثير من أساتذتها . . ولما دخلت إلى السيمينار ونشأت المماحكات بين الأساتذة ، وكانت أشدها بين د .إبراهيم غلوم ود .صلاح فضل ، ويفشل السيمينار ونخرج جميعاً متفاجئين دون أن نحقق أي فائدة . . فكانت فألاً سيئاً لي . .

المهم أن القسم وضع الرسالة تحت إشراف د .صلاح فضل ، وينهي صلاح فضل عمله في جامعة البحرين عام ١٩٩٥ عائداً إلى القاهرة ، وكان لابد من مشرف على الرسالة ، فأسندت إلى الدكتور إبراهيم غلوم فاكتمل بالنسبة لي العقد . . الثلاثة الذين كنت أقتفي خطواتهم ها هم الثلاثة أسهموا من حيث لا يدرون في مساعدتي على أن أتقدم ، فدرسني اثنان وأشرف على الرسالة الثالث . . وفي ١٧ يناير (كانون الثاني) ٩٧ ناقشت الرسالة . . فكان د .إبراهيم غلوم مشرفاً ود .سليمان الشطي ممتحناً خارجياً ود .محمد بدوي ممتحناً داخلياً وهي أول رسالة تناقش في كلية الآداب جامعة البحرين ولقد حضر المناقشة

حشد كبير من المشاهدين والأساتذة .

ولقد كان يوم المناقشة يوماً مختلفاً في حياتي ، وأبرز ما فيه أنه شهده أربعة من أبنائي ، ولدان وبنتان ، فيما تركت أنا وزوجتي اثنين صغيرين في البيت . . فأي طالب هذا الذي بلغ هذه السن ويشهد مناقشته أبناؤه ، الذين في حكم أحفاده لو تزوج مبكراً . . ومع ذلك كان ما كان ، وهنا أستأذن في أن أعيد نشر مقالة كتبها زميلي محمد البنكي ، في اليوم التالي للمناقشة ونيلي الماجستير . .

في سيرة المربي الفاضل الناقد والكاتب الصحفي عبدالحميد المحادين مثال حي للكفاح والسمو الإنساني على أكثر من صعيد وفي أكثر من ميدان ولعلنا نحن أبناء المحرق خصوصاً لا نخلص من دين لنا تجاه هذا الرجل الذي أعطى وما زال يعطي في مدرسة الهداية العتيدة ، بحيث صار معلماً من معالمها وبحيث أن جميع المبرزين من أبناء المحرق ممن يخدمون الدولة اليوم في شتى القطاعات لا يجدون قاسماً مشتركاً بينهم أفضل من أنهم جميعاً يحملون دمغة التلمذة على يد هذا الأستاذ الذي أعطى بحب طوال السنوات دون انتظار لمردود خاص أو ميزة تستحق المزايدة ، ما من طالب خرج من بوابة الهداية إلا وهو ممهور بعلم المحادين وصفاته الإنسانية «ولو استبدلت ممهور بمبهور لما ظننت أنني مجانب الصواب على كل حال!

يقتضي المقام أن أشير إلى أنني أحد الذين سعدوا بالتلقي على يد الأستاذ عبدالحميد ، وأنني أقدر في هذا الأستاذ مبلغ تواضعه إذ كرست السنوات وشاءت ظروف الإصرار على الطلب أن ألتقي معه على مقاعد الدراسة والتحصيل العلمي في برنامج الماجستير بجامعة البحرين ، وأشهد أن الرجل كان في كل ذلك مثالاً للعلماء الحقيقيين لا يأنف أن يتحاور مع طلبة في عمر أبنائه فيفيدهم ويفيد منهم دون إحساس بمنقصة أو ارتباك .

احتفظت ومازلت للأستاذ عبدالحميد بمشاعر الإكبار والامتنان ولازلت حريصاً على الوقوف منه موقف التلميذ المقر بفضل أستاذه رغم تشجيعه المبالغ

لي وتواضعه الذي يسبغ علي من الصفات ما يقصم ظهري وهو ليس لي . وقبل أيام قليلة افتتح الأستاذ عبدالحميد المحادين باب التخرج لأول دفعة من طلبة ماجستير اللغة العربية بجامعة البحرين بمناقشته لرسالته العلمية القيمة حول تقنيات السرد في روايات عبدالرحمن منيف . وأبى عبدالحميد المحادين إلا أن يضعنا في طقس يفيض بالعبر والدلالات والقيم التي نتعلم منها . كان المشرف على رسالته هو الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم الذي كان في يوم سالف أستاذاً يتولى التدريس كخريج جامعي حديث التخرج في مدرسة واحدة مع الأستاذ المحادين الذي طعن في سنوات الخبرة يومها ، وها أن أبا أنمار اليوم يتولى دفة التوجيه والإشراف على جهد زميل الأمس من خلال علاقة مكتنزة جميلة يتألق الاثنان في زيادتها ألقاً ، وها أن الممتحن الخارجي هو الدكتور سليمان الشطي من الكويت وهو الذي شارك المحادين ذات يوم في تأليف وإصدار مشترك ضمن ملتقى يشارك الاثنان في تقديم أبحاثة مشاركة الند للند ، وجاء الدكتور الشاب محمد بدوي ليكمل لجنة مناقشة الشيخ الوقور عبدالحميد المحادين .

جلس الثلاثة على منصة المساءلة وجلس المحادين في موضع التلميذ مرهف السمع للاستفادة والاستزادة ، رأيت في الرجل بعض وجل هو من سمة العلماء الأفذاذ الذين يبادرونك بالقول فوق كل ذي علم عليم ، كنت أتابع المحادين وأنا أستشعر بعض ما في داخله فقد حضر إلى مكتبي بالجامعة باكراً يوم المناقشة ولم يتظاهر ولم يداور قال لي ببراءة طفل «والله ياخوي يا محمد أنا خائف وأحلامي البارحة كلها سرد بسرد والله يعديها على خير!» طمأنته ولاطفته وهونت عليه من الأمر مرة ، ومزحت معه من لعبة المناقشة المسرحية مرات ، وطافت في تداعياتنا خواطر كثيرة . . ذكرته ممازحاً بقول الرسول في الحديث النبوي «من نوقش الحساب فقد هلك» مجرد المناقشة واستعدنا معاً مناقشات بعض الدكاترة وما جرى فيها وما نقل عنها و . .

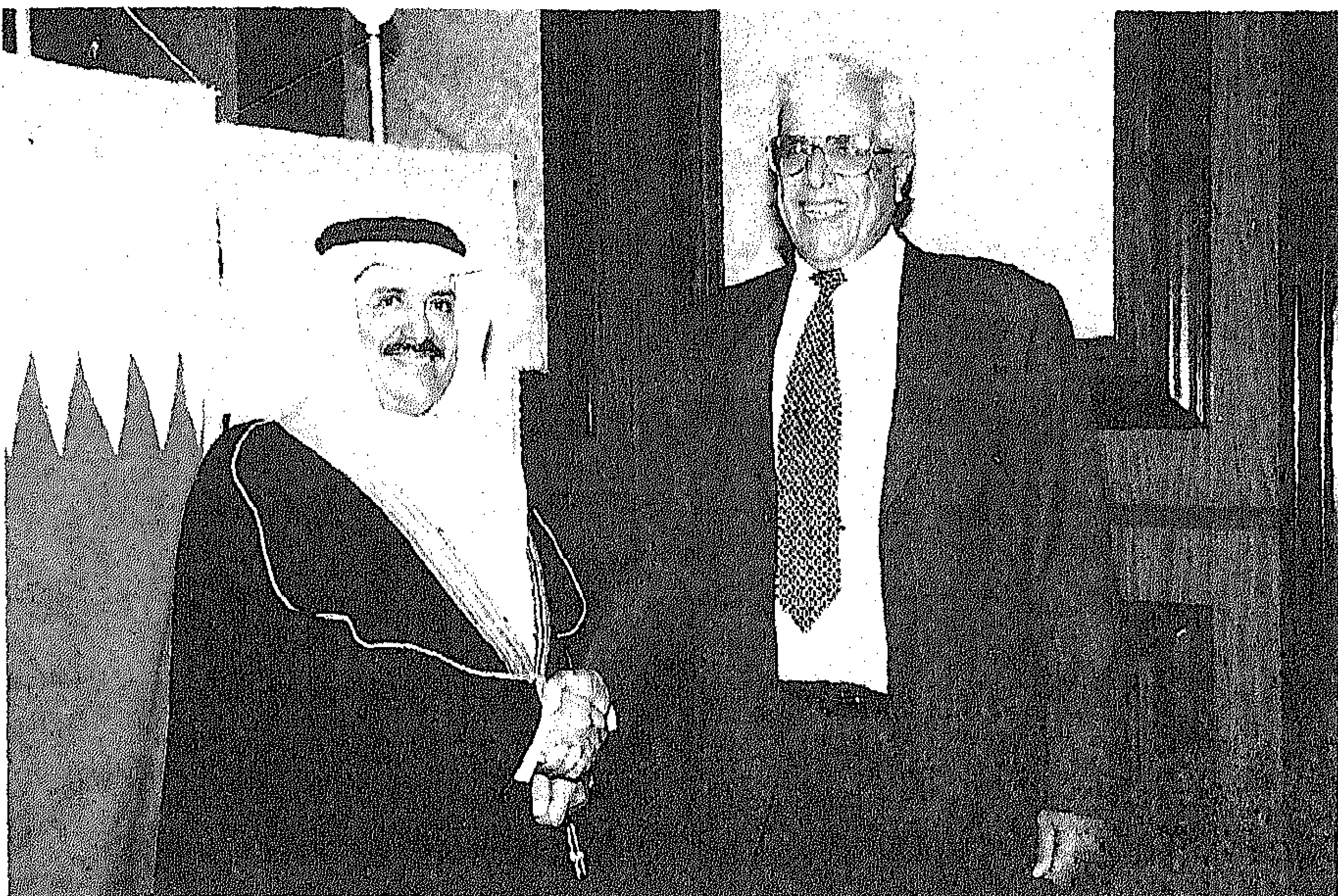
أخيراً حان الحين وأزفت الآزفة واتخذ المحادين مقعدة بعد أن تمازح مع أبي

أنمار وصافح بتواضعه طلبة البرنامج الذين ينتظرون قضاء النحب ، وفي كل ذلك كنا نعيش طقس العلم وأخلاق العلماء ، على أن الدكتور محمد بن جاسم الغتم أبى إلا أن يتوج هذا الجو الجميل بقيمة خلقية أصيلة وكريمة تضاف إلى السياق الحافل الذي جمعنا في تلك الساعة ، فلم يقتصر الأمر عنده وهو الذي تتلمذ على يد المحادين ذات يوم ، على الحرص على الحضور بل توجه نحو «الطالب» عبدالحميد المحادين قبل المناقشة وصافحه بحرارة مخاطباً إياه بلفظ «الأستاذ» ومتمنياً له التوفيق وفي موقع ما من الصالة كنت أستيعد في تلك اللحظة عموداً كتبه حافظ الشيخ في الأيام الأولى لتولي الدكتور الغتم رئاسة الجامعة مذكراً بأيام الطلب والتحصيل المشترك بين الاثنين ثم استذكر ما عرفته عن رأي المحادين في هذين التلميذين وهو رأي يسرهما لو عرفاه بكل تأكيد ، كنت أختلف على بيت المحادين في أيام الطلب ، غير قانع بالأخذ عنه في المدرسة فقط ثم عرفت أن هذه الصفة يمكن تنسيبها إلى طابور عريض من الطلبة الذين وجدوا في الأستاذ المحادين قبساً لا تقتصر الإفادة منه على حصص الدراسة القصيرة فقط عرفت أن الصديق قاسم حداد هو واحد من هؤلاء وقد عجبت من الحبور والانشراح الذي يحل بقاسم كلما استعاد الذاكرة وتحدث عن أستاذه ومربيه الفاضل ثم عرفت أن الدكتور محمد بن جاسم أحد هؤلاء الذين ربطتهم بالمحادين علاقة ود وتلق ومازال المحادين يشيد بها في مجال الخلصاء لا في مجالس العلن إلى اكتساب منزلة بمثل هذا الحديث .

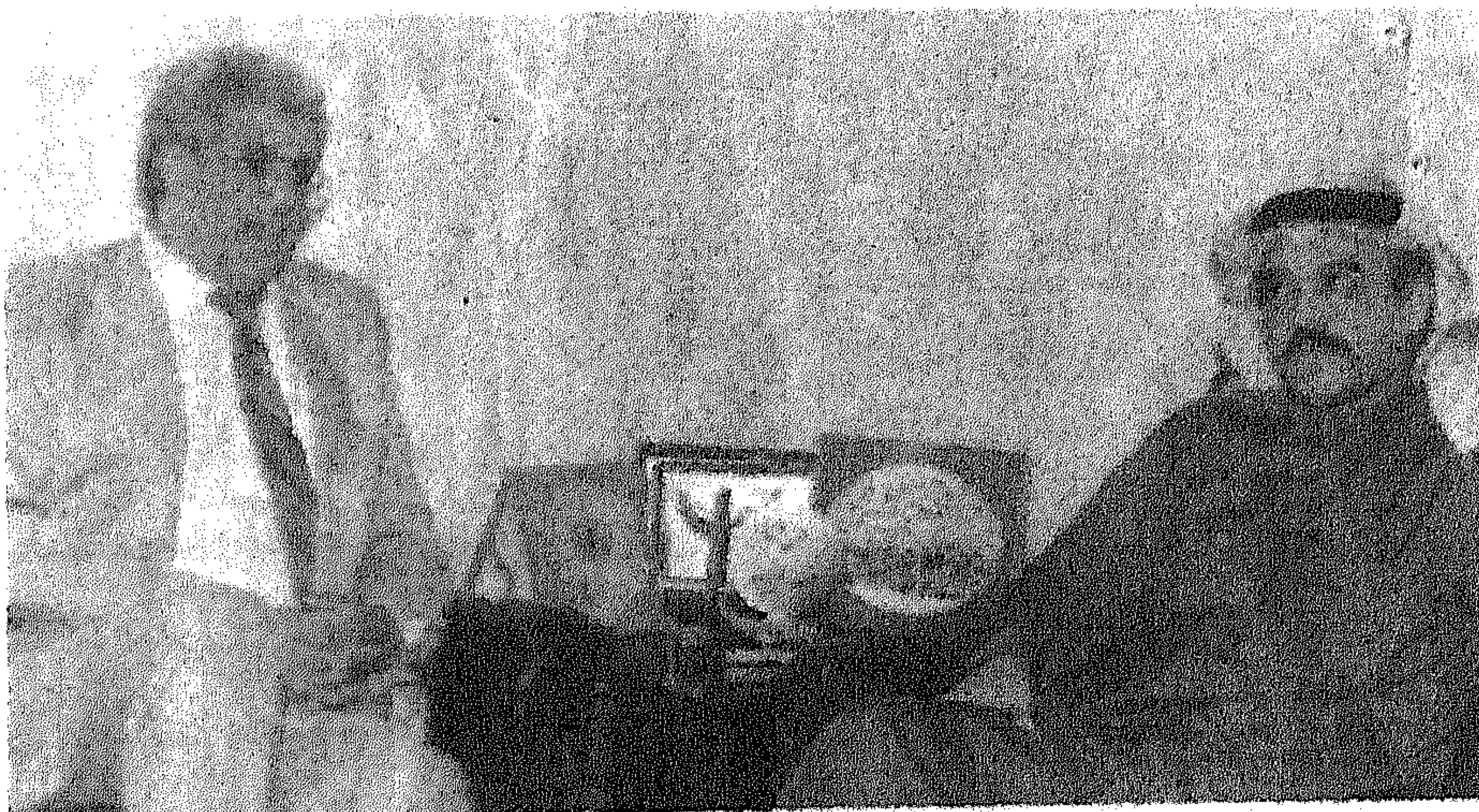
اللفتة المكتنزة بالمغزى التي أوقفنا عليها رئيس الجامعة والابتسامة المتفصدة من القلب على وجه أبي أنمار بعد إعلان النتيجة ، والزهو في قسمات أم ساسان وساسان وسيروز وأختهم الصبية الجميلة وقد حضر الأبناء كي يشهدوا ساعة تشفي في والدهم الذين يعلم علوم الدنيا ثم يواجه من هو أعلم منه كما قال لي أبو ساسان!» .

والحضور المحتشد من الجامعة وخارجها كلها علامات جاءت لتعلن احتفاءنا .

بالناقد البحريني مربي الأجيال عبدالحميد المحادين في يوم حصوله على الماجستير رغم أن في حقيقة الأشواط التي قطعها على دروب العلم ما تتضاءل أمامه قيمة شهادة من هذا النوع ولكنها ساعة استثنائية تبارى فيها الجميع للقول ، هكذا فلتكن سجايا العلماء وهكذا فلتكن حفاوتنا بالعلم حفاوة قد لا تسجلها الخطب ولا تأتي على وصفها صفحات الكتب ، لكنها تظهر في التصرفات الصغيرة «الكبيرة في مدلولها» لقد شرفت بحضور هذا الموقف ويعلم الله أنني لا أتزيد ولا أمالئ إذا قلت أن ذلك اليوم قد زادني حباً على حب لكل من أسهموا في تقرير هذا الدرس الذي لا يكفي لتقريره السنوات الطوال من الجلوس على مقاعد الطلب والتحصيل .



المحادين مع محمد بن جاسم الغتم



المحادين مع إبراهيم غلوم



إبراهيم غلوم ، الحادين ، ماجد النعيمي ، علوي الهاشمي



محمد بدوي ومحمد البنكي



ناصر المبارك



هلال الشايجي



علوي الهاشمي



محمد بن جاسم الغتم



من أساتذة الهداية الخليفية

(٣٩)

❖ **أنقذت وثائق هامة في مسيرة التعليم من مصيرها الوشيك نحو الإعدام**

❖ **« الخروج من العتمة ».. أكثر الكتب اكتمالاً ومنهجية في حقل تأريخ التعليم.. ولم يلق الحفاوة اللائقة به**

❖ **تقدمت بكتاب « خطوات باتساع الأفق » لمسابقة جائزة ولي العهد في مركز البحرين للدراسات والبحوث.. ولكن!!**

❖ **(أوراق من دفتر التعليم) و(رجال كانوا هنا).. كتابان يعتبران إضافة لسجل توثيق التعليم**

❖ **تناولت أدبيات التعليم في كتابي وأنضجته على نار هادئة غير متهيب من محاولات الآخرين**

❖ **هكذا شاركت في الاحتفالات باليوبيل الذهبي والماسي للهداية الخليفية.. ولهذه الأسباب لم أتمكن من الإيفاء بوعدي!**

وجدت نفسي موزعاً بين عدد من الاهتمامات ، وللحقيقة لم أكن أدري ماذا أريد فأنا مسكون باهتمامات كثيرة ، وأنا قادر على أن ألتفت لكل اهتمام بما يشبع رغبتي لو أنني وجدت الحوافز إلى ذلك . . في منتصف الستينات كنت أتجول في ساحة المدرسة (الهداية) ولفت نظري أن مخزناً قد فُتح وأمامه سيارة نقل كبيرة وعمال يحملون ما في المخزن ويلقونه في السيارة ، ومن فضولي

اقتربت وإذا الذي يلقى في السيارة أوراق قديمة بعضها مبعثر وبعضها على شكل ملفات صدئت أسلاكها المعدنية ، لكن الكتابات فيها والأوراق ما تزال قابلة لأن تُقرأ . .

لم أكن معنياً بالمسألة فهذا الموضوع خارج كل اهتمامي إلا أنني مددت يدي إلى بعض هذه الملفات وتناولت جزءاً منها وأخذت أقلب فيه ، فبدأت أهتم بالشيء الذي عثرت عليه مكتوباً لكنني لم أنتبه إلى سوء ما يفعل بهذه الملفات ، وإنما كقارئ أخذت أهتم ببعض الأوراق التي عثرت عليها ولما وجدت هذه الأوراق بهذه القيمة الأولية ، ازددت منها أثناء تحميلها في السيارة وحافظت على بعضها وأخذت اقرأ بعين ناقدة ، أو هكذا تخيلت . . وكما قلت في أكثر من موضع أن أي إنسان طارئ على أي بيئة ينبغي أن يبحث لنفسه عن دور فالتمعت في ذهني فكرة أن ألتفت إلى هذا الموضوع ، وكانت هذه هي البوابة التي قادتني إلى الاهتمام بتاريخ التعليم في البحرين بعد أن طورتها فيما بعد كما يجئ الحديث .

وهكذا اتجهت اهتماماتي نحو تسجيل وتوثيق تاريخ التعليم ، وبدأت أعمل في المشروع على مراحل وخطوات .

«أخذت الأوراق فوجدت في أحد الملفات رسالة تعود إلى العام ١٩٤٢ تقريباً وجهها (ووكلن) مدير التعليم في البحرين آنذاك ، (ووكلن) ذاته شكل عندي قضية ، من هو؟ ومن أين جاء؟ ولماذا جاء؟ ثم مضمون الرسالة التي أرسلها معبرة عن عقلية أقل ما يقال فيها أنها تختلف عن عقلياتنا نحن العرب ؛ وهو يوجه مدراء المدارس إلى أخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة احتمالات تعرض البحرين لغارات جوية في الحرب العالمية الثانية ، سيما وأن البحرين ذات مرة تعرضت فعلاً لغارة جوية كان القصد منها ضرب مصفاة النفط ، وربما كانت الطائرة التي قصفتها إيطالية لكنها أخطأت أهدافها (والرسالة مكتوبة باللغة الانجليزية) . . ولأنني لم أكن أثق بلغتي الانجليزية فقد أردت أن

أترجمها ، واستعنت ببعض الزملاء من أساتذة اللغة الانجليزية حتى تكون الترجمة أمينة إلى حد ما . . وأجد في ملف آخر أقدم ، أن أمين الريحاني زار البحرين في أوائل العشرينات من القرن الماضي ، ولأن البحرين كانت في ذلك الوقت هي المحرق من حيث التوجه الثقافي فأخذوه إلى مدرسة نظامية ، ولعلهم بكل تأكيد كانوا يفاخرون بها ، مدرسة ابتدائية في منزل في جنوب المحرق بانتظار استكمال المدرسة الأصلية (المبنى) في شمال المحرق ووقف أمين الريحاني يستمع إلى كلمة ترحيب ألقاها الطالب أحمد علي موسى العمران . ثم يلقي أمين الريحاني كلمة توجيهية قومية على طلاب مدرسة الهداية ، ووجدت بعض القضايا والمراسلات مما لفت نظري إلى أن ثروة قيمة بشكل ما كانت تنقل من المخزن إلى السيارة إلى المزابل!

وأخذت أتلمس في أرجاء المدرسة وفي بعض مخازنها بعضاً من الملفات القديمة ، في هذه الأثناء بدأت حكومة البحرين تعد العدة للاحتفال بمرور ٥٠ عاماً على تأسيس التعليم النظامي وبما أن بدء التعليم النظامي كان في العام ١٩١٩ ، إذن سنة الاحتفال ستكون في العام ١٩٦٩ وكان مدير المدرسة حتى العام ١٩٦٧ عبدالله فرج الذي استقال في نهاية ٦٧ وغادر إلى مصر ، وصار مدير المدرسة بعده ياسين الشريف ذلك الرجل الفلسطيني من سكان القدس والذي كان بصحبة يعقوب القوز عندما التقيت بهما في القدس في شهر آب من عام ١٩٦٠ للتعاقد ، صار ياسين مديراً للهداية فاقترحت عليه أن نصدر من مدرسة الهداية مجلة مدرسية فوافق ، سيما وأنه وجد في صندوق المدرسة مبالغ من المال كانت تحت تصرف المدير السابق عبدالله فرج والذي لم يكن يصرف منها إلا بحذر على شؤون المدرسة ، وآلت المبالغ إلى المدير الجديد الذي قرر أن يصرف على المدرسة كل ما هو مخصص للمدرسة .

ثم اقترحت عليه (سيما وأن احتفالات اليوبيل الذهبي سيكون موقعها مدرسة الهداية ، المدرسة العروس آنذاك ، التي هي موضع الحفاوة ، وستكون

الزيارة لها) ، أن أكتب كتيباً فيه بعض ملامح التعليم ووافق مدير المدرسة على تمويله وبدأت أحضر لهذا الكتيب ، وفعلاً كانت تجربة بداثية بسيطة لكنها ذات دلالة .

وأعددت المادة وحملتها إلى المطبعة الشرقية حيث تمت طباعة هذا الكتيب في أوائل ١٩٦٩ حيث كانت الاحتفالات في شهر إبريل من ذلك العام وكنت وأنا أذهب إلى المطبعة لأصحح بروفات الكتاب ، وأسميه الكتاب مجازاً فهو كتيب ، وكنت ألتقي هناك بالمرحوم عبدالملك الحمر مدير المدرسة الثانوية آنذاك والذي كان يتابع كتاباً كتب عن التعليم فيما أظن أو شيء من هذا القبيل باللغة الانجليزية .

ومن العجب أن مديرية التربية والتعليم أولت موضوع هذا الاحتفال اهتماماً غير عادي وكانت البحرين ما تزال تحت الانتداب الانجليزي لكن إرهاصات الاستقلال تأتلق في الأفق فوجهت مديرية التعليم دعوات إلى كل وزراء التربية العرب وإلى الأمين العام للجامعة العربية ، واستقدمت خبيراً في العروض المدرسية من جمهورية مصر العربية لينظم عرضاً ميدانياً لطلاب وطالبات إدارة التعليم . . وكانت هذه الخطوة قفزة في الفراغ فوجئ بها الناس لكنهم تقبلوها . .

ويجهز الكتاب ويتم توزيعه على ضيوف مملكة البحرين في ذلك الاحتفال باليوبيل الذهبي ، وكان أول كتاب يلفت النظر إلى بعض حقائق التعليم ، وإن كان غير منهجي ، فهو (تقميشات) من هنا وهناك إلا أنها ذات دلالة ، ويومها كتبت قصيدة وضمنتها الكتاب ، وللحقيقة أنني لم أستأذن أحداً في وضع القصيدة في الكتاب مع أن آخرين نصحوني بذلك . . وهذا الكتاب بالذات هو الذي أعاد وزير التربية والتعليم الدكتور محمد الغتم طباعته مع مجموعة من كتبي التي صدرت فيما بعد في عام ٢٠٠٢ حين قرر سمو ولي العهد زيارة مدرسة الهداية الخليفية القديمة ، فكانت كتبي هي هدية الوزارة إلى ضيوف تلك الزيارة . .

ولقد التفت كثيرون بسبب كتابي أو بدونه إلى مسألة تأريخ التعليم ، فبدأوا يؤرخون التعليم كل بحسب ما واتته موهبته ، وأخذت الصحف تنقل وتكتب مقالات عن هذا الموضوع وأصبحت الساحة تمتلئ قليلاً قليلاً بدراسات عن تاريخ التعليم ، لكنني لم أكن أهتم بما يكتب حول الموضوع ، اعتقاداً أنه لن يقلل من قيمة ما سأكتب ، لأنني أمتلك أسلوباً يخصني ولا ينافسني فيه أحد ، والموضوعات التي سأتناولها هي أدبيات التعليم وليست التعليم نفسه ، وإنني سأركز على الأمور التي أهملها الكتاب ولم يلتفتوا إليها . . وأخذت أجمع المادة وأزور المدارس وأطلع على تاريخها وأقرأ ما كتب عن التعليم في الدول المجاورة كالكويت مثلاً ، وكنت أنضج هذا الكتاب على نار هادئة لست في عجلة من أمري ، وأعرف ماذا أنتقي وماذا أترك لكنني كنت أحتفظ بكل شيء ، إلى أن جاء العام ١٩٨٩ وقد فكرنا في المدرسة : الاحتفال بمرور ٧٠ عاماً على تأسيس الهداية ، وكان حينها قد تجمع لدي كم من المعلومات تصلح أن تكون أساساً لكتاب ممنهج فكتبت كتاباً أسميته (الهداية رجال وآفاق) . . كان الناس يجهلون مدراء الهداية فأرخت لهم واحداً واحداً إلى ذلك التاريخ وقد وضعت صورة لكل منهم باستثناء مدير واحد لبناني لم أستطع أن أجد له صورة ، وكانوا ١٨ مديراً ، وأرخت تطورات المدرسة والبعثة العلمية من الهداية إلى بيروت سنة ١٩٢٨ ، وتأسيس مدرسة البنات في ذات التاريخ وتاريخها المبكر ومدراء التربية والتعليم منذ «فائق أدهم» حتى «فالانس» حتى «ووكلن» حتى «أحمد العمران» في ١٩٦٠ . . وأرخت لبواكير التعليم التجاري والصناعي والديني ، ثم استكتبت أناساً ممن كانوا طلاباً في الهداية وخرجوا إلى الحياة العامة وصارت لهم أسماء حيث كتبوا عن انطباعاتهم حول المدرسة .

المهم ، كان الكتاب أفضل من الكتاب الأول وأكثر فائدة وأغزر مادة وأرقى طباعة فوزع أو بيع على زوار معرض للصور والوثائق القديمة الذي أقيم في مدرسة الهداية الخليفية بالتعاون بيني وبين زميلي وصديقي عبدالوهاب

بوكمال . . لكنني لم أكن مقتنعاً بأن هذا نهاية المطاف وفي عام ١٩٩٥ احتفلت المدرسة باليوبيل الماسي ولهذا الاحتفال قصة ، فمنذ ١٩٩١ بدأنا في الهداية نكتب إلى وزارة التربية أو إلى وزير التربية د . علي فخرو ووجدت الفكرة قبولاً من وزارة التربية والتعليم . . حيث اقترحت على وزير التربية والتعليم الدكتور علي فخرو أن أكتب كتاباً شاملاً عن تاريخ التعليم وأن تتبنى وزارة التربية والتعليم إصداره وطباعته . . ووافق الدكتور علي فخرو على ذلك واقترحنا احتفالاً كبيراً بمناسبة عيد التعليم الماسي ووافق وزير التربية على ذلك وشكل لجنة برئاسة الشيخة منيرة بنت فارس آل خليفة وعضوية عدد من ممثلي الإدارات والمهتمين بهذا الموضوع وطلبت من مدير المدرسة «الهداية» الأستاذ محمد حسين عبدالملك أن يخفف من جدولي التدريسي لإنجاز ذلك الكتاب ، واتصل بالمسؤولين بالوزارة فلم يبدوا معارضة ، حتى أن التربية أرسلت مدرساً ينهض ببعض جدولي وأفرغ لهذا الموضوع وبدأت الاجتماعات وبدأنا الأحاديث في لجنة اليوبيل الماسي ، وأفاجأ بأن مناخ العمل في تلك اللجنة (لأسباب لا داعي لذكرها) غير مشجع بل وشعرت بأنني لست موضع التشجيع وأنني أتعرض لإحباطات كثيرة ، لذا اضطربت في ذهني أوليات هذا التأليف ، وشعرت بأنني في مثل هذا الجو ربما لا أستطيع أن أنجز هذا الكتاب ولا أفي بالوعد .

رغم أنني في هذه السنة من شبه التفرغ جمعت مادة تكفي لتأليف عدة كتب وطبعتها كمصدر ، أنتقي منه لأضع الكتاب النهائي . .

وفي آخر احتفال بعيد علم في عهد د . علي فخرو قال في كلمته مخاطباً المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أن هناك في الأفق كتابين أحدهما يتناول تاريخ التعليم والآخر يتناول تطور فلسفة مناهج التعليم في البحرين . . وكانت الإشارة في الكتاب الأول لكتاب أنا وعدت بكتابته ، والثاني وعد بكتابته الدكتور نخلة وهبه مستشار الوزير ، وفي تعديل وزاري خرج الدكتور

على من الوزارة . . وفيما يتعلق بتأليف الكتاب قررت أن أسلك طريقاً آخر . . وأما لجنة الاحتفال باليوبيل الماسي فقد قدمت مقترحات لاحتفالات تحتاج إلى مبالغ تصل إلى بضع مئات الآلاف من الدينارات وذلك بتكرار تجربة العام ١٩٦٩ من دعوة وزراء عرب وغيره ، فاصطدمت هذه المسألة بقضايا الموازنة والمالية ، كما تقرر إقامة نصب تذكاري قرب مدرسة الهداية في المحرق وتلاشت الفكرة وتراجعت اللجنة إلى درجة الصفر ، فيما عدا تكريم عدد من رواد التعليم ومنهم العريض والمعاودة .

واحتراماً للثقة التي أُوليتها ومداراة للفشل في وضع الكتاب المرتقب ، هذا الفشل الذي لا ذنب لي فيه فقد قررت أن أقدم شيئاً ما فوضعت كتاب (أوراق من دفتر التعليم) وهو كتاب توثيقي يجمع بين دفتيه عشرات الوثائق مما يشكل ملامح لأكثر جانب من جوانب التعليم ، ويمكن أن تكون مفاتيح للدارسين ، ونهضت أنا وصديقي عبدالوهاب بوكمال أستاذ الفنون بمدرسة الهداية وقررنا توثيق تاريخ المدرسة بالصور ، فحشدنا مئات الصور النادرة وكلفنا ذلك جهداً مضنياً ، وأقمنا معرضاً للصور القديمة وللمدراء القدماء والتلاميذ والخريجين ولكل من أتيح لنا الحصول على صورة له ووضعت في إطارات أنيقة ، وأنني أذكر الآن أن الصديق المرحوم خليفة حسن قاسم وكان صاحب دار المسيرة للطبع والنشر تبرع بالإطارات مجاناً ، وأثبتنا الصور في البوم تذكاري أسميناه (رجال كانوا هنا) .

وللحقيقة فإن هذين الكتابين يعتبران إضافة لسجل توثيق التعليم ، صحيح أن نقصاً ما كان بالكتابين لكنهما كما يقول الشاعر : (كل على قدر الزيت فيه يضاء) وهي جهود فردية في النهاية وما يزال هذا المعرض (معرض الصور) مخزّناً في المدرسة ، يطوى أحياناً وينشر في المناسبات أحياناً أخرى .

إن كتب (الهداية) و(الهداية رجال وآفاق) و(أوراق من دفتر التعليم) و(رجال كانوا هنا) أعيدت طباعتها كلها ووزعت على ضيوف الهداية في زيارة

سمو ولي العهد التي أشرت إليها سابقاً عام ٢٠٠٢ ، إلا أنني رغم كل هذه الأمور كنت أستشعر إنني لم أف بالوعد ولم أضع كتاباً يتناسب مع المنتظر مني للتعليم فقررت أن استنهض الهمة ، وأن أكتب تاريخ التعليم كما كنت أحلم به وبجهد ذاتي ، ولملمت المهم من الوثائق والأوراق ، وكنت وأنا أكتب الكتب السابقة أضع بعض الوثائق على ذمة ما سوف يجئ ، وكتبت الكتاب الموسوم (الخروج من العتمة) وهو يغطي تاريخ التعليم منذ بداية القرن العشرين إلى فجر الاستقلال سنة ١٩٧٠ ، وصدر عام ٢٠٠٣ ، وأشعر أنني وفيت بالعهد ، إن العهد كان مسؤولاً .

وأما تطورات التعليم منذ ١٩٧٠ وحتى الآن فقد أنجزت بعضه مخطوطاً ، ثم تمت طباعته بالكمبيوتر ، وبقي هذا الجزء لم يطبع بعد ، وينتظر أن يستكمل . وإنني لا أتحرج في أن أقول الآن إن كتابي الخروج من العتمة ، هو أكثر الكتب التي ألفت من هذا الحقل اكتمالاً ، ومنهجية . . ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يلق الحفاوة اللائقة به ، بل لم يلتفت إليه أحد فيما أظن .

وأود هنا أن أشير إلى مسألة أخرى . . وهي أنني تقدمت بكتاب التعليم كاملاً تحت عنوان «خطوات باتساع الأفق» وذلك لمسابقة جائزة ولي العهد في مركز البحرين للدراسات والبحوث ، وكنت أحلم أن يفوز الكتاب وأتمكن من طبعه في إطار الجائزة . . ولكن هذا الكتاب (الحلم) أخفق في الفوز . . . وسلكت من أجل طباعته طريقاً أخرى .

وجزأته إلى جزئين صدر أولهما عام ٢٠٠٣ وهو «الخروج من العتمة» . . وسأروي قصة هذا الكتاب في حلقة قادمة

وكان حسام أبو إصبع قد كتب مقالة تحت عنوان (عبدالحميد المحادين : مسلسل الهداية الخليفية لا يزال مستمرا) ، علق فيه على كتاب (الخروج من العتمة) وجاء في المقال :

لقد كان المحادين ولا يزال أحد القلائل المعنيين ببحث مسألة التعليم

بشكل يكاد يكون هماً يومياً ، حتى وإن سرقت مشاغله اليومية ، أو دراساته النقدية بعض وقته ، إلا إنه مخلص تماماً لهذا الموضوع ، الذي وضع فيه سنوات عمره من الاشتغال والبحث والتنقيب ، وقد كانت فعلاً حصيلة هذا البحث الكبير الذي يستحق هذا العناء .

قلنا قبل قليل إن علاقة عشقية من نوع فريد ربطته بالهداية الخليفية التي جاء إليها مدرساً مطلع الستينات الماضية ، وظل طيفها بعد أن غادرها يداعب قلمه ، فيسطر الكتاب تلو الآخر حول الهداية ورجالها وأثرها . . وتفيدنا سيرته الذاتية بمدى تماسك هذه العلاقة وقوتها ، وإن تغيرت الأزمنة ، وتبدلت الأحوال وكانت النتيجة كتاب «رجال وآفاق ١٩٨٩» ، وكتاب «أوراق من دفتر التعليم ١٩٩٥» ، «رجال كانوا هنا ١٩٩٥» وهو مؤلف مشترك ، وأخيراً «الخروج من العتمة ، خمسون عاماً لاستشراف الأفق ٢٠٠٣» . . كل هذه المؤلفات تمحورت عن الهداية ، المدرسة التي حفظت أرشيف تطور المجتمع وتبدله من حال إلى حال ، المدرسة التي خرجت الآلاف المؤلفة ممن تسنموا أعلى الدرجات ، وهي المدرسة التي «أعادت الروح» وأطرتها لتوليد أجيال مؤمنة بوطنها الصغير والكبير سواء بسواء .

وتأكيداً لما مضى من قول ، فإن المحادين الذي سكن لفترة صوت تعميق بحثه النقدي وإتمام دراساته العليا ، متجهاً صوب اختبار أدوات سردية آتيه من خلفية بنيوية ليطبقها على نصوص الروائي الشهير عبدالرحمن منيف ، ومن ثم بفحص كنه العلاقات التي تربط إنسان الرواية الخليجية بزمانه ومكانه ، سرعان ما نفض يده من أحاديث المتخيل والتأويل والاحتمال ، ليعود إلى معشوقته بكتاب ضخم يقع في ٥٨٣ صفحة ، يعد خلاصة واستخلاصاً لتجربته الشخصية في معاصرة هذه المدرسة ومراقبه أفق تطورها ، وقراءة تجليات ماضيها ، وأيضاً ببث توصيات تعيد ألمعيتها ، بوصفها جامعة عربية لا ينبغي لها أن تتخلى عن هذا الدور ، وبوصفها ، قادرة على إثارة حراك واع يتسم بالرقي في مجتمعها .

والناظر إلى هذا المؤلف الفريد سيخرج بنتيجة واحدة بعد إتمامه التطواف في مختلف جنبات هذا الكتاب ، وهي أن المحادين قد بذل في هذا الكتاب ما لم يبذله في غيره من جهد ، وأن جمل وعبارات التخوف التي ألح عليها في مقدمة كتابة من إمكانية الوقوع في هنات وسقطات ستنقشع سريعاً لعمق الجهد وضخامته من جهة ، وللوفرة في المعلومات الموثقة توثيقاً دقيقاً ولكونه المتخصص الأول في هذا المجال .



الأمير سلمان ولي العهد في زيارة لمدرسة الهداية



أثناء الاحتفالات سنة ١٩٩٥ باليوبيل الماسي
محمد إبراهيم المطوع، عبدالعزيز الفاضل، عبدالحميد المحادين، راشد الزياني

(٤٠)

* جمعية البحرين الخيرية.. إطلالة عمقت اندماجي في المجتمع البحريني
* كنت على معرفة وثيقة بالمغفور له إبراهيم حسن كمال وصداقة قوية بأبنائه
* إبراهيم حسن كمال شخصية وطنية مميزة وذو دور بارز في الأندية الوطنية
* هكذا عرفت الأستاذ محمد صالح عبدالرزاق القحطاني في جمعية البحرين الخيرية
* اخترت «منيف» لأطروحتي لمعادلاته الفنية في رواياته عن الوطن العربي
* كنت أول من نال ماجستير في الآداب من جامعة البحرين
* في عيد العلم.. جلست مع الطلبة الخريجين أشيب الرأس وانكسر الكرسي لوزني الثقيل
* بحصولي على الماجستير أيقنت أن الإنسان مشروع للطموح.. شرط ألا يتهيب
* «مركز الشيخ عبدالله صدقة دحلان التعليمي».. حلم طموح لم ير النور!

كنت على معرفة وثيقة بالمغفور له إبراهيم حسن كمال ، والذي كان شخصية وطنية مميزة ، وله دور في الأندية الوطنية ، ورأس تحرير مجلة صوت البحرين في أول الخمسينات من القرن الفائت وكذلك صحيفة «المجتمع الجديد» بعد ذلك في الستينات ، وكنت على صداقة وثيقة بأبناء المغفور له إبراهيم حسن كمال وبخاصة حسن والمغفور له عبدالرحمن ، ونبيل وفريد» .

«وقد وجهوا إلي دعوة للمشاركة في اللجنة الإعلامية في جمعية البحرين الخيرية التي أسسها إبراهيم حسن كمال في عام ١٩٧٩ ، والتحقت بعضوية هذه الجمعية وكنت عضواً في اللجنة الإعلامية ، وعضواً في هيئة تحرير المجلة الفصلية التي كانت جمعية البحرين الخيرية تصدرها بمعدل ثلاثة أعداد في السنة .

يعتبر العمل الخيري متعة إنسانية لا تعادلها متعة ، خاصة إذا كانت بين مجموعة من المتعاونين والمتفاهمين ، وقد كان يرأس الجمعية والمجلة أول الأمر المرحوم إبراهيم كمال ، ثم صار رئيس تحرير المجلة حسن إبراهيم كمال وهو من الأعضاء المجدين في اللجنة الإعلامية ولجنة المجلة ، وكان الأستاذ الفاضل محمد صالح عبدالرزاق القحطاني من الأعضاء ، وهو رجل تربوي ويعتبر واحداً من قادة الكشافة في البحرين الذين نالوا أعلى الشارات الدولية وحصلوا على أعلى التكريمات . . وكان من أعضاء اللجنة الإعلامية ولجنة المجلة الشاعر علي عبدالله خليفة ، والدكتور عبدالله صادق والدكتورة أنيسة فخرو ، والأخ حامد الصياد .

وفي عام ١٩٨٩ وتحت رعاية سمو رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان جرى تكريم الأعضاء المساهمين في جمعية البحرين الخيرية . . وكانت فرصة تصافحت فيها مع سموه .

في التسعينات ، وقد التحقت ببرنامج ماجستير في الأدب العربي ، وكان لابد من اجتياز ثلاثين ساعة معتمدة ورسالة ، ليتم التخرج ، ولم أتردد في

اختيار الروائي العربي المعروف عبدالرحمن منيف، لتكون رسالتي منصبة على جانب من روايات عبدالرحمن منيف، أما لماذا اخترت عبدالرحمن منيف، فذلك لأنه روائي مميز استطاع أن يجعل من رواياته معادلاً غنياً لما يجري في الوطن العربي، لكن ليس على حساب فنية رواياته، وكانت رواياته: «الأشجار واغتيال مرزوق»، «شرق المتوسط»، «النهايات»، «سباق المسافات الطويلة»، والتي توجها بـ»خماسية مدن الملح»، وهي روايات بحق تثبت أن منيفا كان من روائيي الصف الأول، في الوطن العربي..

ولست بصدد الحديث هنا عنه لكنني بصدد الإشارة إلى أمر يتعلق بمنيف، ولم يشاركه فيه أحد.. فعبدالرحمن منيف هو الأديب العربي الوحيد الذي مرت عليه فترة لا يريده أحد، والشعوب في العادة تفرح وتعتز إذا تفوق لها وفيها أحد أبنائها بإبداع إلا منيف، فلم يكن أحد يريده، ولم يكن أحد يدعي أنه ينتمي له، ولذا فقد مرت مدة طويلة ولا أحد يعرف من أي قطر عربي هو عبدالرحمن منيف.. سيما وأنه كتب عن كل أقطار المتوسط، ورواية شرق المتوسط تدور على أشياء من ذلك، وكذلك سباق المسافات الطويلة، وقد دخلت حياته ونسبه، فهناك من قائل أبوه من السعودية وأمه من العراق، وجده من الأردن، وعمه من إفريقيا، وتعلم في عمان، وتوظف في العراق، وتدكتر في يوغوسلافيا ومات في دمشق، ولا أدري إن كان سجن في مكان ما!.. وأخيراً ترجل عبدالرحمن منيف في دمشق، وكانت نهايته تتفق مع سيرورة حياته..

«والأغرب جداً أن الرواية الوحيدة التي كتبها منيف غير مسيسة ولا تتناول قضايا السياسة.. هي «ليلة حب مجوسية»، وأكاد أقول أنني أجدها أروع من جميع رواياته، من ناحية فنية، ومن ناحية روائية..

وكتبت دراسة حول «التقنيات السردية في روايات عبدالرحمن منيف» وهي التي نوقشت في جامعة البحرين، ونلت عليها الماجستير، ولقد انتهيت

من كتابتها في الوقت الذي ولد فيه آخر أبنائي وأصغرهم وهو «سريان» ومن هنا كتبت الإهداء «إلى سريان . . فقد كانا توأمين» . . أي الرسالة وسريان ولدا في زمن واحد معاً . .

ولقد كانت فرصة ثانية أن ألتقي بسمو رئيس الوزراء وذلك في حفل التخرج . . الذي يقام سنوياً في جامعة البحرين ، تحت رعاية سموه . . وكنت آنذاك أدرّس في الجامعة بشكل جزئي . . ويوم الاحتفال جلست مع الطلبة الخريجين أشيب الرأس ، وقد أبيض كل شعري ، ومن طرائف المشهد أنني قد جلست على كرسي مخصص بالاسم للطلبة الخريجين . . وانكسر الكرسي تحتي نظراً لأن وزني كان فوق احتماله . . طريفة كانت ولم أشعر معها بالحرج . . وحين نودي على الطلاب للسلام على سمو رئيس الوزراء واستلام شهاداتهم كنت أول من نودي عليه . . لأنني أول من نال ماجستير في الآداب من جامعة البحرين ، والمناداة تتم في العادة بدءا من كلية الآداب . .

يومها لم يكن قد تخرج أي من زملائي في برنامج الماجستير ، بل تأخروا بعدي سنتين ثم تتابعوا في التخرج . . ولقد أسعدني أنني وأنا أتلفت في القاعة عثرت بنظري على كثيرين من أصدقائي ، وطلابي ، وزملائي . . فزادني ذلك اعتداداً وأيقنت أن الإنسان مشروع للطموح ، وعليه ألا يتوقف أو يتهيب . .

وكانت الفرصة الثانية التي صافحت فيها سمو رئيس الوزراء الشيخ خليفة بن سلمان . . فالأولى كانت في احتفال تكريم أعضاء البحرين الخيرية سنة ١٩٨٩ ، والثانية في احتفال الخريجين من جامعة البحرين ١٩٩٧ ولا أدري هل تفاجأ سموه وهو ينظر إلى وجهي وشعري الأشيب ، ولكنه ابتسم ابتسامته الحانية ومد يده وصافحني وناولني شهادة الماجستير . .

وفي عام ١٩٩٣ زار مدرسة الهداية د .عبدالله صادق عبدالله صدقة دحلان . . وهو حفيد عبدالله صدقة دحلان الذي أسهم في تأسيس مدرسة الهداية ، وذلك بالمشورة على المؤسسين ثم كان يراسل هيئة المدرسة فترة طويلة

من الزمن ، وكان مع د .عبدالله صادق دحلان الذي كان يشغل رئيس غرفة تجارة جدة ، كان بصحبته الشيخ محمد بن خالد بن محمد آل خليفة وعبدالله الصوفي سكرتير عبدالله صادق دحلان وبعد أن رحب بهم مدير المدرسة محمد حسين عبدالملك ، صحبتهم في جولة في مدرسة الهداية الخليفية القديمة وهي المدرسة التي كان عبدالله صدقة دحلان قد أسهم في تأسيسها بالمشورة ، وأسهم في وضع قانون التعليم آنذاك في عام ١٩٢٠ .

ووجدت حفيده على إلمام بدور جده في بناء الهداية الخليفية وعلاقته الوطيدة بالهيئة الخيرية التي أشرفت على بناء المدرسة وتأسيس التعليم النظامي .

وتجولنا في الساحات وصعدنا إلى سطح المدرسة القديمة وفي التماعة سريعة . . قال عبدالله صادق دحلان : «إنني أتطلع إلى تخليد ذكرى جدي في هذه المدرسة ، وإنني أبحث عن وسيلة تحفظ له هذه الذكرى ، سيما وأنه كان صاحب رأي ومشورة في تأسيس التعليم النظامي في البحرين» ، وقال : «اقترحوا علي أي شيء تريدونه ليخدم طلاب الهداية ويبقى على ذكرى جدي حاضرة باستمرار لتذكّر الأجيال بدوره» . . وتلقفت الفكرة من حيث المبدأ وحملتها إلى مدير المدرسة محمد حسين عبدالملك والمسؤولين . . وقد وافق المسؤولون بعد أن استفسروا عن طبيعة تلك المساهمة سيما وأن الرجل كان جادا فيما يقول مما طمأننا إلى جديته . وقررنا أن يكون الإسهام تحت عنوان : «مركز الشيخ عبدالله صدقة دحلان التعليمي» ويكون مقره في الهداية الخليفية ، وكتب محمد حسين عبدالملك رسالة إلى عبدالله صادق دحلان يخبره فيها بالمقترح الذي تراه المدرسة . .

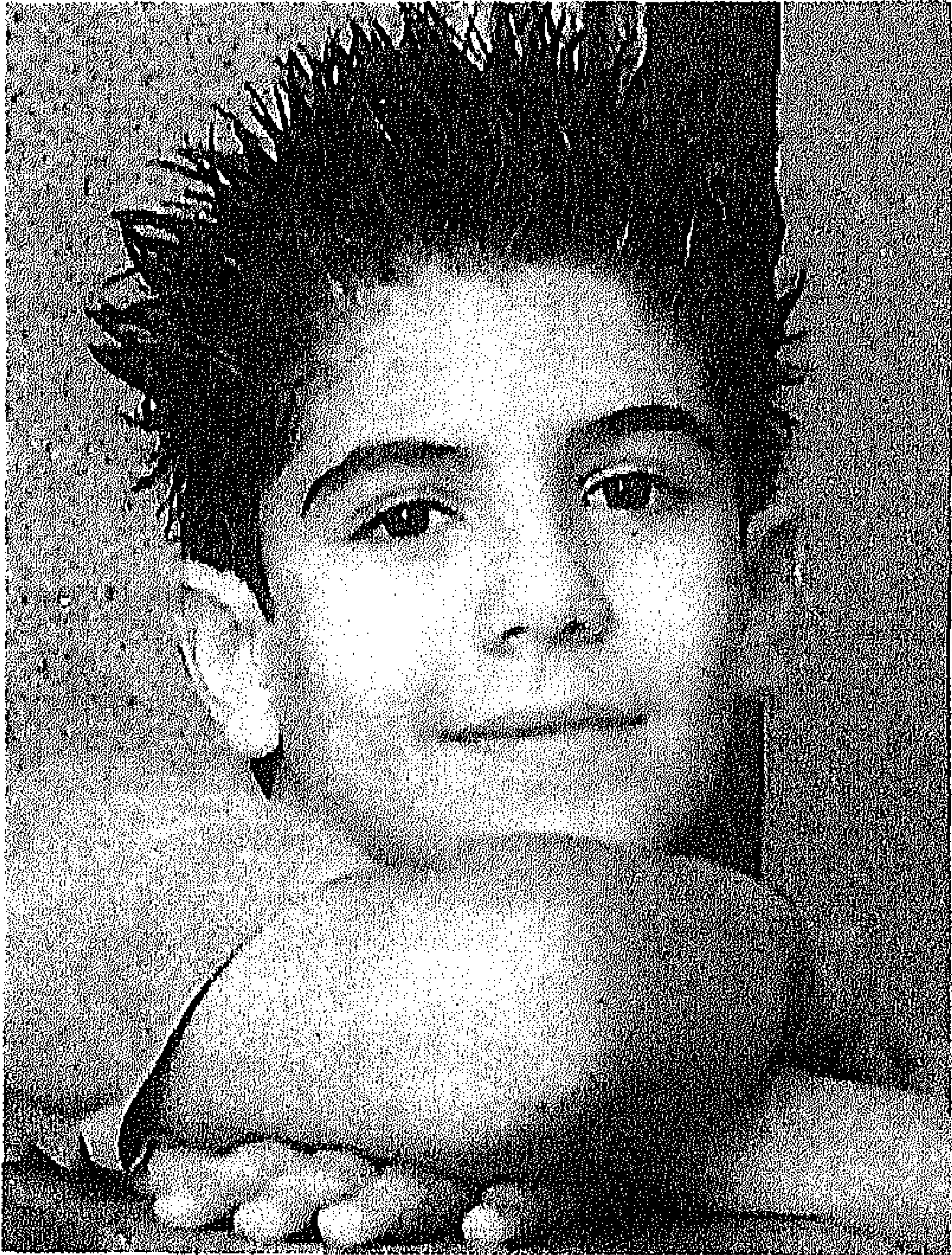
وما هي إلا فترة حتى جاءت رسالة من الشيخ عبدالله صادق دحلان يبارك فيها الاقتراح والتمس أن توافيه المدرسة بتفاصيل المقترح وكلفته لتنفيذه كما ورد . .

وبعد التشاور مع الجهات المعنية تم اقتراح تفاصيل مكونات هذا المركز . . وللحق فهي مكلفة ، ولكن رجلاً بحجم عبدالله صادق دحلان ، ومن خلال موقعه واستعداداته أرادت المدرسة أن يكون المركز مفيداً لها ولأبنائها في المستقبل .

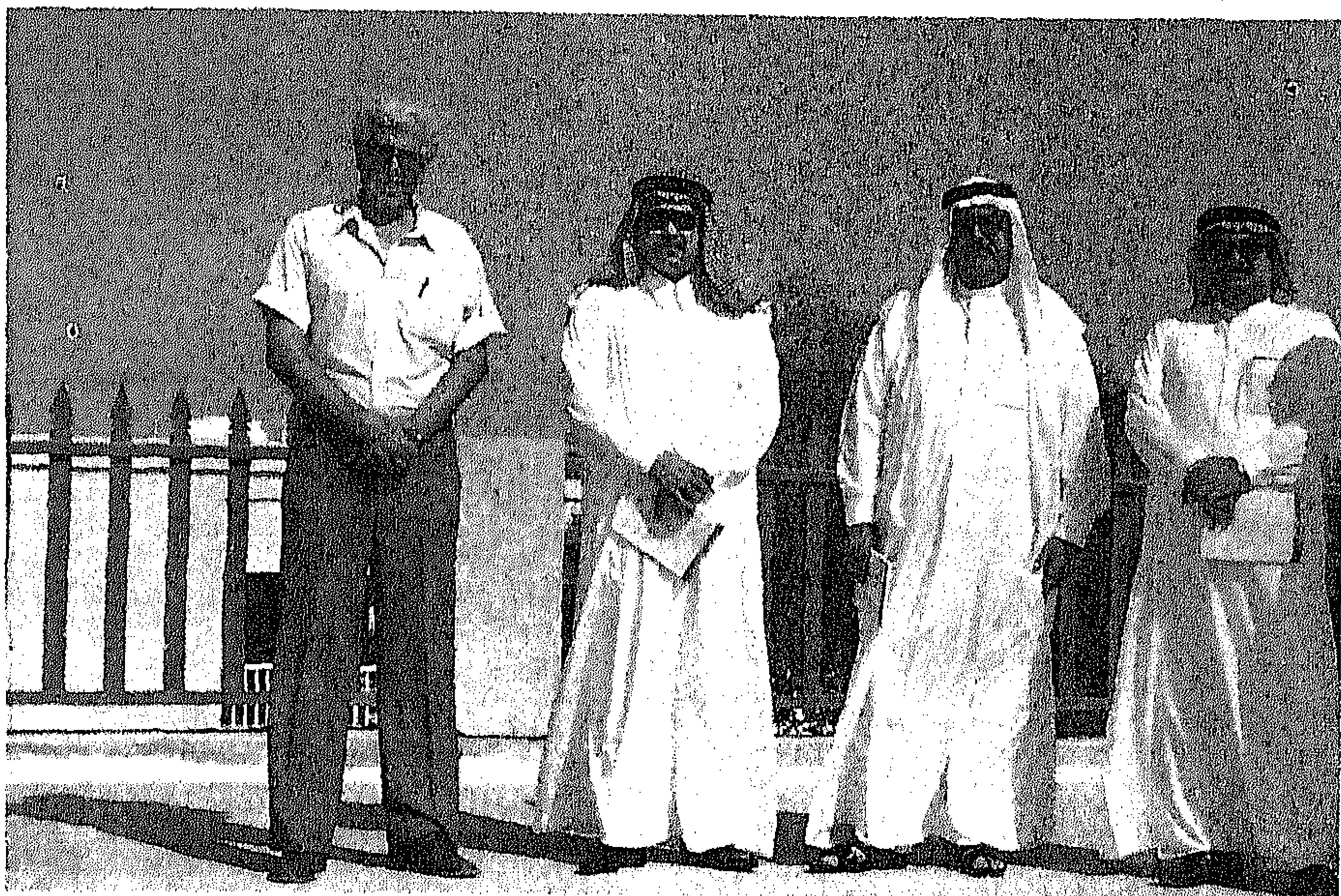
وبعثنا إلى الدكتور عبدالله صادق دحلان بالتفاصيل ، وانتظرنا زمناً ملائماً لكن الإجابة أبطأت علينا ، وتبادلنا الرأي فحسبنا أن الرجل ربما وجد أن الكلفة أكثر مما يجب أن يسهم ، فكتبنا له رسالة أخرى وأوضحنا له أننا ربما نكون قد بالغنا فيما اقترحناه . . لكن هو حر في أن يقدم ما يشاء . . واقترحنا عليه بناء مسجد ملحق بالمدرسة ، أو تجهيز قاعة من قاعات المدرسة بأجهزة كمبيوتر ، أو أن يقدم ما يشاء . . ولكن لأمر ما . . لم نجد إجابة ولا ندري ما الذي حدث لهذا المشروع ، ولأننا لم نتلق منه أي رسالة اعتبرنا الموضوع منتهياً ، ملتمسين لأخينا عذراً ، فربما كان في الأمر ما يمنع ذلك» . . .



الحادين يصافح رئيس الوزراء في حفل تخرج ١٩٩٧



سريان الذي ولد مع التقنيات السردية
لعبدالرحمن منيف



عبدالله الصوفي ، محمد بن خالد آل خليفة ، عبدالله صادق دحلان ، وعبد الحميد المحادين



اللجنة الإعلامية في البحرين الخيرية

(٤١)

❖ هكذا عرفته..

❖ «رب أخ لم تلده أمك».. توصيف صادق لعلاقتي بمحمد الغتم!

❖ كان طالباً متفوقاً قليل المشاغبة.. تبدو عليه كاريزمية وميل إلى القيادة والحزم

❖ الغتم ذو مشاعر إنسانية راقية ممزوجة بكثير من الشهامة والأريحية

❖ أمر لي بالسكن في أحد مساكن جامعة البحرين في عالي بعدما علم بظروفي المادية

❖ إحساسه بالواجب مرتفع ويقدر الذين يؤدون واجباتهم

❖ هكذا كانت قصتي معه حين حصلت على الماجستير.. وتلك هي تفاصيل زيارتنا الرسمية معه إلى الأردن....

❖ كثيرون من طلابي صاروا وزراء.. أمنحهم حقوقهم من التوقير والاحترام وأترك حقوقي عليهم ليقدروها!!

❖ كيف تعامل مع الدكتور إبراهيم غلوم في رحلته مع المرض؟

من الطلاب الذين التفت إليهم وشعرت بامتيازهم ، محمد الغتم ، لقد كان شخصية متوازنة ميالاً إلى الهدوء والصمت ، قليل المشاغبة في الصف حاضر الذهن دائماً ، متتبعاً للدرس . . وأبدى قدرة على استيعاب اللغة العربية وكان

يناقش أحيانا . . وكثيرون من طلابي لم يكونوا يكتفون بأن نلتقي في المدرسة أو في الصيف وإنما كانوا يحرصون على أن نلتقي خارج المدرسة وخارج الصف ، ولم يكن أنسب من أماكن سكننا ، نحن المعلمين ، لمثل هذه اللقاءات ، فكنت ألتقي كثيرين من طلابي الذين كانوا يزورونني في أوقات العصر وفي المساء أحياناً . . وحيث كنا نقطن في القضيبية ، كانت الحياة بسيطة ولا نجد حرجاً من أن نضع المقاعد عند بوابات منازلنا حيث كنا نسكن جماعات ، كل مدرسّين أو ثلاثة في شقة متواضعة ، وكنا نضع الشاي أو المرطبات ونجلس ونتبادل أطراف الحديث في بساطة متناهية .

كان محمد الغتم طالباً متفوقاً وكانت تبدو عليه الكاريزمية المبكرة والميل إلى القيادة والحزم ، والوضوح فيما يريد . . ونمت المعرفة بيننا إلى أن أنهى الثانوية العامة والتحق ، كما أعتقد ، بالجامعات في بريطانيا مبتعثاً من «ألبا» ، وقد أنجز دراساته العليا البكالوريوس ثم الماجستير والدكتوراه في حقول هندسية تتعلق بالإنتاج والسيطرة . . وكان كلما يعود في الإجازة الصيفية يمر بي ونتبادل الأحاديث ويحدثني عن دراساته والأحاديث اليومية الدارجة إلا أنني كنت أتتبع نموه المعرفي وتكامل قدراته .

وانقطعت تواصلاتنا فترة من الزمن حيث التحق بقوة دفاع البحرين وأسندت إليه مهمة قيادية تتناسب وقدراته ، إلى أن كان العام ١٩٩٥ ، حيث كان قد وقع عليه الاختيار ليرأس جامعة البحرين ، وكنت أسمع أنه أحدث في جامعة البحرين نقلة نوعية إدارية وتنظيمية وأكاديمية . . وفي أواخر العام ٩٥ أقمنا احتفالاً في مدرسة الهداية الخليفية بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على تأسيسها أي في اليوبيل الماسي وأصدرنا كتاباً وألبوم صور يتضمن صور عدد كبير من الذين مروا بالهداية طلاباً ، ثم تعلموا وصار لهم اسم مرموق ، ومن هؤلاء كان محمد جاسم الغتم ، فأهديته أنا وصديقي عبدالوهاب بوكمال الكتاب والألبوم ، ودعوناه لحضور احتفال مدرسة الهداية باليوبيل الماسي ، وقد لبي

الدعوة وحضر مع نخبة من رجالات البلد والوزراء . . وبعد بضعه أيام جاء إلى المدرسة أحد موظفي العلاقات العامة في جامعة البحرين ليسأل عني والتقيته ، فقال أنه مرسل إلي من قبل الدكتور محمد الغتم ومعه لي رسالة مصحوبة بمظروف ، ووجدت في الرسالة كلاماً طيباً وكلاماً جميلاً رقيقاً وكان مع الرسالة هدية ثمينة من جامعة البحرين .

في هذه الفترة كنت قد التحقت ببرنامج الماجستير بجامعة البحرين وفي ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٧ كان موعد مناقشة رسالته للماجستير التي كانت بعنوان «التقنيات السردية في روايات عبدالرحمن منيف» . . وكان المشرف عليها الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم والمناقش الممتحن الخارجي الأستاذ الدكتور سليمان الشطي من الكويت والممتحن الداخلي الدكتور محمد بدوي ، فأبلغ الدكتور محمد الغتم رئيس الجامعة في البحرين الدكتور باقر النجار عميد كلية الآداب بأنه يرغب في حضور المناقشة ، وقبل المناقشة حضر الدكتور محمد جاسم الغتم وجلس في الصف الأول من الحضور . .

«كانت المناقشة أول مناقشة لرسالة ماجستير في كلية الآداب جامعة البحرين . . وكان حضوره بالنسبة لي أمراً أشعرني بكثير من الاعتزاز ، سيما وأنه توجه إلى المنصة حيث أجلس وسلم عليّ وعانقني وجلس مع الحضور إلى أن اكتملت المناقشة . . ذلك المشهد لن أنساه ، ، وكان معي كثيرون من أصدقائي ، وعندما انتهت المناقشة قال الدكتور الغتم قبل أن يخرج مخاطباً الأساتذة الممتحنين : «مروا على بعد أن تنتهوا» . وأصدروا قرارهم بأنني اجتزت الامتحان بنجاح وبعد أن تلقيت التهنئة من الزملاء الأصدقاء والأبناء ذهبنا جميعاً (العميد والممتحنون وأنا) إلى الطابق العلوي للسلام علي الدكتور محمد وجلسنا معه وتبسط معنا ومع الأساتذة ، وأشار إلى أنني كنت أستاذه في مدرسة الهداية وشكر الأساتذة وقال لي ممازحاً : «اللي بينجح بيعطوه هدية» . . ومد يده في الدرج وقدم لي هدية ثمينة . . وعندما أردت الخروج ، قال لي :

«خليني أشوفك الأسبوع الجاي» وبعد أسبوع طلبت موعداً معه وذهبت إلى المقابلة وأنا أحمل شيئين . . الأول هو أنني حصلت على الجنسية البحرينية في ١٩٩٦/١٠/٢م . . والثاني أنني أحمل ماجستير في النقد الأدبي .

وقال لي : «أريدك معنا في الجامعة ، ماذا تقول»؟

قلت : «هذا أمر أنا أحلم به» . . وكنا في نهايات الفصل الأول فقال لي : «أتحب البدء من بداية الفصل الثاني أم من بداية العام القادم؟» .

قلت له : «العرب تقول خير البر عاجله . . أحب أن أكون معكم من أمس» .

فقال : «إذن» . . وصمت قليلاً

وتناول وريقة من أوراق الملاحظات على مكتبه وكتب عليها . . .

الأخ الدكتور باقر النجار . . عميد كلية الآداب

«إرفع لي تنسيباً في تعيين (فلان) محاضراً في جامعة البحرين منذ بداية الفصل الثاني» . . وهكذا كان ، فمنذ ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٩٧ التحقت موظفاً أكاديمياً ، في جامعة البحرين ، في كلية الآداب ، في قسم اللغة العربية» .

فكانت هذه من الخطوات الأول التي كنت احلم بتحقيقها وصارت» .

حين حصلت على الجنسية البحرينية أوقفت وزارة التربية والتعليم عني حق السكن المجاني ، وصار علي لزاماً أن أسكن في سكن مستأجر على حسابي ، وكان علي أن أشترك في التقاعد ، ولم يكن بقي لي من السنوات الخاضعة للتقاعد سوى أربع سنوات ، لأنني في العام ٢٠٠٠ أكون قد بلغت سن ٦٠ فأتقاعد كمعلم في التربية والتعليم . . وكان نظام التقاعد يسمح للمتجنسين أن يشتروا سنوات خدمة سابقة ويضيفوها إلى سنوات التقاعد وحرصاً مني على أن يكون لي تقاعد ، دفعت مقابل ١٦ سنة من خدمتي لتضاف إلى التقاعد فكانت قيمتها حوالي ٢٠ ألف دينار ، وقبلوا أن يقسطوها على ١٠ سنوات فكنت أدفع ١٦٦ ديناراً يضاف إليها ١٥٠ ديناراً للسكن حيث سكنت

في مدينة المحرق بقرب الهداية الخليفية فيكون المجموع ٣١٦ ديناراً وكان مرتبي آنذاك ٥٢٠ ديناراً بعد خدمة ٣٦ سنة .

المتبقي إذن من مرتبي ٢٠٤ دنانير لي ولزوجتي ولأبنائي الستة ، ومع ذلك كنت أشعر بالرضا وأنا أحاول أن أجعل من هذا المبلغ سنداً يحول بيني وبين التسول .

وعندما التحقت بالجامعة أصبح مرتبي أفضل قليلاً ، حوالي ٧٠٠ دينار ، فكان إنقاذاً لي وأصبحت فوق حد الحاجة حين زاد مرتبي ٢٠٠ دينار .

من مزايا الغتم أنه ذو مشاعر إنسانية راقية ممزوجة بكثير من الشهامة والأريحيه فهو يحب أن يساعد ولا يمن ، أما بالنسبة لي فالمسألة كانت أكثر من ذلك . . لقد كان يحس بي ، وكان يدرك بشكل أو بآخر ضنك الحياة بالنسبة لي ، علماً بأنني لم أشك له قط ، وكنت دائماً أبدي له الرضا . .

وفي أحد الأعياد وكالعادة ذهبت للسلام عليه ، وكان عيد رمضان ولما سلمت عليه وكعادته أمسكني بيده وأجلسني بجانبه وكان مجلسه عامراً بالشخصيات والتفت إليّ وقال لي كعادته : «(اشلونك واشلون الأولاد)؟ . . أين تسكن»؟

قلت له : «في المحرق» ، فقال : «بجوار الهداية الخليفية» .

قلت : «نعم» . . قال : «مر علي في الجامعة» .

قلت له : «إن شاء الله» .

ولم أمر به ، وفي عيد الأضحى في ذات المشهد ، قال : «ما جئتني» . قلت : «مشاغلك كثيرة» . . فنادى مدير مكتبه الذي كان حاضراً وهمس في أذنه بشيء لم أسمعه لكنه قال : «إن شاء الله» . . وفي اليوم التالي من دوامنا بعد العيد اتصل بي مدير المكتب ليقول لي : «الدكتور الغتم أمر لك بأن تسكن في أحد مساكن تملكها الجامعة في عالي» . طبعاً كان ذلك مفاجأة لي ، ثم تمت الإجراءات وانتقلت إلى مسكن في عالي ، مما وفر علي ١٥٠ ديناراً صرت

أصرفها على أسرتي ، وبقيت فيه إلى أن ارتحلت إلى بيتي الذي اشتريته من الإسكان .

محمد الغتم صاحب قرار ورجل ذو أريحية عالية ، ويحب أن يساعد الناس ولا تصيبه الغيرة من أحد ، وليس في شخصيته ملمح من ملامح الحسد ، بل تكون راحته مكتملة إذا اكتملت راحة الذين هو مسؤول عنهم ، ولكن في ذات الوقت هو عالي الإحساس بالواجب ويقدر الذين يؤدون واجباتهم ويفعل ما يراه صحيحاً حتى ولو لم يكن قانونياً» .

«لماذا لم أمر عليه حين طلب مني ذلك بعد عيد الفطر»؟ شعرت أنه كان يريد أن يساعدني في شيء متعلق بالسكن ، وفكرت في نفسي أنني سأمر عليه وقد أضعه في موضع حرج ، خاصة بعد أن سألني عن السكن . . خاصة وأنه عينني على أعلى ما يمكن أن يسمح به القانون . . لكن هذا السكن في الحقيقة أعانني وظللت أدرس فيه إلى أن أخذت الدكتوراه .

كثيرون من زملائي ارتقوا في سلم الوظائف والمناصب وتجاوزوني كثيراً ، وكنت أتفهم ذلك ، فأنا في النهاية كنت وافداً ومتعاقداً لغرض محدد ، فأي طموح يتجاوز هذه الصفة هو طموح يسبب لي متاعب نفسية ولا يجدي ، لذا كنت راضياً أشد الرضا بما أنا فيه ، الآخرون ينالون ما يستحقون وأنا في حدود ظروفي ، لي حدود لا أتجاوزها فبالرضا ما بقي عندي مشكله في هذا الحقل .

عندما يتجاوزني صديق من أصدقائي ويصل إلى مرحلة أعلى وهو يستحقها وهذا شيء طبيعي ، أتعامل معه في ذات الوقت بالاحترام الذي يليق بمكانته ، بل وبمجرد أن يرتقي عني درجه لا أسقط التكليف بيننا كما كنا ونحن زملاء وأناديه بلقبه وأقدمه على نفسي عند الدخول والخروج ، ولا أتبسط معه في حديث ، بل أكثر من ذلك ، كثيرون عندما يتبسطون معي في أحاديث وممازحات من الذين كنت معهم على صعيد واحد ثم تقدموا لا أرد عليهم التبسط . . أما طلابي ، وكثيرون منهم ولطول الخدمة في البلد ، قطعوا الأشواط

وصاروا في مواقع متقدمة ، فإنني دائماً أشعر معهم بالاعتزاز وأشعر بالفخر في أن هؤلاء طلابي ، وفي ذات الوقت أتعامل مع كل إنسان منهم بحسب موقعه وبحسب مكانته من التوقير والاحترام ، وهذا كله ممزوج بالرضا ، ومن هنا أنا أحافظ على علاقاتي بأصحابي وزملائي وطلابي ، مهما بلغت بهم المكانة ، بأنني احترم مكانتهم ، وأتعامل معهم بما يستحقون من الاحترام والتوقير والألقاب .

كثيرون من طلابي صاروا وزراء ، وعندما ألتقيهم لا أنسى أنهم وزراء . فأمنحهم من الاحترام ما يليق بهم ، وهذا أوجب حقوقهم علي ، وأما حقوقي عليهم فأترك لهم تقديرها .

في حياتي المهنية طوال هذه السنين الطويلة ، ضربت طالباً واحداً بكفي ، وما أزال أذكره حتى اليوم ، ما عدا ذلك ما عمري فعلت ، وأتمنى لو ألتقيه لأرى كيف صار وكيف مشاعره تجاهي وهل يذكر ذلك أم لا . . مع أنه استفزني بشيء لكنني أرى أنه ما كان يجب أن أفعل ذلك . .

بالعكس علاقتي بطلابي جميلة جداً ، لا أضرب طلابي ، وأحياناً الآن يلتقيني طلاب وهم في مناصب ويقولون (فاكر لما طقيتنا) ، ولكني لم أضرب أحداً ، بل العكس من طيب علاقتي بطلابي ، وتعليقاتي عليهم الودية والسريعة والمزاح فقد سجل قاسم حداد في كتابه (ورشة الأمل) ، عن كيف كنت أتعامل مع طلابي ، كذلك ما كتبه محمد جاسم الشيراوي وحافظ الشيخ يوصفني تماماً . .

والتحقت بالجامعة مدرساً . . وفي السنة التالية قام الدكتور محمد جاسم الغتم بزيارة إلى عدد من الجامعات الأردنية وهي الجامعة الأردنية ، وجامعة اليرموك ، وجامعة العلوم والتكنولوجيا ، وجامعة أهل البيت ، وكانت الأردن تمر بمنخفض جوي بارد جداً ، ومع ذلك كانت الزيارة غاية في السلاسة والدفء ، وقد صحب الدكتور محمد الغتم معه مجموعة من العاملين في جامعة

البحرين ، وهم الدكتورة جيهان العمران عميدة شؤون الطلبة آنذاك والدكتور حسن البستكي عميد إدارة الأعمال ، والدكتور فواز طوقان ، وعبدالحميد المحادين .

ولقد كان الدكتور محمد الغتم لا يغفل عن مرافقيه أبداً ، لا يركب السيارة إلا إذا تأكد أن المرافقين ركبوا في سياراتهم ولا يشغله الحفاوة الزائدة التي عادة ما تنصب على رئيس الوفد ، بل كان من داخل الحفاوة السخية التي يحاط بها ، يتأكد من أننا - المرافقين - أيضاً نلنا حفاوة مناسبة . . . ويحرص على أن يلتقينا قبل النوم في بهو (لوبي) الفندق ، ويتحدث معنا ويطمئن علينا . .

ونحن في عمان علم الدكتور الغتم أن الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم والذي كان في وفد أدبي في العراق ، قد تعرض إلى وعكة صحية ، وعاد إلى الأردن ودخل مستشفىً تخصصياً بالقلب . . حيث تقرر إجراء عملية قلب مفتوح له . وذهب الدكتور محمد الغتم وأخذنا معه لزيارة الصديق والزميل د .إبراهيم عبدالله غلوم - الأستاذ في جامعة البحرين ، وعشية العملية كنا عنده في حجرته في المستشفى . . وللحق فقد كانت معنوياته طيبة . . وبعد أن جلسنا وتبادلنا الحديث توجه إليه الدكتور محمد جاسم الغتم قائلاً :

أبو أنمار ، شد حالك ، ولتكن فاتورة علاجك جميعها على جامعة البحرين . . وهكذا كان ، وقد من الله على الصديق إبراهيم عبدالله غلوم بالصحة والعافية .



عبدالرحمن محمد ، عبدالله حبيب ، عبدالحميد الحادين ، محمد الغتم



محمد بن جاسم الغتم



المحادين مع محمد الغتم



مجموعة من طلاب الهداية ويبدو الغتم أخر طالب في يسار الصورة

(٤٢)

❖ «البحرين الثقافية» عمل مرموق ومنبر من منابر الإبداع في البحرين

❖ حصلت على الجنسية في ٩٦ وأزعم أنني بحريني قبل أن آتي إلى البحرين!

❖ كان محمد المطوع شديد الاهتمام بي وتابع حصولي على الجنسية وكان من أوائل المهنئين

❖ (أوجعت قلبي يا حافظ).. قلتها لحافظ الشيخ بواسطة صديق مشترك..

لقد كانت البحرين الثقافية عملاً مرموقاً ، نهضت به دائرة الثقافة والتراث الوطني ، وكانت هذه المجلة منبرا من منابر الإبداع البحريني ، صدر العدد الأول في إبريل (نيسان) ١٩٩٤ وكُتب عليه رئيس التحرير خليل الذوادي ، وبجانب رئيس التحرير صُفّت أسماء أعضاء المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب برئاسة طارق المؤيد ، وكانوا يقعون تحت مفهوم الهيئة الاستشارية وبقي هذا النسق في العدد الثاني والثالث والرابع وفي العدد الخامس صار وزير الإعلام محمد إبراهيم المطوع فأصبح اسمه يرد على المجلة «رئيساً للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب» ، وبقيت قائمة الهيئة الاستشارية للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وكتب على العدد الخامس رئيس التحرير خليل

الذوادي وهيئة التحرير علي عبدالله خليفة ، عبدالقار عقيل ، عبدالحميد المحادين ، حمد علي المناعي ، سليم عبدالرؤوف ، والإشراف الفني حبيب أحمد الماجد وبقي الأمر كذلك في العددين ٦ و٧ ، وفي العدد الثامن أصبح رئيس التحرير عبدالله عبدالرحمن يتيم ، ومدير التحرير علي عبدالله خليفة وبقي الأمر كذلك في العدد ٨ ، ٩ ، ١٠» . مجلة البحرين الثقافية ، مرحلة هامة في حياتي الصحافية والثقافية .

أما في العدد ١١ حذفت أسماء قائمة الهيئة الاستشارية ومنذ العدد ١٢ أصبح الإشراف الفني لأنس الشيخ وفي العدد ١٣ حل عبدالله خليفة محل سليم عبدالرؤوف والأعداد ١٤ ، ١٥ ، ١٦ استمرت على نفس النسق ، حتى العدد ١٧ حيث اعتذر عبدالله خليفة وحل محله حسن عون ، وفي العدد ٢٧ حل عبدالقادر عقيل محل علي عبدالله خليفة مديراً للتحرير وبقيت هيئة التحرير حمد المناعي وعبدالحميد المحادين . . وفي العدد ٢٨ أصبح وزير الإعلام نبيل الحمر واستمر الحال على ما هو عليه إلى العدد ٣٢ الذي صدر في أبريل ٢٠٠٢ ، بعدها انتهى عملي في المجلة ، ففي العدد ٣٣ حذف اسم وزير الإعلام من على مرآة العدد وكتب رئيس التحرير مي بنت محمد آل خليفة دون أي إشارة إلى وزارة الإعلام أو المجلس الوطني . وعينت هيئة تحرير جديدة وغيرت فيها عدة مرات منذ العدد ٣٣ .

حين أصبح محمد إبراهيم المطوع وزيراً للإعلام أحدث تغييرات كثيرة في وزارة الإعلام ، وكان يجمع بين منصبين ، وزير شؤون مجلس الوزراء وشؤون الإعلام ، ولم ألتق الرجل كثيراً قبل ذلك ولكن أثناء وزارته للإعلام كانت هناك أكثر من فرصة للالتقاء به ، وإن كان في اجتماع ما قد سأل مجموعة من الأصدقاء الذين يعملون في التلفزيون وقد ذكر اسمي خلاله ، فسألهم : (هل المحادين عنده جنسية بحرينية) فقالوا له : (لا) فسأل : (هل يريد الجنسية)؟ وأعقب ذلك بقوله : (اسألوه) .

فقال راشد الجودر : (أنا على تواصل معه وسأسأله) فقال : (إن كان يريد فليكتب رسالة بهذا الخصوص ويحضرها لي) .

فاتصل بي راشد الجودر وهو معد وكاتب مواد تلفزيونية ومسلسلات وله دور كبير في الدراما البحرينية ، وكنت على معرفة به وبالمخرج الأخ أحمد المقلة والكثيرين ممن يعملون في التلفزيون ، اتصل بي وتبادلت معه الحديث حول الموضوع وقلت له : (يشرفني أن أحمل جنسية البحرين ، وكنت قد كتبت طلباً بهذا الخصوص منذ عام ١٩٩٢ ، ولقد قطع شوطاً أولياً ثم في مكان ما توقف) وكتبت رسالة إلى الأخ محمد إبراهيم المطوع وشرحت له فيها مراحل الطلب وأين توقف وأرسلتها له مع راشد الجودر ، وفي صيف ذلك العام وكنت في الكرك في الأردن ، اتصل بي أخي وصديقي محمد حمد المعاودة الذي كان يعمل في وزارة الداخلية مديراً لمكتب الوزير ، وأحسب أنه لعب دوراً في إنجاز مهمة منحي الجنسية كذلك ، وأبلغني أن عندي مقابلة في شهر أغسطس (آب) ١٩٩٦ ، فاستمهلته حتى أعود من الإجازة ولما عدت ذهبت والتقيت به ، وقدمني إلى محمد التعيمي وأنهيت المعاملة ومنحت الجواز البحريني أنا وكل أفراد أسرتي بتاريخ ١٩٩٦/١٠/٣ ومنذ تلك اللحظة أصبحت بحرينياً في الأوراق الرسمية ، وإن كنت بحرينيا منذ وطئت قدماي أرض البحرين العام ١٩٦٠ ، بل أزعم أنني بحريني قبل أن أجيء إلى البحرين ..

أخذت قضية التجنيس تطفو على سطح الاهتمامات في المجتمع البحريني في السنوات الخمس الأخيرة من تسعينات القرن الفائت .. وبدأت تصير قضية يكتب فيها ومعها وضدها بعض كتاب الأعمدة في صحف البحرين .. .. وللحقيقة ، فإن الفترة التي تلت فيها الجواز البحريني كان التجنيس فيها محدوداً ، لكن صارت المسألة حكاية رأي عام .. وبدأ أخي وصديقي حافظ الشيخ يكتب ضد هذا التوجه وأصبحت كلمة التجنيس والمجنس متداولة ، ولأنني كنت ومازلت أعتبر أن انتمائي إلى الأمة العربية مسألة لا ينبغي أن

تكون موضع تثريب وأن حصول عربي على جواز بحريني لا يستحق أن يناقش بهذه الطريقة ، وإن كنت أعتقد أنني لست المقصود في الحديث شخصياً أو هكذا كنت أفترض ، لكن الموضوع كان مدعاة للضيق . وإن كنت بدأت أتمتع بحقوق وفرها لي التجنيس وخسرت حقوقاً كنت أتمتع بها سابقاً قبل الجنسية ، وأن أتشرف بحمل الجنسية البحرينية أمر لا يجوز إخضاعه لمنطق الربح والخسارة ، بل هو وبحسب أي منطق ربح كبير ومدعاة للاعتزاز

وبحسبة بسيطة كنت أنا الرابح على الصعيد النفسي والصعيد الأسري والصعيد الاجتماعي ، وكنت قد قضيت في التدريس ستاً وثلاثين سنة قبل أن أنال الجنسية ، وبحسب الإنسان ارتباطاً بوطن أن يكون عاش فيه هذا القدر من السنوات وولد فيه كل أبنائه . . التحقت بجامعة البحرين محاضراً وأنا أحمل الماجستير وهذه ميزة لمن يحمل جوازاً بحرينياً يحق له أن يعمل في الجامعة بالماجستير ، وقبلني الدكتور محمد جاسم الغتم وكان رئيساً بجامعة البحرين ، قبلني محاضراً بعد أن كنت معلماً في الهداية الخليفية ومشت بي الأمور ، إلا أنني كما قلت كنت أعاني من مسألة إثارة قضية التجنيس على أعمدة الصحافة ، وأنا القادم من مؤاب من الكرك من الأردن من ذات المنطقة التي استشهد فيها جعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحه وزيد بن حارثه وأجدادي إذ ذاك من الغساسنة المسيحيين الذين رحبوا ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي بعثة قادمة من جزيرة العرب ، والبحرين جزء من هذه الجزيرة بعرف الجغرافيا ، وأهل البحرين من حواضر الإسلام ، وقاتل أجدادي معهم ضد جيش الرومان في مؤتة ، وأنا من الكرك التي احتضنت ذات يوم صلاح الدين الأيوبي ومشى أجدادنا في جيشه لتحرير فلسطين ، وما أزال أفتح عيني حين أفتحها في مؤاب على قلعة الكرك وعلى برج الظاهر بيبرس وعلى وادي طوى الذي مر به موسى عليه السلام ، وماء مدين . . وإن جدي سالم بن إبراهيم ، والد أبي سالم استشهد في مدينة الكرك قبالة قلعتها في ثورة الكرك عام ١٩١٠

ضد العثمانيين . . كل هذا جزء من ذاكرتي التاريخية وعندما دفعتني الظروف وانتقلت إلى جزء عزيز من وطني ما كنت أحسب أن هذه الكلمة ستلاحقني حتى ولو لم أكن أنا المقصود بها ، يا الله كم تغير العرب وكم تغيرت العروبة وكم كان يرن في أذني النشيد الذي كنا ننشده ونحن طلاب في مدرسة الكرك الثانوية في صبيحة كل يوم (بلاد العرب أوطاني من الشام لبغداد) وبقية النشيد الذي كنا ننمو وينمو تحت جلودنا إحساساً بالعروبة وإحساساً بالانتماء إلى وطن ممتد من البحرين إلى البحر . . وكم تغير الإسلام بالمسلمين ، إن كل أرض إسلامية ، هي وطن لكل مسلم . . . . ما الذي أصاب الناس في أمور بديهية بسيطة كهذه . .!

وأذكر صديقي حافظ الشيخ ، وللحق فإن هذا الرجل كان من خيرة طلابي في مدرسة الهداية وبقيت أكن له الحب والاحترام وأثق أنه يبادلني ذلك ، وقد وردت هذه العلاقة في مقالة كتبها صديقي وأخي محمد البنكي عندما علق على مناقشتي للماجستير بجامعة البحرين وسرد عدداً من أصدقائي الذين أحبهم ويحبوني ومنهم قاسم حداد ، ومحمد بن جاسم الغتم ، وحافظ الشيخ ومحمد البنكي نفسه ، ولكل من هؤلاء حكاية .

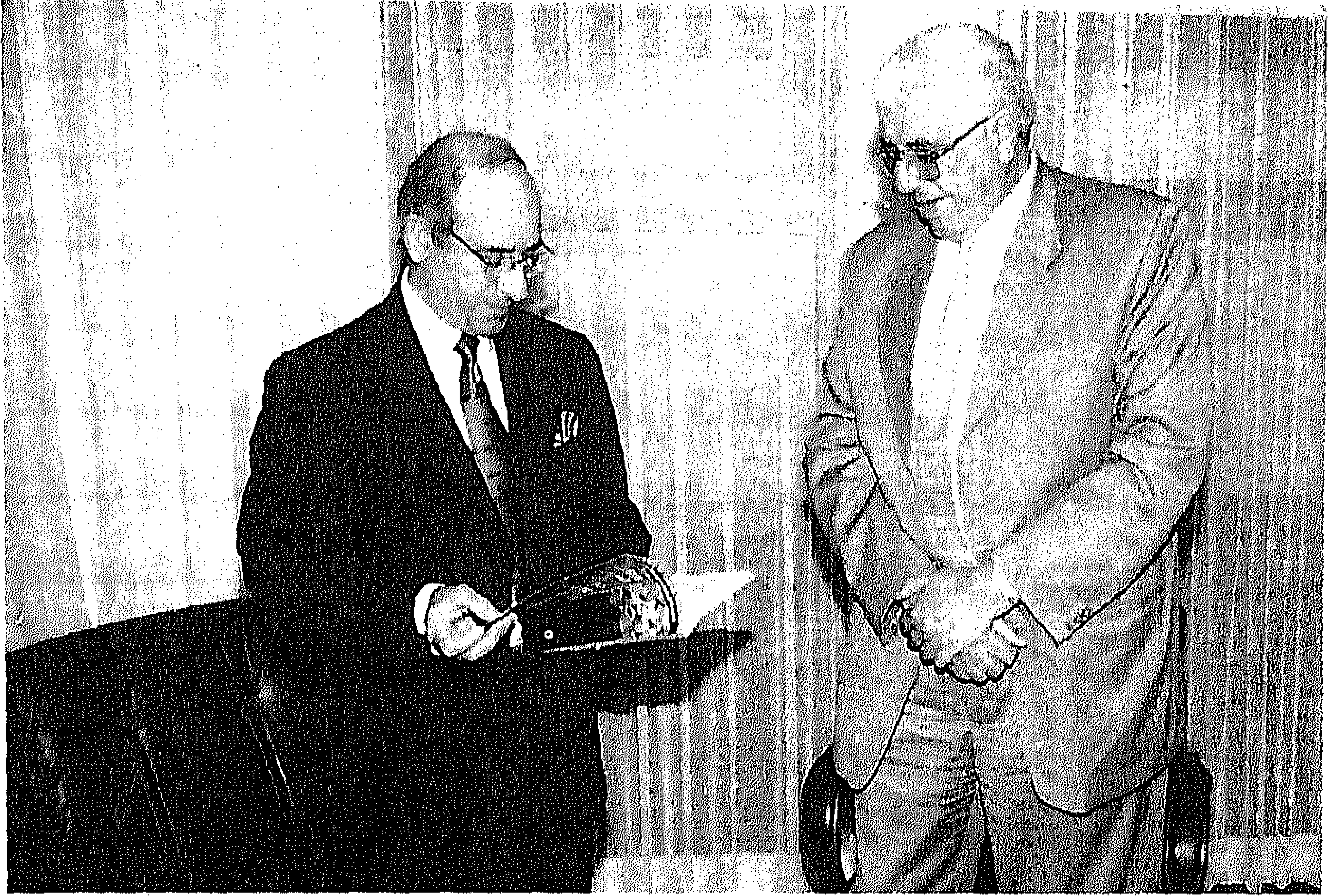
وكنت في تلك الأيام التقيت بصديق مشترك بيننا وقلت له سلم على حافظ الشيخ وقل له : (أوجعت قلبي يا حافظ) ، وفي مناسبة في جامعة البحرين وجدت نفسي أمام حافظ الشيخ وجهاً لوجه وكان قد جاء لزيارة محمد بن جاسم الغتم فلما تقابلنا وتصافحنا ، وهو أقصر مني قامة ، وقف على أصابع رجليه وقبلني على جبيني فأدركت أن في الأمر شحنة عاطفية وسحبني من يدي وانتحينا جانباً ، وقالي لي بعد أن أقسم في مغلظ الأيمان أنه بالتأكيد لا يقصدني وفوق ذلك أنه يتحرج كلما كتب في الموضوع خشية أن أظن به الظنون ، وعلى أي حال فأنا لم أكن أتهمه وأكدت له أنني أصدقه لكن الآخرين لا يعرفون هذه النوايا ولا يميزون بين من تصيب الحجارة ومن تخطئه . .

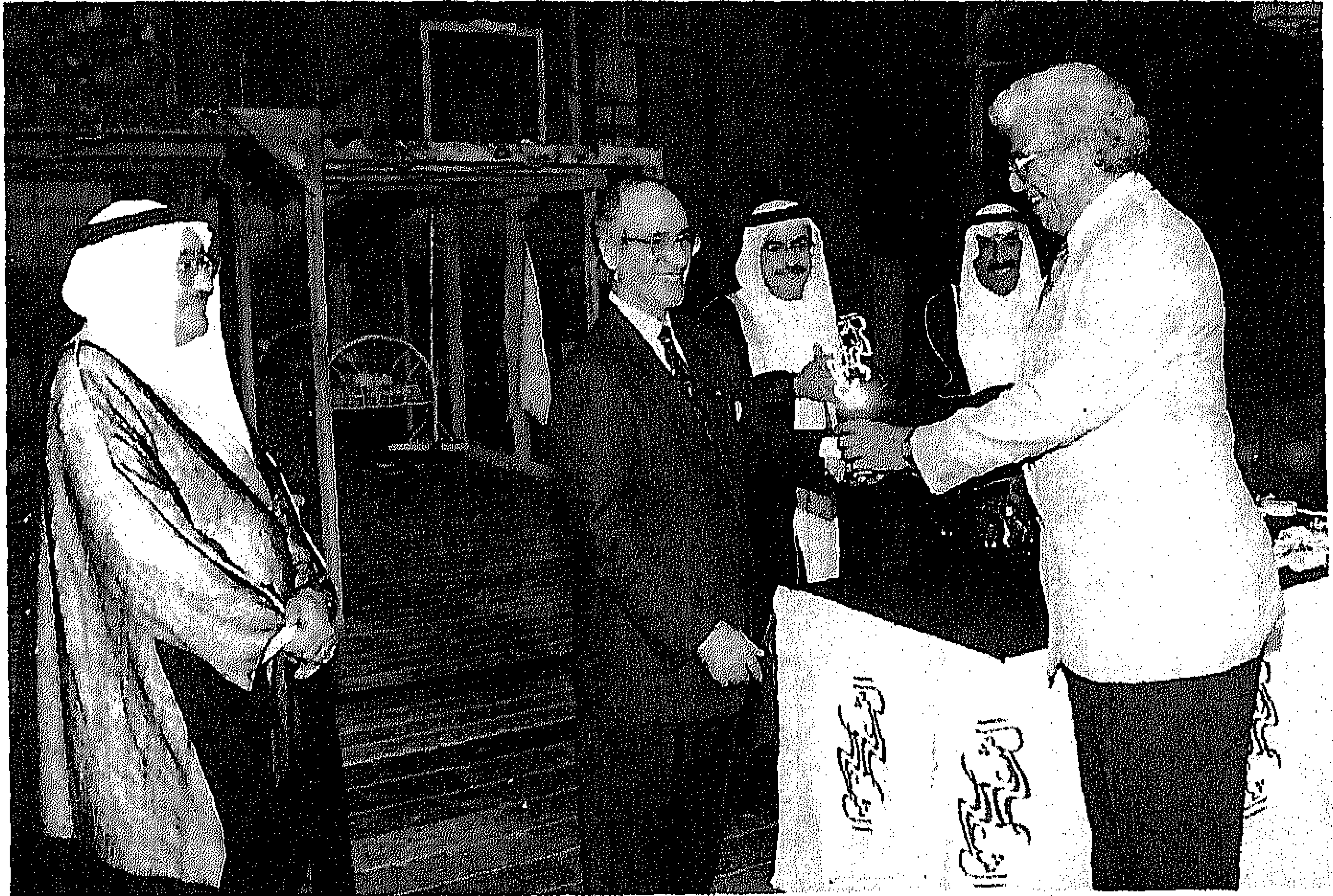
وتمر فترة ويفاجئني حافظ الشيخ وهو الذي كان يكتب عموداً بالغ الأهمية ويشكل مقالة صحافية من الطراز الرفيع والحاد ، وأزعم أنه مرت بحافظ فترة كان عموده في جريدة أخبار الخليج مقروءاً من كل بحريني من القمة حتى القاعدة لأنه كان متخصصاً وبجرأة في إثارة الموضوعات الساخنة ، وفاجأني كما فاجأ كل أهل البحرين بأن عنون عموداً في جريدة أخبار الخليج بعنوان عبدالحميد المحادين وكتب تحته كثيراً من الأشياء التي لا أدري إلى أي مدى أنا أستحقها ، وكتب أنني سأعود إلى المحادين وهو رجل يستحق أن يعاد إليه فترة وأخرى وكتب في موقع من هذه المواقع أنه يعتبر حصولي على الجنسية أمراً فوق أني أستحقه فإنه سلوك حضاري من البلد الذي أعيش فيه . . وكتب أشياء كثيرة أخرى ، وللحق فقد طابت نفسي وأدركت أنه قد كتب فيّ فوق ما أحب وفوق ما أستحق .

ولما أصدرت كتابي «التقنيات السردية في روايات منيف» حملت نسخة إلى محمد إبراهيم المطوع وزير الإعلام وقابلته في وزارة الإعلام ، وذهبت إليه لأشكره على سؤاله عني وما تبعه من استفسار حول نيلي جواز السفر ، وقلت له : «يا سيدي ، أنا أشكرك على اهتمامك الكبير» ، فقال لي : «لا تشكرني ، إن من يعطي يأخذ ، وأنت رجل أديت كثيراً لبلدك البحرين وهذا أقل ما تستحقه من مكافأة» ، وكان معي غاية في اللطف وهو رجل متواضع ، وأذكر أنني كنت أدرّس في محطة التلفزيون (اللغة العربية) للمذيعين والمذيعات وكانوا نخبة وفيهم جمال العسيري وإيمان مرهون ومعصومة عبدالكريم وفي الشرقاوي ومحمد الشروقي ونيلة عبدالرحيم وخديجة الحمادي وناهد الشيخ وسناء يونس وتمام الصافي وعالية شيخو وعبدالرحمن الغريب ويوسف العرادي وآخرون ، وبالمناسبة فقد قام تلفزيون البحرين بتنظيم دورة للمذيعين والمذيعات وحاضر فيها من جمهورية مصر العربية هالة الحديدي وفاروق شوشة ، وأثناء شرحي لبعض الأخطاء اللغوية الشائعة والتي يعاني منها معظم المذيعين دخل علينا

محمد إبراهيم المطوع وبعد أن سلم قال لي : «من علمني حرفاً كنت له عبداً ، واسمح لي أن أجلس في هذه المحاضرة لأتعلم منك بعض الحروف» . فجلس واستمع وكان غاية في التواضع واللطف .

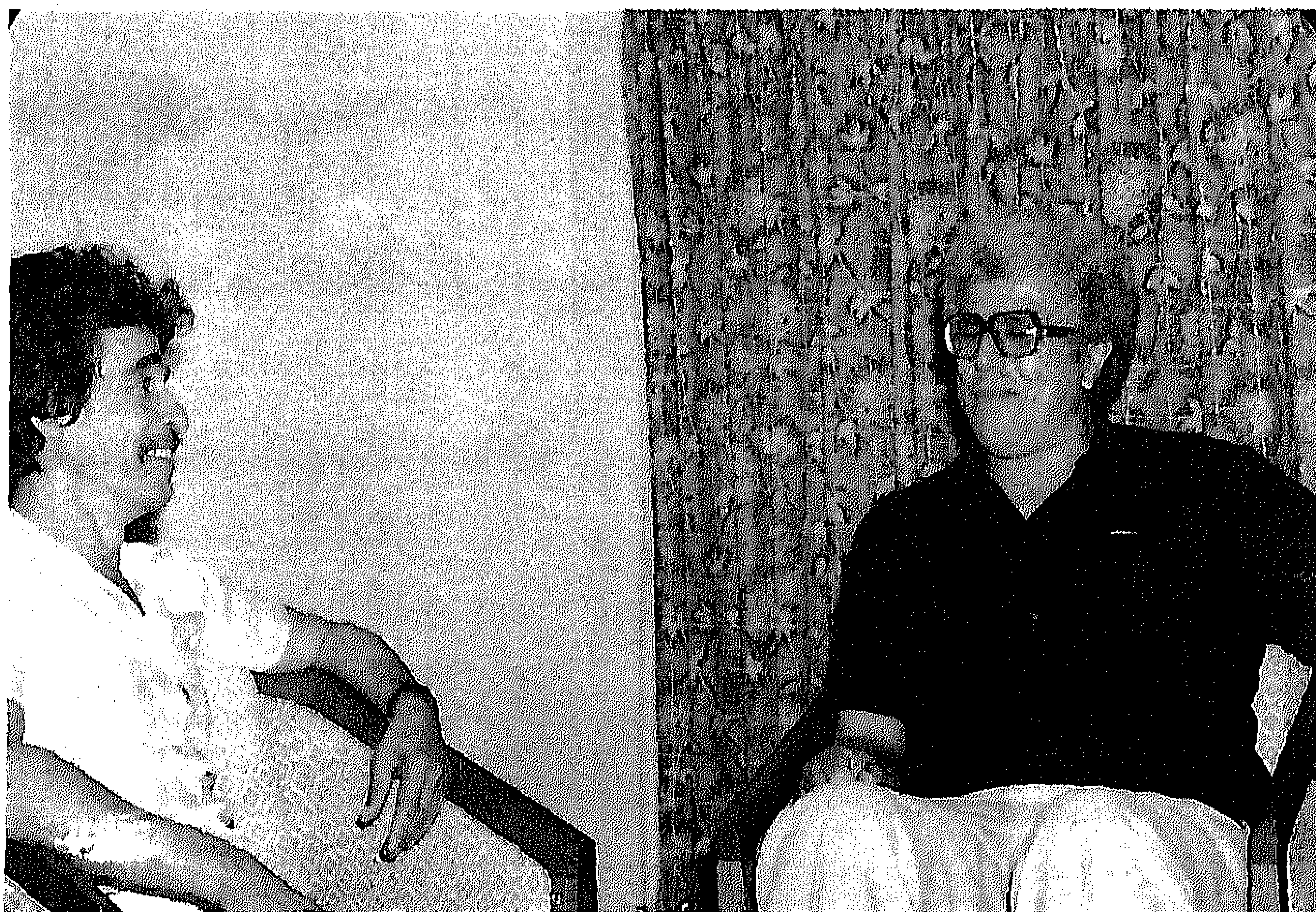
من جهة أخرى فقد كرمني في ملتقى «طرفة بن العبد» الذي كان من تنظيم جريدة الأيام على هامش معرض الكتاب . . وقررت الأيام وقتها إصدار كتيب يتضمن نصوصاً إبداعية تتناول شخصية طرفة بن العبد أو تكون مستلهمة من شخصيته ، فكتبت قصيدة مطولة أسميتها (مرثاة لابن العبد) وأرسلتها لهم لتنشر في الكتاب وقاموا في جريدة الأيام بعرضها على محمد بن إبراهيم المطوع بصفته وزيراً للإعلام لأنهم ظنوا فيها بعض إشارات قد تسبب حرجاً أو مساءلة ، سيما وأنه كان في ذات الفترة معرض كتاب في الكويت وقد سُمح بعرض كتب رآها الأصوليون مخلة ، وقامت القيامة في البرلمان وأعتقد أنها أدت إلى استقالة وزير الإعلام الكويتي آنذاك ، فلما قرأ المطوع القصيدة أظنه قال : «المحادين ناوي على إيش»؟! ، ثم أمسك بالقلم وأشار إلى مقاطع معدودة في القصيدة وقال : «تحذف هذه المقاطع إذا كان لابدّ من نشر القصيدة» ، ومررت هذه المعلومة إلى القائمين على الكتيب فمرروها لي طالبين حذفها فقلت لهم (حتى لا أحرج سعادة الوزير أسحب القصيدة من النشر) .


مع محمد إبراهيم المطوع


في ندوة طرفة بن العبد



المطوع في الهداية الخليفية



مع الروائي إسماعيل فهد إسماعيل

(٤٣)

❖ ساسان.. سيروز.. سيمين.. سونار.. سلمان.. سريان

❖ «السين» في أسماء أبنائي مقصود.. فهو حرف الهمس والموسيقى الخافتة

❖ محمد البنكي.. ابني الذي لم ألده وأصبح صديقا وزميلا ذا تأثير في حياتي

❖ مواقف ثلاثة بادرني بها البنكي حين كان تلميذي لا أنساها له حتى اليوم

❖ حلمت له بمستقبل لا يقوم على دراسة اللغة العربية.. لكن العرب تقول «ربيع النفس هواها»!

❖ البحرين في وجدان البنكي لها خصوصية.. كلما ابتعد عنها ناداه هاتف كي يعود فيلبيه

❖ البنكي.. صحافي بالفطرة.. مبدع.. شفاف.. مثقف.. يغرس نبتته حيثما حل.. ويسهم في كل إيجابي

إن حرف السين في أسماء أبنائي أمر مقصود، ولاسيما أن السين من الحروف الجميلة في اللغة العربية فهو حرف الهمس، وحرف الموسيقى الخافتة، وأنا أحب حرف السين، وكان لي في ذلك عذر في تسمية أبنائي وقد اخترت لهم أسماء غير مألوفة في البيئة العربية وكنت أقصد بذلك أن الاسم علامة،

وهذا تفكير سيميولوجي ، فالعلامة تملك قيمتها إذا كانت دالة ولها دلالتها على من تدل عليه ، فساسان اسم له أصل في اللغة العربية ، فالعرب يسمون عشرات الأسماء ثلاثية من الفعل ويلحقون بها ألف ونون مثل (عدن/ عدنان) ، (قحط/ قحطان) ، (عثم/ عثمان) ، (ساس/ ساسان) ، وبالتالي فهو عربي بالقياس . . ثم إن هذا الاسم كان يستعمل كصفة على طبقة انتشرت في أواخر العصر العباسي من أهل الحيلة والكدية وكانوا يسمونهم» الساسانيين» ، وفي الثقافة الفارسية الساسانيون هم ملوك فارس الذين تشكلت منهم «الأسرة الساسانية» آخر أسرة حاكمة في فارس قبل الإسلام . .

أما سيروز وهو ابني الثاني فاسمه مأخوذ من كلمة فارسية هي «سهروز» وتعني ٣٠ يوماً ، وفي العربية فيروز وهي قريبة من سيروز في الفارسية ، و(بهروز ودهروز ونيروز) . . بينما اسم «سيمين» فهو مشتق من سيم وتعني بالفارسية فضة ، وعندما ينسب باللغة الفارسية ينسب بالياء والنون وهي تقابل ياء النسبة في العربية ، فسيمين أي فضي كما تقول زرين ذهبي ، وما إلى ذلك ، وقد يثور السؤال لماذا الفارسية بالذات؟ . . والإجابة : أنني حين كنت أتعلم في جامعة بيروت العربية كان مطلوباً منا دراسة مقرر في اللغات الشرقية فاخترت الفارسية ، سيما وأنني كنت في البحرين ألتقط كلمات يتكلمها كثيرون من أبناء البحرين الذين هم من أصل فارسي ، وكنت أقف مع متفرجي كرة القدم الذين يتحدثون الفارسية بجانب العربية وأسمع تعليقاتهم وكلماتهم وكان ذلك لافتاً لنظري تجاه هذه اللغة الشرقية ، فاخترت الفارسية في بيروت العربية ودرستها أربع سنوات ، وفي ذات الوقت كنت بالقاهرة أقدم تمهيدية الماجستير ، كان من ضمن المقررات اللغة الفارسية ، فواصلت التحصيل بها فقطعت في نحوها وصرفها شوطاً طيباً وأحببتها . . والفارسية لغة لها عبقريتها الخاصة ولها بنيتها التي تنفرد بها ، وهذا جعلني أواصل القراءة فيها فترة من الزمن لكنني لم أكتسب طلاقة الحديث فيها لقلة المخالطة ، فمن هنا علقت بذهني هذه

الكلمات والأسماء والتي أسميت بها أبنائي .

والآن حيثما يصل أحد أبنائي ، يُعرف من اليوم الأول من العلامة التي ينفرد بها ، وهي الاسم فهو اسم نادر ، وكثيراً ما يمازحني أصدقائي ويقولون :» لماذا اخترت أسماء فارسية»؟ ، وأقول لهم : «عروبتي لن يلغيها اسم لطيف باللغة الفارسية أحب أن يقترن به ابني ، والفرس قد أخذوا من العربية مئات الآلاف من الألفاظ والتعبيرات والأوزان . . فهذا تمازج ثقافي امتدت آثاره في الحضارة العربية الإسلامية منذ عصر العباسيين إلى هذا اليوم . .

أستطيع أن أزعم أن زوجتي وافقتني ولم تعترض ، وهي أيضاً تستلطف هذه الأسماء ، وعندما ولد ابني الأول اقترح علي بعض الأصدقاء والأقارب أن أسميه على اسم والدي «سالم» فقلت لهم «والدي سالم وجدي سالم يكفي» . . وفي ذات الوقت كان أخي قد أنجب ولداً بعد وفاة والدي مباشرة فأعطاه ذلك الاسم فاكتفيت .

الأولاد كبروا وأصبحوا في الحياة في المدارس فيحتملون نظرة الاستغراب الأولى ، ويذهب الآخرون في التفسيرات كل مذهب ، لكن سرعان ما يصير ذلك مألوفاً سيما وأن معظم تواجدهم في البحرين ، وفي المجتمع البحريني هذه الأسماء ليست نادرة تماماً .

بل بالعكس ، فقد سألت زوجة ابني سيروز «ما رأيك في اسمه»؟ ، فقالت لي : «نصف حبي لاسمه» . .

توقفنا عن الإنجاب إلى أن كان العام ١٩٨٨ ، وأنجبت زوجتي ابنة أسميتها «سونار» ، و«سونار» هو اسم لاتيني مأخوذ من الأشعة التي تكشف الطبقات الأرضية وجهاز السونار جهاز يستخدم حالياً للكشف عن الحوامل وهو اسم ظريف . . ثم رزقنا الله بسلمان فقلت لهم : «سأعرب هذا الاسم» ، فقال لي الظرفاء من أصدقائي «أنت غير جاد . . فأشهر سلمان في الثقافة العربية هو سلمان الفارسي أي أنك ما تزال منحازاً لأسماء الفرس»! . . وكانت النقطة التي

في نهاية الجملة ، ابني الأصغر الذي عندما ولد قالت ابنتي «سيمين» : «هذا اتركه لي لأسميه أنا» ، وكان عمرها حوالي ١٤ سنة فقلت لها سأتركه لك سمه ما شئت ، وفي آخر النهار قالت سأبلغ المستشفى عن اسمه حتى لا تغيره ، فقلت لها أنني لن أغيره ، فوجدتها قد أسمته «سريان» . . فقلت لها : «لو أنا الذي أسميته لكان الاسم شيئاً من هذا القبيل»!

وجود الابنة في البيت يعطي إحساساً مغايراً أو مختلفاً عن وجود الأبناء . . البنت شيء مختلف ، يرى فيها الإنسان تلخيصاً لكل النساء ، وهي تثير العاطفة والحنو بدرجة أكبر من الأولاد ، وبطبيعة مجتمعنا وبطبعيه التربية العامة فإنني دائم الحرص على ابنتيّ ودائم الخوف عليهما حتى عندما تخرجان إلى عملهما أو جامعتهما أبقى أتابعهما بالتلفون كل فترة وجيزة . . وعندما وضعت كتابي «رسالة الدكتوراه» «جدلية الزمان والمكان» كان الإهداء كالتالي :

«إلى أيقونتي أبوتي ومحبتي

إلى النورستين سيمين وسونار»

علماً بأنني أهديت كتابي «التقنيات السردية في روايات عبدالرحمن منيف إلى ابني وكتبت :

«إلى سريان . . فقد كانا توأمين»

أي لم يكن هناك وقت طويل بين إصدار الكتاب وإنجاب سريان»

إن من أبنائي الأعزاء من الطلاب يأتي محمد البنكي في الطليعة . . وإنني متعارف معه منذ أكثر من ربع قرن .

ففي العام الدراسي ١٩٧٩-١٩٨٠ كنت أدرس صفاً في التوجيهي ، فيه مجموعة من الطلاب أبرزهم كان محمد البنكي ، وارتبط البنكي بذاكرتي فكان مميزاً وكنت أحبه . . وليس غريباً أن يحب الأستاذ بعضاً من طلابه كما يحب الشيخ الصوفي بعض مريديه . . وارتبط محمد وهو طالب بموقفين لا بل بثلاثة مواقف . .

الموقف الأول . . أنه تبنى في الصف حركة جمع فيها الطلاب من مصروفهم اليومي وأقاموا لي حفلاً في الصف بمناسبة زواجي وكان ذا أثر في نفسي ، فقلت لهم كما أذكر : «أنتم أولادي حتى قبل أن أتزوج» . . والمسافة بين زواجي وموت أبي كانت بضعة شهور ، وعندما توفى أبي قاد محمد الصف وجاءوا ماشين من مدرسة الهداية الخليفية إلى مسكني في البسيتين وقدموا لي التعزية . . فكان هذا هو الموقف الثاني .

وأما الموقف الثالث . . فقد أعلنت إدارة المرور عن مسابقة أدبية في تلك الفترة وكان محمد قد استشارني في أن يشارك فقلت له : «شارك لا بأس» ، ولكنني كما أذكر قمت ربما بإعادة كتابة كل موضوعه الذي أراد أن يشارك به ، أو أنني صححت له كل الموضوع فلا أذكر ، المهم أنه قدم هذه المشاركة ، وفاز بالجائزة الأولى وجاءني في اليوم الثاني وقدم لي الجائزة ملفوفة بالورق الملون ، فقلت له : «ما هذا»؟ فقال : «الجائزة»! قلت له : «يا محمد أنا ساعدتك تشجيعاً لك وهذه جائزتك وأنت صاحبها وإياك أن تفكر في مثل ذلك مرة أخرى .

ذهب محمد البنكي إلى جامعة الرياض لدراسة الهندسة ، هكذا سمعت . . ومن ثم عاود الرحلة إلى البحرين ليلتحق بجامعة البحرين ليدرس اللغة العربية ، ولا أدري إلى أي مدى كان اختياره صحيحاً ، لكنني كنت أسمح لنفسي أن أبدي رأياً بأن ذهاب محمد البنكي إلى اللغة العربية لم يكن متفقاً ما أحلم له من مستقبل لا يقوم على دراسة اللغة العربية . . لكن العرب تقول «ربيع النفس هواها»! وصار البنكي طالباً في جامعة البحرين . . ولقد كان موضع التفات أساتذته ، وكان مطلعاً على الدراسات الحديثة في الأدب ، وكان محمد بطبيعته ميالاً إلى الدرس الحداثي . . ويتخرج محمد من جامعة البحرين . . ويذهب إلى تونس للدراسات العليا ، ويمكث هناك مدة من الزمن عاود بعدها الرحلة إلى البحرين .

إن في ضمير محمد البنكي نداءً خفياً إلى البحرين ، حيثما ذهب يسمع هذا الهاتف . . «عد إلى البحرين» ، ويبحث عن مبررات يقدمها للآخرين ، هذا ما استطعت أن أصل إليه من خلال صحبتي لمحمد البنكي الطويلة والعميقة ، وكان رغم إمكانياته الوثيقة ومقدرته العلمية وطموحاته المعلنة لمواصلة دراساته العليا ، وهو جدير بذلك ، إلا أنه يصغي دائماً إلى ذلك الصوت الخفي الذي يدعوه إلى البحرين . . ويعرقل كل مساعيه إلى تلك الطموحات المستحقة له ، والقادر عليها . . ولما أعلن برنامج الماجستير في جامعة البحرين كان أبو جاسم من أوائل الساعين إليه . . وكانت فرصة أن ألتقي معه زميل دراسة مع أن سنوات كبيرة تفصلنا ، ونلتقي في إحدى البرنامج ، وننصت إلى أساتذتنا يحاضرون بنا ، وقد كنت أنا ومحمد فقط في برنامج واحد ، وتمضي بنا السنوات ، وكان قد عين معيداً في قسم اللغة العربية نظراً لتفوقه البالغ في البكالوريوس ، وقد حقق نجاحاً مهنياً وعملياً في الجامعة ، فأسندت إليه المهام ، وصار موضع ثقة إدارة الجامعة بحكم العمق الذي أظهره في فهم الأمور» .

«أنهيت الدراسة في جامعة البحرين في العام ١٩٩٧ وقد كنت دائماً أحث محمد على الاستمرار في إنجاز رسالته التي كانت حول التفكيكية ، وتجلياتها في النقد العربي الحديث ، وكنت أحضر استعراضه لمنجزاته في هذا البحث ، الذي كان يتدرب عليه ويعرضه على أستاذنا جميعاً «صلاح فضل» . . ثم أشرف عليه الدكتور منذر عياشي .

تجمعني بمحمد ذكريات كثيرة أذكر منها ما كان يجري على هامش مؤتمر النقد العربي الذي أقيم في جامعة البحرين عام ١٩٩٤ ، حيث كانت هناك حركة إعلامية لتغطية هذا المؤتمر ، وتبارت جريدتنا الأيام وأخبار الخليج في هذه التغطية ، وكان محمد البنكي المشرف على الصفحات الأدبية في الأيام ، وكان الدكتور علوي الهاشمي المشرف على الصفحات الأدبية في أخبار الخليج ، وانقسمنا قسمين ، قسم مع الأيام ، وقسم مع أخبار الخليج . . وقد كنت في

القسم الذي رأسه الدكتور علوي الهاشمي . . وكان أول خطوة أن رتب د . علوي الهاشمي لقاءً بيننا وبين إبراهيم العريض ، يتحدث فيه عن تجربته النقدية ، ولقد كانت مقابلة طيبة ومعمقة ، وقد جرت عمليات تغطية المؤتمر في جريدتي الأيام وأخبار الخليج على أحسن ما تكون التغطية . . ولقد كان مؤتمر النقد الأدبي إنجازاً طيباً ، يحسب لجامعة البحرين التي نهضت بهذه المهمة على أكمل وجه . . ويعين محمد البنكي مديراً لدائرة العلاقات العامة في جامعة البحرين ، وكان عضواً في اللجنة الثقافية التي نهضت بأنشطة مميزة في الجامعة حيث كان الدكتور محمد جاسم الغتم يولي الجانب الثقافي اهتمامه البارز ، واستضافت الجامعة عدداً من الفعاليات المرموقة ، وقد استضافت عز الدين إسماعيل ، ونبيلة إبراهيم ، وآخرين ، واستضافت الجامعة سفير البحرين في فرنسا ، ومندوبها في الأمم المتحدة ، واستضافت غازي القصيبي . . ومثقفين كثيرين .

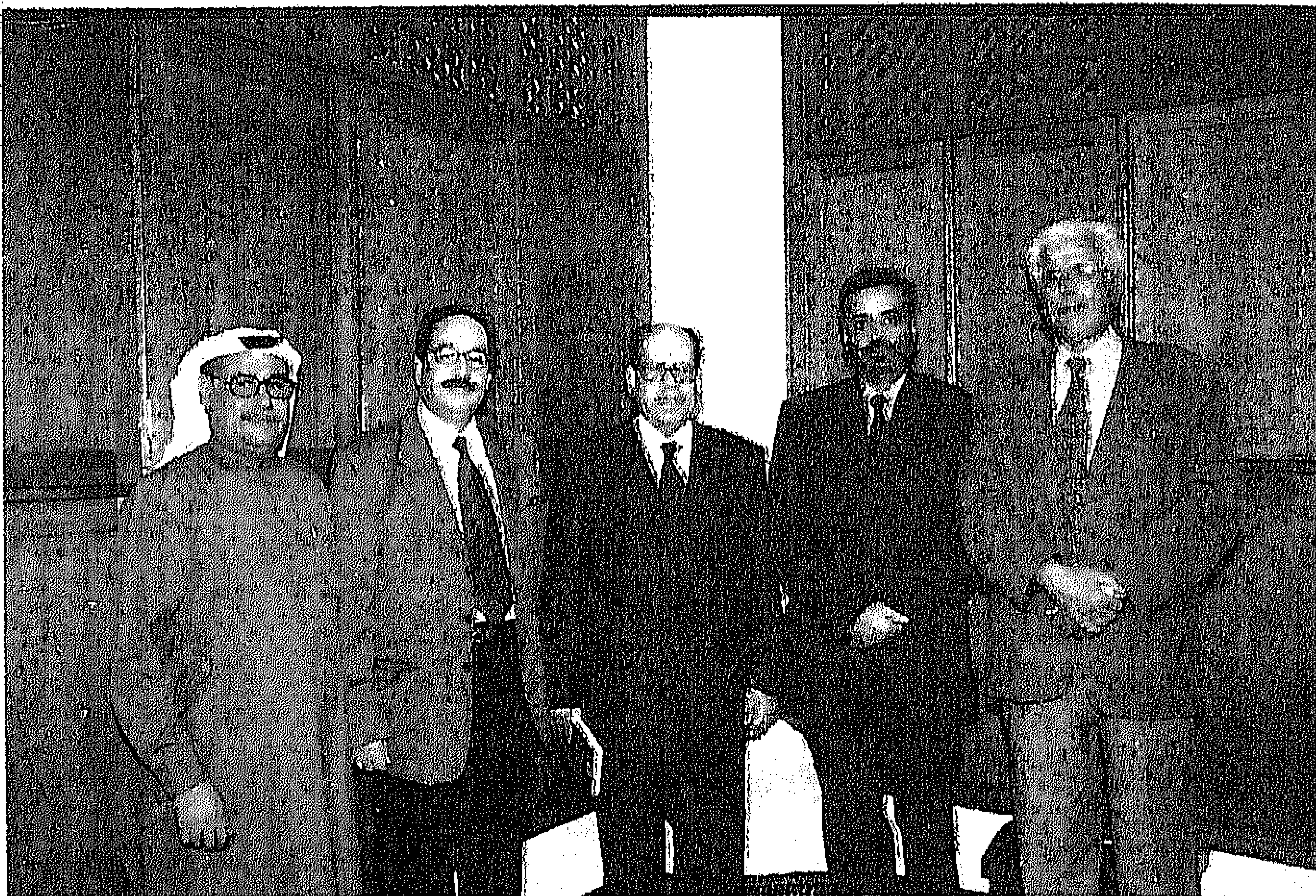
وينجز محمد البنكي أطروحته حول التفكيكية ، ويناقش الرسالة وينال الماجستير بتقدير امتياز ، ويبدأ رحلة البحث عن الدكتوراه . . وقد سعى إلى ذلك في أكثر من اتجاه ، ويذهب إلى القاهرة لذات الغرض . . لكن محمد البنكي مسكون بالصحافة ، وهو صحافي بالفطرة ، وأثناء عمله في العلاقات العامة في جامعة البحرين يتوجه إلى إصدار مجلة تتتبع الإصدارات الحديثة ، وتغطي المهم منها وتناقشه وأسماها «أوان» مجلة دورية ثقافية تعنى بمراجعات الكتب ويصدر عددها الأول : في خريف ٢٠٠٢ ويرأس تحريرها محمد البنكي وطاقمها الفني من موظفي دائرة الإعلام والعلاقات العامة في جامعة البحرين ، ورئيس مجلس الإدارة د . ماجد بن علي النعيمي . رئيس جامعة البحرين ، والأعضاء هم دكتور حنا ميخائيل مخلوف ، د . مريم بنت حسن آل خليفة ، ود . يوسف البستكي ، ود . عيسى الخياط ، د . عبدالحميد المحادين ، والأستاذ هادي الطالبي والأستاذ محمد أحمد البنكي . . ولها هيئة استشارية من كبار المثقفين العرب . .

وفي شتاء ٢٠٠٢ صدر العدد الأول من ثقافات ورئيس تحريرها الدكتور علوي الهاشمي .. ونائب رئيس التحرير منذر العياشي ، مدير التحرير عبدالحميد المحادين وأمينة التحرير مي مظفر ، والاستشاري الفني رافع الناصري ، والأعضاء سميرة بن عمو ، عبدالكريم حسن ، بسيوني عبدالرحمن ، إبراهيم عبدالله غلوم ، منيرة الفاضل ، عبدالقادر فيدوح ، وأحمد المناعي .. ويرأس مجلس إدارتها الدكتور ماجد بن علي النعيمي رئيس جامعة البحرين والأعضاء هم حنا مخلوف ، علوي الهاشمي ، فواز طوقان وسعيد العليمي .. ولها هيئة استشارية من مشاهير الثقافة العربية .

وتلك الفترة هي فترة الإنتاج عبر المطبوعات المميزة ، بجانب المجلات المحكمة ، كمجلة العلوم الإنسانية والتي يرأس تحريرها الدكتور إبراهيم غلوم» .

«استمرت «ثقافات» حتى عددها العشرين .. ثم انتقل رئيس تحريرها إلى الأمانة العامة لمجلس التعليم العالي ، وآلت رئاسة تحريرها إلى الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم عميد كلية الآداب .. وأما «أوان» فقد توقفت بعد بضعة عشر عدداً .. حيث انتقل محمد البنكي ليصبح رئيس تحرير جريدة الوطن اليومية .

كل هذه الآفاق تفتحت وأنا أذكر واستحضر معرفتي بأخي وصديقي محمد البنكي .. هذا الإنسان المبدع .. الشفاف .. المثقف بكل ما في مدلول الثقافة من آفاق ، وهو يغرس نبتته حيثما حل .. ويسهم في كل ما هو فعل إيجابي .



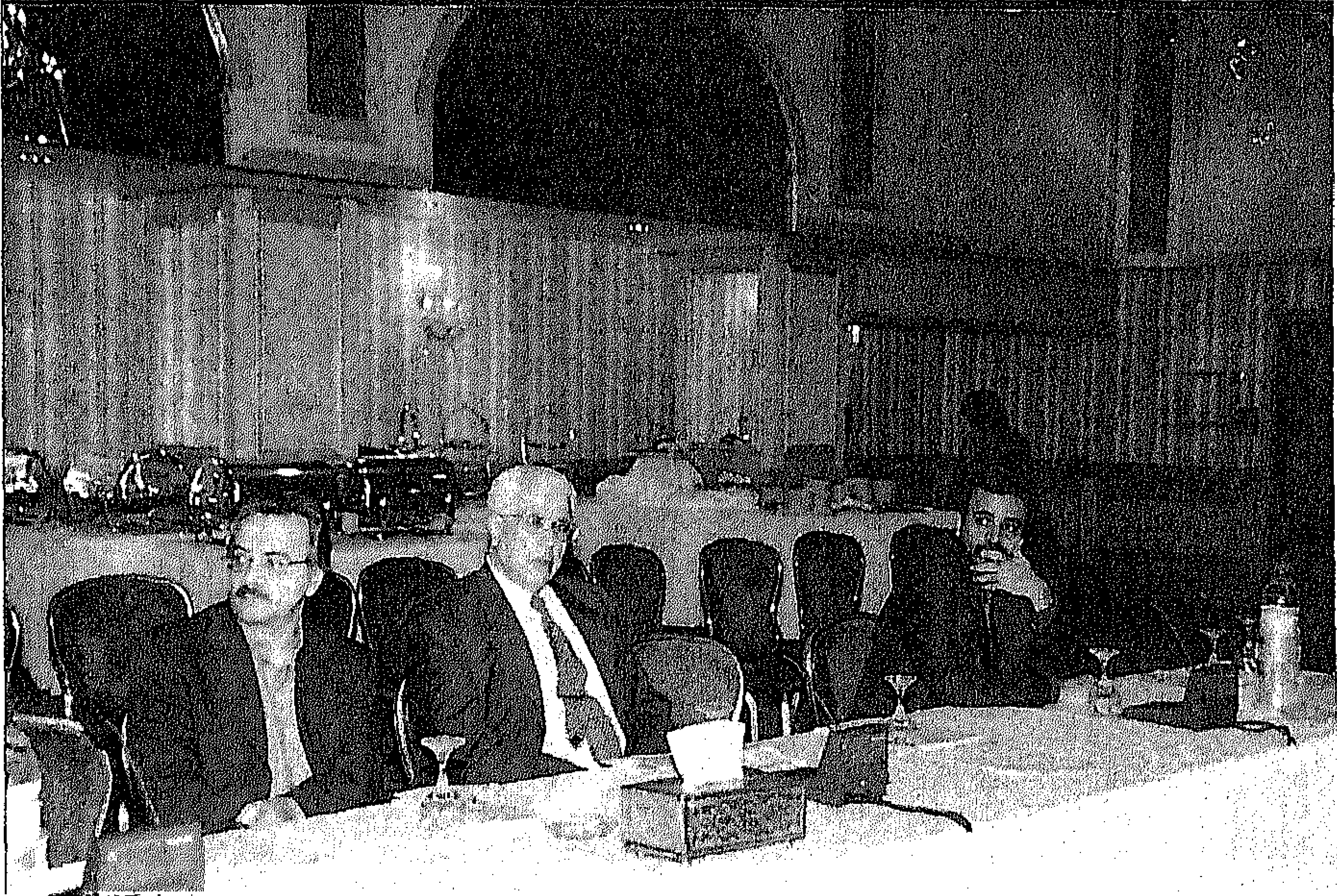
عبدالحميد المحادين ، محمد البنكي ، صلاح فضل ، علوي الهاشمي ، حسن كمال



علي الشرقاوي ، المحادين ، محمد البنكي



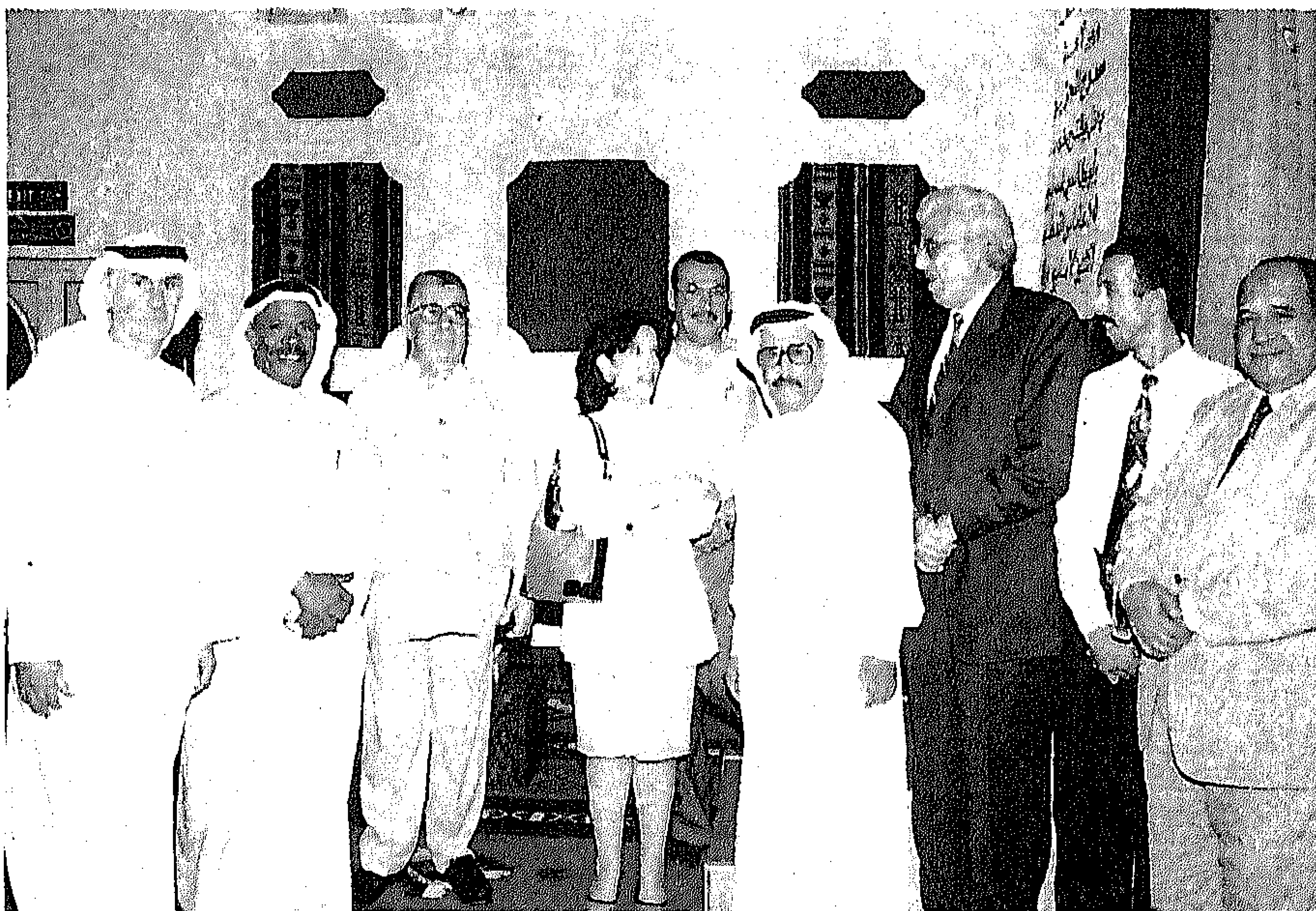
أفراد أسرة عبد الحميد المحادين يحيطون بالدكتور كمال أبو ديب



البنكي ، المحادين . . .



جيهان العمران ، محمد البنكي ، عبدالحميد المحادين



مع الشيخة مي بنت محمد الخليفة

(٤٤)

في الجامعة ، إن كنت مسكوناً بالإبداع ، فذلك مكانك النموذجي ، وإن كنت مسكوناً بحب المعرفة والاطلاع فذلك مكانك الطبيعي ، وإن كنت تتطلع أن تضيف شيئاً ما لنفسك أو لغيرك ، فالجامعة هي المكان الطبيعي .

وإن كنت كامناً لا تحب أن تفعل شيئاً ولا أن تتجاوز الذهاب إلى قاعة التدريس والعودة منها ولا شيء غير ذلك ، فالجامعة هي المكان الطبيعي . . في الجامعة أنت حيث تضع نفسك ، لذا لا يلومن أحد أحداً ، في الجامعة أنت تملك حرية الحركة وحرية السكون . . وإنني متأكد أن هذه الحرية لا ينازعك عليها أحد . .

بعد أن التحقت مدرساً بالجامعة ، تصادفت مع حركة ثقافية مزدهرة وكان للجامعة حضور ثقافي لافت ، بل إنها شكلت منبرا للثقافة والحراك الثقافي أثارغيرة منابر أخرى . . وسعت إلى التنسيق مع الجامعة . . وكنت حاضرا في كثير من المحافل الثقافية وأؤدي ما أستطيعه من دور . . وعلى أي حال فإن ما يضيء يُري . . وفي عيد العلم الذي جاء بعد نيلي الماجستير مباشرة تشرفت بالسلام على صاحب السمو المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة وقبلها كان لي شرف السلام على سموه بمناسبة إنهائي ٣٠ سنة في الخدمة . . وفي العام ١٩٩٧ أقامت دار الحكمة احتفالاً لتكريم رواد العمل الوطني في البحرين ، وكان لي شرف أن كنت بينهم ، وتشرفت بالسلام على سمو الأمير .

وهنا بدأت معركتي الكبرى وهي الدكتوراه . . فإذا لم تكن في الجامعة

دكتوراً فأنت مهمش مهمش مهمش . . فكثير من اللجان ومن المهام ومن المواقع التي يكون المحاضر قادراً على القيام بها ، وهم بحاجة إليه ، لكن إذا لم يكن دكتوراً فإنه يستبعد وأنا لا أنتقد هذا النظام لأن الجامعة والدكتوراه اسمان لمسمى واحد .

فدخلت في التحدي الأصعب ، وكانت أمامي المعركة الفاصلة «الدكتوراه» . . أين؟ وكيف؟ ومتى؟ و«اشلون»؟ . . وكانت كلها تساؤلات وأخذت أبحث وأرتب الأولويات وأدرس الأمور ، علماً بأن مرتب المحاضر في جامعة البحرين ، لا يختلف كثيراً عن مرتب المدرس في المدرسة الثانوية . . وبقيت في هذا البحث المستمر وقد صار وضعي مع الزملاء أكثر انسجاماً ، حيث إنني أصبحت عضواً في هيئة التدريس ، لكن برتبة مدرس ويأتي فوق المدرس المحاضر ويتوقف إلى أن يصبح دكتوراً فيصير أستاذاً مساعداً ثم مشاركاً ثم بروفيسوراً إذا استطاع أن يقطع هذه المراحل .

واستمر وضعي مدرساً لكنني التحقت بالمعهد العربي للدراسات والبحوث وقدمت لهم أوراق الماجستير والبكالوريوس وما إلى ذلك وتم قبولي في برنامج الدكتوراه عام ١٩٩٩م .

واستدعيت إلى المعهد وأجري لي السيمينار ولم يكن كسيمينار الماجستير وإن كان الشيء المشترك بينهما وجود الدكتور صلاح فضل .

وسجلت رسالة الدكتوراه تحت عنوان «جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية» تحت إشراف الدكتور صلاح فضل .

وبقيت مدة سنتين أصل الليل بالنهار تحت ظروف معيشة ليست رحبة في بيت صغير جداً من بيوت جامعة البحرين في عالي .

وأنجز رسالة الدكتوراه ولقد بذلت فيها من الجهد مالا أستطيع الآن أن أتخيله لأنني كنت أشتغل في ظروف غاية في الضيق والمشقة والمسؤولية ، وأذهب إلى مصر عدة مرات لأعرض على أستاذي المشرف ما أنجزت ويناقشني

فيما أنجزت ويوجهني إلى أن تقررت مناقشتي في ٢٠٠١/٥/٢ .

ومن المفارقات الطريفة أنني أحلت إلى التقاعد عام ٢٠٠٠ لكنني بحكم قانون الجامعة استمر عملي لأن الجامعة تسمح للأساتذة بالعمل حتى الخامسة والستين ، فناقشت الدكتوراه في السنة الثانية تقاعد ، ومع ذلك لم أشعر أن الوقت متأخر . . أذكر عندما أخذت الماجستير وكان موعد احتفال الجامعة بتخرج الدفعات . دفعة ١٩٩٧ .

وكنت أنا مع الخريجين ، وكان شعري أشيب ورأسي أبيض ومع ذلك تخرجت ، وكان كثير من الخريجين هم طلابي وصافحت سمو رئيس الوزراء كأي طالب وباعتزاز ، فلم أكن معقداً من مسألة السن أو شعري الأبيض وإنني على أبواب التقاعد أو بعدما تقاعدت . . هذه الأمور لم أكن أحسب لها حساباً .

ذقت طعم «الدكترة» ، ووجدت ماذا يعني أن تكون دكتوراً في الجامعة؟ مع أن المسافة قليلة بين الدكتور واللادكتور ، وأدركت أن الجامعة ليست حلوة إلا لمن يحمل الدكتوراه أياً كان إبداعه أو إنتاجه أو نشاطه أو عطاؤه . . فإن كان دكتوراً ، فإنه يعيش في الجامعة موضع الحفاوة بكل تأكيد .

وفي الحقيقة فقد شغلني موضوع الرسالة كثيراً ، وحرصت على أن أقدم موضوعاً للرسالة متصلاً بالحياة الثقافية في الخليج ، وقد أردت أن تكون الرسالة لا مجرد عمل أنال علية درجة علمية ، وينتهي ويختفي . . بل ليكن موضوعاً حياً وحيوياً ، وبعد تقليب الأمر على وجوهه الكثيرة ، استقر بي الرأي على أن تكون الرسالة في موضوع سردي ، امتداداً لرسالة الماجستير ، وليكن الموضوع خليجياً ، فوق أنه عربي . وليكن في الرواية الخليجية ، وليكن مرتبطاً بالحياة الخليجية ارتباطاً عضوياً . . وكان أن استقر الأمر على :

«جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية» ، ولقد استهواني حضور البحر والصحراء والمدينة في الرواية الخليجية ، وقد سبق ذلك قراءة

استقصائية للتأكد من أن هذا الموضوع محوري ، وواعد ، وقادر على أن يمنحني فرصة البحث فيه واستخلاص عناصره واستنتاجات ملامحه الواضحة .

وللحقيقة فقد فوجئت أثناء الاستقصاء بأن الرواية الخليجية تملك من العمق والتقنية والفكر والفن ما يشكل حقلاً جديداً بالدراسة .

وهناك بعيداً في البحر والصحراء وأفريقيا والمدن هُوِّم كتاب رواية الخليج . . ومزجوا الأساطير بالوقائع ودمجوا بين ما يقوله التاريخ وما يقوله الفن . . وقدموا نماذج إنسانية غاية في العمق ، والتحول ، وكان ما كان .

وبعد السيمينار الذي عقد لي في القاهرة في معهد الدراسات والبحوث العربية . . وشارك فيه الدكتور عزالدين إسماعيل والدكتور صلاح فضل . . وآخرون . . واعتمد الموضوع بدأت رحلة البناء والتأليف .

ولقد منحني الموضوع نفسه إلى الحد الذي استطعت أن أخوض فيه بشيء من اليسر والعمق والذهاب البعيد في تركيبة الإنسان الخليجي في الأزمنة المتلاحقة وأثر عناصر البيئة والتاريخ في تلك الشخصية .

وكانت سنتان ويزيد ، وقد وصلت إلى قناعة بأن العمل بلغ مداه . . وكنت على تواصل مع المشرف الأستاذ الدكتور صلاح فضل ، وإنني أسجل هنا أن صلاح فضل واحد من الذين قدموا الكثير والكثير للدارسين العرب والخليجيين ، والبحرينيين ولقد مكث في جامعة البحرين خمس سنوات كانت من أخصب السنوات في الدراسات العليا في قسم اللغة العربية ، وهو أستاذ بحق . . وأستطيع هنا أن أذكر أن الصديق الدكتور إبراهيم غلوم كان المشرف على رسالة الماجستير «تقنيات السرد في روايات منيف» والصديق الدكتور صلاح فضل هو المشرف على الدكتوراه . . بجانب تدريسه في برنامج الماجستير حيث كان يحاضر في مناهج البحث .

وأحمل البحث شبه مكتمل إلى أستاذي صلاح فضل وقد كنت على اتصال مستمر به أثناء إعداد الرسالة . . وكنت أنتفع بتوجيهاته غاية الانتفاع . .

وحملت الرسالة إليه وبعد أن ألقى عليها النظرة الأخيرة ، وبعد الملاحظات النهائية أمرني بطبع عدد من النسخ استعداداً للمناقشة وكان ذلك .

وتحدد تاريخ المناقشة ولجنة المناقشة ، وتكونت اللجنة من الأستاذ الدكتور صلاح فضل مشرفاً ، والأستاذ الدكتور عبدالمنعم تليمة ممتحناً ، والأستاذة الدكتورة نبيلة إبراهيم ممتحنة .. وفي نهاية أبريل (نيسان) عام ٢٠٠١ صحبت أم ساسان إلى القاهرة لحضور تلك اللحظة التي أعتبرها حاسمة .. وطال انتظارها .. ولما وصلنا القاهرة .. وأقمنا في الفندق .. واجهت موقفاً غاية في الطرافة والإزعاج .. فقد كدت أفقد صوتي لحساسية مفرطة لحقت بي .. وخشيت من أن أفقد القدرة على الكلام .. وحسبت أن مسألة قدرية ربما تهددني ، في لحظة طالما تطلعت إليها .. وفرصة تحققها لم تكن واسعة ، ولا تحتمل التأجيل .. وهجمت على الصيدلية المجاورة ، أستنجد بها .. وقد أسعفتني الأمر ، ولما جاء يوم المناقشة كنت على ما يرام .. وقبل يوم ، قمنا بالاستعدادات الضرورية لمثل هذه المناسبة وقد كنت قبل المناقشة بيومين قد مررت بالسفارة البحرينية للسلام على الصديق إبراهيم الماجد سفير البحرين في القاهرة آنذاك .. وأعلمته أنني بصدد مناقشة رسالة علمية ..

وقد كان الأخ إبراهيم الماجد على رأس الحاضرين للمناقشة وقد أرسل إلى قاعة المناقشة باقة مهيبة من الورد مع تحيات سفارة وسفير دولة البحرين ..

وللحقيقة ، إنني شعرت أن كل البحرين كانت هناك ، وأن هذا السلوك الراقي من سفير البحرين إبراهيم الماجد ، كان غاية في اللياقة ، واللباقة ، والتحضر والإنسانية .. وتجري المناقشة .. وكانت مناقشة غاية في السلاسة والعمق ، والدقة في التفاصيل ..

كانت جلسة علنية ومنحتني اللجنة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى ، وللحقيقة مر يومان قبل أن أستوعب ما الذي حصل ، وقبل أن أنتبه تماماً إلى الذي جرى .. لأنني لخصت ستين عاماً في ساعة .. وبقدر طول الانتظار تكون

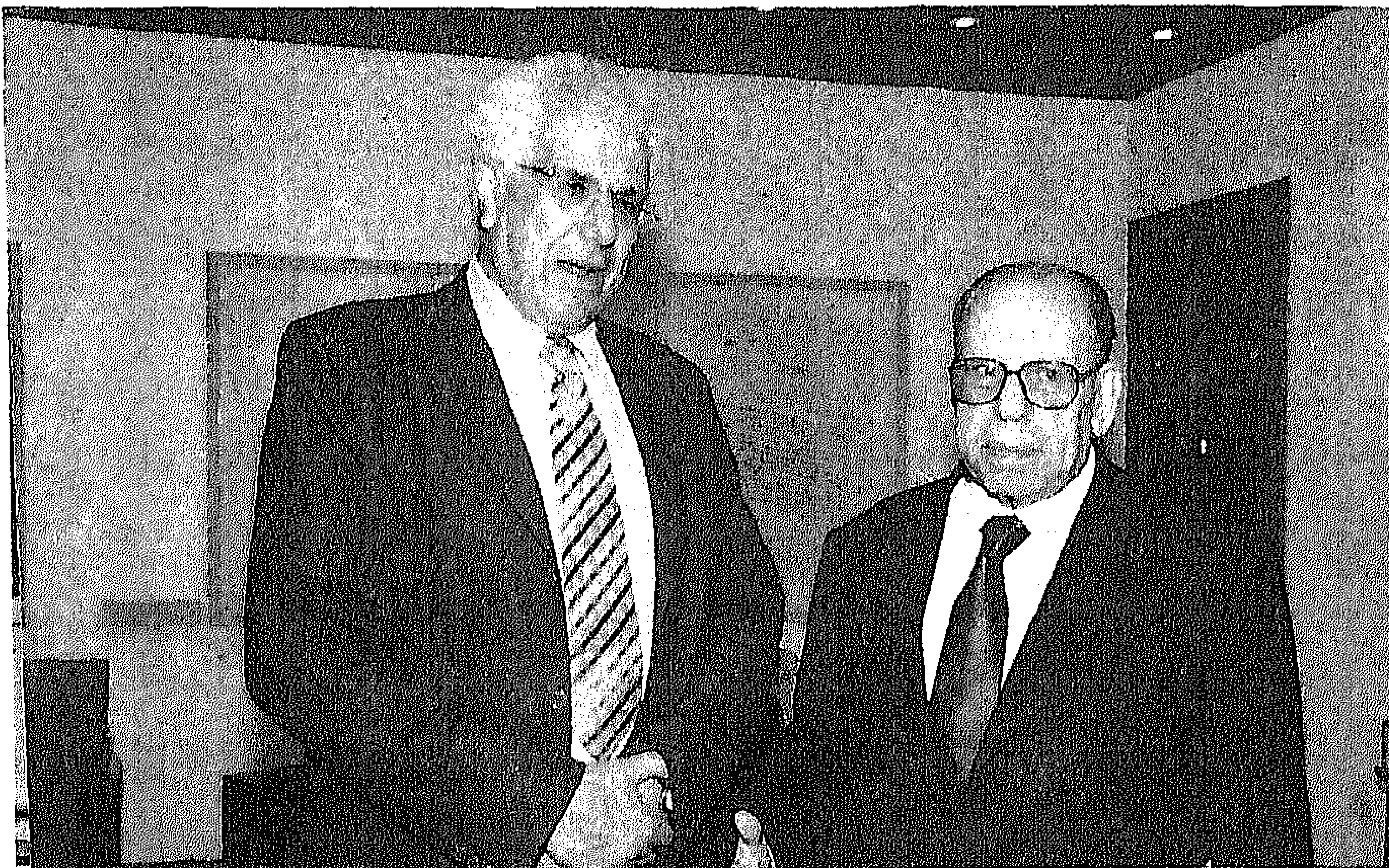
فجاءة اللحظة . . لقد كان في نظري إنجاز حقق لي الرضا عن نفسي . . لم أن أكن راضياً عن نفسي كمثل تلك اللحظة وما تلاها من لحظات .

عدت إلى البحرين . . ليس كمثل أي مرة عدت فيها . . الآن أنا أملك حق أن أضع أمام اسمي حرف (د .) يا للهول!! . . وبعد أن «طارت السكرة وجاءت الفكرة» اكتشفت أنني أنا هو أنا . . لم أزد بالدال شيئاً . . لكنها البيروقراطية العربية . . وكانت تلك الفترة هي التي أصبح فيها الدكتور محمد بن جاسم الغتم وزيراً للتربية والدكتور ماجد بن علي النعيمي رئيساً للجامعة . . وأتلقى برقية رقيقة من الأخ الصديق الدكتور محمد جاسم الغتم يهنئني فيها بهذا الإنجاز . . وكانت مرحلة جديدة في حياتي العملية . . جاءت جداً متأخرة . . لكنها جاءت .

وقررت أن أصدر الرسالة في كتاب ، وأنني أؤمن دائماً أن أي رسالة أو أطروحة تقدم لنيل درجة علمية عالية ينبغي أن تكون صالحة لطرحها في كتاب ، بحيث تشكل إضافة إلى المكتبة العربية ، وإلا ما فائدة أطروحة تبقى مخزونة في رفوف المكتبة العامة . .

وأصدرت الكتاب «جدلية الزمان والمكان والإنسان في الرواية الخليجية» عام ,٢٠٠١ . ولقد التفت الدارسون والمهتمون بالسرديات إلى هذا الكتاب . . وقد شاركت في الدورتين الثانية والثالثة لمؤتمر الرواية العربية في القاهرة . . ووجدت كثيرين من المشاركين من النقاد العرب المهتمين بالسرديات ، قد التفتوا إلى هذا الكتاب وعرفوه . . وكتبت عنه أكثر من صحيفة عربية .

وقد كرمني سمو رئيس الوزراء في عيد العلم العام ٢٠٠١



مع الدكتور صلاح فضل



في مؤتمر الرواية الرابع في القاهرة ويتوسط الصورة عبدالله الغذامي



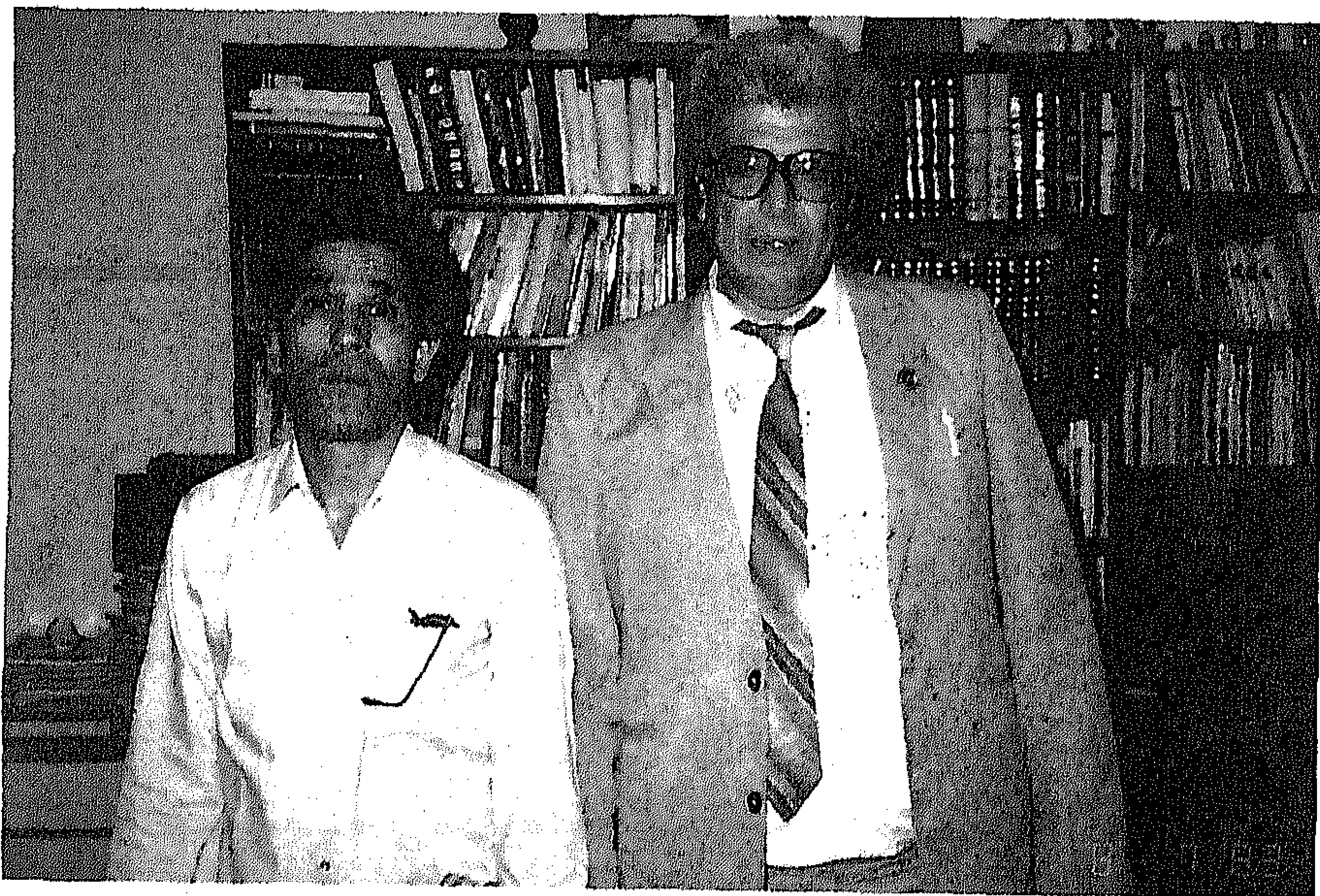
المحادين يستمع إلى ملاحظات صلاح فضل



بعد اعلان نتيجة الدكتوراه ويبدو الروائية الكويتية فاطمة العلي ، عبدالحميد المحادين ، وفاء الكركي ، الدكتورة لجيمة تي تي ، السفير إبراهيم الماجد



أثناء المناقشة : يبدو الحادين ، عبدالمنعم تليمة ، صلاح فضل ، نبيلة إبراهيم



مع الشاعر محمد عفيفي مطر

(٤٥)

منذ العام ١٩٦١ وحتى العام ١٩٩٩ ، يمكن اعتبار هذا الامتداد الزماني الواسع هو عصر عيسى بن سلمان ، وبين التاريخين أمور كثيرة وقعت ، وتغييرات أخذت مكانها على الخريطة البحرينية سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً . .

إنها مسافة من الزمان حفلت بالتطورات والتغيرات والتحولات التي لا تخفى على ذي سمع وذي بصر . .

وإنني استحضر ذلك اليوم الذي شهدت فيه مبايعة جماهير البحرين لعيسى بن سلمان أميراً وحاكماً وقائداً وأخاً . بعد أن اختار الله الشيخ سلمان بن حمد في يوم من أيام العام ١٩٦١ .

وأنتقل إلى يوم آخر كان في مارس (آذار) ١٩٩٩ حيث شاءت إرادة الله عز وجل أن ينتقل إلى جواره الشيخ عيسى ، ولست هنا لأعدد منجزات ذلك العهد ، ولقد كتبت في السفر الذي أصدرته وزارة الإعلام بعنوان «منجزات البحرين الثقافية في ٣٠ عاماً» . . وكان ذلك العام ١٩٩١ ، لكنني هنا . . أستحضر اللحظات التي أتيح لي فيها أن أصافح سمو الشيخ عيسى ، في مناسبات مختلفة ومنها مناسبات تربوية ومناسبات اجتماعية وثقافية . صافحته حين كان سموه يتلقى التعازي من المواطنين بالمغفور له الشيخ سلمان بن حمد طيب الله ثراه ، وصافحته يوم بايعه المواطنون في قصر القضيبية ، وكان يوماً مشهوداً . . وصافحته حين قدمت لسموه أحد كتبي في بداية الثمانينيات . وتوالت المناسبات العلمية والتربوية وكنت أتشرف بمصافحة سموه ، وفي المرات

الأولى كان يتلطف ويسألني . . عمن أكون؟ وبعد لقاءين . . لم يعد يسألني . . فقد تراءى لي أنني أصبحت مألوفاً لدى سموه . لقد كان سمو الشيخ عيسى مكتنزاً بالروح الإنسانية السمحة ، ولا يتلقى المواطنين إلا مبتسماً ، ويلاطف الإنسان الذي يصافحه ، ويسأله عن أحواله ، وقد يسأل زائره عن عائلته وأهله إن كانوا معروفين لديه . . وما أظن أحداً من أهل البحرين إلا وكان معروفاً لدى سموه . .

لقد عاصرت سموه من أول رحلة بدأت في العام ١٩٦١ وحتى اختاره الله إلى جواره العام ١٩٩٩ .

وحين انتقل سموه الشيخ عيسى إلى جوار ربه كتبت كلمتين في الصحف المحلية أتحدث في كلتيهما عن الأثر الذي تركه غياب سموه في المواطنين .

الكلمة الأولى كانت بعنوان «مشهدان بينهما البحرين» .

مشهدان . . بينهما أربعة عقود . . الأول . . عام ١٩٦١ . . وعيسى شاب مشرق الجبين ، باسم الوجه . . تتزاحم إليه جموع الشعب البحريني ، تبارك له تولي الحكم ، وتمزج التهاني بالآمال ، وتذكّر وهي تمد أيديها إلى أميرها الشاب الحلم الواسع . . وكان وهو يصافح الناس واحداً واحداً . . يدرك أي عمل عليه أن ينجزه . . وأي دور وضعه القدر له . . كان الوطن غير مستقل ، والإرادة الوطنية غير طليقة ، وكانت الطموحات كبيرة . . والاستشراف عريضاً . . والمستقبل الجميل واعد . . الناس يتدافقون . . قبل أربعة عقود . . ويضعون أمام أميرهم الشاب طموحاتهم العريضة وآمالهم الجميلة . . سيما وأن شعب البحرين المثقف الواقعي ، والواثق في ذات الوقت ، يعلم حدود الممكن وحدود المستحيل ، وهاهم يتذكّرون أميرهم الشاب ، الذي يشاركهم الحلم ، ويشاركهم استشراف الممكن ، ولديه آمال كآمالهم ، وأحلام كأحلامهم . . فامتزجت أحلام الشعب بأحلام الأمير الشاب . . لم يكن ذلك خافياً ، لحته وأنا حديث عهد بالبحرين وقليل المعرفة بها . . لكن الفرح والأمل . . يعلنان عن نفسهما! والإمكانات محدودة ،

وها هو يصافح أبناء شعبه . . وكل كلمة تهنئه تمتزج بقدر من الأمل .

والثاني ، أول أمس ، في مقبرة الحنينية ، وذاك الأمير نفسه . . عيسى الذي رأيته شاباً . . يعد بالمستقبل ، ويحمل إلى شعبه البشرى ، هو نفسه . . وقد ترجل هذا الفارس بعد أربعة عقود . . وها هو محمول على ذات الأكف التي كانت تصافحه قبل ٤٠ عاماً . . أكف أبناء شعبه . . وهم يحملونه إلى حيث يلقى وجه ربه . . المتفرد بالبقاء والخلود . . وينشجون ويبكون وكل منهم يهمس بينه وبين نفسه :

فلو كانت الدنيا تباع اشتريته
بما لم تكن عنه النفوس تطيب
بعيني أو يمنى يدي ، وقيل لي
هو الغانم الجذلان حين يؤوب

بين مشهدين رأيت عيسى بن سلمان . . مشهد الشباب . . والأمل ، والوعد . . والمشهد الثاني الذي «يفلّق أكباداً ويبكي بواكيا» وبين المشهدين كانت «البحرين» ماثلة ، دولة مستقلة سيدة ، تملك ارادتها وتملك حريتها ، تقف في مصاف الدول المستقلة ، تبني ليلها ونهارها ، تنمي البشر والاقتصاد ، وهاهم أهلها «أمرهم شورى بينهم» دولة لها دستور ، وقوانين . . وهي مركز من مراكز الثقافة ، ومصدر من مصادر الفكر . أخذت مكانتها في المنظومات الإقليمية والعربية والدولية . بين المشهدين . . صار للبحرين صوت مسموع ، ومكانة مرموقة ، تقيم علاقاتها مع كبريات الدول على قدم المساواة . .

دولة لها طموحاتها ، ولها حضورها المشرف . . لقد فعل ذلك عيسى بن سلمان بين المشهدين . .!!

هذا الرجل الذي رأيته قبل ٤٠ عاماً شاباً ، متوهجاً ، تمتد إلى يديه آلاف الأيدي . . هو نفسه الذي رأيته أول أمس على أكف أبناء شعبه . . وقد ترك البحرين عزيزة ، لها كل ما للدول الحديثة .

لقد حقق الأحلام . . التي كانت تترقرق على الوجوه قبل ٤٠ عاماً . . وصارت حقائق ، وصارت واقعاً . . ولذا بكى شعب البحرين وهم يحملون عيسى على أكفهم . . إلى لقاء ربه . .

* كَفَل الثناءُ له بردِّ حياته
لمَّا انطوى فكأنه منشور

مشهدان لعيسى ، بينهما البحرين الحديثة . .

وها هو عيسى يلبي نداء ربه . . عز وجل . . يبكيه شعبه لأنه صدقهم الوعد ، وحقق لهم الأمل . . ولكن «أي معشر جمعتهم الدنيا ولم يتفرقوا!

سوف تستمر البحرين في تأكيد مكانتها ومنعتها ، ولن تتوقف ، وستبقى واحة للرخاء والحرية وميناء من موانئ العروبة . .

ومرفأ للسلام . . والاستقرار

وكما كان في الماضي . . سيكون الشأن في المستقبل . .

وحادينا إلى الآتي

أمير صادق الوعد

وهذا هو شأن الشعوب العظيمة العريقة . .

إذا مات منا سيد قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

أما الكلمة الثانية ، فكانت بعنوان «كان ذلك في يوم سبت» .

«ذات سبتٍ ، وكان أهل البحرين ، في هدوئهم المعهود ، وعملهم اليومي ، وكل شيء يسير بصمت ، والناس يستشعرون سكينة الحياة ، ودفقها . وفجأة وعلى غير توقع ، أطل وجه عيسى ، من فوق الأفق ، وملأ الفضاء . . كان وجهه باتساع البحرين ، لوّح . . بيده . . وغاب!

ذات سبت كان الجرح ، وكان الحزن ، وكان الفراق ، صار الناس يلتقون مذهولين . . تقع العيون في العيون . . وتتأمل الوجوه الوجوه ، ودون نطق ، يقولون

ما ينفجر في الصدور من أحزان . . لفراق رجل . . كان أخانا . . كان أبانا . . كان صديقنا . . كان أميرنا .

وتمر الأيام ، وحزننا يتعتق في صدورنا ، وها نحن يا عيسى ومصب روحك في دمنا ، لا يفارقنا ، ووجهك المستبشر لا يغيب من أحداقنا ، والحزن الذي تفجر بعدك عيوناً لا يهدأ فينا ، نلملم وجعنا ، والفجيعة تتجول في قلوبنا ، وكل شبر من الوطن . . يذكرنا بك ، فنحس بلوعة تجعل الوجه أسفعا ، وها قد ذهبت يا أميرنا ، وذهابك «يفلق أكباداً ويبكي بواكيا» .

والآن ، نضع كفنا على جراحنا ، نضمدها كما علّمتنا ، نضمد جرحنا النازف بوطن عزيز ، تركته عزيزاً منيعاً أبياً ، بنيته كما يبني الرجال العظماء الأوطان العظيمة . .

يا أميرنا كل الأمراء أنت ، يا أيها الوفي كل الأزمنة زمانك أنت ، يا حبيبنا كل الأحبة أنت .

أيها العذب النبيل ، أيها الفارس الشهم ، أيها الرجل الرجل ، يا عظيماً تجعل الأشياء حولك عظيمة . .

يا أيها السمح ، يا أيها الحاني ، أبناؤك كانوا يعلقون بجبينك أنظارهم ، حتى المخطئون منهم ، يفرون منك إليك ، وحتى من أدركه شيء من عقوق يلوذ بك منك ، فيتسع لهم عفوك وتؤويهم سماحتك ، يا أميراً أكبر من الانتقام ، وكان أنبل من التشفي .

نضمد الآن جراحنا ، والجراح العظيمة تفرز الإرادات العظيمة .

نضمد جراحنا بأمير حمل الراية بعدك ، شامخة مرتفعة ، لم يتركها تهتز ولو لحظة ، فما أن ارتخت عنها كفاك في لحظة القدر التي لا تتأجل حتى تلقفتها كفا حمد . . عزيزة صامدة .

إذا مات منا سيد قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول

ها هي البحرين ، كعهدك بها ، عزيزة ، منيعة ، يمسك رايتها أميرها المحبوب حمد ، معضداً بخليفة وسلمان وبكل قلوب البحرين المتوحدة . . هذه القلوب . . أتحدت حزناً على عيسى ، وستبقى متحدة أملاً ووفاءً لوطن عزيز ، ومزدهر . . وولاء لقيادة راشدة حكيمة .

ستبقى البحرين شامخة ، وستبقى مرفأ للأمن والأمان وللسلام وللازدهار . .! .

وسلام الله على روحك يا عيسى!



مع المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة



مع المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة



مع المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة



مع المغفور له الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة

(٤٦)

٢٠٠١ أصبحت دكتوراً . . وهي نقلة نوعية في حياتي المهنية طالما أنتظرتها ، وقد حصل ذلك في الفترة الانتقالية بين رئاسة الدكتور الغتم للجامعة ، ورئاسة الدكتور النعيمي ، فقد أصبح الدكتور الغتم وزيراً للتربية والتعليم وصار الدكتور ماجد النعيمي رئيساً لجامعة البحرين .

وكنت على معرفة طيبة مع الدكتور ماجد بن علي النعيمي ، من خلال اهتمامنا بالحركة الرياضية ، فقد كان الدكتور النعيمي يقوم بدور بارز في هذا المضمار ، وأنا كنت مجرد مشجع لكرة القدم ، ولكن ذلك برر أن يكون بيننا معرفة ما . . خفيفة . . توثقت حين صار الدكتور النعيمي رئيساً لجامعة البحرين . . وكنت قد «تدكترت» .

وواصلت نشاطي الثقافي في إطار الجامعة وفي صعيد مجلة «ثقافات» التي يرأس تحريرها الدكتور علوي الهاشمي عميد كلية الآداب آنذاك ، وكنت مدير تحرير فيها . . مع حشد من الزملاء الفضلاء . . ولما بدأ مشروع صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة الحضاري . . وبدأت خطوته العملية الأولى في وضع «الميثاق الوطني» وقد شكلت لهذه الغاية «اللجنة الوطنية العليا» لإعداد مشروع ميثاق العمل الوطني . . وقد ضمنت اللجنة ممثلين من مختلف الفئات والكفاءات الوطنية من كافة أطياف المجتمع ، وتجاوباً مع رؤية سمو الأمير ونهجه الديمقراطي المتمثل في حوارات سموه في لقاءاته مع مختلف القطاعات الأهلية والتجمعات الشعبية الوطنية العديدة . . نهضت اللجنة المذكورة بوضع ميثاق

العمل الوطني لدولة البحرين وأنجزت اللجنة المهمة في ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠١ وكان الميثاق يتكون خطوة خطوة وفقرة فقرة . . وتقوم لجنة الصياغة بوضع ما يتفق عليه أعضاء اللجنة في نصه النهائي ، وكان لي شرف المشاركة في لجنة الصياغة منذ الجلسة الأولى حتى أصبح الميثاق كتاباً موثقاً قدمه سمو الأمير إلى شعبه للاستفتاء عليه ، فأقره الشعب بنسبة عالية جداً .

وقد أقامت جامعة البحرين احتفالاً مهيباً في الذكرى الأولى لإقرار ميثاق العمل الوطني قدمت فيه الجامعة أوبريت وطني باسم «عاش حمد» كتبت كلماته ، ولحنه الأستاذ جمال السيّد وأخرجه بسام الذوادي .

وفي العام ٢٠٠٢ استدعاني الدكتور ماجد بن علي النعيمي إلى مكتبه في مدينة عيسى ، وكان على وشك أن يجري تغييرات في المناصب العليا في جامعة البحرين . . وذهبت إلى الدكتور ماجد ذات عصرية . . وهو معروف بأنه يواصل العمل منذ الصباح حتى المساء . . ولم أكن أدري لماذا استدعاني رئيس الجامعة . . وفي ذات الوقت لم أكن قد توقعت أي تغيير في وضعي المهني ، وبعد مجاملة لطيفة من رئيس الجامعة . . قال لي :

أريد أن أعرض عليك أمراً ، وأريد أن لا تجيبني اليوم ، وأمهلك إلى الغد لتقول لي نعم أو لا! قلت له خيرا إن شاء الله .

قال : «أنا أرشحك أن تكون عميداً لشؤون الطلبة في جامعة البحرين لأنني أعرف تجربتك التربوية الطويلة ، وسعة صدرك ، ومقبوليتك لدى الطلاب من أيام المدرسة الثانوية . . وهذه المواصفات ضرورية فيمن يتولى مثل هذا المنصب . فإن كنت توافق قل لي . . غداً . . نعم أو لا»!

وأضاف : «وأعلم إنها مهمة شاقة جداً ، وإنني اخترتك لها لعلمي بأنك الدكتور المناسب في الموقع المناسب» .

وفي هذه اللحظة . . أجريت بيني وبين نفسي ما يسميه الأدباء «فلاش باك» . . ووجدت أجوبة لأسئلة لم أجد لها تفسيراً قبل هذه الدعوة بثلاثة

شهور . . فقد كان الدكتور ماجد النعيمي يدعوني لحضور اجتماعات تتعلق بشأن بعض أمور الجامعة ، دون أن تكون لي صفة إدارية معروفة . . وكنت أحضر اجتماعات وفيها عميدة شؤون الطلبة الدكتورة جيهان العمران ، وقد شارفت مدة انتدابها لهذا المنصب على النهاية . . وكانت تربطني بالدكتورة العمران علاقة زمالة ممتازة هي امتداد لتلك الصلة الطيبة التي كانت تربطني بالأستاذ أحمد العمران طيب الله ثراه والسيدة سلوى العمران والدكتورة هالة العمران ، والدكتور ظافر العمران والأخ مازن العمران .

ولقد كنت في وفد الجامعة الذي زار الجامعات الأردنية برئاسة الدكتور محمد الغتم لما كان رئيساً لجامعة البحرين ، وكانت الدكتورة جيهان العمران أحد أعضاء الوفد .

واستنتجت أن الدكتور ماجد النعيمي كان يجعلني أحضر الاجتماعات التي تتعلق بشؤون الطلبة ، لكي أكون على علم ببعض تفاصيل هذه المهمة .

وللحقيقة . . تجاوزت المفاجأة بسرعة . . وقلت للدكتور ماجد . . سعادة الرئيس ، لا يحتاج الأمر إلى «غداً» والتفت إلي ، وهو غير متأكد من إجابتي ، أسلبية أم إيجابية .

وواصلت الحديث وقلت : قال الشاعر :

نالها قبلي أناس لم أكن

دونهم علماً ولا أدنى جدارة

واستنتج بطبيعة الحال ما هو موقفي . . وقمت للوداع وقلت له هذا الموضوع لن أخبر فيه أحداً . . والقرار النهائي لك . . وافترقنا . . كأن حديثاً لم يدر بيننا في هذا الموضوع وبعد مدة وفي اجتماع لمجلس الأمناء الذي في العادة يتم مساءً ويستمر إلى ساعة متأخرة برئاسة رئيس مجلس الأمناء وزير التربية الدكتور محمد الغتم . . تحقق لي في صبيحة اليوم الثاني حلم طويل كان يرافقني منذ أكثر من ربع قرن . . حيث إنني تعرفت على الأصدقاء هلال الشايجي وإبراهيم

غلوم في مدرسة الهداية ، حيث كانا معلمين بعد تجربتهما المباشرة من الأزهر ، في مدرسة الهداية الخليفية عام ١٩٧٥/١٩٧٤ وتعرفت عن طريق إبراهيم على الصديق علوي الهاشمي حيث كنت أصادفهم عند بائع العطورات الذي يقع في نهاية شارع باب البحرين عند تقاطعه مع شارع الشيخ عبدالله ، وتابعت رحلة الثلاثة إلى استكمال دراستهم العليا ، ولاختلاف ظروفي ، تقدموا في ذلك وتأخرت .

وكنت أتابعهم . . بإعجاب . . وأتخذ منهم نموذجاً أتطلع إلى بلوغه . . كانوا مثلي الأعلى في مواصلة التعليم العالي .

وفي صبيحة اليوم التالي لاجتماع مجلس الأمناء . . أصبح الدكتور علوي الهاشمي نائباً لرئيس الجامعة . . وأصبح الدكتور إبراهيم عبدالله غلوم عميداً للآداب ، وأصبحت عميداً لشؤون الطلبة .

وهمست بيني وبين نفسي بالقول العربي المأثور :

وعند الصباح يحمد القوم السُّرى!

أما الدكتور هلال ، رحمه الله ، فكان قد غادر الجامعة منذ سنوات وعمل في مواقع جيدة منها رئيس تحرير جريدة أخبار الخليج . . ويومها أعلنت بيني وبين نفسي الرضا عما أنجزت . .

وإنني لحقت بإخوان وأصدقاء من خيرة الأكاديميين الذين كنت دائماً أعتز بتجربتهم .

لن أتحدث عن تجربتي عميداً في جامعة البحرين . . إلا إنها تجربة غاية في الخصب والثراء . . توجت بها خبرة أكثر من ٤٠ عاماً قضيتها في التدريس وهمومه وأتاحت لي فرصة كوني عميداً ، المشاركة في اجتماعات مجلس الجامعة التي تكاد تكون أسبوعية وتعرفت على العمل الأكاديمي من جانبه الإداري ، وانتفعت بخبرة الذين انضممت إليهم .

وأود هنا أن أشير إلى الذين عملت معهم مباشرة فقد كانت عمادة شؤون

الطلبة تتكون من أربع إدارات تسير بشكل مؤسسي رائع وهي :

دائرة الخدمات الطلابية وترأسها فاطمة العريض ثم خليل الخنيزي

دائرة الإرشاد والتوجيه وترأسها خولة العلوي

دائرة الخدمات وترأسها عائشة العامر

دائرة التنمية الطلابية ويرأسها د . عدنان التميمي

ولقد وجدت من العاملين في عمادة الطلبة كل تعاون ومساندة وقد وضع الجميع خبرتهم الغنية أمامي وقدموا لي كل ما أطلبه من رأي ومشورة وتفاصيل وكانوا نموذجاً في التآلف والتعاون والخبرة .

وللحقيقة فقد سارت الأمور بسلاسة مؤسسية رائعة وفي السنة الأولى أنجزنا مجلس الطلبة الأول ، وأنجزنا الجمعيات الطلابية في كل الكليات وقامت في الجامعة أنشطة نهض بها الطلاب بشكل أساسي .

وكانت كل أمور الطلاب تسير في إطار مؤسسية راقية . وقد لعب الأخ الصديق محمد البنكي دوراً بارزاً في تلك الإنجازات وكان مديراً للإعلام والعلاقات العامة . .

لم يطل الأمر كثيراً بالدكتور ماجد النعيمي رئيساً حيث بعد حوالي سنة أصبح وزيراً للتربية والتعليم وصارت رئيسة الجامعة الدكتورة مريم بنت حسن آل خليفة . .

وفي عام ٢٠٠٤ انتهت مهمتي كعميد بشؤون الطلبة وصارت العميدة هي الدكتورة هدى الخاجة .

وفي الحفل الذي أقامته عمادة شؤون الطلبة لي . . وحين نهضت لأقدم كلمة شكر لرئيسة الجامعة والزملاء الدكاترة من نواب الرئيسة والعمداء وعميدة شؤون الطلبة وجميع موظفي عمادة شؤون الطلبة الذين سعدت بالعمل معهم وشرفت والهيئة الأكاديمية ، قال لي الدكتور حنا مخلوف ، نائب الرئيسة للشؤون المالية والإدارية .

إبدأ بالشعر وقد استجبت لرغبته ، وهي رغبة جميلة وبدأت كلمتي بقولي :

أتيـــتكم ، تحـــاصـــرني العـــيـــون
علـــى وجـل تـظـن بـين الـظـنـون
وقـــد صنت الأمـــانة لم أخنهـــا
وفي البـــحـــرين شـــعب لا يخــون

استهل الحفل بكلمة د . الخاجة تلتها كلمات من مديري الدوائر الإدارية في العمادة كما اشتمل الحفل على عرض صور لأبرز وأهم الفعاليات والأنشطة التي حققتها العمادة في أثناء الفترة التي توليت فيها العمادة حيث كانت من إعداد شعبة التدريب والتطوير الطلابي ثم ألقى الطالب عبدالله القرمزي قصيدة امتدحني فيها ، وقد قامت العمادة بإصدار كتيب تذكاري تعريفي بأهم المحطات في مسيرتي على المستوى التأليفي والعملي ومساهماتي المختلفة على الأصعدة المختلفة .



رئيسة الجامعة الشيخة مريم الخليفة وعميدة شؤون الطلبة هدى الخاجة في حفل التكريم



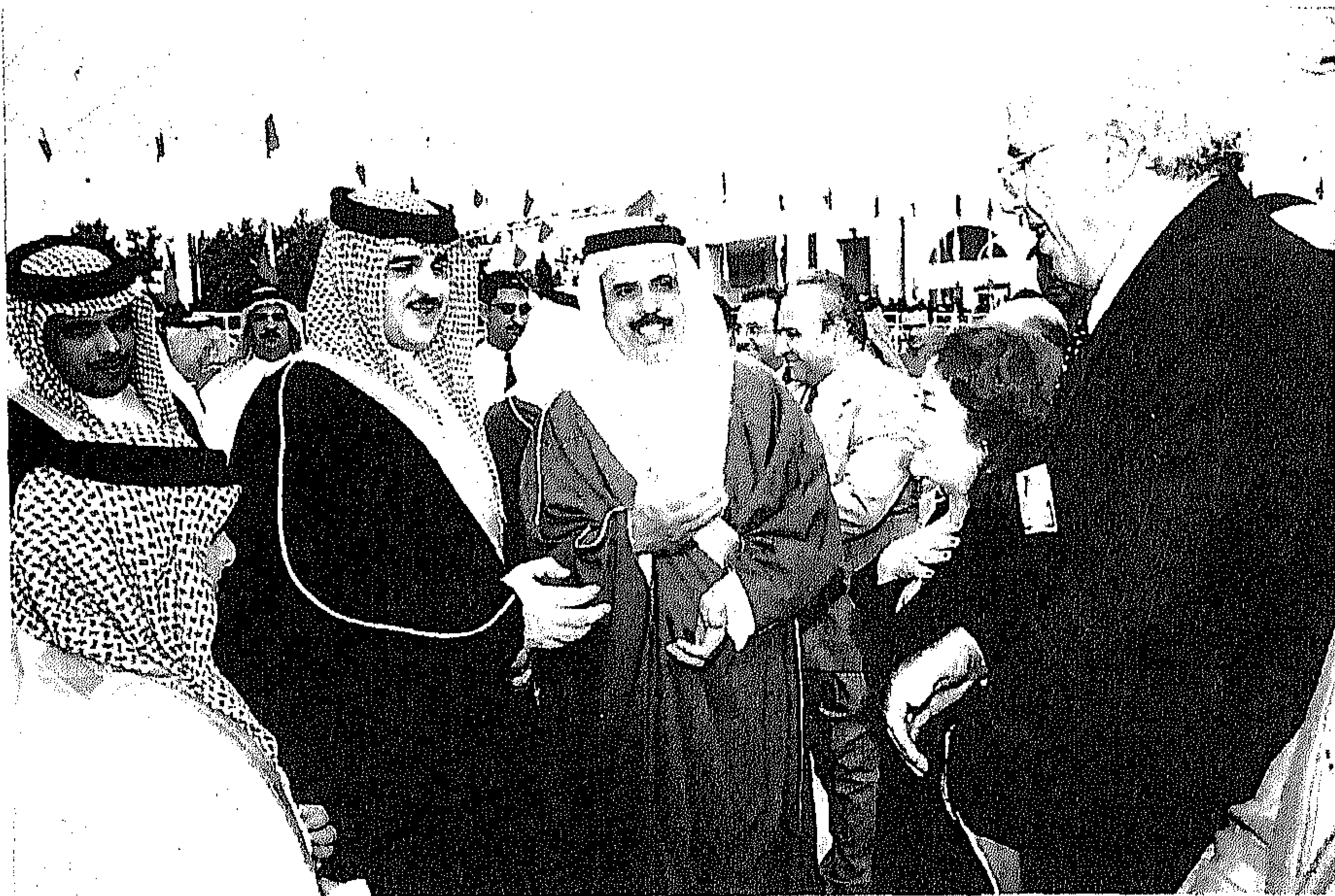
المحادين يتوسط موظفي عمادة شؤون الطلبة في حفل تكريمه



عائشة العامر ، عدنان التميمي ، المحادين ، خليل الخنيزي ، خوله العلوي



مع وفد الجامعة في زيارة سمو رئيس الوزراء



مع الدكتور ماجد النعيمي والشيخ عبدالله بن حمد آل خليفة



ماجد النعيمي ، إبراهيم غلوم ، علوي الهاشمي ، المحادين



في حديث ودي مع الدكتور ماجد النعيمي ويستمع علوي الهاشمي وعبدالرحيم شريف

(٤٧)

على مدى التاريخ الممتد منذ ١٩٥٥ وخليفة بن سلمان مهتم بالشأن العام ، وينهض بالمسؤوليات الهامة في أكثر من حقل من حقول الحياة السياسية والإدارية ، والاجتماعية والثقافية ، والتربوية . . ولقد كان خليفة بن سلمان حاضراً في كل فعالية رئيسية في الوطن ، وكان له دور في كل هذه التنمية الشاملة التي شهدتها البحرين .

وفي مناسبات كثيرة رأيت خليفة بن سلمان وهو المحرك الأساسي في الأنشطة والفعاليات التي تنظمها وتشارك فيها الفواعل الاجتماعية والسياسية والعلمية والرياضية . . عشرات المرات شهدته في هذه المحافل الشعبية الكثيرة ، ولقد أتيح لي مرات كثيرة أن أصافح سموه ، ولكن ذلك كان يتم في نطاق العشرات بل المئات بل الألوف . . لكن في مناسبات أكثر تحديداً أتيح لي أن أصافح سموه ، وكشأنه دائماً إذا كان هناك متسع من الوقت فإنه يتبسط مع الذين يسلمون عليه ، ويسأله عن أحوالهم ويتعرف عليهم إذا كان لا يعرفهم .

وقد صافحت سموه في مثل هذه المناسبات كثيراً ، وقد كانت المصافحة الأكثر التفاتاً وفي مناسبة محددة ، يوم تكريم أعضاء جمعية البحرين الخيرية

وقد كنت قد التحقت عضواً فيها منذ ١٩٨٢ ، وأصبحت عاملاً في اللجنة الإعلامية وكذلك في لجنة تحرير مجلة البحرين الخيرية . . وبمرور عشر سنوات على تأسيس الجمعية أقيم احتفال تحت رعاية الشيخ خليفة بن سلمان وكرم فيه العاملين في الجمعية وقدم لهم بيده الكريمة شهادات التقدير .

وكنت أشهد سنوياً حفل تخريج طلاب جامعة البحرين والتي كان سموه يحرص على أن يكون تحت رعايته تقديراً للعلم والتعليم وحين كنت على علاقة وثيقة بجامعة البحرين وكنت مدرساً فيها وكذلك طالباً في الدراسات العليا ، ورعى سموه حفل تخريج الجامعة في عام ١٩٩٧ ، وكنت أول المصافحين لسموه وكان يمنح الثقة والمحبة لكل الذين يصافحونه ويتحدث مع بعضهم ببضع جمل مع بشاشة في الوجه ، وتكريس للعلاقات الإنسانية العميقة .

وفي عام ٢٠٠١ ، كان التكريم الثاني بمناسبة حصولي على الدكتوراه وقد كان ذلك التكريم في عيد العلم وقد أتيح لي مرة أخرى أن أصافح سموه ، وأن أتقبل منه التهنئة ، وأن يبث في الذين يصافحونه ذات الشعور ويحيطهم بهذه اللفتة الإنسانية الراقية .

وعندما أصبحت عميداً لشؤون الطلبة أتيح لي أن أصافح سموه مرتين ونحن ، عمداء الجامعة نصطف لاستقبال سموه في حفلات تخريج طلاب الجامعة ، وكان كالعادة يصافح المستقبلين ويتعرف عليهم ، ويتبادل أحياناً مع بعضهم شيئاً من الأحاديث . .

وقد تم تشكيل وفد من طلاب الجامعة ومن عمادة شؤون الطلبة برئاسة الدكتور ماجد بن علي النعيمي رئيس الجامعة للذهاب إلى قصر سموه والتشرف بالسلام عليه ، وتقديم عدد من اللوحات التي رسمها الطلاب إلى سموه ويقدم بعض مطبوعات الجامعة .

ولقد استقبلنا سموه ، وتبسط مع الجميع بالحديث ولاسيما الطلاب . . وتقبل اللوحات الجميلة التي رسموها ، وتناقش معهم في بعض جوانبها الفنية ، وثم قدم له الدكتور علوي الهاشمي نائب رئيس الجامعة ورئيس تحرير مجلة «ثقافات» عدداً من هذه المجلة التي كانت تصدر من جامعة البحرين .

ولما تناول سموه المجلة قال ببساطة رائعة :

أحب عندما يقدم لي مطبوعة أو كتاب أن يكتب عليه إهداء بخط المؤلف

وكانت لفتة إنسانية تدل على تأكيد سموه على العلاقات الإنسانية المباشرة بينه وبين أبنائه من أفراد الشعب . . وكذلك من الكتاب والمؤلفين والمبدعين . .

وفي العام الفائت . . اتصل بي أخي وصديقي سلمان بن هندي محافظ المحرق . . وأبلغني أن سمو الشيخ خليفة سيشرف مجلس بن هندي في زيارة مسائية في سلسلة زيارات سموه للمحرق . . وقال لي الأخ سلمان ، أحب أن تكون معنا في المجلس في هذه المناسبة الكريمة . . وأسعدتني هذه الدعوة الأخوية الكريمة لأنني سأتشرف بالالتقاء بسمو الشيخ خليفة . . وهكذا كان . . ولما صافحت سموه ، قدمني إليه الأخ سلمان بن هندي في حضور الأخ صالح بن هندي ، وذكر سلمان لسمو الشيخ خليفة شيئاً من علاقتي بالتعليم وبالمحرق وبالأجيال التي كان لي شرف التعامل معها ، ولقد رحب بي سمو الشيخ خليفة ترحيباً كريماً . .

وعندما عقدت جريدة الأيام ملتقى طرفة بن العبد ، استقبل سمو الشيخ خليفة الباحثين المشاركين في هذا الملتقى ، وقد تبسط سموه مع كثيرين من الباحثين ، وتحدث عن كثير من الأدباء والفنانين العرب ، وتبادل يومها الحديث مع محيي الدين اللاذقاني ، وقد قال أحد الباحثين أن طرفة بن العبد بحريني وهناك دليل من شعره .

والتفت سموه إلى الدكتور عبدالقادر فيدوح أستاذ الأدب الحديث في جامعة البحرين ، وكان قد أشرف على طباعة ديوان طرفة بن العبد محققاً ، واستفسر عن البيت أو الشعر الذي يستدل به على أن طرفة بن العبد من جزيرة البحرين . .

فذكر الدكتور فيدوح بيت طرفة المشهور :

كأن حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

وهذا البيت يثبت أن طرفة من قرية المالكية . . وكان لقاءً لطيفاً أضفى عليه سموه التلقائية .

لا شيء يعدل الصورة في تثبيت المشهد زماناً ومكاناً ، فهي تختصر الامتدادات ، والتحولات ، وتثبتها في لقطة واحدة في أقل من جزء من الثانية ، ثم تبقى هذه الصورة تحمل دلالتها في موقف ما في لحظة ما ، ومن هنا يمكن للصورة أن تكون جزءاً من عمل أدبي . والصورة «أداة سردية» دقيقة ، يمكن توظفيها في سياق حركة الزمان والمكان ويمكن الانطلاق منها إلى ما قبلها ، وإلى ما بعدها وتكون هذه الصورة نقطة المركز في حركية الحياة في شأن من شؤونها ، ويمكن بالصورة استحضار تاريخ ممتد أو توقع تاريخ سيمتد . . ولا شيء يثير الخيال ويحرك آليات التوقع ، ويحفز الذهاب إلى آفاق بعيدة منطلقة من نقطة الارتكاز «الصورة» إن الجمود الظاهر في الصورة هو السر الأعظم في حركيتها وحيويتها وإيحاءاتها ، ودلالاتها ، وإن صدقها الزماني والمكاني هو الذي يجلب ما يفجرها من أخيلة وتقديرات ويذهب منها إلى الإبداع الإنساني حولها . . إن آخر ما تقوله الصورة هو الشيء الذي تقوله!!

أن الصورة لا تقول الذي نقول ، وإنما تقول الذي هو المحتمل وهو الممكن . . وإن قيمة الصورة ليست في تفاصيلها وموضوعها ولكن قيمتها فيما توحي به عند المتلقي ، ومن هنا تكون فرصة الإبداع . . الصورة تتحول إلى مئات الصور بقدر مئات المتلقين . . والإنسان حين يقف أمام صورة ثابتة يتأملها . . فإنها في مخيلته تصبح شريطاً متحركاً يذهب به بعيداً إلى ماضٍ أو بعيداً إلى آت . . بل هو ينظر إلى الصورة فلا يراها . . وإنما تتحول إلى شريطٍ متحرك فيه مئات الصور!!

أي سردية ممتدة يمكن أن تنفجر من هذه الصورة ، المشهد ، عندما أنجزت دراستي في القاهرة وحصلت على درجتي العلمي ، كان هذا الموقف من الملتقى الأهلي الثقافي .

أنني حين أنظر في هذه الصورة استحضر تاريخاً ممتداً عبر عشرات السنين . . وعلاقات متراكمة عبر عدد غير قليل من العقود . . فها هو المغفور له عبدالرحمن كانو ، الرجل الذي كرس حياته للحراك الاجتماعي والرياضي والثقافي ، عبر تاريخ ممتد ، وسنوات قد لا تعيدها الذاكرة . . وهو يرعى كل خير ، أو كل نشاط يحفز الناس على الحياة . . وعلى الاجتهاد .

أنه شريحة من هذا المجتمع الخير ، وفرد من أسرة أسهمت وتسهم في فعل الخير وخدمة المجتمع .

لو أن أحداً أراد أن يضع هذه الصورة في سياقها من الحياة . . فإنه سيكتب سردية متلاحمة ممتدة ومتجاوزة في زمانها ومكانها . . يبدأ من البعيد البعيد إلى أن يصل إلى هذه اللحظة وثم يتجاوزها إلى البعيد البعيد .

عبدالرحمن كانو سيكون بطل هذه السردية الذي تنجدل حوله الأحداث . . والمواقف . . والذي تتفق حوله الحبكة القصصية وتوظيف الزمان والمكان . وينجدل حول هذا الخط المتواصل بطل آخر في الرواية هو الشاعر علي عبدالله خليفة . . من أيام الغوص . . يجيء هذا المحرقي الأسمر ، ويحمل مواويل أم علي ، وحكاياها ويتفجر في أنين الصواري . . ويتواصل في حكاية البحر والغوص ، والتراث الشعبي ، والحركة الأدبية ، والعصافير والسيرة الخضراء . . والطموحات التي لا حدود لها ، والملتقى الأهلي الثقافي . . خيوط تتقاطع وتنجدل لكنها لا تنقطع .

وبينهما أنا ، ذلك الولد الآتي في قديم الزمان من مؤاب . . الكرك . . إلى البحرين ، المحرق ، والذي أنجدل مع هذه الخطوط والخيوط . . وها هو يقف في ديوانية آل كانو . . ليكرم لإنجاز وقع في الأيام الأخيرة من رحلة الإنجازات . . مكتنزاً بذاكرة ملؤها أهل البحرين . . أي سردية هذه وقصة لها زمان ومكان وأحداث وعقدة وربما لا حلول لها ولا لغيرها من العقد . . وهذه زوجتي الجانب الخلاق في حياتي . . أم أبنائي . . ورفيقة هذا الدرب . . هل أقول الموحش . . لا

أظنه موحشاً ، فأنا هنا بين صديقين لا يمكن أن يستشعر الإنسان معهما وحشة أو يحس بينهما بغربة . . هذه الرواية الجميلة الشجية . الكل ممن حضروا يذكرون عندما ترقرقت الدموع في عيني وأنا أتكلم شاكراًهذه اللفتة الكريمة . . متحدثاً عن هذه السردية الرائعة . .

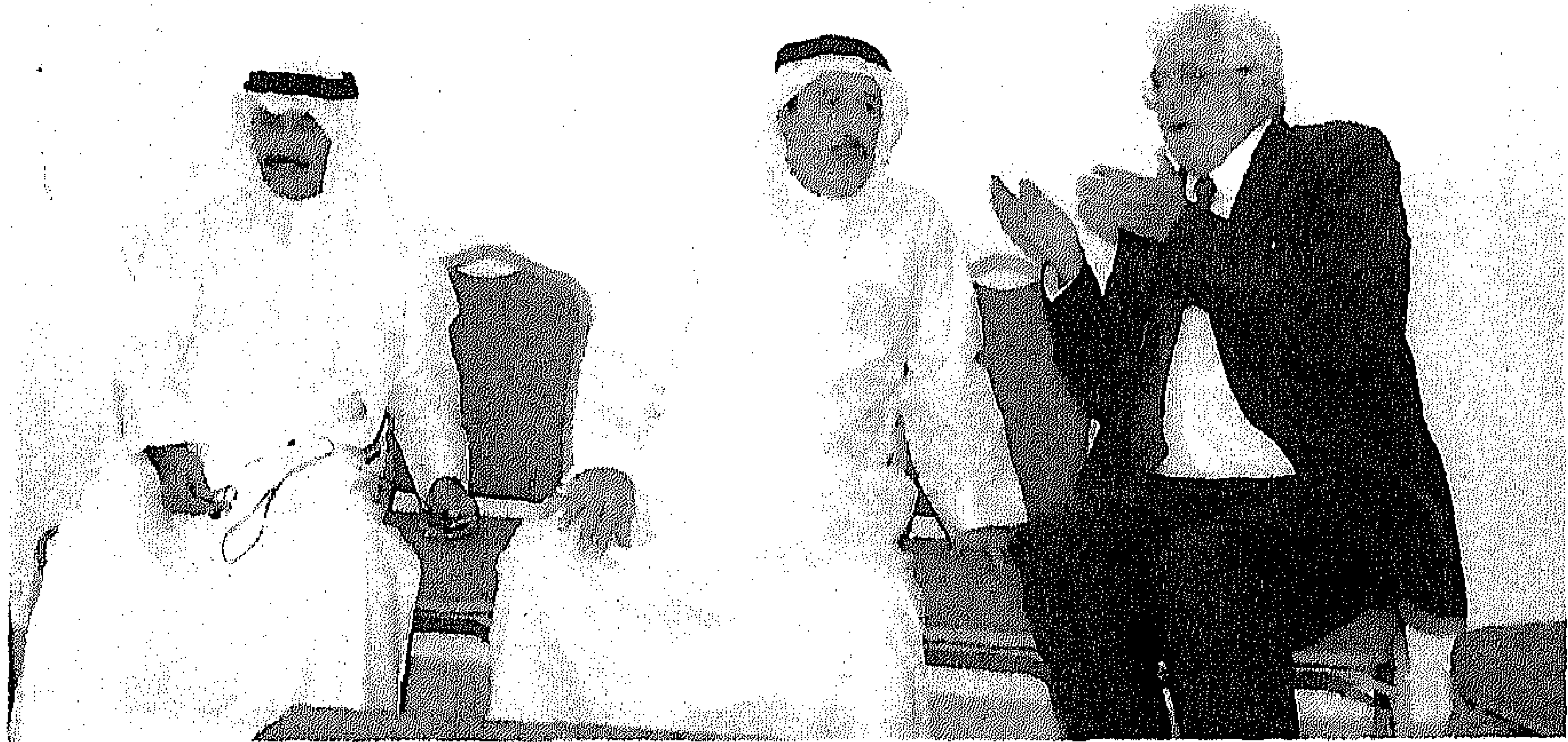
رحمك الله يا أبا راشد

فقد كنت رجلاً رائعاً . .

وحفظك الله يا أبا فهد . . فأنت أنت . .!



عبدالرحمن كانو يكرم أم ساسان زوجتي ، ويقف إلى اليسار الصديق علي عبدالله خليفة



في مجلس ابن هندي ، ويبدو إلى يسار الصورة صالح بن هندي
وبجانبه سلمان بن هندي ، ثم المحادين



في مصافحة مع سمو رئيس الوزراء خليفة بن سلمان



مصافحة رئيس الوزراء خليفة بن سلمان وإلى يمينه عبدالعزيز الفاضل ومحمد الغتم



مع وفد الجامعة في زيارة رئيس الوزراء



أصافح رئيس الوزراء وإلى يساره إبراهيم حسن كمال

(٤٨)

علاقتي بالمرأة

في البعيد البعيد من ذاكرتي كطفل ، كنت أجد أن مجتمعنا الصغير جداً ، والذي يمتاز بأنه مجتمع أقارب بينهم روابط الدم خؤولة وعمومة . . وكانت المرأة متواجدة بجانب الرجل وبشكل متناسق مع الحياة ، يعيشان معاً ويعملان معاً ويكافحان معاً وبالضرورة ينجبان معاً . . علاقة لم أكن في طفولتي أدرك شيئاً من أخبارها ولم يلفت نظري فيها ما يجعلني أتساءل (ما هذا) . . كانت البيئة محافظة إلى أقصى درجة أنواع المحافظة . . وهي محافظة تتمتع بثقافة المحافظة العميقة ولكنها لا تتمتع بثقافة الحياة ، وإنني لا أذكر مع أننا كنا نعيش في حجرة واحدة (الأبوان والأولاد والبنات) الذين كانوا يتكاثرون فنحن على موعد بمولود كل ٣ سنوات . لا أذكر أنني لمحت أو لاحظت أي تصرف من الوالدة أو الوالدة يوحي بأن بينهما علاقة يخفيانها عنا أبداً .

وكيف كانا قادرين على إخفاء تلك العلاقة عنا جميعاً السنين الطويلة ، ونحن نكبر قليلاً قليلاً . . والآن وقبل الآن أستنتج أنه لابدّ من أن علاقة ما كانت تتم بينهما ، وإلا من أين يأتي هذا التكاثر؟! . . لكنهما ولأسباب تربوية يدركانها بالفطرة ، حيث أنهما لم يتوجها إلى مدرسة أو أكاديمية ، بل كانا أميين . . لكنهما كانا على حصيلة من القواعد التي يجب أن يتربى عليها الأبناء . . وأبرزها أن يظهر الأبوان أمام الأطفال مجرد صديقين .

ومن هنا لم أكن في طفولتي أنتبه لفرق بين امرأة ورجل . . وامتدت بي

الأيام إلى أن وصلت سن المدرسة .

طبيعي ، في وقتها لم يكن لدينا تلفزيون . . والتلفزيون دخل بيتنا في سن متأخرة جداً حيث أن القرية لم تكن تضاء إلا بأشعة القمر والبيوت تضاء بأسرجة بالفتيل والكاز . . فالطاقة بمعنى الطاقة كانت منعدمة ، فلا مكان لراديو ولا مكان لتلفزيون ولا مكان لأي من هذه المظاهر التي اكتشفناها فيما بعد حينما شارفنا سن الرجولة .

قد يقول قائل : «وما أثر التلفزيون في الوعي الأول عند الأطفال»؟ وأقول رداً عليهم : «إننا الآن ونحن نتابع مسلسل من المسلسلات أسرق النظر إلى أطفالي الصغار جداً وهما يتبادلان النظرات بمجرد أن يغازل البطل البطلة» . . إنه إدراك مبكر لهذه العلاقة التي تنشأ وتثير الخيال .

واستمرت بنا الأمور في المدرسة ، كان الأطفال في المدرسة تتفاوت خبراتهم في الحياة ، فيبدأ الطلاب يتبادلون الأحاديث والثرثرة التي لا تخلو من تلميحات وإشارات ، فيتحدث بعض الطلاب في سن متأخرة قليلاً عن الطالبات اللاتي يذهبن إلى مدرسة مجاورة ، بل كثيرون من الطلاب في المرحلة الابتدائية كانوا يتأخرون عن المدرسة ليملؤوا نواظرهم بالطالبات ، ثم يتذكرون أن مدرستهم مجاورة . . وهكذا كأي إنسان قروي يختلف إلى المدينة والمدرسة ، ويختلط بالآخرين بدأت تتكون أسئلة كثيرة وأجوبة ليست واضحة . . مجرد هواجس . . إنما مع المرحلة الإعدادية والثانوية ، بدأنا نتعرف على أن المجتمع مكون من فريقين وأن هذين الفريقين هما في النهاية البنيان الذي يقوم عليه هذا المجتمع .

وتعرفنا على أن كل أسرة تتكون من رجل وامرأة في الأساس ، وصرنا نحضر ونرقب أفراح الأعراس ، ونتعرف على الرقص الريفي وعلى الفتيات الريفيات ، اللاتي يتمتعن بجمال فطري ، لا يعرفن كثيراً من الإكسسوارات والدهون والألوان ، بل كنت ألاحظ أن الفتيات حتى وهن يتحدثن إلى أقاربهن

يبـدو على وجـوههن شيء من الخـفـر والخـجل مما لا يبـدو على وجـوه الأولاد فكانت هذه أول معرفتي بالأنوثة .

وبعد ذلك عندما كنا نتحدث مع بعضنا وأترابنا ، كنا نتبادل التعليقات ولا سيما حين نلاحظ التطورات التي تتشكل على أجساد البنات في فترة مبكرة ، فكان شيئاً يثير التساؤل والخيال . . إلا أننا ، أنا ومن هم في مثل سني من قريتنا ، سرعان ما اندمجنا في هذا المجتمع وبدأنا نتعرف على سنن الحياة ، وبدأنا نلتزم أيضاً بالمحافظة التي كان آباؤنا وأمهاتنا يلتزمون بها تلقائياً .

هذه بدايات إحساسي بالمرأة

لكنني كنت أستمع في المدرسة إلى زملائي وهم يتحدثون عن حبيبات ، وكل منهم يردد اسماً ما ، ويتبادلون التعليقات ويكتبون أسماء حبيباتهم على دفاتر المدرسة ، وبعضهم يبالغ في أنه يعلن أنه تلقى رسالة من حبيبته ، ويشير إلى الطلاب بوريقة ثم سرعان ما يدسها في الكتاب فيثير فضولهم ، لكنه فضول في بيئة محافظة . . لقد كنا نخجل أن نذكر أسماء أمهاتنا وكان التلاميذ حين يكتشفون اسم أم أحدنا يعتبرون ذلك انتصاراً ، وسرعان ما يرددونه أمام صاحبه ، ولا أبالغ إذا قلت أن ذلك كان منبعاً للعراك بين الطلاب ويقود إلى تبادل الضرب والصراخ على اعتبار أن الطالب يعتبر قد أهين حيث ذكر اسم أمه .

كنا في مدرسة الكرك الثانوية وكانت تتكون من طلاب ينتمون إلى طوائف المجتمع . . وفي مجتمعنا مسيحيون ومسلمون . . ولم يكن حتى الآن أي إحساس بالطائفية بيننا ولا نحس بشيء من التباعد . . وكنا كطلاب لنا أصدقاء من زملائنا أبناء المسيحيين وكنا أحياناً نذهب لنزورهم في المناسبات والأعياد أو بحكم الجيرة . . وكنا نستغرب نحن كمسلمين قرويين أن أمهات زملائنا كن يدخلن علينا ويجاملننا ويسألن عن دراستنا . . ولم يكن في ذلك نوع من الحرج ، فكنا نحس بأن هناك ثقافتين اجتماعيتين فيما يتعلق بالمرأة . .

ثقافة المسلمين الفلاحين والقرويين المحافظة حد التزمت ، وثقافة المسيحيين التي كانت متسامحة وتلقائية .

ومن هنا بدأت تتشكل بعض الرؤى ونتفهم موقف المجتمع من المرأة ، وسيما أننا الآن ونحن في القرن الواحد والعشرين وثقافتنا الاجتماعية تجاوزت كل الأخيلة ، إلا أن موضوع المرأة ما يزال في مجتمعنا لم يتطور كثيراً . . .

فالمرأة في نظر مجتمعنا هي الشرف وهي الرمز وهي التي ينبغي أن تحاط بالحماية وأن تحاصر بالبنادق وجرائم العرض بالذات في الأردن وفي الريف ، لا يُفصل فيها مدنياً بل يُفصل فيها عشائرياً ، لأن نظام العقوبة العشائري أقسى ألف مرة من نظام العقوبات المدنية ، ومن هنا كان أي إنسان شاب يعلم أن المرأة لها مكانة لا يجوز الاقتراب منها . . وهذا بطبيعة الحال لم يمنع أن قصصاً من الحب نشأت ، وأن تعارفاً كان ينشأ حتى في أشد البيئات محافظة ، لكن الهدف كان الزواج وإذا ما اختلت الموازين فإن ذلك مدعاة لأن تسيل الدماء .

كشاب كنا نختلق القصص ونتظاهر بأننا نحب ونُحّب ، إنما أستطيع أن أقول أنني لم أمر بتجربة حب من تلك التي يتحدث عنها العشاق ، إنما كنت مولعاً باستلطاف الفتيات ولا أزيد عن الاستلطاف شيئاً .

ليس خوفاً بل كنت أحس بأننا قد تربينا تربية تجعل من أي علاقة مع المرأة يجب أن تكون بقصد الزواج ، سيما وأن بيئي بيئة متدينة .

ليس عندي قصة حب ، لكنني لا أجفل من الحديث مع أي امرأة أو مع النساء وأستظرف ذلك ، وكانت هذه الصفة بارزة فيّ حتى هذه اللحظة ، بمعنى أنني لا أخاف من حديث مع امرأة ولا أخشى من مجالسة امرأة ولا أذهب أبعد من أنني أحادث امرأة بشكل محترم ، وإذا تعرفت إلى امرأة لظروف معينة أحافظ على مسافة بيني وبينها لا أتجاوزها تحت أي ظرف من الظروف . . لذلك أقول وبصدق أنني لم أقع في قصة حب وأقول وأنا صادق بما أقول لم تقل فتاة ما أنها تحبني حتى هذه اللحظة .

ما دمت أرى الفتيات وأتحدث معهن ويتحدثن معي أعتقد أن هذا المناخ هو المناخ المناسب للعلاقات الاجتماعية ولا أزيد .

وهذه العلاقات استمرت إلى فترة متأخرة ولعل هذا الإشباع الإنساني من التعرف إلى الفتيات هو الذي جعلني أتأخر وأماطل نفسي في اختيار المرأة التي عليّ أن أرتبط بها ، وهذا السلوك ، حتى وأنا شاب ، وحتى وأنا أكبر قليلاً ، وحتى عندما بدأت في مرحلة الكهولة ، كنت أرضى من العلاقات بالمعرفة والألفة ليس أكثر .

وذات مرة أحسست بأن واحدة من اللاتي أختلط بهن وألتقيهن في العمل أو في الأماكن العامة أو في المناسبات أن واحدة خطر ببالي أنني أهتم بها أكثر من الأخريات . . وخفت أن أكون قد بدأت أحب . . وكنت قد قطعت على نفسي عهداً أن لديّ أشياء عليّ أن أنجزها قبل التفكير في الحب والزواج فزجرت نفسي وتجاوزت الأمر واستعدت توازني .

لكنني من هذه المعارف والعلاقات كنت أبلور في ذهني أفكاراً عن المرأة أكثر وتفهماً أكثر ، وساعدني ذلك على اتخاذ القرار عندما قررت أن أتزوج فتزوجت وأنا متوازن من حيث نظرتي للمرأة ومن حيث علاقتي بالمرأة وإحساسي بالمرأة . . وقد تعمق كل ذلك نتيجة الثقافات التي كنت أجني منها وكنت أحقق أهدافاً في نظري أولى من الحب ، وإن كنت لست معقداً من المرأة ولا أخافها ولا أخشاها ولا أتهمها بأنها شيء غامض ، بل أتعامل معها كأنها إنسان سوي طبيعي أستلطفه دائماً . . وهنا أريد أن أقف أمام مسألة . .

فبين ١٩٦٠ أي بداية عملي في البحرين و١٩٧٩ أي زواجي ، كنت أكتب الشعر وهو شعر في معظمه غزلي وكنت أتغزل كما يتغزل العشاق العتاة وأنا لم أكن أتغزل بحبيبة محددة . فأنا لم أقع في حب امرأة . . المرأة بالنسبة لي عالم لطيف وليس وعاءً للعبث . . هناك حب إنساني ، استلطاف ، لكن هذا لا يمنع أنني مليء بمشاعر الحب التي لا أوجهها لواحدة بالذات ، هو الحب المطلق الذي

دونته في ديوان كامل مليء بأشعار الحب والغزل .

فقد قلت في قصيدة :

يا عينيك ، ماذا أعددت لهذا البدوي

المعجون بومض البرق ،

لا يعرف من كل جهات الدنيا إلا مطلع عينيك

فمن أين تجيئان فذاك هو الشرق

غزل بامرأة متخيّلة ، غزل استجابة لطاقة الحب التي في قلبي وليست تركيزاً أو تكريساً على امرأة بذاتها .

وتكذب أي امرأة تقول يوماً ما أنني أحببتها ، وتصدق الكثيرات إن قلن أنني أستلطفتهن ككائنات لطيفة ولهذا كان هذا الشعر .

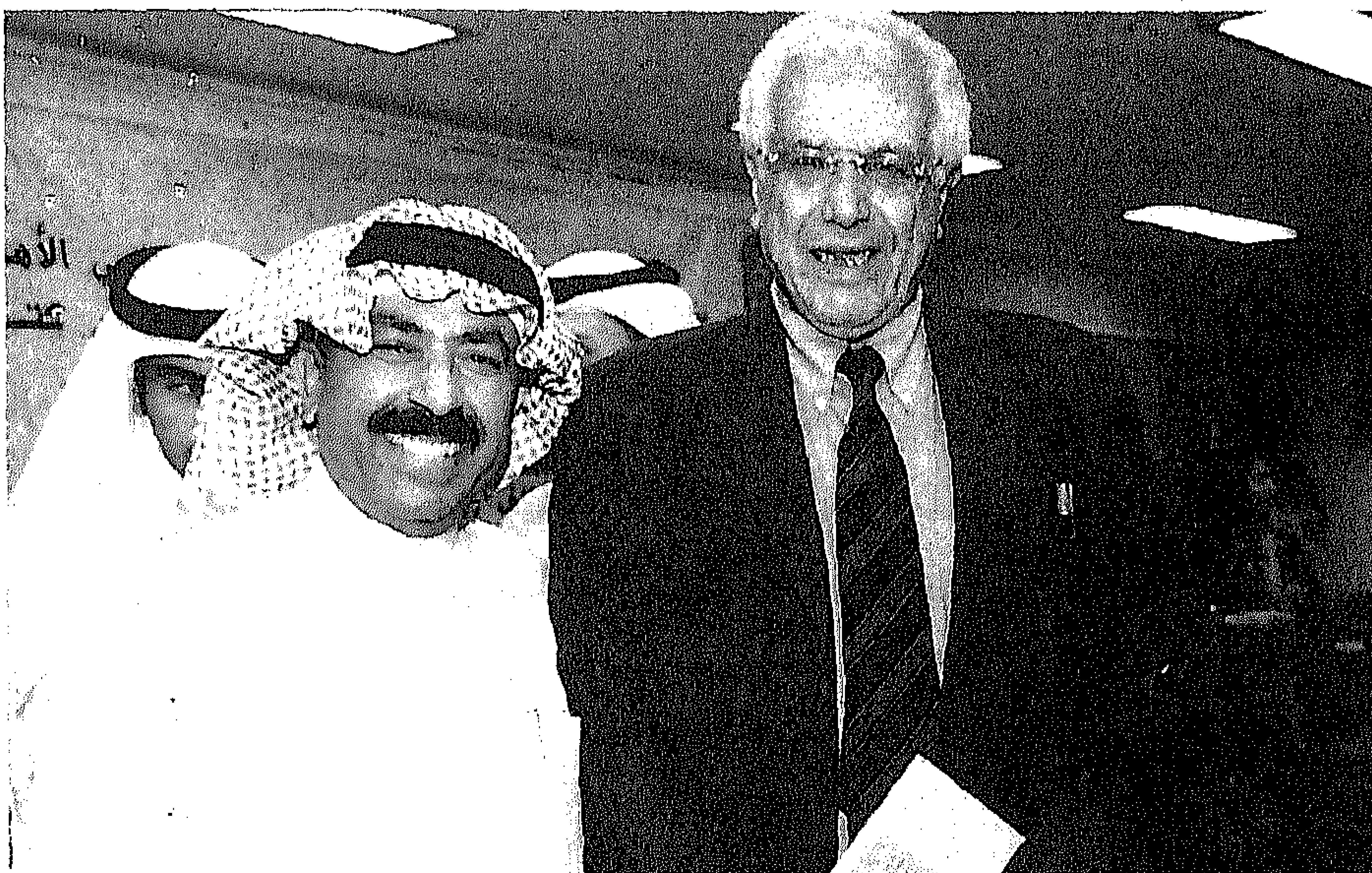
المرأة التي يختارها الرجل زوجة ليس بالضرورة أن تكون حبيبة بل أجزم بأنه لا ينبغي أن تكون حبيبته .

لأن اختيار الزوجة يتطلب مواصفات وقرارات ليست محكومة بعاطفة الحب ، وإن كان ذلك لا ينفي ضرورة الحب في الزواج إن كان قبل الزواج أو بعده ، فحب بلا زواج ممكن لكن زواج بلا حب غير ممكن ، من الحكمة أن يدمج الرجل بين الزوجة والحبيبة في شخص واحد .

اخترت زوجتي على أساس أكثر من عامل ، العامل الأول أنها من بلدي الأصلي ، والثاني أنني أعرف أهلها وأصلها ، والثالث أنني أستلطفتها ، لكنه استلطاف امرأة أريدها زوجة وليس لامرأة أريدها غير زوجة ، ودائماً وإن كنا لا ندرك ، في ذهن أو وجدان كل امرأة وكل رجل منذ الصغر تتكوّن صورة غامضة للمرأة التي يريد أو للرجل الذي تريد ثم يبدأ يتشكل الغموض داخل الوجدان ، إلى أن يلتقي الرجل بالمرأة فيحس أنها تشبه تلك التي تشكلت داخل فكره بشكل أو بآخر وهذا الذي يسميه الناس الحب من أول نظرة .

المرأة التي تزوجتها ، قبيلتنا وقبيلتها بينهما أنساب كثيرة فنحن خؤولة

لكثيرين منهم وهم خؤولة كثيرين منا وبالتالي لم يكن غريباً أن ألتقيها ، فكثير من أقاربي متزوجون من أقاربها وأحد أقربائي وأصدقائي متزوج من أختها ، والتقيتها عندهم وكنت طبعاً مشتتاً في الأصل ، كنت على معارف كثيرة ، لكن عندما تقرر أن تتزوج تحتاج المسألة إلى قرار عقلاني ، وكنت وقتها في سن الأربعين ، وأعتقد أنني كنت ناضجاً بما فيه الكفاية ، ولقي طلبي منها هوىً ، وسرعان ما تزوجنا ، وزواج جاء في سياق طبيعي لعلاقات عائلية . . فنحن متزوجان منذ ٣٠ عاماً ، وما نزال حتى هذه اللحظة نجيد تفهم بعضنا ، وحتى إذا اختلفنا فإنه اختلاف رحيم وإنساني عاقل . .



مع الصديق علي عبدالله خليفة



أنا وأفراد أسرتي نحيط بالأخ الدكتور كمال أبو ديب



في حفل تكريمي في مضافة آل كانو



خالد الكركي يتوسطني أنا وزوجتي


المحادين في مؤتمر الرواية العربية سنة ٢٠٠٥


زوجتي وفاء وابناؤنا الستة

(٤٩)

تجربة المرض «كسر الساق»

أحياناً تمر بالإنسان تجارب شخصية جداً لا يشاركه فيها أحد ولا يكون فيها أحد لا قبلها ولا بعدها ، عندها يكون الإنسان يواجه قدره وفي مواجهة القدر تتجلى في الإنسان وحدانيته .

يكتشف في لحظة أنه واحد ، وأنه ربما ينتهي واحدًا ، كما أنه يجيء واحداً . . في اللحظات هذه ينسى الإنسان كل شيء وتتعطل ذاكرته وتتعطل قوة الدفاع فيه وتتواصل فيه أجهزة الإنذار المبكر ويصبح في لحظة ما مجرد كتلة حية فاقدة كل امتدادات الإنسان اليومية ويواجه لحظة قد تكون جزءاً من الثانية ، لكنها عندما تروى وعندما يتحدث عنها تأخذ زمناً طويلاً ليستوعبها وليسترجعها وليستعيدها ، وأن يضعها في مكانها الطبيعي والصحيح عن سيرورة حياته ، إلا أنه أيضاً يعجز عن أن يلتقط هذه اللحظة ليستخلص منها أي شيء . . ومررت في ٤/١٧ / ٢٠٠٧ بتلك اللحظة . كنت في المحرق في اجتماع يتناول كتاباً عن المحرق نعمل عليه أنا مع مجموعة منذ أكثر من سنتين وبطبيعة الحال المحرق بالنسبة لي ليست مجرد مدينة أو جزيرة ، أنا أعشق هذه المدينة وأشارك في هذا الكتاب مع مجموعة من خيرة مثقفي المحرق تحت رعاية المحافظ ، وأنا عضو في الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير . . في هذا اليوم بالذات كنا في اجتماع هيئة التحرير برئاسة الأخ العزيز مبارك العماري وكان معنا في الاجتماع سليم عبدالرؤوف ومحمد السيسي ، ولما انتهى الاجتماع افترقنا وفي هذا اليوم

بالذات عدت إلى عملي وأنا في حالة كأنني عائد من موعد غرامي في غاية الراحة والاسترخاء فأنا قادم من المحرق التي كلما زرتها ازددت تعلقاً بها .

وكنت في غاية الهدوء والمصالحة مع نفسي وفي هذا الهدوء وبهذه السكينة اقتربت من باب مكتبي ، وفي لحظة كأنما أحد كان خلف الجدار ينتظرني ليقتلني ، حيث فوجئت في لحظة كجزء من الثانية بومضة أشبه ما تكون بومضة البرق وبعدها لم أدر شيئاً .

فقدت الإحساس بكل شيء علي الإطلاق إلى أن ارتطم جسمي في مدخل المكتب فأدركت أنني سقطت .

أين؟ ، كيف؟

وفي تلك اللحظة وجدتني أقف في شبه وعي على حافة برزخ الموت والحياة .

كانت مجرد خيط بسيط من الوعي ، لكنني كنت في هذه اللحظة أدرك أن بين أن ينطفئ هذا الخيط ويختفي كل شيء أو إما أن يشبك هذا الخيط بشيء من الوعي فينفتح باب أمل أو أعي ما يجري .

في هذه اللحظة وفي مواجهتها لم يكن لدي رد فعل ولم أكن قادراً على أن أفعل شيئاً . . لحظة أشبهها بعد ذلك باللحظة عندما يكون أحداً محكوم عليه بالإعدام وتأتي لحظة إسقاط الكرسي تحته ، فكم من وقت يستغرقه ذلك ليتدلى من الحبل . . أقل من لحظة ، ثم دخول في الأبدية لكن هذا الخيط ، هو ما افتقدته ولم أتحرك إلى أن جاء زملائي . .

جاء زميلي وصديقي الدكتور أحمد أبو رعد ، كلمني فلم أرد ، حاول أن يحملني فلم يستطع ، حاول أن يساعدني فلم يجد إلى ذلك سبيلاً ، فاستنجد بالآخرين .

إلى أن جاءني بقية الزملاء ولم أكن أبصر وجوههم فقد أصبح على عيني غشاوة بيضاء .

لكن كنت أميز أصواتهم ، فاجتمع الزملاء والزميلات ، وكنت أدرك اللغو والمحاولات لنجدتي والكلام . . لكن كلما حاولت أن أفتح عيني لا أدرك ولا أبصر شيئاً!! حاولوا إيقافي ، وقتها أدركت ماذا جرى لي بالضبط ، أما الأسباب فما عرفتها لكن النتائج أخذت تتكشف .

فإذا بقدمي اليسرى مرتبطة بمجرد أعصاب . . كسر مضاعف في الكاحل . . أدركت أن قدمي كسرت بشكل حاد جداً وبدأت أشعر عندما ارتطم جسمي بأن كسراً أيضاً في الضلع الأيمن قد وقع . . إلى هذه اللحظة بدأت أسترد وعيي قليلاً قليلاً ، وبدأت أدرك أن الإنسان مهما تكن تجربته وعلاقاته وعاطفته مع الآخرين وتعاطف الآخرين معه ، لا بد له أن يواجه وحده لحظات يكون فيها في غاية التفرد ، ولا يستطيع أحد أن يتعاطف معه ليجنبه هذه اللحظة إلا فيما بعد . . كم كانت حادة تلك اللحظة . . وكأنه اغتيال . . لحظة عشتها ثم فسرتها . . فربما فقدت وعيي للحظة أشبه ما تكون بالسكتة! وعاودت الإدراك وكأنني قادم من مكان بعيد .

لذلك أقول بأن هناك علاقة بين الأبعاد ، والمسافة من الرأس وحتى القدم ، وهذه ربما لها دور في السيطرة على المشي من هذا المنطلق بالذات . . قبل السقطة كان هناك وميض ، بعد ذلك تجمع الأصدقاء والزميلات . . حاولوا مساعدتي ، ولأن قدمي كانت مكسورة وجدوا أنه من الحكمة ألا أحركها . . ولتجنب حرارة الشمس وجدت صديقي أحمد أبو رعد قد خلع (جاكيته) ووضعها على رأسي لاستظل بها ، وزميلي د . صادق العلوي أحضر زجاجة ماء وصبها على رأسي . . حاولوا أن يكلموني فبدأت أتكلم معهم لكن بلسان ثقيل جداً ، أو هكذا أحسست .

كانوا قد استدعوا سيارة الإسعاف ، وحُملت إليها ، وفي الطريق انتبهت ، وحاولت أن أعرف أين أنا؟ ، فإذا كان الإنسان ملقى على ظهره في حيز مغلق لا يستطيع أن يدرك الجهات الأربع ، فلا يدري أهو مُشرّق أم مُغرّب؟ لأنه تَغيَّب

عن الإحداثيات ، وهذه تجربة أخرى أن الإنسان إذا حُصر في مكان وفقد الاتصال بالإحداثيات حوله يفقد تحديد موقعه ، ونحن في الحياة أحياناً عملياً نفقد تحديد مواقعنا لأننا نكون قد فقدنا الإحساس بالإحداثيات حولنا ، إذن ، الذي يضبط سلوكنا ليس العوامل المتدفقة من دواخلنا وإنما إحساسنا بالإحداثيات المادية أو المعنوية حولنا ، فهي التي تجعل سلوكنا خاضعاً لضوابط من نوع ما . . وهذا ما واجهته أول الأمر . . انقطاعي عن الارتباط بأي شيء حولي .

عندما وصلت إلى المستشفى لم أكن أعي كثيراً مما حولي ، واكتشفت فيما بعد أن الأمين العام لمجلس التعليم العالي د . علوي الهاشمي وهو صديق ودود مخلص قد سبقني باتصال مع صديقي العزيز د . عزيز حمزة وكيل وزارة الصحة فلما وصلت ، شعرت أنني كنت في بؤرة الاهتمام . . وجدت معاملة أقول عنها ممتازة وأدخلت في حجرة معدة ومجهزة لمثل هذه الحالات ، بعد ذلك بدأت الإجراءات وأنا في شبه ذهول وغياب عن الواقع ، فقد فقدت الرغبة في الحديث وانصرفت إلى أن أعيش في الداخل .

ماذا كان يعتمل في داخلي لحظتها؟

وقد أُخذت إلى حجرة تصوير الأشعة وحُملت إلى غرفة العمليات حيث وجدوا أن كسوراً مركبة في قدمي ولم يلتفتوا طبياً إلى الكسر الذي في الضلوع لأن التعامل معه مسألة وقت ، وأعتقد أنهم طلبوا مني أن أوقع على عملية ففعلت (هكذا قيل لي) . . دخلت غرفة العمليات وتمت العملية بنجاح شبه كامل . . كنت أحس بما يدور حولي لكنني غائب . . علمت بعدها أن العملية استغرقت ساعتين وركبوا لي براغي وحديد وثبتوا قطع العظم . . إلخ

قالوا لي : عائلتك كلها بره من تحب أن يأتيك؟

فقلت : سيروز . . . . (وهو ابني الثاني)

اختياري له كان على أساس الاسم الذي جاء على بالي وقتها ، وليس لهذا

أي دلالة ، فجميع أبنائي قريبون مني بنفس الدرجة ، فناداه الطبيب ، ولما ناداه فضل أن تدخل والدته إلي ، فدخلت أم ساسان زوجتي بزي العمليات الأخضر وكانت تواسيني وتطمئنني ، ثم نقلت إلى قسم العظام وبقيت في المستشفى ١١ يوماً . .

المشاعر التي في داخلي متباينة . . فأحيانا يمر على البال أشرطة كثيرة وأجعل بينها ترابطاً ، وأحياناً لا يكون هناك ترابط بينها . . لكن كلما كان الإنسان أقل وعياً فيما حوله كلما كانت الأشياء التي عاشها ويتذكرها غير مترابطة ، ولا يوجد ضابط أو تسلسل زماني لها فيتذكر الإنسان في هذه اللحظة أشياءً مرت به من عشرات السنين ويتذكر أشخاصاً لا يأتون على باله في الحياة العادية على الإطلاق ، ويستحضر أموراً لا يدري من أين تسربت . . شيء أشبه بفانتازيا الأحلام . . لكن في هذه اللحظة رغم أنني وعيت وأدركت أنني لست في خطر وأدركت إنها إصابة عادية لا تشكل أي تهديد لحياتي . . لكن ، ورغم أنني في هذا الإحساس وأنني على طريق العلاج ، إلا أن أفكاراً سوداء تخامر الإنسان . . وتدخله في الفرضيات وهي «كيف سيكون المشهد الأسري بعدي»؟ سؤال كان يلح علي . . ليس بالضرورة أن يكون الموت في هذه الحادثة . . لكن الموت حقيقة سوف يجئ آجلاً أو عاجلاً .

هذه الحادثة على بساطتها وضعتني في هيئة أن استحضر مشهد الأسرة فيما لو أنني مت ، كيف سيكون مشهدهم؟ وهذا بالذات اقترح علي عشرات الصور وعشرات المشاهد ولم أركز إلا على أولادي الصغار .

أنا كإنسان لست قلقاً من الموت لكني أقلق بشدة على ما سيصيب الذين أوكل لنا الله أن نعتني بهم ونساعدهم حتى يجتازوا لحظة الضعف التي هم فيها

هذا القلق لم يلازمني . . سرعان ما هجرت هذه الهواجس بسرعة وأصبحت قادراً على أن أتخلص منها بشكل كبير ، وأعانني على ذلك إحساس

بأن اللحظة التي أنا فيها لا تشكل خطورة . . ثم إن التفاف أسرتي وأصدقائي حولي سرّى عني كثيراً ، وخاصة في الأيام الأولى كنت أرى أصدقائي ، وهم كثيرون وبعضهم كنت أراه في اليوم الواحد أكثر من مرة وقد ملأوا الحجرة عندي بباقات الورد وبطاقات التحيات والتمنيات بالسلامة والشوكولاتة .

اكتشفت أن حولي أصدقاء يكنون لي كل هذا الود والحب مع أن أصدقائي عشرات ليسوا عدداً محدوداً

فأنك كإنسان تحس بأنك ما ضعت سدى وبأنك قد فعلت في الحياة ما جعل أصدقاءك يحسون باحتياجك لهذه المشاعر الباذخة .

إنني لا أنسى عشرات القبل التي كان يطبعها الأصدقاء على رأسي وأحس بصدقها وبدفئها . . كانت تجربة أحسست فيها معهم بدفء علاقة الإنسان بالناس وأهمية ذلك . . أما الدفء الآخر وهو دفء الأسرة فهو شيء يستعصي على الوصف . . وكانت زوجتي مع هذه الحادثة قد اجتازت الامتحان الأول الذي كانت أسئلته من نوع مختلف ، وإنني أشهد أنها أجابت على كل الأسئلة وبنجاح وتفوق . . .

الحادثة عادية لكن تلقي الناس للأحداث المتشابهة ليس متشابهاً .

وطبعاً التلقي لا يكون مرتبطاً بطبيعة الحادث وإنما بمنظومة الحياة عبر علاقاتها الطويلة والممتدة . . فقد زارني أناس ما كنت أنتظر أن يجيئوا ، حتى أن صديقاً زارني وهو خليفة الشوملي ، وقد مر في حياته بمواقف كثيرة ولم تواتني الفرصة أن أشاركه أو أذهب إليه ، فحين جاء جلس وقال لي : «أنت لا تقوم بواجبك تجاه أصدقائك لكن لأننا نحبك سنسامحك» . . . . ووالله أن أحدهم زارني ثلاث مرات في يوم واحد . . كما أنني فوجئت بوفد من مدينة زايد زارني في المستشفى

وكانوا أكثر من ثمانية أشخاص ، ولم أكن أدري أنهم جيراني من ساكني المدينة . . فالناس حتى لو أنك لا تتصل بهم يحسون بك

تغيرت مفاهيم في داخلي بعد هذه التجربة ، فبيني وبين نفسي توصلت إلى قناعة مفادها أنه ينبغي أن أكون أكثر تعاطفاً مع الناس وأن أسعى لشد الأزر معنوياً لأنني وجدت أن التعاطف يخفف الألم وهو ضرورة والدين الإسلامي اعتبر أن تعاطف الإنسان مع الآخرين في مسراتهم وغيرها إنما هو أجر ، وهو من أخلاق الإسلام . . في الوقت الذي لا أقول فيه ذلك عاتبا على من لم يعبر عن تعاطفه ، فإنني أعذره ، لكنني شعرت أنني هنا وسط أهلي ، ولا أنسى صديقاً عزيزاً وأخاً كريماً زارني في المستشفى وعندما ودعني مغادراً خرج من الحجرة وهو يجهش بالبكاء وهو الشاعر علي عبدالله خليفة الذي قال بصوت متهدج : «فديتك» . . والله لا أتوقع لو كنت في مسقط رأسي أن أحاط بمثل هذه الرعاية التي أحطت بها هنا . .

لا أستطيع أن أعد الذين تعاطفوا معي ، فوزير التربية والتعليم الدكتور ماجد النعيمي بعث لي بتمنيات الشفاء مع باقة ورد ، وكذلك فعل أصدقاء كثيرون . . صديقي الدكتور رياض حمزة وكذلك الدكتور عزيز ومناف وعماد أحاطوني برعايتهم . . أذكر قاسم حداد وهو يدخل علي يحمل في يده شتلة رقيقة كقاسم . . وكان قد مر بتجربة مماثلة قبلي بشهور . . أيضاً الصديق إبراهيم جمعان تواصل معي وزملائي من الأمانة العامة لمجلس التعليم العالي أحاطوني برعايتهم دون استثناء ولم ينقطعوا عني ، أبو وسيم كان على اتصال يومي بي للاطمئنان ، صديقي إبراهيم المناعي بعث لي بباقة ورد حتى بعد أن خرجت من المستشفى ، ولا تتسع هذه الصفحات لذكر جميع أصدقائي الذين غمروني بحبهم . .

عمق أي تجربة يتشكل بالأبعاد التي يمنحها الإنسان لها فيستحضر كثيراً من الأمور الغائبة ويفلسف الأمور الحاضرة وتصبح تجربة غنية وفريدة

أنت لا تستطيع أن تختزن عواطف ، فهي كالكهرباء لا يمكن تخزين الفائض منها ، ولذلك تتحول العواطف إلى سلوك ، لكن حبك لابنك يجعلك

تشرف على تربيته بشكل سليم ما هداك الله إلى ذلك ، والشيء الثاني أن تؤمن له من الإمكانيات الشخصية كعلم ومعرفة ، والإمكانيات المالية ما يمكنه من مواجهه الحياة ، عندها تكون مطمئناً عليه حتى عندما يواجه الإنسان القدر الذي لا يُدفع ، ويكون الإنسان قد لقي ربه وهو مطمئن على أن مشيئة الله جاءت بعد أن ترك لابنه ما يمكنه من مواجهة مشقات الطريق . .

أنا أعتقد أن اسمي الذي أتركه لأولادي شيء ليس قليلاً

لم أحقق بطولات وفتوحات باهرة لكنني تركت أثراً في المجتمع الذي أعيش فيه وهو جزء مما أتركة لأبنائي وأصعب ما يفكر فيه الإنسان أن يتركه لأبنائه هو القدرة المادية ، فقد لا يكون ثرياً خاصة ، إذا كان كحالي سلاحه الثقافة والعلم ، ودائماً في أي مجتمع لا يكون المثقفون والدارسون هم الأثرياء وأصحاب الأرصدة ، لكنهم يمتلكون أرصدة من نوع آخر وثروة من نوع آخر .

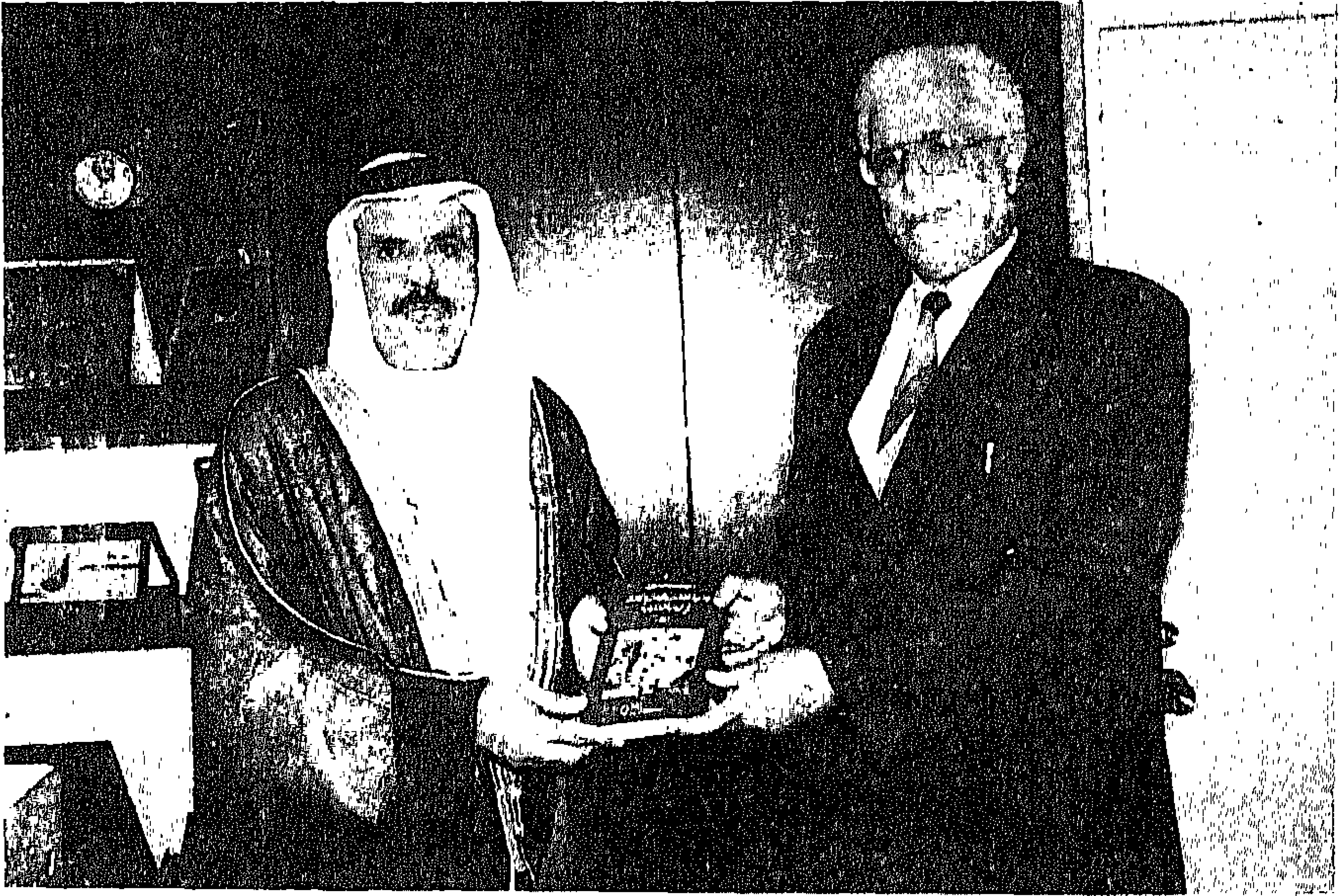
أولادي يعرفون أنني وبحمد الله أتمتع في المجتمع البحريني بمكانة يحق لي أن أعتز بها وهي لم تجئ بالصدفة ، ألم أقل مرة في مقابلة أنك إذا كنت في مجتمع وكنت غريباً في الأساس فإن سيكلوجية الغريب تتطلب منه إذا أراد أن يتواءم مع مجتمعة الجديد أن يبحث لنفسه عن دور وأن يكون هذا الدور مطلوباً وأن يكون هو مفيداً فيه ، والجانب الآخر هو السلوك والمعاملة ، يقول البدو «عرب البادية» وهم جربوا الحياة ويعرفون ثوابتها حكماً

«إن غاب عنك أصله يدلك عليه فعله»

سلوكه يكشف لهم عن جوهره ولا أنسى أن أخي وصديقي علي عبدالله خليفة قد قال في الملتقى الأهلي حين كنت في المستشفى «بالأمس زلت قدم هرم من أهرام المحرق وهو الآن في المستشفى» . . هذا التعبير نفسه ما اكتسبته بسهولة ولا قاله لي مجاملة فعندما تكون في مجتمع يجب أن تملك من طبائع الحياة ما يجعلك في نظرهم إنساناً وأعتقد أنني وبعد خبرة طويلة وجدت أن الطبقة المثقفة في البحرين على الأقل فسحوا لي في وسطهم مكاناً ووقفت فيه

ولا أحد يحاول أن ينافسني عليه لأنهم مثقفون وأنا معهم ومنهم وبينهم .

هي تجربة استوعبت دروسها الإيجابية والسلبية وأعتبر أنها خبرة أضيفت إلى خبراتي وأدت وظيفتها في كافة الاتجاهات . . وأحياناً الإنسان يحمد الله على أن يكون ما أصيب به يمكنه توظيفه في خير آت . . وهذه ، من نعم الله علي ، في البحرين التي يعبر أهلها بتعبير جميل في المرض فيقولون «أجر وعافية»



مع الصديق الوزير ماجد النعيمي



أخي الدكتور أحمد أبو رعد ، وأنا



زملاء في وزارة التربية ، صادق العلوي ، محمد الحداد ، علوي الهاشمي ،
مصطفى رجب ، محمود القيسي

(٥٠)

د. علوي الهاشمي.... وأنا... ومشاهد من باب البحرين

من مفارقات الحياة العملية التي عشتها في مراحلها المختلفة والمتنوعة ، أنني كنت أقرب إلى زملاء من زملاء وبعد فترة ابتعد الأقربون وأُقترب الأبعدون بحكم ظروف العمل .

حين كنت معلماً في مدرسة الهداية تعاقب على فيها أعداد كبيرة من المدرسين والمدراء . . ويتجدد الماء الجاري تحت جسورها سنوياً إلا أنا فقد كنت راكداً فيها دون حراك مدة ست وثلاثين سنة ونصف ، لكن من يستطيع أن يزعم أنك إن وضعت قدمك اليوم في الماء الجاري . . ستضعها غداً في ذات الماء . . أنت لا تضع قدمك في الماء مرتين . . بل أنت كأنت لست الآن هو أنت كما كنت قبل بضع دقائق أو ستكون أنت بعد بضع دقائق . . الإنسان مشروع متغير كمؤشرات عقارب الساعة . . لا تبقى ثانية ولا لثانية لكن التواصل بين اللحظات يشعرك أنها لحظة واحدة . . ونتعامل معها كأنها ثانية . .

الذي أريد أن أقوله إنني في عام ١٩٧٤م في مدرسة الهداية الخليفية القديمة . . التحق للعمل مدرسين فيها هلال الشايجي وإبراهيم غلوم . . وكلاهما من الحد ، ولأن مدرسة الهداية الخليفية قدر تعليمي على أهل جزيرة المحرق . فقد كان هلال وإبراهيم لم يمرا بها ، لم يدرسا في مدرسة الهداية الخليفية ، ولأن الهداية قدر على جزيرة المحرق ، فقد جاءا إليها مدرسين ، لمدة سنة واحدة ، حتى حين يجيء الحديث عن الهداية فيما بعد ، يكون في ذاكرة كل منهما شيء من

الهداية يتيح له أن يتحدث عنها وكأنه من أبنائها . . وقد قارب روحها . . لا يستغربن أحد أن للأمكنة روحاً ، لمدرسة الهداية الخليفية روح ينغرس في جسد كل من يمر بها ، طالباً ومعلماً أو حتى زائراً . . ولمدة عام حمل هلال شيئاً من روح الهداية . . كنت وأنا أذهب إلى شارع باب البحرين ، وكنت أسكن في القضيبية ، و كنت عازباً . . وهذا يعني إنني في عصر كل يوم أذهب إلى باب البحرين لتقطيع الوقت وقضاء بعض ما أحتاج إليه من أشياء .

وقد كان ترددي مع بعض الأصدقاء أحياناً ومنفرداً أحياناً إلى باب البحرين ستة أيام في الأسبوع أتاح لي أن أتعرف على ظواهر ثابتة في البحرين ، الظواهر لا يمكن أن تكتشف من مرة واحدة ، فلابد أن تتكرر والظاهرة بذات مواصفات ، ويلاحظها الملاحظون أكثر من مرة ، حتى يكتشفوا أنها ظاهرة ما ، أو إنها جزء من خصائص هذا المكان وسكانه . . لقد كنت ألاحظ كثيراً من الأشياء . . وأتعرف على كثير من الأشخاص وأكاد أقول أنني لا يمر بي يوم إلا وألاحظ في باب البحرين شيئاً لافتاً . .

ومن أطرف ما لاحظت إنني كنت أرى في باب البحرين شاباً التقيه دائماً . . . إما في الاتجاه الذي أسير فيه أو في الاتجاه المعاكس ، وكنت أراه عدة مرات في اليوم الواحد . . فلفت انتباهي . . وتساءلت بيني وبين نفسي لماذا ألتقي هذا الشاب يومياً ذاهباً وآيباً في شارع باب البحرين ، من قرب مركز الشرطة إلى تقاطع شارع الشيخ عبدالله . . ثم يعاود الكرة وهكذا . . وصرت مع الأيام ألاحظه بل وأسير خلفه أحياناً لأرى ماذا يعني له هذا المشوار ذهاباً وآياباً ، وكنت دائماً أستبعد الظواهر التي لا تتكرر في رحلته . . إلى أن كان يوم ورأيته في ذات المشوار وأمامه على بعد ثلاث خطوات امرأة تسير في ذات الاتجاه وتلبس ملابس أوروبيه حاسرة الرأس . . تسير ذاهبة إلى جهة هي تحددها ورأيت صاحبنا يسير وراءها . . ولا يكاد يرفع رأسه عن قفاها لأنها تسير أمامه وبقي يقتفيها إلى أن اختفت في باب البحرين جهة مركز الشرطة . . ولم يتبعها

ووقف قليلاً حتى إذا مرت امرأة ثانية في الاتجاه الآخر استدار يتبعها وهكذا ، بعد الملاحظة والدراسة اكتشفت أن صاحبنا لا عمل له في شارع باب البحرين إلا السير وراء السيدات . . والتأمل فيهن وعندما يصلن إلى شارع جانبي يذهب ويتركها في انتظار سيدة أخرى يصطحبها إلى نهاية الشارع والغريب أنه لم يكن يتبعها إذا خرجت من باب البحرين إلى أي اتجاه وبعد ذلك صرت كلما مررت بشارع باب البحرين التقيه بطبيعة الحال لكنني لا أنظر إليه بل أنظر إلى مسافة أمتار أمامه لأكتشف انه لا يخالف قاعدته التي يسير بموجبها . . لا أنظر إليه إلا وأكتشف أمامه سيدة تمشي ويمشي مركزاً على شيء فيها لا أدري ما هو . . .

وكل ما في الموضوع إن هذا المشهد استمر عقداً أو عقدين من السنوات ربما عشرين سنة ولم يقطع هو عادته تلك ، و حينما أصبحت قليل التردد على باب البحرين منذ الثمانينات ، وكنت إذا حملتني المصادفة إلى ذلك الشارع ألتقية عصراً مواصلاً ما هو فيه . . وتمر الأيام والسنوات وأكاد انقطع عن باب البحرين ، وربما بعد عشر سنوات كنت في حاجة في هذا الشارع . . ياللهول فقد لقيت صاحبنا وقد بدت عليه علامات الكهولة يواصل هذه الرحلة الأبدية . . . . !

وقبل فترة مررت بشارع باب البحرين ، وتوقفت عسى أن ألتقي صاحبنا ولكنني فشلت حتى في التعرف على شارع باب البحرين نفسه .

وفي أيام بعيدة جداً ، وكنت أتردد على باب البحرين كثيراً ما ألتقي الأستاذ إبراهيم العريض يسير الهوينى بقامته الرومانية وشخصيته اللافتة ، و عباءتة ذات اللون البني الفاتح ، و عقاله الذي يتوسط رأسه ويبتعد عن أطرافه بمسافة واحدة . . لا تميل ولا تزيد . . ويتوقف عند بائع الكتب والمجلات في الربع الأخير من باب البحرين جهة شارع الشيخ عبدالله وربما يجلس هناك . . ويتبادل الحديث مع صاحب المكتبة ، كان الموضع عنواناً لإبراهيم العريض من أراد أن يلتقيه ينتظره هناك . . ومن معالم الشارع متجر لشخص بحريني ، تعرفت عليه أول ما وصلت إلى البحرين ، ونشأت بيننا معرفة وثيقة كان يبيع الساعات وهو

الأخ عبدالرسول الصفار . . وكان ما يزال عازباً ، ونجلس نتحدث عن أمور الحياة وفي نهاية العام كنت آخذ من متجره ساعات لأهديها إلى أصدقائي وأهلي ولم أكن أدفع له ثمنها في ذلك الوقت بل أقول له عندما أعود أدفع لك الثمن وكان عبدالرسول يقول لا تدير بال . . وعندما أعود بعد الصيف أقسط له أثمانها . . وكانت رواتب المدرسين آنذاك لا تتجاوز الخمسين ديناراً أو الستين ديناراً وكنت أعجب كيف يتعامل عبدالرسول معي بهذه الروح ومن يدريه إنني سأعود ، وربما تضيع فلوسه . . لم يكن يفكر في شيء كهذا ، بل كان طيب النفس سمحاً ، وأحمد الله إنني تمكنت من إيفائه كل حقوقه . . وبقينا أصدقاء إلى الآن . . وكل منا تأخذه السنون مأخذها وتحول بعد ذلك ليصير صرافاً ثم في آخر علمي به هو يبيع قطع غيار سيارات في شارع القلعة . وأذكر من طرائف الصفار انه حين أراد أن يتزوج ذهب إلى مصر لذلك ، وعاد وقد تزوج وذات يوم حدثني قائلاً :

لما أردت أن أتزوج من مصر ، قلت لهم بعد التعارف . . والحديث في الموضوع . . أنا أعيش حياة بسيطة في برستي من سعف النخيل هذه كل إمكانياتي . . وقد قبل بها أهل زوجتي وزوجتي . . وبعد ذلك قالت الزوجة . . اللي أنت فيه أنا أقبله ، وقال ضاحكاً : ولما وصلنا البحرين وذهبت إلى منزلي بسيارتي استغربت وقالت لما ذا إذن قلت ما قلت . . قلت لها : أن تجدي عندي فوق ما تتوقعين أفضل من أن تفاجئي بأنني قد زينت لك الأمور وأبدو كاذباً .

وعلى أية حال فإن أبو مازن الصفار عاش ويعيش حياة هانئة . . ولقد التقيت بإحدى بناته في الجامعة تلميذة . . وتخرجت . . وكنت دائماً أشعر بالإعجاب بذلك الرجل الذي استمرت معرفتي به هذه السنوات الطويلة وحتى الآن .

في السبعينات كنت أمر بشارع باب البحرين ، وأنا ذاهب من باب البحرين الشمالي إلى شارع الشيخ عبدالله هناك تاجر عطورات كنت غالباً ما أرى علوي

الهاشمي عنده ، و أحياناً كثيرة ألتقي بعلوي وإبراهيم غلوم معاً في ذات المتجر وكنت على علاقة وثيقة بإبراهيم وبدأت أتعرف على علوي الهاشمي . . وكنت أعرفه من وسط الأدباء والكتاب ومن الأمسيات الشعرية التي يشارك فيها لكن لم تكن قد نشأت بيننا معرفة وثيقة أو صداقة وفي سنة ١٩٧٥م حمل الثلاثة عصا الترحال واتجهوا إلى إنجاز الدراسات العليا . . إبراهيم إلى معهد الدراسات العربية وعلوي إلى جامعة القاهرة وهلال إلى الأزهر ، واستمرت بهم هذه الرحلة إلى أن عادوا بعدها وفي فترات مختلفة . . وقد أنجزوا الماجستير ثم الدكتوراه ثم التحقوا بجامعة البحرين . وفي عام ١٩٧٩م كنت أحرر الصفحة الأدبية في المسيرة وكان علوي يشرف على « ثقافة « في أخبار الخليج وذات يوم وقعت بيننا « ملاسنة أدبية « سأرويها في موقع آخر .

كنت قد استدعيت من قبل الدكتور هلال عميد كلية الآداب وأخذت أدرس بعض المواد في الجامعة لأسد نقصاً كان في الهيئة التدريسية واقتربت من الدكتور هلال بشكل كبير جداً وكذلك الدكتور إبراهيم غلوم وكذلك الدكتور علوي . . . . . .

عندما افتتحت جامعة البحرين برنامج الماجستير كان الثلاثة وصار علوي من المؤسسين له . يدرس مادة الإيقاع بجانب ما يدرسه في مستوى البكالوريوس وصار هلال يدرس إعجاز القرآن الكريم بجانب ما يدرس في مستوى البكالوريوس . . وكان إبراهيم غلوم على علاقة كبيرة بهذا البرنامج . . وكان هلال عميداً لكلية الآداب وتستمر الأمور ويدرسني هلال مادة إعجاز القرآن قبل أن يحولها إلى عفت الشرقاوي . . . . ويدرسني علوي مع بقية أفراد البرنامج الإيقاع الشعري . . . .

وهنا بدأت العلاقة تتوثق مع علوي بالإضافة إلى أنها من الأصل وثيقة مع إبراهيم وهلال ، وفي مؤتمر النقد الأدبي الذي نظمته جامعة البحرين شكل علوي فريقاً إعلامياً لتغطية المؤتمر لحساب الصفحة الثقافية وكنت فرداً في ذلك

الفريق وتستمر بيننا في الزمالة في جامعة البحرين إلى أن كان عام ٢٠٠١م لتبدأ رحلتي الأخرى مع علوي في مجلة ثقافات وقد سعى بجد الى الحصول على موافقة الجامعة وكان يرأسها الدكتور محمد الغتم وحصل علوي على إجازة لإصدار تلك المجلة الثقافية وقد اختار بعد الإجازة الطاقم الذي سيساعده على إنجاز هذه المهمة الصعبة والمعقدة .

لم تكن مهمة إصدار مجلة ثقافية بالأمر الهيّن ، و خاصة أنها تصدر من فضاء أكاديمي يفترض أن يحتوي على نخبة من المثقفين والكتاب والأدباء وهذا لا يسمح بالتساهل في المستوى .

وقد حشد علوي رئيس التحرير لها عدداً من الكتاب من طاقم الجامعة ، أولاً وجعل لها مجلس إدارة وهيئة استشارية ثم هيئة تحرير .

و قد حرص على أن لا يكون في هيئة التحرير إلا أعضاء لهم إبداعاتهم المنشورة بشكل أو بآخر وكانت هيئة التحرير كالتالي :

علوي الهاشمي	رئيس التحرير
منذر عياش	نائباً للرئيس
عبدالحميد المحادين	مدير التحرير
مي مظفر	أمينة للتحرير
رافع الناصري	استشارياً فنياً
سميره بن عمو	عضواً
عبدالكريم حسن	عضوا
بسيوني عبدالرحمن	عضوا
ابراهيم غلوم	عضوا
منيرة الفاضل	عضوا
عبدالقادر فيدوح	عضوا
أحمد المناعي	عضوا

ثقافات – مجلة ثقافية فصلية تصدر عن كلية الآداب – جامعة البحرين .

وقد صدر العدد الأول بعد حمل ومخاض وولادة ، وكتبت هيئة التحرير في داخل الغلاف الأول مقتبساً من أنشودة سومرية :

ديلمون أرض مقدسة ، أرض طهور
على أرض ديلمون المقدسة الطهور
لم ينعب الغراب ، ولم يفترس الأسد
لا أحد يمرض ، لا أحد يقول
عيني تؤلمني . . . رأسي يوجعني
لا أحد يشيخ ، و لا أحد يقول :
المرأة تصبح عجوزاً ، الرجل يصبح كهلاً ،
وبعد أن بارك انكي أرض ديلمون
بالماء العذب ، و منحها كل فواكه الأرض ، أنشد :
دع الشمس في السماء تجلب الماء العذب
من الأرض ،
دع ديلمون تشرب تلك المياه الفياضة
دع آبار ديلمون
تصبح عيون الماء العذبة
دع حقول ديلمون تنتج القمح والحبوب
دع مدينة دلمون تصبح ميناء العالم كله .

وصدر العدد الأول في شتاء ٢٠٠٢م ، وكان من كُتاب العدد الأول :

إبراهيم غلوم ، عبدالسلام المسدي ، كمال أبو ديب ، أدونيس ، قاسم حداد ، عبدالكريم حسن ، فوزية السندي ، منيرة الفاضل ، محمد عبدا لملك ، مع حوار مع إبراهيم العريض أجراه الدكتور علوي الهاشمي وعبدالحميد المحادين ولقاء مع عز الدين إسماعيل ومقال مطول لبرهان غليون ، مراجعة لفخري

صالح ، وقراءة في كتاب لمنذر عياش . . . . الخ .

وكتب رئيس التحرير علوي الهاشمي في مقدمة العدد الأول :

«ثقافات تتعلق بالشمس والحرية والزمن الأجمل»

وجزء من ثقافات يتم تحريره باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، وقد وازنت ثقافات بين خصوصية الوطن العربي الذي تصدر فيه وخصوصيات العالم الذي تتوجه إليه ، ولم تكن ثقافات هي الحقل الأول الذي أتعاون فيه مع علوي الهاشمي ، فقد تعاونت معه في مناسبات مختلفة ، منها تغطية مؤتمر النقد العربي في جامعة البحرين عام ١٩٩٤م وكثيرا ما ألتقي به في حضرة الأستاذ إبراهيم العريض ، ومعنا الأخ منصور سرحان ، لكن في ثقافات كان التعاون أكثر عمقاً وكانت العلاقات مع علوي الهاشمي أكثر قرباً ، وقد تكشف من شخصيته جوانب ما كنت أعلمها فهو شديد الالتزام بأي مشروع يسعى لإنجازه ، وكانت ثقافات من هذه المشاريع التي أحاطها علوي بكل عناصر النجاح بل كان يحيطها بالرعاية والحنو ويدافع عنها وييسر لها سبل الدعم والنجاح من حيث مستوى الكتابات أو مستوى التمويل ، و كان علوي الهاشمي لا يغفل صغيرة أو كبيرة من شئون « ثقافات « فهو يتابعها بشكل متحمس وسخي ، حيث إنني كنت أشكو إليه أحياناً من أنه لا يترك لي عملاً أقوم به كمدير تحرير بل ينهض تقريباً حتى بمهمات إدارة التحرير ، ويتابع الإنتاج ويرى المراسلات ، ويتأكد من كل مستوى المقالات المقترح نشرها ، وكان يستعين بالذين يتعاونون معه استعانة مفرطة ، من حيث تكليفهم جميعاً بقراءة المقالات وإبداء الرأي والوصول إلى أدق القرارات ويحرص على ثقافات كأنها الابن الذي يحتاج إلى الرعاية وكان الذين يتعاونون معه يؤدون واجبهم بسخاء وجدية وكرم علماً بأن هيئة التحرير لم تكن تتلقى أية مكافآت على ما تفعل . . وكان ولاؤهم للجامعة والبحرين ، وللثقافة وحبهم لعلوي هو الحافز الذي يجعل منهم هيئة تحرير منتجه .

عشرون عدداً بالتمام والكمال أصدرتها هذه المجموعة بقيادة علوي الهاشمي ، وقد مر بالجلة بعض الأوقات العجاف ، وعانت من بعض الصعاب وشح التمويل أحياناً قياساً بالمسؤوليات التي اتسعت ولمستوى كتابها الذين هم جديرون بمكافآت لائقة ، ومع ذلك واصلت ثقافات إلى عددها العشرين واستضافت أسماء كثيرة وشعراء مشاهير وكتاباً لهم شأنهم ، و بحسبها أنها حاورت أدونيس وعز الدين إسماعيل واستكتبت صلاح فضل وكمال أبو ديب وحاورت سميح قاسم والشاعر مظفر النواب وآخرين وآخرين .

وبعد العدد العشرين . . أنتقل الدكتور علوي الهاشمي إلى موقع الأمين العام لمجلس التعليم العالي وكانت مرحلة جديدة دخلت إليها ثقافات بعد أن أنفض مجلس تحريرها . . وأصبحت في حيازة الدكتور إبراهيم غلوم رئيساً لتحريرها وغير إلى حد كبير شخصية ثقافات وأدخلها في تجربة أخرى ، نتمنى لها النجاح والاستمرار .

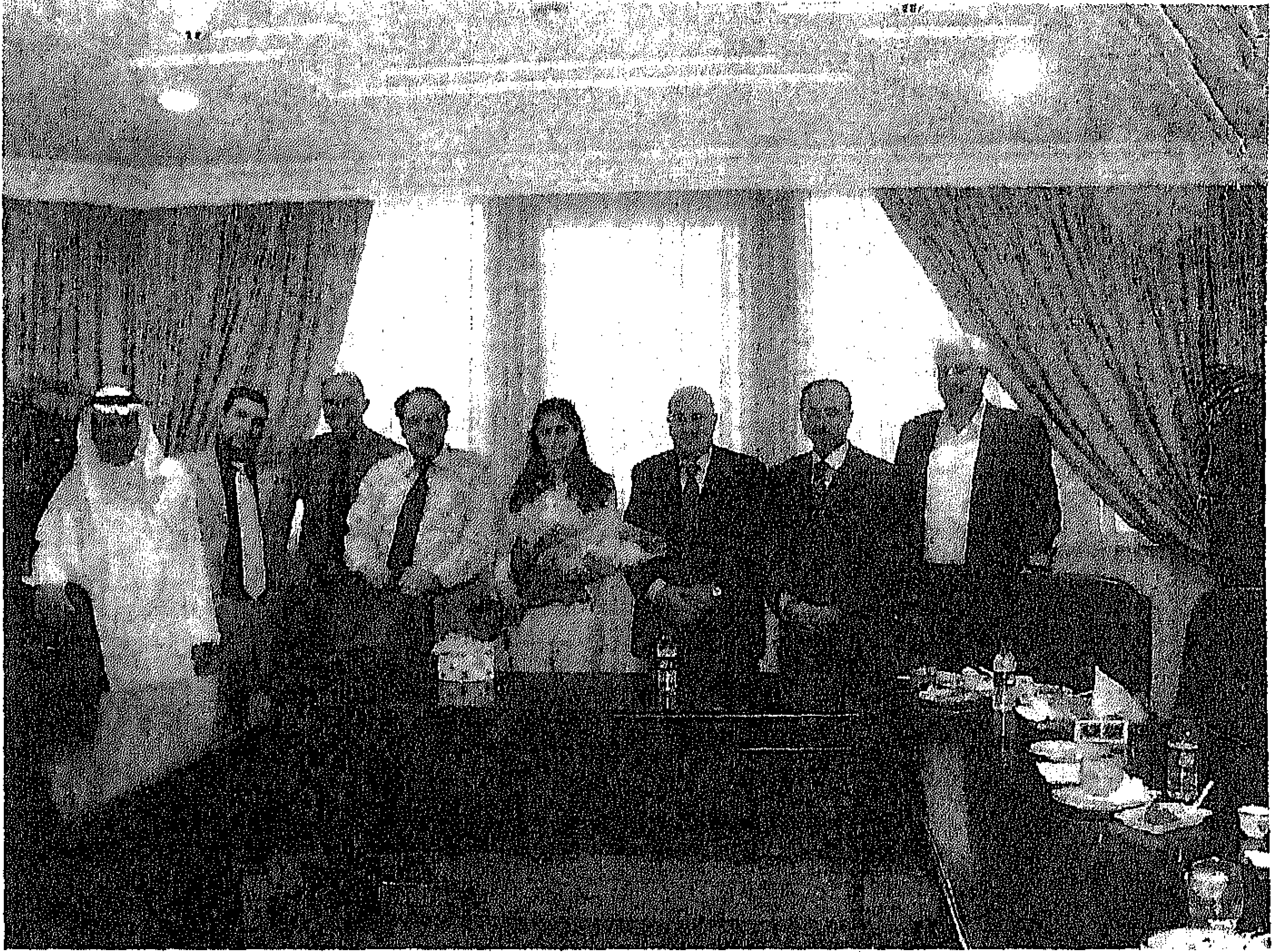
وإنها لمسألة قدرية فقد لحقت بالدكتور علوي الهاشمي في الأمانة العامة لمجلس التعليم العالي وأصبحت مسئولاً عن الجانب الإعلامي ، و الحقيقة إنني كنت في غاية السعادة حين يتجدد عهدي بالأخ علوي في موقع آخر وجدته فيه كما أعرفه نموذجاً في الحماس والشعور بالمسؤولية ، ولقد كبر العبء وصارت الجامعة جامعات ، وصار في موقع هو تحت الضوء بطبيعة الأمور وقد تحمل المسؤولية الجديدة بذات الدقة والتفكير البناء والإدارة الواعية والسمحة والخلق الكريم الذي عهدناه وعهده فيه كل من تعامل معه .

إنها مسألة قدرية كما أظن ، وها أنا في كل موقع من المواقع أكون مع أحد هؤلاء الأصدقاء الذين الفتهم وأعجبت بهم وتبعت خطاهم ، و تتلمذت عليهم أيضاً .

وها أنا في أمانة التعليم العالي . . وقد صحبت في فترة من العمل أخاً وصديقاً الدكتور أحمد أبو رعد الذي تزاملت معه في جامعة البحرين أكثر من

خمسة عشر عاماً . . وشاءت الظروف أن نكون معاً مرةً أخرى في الأمانة العامة لمجلس التعليم العالي ، ولم يواصل أبو مأمون نفس الرحلة فقد قيظ الله له عملاً آخر إلتحق به ، وكلنا نتمنى له السعادة والصحة .

هذه لمحات من رحلتي مع مواقف مختلفة ومع أصدقاء أعتز بصحبتهم وأجد نفسي معهم ، ومنهم أخي الصديق المحب النزيه . . الدكتور علوي الهاشمي . . فعليه سلام الله .



طاقم الامانة العامة يحتفي بالدكتوره سماء علوي الهاشمي بمناسبة تخرجها



في جامعة البحرين ، فاطمة العريض ، ماجد النعيمي ، علوي الهاشمي وعبدالحميد المحادين



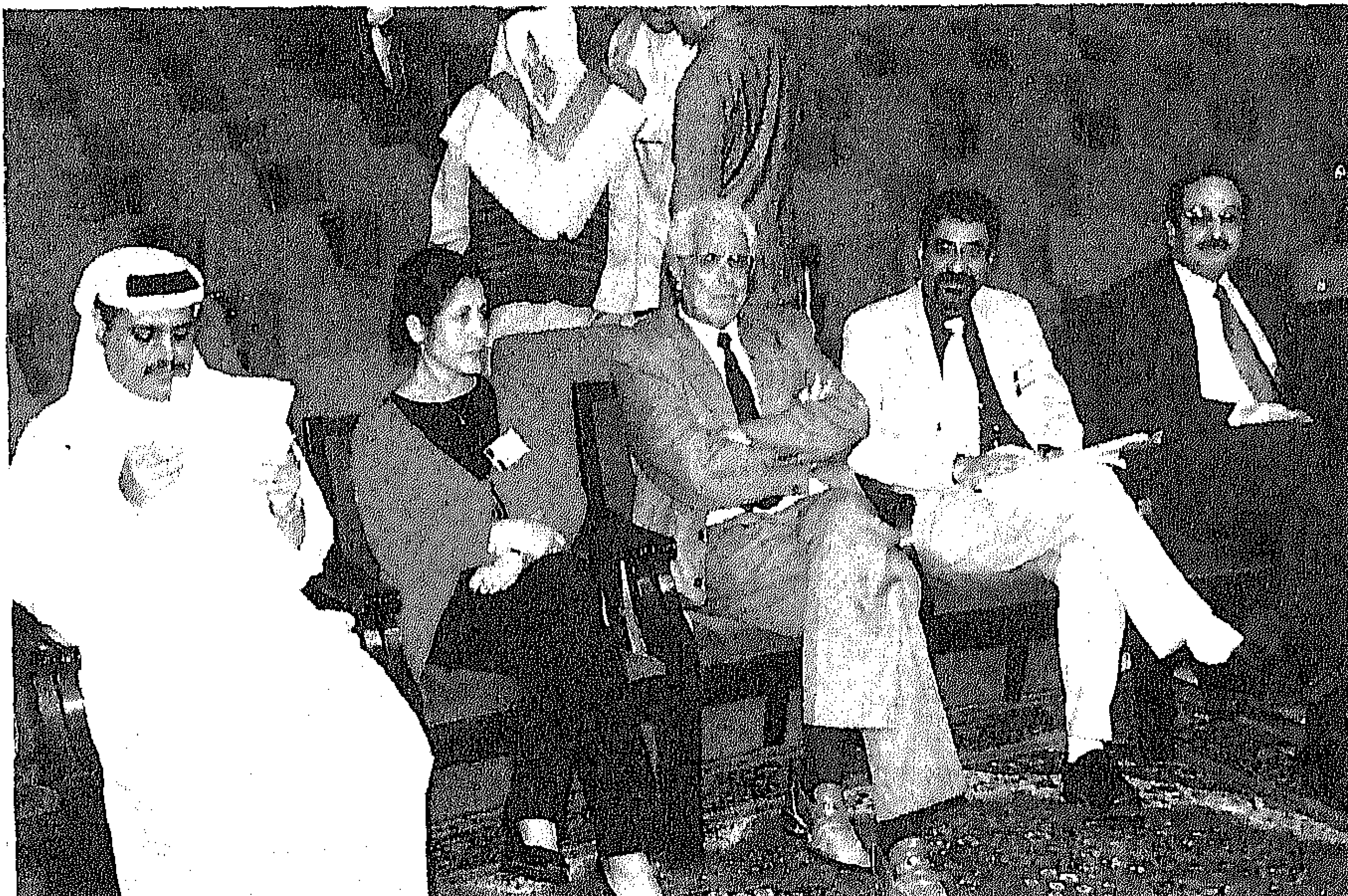
في جامعة البحرين



في حفل تكريم فاطمة العريض ، ويبدو في الصورة مريم الخليفة وعلوي الهاشمي



عبدالقادر فيدوح ، عبدالحميد المحادين ، سميح القاسم ، علوي الهاشمي



علوي الهاشمي ، عبدالقادر المرزوقي ، المحادين ، رفيقة رجب عدنان التميمي



مع إبراهيم العريض

السيرة الذاتية:

الاسم : الدكتور عبد الحميد سالم المحادين

الميلاد : الكرك - الأردن

التعليم:

* الدراسة الثانوية - مدرسة الكرك الثانوي - الأردن .
* دبلوم معلمين - عمان - الأردن .
* ليسانس آداب - بيروت ١٩٧٢ .
* دبلوم دراسات إسلامية القاهرة ١٩٧٥ .
* دبلوم ماجستير - القاهرة ١٩٧٦ .
* ماجستير آداب - البحرين ١٩٩٧ .
* دكتوراه - القاهرة ٢٠٠١ .

المؤلفات:

* الهداية بين ١٩١٩ - ١٩٤٨/ ١٩٦٩ .
* رؤية في الظل ١٩٨٣ .
* نوافذ ١٩٨٥ .
* رجال وآفاق ١٩٨٩ .
* رومانسية السخط (مشترك) ١٩٩٠ .
* أوراق من دفتر التعليم ١٩٩٥ .
* رجال كانوا هنا (مشترك) ١٩٩٥ .
* التقنيات السردية في روايات عبد الرحمن منيف ١٩٩٩ .
* جدلية الزمان والمكان في الرواية الخليجية ٢٠٠١ .

* من ذاكرة البحرين ٢٠٠٧ .
* خطوات باتساع الأفق ٢٠١٠ .
* الخروج من العتمة ٢٠٠٣ .
* صوى .
* مؤابيات .
* البدايات الأولى – مجلة هنا البحرين .

البحوث :

* اللغة العربية والعولمة .
* الإعلام العربي والعولمة .
* المشهد الثقافي في البحرين .
* قصيدة النثر في الخليج العربي .

المهمات الحافية :

* مشرف الباب الثقافي في مجلة المسيرة ١٩٧٩ .
* مشرف الباب الثقافي في مجلة صدى الأسبوع ١٩٨٢ .
* مشرف الباب الثقافي في مجلة بانوراما ١٩٨٤ -١٩٩٢ .
* عضو هيئة التحرير في مجلة البحرين الثقافية ١٩٩٤ -٢٠٠٢ .
* عضو هيئة تحرير في مجلة البحرين الخيرية .
* مدير تحرير في مجلة ثقافات – جامعة البحرين .
* عضو هيئة تحرير في مجلة أوان – جامعة البحرين .

اللجان العاملة :

* عضو اللجنة الثقافية في جامعة البحرين .
* عضو اللجنة الثقافية والبحوث في الملتقى الأدبي الأهلي .
* عضو لجنة تقييم المطبوعات البحرينية منذ عام ١٩٨٤ .
* عضو اللجنة الإعلامية في جمعية البحرين الخيرية .

* عضو لجنة اختيار الكتب وإعداد المكتبة في وزارة التربية والتعليم منذ ١٩٨٨ .

التدريس:

* مدرس في مدرسة الهداية الخليفية منذ ١٩٦٠ حتى ١٩٩٦ .
* التدريس في جامعة البحرين – ساعات جزئية منذ ١٩٨٩ .
* محاضرات في دبلوم المعلمين الابتدائي التابع لإدارة التدريب .
* محاضرات في دورة تقوية معلمات المدارس الخاصة .
* شارك في تأليف ٣ كتب من كتب الساعات المعتمدة لوزارة التربية والتعليم .
* التدريس في جامعة البحرين منذ ١٩٩٧ .
* أستاذ مساعد في جامعة البحرين منذ ٢٠٠١ .

المهام الإدارية :

* عميد شئون الطلبة في جامعة البحرين منذ ٢٠٠٢- ٢٠٠٤ .
* خبير إعلامي في الأمانة العامة للتعليم العالي ٢٠٠٧ .

الميداليات وشهادات التقدير :

* ميدالية المعلم المتميز من سمو الأمير المعظم عام ١٩٨٧ .
* ميدالية الخدمة الطويلة ٣٠ سنة من سمو الأمير المعظم .
* شهادة تقدير رواد العمل الوطني من سمو الأمير المعظم عام ١٩٩٧ .
* شهادة تقدير من وزير الإعلام ١٩٩٣ .
* شهادة تقدير من وزير التربية والتعليم ١٩٨٧ .
* شهادة تقدير من وزير التربية والتعليم ١٩٨٥ .
* شهادة تقدير من وزير التربية والتعليم ١٩٨١ .
* رسالة شكر من وزير التربية والتعليم ١٩٨٣ .
* حافز من وزير التربية والتعليم ١٩٨٩ .

* حافز من وزير التربية والتعليم ١٩٨١ .

مساهمات ثقافية:

* المشاركة في كتاب الثقافة في البحرين في ٣٠ عاماً ١٩٩٢ .
* المشاركة في ملتقى طرفة بن العبد ١٩٩٨ .
* المشاركة في ملتقى الشعر العربي في الخليج سنة ١٩٩٧ .
* المشاركة ببحث في ملتقى القرين في الكويت عام ١٩٩٨ .
* المشاركة ببحث في ملتقى عبد الله الزايد الأدبي عام ١٩٩٨ .
* المشاركة في كتاب البحرين والإشعاع الثقافي ١٩٩٦ .
* عضو شرف في أسرة الأدباء والكتاب .
* عضو مؤسس في الملتقى الثقافي الأهلي .

مساهمات مختلفة:

* محاضرة في جمعية آثار البحرين ١٩٩٩ .
* محاضرة في مسرح الجزيرة ٢٠٠١ .
* محاضرة في ملتقى الأيام ٢٠٠١ .
* إدارة عدد من اللقاءات والندوات في ملتقى الأهلي الثقافي .
* المشاركة في أكثر من ندوة أدبية .
* نشر في معظم الصحف والمجلات الثقافية مقالات وقصائد .
* أجرى عشرات اللقاءات مع شخصيات اجتماعية وسياسية وثقافية ونشرت في أكثر من منبر أدبي .
* شارك في إعداد برنامج قناص الكلمة في التلفزيون البحريني .
* شارك في لقاءات كثيرة في التلفزيون والإذاعة والصحافة المحلية والعربية .
* أجريت معه عشرات اللقاءات والمقابلات .

* ألف نشيد عيد العلم سنة ١٩٨٣ .
* ألف نشيد العلم سنة ١٩٨٤ .
* شارك في التحكيم في مسابقة القصة القصيرة في مركز سلمان الثقافي .
* ساهم في تحكيم مسابقات وزارة التربية والتعليم .
* الإشراف والتدقيق اللغوي على عدد كبير من مؤلفات بحرينية .
* أدار ندوات كثيرة في جامعة البحرين وخارجها .
* نشر أشعاراً في دوريات ثقافية عربية .
* نشر عدداً من القصص القصيرة في مجلات عربية .
* نشر مقالات عديدة في صحافات عربية كثيرة .
* حكّم عدداً من المقالات والبحوث لجهات بحثية مختلفة .
* كتب أوبريت عاش حمد .

الحالة الاجتماعية:

* متزوج وله ٦ أبناء (٤ أولاد وبنتان) .
* يقيم في البحرين منذ ١٩٦٠ ويحمل جنسيتها .

FROM KARAK TO MOHARRAQ

كتاب البحرين الثقافية

سيرة AUTOBIOGRAPHY

من الكرك إلى المحرّق

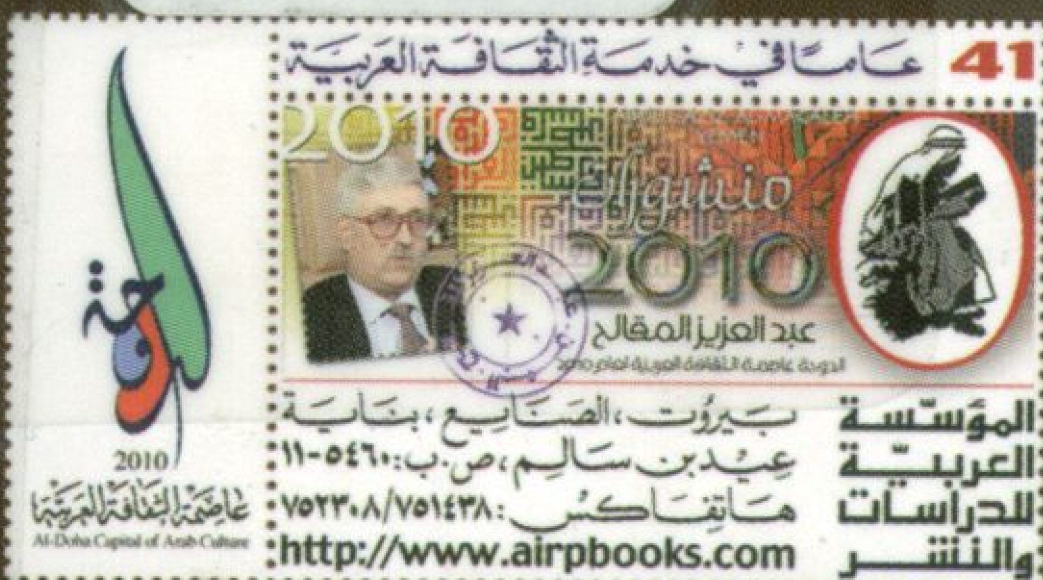
مؤاب - ديلمون

هذه المنطقة ، التي ولدت فيها ، تقع في غرب الصحراء الأردنيّة ، تطلّ على البحر الميّت من الشرق .. سلسلة جبال ترتفع ١٠٠٠ متر عن سطح البحر ، والبحر الميّت ينخفض ٤٠٠ متر عن سطح البحر ، تشرف عليها ، من الشرق ، بيوتنا التي بنيت على آثار مدن شديدة العراقة .. لا نعرف تاريخيًا متى بنيت . جدرانها ضخمة نسمّيها الجدران الرومانيّة ، وبالتالي فأقلّ هذا التاريخ شأنا هو الشأن الذي نحن فيه .

« موسى ، عليه السلام ، خرج من مصر عن طريق سيناء ، ودخل جنوب الأردنّ ، ثمّ توجّه إلى الشمال مارًّا بالمنطقة التي أتحدّث عنها : منطقة الكرك ، وبها أماكن ذكرت في القرآن (الوادي المقدّس طوى) ، وعندها بئر مدين الذي جاءه موسى وسقى لبنات شعيب منه ، كما مرّ ذكر البحر الميّت في العهد القديم . هذه بعض معالم الكرك ، ولأمر ما أصرّ زعماء إسرائيل على توقيع معاهدة الصلح مع الأردنّ في موقع محدّد من وادي عربة ، واضطرّوا كلينتون ، رئيس الولايات المتّحدة ، إلى الذهاب هناك ، رغم أنّ الرمل قد غطّى وجهه مع وجوه الحاضرين .

يمكننا أن نقول إنّ الكرك بها حضارة عريقة ، وعدد سكّانها كان ٥ ملايين ، وبها من العلماء العشرات بل المئات ، وبها مدارس تكاد تكون جامعات ذاك الزمان . كلّ ذلك ذهب واندثر ، ولم يبق منه إلاّ هذه الأرض التي تعيش حياة شبه بدائيّة .






ISBN 978-99958-0-084-5
9 789995 800840



مملكة البحرين
وزارة الثقافة والإعلام
الثقافة والتراث الوطني